

الإشارات الإلهية

لأبي حيان التوحيدي

♦ المؤلف: أبو حيان التوحيدي

♦ العنوان: الإشارات الإلهية

♦ المحقق: خميس حسن

♦ الطبعة: الأولى 2018

♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي



رقم الإيداع:

٢٠١٦ / ٢٦٨١٣

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977 - 765 - 088 - 5

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة - من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ١١١١٦٠٢٧٨٧

الإشارات الإلهية

لأبي حيان التوحيدي

تحقيق

خميس حسن

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

التوحيدي، أبو حيان.

الإشارات الإلهية: لأبي حيان التوحيدي - تحقيق: خميس حسن

ط1 القاهرة - آفاق للنشر والتوزيع - 2018

424 ص، 24 سم.

رقم الإيداع 26813 / 2016

الترقيم الدولي 5 - 088 - 765 - 977 - 978

1 - تراث

أ - التوحيدي ، أبو حيان

ب - العنوان

مقدمة التحقيق

في تاريخ الأدب والفكر شخصيات ظلمها الناس، ونسبوا إليها من القول والفعل ما لم ترتكب وما لم تقل، كما ضخموا ما قالت، وحملوه أكثر مما يحتمل شرحاً وتأويلًا، وتحاملوا عليه كثيرًا، وإذا ظهر عكس ما قالوا وأرادوا بادروا إلى إخفائه وغمره بأساليب يستطيعون دائمًا أن يحبكوها حبكًا، وأن يصوغوها بأشكال وتعابير من شأنها طمس الحقيقة وغمرها. وفي تاريخ الفكر الإسلامي نماذج كثيرة من شخصيات مظلومة، وأخرى تمكن أنصارها ومريدوها أن يبؤوها مكانة، ربما لو خضعت للنقد والتمحيص ما كان لها أن تكون في تلك المكانة.

وأبو حيان التوحيدي واحد من هؤلاء الناس الذين ظلموا في حياتهم ولم يجدوا لهم المكانة التي تناسبهم، ولا حقهم هذا الظلم حتى بعد مماتهم، لقي الأهوال من الأحياء، وعرف الشقاء الذي لا يستحقه، بينما وجد النافهين يرتفعون إلى أعلى مراتب الرياسة والشرف في الدنيا. وسعى ما استطاع لطلب المثالة بين الناس، «ولعقد الرياسة بينهم ولمد الجاه عندهم»^(١) فحرم ذلك كله، ومما زاد شعوره بالألم أنه طلب المجد عند أناس مهنتهم مهنته، أعني حرفة الأدب ولكنهم بلغوا مراتب الوزارة، وهو لم ينل إلا البؤس والحرمان، وظن أنهم أقدر الناس على معرفة قدره فلم يلق منهم إلا كل نكران وتحقير وإهانة

(١) ياقوت الحموي - معجم الأدباء ج ٥ ص ١٩٣٠.

لكل كرامة. حتى أنه قال عن نفسه نادبًا حظه من الدنيا وكأنه يحاول التخفيف عن نفسه: «ما ظننت أن الدنيا ونكدها تبلغ من إنسان ما بلغ مني، إن قصدت دجلة لأغتسل منها نضب ماؤها، وإن خرجت إلى القفار لأتيمم بالصعيد صار صلدًا أملس»^(١). وزاد من حقد التوحيدي، وتشاؤمه من الحياة، ما لاحظته من انصراف الناس عنه، وقسوة الحياة عليه، فلم يلبث أن أحرق ما لديه من مصنفات، ضنًا بها على من لا يعرف قدرها بعد موته! وقد كتب إليه القاضي أبو سهل علي بن محمد، حوالي سنة ٤٠٠ هـ، رسالة يعذله فيها على سوء هذا الصنيع، ويعرّفه قبح ما اعتمد من هذا الفعل الشنيع، فكتب إليه أبو حيان كتابًا ضافيًا يعتذر عن فعلته، ويحاول في الوقت نفسه تبرير مسلكه.

وقد بدأ التوحيدي رسالته بقوله: «إن كان- أيّدك الله- قد نقب خُفّك ما سمعت، فقد أدمى أظلي ما فعلت، فليهنّ عليك ذلك، فما انبريتُ له، ولا اجترأتُ عليه، حتى استخرتُ الله عزَّ وجلَّ فيه أيّامًا وليالي، وحتى أوحى إليّ في المنام بما بعث رافد العزم، وأجدّ فاتر النية، وأحيا ميت الرأي، وحثّ على تنفيذ ما وقع في الرُّوع وتربّع في الخاطر. وإنما أجود عليك بالحجة في ذلك إن طالبت، أو بالعذر إن استوضحت؛ لثقت بي فيما كان مني...»^(٢). وسنعود للكلام عن إحراق أبي حيان لكتبه لاحقًا بعد أن نتعرف ونقترب أكثر من أبي حيان التوحيدي.

نسبه:

أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس، ما وصلنا من معلومات عن حياته- بشقيها الشخصي والعام- قليل ومضطرب، ولا يعدو الأمر أن يكون ظنًا وترجيحًا؛ أما اليقين فلا يكاد يتجاوز ما ذكره أبو حيان بنفسه عن نفسه في كتبه ورسائله، ولعل هذا

(١) ياقوت الحموي - معجم الأدباء، ٥: ١٩٢٦.

(٢) المرجع السابق (٥: ١٩٢٩).

راجع إلى تجاهل أدباء عصره ومؤرخيه له، وهو موقف أثار استغراب ياقوت الحموي واعترف في ترجمته لأبي حيان بأننا نجعل تماماً أصله ونشأته، خصوصاً وأن «أحدًا لم يذكره في كتاب ولا دمج في خطاب وهذا من العجب العجائب»^(١) وحدا به إلى النقاط شذرات مما أورده التوحيدي في كتبه عن نفسه وتضمينها في ترجمة طويلة نسبياً شغلت عدة صفحات من معجمه، ولم يكتف بهذا بل لقَّبه أيضاً بشيخ الصوفية وفيلسوف الأدباء؛ ربما كنوع من رد الاعتبار لهذا الأديب. يقول ياقوت الحموي في ترجمته له: «شيرازي الأصل، وقيل نيسابوري، ووجدت بعض الفضلاء يقول واسطي»^(٢) وكلامه هذا يدل على أنه فارسي الأصل، وقد تناقل القدماء والمحدثون هذا الكلام، فذهب السيوطي إلى أنه فارسي، وذهب الدكتور زكي مبارك إلى أنه فارسي الأصل^(٣) وكذلك حسن السنديوني في مقدمته لكتاب «المقاسبات» للتوحيدي الذي قام بتحقيقه.

وهناك فريق آخر يميل إلى أنه عربي الأصل، منهم الأستاذ محمد كرد علي، الذي استند في ذلك إلى مجموعة من الأدلة منها أن اسم أبي حيان التوحيدي واسم والده وجده ليس فيه أسماء فارسية، كما أن أبا حيان التوحيدي لم يكن يعرف اللغة الفارسية ولا يوجد في كتبه ما يدل على أنه فارسي. كما لم يذكر عنه تعصبه للفارسية في فترة انتشر فيها الافتخار بالفارسية، وكانت حركة الشعوبية في أوج نشاطها، بل على العكس من ذلك عُرف عنه حبه للعربية وتعصبه لها ضد الفارسية^(٤).

ويسوق الدكتور زكريا إبراهيم دليلاً آخر حيث يقول: «وأما القائلون بعربيته فإنهم يؤكدون أنه ليس في مؤلفاته ما يشير إلى فارسيته، فضلاً عن أنه لو كان يمتُّ إلى فارس بصلة النسب، لباهى بذلك في عصر كانت الدولة فيه للفرس، وكانت

(١) ياقوت الحموي - معجم الأدباء (٥: ١٩٢٤).

(٢) السابق: (٥: ١٩٢٣).

(٣) النثر الفني في القرن الرابع - زكي مبارك، ص ٣٥١.

(٤) أيمن علي عبد اللطيف - عبقرية النثر الفني ص ٣٠.

صلته بأمرائهم وحكامهم في القرن الرابع أمله وهدفه. على أننا نلاحظ أن أبا حيان قد زار بلاد فارس، وكتب رسالة «في العلوم» وجّه فيها رسالة إلى الفارسيين فقال: «أطال الله بقاءكم، وجعل

حظ الغريب السلامة بينكم، إذا فاتته الغنيمة منكم. وبعد فإنني لم أَرِدْ بلادكم من العراق مبايهاً بكم، ولا حضرت مجالسكم طاعناً فيكم»، ولا تأخرت عنكم متطاولاً عليكم... إلخ» ووضح من هذه العبارات أن أبا حيان كان يعتبر نفسه غريباً في بلاد الفرس، ولو أنه كان فارسي الأصل، لانتهاز هذه الفرصة للتقرب من الفارسيين أو التودد إليهم^(١).

ويميل بعض الباحثين إلى القول بأن التوحيدي كان من أولئك الموالي الذين اختلطت فيهم الدماء والعناصر، فكانت مزيجاً غريباً. على أنه كان يشعر بواشجة قربى مع الغرباء والأفاقيين، حتى أنه كان لا يخالط إلا الغرباء والمجتدين الأدياء الأُردباء، وما هذا إلا لشعوره بأنه واحد منهم، إذ كان يرتد إليهم، مهما زجره عن ذلك زاجر من كبار القوم. وأصحاب هذا الرأي يستنتجون أنه من المرجح أن يكون أبو حيان فارسي الأصل، مع احتمال دخول عناصر أخرى في تكوينه العنصري^(٢).

مما سبق نستنتج أن الباحثين، قديماً وحديثاً، لم يصلوا إلى رأي قاطع، ولم يتفقوا على رأي واحد فيما يتعلق بنسب التوحيدي وأصله. ولعل التوحيدي كان يدرك هذه الحيرة عند معاصريه حول نسبته فهو لم يتكلم أو يشير في كتبه أية إشارة إلى أسرته، كما لا نلتقي في تضاعيف مصنفاته بأية قرينة نستدل منها على لقبه. وهذا ما حدا ببعض الباحثين إلى القول بأن الرجل كان يعلم أنه نشأ من أسرة رقيقة الحال، عديمة النسب والحسب، فلم يجد داعياً للحديث عن نشأته، أو الإشارة إلى أسرته. فلم يهتم بالحديث عن أصوله ولم يحفل بالفوارق العنصرية

(١) د. زكريا إبراهيم - أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء (١٣-١٤).

(٢) المرجع السابق، ص ١٣. وانظر أيضاً: الإمتاع والمؤانسة (٧/١).

والخلافات الجنسية، يقول: «إن لكل أمة فضائل وذنابل، ولكل قوم محاسن ومساوي، ولكل طائفة من الناس في صناعتها وحلّها وعقدتها كمال وتقصير»^(١) فلا فرق بين فارسي وعربي، ولا موضع لتفضيل إنسان على آخر لأصله أو نشأته أو وراثته. والتوحيدي يضيف إلى هذا أن الفضائل الماثورة التي تُنسب في العادة إلى كل أمة من الأمم المشهورة «ليست لكل واحد من أفرادها، بل هي الشائعة بينها، ومن جملتها من هو عارٍ من جميعها، وموسوم بأضدادها.. (بدليل أن) الفرس لا تخلو من جاهل بالسياسة، خالٍ من الأدب، داخل في الرعاع والهمج، كما أن العرب لا تخلو من جبان جاهل طياش بخيل عيي»^(٢).

ليكن أبو حيان فارسياً أو عربياً، فإنه في كلتا الحالتين لن يكون إلا إنساناً مفكراً يحاول أن يكمل نفسه بالعلم والدين والأخلاق، ويسعى جاهداً في سبيل العمل على ربط الحكمة النظرية بالحكمة العملية^(٣).

مولده ووفاته :

اختلف الباحثون في تحديد سنة مولد التوحيدي ووفاته. أما عن مولده فقد نجح الباحثون في استنتاج تاريخ مولده من إشارتين: الأولى منهما وردت في كتاب المقابسات، فذكر حسن السندوبي في تحقيقه لهذا الكتاب أنه ولد عام ٣١٢ هـ معتمداً على الرسالة التي كتبها للقاضي أبي سهل معتذراً له فيها إحراقه لكتبه، وأرخها سنة ٤٠٠ هـ وذكر فيها «إني في عشر التسعين»^(٤)، والإشارة الثانية ما ذكره التوحيدي نفسه في كتاب المقابسات بأنه قد جاوز العقد الخامس من عمره، وينص في الوقت نفسه أنه أُلّف هذا الكتاب سنة ٣٦٠ هـ. وعلى ذلك يكون أبو حيان ولد - كما قال معظم مؤرخي سيرته - في العشرة الثانية بعد الثلاثمائة،

(١) أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة - تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين ج ١، ص ٧٣، ٧٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٤.

(٣) د. زكريا إبراهيم - أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء ص ١٥.

(٤) حسن السندوبي - مقدمة المقابسات.

أي حوالي ٣١٠ هـ إلى ٣١٢ هـ على وجه التقريب.

يقول الدكتور إبراهيم كيلاني: إن كتاب المقابسات الذي ألفه سنة ٣٦٠ هـ وكان عمره يومذاك خمسين عاماً بدليل قوله: «وما يرجو المرء بعد الالتفات إلى الخمسين حجة وقد أضاع أكثرها وقصّر في باقيها» دليل على أنه ولد سنة ٣١٠ هـ. أما الدكتور زكي مبارك فقد أعفى نفسه من مشقة البحث وراء عام ولد فيه التوحيدي فقال: «لا تسأل متى وُلد ولا أين، فذلك رجل نشأ في بيئة خاملة».

وسبب إطلاق لقب «التوحيدي» عليه هو أن أباه كان تاجرًا متنقلًا يبيع نوعًا من التمر المعروف باسم «التوحيد». ذكر هذا ابن خلكان في «وفيات الأعيان»^(١) والسيوطي في «بغية الوعاة»^(٢).

كما اختلف الدارسون أيضًا في تحديد السنة التي توفي فيها التوحيدي، وذلك اعتمادًا على آراء المترجمين، فقد ذكر السيوطي أنه «مات في حدود الثمانين والثمانمائة» وهو أمر لا أرححه؛ وذلك أن أبا حيان كتب رسالة إلى القاضي أبي سهل يعتذر له فيها عن إحراقه لكتبه عام ٤٠٠ هـ. وقال الذهبي: «قد سمع منه أبو سعد بن ممحة الأصبهاني، وذلك سنة أربعمائة وهو آخر العهد به. أما القزويني فذهب إلى أنه توفي سنة ٤١٤ هـ حيث وجد ذلك مكتوبًا على قبره في شيراز»^(٣) وهو الرأي الراجح فيما أظن.

مكانته العلمية:

أبو حيان التوحيدي واحد من ألمع ثمرات الفكر الإسلامي، وأكثرها نضوجًا، فهو صاحب عقلية من أكثر العقليات الإسلامية خصوبةً، وعطاءً، وتفجرًا بالنفيس

(١) ابن خلكان - وفيات الأعيان ص ١١٢ - ١١٣.

(٢) السيوطي - بغية الوعاة ج ٢ ص ١٩٠.

(٣) أيمن علي عبد اللطيف - عبقرية النثر العربي - ص ٢٩.

من القول، والسديد من الرأي، والوفير من الإنتاج، والسخي من العطاء. كما يعد التوحيدي مرآة ناصعة لثقافة عصره التي قطف ثمارها الفلسفية والصوفية والبلاغية والإسلامية^(١).

وقد عاش أبو حيان التوحيدي في القرن الرابع الهجري، فعاصر رقي الحياة العقلية، وتقدم الفنون، وتنوع الثقافات والحركات الفكرية، وظهر أثر كل هذا في كتبه ورسائله، حتى لقد اعتبره بعض الباحثين الناطق بلسان الثقافة العربية في القرن الرابع الهجري. ووصفه ياقوت الحموي في معجم الأدباء فقال: «فهو شيخٌ في الصوفية، وفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام، ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء.. فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاءً وفطنةً وفصاحةً ومُكنةً، كثير التحصيل للعلوم في كل فن حفظه، واسع الدراية والرواية»^(٢).

تنقل أبو حيان بين بغداد، والري، ونيسابور، وشiraz وغيرها؛ إما لطلب العلم أو بحثاً عن الرزق. ولو أننا نظرنا إلى حياة أبي حيان في عهد الطلب، لوجدنا أن «حب التنوع» الذي اتسمت به أخلاق هذا الرجل قد دفعه إلى الأخذ من كل علم بطرف، فكان من ذلك اهتمامه بدراسة الفقه والحديث، وانشغاله بالكلام والتوحيد، وعنايته بمسائل المنطق والفلسفة، وانصرافه إلى البحث في اللغة والنحو، ثم اشتغاله أخيراً بالتصوف. وليس من شك في أن محاولة الجمع بين كل هذه الأصناف المختلفة من المعارف قد تعرّض صاحبها لخطر السطحية أو الضحالة، ولكن الملاحظ - بالنسبة إلى أبي حيان - أنه كان شخصية فلسفية مطلعة تستخلص المسألة من كل ما يقع أمامها، سواء أكانت المسائل خلقية أو اجتماعية أو لغوية أو اقتصادية أو نفسية. فلم يكن اهتمام أبي حيان بكل هذه المعارف سوى مجرد نتيجة لميله إلى الدهشة، ونزوعه نحو التساؤل، واستعداده للبحث. فإذا أضفنا إلى هذا أن القرن الرابع

(١) أيمن علي عبد اللطيف - عبقرية النثر الفني ص ٢٨.

(٢) معجم الأدباء: ٥: ١٩٢٤.

الهجري كان عصرًا ثقافيًا خصبًا ظهر فيه الكثير من نوابع الأدب والفلسفة والمنطق والنحو الفقه والتفسير والكلام والتصوف، أمكننا أن ندرك السرّ في تلك «الروح الموسوعية» التي أتاحت لأبي حيان الفرصة للمزج بين كل تلك الثقافات^(١).

لقد حصّل أبو حيان ثقافته من تلك الكتب التي قرأها في مكتبات بغداد، ومن الكتب التي كان ينسخها. وحسبنا أن نستعرض أسماء بعض الأساتذة أو الشيوخ الذين تتلمذ على أيديهم أبو حيان، لكي نتحقق من أنه لم يتلق العلم إلا على أيدي مفكرين موسوعيين نبغوا في فروع عديدة من المعرفة.

أول هؤلاء الشيوخ هو أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني الذي كان فيلسوفًا ومنطقيًا ولغويًا وصاحب نظرة عميقة في الأدب والشعر. وقد أفاد أبو حيان كثيرًا من ملازمته لأبي سليمان، حتى أن كتابه المسمى «المقابسات» يكاد يقتصر - في الجانب الأكبر منه - على أحاديث فلسفية ومناقشات جدلية لأبي سليمان وتلاميذه.

تتلمذ أيضًا على يد الفيلسوف النصراني أبي زكريا يحيى بن عدي (ت ٣٦٤ هـ) آخر من انتهت إليه رياسة أهل المنطق في زمانه. وكتاب المقابسات حافل بالكثير من آراء يحيى بن عدي في الحركة والزمان، والعلة والمعلول، والصورة والمادة، والكون والفساد، والإمكان والاستحالة... إلخ.

أما الأستاذ الأكبر الذي افتتن به أبو حيان أيما افتتان فهو أبو الشيخ أبو سعيد السيرافي (٢٨٤ هـ - ٣٦٨ هـ) الذي كان من كبار النحاة والمتكلمين المعتزلة في القرن الرابع الهجري. فعنه أخذ أبو حيان النحو والكلام وعلوم القرآن والحديث، وروى الكثير من مناظراته ومسائله وما تعلمه منه في «المقابسات» و«الإمتاع والمؤانسة» و«البصائر والذخائر».

(١) زكريا إبراهيم - التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء ص ٢٠.

ومن الأساتذة الذين تتلمذ عليهم أبو حيان أيضًا الشيخ علي بن عيسى الرماني (٢٧٦هـ - ٣٨٤هـ) وكان يعرف بالإخشيدي وبالوراق، وإن كانت شهرته بالرماني هي التي غلبت عليه. ولم يكن الرماني مجرد عالم نحوي، وإنما كان أحد مشاهير الأئمة في مختلف العلوم. أخذ عنه أبو حيان اللغة والبلاغة.

وقد تلقى أبو حيان أصول الفقه الشافعي على أستاذه أبي حامد المرورودي (ت ٣٦٢هـ)، كما أخذ عنه الكثير من المعارف في مختلف ألوان الفنون والآداب. وآراء أستاذه في المعاملات والأخلاق مبثوثة في كتاباته وخصوصًا «البصائر والذخائر» الحافل بالنصوص التي يرويها لنا نقلًا عنه؛ مما يدل دلالة قاطعة على تأثره بذلك القاضي الجليل.

ولم يكن غريبًا بعد ذلك كله أن تتعدد مؤلفات أبي حيان التوحيدي لتشمل أغلب فنون المعرفة الإسلامية، وقد ترك خلفه إرثًا نفيسًا تزهو به المكتبة العربية في مجالات متعددة منها الأدب والأخبار والفلسفة والتصوف واللغويات، وقد ذكر لنا ياقوت الحموي في معجم الأدباء طائفة من تلك المؤلفات القيمة، مثل:

كتاب رسالة الصديق والصدّاقة، كتاب الرد على ابن جني في شعر المتنبي، كتاب الإمتاع والمؤانسة، كتاب الإشارات الإلهية (جزءان)، كتاب الزلفة (جزء)، كتاب المقابسات، كتاب رياض العارفين، كتاب تقرّيط الجاحظ، كتاب ذم الوزيرين^(١)، كتاب الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي، كتاب الرسالة في صلوات الفقهاء في المناظرة، كتاب الرسالة البغدادية، كتاب الرسالة في أخبار الصوفية، كتاب الرسالة الصوفية، كتاب الرسالة في الحنين إلى الأوطان، كتاب البصائر والذخائر، وهو عشر مجلدات كل مجلد له فاتحة وخاتمة، كتاب المحاضرات والمناظرات^(٢) ولم يذكر ياقوت الحموي كتاب الهوامل والشوامل وهو شركة بينه وبين مسكويه.

(١) وهو الكتاب المعروف أيضًا باسم: «أخلاق الوزيرين»، «مثالب الوزيرين».

(٢) ياقوت الحموي - معجم الأدباء (٥: ١٩٢٥).

ويحلون للنقاد والدارسين أن ينعتوا أبا حيان التوحيدي بالجاحظ الثاني، ويطيب لهم من حين إلى آخر أن يعقدوا الفصول لهما يقارنون بينهما ويوازنون، ويرزون معالم الشبه والاتفاق، أو يظهرون أوجه الخلاف والافتراق. والحق أن هذا مجال طريف ينطوي على كثير من بواعث القول.

وليس الأمر في هذا بدعاً إذا عرفنا أن أعلام النشر الفني كانوا يقرون للجاحظ بالريادة، وفي ذلك يقول أحدهم عبارته المأثورة: «وأما الجاحظ، فما منا معشر الكتاب إلا من دخل داره، أو شَنَّ على كلامه الغارة».

وأبو حيان نفسه اتخذ من أبي عثمان إماماً ومن طريقته قدوة، وأحله من التبجيل والتعظيم أسمى منزلة وأرفع مكان، حتى لقد بلغ ذلك منه أن دبج في الشناء عليه رسالة خصَّه بها وأسمّاها «تقريظ الجاحظ»، ومما قاله فيها:

«والذي أقول وأعتقد أنني لم أجد في جميع من تقدم وتأخر ثلاثة، لو اجتمع الثقلان على تقريظهم ومدحهم، ونثر فضائلهم، في أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ورسائلهم مدى الدنيا إلى أن يأذن الله بزوالها، لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم، أحدهم هذا الشيخ الذي أنشأنا له هذه الرسالة، وبسببه جشمتنا هذه الكلفة، أعني أبا عثمان عمرو بن بحر»^(١).

وأشاد أبو حيان في كتاب آخر له بأسلوب سلفه الجاحظ فقال:

«ومتى رأيت ديباجة كلامه، رأيت حولها كثير الوشي، قليل الصنعة، بعيد التكلف، حلو الحلي.. له سلاسة كسلاسة الماء، ورقة كورقة الهواء.. فسبحان من سخَّر له البيان وعَلَّمه، وسلَّم في يديه قصب الرهان قدّمه.. إن جد لم يُسبق، وإن هزل لم يُلحق..»^(٢).

(١) الإمتاع والمؤانسة ١-٥.

(٢) البصائر والذخائر، ١٩٧.

كما نعته بأنه لا نظير له في البلاغة والإنشاء.. وإن كتبه «الدر الثير، واللؤلؤ المطير» ورسائله «الأفنان المثمرة، والرياض الزاهرة، وكلامه «الخمر الصرف، والسحر الحلال»، فهو «واحد الدنيا» و«شيخ الأدب وحجة العرب...»^(١).

ولئن كان أبو حيان - وهو من هو بين الكتّاب - قد أحل أستاذه أبا عثمان في نفسه هذه المنزلة السامية، ومحضه كل هذا الإعجاب، فإن في ذلك لمغزى بعيداً. من ذلك أن التوحيدي ممن لا يمارون في نسبة الفضل إلى أهله، ولم يذهب به الغرور إلى المدى الذي يذهب بصاحبه إلى الانتقاص من الآخرين، في مجال هو مجاله، وصناعة هي صناعته.

والذي يعيننا من هذا الإعجاب أثره الماضي في تكوين شخصية أبي حيان ودفع أسلوبه في المجرى الذي أثره وارتضاه، والذي كان الجاحظ رائداً فيه، فقد بات من نافلة القول ألا يغيب عن ذهننا أن أبا حيان كان في أول عهده يغترف من بحر الجاحظ، وينحو منحاه في أسلوبه، وينسج على منواله في كتبه، بعد أن انكب على ملفاته في سن مبكرة وعاش في عالمه. «وكل من يدرس أبا حيان في طريقته الفنية يراه محتذياً طريقة الجاحظ. وقد أصبحت هذه الحقيقة إحدى القضايا المسلمة التي لا تحتاج برهاناً جديداً، ولكنه يجب ألا تحجب عن أنظارنا تفرّد أبي حيان في أسلوبه»^(٢)، وإن أبا حيان هو الذي كان في عصره يحمل لواء الجاحظية.

(٢)

بقي الآن مسألتان غاية في الأهمية تتعلقان بأبي حيان الإنسان، كثر الكلام فيهما قديماً وحديثاً، وظلم بسببهما أبو حيان حياً وميتاً. المسألة الأولى الأولى تتعلق بأخلاق أبي حيان والمثالب التي لصقت به، وذكرت وشاعت عنه في كتب الأقدمين

(١) تتناثر هذه الأحكام في كتب التوحيدي وفي معجم الأدباء خلال ترجمة الجاحظ.

(٢) أبو حيان التوحيدي، د. إحسان عباس، ١٣٧.

والمحدثين على السواء، فقد رموه بالنقائص والصفات الشنيعة مع ما له من مكانة علمية، لعلها كانت غائبة عن معاصريه، ولم يلتمسوا له عذراً ولم يقبلوا له حجة. أما المسألة الثانية فتتعلق بعقيدة أبي حيان والكلام الذي أثير حولها في هذا الشأن. نبدأ بالكلام عن أخلاق أبي حيان، ونذكر ما قاله ياقوت الحموي عنه، فقد كان أميناً في عرض صفات أبي حيان، فلم يكتفِ بعرض محاسنه بل ذكر مثالبه فقال: «سخيف اللسان، قليل الرضى عند الإساءة إليه والإحسان، الذم شأنه، والثلب دكانه، وهو مع ذلك فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاءً وفطنة وفصاحة ومكنة، كثير التحصيل للعلوم في كل فن حفظه، واسع الدراية والرواية، وكان مع ذلك محدوداً محارفاً يتشكى صرْفَ زمانه، ويبيكي في تصانيفه على حرمانه، ولم أر أحداً من أهل العلم ذكره في كتاب ولا دمجته ضمن خطاب»^(١).

إذن لم يكن التوحيد مزوداً بتلك الأخلاق الفاضلة التي تعدل علمه وأدبه، ولو أنه كان كذلك لصار نادرة في دهره، ومثلاً عالياً في عصره وبعد عصره، ولكن الرجل كان في أخلاقه بشراً عادياً^(٢).

فقد نشأ في عائلة من عائلات بغداد الفقيرة يتيمًا، يعاني شظف العيش ومرارة الحرمان؛ لا سيما بعد رحيل والده، وانتقاله إلى كفالة عمه الذي لم يجد في كنفه الرعاية المأمولة، فقد كان يكره هذا الطفل البائس ويقسو عليه كثيرًا.

وحين شب أبو حيان عن الطوق، امتهن حرفة الوراق، ورغم أنها أتاحت لهذا الورّاق الشاب التزود بكم هائل من المعرفة جعل منه مثقفاً موسوعياً، إلا أنها لم ترض طموحه ولم تلّب حاجاته، فانصرف عنها إلى الاتصال بكبار متنفذي عصره من أمثال ابن العميد والصاحب بن عباد والوزير المهلب، غير أنه كان يعود في كل مرة صفر اليدين، خائب الآمال، ناقماً على عصره ومجتمعه.

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ص ١٩٢٤.

(٢) أحمد الحوفي: أبو حيان التوحيدي ص ٢٤

هذه الإحباطات الدائمة، والإخفاقات المتواصلة؛ انتهت بهذا الأديب إلى غاية اليأس، فأحرق كتبه بعد أن تجاوز التسعين من العمر، وقبل ذلك فرّ من مواجهة ظروفه الصعبة إلى أحضان التصوف، عساه يجد هنالك بعض العزاء فينعم بالسكينة والهدوء.

ولعل سر ما لاقاه أبو حيان في حياته من عناء وإهمال وفشل يعود إلى طباعه وسماته؛ حيث كان مع ذكائه وعلمه وفصاحته واسع الطموح، شديد الاعتداد بالنفس، سوداوي المزاج... إلى غير ذلك من صفات شخصية وضعت في طريقه المتاعب وحالت دون وصوله إلى ما يريد.

سنحاول في السطور التالية إلقاء الضوء على بعض الجوانب المهمة من شخصية أبي حيان، في ضوء ما رواه عنه المؤرخون، وما جاء على لسانه في تضاعيف مصنفاته. ولا يفوتنا أن نبه إلى أن الكثير من المؤرخين قد تجنّوا على أبي حيان؛ نظراً لأن أعداء الرجل - في حياته وبعد مماته - كانوا كثيرين، فلم تسلم كتب الرواة من ثلب لأخلاقه واتهام له في دينه، وتشكيك في قيمة علمه.. إلخ. وليس من الإنصاف لأديب أو مفكر أن يستند الباحث في الحكم عليه إلى أقوال خصومه عنه، خصوصاً إذا كان يعرف أن هؤلاء الخصوم كانوا يملكون من القوة والنفوذ ما سهّل عليهم مهمة تجريحه ووصفه بكل نقيصة ومذمة. وعلى الرغم من أن التوحيدي قد ردّ لهم الجميل بمثله، إلا أننا نتجنّى عليه لو اعتبرناه «عيّاباً شتّاماً» لمجرد أنه أراد الدفاع عن نفسه، والانتقام من خصمه. والتوحيدي نفسه يذكّرنا بأنه «ما خلا الناس منذ قامت الدنيا من تقصير واجتهاد، وبلوغ إلى الغاية وقصور عن النهاية، وتشارك في المحامد والمذام، والمساوئ والمحاسن، والمناقب والمثالب، والفضائل والردائل... (ولكن) أحسنهم حالاً وأسعدهم جدّاً، وأبلغهم يُمنّاً، وأربحهم بضاعة، من كانت محاسنه غامرة لمساويه، ومناقبه ظاهرة على مثالبه، ومادحه أكثر من هاجيه، وعاذره أنطق من عاذله.. وكما وجدنا السيئات يحبطن الحسنات، كذلك قد وجدنا الحسنات

يذهبن السيئات»^(١) فليس في وسعنا أن نصدق أولئك الذين يصورون لنا التوحيدي بصورة الرجل الخسيس «الذي يعتريه الضعف أكثر مما تعتريه القوة، ويقع في الخطأ أكثر مما يقع على الصواب»^(٢)، لأننا سنرى حسناته تذهب بسيئاته، وفضائله تربو على رذائله، على الرغم من شتى ضروب التشويه والتجريح التي تعرّض لها الرجل. ولنتنظر مثلاً إلى ما أورده ياقوت الحموي في مجال ذكره لصفات أبي حيان من أنه كان «سخيف اللسان، قليل الرضا عند الإساءة إليه والإحسان، الذم شأنه، والثلب دكانه»^(٣) فهل نستنبط حقاً من كلام أبي حيان أنه كان عيباً سليط اللسان؟ وهل يكفي أن يكون التوحيدي قد أولع بحفظ أشعار الهجاء من أجل الحكم عليه بأنه كان محروماً من كل أخلاق؟ أجل لقد كتب أبو حيان كتاباً بأكمله في ذم الوزيرين ابن العميد وابن عباد، ولكن ألا نلتمس له العذر في هذا المسلك، خصوصاً وأنه لم يكتب ما كتب في ثلب الوزيرين إلا تحت تأثير فشله في الخروج من ضائقة الفقر، بعد طول الرجاء والتأمل؟ وحتى لو نظرنا إلى هجائه العنيف لكل من صاحب وابن العميد، أفلا نجده في بعض الأحيان يشير إلى بعض مناقبهما، دون أن يقتصر على إبراز مثالبهما؟ أليس هو القائل بأنك «... لو أردت أن تجد لهما ثالثاً في جميع من كتب للجبل والدليم إلى وقتك هذا المؤرخ في الكتاب لم تجد»^(٤). ولماذا نلوم هذا الرجل على تعريضه بالوزيرين، وهما اللذان أذاقه أقسى ألوان الإهانة، وعمداً إلى الطعن في دينه وأخلاقه، وحفزاً بعض أتباعهما على اتهامه بالكفر والزندقة؟

(١) أبو حيان التوحيدي: «مثالب الوزيرين» طبعة دمشق ١٩٦١، ص ٢٠ - ٢١.

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ص ١٩٢٨. وانظر أيضاً- أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء -

ذكرى إبراهيم ص ٦٧ - ٦٨.

(٣) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ص ١٩٢٤.

(٤) مثالب الوزيرين، ص ٣٥٠.

ولنقرأ معاً موقفاً حكاه أبو حيان عما لاقاه من الوزيرين من سوء معاملة، لنحكم على تصرفاته وما جاء به من أقوال أخذت حدة على سوء أخلاقه.

قال في كتابه «مثالب الوزيرين»: «طلع ابن عباد عليّ يوماً في داره وأنا قاعد في كسر إيوان أكتبُ شيئاً قد كان كأذني به، فلما أبصرته قمتُ قائماً، فصاح بحلق مشقوق: اقعد فالورّاقون أخسُّ من أن يقوموا لنا. فهممت بكلام، فقال لي الزعفراني الشاعر: اسكت فالرجل رقيق. فغلب عليّ الضحك واستحال الغيظُ تعجباً من خفته وسخفه؛ لأنه قال هذا وقد لوى شدقه وشنّج أنفه وأمال عنقه، واعترض في انتصابه، وانتصب في اعتراضه، وخرج في تفكك مجنون قد أفلت من دير حنون، والوصف لا يأتي على كنه هذه الحال لأن حقائقها لا تدرك إلا باللحظ ولا يؤتى عليها باللفظ، فهذا كله من شمائل الرؤساء وكلام الكبراء، وسيرة أهل العقل والرزانة؟! لا والله وترّباً لمن يقول غير هذا»^(١).

هل بعد هذا الموقف لا نجد عذراً لأبي حيان في بعض ما يقوله، فما تعرض له يفوق احتمال أي منتقد له، ولو كان مكانه لقال أكثر مما قال.

قد يقول البعض إن أبا حيان لم يقتصر على هجاء خصومه، وذم أعدائه، بل قد عمد أيضاً إلى التعريض بأصدقائه، والطعن في زملائه، وآية ذلك - مثلاً - فيما يقولون أنه لم يعف صديقه مسكويه من الاتهام والتجريح، فقال عنه في حضرة الوزير ابن سعدان إنه «فقير بين أغنياء، وعبي بين أبناء»^(٢). وأنه يضيع معظم وقته في طلب الكيمياء، وأنه لا يفهم الكثير من الكتب الفلسفية.. إلخ، ونحن نوافق أصحاب هذه الدعوى على ما يقولونه بشأن صرامة أبي حيان في الحكم على الناس، ولكننا نميل إلى الاعتقاد بأن منشأ هذه الصرامة إنما هو صراحته الزائدة، وضيقه بأساليب المجاملة. فالتوحيدي رجل شجاع صريح يجاهر برأيه في الناس كباراً كانوا أم صغاراً، غرباء

(١) مثالب الوزيرين، ص ١٤١.

(٢) الإمتاع والمؤانسة، ج ١، ص ٣٥ - ٣٦.

كانوا أو أصدقاء، وهو لا يرى حرباً في نشر مناقبهم ومثالبهم على الملأ؛ اعتقاداً منه بأنه لا بد من حمد المحسن وذم المسيء^(١).

وهو قد يبدو قاسياً أحياناً في أحكامه على الناس، ولكن ربما كان السر في هذه القسوة هو أنه كان يرفض المجاملة الرخيصة، والنفاق الكاذب، والمؤاخاة الزائفة.

صفة أخرى اتصف بها أبو حيان، وصبغت كتاباته ورسائله، فقط أطل بين سطوره التشاؤم واضحاً جلياً وكأنه عنوان لحياة طويلة مديدة لم تعرف يوماً سعادة أو نعيماً. وإذا كانت فلسفة كل فيلسوف هي في جانب منها ثمرة لما مر بصاحبها من أزمات، أو صدى لما عاناه من خبرات، فليس بدعاً أن نرى التوحيدي أميل إلى فلسفة التشاؤم منه إلى فلسفة التفاؤل، أو أقرب إلى مذهب اليأس منه إلى مذهب الأمل. والواقع أن هذا الرجل ذاق مرارة الحرمان، وكابد ذل الفقر، وعانى ويلات الغربة، لم يستطع أن يكتم سخطة على الناس وتمرده على القدر، وضيقة بالحياة.

لقد فرضت عليه الوحدة في الحياة، فظل عمره لا يجد حوله «ولداً نجيباً، وصديقاً حبيباً، وصاحباً قريباً، وتابعاً أديباً، ورئيساً مثيباً»^(٢)، ومن هنا شعر بالوحدة الهائلة في دنياه، فانطلق يصفها بكل حرارة ومرارة في معظم صفحات كتبه.

لقد أحس بأنه غريب في كل شيء: غريب في وطنه، غريب عن أحبابه، غريب عن كل ما في الوجود من أشياء وأحياء. فكان موضوع «الغريب» هذا من أبلغ مأسطره قلمه. قال إن الغريب الحق ليس ذلك الذي «نأى عن وطن بُني بالماء والطين، وبَعُدَ عن أَلَفٍ له عهدُهم الخشونة واللين» وإنما هو ذلك الذي «طالت غربته في وطنه، وقل حظه من حبيبه وسكنه.... قد علاه الشحوب وهو في كِنٍّ، وغلبه الحزن حتى صار كأنه شَنٌّ»^(٣).

(١) أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، ص ٦٩ - ٧٠.

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، (١٩٣٠).

(٣) الإشارات الإلهية، ص ١٠٨.

وقد حاول الباحث الموسوعي الكبير عبد الرحمن بدوي أن يقيم علاقة تشابه بين التوحيدي وكافكا^(١) في مجال التشاؤم والنزعة العدمية، ولكنني أختلف معه في ذلك، فالتوحيدي يدور في إطار، بينما كافكا متحرر من أي إطار^(٢).

كان أبو حيان يعاني مرارة الغربة في صميم وطنه: «وأغرب الغرباء من صار غريباً في وطنه، وأبعد البعداء من كان بعيداً في محل قربه»^(٣) فلم يكن منشأ هذا الإحساس بالغربة في نفسه هو غياب الحبيب أو جفاء الصديق، أو ندرة الأهل، وإنما كان الأصل فيه شعوره بالعجز عن تحقيق أي ضرب من ضروب «التواصل» مع الناس، وإحساسه بالوحدة حتى في صميم حياته الاجتماعية وفشله في التغلب على وساوس الوحشة والتفرد والاعترا ب. ومن هنا فقد روى لنا ياقوت الحموي في ترجمته لأبي حيان أنه «أنس بالوحدة، وقنع بالوحشة، واعتاد الصمت، ولزم الحيرة، واحتمل الأذى، ويئس من جميع الخلق، وانتحل القناعة رياضة»^(٤) وهذا الوصف إنما يؤكد ما ورد على لسان التوحيدي نفسه من أن غربته قد أصبحت «غربة من لا سبيل له إلى الأوطان، ولا طاقة به على الاستيطان»، فهو غائب حتى في حضوره، غريب حتى بين بني وطنه^(٥).

وخلاصة الكلام عن أخلاق أبي حيان أننا عند مطالعة أعماله التي بين أيدينا، تظهر لنا مدى الثقافة التي كان يتمتع بها وصفاته التي كان معروفاً بها، لكننا نلتبس له العذر كله، فهو رجل نشأ في هجير الفاقة والبؤس، وسط مجتمع نعم بالشراء

(١) فرانس كافكا (١٨٨٣ - ١٩٢٤) كاتب تشيكي يهودي، كتب بالألمانية، رائد الكتابة الكابوسية. يعد أحد أفضل أدباء الألمان في فن الرواية والقصة القصيرة. القليل من كتاباته نشرت خلال حياته، معظمها - يشمل رواياته الشهيرة (الحكم) و(الغائب) التي لم ينهها - نشرت بعد موته، على يد صديقه المقرب ماكس برود، الذي لم يستجب لطلب كافكا بإعادة كل كتاباته.

(٢) حامد طاهر - فلسفة السؤال والتساؤل عند أبي حيان التوحيدي - مجلة فصول - العدد ٤ - أكتوبر ١٩٩٥.

(٣) الإشارات الإلهية، ص ١١٠

(٤) معجم البلدان ن ترجمة أبي حيان التوحيدي ١٥ / ١٩٢٣.

(٥) الإشارات الإلهية، ص ١٠٨.

والغنى وتقدير الأدباء والعلماء، اضطرتته الحياة إلى أن يأكل حشيش الأرض، فلا عجب في أن يشتكي صرف زمانه، وأن يحقد على الآخرين، وإن الإنسان ليرثي لشكواه وهو ذلك الرجل الموسوعي الذي حظي من كل العلوم بطرف، إلا أن أحداث دهره قهرته على المشي فوق تلك الأشواك: أشواق الملق والمداهنة والرياء. فمشى مجروح القلب، مقتول النفس، مطعون الوجدان، وكان اقترافه لمخزيات الضعة والهوان مما يضرهم في نفسه ثورة الحقد على الرؤساء المسعورين الذين لا ينال فيض ما لديهم بغير أسباب الخسة والدناءة والإسفاف^(١). أو كما قال التوحيدي نفسه: «صحبة الملوك لا تنال إلا باجتراح العلقم والوجه متهلل، وإلا بشرب السم والوجه ضاحك، وإلا بنحر النفس والقلب طيب، وإلا بتحمل البلاء والتسليم واقع»^(٢).

وعلى الرغم من هذا كله، فإن من الدارسين من يرى أن نبوغ أبي حيان التوحيدي يرجع إلى حقه وثورته على الحياة والأحياء، فيقول زكي مبارك: «ولا نراه يجيد إلا حين يتحدث عن نكد دنياء وسواد لياليه» وأظن أنها عبارة على سبيل المبالغة في الإعجاب بكتابة أبي حيان وإجادته في هذه الظروف، ولا ينفي عنه إجادته بصفة عامة.

إنه مما لا شك فيه أن أبا حيان قدم لنا الكثير من الإيجابيات، فهو الذي سجل لنا الثقافة العربية في شتى فروعها وفي أزهى عصورها بحيث اعتبرناه مرآة ناصعة لثقافة عصره، وهو في هذا ليس بالعابد إنما هو أديب مفكر له هنائه وله مميزاته، وهو مع هذا أيضاً كان بارعاً مجيداً فهو (أبرع كُتّاب العربية وأملكهم لزمامها)^(٣).

(١) النثر الفني في القرن الرابع الهجري - د زكي مبارك، ص ١٦٤.

(٢) مختصر الإشارات الإلهية، ص ٣٧١.

(٣) عبقرية النثر العربي - أيمن علي عبد اللطيف، ص ٣٠ - ٣١.

نأتي الآن إلى المسألة الثانية التي نوبنا الكلام عنها هنا، وهي الحديث الذي ثار حول عقيدة التوحيدي وفكره، تلك المسألة التي كانت موضع جدل كبير بين القدماء فمنهم من اتهمه في عقيدته، فرماه بالزيف والإلحاد والفسق والإفساد، ومنهم من برأه وانتصف له من هذه التهمة الخطيرة التي تأتي على مكانته الأدبية والعلمية وتلقي على إنتاجه ظلالاً من الشك. إن آراء المفكرين وعقائدهم تؤخذ من خلال أعمالهم وكتاباتهم الشخصية لا من خلال ما يكتب عنهم في ظل جهل بالأبعاد المذهبية والعقائدية لأصحاب هذه الكتابات، فلا يكفي أن يطلق أحد الموتورين إشاعة ما، وتتردد بعض الوقت إلى أن يقدم أحدهم على تدوينها فتبدو كأنها حقيقة.

ربما كان أول من اتهمه بالزندقة الكاتب اللغوي الأديب ابن فارس المتوفى سنة ٣٩٠هـ في كتابه «الفريدة والخريدة»، فقد نُقل عنه قوله: «كان أبو حيان قليل الدين والورع عن القذف؛ والمجاهرة بالبهتان، تعرض لأموار جسم من القدح في الشريعة والقول بالتعطيل. ولقد وقف سيدنا صاحب ابن عباد كافي الكفاة على بعض ما كان يدخله ويخفيه من سوء الاعتقاد، فطلبه ليقتله، فهرب والتجأ إلى أعدائه، ونفق عليهم بزخرفه وإفكه، ثم عثروا على جميع دخلته، وسوء عقيدته، وما يبطنه من الإلحاد، ويرومه في الإسلام من الفساد، وما يلصقه بأعلام الصحابة من القبائح، ويضيفه إلى السلف الصالح من الفضائح، فطلبه الوزير المهلب، فاستتر منه، ومات في الاستتار، وأراح الله منه، ولم يؤثر عنه إلا مثلبة أو مخزية»^(١).

ثم جاء ابن الجوزي (المتوفى سنة ٥٩٧هـ) فقال: «زندقة الإسلام ثلاثة: ابن الرواندي، والتوحيدي، وأبو العلا المعري، وشرهم على الإسلام أبو حيان، لأنهما صرحا وهو مجمع ولم يصرح»^(٢).

(١) سير أعلام النبلاء، ص ١١٩.

(٢) بغية الوعاة، ص ١٩٠.

ثم ردّ الذهبي (المتوفى سنة ٧٤٨هـ) هذه التهمة، ونقل ما ذكره ابن فارس وابن الجوزي، وزاد عليه أن أبا حيان كان عدوًّا لله خبيثًا سيئ الاعتقاد^(١).

ولكنّ علماء آخرين شهدوا له بسلامة العقيدة وصحة الدين. فهو في رأي ياقوت صوفي السمّ والهيئة، متعبد، والناس على ثقة من دينه. وابن النجار يصفه بأنه كان فقيرًا صابراً متدينًا صحيح العقيدة.

والسبكي يدافع عنه بقوله: «لم يثبت عندي إلى الآن من حال أبي حيان ما يوجب الوقعة فيه، ووقفت على كثير من كلامه، فلم أجد فيه إلا ما يدل على أنه كان قوي النفس، مزدريًا لأهل عصره، ولا يوجب هذا القدر أن يُنال منه هذا النيل. وسئل الوالد - رحمه الله - عنه فأجاب بقريب مما أقول^(٢).

تلك هي آراء القدماء في عقيدة أبي حيان التوحيدي، تحمل الكثير من المتناقضات التي يجب علينا تفسيرها وذلك من خلال الوعي بدور العامل المذهبي لأصحاب هذه الآراء ودور التكوين الفكري والتجربة الحياتية لكل منهم، وهذا كفيل بحل ألغاز هذه المتناقضات^(٣).

أليس أبو الفتح بن فارس هو الذي أشاع بين الناس أن أبا حيان التوحيدي كان رجلًا قليل الدين والورع، ميالًا إلى القذف والبهتان، مجاهرًا بالقدح في الشريعة والقول بالتعطيل؟ لقد كان ابن فارس واحدًا من رجالات الصاحب المخلصين، فأراد الانتقام لسيده من تعريض أبي حيان، وكان من ذلك أن أشاع بين الناس سوء اعتقاد أبي حيان وعزم الصاحب على قتله!

أما ابن الجوزي فقد كان حنبليًا من أهل الأثر الذين يضيقون بأهل الرأي، وكان التوحيدي معدودًا بينهم.

(١) سير أعلام النبلاء، ص ١١٩.

(٢) طبقات الشافعية ص ٢٥٦.

(٣) عبقرية النثر العربي - أيمن علي عبد اللطيف، ص ٣٢.

ونجد العجب العجاب إذا طالعنا سبب اتهام ابن الجوزي للتوحيدي بالزندقة يقول: «إنه مجمج ولم يصرح» ويرد عليه حسن السندوبي ردًا بليغًا فيقول: «أرأيت كيف يتعرض ابن الجوزي لما لم يجره العقل ولا الدين، فتسرب في طوايا الضمائر وتولج خفايا النفوس واستخرج من سويداوات الأفئدة ما أباح له الحكم بأن أبا حيان كان أشد على الإسلام من سواه. فما دام أبو حيان لم يصرح بفسق أو كفر فكيف حكم عليه ابن الجوزي وكيف وصفه بالزنديق؟»^(١).

وقد أرجع السبكي حملة الذهبي على أبي حيان إلى محاكاته لما قاله ابن فارس، وإلى ما قاله ابن الجوزي، وإلى أمر ثالث هو بغضه الشديد للمتصوفة.

والحقيقة أن كلام أبي حيان التوحيدي ينقض دعوى خصومه، فرميه بالزندقة وقذفه بالإلحاد أمر يصعب تصديقه، فليس بين أيدينا من كتبه التي نجت من الإحراق إلا ما ثبت تدينه، وعمق إيمانه، وتسبيح الله بعبارات بلغت من الرصانة والإشراق بحيث تصلح لأن تكون أورااد عبادة^(٢).

(٣)

يعد كتاب «الإشارات الإلهية» من أهم إبداعات أبي حيان التوحيدي وهو خلاصة تجربة صوفية مر بها بعد مرحلة الشعور باليأس والزهد في الدنيا، وبعد الفشل في نيل المكانة التي يستحقها بين أقرانه، بوصفه واحدًا من أهم مفكري القرن الرابع الهجري الأفذاذ، ومن أهم أدبائه.

وكتاب الإشارات الإلهية، بوصفه نصًا لغويًا، مختلف عن سائر مؤلفات التوحيدي التي كان فيها راويًا عن غيره، أو ناقلًا، أو حاكياً مسامرات تشيع فيها الأسئلة والإجابات، وذلك كما في «الإمتاع والمؤانسة» و«المقابسات» و«الهوامل

(١) المرجع السابق ص ٣٣.

(٢) المرجع السابق ص ٣٤.

والشوامل» فهو كتاب اتضحت فيه ذاتية المؤلف، وتجلى فيه إبداعه اللغوي تمام الجلاء.

يقول د. عبد الرحمن بدوي: أما الأسلوب فلم يبلغ في كتاب من كتب التوحيدي الأخرى «الإمتاع والمؤانسة» و«الصدقة والصدق»، و«ثمرات العلوم» و«المقاسبات» مقدار ما بلغه في هذا الكتاب، كتاب «الإشارات الإلهية» سموًا وحرارة وموسيقى وتمكنًا من الأداء. نعم، للموضوع مدخل كبير في تلوين الأسلوب، بل وصياغته. ومن هنا فإن «الإشارات الإلهية» مؤلف يسترعي الانتباه لما يحويه من ظواهر لغوية، وبصورة خاصة التراكيب والجمل، وما تمتاز به من امتداد داخلي^(١).

ونحن ننشر هنا الجزء الأول من كتاب «الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية» الذي وصلنا، فقد أشار ياقوت الحموي ضمن إشارته إلى مؤلفات التوحيدي إلى أن له كتاب الإشارات الإلهية (جزءان)^(٢). كما نشر ردف هذا الجزء ملخصًا من الإشارات الإلهية يحوي عدد (١٩) رسالة في ٧٦ ورقة، ما يقرب من نصف هذه الرسائل يتفق مع ما جاء في الجزء الأول من الكتاب.

وجدت نسخة مصورة من المخطوطة الوحيدة المعروفة حتى الآن عن هذا الكتاب وهي المخطوطة رقم ٨ تصوف (١٣٣٤) بالمكتبة الظاهرية بدمشق، هذه النسخة المصورة موجودة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة، التابع لجامعة الدول العربية وقد كُتب على الورقة الأولى منها:

(١) أميرة محمد غيث - الإشارات الإلهية لأبي حيان التوحيدي - دراسة لغوية.

(٢) معجم البلدان، ياقوت الحموي، ٥: ١٩٢٥.

كتاب الإشارات الإلهية - تصوف ٨ . وفي الناحية الأخرى من الورقة أعلاها ختم المكتبة الظاهرية واضح وفي وسطه (دار الكتب الظاهرية الأهلية بدمشق) وتحت: المكتبة الظاهرية تصوف ٨ تاريخ التصوير ف من ٢٥٢ .

ثم بيانات تفصيلية كالآتي:

- اسم الكتاب: الإشارات الإلهية، الجزء الأول

- اسم المؤلف: أبو حيان التوحيدي

- تاريخ النسخ: بخط أحمد بن علي الأشعبي سنة ٤٧١ هـ

- عدد الأوراق ١٥٦ المقاس ٢٠ × ١٦

أما عن عنوان الكتاب فقد ورد في الورقة الأولى من النسخة المصورة اسم «الإشارات الإلهية» وقد ورد عنوان الكتاب أيضاً في داخله بصفحة (١٣٨ أ) مع عنوان فصل، هكذا: «أركان المعرفة من الإشارات الإلهية» أول الرسالة (١٣) وفي صفحة (٤١ أ) مع عنوان فصل، هكذا: «ذم التفضيل بالغاشية والحاشية من الإشارات الإلهية» في أول الرسالة رقم (١٤) وكذلك في صفحة (١٨٩ أ) مع عنوان فصل، هكذا: «استعلام الفطنة من الإشارات الإلهية» في أول الرسالة رقم (٣١).

ولكن اللافت للنظر أن يكون الكتاب قد سُمي في آخر الجزء الأول المتبقي منه: «الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية». ولكن عبارة «الأنفاس الروحانية» لا ترد في الملخص المحفوظ في برلين، والذي حصلنا على نسخة مصورة منه، ومع أن التوحيدي لا يستعمل السجع في عناوين كتبه إجمالاً، فليس هناك ما يمنع أن تكون هذه التسمية - أي «الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية» هي التسمية الكاملة للكتاب، وأن تفيد عبارة «الأنفاس الروحانية» نوعاً من مناجاة الصوفي بحرقة ووجد وعبارات روحانية^(١).

(١) وداد القاضي - مقدمة الإشارات الإلهية، ص ٨.

أما ملخص الإشارات الإلهية فالنسخة المصورة منه والم محفوظة في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة برقم ٤٧٤ (التصوف والآداب الشرعية). أماكن الأصول: دار الكتب المصرية - تصوف (١٧٩٤). وسأعرض لمحتواه ووصف تفصيلي له مع فهرس كامل لعناوين الرسائل الواردة به مع ذكر الرسائل التي ثبتت في الجزء الأول.

وقد أفاض الأستاذ الكبير عبد الرحمن بدوي، والدكتورة وداد القاضي عند تحقيقهما للكتاب في شرح الأدلة التي تثبت صحة نسبة كتاب «الإشارات الإلهية» إلى أبي حيان التوحيدي وهي أدلة تدحض ما قاله البعض^(١) بنفي نسبة الكتاب إلى أبي حيان، وساقوا في ذلك أدلة ضعيفة لا تثبت أمام الحقيقة الواضحة بصحة نسبة هذا الكتاب لأبي حيان.

وسنذكر هنا دليلين فقط على صحة نسبة كتاب «الإشارات الإلهية» لأبي حيان التوحيدي.

الدليل الأول: يوجد ملخص من الإشارات الإلهية محفوظ في مكتبة برلين، وتوجد نسخة مصورة منها في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، كتب على الورقة الأولى منها: «هذه الكرايس ملخصة من كتاب الإشارات الإلهية لأبي حيان» ؛ وحيث أن ما يقارب النصف مما وصلنا من هذه الكرايس يتفق مع ما جاء في مخطوطة الظاهرية بعنوان كتاب الإشارات الإلهية (الجزء الأول) فهذا يدل دلالة قاطعة على أن ذلك المخطوط يمثل جزءاً من الإشارات الإلهية لأبي حيان.

الدليل الثاني: أنه ورد في معجم الأدباء لياقوت الحموي اسم هذا الكتاب من بين ثبت بأسماء مؤلفات أبي حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي هكذا: «كتاب الإشارات الإلهية: جزءان»^(٢).

(١) منهم الدكتور محمد عمارة في كتابه «أبو حيان التوحيدي» ويوسف زيدان في مقال له «هل كان التوحيدي صوفيًا أم فيلسوفًا» مجلة فصول، العدد الأول، مجلد ١٥، ربيع ١٩٩٦ م.

(٢) معجم الأدباء - (١٩٢٥/٥).

تحقيق الكتاب:

اعتمدت في تحقيق كتاب «الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية» على:

١ - نسخة الجزء الأول المصورة عن النسخة المحفوظة بالمكتبة الظاهرية الأهلية بدمشق والمحفوظة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة (رقم ٨ تصوف)، ويشار إليها بالرمز (ر).

٢ - نسخة مصورة لمخطوطة الملخص من الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية محفوظة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة برقم ٤٧٤ (التصوف والآداب الشرعية). أماكن الأصول: دار الكتب المصرية - تصوف (٤١٧٩). ويشار إليها بالرمز (ل).

٣ - تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي للإشارات الإلهية ط ١٩٥٠. ويشار إليه بالرمز (ع).

٤ - تحقيق الدكتورة ودداد القاضي للإشارات الإلهية مع ملخص برلين - دار الثقافة - بيروت لبنان. ويشار إليه بالرمز (د).

وقد استفدت كثيراً جداً من تخريجاتهما وتأويلاتهما للنص وخاصة عند وجود طمس للكلمات أو عند تشوش النص بسبب ارتباك الناسخ وعدم قدرته على مجازاة أبي حيان التوحيدي في سرعة تدفق أفكاره وتشقيق كلماته ومترادفاته.

وتتألف مخطوطة (ر) المصورة من ١٥٦ ورقة، في كل ورقة ١٩ سطراً أو عشرون ومعدل الكلمات في السطر الواحد ١٢ كلمة، ويرجع تاريخ نسخ هذه المخطوطة كما هو مدون عليها إلى ٤٧١ هـ بخط أحمد بن علي الأشعبي.

والرسائل في (ر) وعددها ٥٤ رسالة تتميز بداية كل واحدة منها بلفظة «رسالة» ثم برقم تلك الرسالة بالحروف الأبجدية (رسالة ا، رسالة ب، رسالة ج... إلخ) وقد رقمتها هنا ترقيماً عددياً: ١، ٢، ٣... إلخ تسهياً على القارئ) وتوجد ثلاث رسائل حملت عناوين خاصة بها دون باقي الرسائل، وهذه العناوين متضمنة عنوان

الكتاب «الإشارات الإلهية» وهي الرسائل رقم ١٣، ١٤، ٣١.

وخاتمة المخطوط هي: «تمت المجلدة أولى من الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية بحمد الله ومنه ولطيف صنعه، ويتلوه المجلدة الثانية، وهي الرسالة الخامسة والخمسون، كتابي إليك أيها الصديق، وأنا أسألك أن يسألك...». «وفرغ من كتبه محمد بن أحمد بن علي الشعبي بتاريخ جمادى الأولى سنة إحدى وسبعين وأربعمائة». «معارض مصحح من أول المجلد إلى آخره».

أما عن تاريخ كتابة أبي حيان لهذا الكتاب فليس هناك ما يدل دلالة قاطعة على زمن كتابة الإشارات، وبما أن طبيعة هذا الكتاب قائمة على شكل رسائل، فإن الدارس قد يقدّر أنه كُتب في مراحل متفاوتة، غير أن الشيء المؤكد أن بعض الرسائل كتب بعد ٣٨١ هـ، إذ يذكر في إحداها أنه نطق بهذه الإشارات بعد أن تجاوز السبعين «أنا نطقت بهذه الألفاظ بعد سبعين سنة وقد تحطمت قناتي، وتكشفت شواتي، وتفللت صفاتي، واضمحلت صفاتي، وبليت لحمي وسداتي، وفقدت شهواتي ولذاتي، ومنيت بموت أحبتي ولداتي»^(١).

أما لمن كتب أبو حيان التوحيدي «الإشارات الإلهية»، فإنه عندما أقدم على إحراق كتبه فسّر ذلك بأنه كان قد جمع أكثرها «للناس ولطلب المثالة (الفضل) منهم ولعقد الرياسة بينهم ولمد الجاه عندهم»^(٢) ولكنه حُرّم ذلك كله، فأحرقها، وهذا كلام يشير إلى رغبة أبي حيان في نيل الجاه المعنوي بين الناس، إلا أنه يحتمل أيضاً الرغبة في الانتعاش المادي عن طريقها، وفي عدد من كتبه يشير بوضوح إلى أنه كتبها أشخاص بأعيانهم على أمل الحصول على المكافأة منهم.

(١) الإشارات الإلهية - ص ٢٢٢.

(٢) ياقوت الحموي - معجم الأدباء ج ٥ ص ١٩٣٠.

فقد كتب من قبل «الإمتاع والمؤانسة» لصديقه أبي الوفاء المهندس، وكتب «محاضرات العلماء» للوزير أبي القاسم الدلجي وهو «يزعم أنه حين كتب أخلاق الوزيرين» إنما كان استجابة لشخص دفعه إلى ذلك^(١).

فهل في كتاب «الإشارات» ما يوحي بأنه ألف لشخص ما ؟

يبدو ذلك في مثل قوله: «هذا - هداك الله - آخر جوابي لك عن كتابك الذي حركتني فيه على مباتئك ؛ فإن سرك هذا الجنس، وأعجبك هذا الأنس، فواصل ذلك مفيداً لأجري على عادتي معك مستفيداً»^(٢). وقوله: «اللهم إني كتبت هذه الكلمات إلى أشخاص أنشأتهم بين عبادك، واختصصتهم بطائف هدايتك، وجعلتهم أعلاماً لمن أراد أن يهتدي إلى بابك، وينىخ براحته بفنائك، ليهبوا لي من فضل ما وهبتهم، ويمنوا عليّ من بعض ما مننت عليهم»^(٣). وأحياناً يتنزل الخطاب إلى مستوى مادي أو شبيه به، كأن يقول: «أعطني أجرتي على سعبي، اشكرني على سهري لك، أمن الفتوة أن تراني أتعب لك فلا ترحمني؟»^(٤).

ولكن من الصعب القول أن أبا حيان قد كتب الإشارات تحت ضغط الحافز المادي ؛ فأبو حيان يخاطب نفسه ويخاطب الإنسان عامة، كما أن العادة عند التوحيدي هي تقديم كتبه لأشخاص بعينهم. كما أن موضوع الكتاب وأسلوبه والهدف منه كلها أمور تنفي أن يكون الباعث للتأليف المال أو السلطان.

(١) وداد القاضي - مقدمة الإشارات الإلهية ص ١٠.

(٢) الإشارات الإلهية ص ٦٠.

(٣) السابق ص ٦٨.

(٤) السابق ٣٣١.

(٤)

أسلوب الكتاب:

الكتاب في جزئه الأول مؤلف من أربع وخمسين رسالة في المواعظ والإشارات والأدعية والابتهالات لرب الكون منبع كل القيم الجميلة، وهذه الرسائل تبدأ الواحدة منها بدعاء طويل، وبعده موعظة وإرشاد يتوجه بهما إلى شخص ما. وحول درجة الواقعية في كتاب «الإشارات الإلهية» تقول الدكتورة وداد القاضي: «هل هناك مريد من جهة وشيخ من جهة أخرى؟ في واقع الحال يبدو لي الموقف من أوله إلى آخره ذاتيًا من ناحية وغيريًا من ناحية أخرى؛ فهذا الصاحب الذي يدعوه أبو حيان هو الإنسان عامة، وهو أيضًا ذلك الشق من أبي حيان نفسه الذي لم يستطع أن يرتفع بصاحبه عن الأهواء، ليجعله دينًا فاضلاً وصافيًا في علاقته مع ربه»^(١).

وقد انقسمت مستويات الخطاب لدى التوحيدى ثلاثة أقسام: التوجه إلى الله، والتوجه إلى الذات، والتوجه إلى «الآخر» سواء أكان هذا «الآخر» هو الإنسان الأدنى بوصفه عاصيًا متطلعًا للعالم وأغراضها، وقد تمثل في كثير من صيغ النداء، وأهمها «يا هذا» و«يا أيها الإنسان»... إلخ، أم كان هذا «الآخر» هو الإنسان الأعلى الذي يلتبس منه الحكمة، وقد تمثل في صيغ مختلفة من النداء منها «يا سيدي»، و«يا أيها الشيخ».. إلخ، أم كان النداء الذي يستمد منه الأنس، فيبث إليه حاله.

والواقع أننا لو أمعنا النظر في أسلوب التوحيدى لوجدنا أنه يتسم بخاصية فريدة تكشف عن شخصية صاحبها «الأديب الفيلسوف». ونحن نعرف أن الفنان يعبر عن المعاني بالصور المحسوسة، في حين أن الفيلسوف يعبر عنها بالتصورات الذهنية.

(١) عبقرية النثر العربي، أيمن علي عبد اللطيف، ص ٤٣.

وهذا هو الفارق مثلاً بين أسلوب أديب كالجاحظ وأسلوب فيلسوف كالفارابي. وأما التوحيدي فهو أديب فيلسوف يعلم أن في كل محسوس ظلاً من العقول، وأن الحسيات معابر إلى العقلية. فليس بدعاً أن نراه يمزج الحسَّ بالعقل، والأدب بالفلسفة^(١). وما من شك في أن أسلوب فلاسفة الإسلام - على نحو ما عرفه معاصرو أبي حيان - كان أسلوباً جافاً حافلاً بالمصطلحات والألفاظ المترجمة. ولذلك أخذ بعض المفكرين الذين جمعوا بين الثقافة العربية والفلسفة اليونانية، يحاولون تطويع المعاني - المستمدة من علوم الأوائل - للأسلوب العربي الجزل والعبارة العربية الرصينة.

لقد كان أبو حيان خبيراً في استخدام اللغة، بارعاً في اختيار الكلمات. إنه يقول: «الكلمة تطلب مقرها الموافق لها فإن صادفت سكتت. وإن لم تصادف جالت في آفاق النفس دائبة إلى أن تجد مكانها اللائق بها»^(٢) فكلمات التوحيدي تبحث عن الموقع الملائم لها تستقر فيه لتصنع لنا ذلك الإبداع الفني والذي لم يبلغ في كتاب من كتب التوحيدي الأخرى ما بلغه في هذا الكتاب: سموً وحرارةً وموسيقى!! ومما يرفد أسلوب أبي حيان بالمحاسن تسربله في بعض نماذجه بالنغمة الموسيقية متعانقة مع التلوين العقلي، كأن يسعى إلى التضاد ليزيد المعنى جلاءً والفكرة مضاءً، كقوله يناجي محبوبه على النهج الصوفي: «يا حبيبي، أما ترى ضيعتي في تحفظي؟ أما ترى رقدتي في تيقظي؟ أما ترى غصتي في إساعتي؟ أما ترى ضلالي في اهتدائي؟ أما ترى رشدي في غيبي؟ أما ترى عيبي في بلاغتي؟ أما ترى ضعفي في قوتي؟ أما ترى عجزتي في قدرتي؟ أما ترى غيبي في حضوري؟»^(٣).

(١) أبو حيان التوحيدي، د. زكريا إبراهيم ص ١٤٠.

(٢) الإشارات الإلهية ص ١٢٥.

(٣) المرجع السابق ص ١٢٧.

وعلى هذا الغرار من جنوحه إلى التضاد العقلي ما كتبه إلى مولاه ابن العميد:
«لما رأيت شبابي هرمًا بالفقر، وفقرى غنيًا بالقناعة، وقناعتى عجزًا عن التحصيل،
عدلت إلى الزمان أطلب إليه مكاني فيه، وموضعي منه، فرأيت طرفه عني نايًا،
وعناني عنه مثنيًا^(١)».

وينبغي ألا يتبادر إلى الذهن أن أبا حيان إنما كان يسعى من وراء هذا التضاد إلى
تصيد ألوان الزينة اللفظية والزخرفة البديعية بحشر عدد من الطباقات أو المقابلات
في تضاعيف عباراته، فهذا أبعد ما يكون عن رجل فكر ورأى كأبي حيان، دونما
قصد إلى البهلوانية اللفظية التي غدت في عصره، ثم من بعده، ديدن الكتاب ومهوى
نفوسهم.

ولبعض النقاد رأي ينطوي على وجاهة حين يعتقد بأنه ليس من قبيل المصادفة «أن
تكرر في عبارات التوحيدي ألفاظ التناقض والتضاد وشتى أنواع التقابل، فقد عاش
صاحبنا دائماً متأرجحاً بين النشاط والتكاسل، بين القوة والضعف، بين القدرة والعجز.
وهو حين يكثر في أسلوبه من ألفاظ الازدواج والمقابلة إنما يكشف عن شخصية
تحيا على التناقض والمفارقة، وتحاول دائماً أن تجمع بين الأقطاب المتعارضة»^(١).

ويغلب على تعبير أبي حيان الإطناب والتدفق، ومن مقتضيات هذه الخاصة غزارة
اللفظ وكثرة الترادف، ولكن هذا الترادف لا يقصد إليه الكاتب طلباً للزينة ورغبة في
الزخرفة، وإظهاراً لقوة الحافظة، شأن الكثيرين من كتّاب عصره الذين استهواهم
اللفظ فأمعنوا في طلبه. ولكن التوحيدي رجل عقل، واللفظ لديه وسيلة للإبانة،
وطريق إلى الإعراب، وسبيل إلى الإفصاح. بل إن ما يبدو لنا مترادفاً من الألفاظ
ليس في حقيقة الأمر من الترادف، ولكنه تتبع لدقائق المعنى، وتقصى للفوارق بين

(١) مثالب الوزيرين، أبو حيان التوحيدي ٣٢٧.

(١) أبو حيان التوحيدي، د. زكريا إبراهيم ١٣٧.

حالاته. وفي هذا بطبيعة الحال اقتدار على اجتلاب الكلمات التي تخطر مدلولاتها في الذهن مهما دقت معانيها وشطت حروفها^(١).

فأسلوب الكتاب بالغ أعلى درجة نضوج نلمسها لدى التوحيدي ؛ وأنه يعبر فيه عن شخصيته وتجاربه الحية وأحواله النفسية على نحو يبرز فيه الجانب الشخصي، وهو جانب من الصعب أن نتلمسه في «الإمتاع والمؤانسة» وفي «المقابسات» أو «الصداقة والصديق». وهذا الاستقلال الروحي دليل قوي على النضوج وغنى التجارب في حياة يستمر منحني التطور فيها على نحو مطرد.

فهذا الكتاب يعبر عن نفس دلفت إلى الإيمان المستسلم بعد أن عانت من تجارب الحياة أهوالاً طوالاً. ففيه مرارة اليأس من الناس ومن دنيا الناس، وفيه صرخة أليمة لأمل خائب تكسّرت عليه نصال الخيبة بعد الخيبة، وفيه عزوف رقيق، ولكنه عميق، عما يربط بالعاجلة، واستدعاء متوسّل لكل ما تلوح به بوارق الآجلة، وفيه شعور بهوّة هائلة تفغر فاهها في نسيج الوجود، وفيه طعم الرماد يتزوقه المرء في كل عبارة وإشارة^(٢).

يحتوي كتاب الإشارات الإلهية قدرًا من الشواهد القرآنية والأبيات الشعرية المنسوب أغلبها لأصحابها، والمصطلحات الصوفية التي انسابت مع العبارة، لتؤلف هذا النص الذي يعرف المشتغلون باللغة الصوفية كم هي بديعة الصياغة دافئة الإيقاع. فالكتاب غني بما فيه من منهج في المناجاة لا نكاد نجد له نظيرًا قبل التوحيدي، وبهذا يمكن أن يعد رائد نوعه، والنموذج الأول لكتب المناجيات التي سنراها من بعد في الأدب الصوفي^(٣).

(١) الأداء الفني في نثر أبي حيان التوحيدي - د. عمر الدقاق.

(٢) عبد الرحمن بدوي، مقدمة الإشارات الإلهية ص (له).

(٣) عبد الرحمن بدوي، مقدمة الإشارات الإلهية ص (لط).

(٥)

وقد كان هدفي من تحقيق هذا الكتاب القيم مرة أخرى هو محاولة لزيادة جلاء روعة هذا النص الأدبي الذي يمثل قمة الإبداع في النثر العربي؛ وذلك بشرح الغامض من ألفاظه وذكر أكثر المعاني قرباً لما أعتقد أنه يلائم مقصود أبي حيان ويتسق مع سياق النص، وتنبع صعوبة هذا العمل على الرغم مما يبدو عليه من سهولة وبساطة من ثراء المعجم اللغوي لأبي حيان التوحيدي وفصاحته وإلمامه الواسع باللغة العربية (لفظاً وأسلوباً) بحيث يجعلنا نلهث وراءه بحثاً عما يقصده والمعنى البعيد الذي يرمي إليه.

كما قمت بتخريج الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة والأبيات الشعرية^(١) والأمثال العربية الواردة في الكتاب.

كما قمت بإضافة بعض الكلمات ليستقيم المعنى ووضعها بين معقوفتين [] وأشرت لها في الهامش على أنها زيادة لازمة أو ضرورية.

كذلك مراجعة الكتابة إملائية دقيقة بحيث نتلافى قدر الإمكان وجود أي خطأ إملائي أو طباعي، حتى يخرج النص رائقاً لا يخذشه خطأ هنا أو سهو هناك.

وختاماً لا يسعني إلا أنا أختتم كلامي بدعاء أبي حيان التوحيدي:

«اللهم اكفنا مؤنة قول لا تُراد به، وغائلة معنى لا تصح فيه، وغِبَّ أمر لا تكون

عنده.

(١) قد خفي عليَّ بعض الأبيات فلم أستطع تخريجها.

اللهم اصرف عنا الشيطان وتغويله، والهوى وتسويله، والباطل وتعليه، وأرنا
منك الحق لتتوخاه بتوفيقك ولطفك اللذين هما تمام كل شيء وبهجة كل شيء^(١).

خميس حسن



(١) الإشارات الإلهية، ص ١٠١.

$$\begin{array}{r} 210 \\ 55 \overline{) 11550} \\ \underline{1100} \\ 550 \\ \underline{550} \\ 0 \end{array}$$

الالبنة
كتاب المشارف

۲۷۰

۲۵۰

الملكية العامة . صفوف ٨

رقم التصويت ١ مسدود /

اسم الكتاب
مدت راجع الحوليه

دوہ

اسم المؤلف
ابوصالح بن عبد الحميد

نقد رسوم على بلا حتى
الاص

•

القاسم ١٢٤٥

تاريخ الفصح

عدد الأوراق

اللائحة

الورقة الأولى من نسخة الظاهرية المصورة (ر)

١٢١
 ١٢٢
 ١٢٣
 ١٢٤
 ١٢٥
 ١٢٦
 ١٢٧
 ١٢٨
 ١٢٩
 ١٣٠
 ١٣١
 ١٣٢
 ١٣٣
 ١٣٤
 ١٣٥
 ١٣٦
 ١٣٧
 ١٣٨
 ١٣٩
 ١٤٠
 ١٤١
 ١٤٢
 ١٤٣
 ١٤٤
 ١٤٥
 ١٤٦
 ١٤٧
 ١٤٨
 ١٤٩
 ١٥٠
 ١٥١
 ١٥٢
 ١٥٣
 ١٥٤
 ١٥٥
 ١٥٦
 ١٥٧
 ١٥٨
 ١٥٩
 ١٦٠
 ١٦١
 ١٦٢
 ١٦٣
 ١٦٤
 ١٦٥
 ١٦٦
 ١٦٧
 ١٦٨
 ١٦٩
 ١٧٠
 ١٧١
 ١٧٢
 ١٧٣
 ١٧٤
 ١٧٥
 ١٧٦
 ١٧٧
 ١٧٨
 ١٧٩
 ١٨٠
 ١٨١
 ١٨٢
 ١٨٣
 ١٨٤
 ١٨٥
 ١٨٦
 ١٨٧
 ١٨٨
 ١٨٩
 ١٩٠
 ١٩١
 ١٩٢
 ١٩٣
 ١٩٤
 ١٩٥
 ١٩٦
 ١٩٧
 ١٩٨
 ١٩٩
 ٢٠٠
 ٢٠١
 ٢٠٢
 ٢٠٣
 ٢٠٤
 ٢٠٥
 ٢٠٦
 ٢٠٧
 ٢٠٨
 ٢٠٩
 ٢١٠
 ٢١١
 ٢١٢
 ٢١٣
 ٢١٤
 ٢١٥
 ٢١٦
 ٢١٧
 ٢١٨
 ٢١٩
 ٢٢٠
 ٢٢١
 ٢٢٢
 ٢٢٣
 ٢٢٤
 ٢٢٥
 ٢٢٦
 ٢٢٧
 ٢٢٨
 ٢٢٩
 ٢٣٠
 ٢٣١
 ٢٣٢
 ٢٣٣
 ٢٣٤
 ٢٣٥
 ٢٣٦
 ٢٣٧
 ٢٣٨
 ٢٣٩
 ٢٤٠
 ٢٤١
 ٢٤٢
 ٢٤٣
 ٢٤٤
 ٢٤٥
 ٢٤٦
 ٢٤٧
 ٢٤٨
 ٢٤٩
 ٢٥٠
 ٢٥١
 ٢٥٢
 ٢٥٣
 ٢٥٤
 ٢٥٥
 ٢٥٦
 ٢٥٧
 ٢٥٨
 ٢٥٩
 ٢٦٠
 ٢٦١
 ٢٦٢
 ٢٦٣
 ٢٦٤
 ٢٦٥
 ٢٦٦
 ٢٦٧
 ٢٦٨
 ٢٦٩
 ٢٧٠
 ٢٧١
 ٢٧٢
 ٢٧٣
 ٢٧٤
 ٢٧٥
 ٢٧٦
 ٢٧٧
 ٢٧٨
 ٢٧٩
 ٢٨٠
 ٢٨١
 ٢٨٢
 ٢٨٣
 ٢٨٤
 ٢٨٥
 ٢٨٦
 ٢٨٧
 ٢٨٨
 ٢٨٩
 ٢٩٠
 ٢٩١
 ٢٩٢
 ٢٩٣
 ٢٩٤
 ٢٩٥
 ٢٩٦
 ٢٩٧
 ٢٩٨
 ٢٩٩
 ٣٠٠
 ٣٠١
 ٣٠٢
 ٣٠٣
 ٣٠٤
 ٣٠٥
 ٣٠٦
 ٣٠٧
 ٣٠٨
 ٣٠٩
 ٣١٠
 ٣١١
 ٣١٢
 ٣١٣
 ٣١٤
 ٣١٥
 ٣١٦
 ٣١٧
 ٣١٨
 ٣١٩
 ٣٢٠
 ٣٢١
 ٣٢٢
 ٣٢٣
 ٣٢٤
 ٣٢٥
 ٣٢٦
 ٣٢٧
 ٣٢٨
 ٣٢٩
 ٣٣٠
 ٣٣١
 ٣٣٢
 ٣٣٣
 ٣٣٤
 ٣٣٥
 ٣٣٦
 ٣٣٧
 ٣٣٨
 ٣٣٩
 ٣٤٠
 ٣٤١
 ٣٤٢
 ٣٤٣
 ٣٤٤
 ٣٤٥
 ٣٤٦
 ٣٤٧
 ٣٤٨
 ٣٤٩
 ٣٥٠
 ٣٥١
 ٣٥٢
 ٣٥٣
 ٣٥٤
 ٣٥٥
 ٣٥٦
 ٣٥٧
 ٣٥٨
 ٣٥٩
 ٣٦٠
 ٣٦١
 ٣٦٢
 ٣٦٣
 ٣٦٤
 ٣٦٥
 ٣٦٦
 ٣٦٧
 ٣٦٨
 ٣٦٩
 ٣٧٠
 ٣٧١
 ٣٧٢
 ٣٧٣
 ٣٧٤
 ٣٧٥
 ٣٧٦
 ٣٧٧
 ٣٧٨
 ٣٧٩
 ٣٨٠
 ٣٨١
 ٣٨٢
 ٣٨٣
 ٣٨٤
 ٣٨٥
 ٣٨٦
 ٣٨٧
 ٣٨٨
 ٣٨٩
 ٣٩٠
 ٣٩١
 ٣٩٢
 ٣٩٣
 ٣٩٤
 ٣٩٥
 ٣٩٦
 ٣٩٧
 ٣٩٨
 ٣٩٩
 ٤٠٠
 ٤٠١
 ٤٠٢
 ٤٠٣
 ٤٠٤
 ٤٠٥
 ٤٠٦
 ٤٠٧
 ٤٠٨
 ٤٠٩
 ٤١٠
 ٤١١
 ٤١٢
 ٤١٣
 ٤١٤
 ٤١٥
 ٤١٦
 ٤١٧
 ٤١٨
 ٤١٩
 ٤٢٠
 ٤٢١
 ٤٢٢
 ٤٢٣
 ٤٢٤
 ٤٢٥
 ٤٢٦
 ٤٢٧
 ٤٢٨
 ٤٢٩
 ٤٣٠
 ٤٣١
 ٤٣٢
 ٤٣٣
 ٤٣٤
 ٤٣٥
 ٤٣٦
 ٤٣٧
 ٤٣٨
 ٤٣٩
 ٤٤٠
 ٤٤١
 ٤٤٢
 ٤٤٣
 ٤٤٤
 ٤٤٥
 ٤٤٦
 ٤٤٧
 ٤٤٨
 ٤٤٩
 ٤٥٠
 ٤٥١
 ٤٥٢
 ٤٥٣
 ٤٥٤
 ٤٥٥
 ٤٥٦
 ٤٥٧
 ٤٥٨
 ٤٥٩
 ٤٦٠
 ٤٦١
 ٤٦٢
 ٤٦٣
 ٤٦٤
 ٤٦٥
 ٤٦٦
 ٤٦٧
 ٤٦٨
 ٤٦٩
 ٤٧٠
 ٤٧١
 ٤٧٢
 ٤٧٣
 ٤٧٤
 ٤٧٥
 ٤٧٦
 ٤٧٧
 ٤٧٨
 ٤٧٩
 ٤٨٠
 ٤٨١
 ٤٨٢
 ٤٨٣
 ٤٨٤
 ٤٨٥
 ٤٨٦
 ٤٨٧
 ٤٨٨
 ٤٨٩
 ٤٩٠
 ٤٩١
 ٤٩٢

۱۵۵

[illegible][illegible]

الأول من كتاب

الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية

من تصنيف

أبي حيان التوحيدي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ميمون الابتداء مبارك الانتهاء^(١)

رسالة (١)

اللَّهُمَّ^(٢) إِنَّا نَسْأَلُكَ مَا نَسْأَلُ، لَا عَنْ ثِقَةٍ بَبَيَاضٍ وَجُوهِنَا عِنْدَكَ، وَحُسْنِ أَعْمَالِنَا مَعَكَ، وَسَوَالِفِ إِحْسَانِنَا قِبَلَكَ؛ وَلَكِنْ عَنْ ثِقَةٍ بِكَرَمِكَ الْفَائِضِ، وَطَمَعًا^(٣) فِي رَحْمَتِكَ الْوَاسِعَةِ. نَعْمَ، وَعَنْ تَوْحِيدٍ لَا يَشُوْبُهُ إِشْرَاكٌ، وَمَعْرِفَةٍ لَا يَخَالِطُهَا إِنْكَارٌ. وَإِنْ كَانَتْ أَعْمَارُنَا^(٤) قَاصِرَةً عَنْ غَايَاتِ حَقَائِقِ التَّوْحِيدِ وَالْمَعْرِفَةِ، فَنَسْأَلُكَ أَنْ لَا تَرُدَّ عَلَيْنَا هَذِهِ الثِّقَةَ بِكَ، فَيَشْتَمَ بِنَا مِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ هَذِهِ الْوَسِيلَةُ إِلَيْكَ. يَا حَافِظَ الْأَسْرَارِ، وَيَا مُسْبِلَ الْأَسْتَارِ، وَيَا وَاهِبَ الْأَعْمَارِ، وَيَا مَنْشِئَ الْأَخْبَارِ، وَيَا مُوَلِّجَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَيَا مُصَافِي الْأَخْيَارِ، وَيَا مُدَارِي الْأَشْرَارِ، وَيَا مُنْقِذَ^(٥) الْأَبْرَارِ مِنَ النَّارِ وَالْعَارِ! عُدْ عَلَيْنَا بِصَفْحِكَ عَنْ زَلَّاتِنَا، وَأَنْعِشْنَا عِنْدَ تَتَابُعِ صَرَاعَتِنَا، وَحُطِّ رَحَالِنَا مَعَكَ فِي اخْتِلَافِ سَكَرَاتِنَا وَصَحَوَاتِنَا. وَكُنْ لَنَا، وَإِنْ لَمْ نَكُنْ لَأَنْفُسِنَا، لَأَنَّكَ أَوْلَى مِنَّا. وَإِذَا خَفْنَا مِنْكَ، فَامْزُجْ خَوْفَنَا مِنْكَ بِرَجَائِنَا فِيكَ. وَإِذَا غَلَبَ عَلَيْنَا يَأْسُنَا مِنْكَ، فَتَلَقَّهِ بِالْأَمَلِ فِيكَ. بَشِّرْنَا، عِنْدَ تَوَجُّهِنَا نَحْوَكَ، بِالْوَصُولِ إِلَيْكَ. مَتَّعْنَا بِالنَّظَرِ إِلَى نُورِ وَجْهِكَ. أَسْبِغْ عَلَيْنَا نِعَمَتَكَ بِمَا وَهَبْتَ لَنَا مِنْ تَوْحِيدِكَ. وَلَا تَهْجُرْنَا بَعْدَ وَصْلِكَ، وَلَا تُبْعِدْنَا بَعْدَ قُرْبِكَ، وَلَا تُكْرِبْنَا بَعْدَ رَوْحِكَ^(٦). قَدْ عَادَيْنَا أَعْدَاءَكَ فِيكَ، فَلَا تُشْمِتْهُمْ بِنَا لِتَقْصِيرِنَا فِي حَقِّكَ؛ وَوَالَيْنَا أَصْفِيَاءَكَ لَكَ، فَلَا تُوحِشْنَا مِنْهُمْ لِسَهْوِنَا عَنْ وَاجِبِكَ. قَدْ كَدَدْنَا^(٧) لَكَ فَأَرْخُنَا بِكَ؛ وَرَفَعْنَا أَيْدِينَا إِلَيْكَ فَأَمْدُهَا مِنْ بَرِّكَ وَلَطْفِكَ.

(١) سقط الدعاء من «ل».

(٢) معظم هذه الرسالة ورد في «ل» (١٥١ - ١٥٤) بعنوان: «مناط الربوبية وقاع العبودية من الإشارات الإلهية».

(٣) ل: وطمع.

(٤) ل: أعمالنا.

(٥) ل: مكرم.

(٦) الكَرْبُ: الغَمُّ الذي يأخذ بالنفس و «الرَّوْحُ» بفتح الراء: الراحة والنعيم.

(٧) الكَدُّ: الشدَّة في العمل والإلحاح في محاولة الشيء.

يا هذا! إذا زخر بك وادي الدعاء فاعلم أنك مُرَادٌّ بالإجابة، وإذا تابع لك المزيد في النعمة فاعلم أنك معرَّضٌ للشكر، وإذا اكتنفك الكربُ من كل ناحية، فاعلم أنك مطالبٌ بالتصفية، وإذا توالى عليك هاتف العلم فاعلم أنك [٢ أ] محثوثٌ على العمل. وإذا أُشْهِدَتْ غَيْبَ حالك، فاعلم أنك مخصوص باليقظة. وإذا غُيِّبَ عن شاهدٍ أَمْرِكَ، فاعلم أنك غيرُ قابلٍ لواقع الموعظة؛ وإذا استوحشت من بقاع الذكر، فاعلم أنك معزول عن الولاية. وإذا عميت عن الاعتبار بآثار السلف، فاعلم أنك مُخْلَى من يَمْنِ الهداية. وإذا استحسنت القول واستثقلت العمل، فاعلم أنك بعيد من التوفيق والعناية.

يا هذا! إن كنت ثاكلاً فَنَحْ^(١) عَلَيَّ ما أُصِبتَ به؛ وإن كنت مكروباً بالسر، فَبُخْ، فلعلك تشفي غليلك فيه؛ وإن كنت طالباً فَجِدْ، فعساك تصل إلى بُغيتك منه؛ وإن كنت واجداً فاحفظ، فإنك غير واثق من ثبات ما ظفرت به. وتَلَطَّفْ، جهْدَكَ، حتى تقف على مكنون أَمْرِكَ، فلعلك مُسْتَدْرِجٌ من حيث لا تعلم، ولعلك مرادٌ بالخصوصية وأنت مُسْتَكْتَمٌ. زَيْن وجهك بالصورة البهية. حَسِّنْ أَثْرَكَ بالنية القوية الثقية. أنت في مناط^(٢) الربوبية فلا تهبط إلى قاع العبودية. صانوك فلا تَبْذُلْ^(٣). أَعِزُّوكَ، فلا تَذِلْ. أَعْلُوكَ، فلا تَسْفِلْ. غَسْلُوكَ، فلا تنسخ. نَقِّوكَ، فلا تتلطح. يَسِّرُوكَ فلا تتعَسَّر. قَرَّبُوكَ، فلا تتباعد. أَحْبُبُوكَ، فلا تتبغض. جَدُّوا بك، فلا تكسل. استخدموك، فلا تكبل. أَعْتَقُوكَ، فلا تتعبد. أَقَالُوكَ، فلا تتعثر. دَعُوكَ، فلا تتأخر. نسبوك، فلا تجحد. جبروك، فلا تنكسر. أَبْتُوكَ، فلا تَذُو. حَسِّنُوكَ، فلا تَقْبُحْ. حَلِّوكَ، فلا تَسْمُجْ. عَلِّمُوكَ، فلا تجهل. نَوِّهُوا بك، فلا تَحْمِلْ. قَوِّمُوكَ، فلا تَضَعِفْ. لَطِّفُوكَ، فلا تكثف. أَسِّرُوكَ، فلا تنكشف. انتظروك، فلا تتوقف. أَمِّنُوكَ، فلا تتخوف. قَوِّمُوكَ، فلا تتعقَّف^(٤). نَدِّوكَ، فلا تتنَّسَفْ.

يا هذا! إنك إن عرفت هذه اللغة، واستخرجت حالك من هذا الديوان، وَحَصَلْتَ ما لَكَ وعليك من هذا الحساب، أوشك أن تكون من المجذوبين إلى حظوظهم، والراسخين في

(١) في ل: فَنَحْ علي. أي ابلِ علي. أَمَّا: نَحْ علي: أَلْقِ عليَّ مُصابك.

(٢) مناط: اسم مكان من ناط. يُقال: ناط الأمر بفلان: عَهِدَ به إليه. وهنا يقصد أنك في مَعِية الله ورعايته.

(٣) تَبْذُلُ الرجلُ: تَرَكَ التصونَ والتحرُّزَ. (٤) تتعقَّف: تعوَّجَ وتنعطف.

علمهم، والخالدين في نعمتهم^(١). وإن كنت عن هذه الكنايات [٢ب] عَمِيًّا، وعن هذه الإشارات أعجميًّا، طاحت بك الطوائح^(٢)، وناحت عليك النوائح، ولم توجد في زُمرَة الغوادي والروائح. مَطَرَتْ سماءُ المحبة، فلم تبتلَّ بقطرة من قطراتها. وهبَّت ريح الولاية، فلم تَعْبُقْ بنسيم من نسائمها. وعَنَّتْ ضمائر الحِكم، فلم تطرب على لحن من لحونها. وجُلِّيت عرائسُ الهدي فلم تشبَّتْ بذيل من أذيالٍ واحدةٍ منها. فيا جافي الطبع، ويا قاسي القلب، ويا سيئ الاختيار! كيف يطمع الطامع في رُشدِكَ، وهذا نَظْرُكَ لنفسِكَ! أشهد أنك غيبين^(٣) الرأي، مسلوب التوفيق. عل أنه قد بقي من شمسك شَفَى^(٤)، فإن تداركت يقينك رجوتُ لك أن تسلو عن فائتِكَ، وإن جَنَحْتَ إلى التواني وذهبتَ في آفاق الأمانى لم تَرِثَ من حالك إلا حسرةً، ولم تمضغ بفمك إلا جمرَةً.

يا هذا!

خَفَضَ أَسَى عما شَاكَ طلابُ به ما كلُّ شائِمٍ بارقٍ يُسْقَاهُ^(٥)
قد يَسْلَمُ المرءُ مما قد يحاذره وقد يصيرُ إلى المكروه بالحدَرِ^(٦)

وما هو كائنٌ، وإن استَظَلْنَا إليه النَّهْيُ^(٧)، يوشك أن يكونا
ما خَطَبُ من حُرْمِ الإرادة وإِدْعَا خَطَبُ الذي حُرِمَ الإرادة جَاهِدًا^(٨)

(١) في ر: نعيمهم.

(٢) طاح: هلك وأطاحه: أهلكه وأذهبه. يقال: أصابتهم طيحة: أمور فرقت بينهم.

(٣) الغيبين: الضعيف الرأي.

(٤) قال ابن السكيت: يُقال للرجل عند موته وللقمر عند إِمْحاقه وللشمس عند غروبها: ما بقي منه إلا شَفَى. أي: قليل. (لسان العرب - مادة شَفَى).

(٥) شَاكَ طلابه: سبقك طلبه وبعد عنك وفاتك، وقد تكون «شأى» بمعنى أحزن (وذلك بسبب الفوت) والبيت للبحثري (ديوانه: ٢٤٠٣).

(٦) البيت لأبي العتاهية (١٦٨).

(٧) استظَلْنَا النَّهْيَ: النهى أي الوصول والبلوغ، واستظَلْنَا: أي وجدنا الوصول إليه عزيزاً وبعيداً. والبيت للبحثري، ديوانه: (ط دار المعارف مصر - ٢٢٠٨/٤).

(٨) البحثري؛ ديوانه ٨٢٢. ط دار المعارف مصر.

يا هذا! خُذْ من التصريح ما يكون بياناً لك في التعريض؛ وَحَصِّلْ من التعريض ما يكون زيادة لك في التصريح، واستيقن أنه لا حرف ولا كلمة، ولا سَمَة ولا علامة، ولا اسم ولا رسم، ولا ألف ولا ياء، إلَّا وفي مضمونه آية تدل على سرِّ مَطْوِي وعلانية منشورة، وقدرة بادية وحكمة مخبورة^(١)، وإلهية لائقة وعبودية شائقة، وخافية مشوِّقة وبادية معوِّقة. فاصرف زمانك كله في فلي هذه الأثناء^(٢) واستنباط هذه الأنباء. على أن زمانك أقصر من ذاك، أعني أن يطول لك حتى تقف على كنه حقيقة ما في باطن ذرة من هذه القصة. وهذه الإشارة، وإن كانت محدثة لليأس^(٣) في النفس الضعيفة، فإنها مُبَشِّرَةٌ بعظم الحال في الغاية المنيقة. فائْتَزِرْ، حاطك الله، بالانكماش؛ وارْتَدِّ بالجهد [٣ أ]، واكتحل بالسهر، واغْرِ^(٤) بالفكر، وحرِّم على بالك أن يلَمَّ به الهويناء^(٥) والفتور. وإذا حلمت في النوم بمرادك، فتعلَّلْ به في اليقظة. وزِنْ واتزن، واخضع واستكن، وتمهل واستمكن، وانظر واستحسن، وسل واستين، وخَفْ واستأمن، وقرَّ واطمأنن؛ وارجع في كل حادث فادح، وفي كل مغلق وفاتح، إلى ربك، بل كن معه وعنده حتى لا تحتاج إلى الرجوع إليه. وإذا وردته فلا تصدر^(٦) عنه، وإذا صدَّرت عنه فلا تنسه.

يا هذا! الحديث ذو شجون، والقلب طافح بسوء الظنون بما لعله يكون أو لا يكون. فكَرِّ يخالطه جهل وجنون، ويفارقه علم ويقين. لكن بقي أن تَمْلِكَ زمام الفكر كما تملك عِنان الذكر، لأن القلب هدف، والهدف لا يزول عن تُجَاه الرامي، ولا ينحرف إلى جهة المسدِّد. فمن لك الآن بقوة بها تُدَبِّرُ فكرك، أو تكرر ذكرك، أو تأمن في أضعاف مَكْرِكَ ونُكْرِكَ! إنَّك ربما اعوججت في طَيِّ مستقيم، واستقمت في مَخِيلَةِ الْمُعَوِّج. وذلك لأنك مملوك، والمملوك لا يكون مالِكًا، والأول لا يكون ثانيًا، والصاعد لا يكون نازلًا.

(١) مخبورة: دسمة أو طيبة الإدام، يعني بذلك أنها حكمة ذات نفع عظيم وجميلة وإن كانت خفية، ولقظة «بادية» تقتضي أن تكون القراءة «مخبوءة» أو ما في معناها. ولكن العبارة قائمة على السجع. وقد أوردها د. عبد الرحمن بدوي في تحقيقه لهذا الكتاب «مخبورة» وهذا ينافي كلمة «بادية» لأن العبارة قائمة على إبراز المعنى بالتضاد.

(٢) فلي الأثناء: التفتيش فيها. (٣) ر: للناس.

(٤) غرى بالشيء: أولع به من حيث لا يحمله عليه حامل. وفي ل: واغن.

(٥) الهُونُ والهويناء: التَّوَدُّ والرفق والسكينة والوقار. (٦) تصدر: ترجع.

هذا، فديتك! نبأ غريب استنبط من الغيب المكون، والسرّ المخزون. فإذا كان هذا خبراً عن بعض ما تراه العين، فأين يجده القلب؟ ثم أين أنت عما وراء ذلك مما لا يبدو إلا بإذن الحق الذي أخفى الخوافي في البوادي، وأبدى البوادي في الخوافي، ثم حكم بالبوادي على أنها الخوافي، وعكس الخوافي على أنها البوادي، لتكون ملكوته محفوفة بالعبرة بعد العبّرة، ولينقلب المتصفحون عنها بالحسرة بعد الحسرة؟ ذلك سرٌّ لا سبيل إلى السؤال عنه، لأنه جُرأةٌ عليه، والجُرأةُ موجبةٌ للمقت، والمقتُ بابٌ إلى السخط، والسخطُ جالبٌ للبعداد. ولا سبيل أيضاً إلى الجواب عنه، لأنه مخوّ للكل، وتطويح للعقل، ولَبَسٌ^(١) على التحصيل [٣ ب] وطُمُسٌ على الدليل، واغترابٌ في الوطن، واجتذابٌ للحزن، واختلاطٌ للقبيح في الحسن. فسبحان من وارى منافع ما جهل من سرّه في عُرض^(٢) ما عُرف من علانيته! وسبحان من لو شاء لأرانا في الذي أرانا غيرَ ما أرانا، وأتانا من لدنه سوى ما أتانا؛ فلعلنا بذلك كنا على سكون لا تعتوره حركة، أو على حركة لا يعتقّبها^(٣) سكون. فإن الحركة والسكون، فيما كان ويكون، قد أبلّيا جدّتنا^(٤)، وأكلّا حدّتنا^(٥)، وأضعفا شدّتنا، وأفنيا عدّتنا^(٦). فلم يبق منا إلّا ذمّاء^(٧) ينبض في حشاشات^(٨) مضمحلة، لا يطرّقها طارق إلا بحدّثان غريب، ولا يزورها زائرٌ إلا بأمر عجيب، فالشكوى معادة، والكرب معتادة، والأحوال مُرادة، والأوقات مُبادّة. فلا حسيس^(٩) فيتعلّل به، ولا أنيس فيستراح إليه. إنما هو رنين وأنين، وحنين وزفرات، تُسخن العيون، وتُخيل الظنون، وتُبرز الفنون من ملاحظ العيون. فأين الأمان، وإنا^(١٠) أتينّا من المأمّن؟ وأين المطلوب، وإنما عَطَبنا^(١١) في الطلب؟ وكيف الطلب، وإنا هلكنا بالوجدان؟ ومَنْ لنا بالخبر، وقد بدّنا بالأثر؟ وهل لنا

(١) من: لبس عليه الأمر: خلطه وجعله مشتبهاً بغيره.

(٢) عُرض الشيء: جانبه وناحيته.

(٣) يعتقبها: يخلّقها.

(٤) الحدّة: بكسر الجيم: ضد البلى.

(٥) أكلّا الحدّة: سببا فيها الكلال، وهو العجز عن القطع.

(٧) الذمّاء: بقية النّفس.

(٦) كذا بالضم، وتقرأ: «عدّتنا» بكسر العين، أي: عددنا.

(٩) حسيس: صوت خفيّ.

(٨) الحشاشة: بقية الروح.

(١١) عَطَبنا: أصابنا الإعياء.

(١٠) في ل: وأني.

من مناص، وقد أَخَذْنَا بالنواصي؟ هيهات! اليأسُ مما لا ينال إحدى الراحيتين^(١)، والسَّلْوةُ عما لا يُدْرِك إحدى العافيتين. بلى! إِنْ صَدَقَ الْفَالُ وَصَحَّ الزَّجْرُ، وصادف الإلهام حقاً، وارتفع الخُلُقُ عن أن يكون خَلْقاً^(٢)، فلعلَّ نسيم الأشجار يعبثُ بهذه الأرواح المتهتكة، ويتميزُ بهذه الصفات المشتركة، فَكَرَّرَ على خزائن الغيب بالنَّهْبِ، ونُوقِحَ^(٣) وجوهنا بالاعتذار، ونخلَعَ ألساننا بالتملق، ونستردَّ حقوقنا المغصوبة، وتبادرَ إلى أعلامنا المنصوبة، ثم نجلسَ على منابر الرضوان مترمِّلين في عِطاف^(٤) أولياء الحق، نحمد على آفاتٍ زالت طالما حَرَجَتْ^(٥) الصدورُ بها، ونقترح أمانِيَّ طالما [٤] أطمحت العيون إليها. فإذا كان ذلك - وعن قريب يكون ذلك، ونشاهد ما هنالك، فيا لك من رَوْحٍ لا كَرَبَ بعده، ويا لك من صَفْوٍ لا كَدْرَ معه، ويا لك من وَصْلٍ لا هَجْرَ يشيِّعه^(٦)، ويا لك من قَبُولٍ لا رَدَّ يريُّه! اللهم لا تحرمنَّا هذه المُقامة^(٧) في دار المقام، فإنك أنطقتنا بوصفها، وشوَّقتنا إليها بذكرها. فبحرمة إنطاقك لنا بوصفها، وبذمام تشويقك إيانا إياها، إلَّا أنعمت بالنَّا بالقرار معك، وأقررت أعيننا بالنظر إلى وجهك، وحققت آمالنا في ذرى دار عزك، وصدقت رجاءنا بما أسلفتنا من فضلك، فإنك الجواد إذا لم تُسأل، فكيف إذا سُئِلَتْ! والمنعمُ إذا لم تُطالب، فكيف إذا طُوبِت!

يا هذا! قد اخترط الحق لساناً لا يمرُّ بصَدْعٍ إلَّا شَعْبَهُ^(٨) ولا يُلْمُ بقلْبٍ إلَّا رَعْبَهُ^(٩)، ولا يُطِلُّ على فاسدٍ إلَّا أصلحه، ولا يقرع باباً إلَّا افتحه، ولا ييلُّ^(١٠) على نبتٍ إلَّا اعلولب^(١١)، ولا يحتاز بوادٍ إلَّا اعشوشب. فأصخَّ إليه، واملأ عيانك منه، فليس في كل حينٍ تحال عن

(١) فيه إشارة إلى قول البحري:

واليأس إحدى الراحيتين ولن ترى تعباً كظن الخائب المغرور

(٢) خلقاً: أي فاسداً. (٣) نوقح: نُقِلَ حياءه.

(٤) مترمِّلين: مهرولين، عِطاف: جمع عِطْف: وسط الطريق وأعلاه. يعني سائرين في طريق أولياء الحق.

(٥) حرجت: ضاقت. (٦) في ر: يشعته: يجعله مضطرباً.

(٧) المقامة: بضم الميم الأولى: الإقامة. (٨) شعب الصَّدْع: لَمَهُ وأصلحه.

(٩) رعبه: كسر رُعْبِهِ وأزاله. (١٠) وبلت السماء المكان: أمطرت.

(١١) اعلولب: أصبح قاسياً غليظاً.

الماء والطين، ولا في كل زمان تُخَصُّ بالأمان، ولا في كل بُقعة تؤهل للرفعة، ولا في كل وقت تُنَاغَى بلحن مُطْرِب، أو تُنَاجَى بلسان مُعْرَب. فالْبِدَارَ الْبِدَارَ، إلى محل الأبرار الأخيار، الذين يحلو بصحبته الحنظل الحَوْلِي^(١)، ويخف برؤيتهم الخفوف عن هذا العالم السُّفْلِي إلى محل ذلك^(٢) العُلُوِي. ومتى اتهمنتني في هذه النصيحة فشاور عقلك وإلا فاستنصح أوثق الناس في نفسك، وأوضَحهم سِمةً في الشفقة عليك. وإلا فقدم الاستخارة لله عز وجل، فإنه إذا استُهِدِي هَدَى، وإذا استُتْصَح أسَدَى، وإذا فُرع إليه كَفَل، وإذا تُوكَّل عليه سَهَّل، وإذا طُلب ما عنده جاد، وإذا سئل ثانياً وثالثاً عاد؛ لا يؤوده^(٣) شيء، ولا يُعوزُه شيء، ولا يفوته شيء. وكيف يؤوده أو يعوزه أو يفوته وهو أول كل شيء وآخره [٤ ب]، ومُبرِزه ومُظْهِره ومُسَرِّه ومُضْمِرُه! ذاك الله رب العالمين!

يا هذا! دارت اللغات على مراكز المعاني بفوت المُدْرِك، وإدراك الفاتت، بلا رسم معهود ولا أثر مشهود ولا دليل قاطع ورائد صادق، بل طسم وقسم وحسم؛ إن جُهل فبالواجب، وإن عُلِم فهو العَجَب العاجب.

اللهم إِنَّا فِي سَكْرَةٍ مِنْ وَارِدَاتِكَ، وَفِي حَيْرَةٍ مِنْ مَجَارِي أَقْدَارِكَ؛ وَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَخُصَّنَا بَانْكَشَافِ الْعَيْنِ، لَمْ تَشْعُرْنَا التَّمَنِي لِمَا لَمْ تَجْرِبْ بِهِ مَشِيَّتَكَ، وَلَمْ يَسْبِقْ فِي مَعْلُومِكَ.

إِلَهْنَا! قَدْ نَا بَزَمَام طَاعَتِكَ إِلَى كَرِيم حَضْرَتِكَ، وَاعْصَمْنَا مِنْ كَيْدِ كُلِّ كَائِدٍ لَنَا مِنْ أَجْلِكَ، وَامْحُ أَسْمَاءَنَا مِنْ دِيْوَانِ غَيْرِكَ، وَاكْتَبْنَا فِي الْمُتَيْنِ إِلَيْكَ، الْذَاكِرِينَ لَكَ، الْمَفْتَخِرِينَ بِكَ، الْمُبْتَهِجِينَ بِقُرْبِكَ، الْمَغْمُورِينَ بِعَطَائِكَ، الْمَذْكُورِينَ بِحَضْرَتِكَ، الْمُتَوَجِّينَ بِتَاجِ صِفُوتِكَ، الْمَخْصُوصِينَ بِالْإِطْلَاعِ عَلَى إِسْرَارِكَ وَإِعْلَانِكَ، الْمُطْمَئِنِّينَ عَلَى بَسَاطَةِ خَبْرِكَ وَعِيَانِكَ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ!

(١) نسبة إلى الحول، أي الذي بقي عامًا، ولعله يكون شديد المرارة.

(٢) في ر: إلى ذلك المحل.

(٣) يؤوده: يتعبه ويعجزه.

رسالة (٢)

اسمع أيها المجلسُ المؤانسُ، والصاحبُ المساعدُ، حتى أصفَ لك تصاريِفَ حالي ومُتقلِّبَ أمري، وجميعَ ما يدل على شكري وشكواي، وراحتي وبلواي، مفتنًا فيها، ومقتدرًا عليها، ومطلعًا على غامضها وواضحها، ومميزًا لثابتها من سانحها. واعلم أني مع ذلك كله انتهيتُ إلى حال لم أشهد فيها إلَّا النعمة، ولم أحسَّ إلَّا بالكرامة، ولم أتعطَّم إلَّا المِقة^(١)، ولم أشعر إلَّا باليد الطولى في الآخرة والأولى. وذاك أني رأيت الفؤاد محشواً بالمعرفة، واللسان لهجًا بالذكر، والإشارة نافذة بالتوحيد، والقلب مُترعًا بالإيقان، والسرَّ مطمئنًا بالوعد^(٢)، والنفس ممثلة للأمر والنهي، والروح مشتاقة إلى اللقاء والزيارة، والأركان ثابتة على الإخلاص [٥ أ] والاستقامة، والوجد عاملاً عمله بالهز^(٣) والتذكرة، والغليل متقدًا بالحنين والصبابة، والمسافة مقطوعة بالجدِّ له والتشمير، والصبر مستصحبًا مع الأنفاس، والسلوة قائمة عن زهرات العاجلة، والأذن صاغية إلى النداء، والهيمنة^(٤) ناغية بالنجاء الراسخ على الوفاء. فهل بعد هذه النعم والكرامات، وبعد هذه الآثار والعلامات، وبعد هذه السَّمات والأمارات، وبعد هذه المرامات والمقامات، ما يَهتدي إليه اقتراحُ بشرٍ، أو يكون لأحدٍ من الخلق عنه خبر أو أثر؟ لا والذي ناجى الأرواحَ، بدقائق ما عجزت عن تضمُّنه الألواح! هذا وقد أنعم وأكرم، وتولى بالحسنى قبل هذا الوقت في القِدم. فهل بعد هذه المقدمات المهيِّجة^(٥)، وهذه الأوائل المتوشِّحة، وهذه الوسائل التي قد أعجزت تفاريقُها عن دركِ حقائقها دون جوامعها، والتي أتت على جلائلها ودقائقها - إلا الشكر

(١) المِقة من وَمَقَ: المحبة. (٢) أي الوعد بعدم البوح بالسر.

(٣) التحريك.

(٤) الهيمنة: صوت دعاء الله الخفي. وناغية: من نفى إذا تكلم بكلام يُفهم.

(٥) وردت في ر: «المفيحة» ولها وجه إذ يكون معناها من السعة أو طيب الأرج. ووردت في د: «المفتحة».

الذي به تدوم النعم، وبه يمتري^(١) المريد من نفائس القسَم. أليس من جملة هذه النعم انفتاح باب الشكر على القلب بالتلذذ^(٢)، وعلى اللسان بالتردد. أليس من جملة هذه النعم الاهتداء إلى الاعتراف بالنعم، والاعتزاء إلى المنعم بالسِرِّ والجهر، والحدث والقَدَم.

فهات الآن حديثك أيها الإنسان! هل لك إشراف على هذه القلَل^(٣) التي قد تكررَت الإشارة إليها، وتردَّت الدلالة عليها؟ فإن كان لك إشراف، فأنت من المخصوصين بالزُلْفَة، ومن المُقَرَّبِينَ بالأُلْفَة. وإن لم يكن لك إشراف عليها، ولا لك إشراف على أنه ليس لك إشراف، فبؤ^(٤) بنقصك لمبتليك، وانفض أثناء سرك^(٥) التي تليك، وهي أعيانُ حقائق ما فيك، فإنك بهذا النقص تصفو من كل درن، وتنجو من كل غبن، وتجري على كل سنن، وتنبعث بكل حسن، وتصير من حزب الله الغالبيين [٥ ب]، وعباده الفائزين، وأوليائه المخلصين.

قد ناجيتك يا سيدي بلسان النعمة السابقة^(٦)، ودللتك على موقعها مني في أوان الحاجة، وحرَّكتك إلى عرفان ما لعله قد اعتراك فيه السهو والغفلة، وبعثتك على أداة إن استعملتها دامت راحتك، واتصلت كرامتك، وغرَّت عليك بك، وتصفححتك لك، وأطلعتك عليك، قضاءً لحقك في الأخوة، وتكثراً بك فيما يجلُّ عن الأبوة والبنوة. ولم أطو عنك ما يتعلق بسدادك، وينتهي إلى مصلحتك، ولكني أمسكتُ عما وراء ذلك من حالي، لا مداجنة^(٧) لك في الصداقة، ولا معامجة^(٨) لك في العشرة، ولكني لأنني أثرت الاستئثار عما خانني فيه الاستبصار، وفاتني عليه الاستنصار. فإن قلت: وما ذلك، وما هو، وكيف هو، واكن لي عنه إن لم تُفصح، وأنعم به إن لم تشرح، واقرَّع بابه إن لم تفتح. فحقُّ الاسترسال بين أهل الوداد، يقتضي التهييم بكل واد، والكشف عن كل ما غطاه حُجبُ الفؤاد^(٩). ولعمري إن

(١) امترى الشيء: استخرجه. ووردت في د: «وُيمترى المزيْد...».

(٢) في ر: التلذذ: وهو الحيرة. ولكن تردد اللسان بالشكر يقابله تلذذ القلب.

(٣) القلَل: جمع قلة، وقلة الشيء: قمته أو أعلاه. (٤) بؤ: فعل أمر من باء بمعنى عاد.

(٥) أي تضاعيف سرك المنطوية في باطن نفسك. (٦) في ل: السابعة.

(٧) دامج: وافق. وفي الصحاح: دمج الشيء دمجاً إذا دخل في الشيء واستحكم فيه، والتدامج: التوافق.

(٨) عمج: التوى في الطريق يمنة ويسرة. والتعمج: التلوي في السير و الاعوجاج.

(٩) كذا وردت العبارة ولعل صوابها: «من كل ما غطى وحجب الفؤاد».

التصافي بين الشخصين والتناهي بين المتشاكليين يوجبان ذلك ويحدّوان عليه^(١). ولكن مع كل خطرة خَبال، ومع كل نظرة وبال، ولكل إنسانٍ حال، ولكل مقام مقال. ومع هذا التقديم والتأخير. ومع هذا التعريف والتنكير، ومع هذا التسليم والتنقيز، فإني أقول:

كيف يصفو سرور مَنْ ليس يدري أي وقت يسببه لَحْظُ العيُون

وأقول:

أَعْلَلْتُ فِيكَ النَّفْسَ وَالنَفْسُ صَبَّةٌ
إِلَيْكَ، وَمَا تَعْلِيلُهَا عَنْكَ نَافِعٌ
وَأَقُولُ:

وتدعـــــــــــــــــــــــو ثم تمتنعُ
ولا يأسُ ولا طَمَــــــــــــــــع

تواصلني وتقطعنـــــــــــــــــي
فلا وصلٌ ولا قطــــــــــــــــعُ
وأيضًا:

وَيُؤْنِسُنِي وَعْدُ كُورْدٍ^(٢) بِقِيَعَةٍ
مَتَى رُمْتُهُ كُفْتُ بِيَدَاءَ بُلْقَعَا
وَهَلْ يَنْفَعُ الْوَعْدُ الصَّحِيحُ وَتَحْتَهُ
عِقَابُ لَا يَتْرُكُنَ لِلْجَنْبِ مُضْجَعَا
[٦ أ] وَأَيْضًا:

يا قابس النارِ من زَنَدٍ تعالجه
ما النارُ أسرعُ إلهاً بالمُوقِدِها

أقْدَحْ بِزَنْدِكَ في هَمِّي وأحْزاني
في العُودِ من زَفْرةٍ في قلبِ حَرَّانِ

هذا- حاطك الله- دَيَدْنِي^(٣)، في حالي ومَعْدِنِي، لأُمُور شَرَحَهَا كَارِب، وإن كان لي فيها مآرب، ولك في عُرْضِهِ مَذَاهِب ومطالِب. فبعضُهَا لِأَنِّي مُزْعَجٌ عَنْ أَوطَانِ السَّلَوةِ، مأخُوذٌ بِأَحْكَامِ مَا لَيْسَ لِي عَلَيْهِ عَدْوَةٌ^(٤)، وَلَا لِي إِلَيْهِ عَوْدَةٌ. وَإِنْ أَسْرَرْتُهَا فِي نَفْسِي نَمَتْ عَلَيْهَا؛ وَإِنْ كَتَيْتَ عَنْهَا بِلِسَانِي، غَلَبَ عَلَيَّ شَيْئِي^(٥)، وَإِنْ هَمَمْتُ بِشَيْءٍ مِنْهَا، بَيْنِي وَبَيْنِي، أَمَحَقَّ كُلِّي وَبَعْضِي وَكَيْفِي وَأَيْنِي^(٦). فغَايَتِي مَعَكَ، عِنْدَ إِشْكَالِ قِصَّتِي عِنْدَكَ، أَنْ أَقُولَ:

(١) في ر: «ويجدوان» وهو خطأ.

(٢) الورد: الإشراف على الماء، دخله، أو لم يدخله.

(۳) دیدنی: دأبی.

(٤) عَدْوَة: سلطان.

(٥) الشين: العيب.

(٦) الأين: من آن الشيءُ أينما: حان وقته. والمقصود: أحوالى كلها (يذكر الأعراض فى المقولات).

طَرَبْتُ وَلَمْ أَطْرَبْ، وَنِمْتُ وَلَمْ أَنْمِ وَلَمْ تَدْرِ مَا أَلْقَى، وَلَكِنِّي أَدْرِي
 عتابٌ ليس ينقطع، وقلب ليس يرتدع، وفضاء ليس يتسع، وبلاء ليس يمتنع، وروحٌ
 ليس ينتفع، وأمر ليس يرتفع، وشخص إن زال لَمْ يَزُلْ خياله، وحبيب إن غاب لم يَغِبْ
 مثاله، فالشوق على احتدامه مُحْرِقٌ، والوجد على التهابه مُقْلِقٌ، والزمان على عادته جامع
 مُفَرِّقٌ. إذا اعتلجت^(١) الخواطر بالتمني، اختلجت النواظر بالتظني^(٢)؛ وإذا اشتهدت
 الآمال بالتوقع، التبسَّت الغايات بالتمنع. وإذا تحركت المطامع بحلاوات الإرادة، زحفت
 نحوها كتائب اليأس بمرارات الإبادة؛ وإذا تروّحت الأكباد بنسيم العطاء، زهقت الأرواح
 بكرب اليأس، وإذا اتقّدت نار الرجاء بالظن، خمدت من ساعتها على القنوط باليقين.

وإذا قيل هذا أو أن الروح والفرح، ختم هناك الويل والحرَج^(٣) فلا ذِكْرٌ إلا وقد خانته
 النسيان، ولا عشقٌ إلا وقد شَعَثَه^(٤) السلو، ولا وَجَدَ إلا وقد قدح فيه النقص، ولا فؤادٌ إلا
 وقد كُدِّرَ بالريب، ولا طَرْفٌ إلا وقد ازورَّ بالملل، ولا أُذُنٌ إلا وقد برمت بالإصغاء، ولا
 لسانٌ إلا وقد [٦ ب] كلٌّ من الإسهاب، ولا صبرٌ إلا وقد عَزَبَ^(٥) عن المساعدة، ولا
 صاحبٌ إلا وقد ملَّ من المجاملة، ولا عينٌ إلا وقد جمدت من البكاء، ولا بدنٌ إلا وقد
 فتر من العناء، ولا خاطرٌ إلا وقد وقف عن السُّنوح، ولا وجهٌ إلا وقد سَمُجَ بالكلوح، ولا
 بالٌ إلا وقد كَسُفَ بالقنوط، ولا حالٌ إلا وقد ثَبَّتَ على الهبوط، ولا عزٌّ إلا وقد انتهى إلى
 الذلِّ، ولا قولٌ إلا وقد عيب بال تكرار، ولا صَدْرٌ إلا وقد امتلأ بالوجيب، ولا أمرٌ إلا وقد
 استمرَّ على وصف عجيب.

فهلمَّ يا سيدي إلى شجو قد أُمِرْتُ علينا كأسه، وتقطعت بنا عليه أنفاسنا وأنفاسه.
 فلعل التعاون يجدي نفعًا، أو يفتح بابًا، أو يهدي نسيماً، أو يقيم عذراً، أو يخفف أمراً،

(١) اعتلجت: اجتمعت.

(٢) أصلها «التظنن» قال أبو عبيدة: تظنيت من ظننت، وأصله تظنننت، فكثرت النونات فقلبت إحداها ياء. (لسان العرب -

مادة ظنن).

(٤) شَعَثَ الشيء: فرقه.

(٣) الحرج: المكان الضيق.

(٥) عَزَبَ: بُعد وخفي.

أو يصرف نُكْرًا، أو يزيل عُسْرًا، أو ينفي خُسْرًا. فقد طالت النجوى بهذه البلوى التي تليها بلوى، فنكرتها بطول الصحبة معرفة، ومعرفة بشدة الأذى نكرة، وباقيها زائد على ماضيها، وثاويها ألدع من طاريها^(١). وغالب ظني يا سيدي أنك لمساعدتي على هذا الشجو تؤثر أثرًا يخف به ما بنا، ويحط عنا ما أثقلنا، ويبيض وجوهنا عند أحبائنا، ويكفينا شماتة رُقبائنا. وتهدينا إلى الجادة التي منها جُرننا^(٢) وعننا زُلنا. فإذا أراك الله رأيًا فيما سألتك، فعرّفني، حتى ألبس لك شعار الشاكرين، وأتلقاك بتحية المساعدين، وأنشر فضلك بين الحاضرين والغائبين، وأجلو عن عيني قذاها عند رؤيتك بالشمال وباليمين. وأنت تفعل ذلك ثباتًا على شاكلتك المحموده، وجريًا على عادتك المحبوبة، وإيثارًا للسعي الذي تستثمر منه رضاء الله أولًا، ومسرّة الإخوان ثانيًا، وشيعوعة^(٣) الثناء ثالثًا، والمنافسة في الخير رابعًا، والثبات على اكتساب المحامد خامسًا.

الله أسأل أن يزيدك من مواهبه [٧ أ] الضافية^(٤) ما تصير به فردًا، ويوردك من شرائع الصافية ما تزداد به ريًا. هذا دعائي لك، وثنائي عليك، وظني بك، ورجائي فيك، وخبري عنك، فاستثبني عليه، ودرّجني قليلًا إليه، وكن لي كبيرًا أكن لك ظهيرًا، وزدني إفضالًا من فضلك أزدك إجلالًا من جلالك.

بالله! أما ترى هذا التهادي والتمايل في هذه المعاني، التي تلتقطها من ناحية العقل بعد انتشارها على بساط الأنس، دالة على صفيات ودائع الصدور؟ والله لو كان هذا كله هزلًا لا جدّ معه، أو لعبًا لا قصد فيه، أو لغوًا لا تحصيل عنده، لكان ينبغي أن تراه غنيمه باردة، وكنزًا مظفورًا به، وبابًا مفتوحًا إلى الرضا، وطريقًا لأحبًا^(٥) إلى المني، ونعمة موافية على غير احتساب. فكيف وهو ينادي صارخًا بصحة الولاء، وشدة الوفاء، ومتابعة الدعاء، ومواصلة الثناء، ومجانبة الرياء؟!

أيها السيد! ما أصنع والقلب منفطر من شواهد غلق^(٦) رهنها منذ زمان، ويس من

(١) ثاويها: نوى بالمكان: أقام فيه واستقر. ألدع: أكثر حرقة وألمًا. طاريها: طري: أي من مكان بعيد.

(٢) جار عن القصد والطريق: مال وعدل. وقرئت «جسرنًا» وذلك خطأ.

(٣) بمعنى: شيع. (٤) الضافية: السابغة. (٥) لأحب: واسع.

(٦) غلق الرهن غلقًا: استحققه صاحبه ولم يقدر على افتكاكه في الوقت المشروط له.

فَكَاهُ فِي كُلِّ أَوَانٍ، وَصَارَ الطَّمَعُ فِي ذَلِكَ مُحَالًا أَوْ كَالْمُحَالِ، وَجَهْلًا أَوْ كَالْجَهْلِ. وَإِنَّمَا أَبْتُ فِي وَقْتٍ بَعْدَ وَقْتٍ بَعْضَ عَوَارِضِ النَّفْسِ عِنْدَ الْفَيْضِ الشَّدِيدِ وَالْغَيْظِ الْمَدِيدِ، وَحِينَ يَبْلُغُ الْعَجْزُ آخِرَهُ، وَيَسْتَغْرِقُ الْيَأْسُ ظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ. فَإِنَّمَا أَحَاوَلُ بِذَلِكَ الْبَثَّ تَخْفِيفًا، فَلَا أَزْدَادَ بِهِ إِلَّا تَنْقِيلًا، وَكَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ خَدَائِعِ الْحَالِ، وَمَنْ تَعَذَّرَ الْمَنَالُ.

اللَّهُمَّ اعْرِجْ بِنَا إِلَى جَنَابِكَ الرَّيِّحِ^(١)، وَحَيِّنَا بِكَلَامِكَ الطَّيِّبِ، وَاسْتَصْلِحْنَا لَخِدْمَتِكَ، وَاخْلُطْنَا^(٢) بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى عِنْدَكَ، وَارْحَمْ فَقْرَنَا فِي غِنَانَا، وَاحْفَظْ غِنَانَنَا فِي فَقْرِنَا، وَلَذَّنَا بِطَاعَتِكَ كَيْفَمَا كُنَّا، وَحُلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، وَاجْعَلْنَا مِمَّنْ إِذَا قَالَ صَدَقَ، وَإِذَا عَمِلَ حَقَّقَ، وَإِذَا سَلَكَ طَرَقَ^(٣)، وَإِذَا جَمَعَ فَفَرَّقَ، [٧ ب] وَإِذَا أَشَارَ دَقَّقَ، وَإِذَا عَبَّرَ رَقَّقَ، وَإِذَا خَطَبَ شَقَّقَ^(٤)، وَإِذَا سَارَ أَعَنَقَ^(٥)، وَإِذَا مَلَكَ أَعْتَقَ، وَإِذَا بَحَثَ أَعَمَّقَ. إِنَّكَ مَنْ تَوَهَّلَ مَنْ تَرِيدَ، لِمَا تَرِيدَ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

رسالة (٣)

وَصَلِّ^(٦) كِتَابُكَ - وَصَلِّكَ اللَّهُ بِالْخَيْرِ وَجْعَلْكَ مِنْ أَهْلِهِ - تَسْأَلُنِي فِيهِ عَنْ حَالِي، وَتَسْتَنْطِقُنِي بِهِ عَنْ ظَاهِرِي وَبَاطِنِي، وَعَنْ سِرِّي وَعِلَانِيَّتِي، وَعَنْ سَكُونِي وَحَرَكَتِي، وَعَنْ انْتِبَاهِي وَرَفَقَدَتِي، وَعَنْ قَرَارِي وَاضْطِرَابِي، وَعَنْ يَقِينِي وَارْتِيَابِي، وَعَنْ تَقَاعُصِي وَانْتِصَابِي، وَعَنْ عَلَلِي وَأَوْصَابِي^(٧) - وَفِي الْجُمْلَةِ، عَنْ جَمِيعِ أُمُورِي وَأَسْبَابِي، وَفَهْمُهُ بِالْشَّرْحِ وَالتَّفْصِيلِ عَلَى مَا بِي مِنْ بَلَائِي وَعَذَابِي. فَمَنْ لِي الْآنَ بَوَاقْتُ يُنْفَسُ حَتَّى أَهْذَّ^(٨) عَلَيْكَ جُمْلَةً تَسْتَوْعِبُكَ، وَتَفْصِيلاً يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَكَ، وَكِتَابَةً تُبَدِّدُ وَهْمَكَ، وَتَصْرِيحًا يَقَيِّدُ فَهْمَكَ، وَبِلَاغَةً تَمَلَأُ قَلْبَكَ، وَعِيًّا يَسْتَأْسِرُ لَبَكَ، وَاخْتِصَارًا لَا تَحْصِلُ مِنْهُ عَلَى حَرْفٍ،

(١) الرِّيحُ: الطَّيِّبُ الرِّيحُ.

(٢) اخْلُطْنَا: ضَمْنَا.

(٣) طَرَقَ: مَهَّدَ لِنَفْسِهِ طَرِيقًا.

(٤) أَعَنَقَ: أَسْرَعَ.

(٥) أَعَنَقَ: أَسْرَعَ.

(٦) وَرَدَ مَعْظَمُ هَذِهِ الرِّسَالَةِ فِي ل (الْوَرَقَاتُ ١٢ - ١٦) تَحْتَ عُنْوَانِ (كِتَابُ جَوَابِ مُسْتَخْبَرٍ مِنَ الْإِشَارَاتِ الْإِلَهِيَّةِ).

(٧) أَوْصَابِي: أَوْجَاعِي وَأَمْرَاضِي.

(٨) هَذَا الْحَدِيثُ: سَرَدَهُ.

وإسهاباً يغرقك غرقاً بعد غرق؛ وواضحاً يصلك باليقين، ومُستعجماً يُضلك عن الصراط المستقيم؟ ولو أدركتُ هذا الوقت، وأصبت هذه الغاية، وكُنْتُ مُزَاحِ العلة، أريحِي الهمة، طَلِّقِ الوجه، سَمِّحِ الطباع، مَلِّئِي النفس، رَخِّي البال، فصيح اللهجة، حاضر الخاطر، مَرِّضِي القول، حَسِّنِ الشارة، خَصِّبِ الدارة، لما استطعتُ بلوغ أوائل حالي، ولو ساعدتني اللغات على اختلافها، واستجابت لي الخواطرُ على ائتلافها والتفافها، لأن أدنى ما أنا ممنوُّ به ومحطوط فيه ومراد به، ومحمول عليه، ومحلول إليه، ومغموس فيه، ومعكوس معه قول القائل:

فَقَرَّ كَفَرُ الْأَنْبِيَاءِ وَغُرَبَاءُ وَصَبَابَةٌ^(١) لَيْسَ الْبَلَاءُ بِوَاحِدٍ

وجواب مثلك عن مَسَائِلِكَ المختلفة إنما يكون بصدرٍ لا حَرَجَ فيه، ولسانٍ لا لُكْنَةَ به، وهَمٌّ^(٢) لم تمزقه الرزايا، وسرٌّ لم تكتنفه البلايا، وظاهرٍ لم تختطفه الخطايا، [٨ أ] وباطنٍ لم ترتدفه الحطايا^(٣). وعلى علّاتي التي وصفتها، وخَلّاتي التي رَصَفْتُهَا^(٤)، فإني أنبذُ^(٥) إليك من جملة ما عناك مني ما يكون شرّاً لبعض ما بلغك عني، وأرجو أن يكون ذلك في أثناءه إلى ما تريده عُرْجَةً، ولي في بث أشجاني إليك به فُرْجَةً. فاستمع الآن - يرحمك الله - فقد حملتُ على نفسي لك اعترافاً بفضلك، وقضاءً لحقك، وإيجاباً لمسألتك، وإيثاراً لطاعتك، وامتنالاً لأمرك، وانتداباً لمرادك. فأما حالي فسيئة كيفما قَلَبْتُهَا، لأن الدنيا لم تؤاتني فأكون من الخائضين فيها، والآخرة لم تَغْلِبْ عَلَيَّ فَأَكُونَ من العاملين لها. وأما ظاهري وباطني فما أشد اشتباههما! لأنني في أحدهما متلطخ تَلَطُّخاً لا يَقْرَبُنِي من أجله أَحَدٌ، وفي الآخر مُتَبَدِّخٌ تَبَدُّخاً لا يُهْتَدَى فيه إلى رَشَدٍ؛ وأما سِرِّي

(١) الصبابة: حرارة الشوق. وفي ر: وصّابة، وصَبَّه: أَمْرَضَهُ فِي وَصْبِهِ، أَي تَعَبَهُ.

(٢) الهَمُّ: عَقْدُ الْقَلْبِ عَلَى فِعْلٍ شَيْءٍ، أَي النِّيَّةُ. تَقُولُ هَمَمْتُ بِالشَّيْءِ: نَوَيْتُهُ.

(٣) الحطىء: الرُّذَالُ مِنَ الْآدَمِيِّينَ. وَلَعَلَّ أَصْلَهُ: «الْمَطَايَا»، بِدَلِيلِ: تَرْتَدِفُهُ، وَالْمَرْتَدِفُ هُوَ الرَّكَّابُ خَلْفَ الرَّكَّابِ عَلَى الْمَطِيَةِ.

ووردت: «الحطايا» مفرداً الحظوة بمعنى السهم الصغير وهي كناية أيضاً عما أصاب باطنه من الآثام.

(٤) رصف: ضَمَّ بَعْضُ الْأَشْيَاءِ إِلَى بَعْضٍ. وَفِي ل: نَصَفْتُهَا.

(٥) أنبذ: أَطْرَحَ وَأَرَمِي.

وعلايتي فممقتان بعين الحق لخلوَّهما من علامات الصدق ودنوهما من عوائق الرق. وأما سكوني وحركتي فأفتان محيطتان بي، لأنني لا أجد في أحدهما حلاوة النجوى، ولا أعرى في الآخر من مرارة الشكوى. وأما انتباهي ورقدتي، فما أفرق بينهما إلا بالاسم الجاري على العادة، ولا أجمع بينهما إلا بالوهم دون الإرادة. وأما قراري واضطرابي فقد ارتهنني الاضطراب حتى لم يدع فيّ فضلاً للقرار. وغالبُ ظني أنني قد علقت به، لأنه لا طمع لي في الفكاك، ولا انتظار عندي للانفكاك. وأما يقيني وارتياحي، فلي يقين، ولكن في درك الشقاء؛ فمن يكون يقينه هكذا، كيف يكون خبره عن الارتباب؟ وأما تقاعسي وانتصابي، فقد وضّح لك في عرض شهودي وغياي، ومنظوم إطنابي وإسهابي. وأما عللي وأوصابي، فقد أبنت عنها في تضاعيف جوابي وكتابي. وأما أموري وأسبابي، فمن أجلها طال خطابي وعتابي.

فحدثني الآن، يا سيدي! أين أنت فيما تسمع عما كنت عليه، وأين أنا فيما قلت لما أنا مدفوع إليه! [٨ ب] دعنا يا هذا عن هذا وهذا! إلى متى نتلاقى فتنهادي^(١)، ونترأى^(٢) فتنعادي، ونتناجي فتنفادي^(٣)! وخذ بنا إلى باب الله الذي عليه وقفت الهمم، فالطريق إليه أمم^(٤)، وهو لمن يقصده علم، يتلقى بالنعم، ويشفي من السقم، ويغني بعد العدم، ويلدّد بعد الألم. فإلى متى نعبد الصنم بعد الصنم، كأننا حمر أو نعم^(٥)؟ إلى متى نسيء ظننا به، ولم نر خيراً إلا منه؟! إلى متى نشكو إلى خلقه، وليس لنا معاد إلا إليه؟! إلى متى نشرّد عنه، ولا قوام لنا إلا به! إلى متى نكذبُه عن أنفسنا، وهو أعلم بنا منا؟! إلى متى نعتصم بغيره، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد؟! إلى متى نثق بسواه، وهو لنا تجاه؟! إلى متى نختان^(٦) أنفسنا، كأننا على رشد أو غبطة؟! إلى متى لا نستحي من طول ما لا نستحي؟! إلى متى نقول بأفواهنا ما ليس في قلوبنا؟! إلى متى ندّعي الصدق، والكذب شعارنا

(١) تنهادى: يسوق بعضنا بعضاً.

(٢) في ر: وتنهادى.

(٣) أي يتجنب كلُّ منا الآخر.

(٤) أمم: يسير، قريب.

(٥) النعم: المال السائم، غنم وماعز وحمير وبقر، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل.

(٦) أي نخون.

ودثارنا! إلى متى نتمادى في الغواية، وقد فنى العمر بليتنا ونهارنا؟! إلى متى نتنافس بذكره، وزنانيرنا^(١) في أوساطنا؟! إلى متى نُخلد إلى الدنيا، وقد دنا منها رحيلنا؟! إلى متى نستظل بشجرة قد تقلص عنا ظلُّها؟! إلى متى نبتلع السموم ونحن نظن أن الشفاء فيها؟!!

اللهم إِنَّا عَلَيْكَ نُقْبِلُ، وَإِيَّاكَ نَسْأَلُ، وَإِلَيْكَ نَسْتَرْسِلُ، وَبِكَ نَتَوَسَّلُ، وَرِضَاكَ نَبْغِي، وَرَحْمَتَكَ نَرْجُو، وَعَفْوِكَ نُؤَمِّلُ. لَا تَوَاخِذْنَا بِتَحْرِيفِنَا فِي الْعَمَلِ، وَبِتَجْدِيفِنَا فِي الْقَوْلِ، وَسَهِّلْ عَلَيْنَا اللَّيَازَ بِكَ، وَأَفْرِغْ عَلَيَّ قَلْبِنَا مَحَبَّتَكَ، وَاصْطِنَعْنَا عَلَى عَيْنِكَ، وَلَذَّنَا بِحَلَاوَةِ مَنَاجَاتِكَ، وَأَهْلُنَا لِرَفْعِ حِجَابِكَ، وَأَنْسِنَا خَلْقَكَ حَتَّى لَا يَجْرِي عَلَى أَلْسِنَتِنَا ذِكْرُهُمْ بِخَيْرٍ يَكُونُ شَاغِلًا عَنْكَ، وَلَا بِشَرٍّ يَكُونُ مُبْعِدًا مِنْكَ. وَعَوِّدْ جِبَاهَنَا السَّجُودَ لَكَ، وَقُلُوبَنَا الْفِكْرَ فِيكَ، وَأَرْوِاحَنَا الشُّوقَ إِلَيْكَ، وَجَوَارِحَنَا الْقِيَامَ عَلَى طَاعَتِكَ، وَأَجَلْ أَعْيُنَنَا [٩] فِي مَلَكُوتِكَ، وَاكْثُلْهَا بِالْإِعْتِبَارِ، وَأَلِّفْ أَسْرَارَنَا بِكَ وَاعْمُرْهَا بِالْأَنْوَارِ. وَقَرِّبْنَا مِنْ سُرَادِقَاتِ عِزِّكَ حَتَّى نَسْطَعَ بِرَوَائِحِ كَرَامَتِكَ، وَأَنْعَمَ لَنَا بِحُرُوفِ رَبُوبِيَّتِكَ حَتَّى نَخْلَصَ لَكَ، وَنَنْسَى مَا دُونَكَ. إِنَّكَ إِذَا شِئْتَ قَرَّبْتَ وَأَدْنَيْتَ، وَإِذَا شِئْتَ طَرَدْتَ وَأَقْصَيْتَ. لَكَ الْمَشِيئَةُ الَّتِي لَا تُطَاوِلُ بِهَا، وَالْعِزَّةُ الَّتِي لَا تُغَالِبُ عَلَيْهَا، وَالْقُدْرَةُ الَّتِي لَا تَجَارَى فِيهَا، وَالْحِكْمَةُ الَّتِي لَا يُبْلَغُ مِنْتَهَا. فَجُدْ عَلَيْنَا بِكَ، وَأَمِّنَّا مِنْكَ، وَأَوْصِلْنَا إِلَيْكَ، وَقَدِّسْنَا لَكَ، وَأَهْلُنَا فِي كُلِّ حَالٍ لِمَا أَنْتَ أَهْلُهُ.

هذا- هَذَاكَ اللهُ- آخر جوابي عن كتابك الذي حَرَّكَتَنِي فِيهِ عَلَى مُبَاتَّتِكَ، فَإِنْ سَرَّكَ هَذَا الْجَنَسُ وَأَعْجَبَكَ هَذَا الْأَنْسُ، فَوَاصِلْ ذَلِكَ مَفِيدًا لِأَجْرِي عَلَى عَادَتِي [مَعَكَ]^(٢) مُسْتَفِيدًا. وَاعْلَمْ أَنَّ فِي النَّفْسِ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ حَيَاةَ الْقُلُوبِ، وَمُطَاوَعَةَ الْغُيُوبِ، وَمُبَايَنَةَ الْغُيُوبِ، وَمُطَالَبَةَ السُّيُوبِ^(٣)، وَلَنْ يَتِمَّ ذَلِكَ لِلْجَبَانِ الْهَيُوبِ، الْجَاهِلِ بِالْطُّلُوعِ وَالْغُرُوبِ، الْعَاجِزِ عَنِ السُّرَى وَالْدُّوُوبِ، فِي آفَاقِ هَذَا الْعَالَمِ الْمَحْجُوبِ.

(١) زَنَارُ الرَّاهِبِ: الْحِزَامُ الَّذِي يَشْدُ بِهِ وَسْطَهُ. وَكَانَتِ الزَّنَانِيرُ عَلَامَةً مُمِيزَةً لِأَهْلِ الذِّمَّةِ؛ وَالْمَعْنَى أَنَّنَا نَتَنَافَسُ بِذِكْرِهِ وَنَحْنُ نَحْمِلُ شَارَةَ الْمَنْصَرَفِينَ عَنْهُ.

(٢) السُّيُوبُ: الْعَطَايَا. الْمَفْرَدُ سَيْبٌ.

(٣) زِيَادَةُ مِنْ ل.

أيها السامع! ليس كل من رَقَدَ حَلَمَ بما يريد، ولا كلُّ مَنْ مَدَّ يده نال ما يطلب، ولا كلُّ من أَدْعَى سُلِّمَ له دعواه، ولا كلُّ من دعا أُجيب، ولا كلُّ من قَرَعَ الباب دَخَلَ، ولا كلُّ من اسْتَرْقَ السَّمْعَ سَلِمَ^(١)، ولا كلُّ من اسْتَعْفَى أُعْفِيَ، ولا كلُّ من قال بَدَأَ^(٢) لي تُرِكَ، ولا كلُّ من اسْتَرْحَمَ رُحِمَ، ولا كلُّ من تَعَرَّضَ^(٣) اسْتُخْدِمَ، ولا كلُّ من وَصَلَ وَدَّ، ولا كلُّ مَنْ بَعُدَ عُدِمَ، ولا كلُّ من سَأَلَ حُرِمَ، ولا كلُّ من أَلْحَفَ أُعْطِيَ، ولا كلُّ من بَكَى أَرْضِيَ، ولا كلُّ من خُطِبَ زُوِّجَ، ولا كلُّ من مَلَكَ تَوَجَّجَ، ولا كلُّ من رَجَا أَدْرَكَ، ولا كلُّ من مُنِعَ خَابَ، ولا كلُّ من قُدِّمَ فَقَدَ أُكْرِمَ، ولا كلُّ من أُخِّرَ فَقَدَ أَهِنَ، ولا كلُّ من سَبَحَ غَرِقَ، ولا كلُّ من خُوفَ فَرِقَ، ولا كلُّ من أَوْمِنَ اطمَنَّ، ولا كلُّ من دُلِّيَ ارجحنَّ^(٤)، ولا كلُّ من توسَّلَ قُبِلَ، ولا كلُّ من التمس نُؤِلَ. في الغيب عجائب، وفي العجائب أيضًا عجائب. كيف لا يكون هذا، والاستدراج [ب ٩] قائم مع اللحظات، والتلبيس جار مع اللمحات، والفرحات مطويات في الترحات، والترحات مبنية على الفرحات، والسَّحرة^(٥) قيام على أهل اليقظات والغفلات. فلا العلم باختلاف الأحوال نافع، ولا الجهل به ضار، بل ربما ضرَّ العلم، وربما نفع الجهل، وربما نيل بالخبط^(٦)، وربما فات بالتأني، وربما بُعد الداني، وربما قرب النائي. فليس لشيء مما تراه عينك منهاج، ولا لذي لبِّ به سرور وابتهاج. وهذا كله لقدرة صادرة عن غيب مشيئة، ولمشيئة نافذة واردة على شهادة قدرة، ولحكمة خافية في آفاق المملكة، وأحكام جارية على أصناف الخليقة، وأسرار مجهولة عند البحث والحقيقة. العقول في خَفِيَّاتِهَا أُسْرَى مَقِيدَةً، والأحساس^(٧) في جَلِيَّاتِهَا فَوْضَى مَبْدَدَةً، والعقائد في التنقير عنها منحلة، والأقوال في وصف تشاكلها وتباينها مختلفة. فلا جَرَمَ: لا سرًّا إلا وهو متهم، ولا قائل إلا وهو متوهم، ولا سامع إلا وهو كظيم، ولا عامل إلا

(١) أي سلم من رجوم يُرمى به أو سلم من العقوبة لتسقطه الأسرار، وفي ذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَسْمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ سَهَابًا رَصَدًا﴾ [الجن: ٩].

(٢) بدالي: أي عَنَ وظهر لي، في حال الذنب. (٣) أي عرض نفسه للخدمة عند إنسان.

(٤) ارجحنَّ = اهتز، أي ليس كل من دُلِّيَ بحبل أو شبهه اهتز واضطرب.

(٥) السحرة هنا كناية عن المموهين الذين يتلاعبون بقلوب الناس وعيونهم ويضلونهم عن الحقيقة.

(٦) الخبط: الضرب على غير أناة، وهو مقابل للفتة «التأني» الواردة بعد ذلك. (٧) جمع: حسَّ.

وهو مُلِيم، ولا قلب إلا وهو سقيم، ولا لائم إلا وهو ملوم^(١)، ولا واجد إلا وهو عديم، ولا غني إلا وهو فقير، ولا عظيم إلا وهو حقير، ولا كثير إلا وهو قليل، ولا صحيح إلا وهو عليل، ولا قريب إلا وهو بعيد، ولا هيّن إلا وهو شديد، ولا عالم إلا وهو جاهل، ولا عاقل إلا وهو ذاهل، ولا آمن إلا وهو واهل^(٢)، ولا ريان إلا وهو ناهل^(٣)، ولا مَصْرور إلا وهو باهل^(٤).

خبرٌ والله طريف، وحديث والله عنيف؛ الفكر فيه يورث الوسواس في الصدور، والسكون عنه يصدُّ عن الجواز والعبور، والسؤال عنه يَحْمِلُ على التُّهْمَةِ، والجواب عنه يزيد في الحيرة. فهل رأيت قولاً كلما بَانَ غَمُضَ؟ وهل رأيت عزقاً كلما سَكَنَ نَبْضَ؟ وهل رأيت ناراً كلما أُطْفِئَتْ اشتعلت، وهل رأيت كبداً كلما بُلَّتْ جَفَّتْ؟ وهل رأيت سَقَمًا كلما عولج [كان]^(٥) أعضل؟ وهل رأيت بياناً [١٠ أ] كلما وضح أشكل؟ وهل رأيت مطلوباً كلما دَنَا بُعْدُ؟ وهل رأيت صَداً كلما جُلِيَ زَادُ؟ وهل رأيت شيئاً كلما كُوِّنَ فُسَدُ؟ وهل رأيت فِتْنًا كلما رُتِقَ اتسَعُ؟ وهل رأيت مُهَجَّرًا^(٦) كلما استظَلَّ ضَحَى؟ وهل رأيت مريضاً كلما استقلَّ^(٧) نُكِسَ؟ وهل رأيت وضعاً^(٨) كلما استقام عُكْسُ؟ وهل رأيت أمراً كلما استمر قَعْسُ^(٩)؟ هيهات!

غَرَّ امرؤ مَتَّه نَفَّه ————— سُنْ أن تدوم له السلامه —————

أيها الصديق بالسَّمة، المخلص بالدعوى! اسمع هذه البلابل فإنها والله مَخْرَجَةٌ لكل صدر وإن كان مشروحاً، ومَطْرَدَةٌ لكل صبر وإن كان ممدوحاً. وإذا سمعتَ فتعجَّب، وإذا تعجبت فتعجَّب بعد التعجب. فَوَحَقَّ الحقُّ إن السر فيها لمكتوم، وإن الغيب فيها لمعلوم، وإن الظاهر منها لمفهوم، وإن الباطن فيها لموهوم. هكذا وقع الخداع، وعلى

(١) الملووم هو الذي يلام ولا ذنب له، والمليم: من يأتي بما يلام أو يوبَّخ عليه من قول أو فعل.

(٢) وَهَلْ وَهَلًا: ضَعُفٌ وَفَزَعٌ وَجَبْنٌ. (٣) ناهل: عطشان.

(٤) بهلت الناقة: حُلَّ صرارها وترك ولدها يرضعها. وصَرَ الناقة: شد ضرعها بالصرار لئلا يرضعها ولدها.

(٥) زيادة من ل. (٦) مُهَجَّرًا: سار في الهاجرة وهي الحر الشديد.

(٧) استقل. المريض: نهض وارتفع، أي برئ. ونُكِسَ المريض: عاوده مرضه بعد نقاهة.

(٨) وضعاً: ل: وصفًا. (٩) قعس: ثبت، توقف.

هذا تحيُّر الطباع.

اللهم نَوِّرْ قلوبنا حتى ندرك بها ما أوحشنا منا وأنسنا بنا، وَحَيِّرْنا فينا، وسلطنا علينا. أما إِيحاشنا منا فلعلمنا بنزولنا في ديار مخالفتك، وأما أنُسنا بنا فلغفلتنا عما فاتنا منك، وأما حيرتنا فينا فلجهلنا بما يراد بنا لك، وأما تسلطنا علينا فلسعيننا في هلاكنا باليد عند التناول، واللسان عند القول، والعقد عند التفكير.

اللهم فَسِّرْحُنَا من قيد هذه الحياة الكَدِرة، ومن معاناة هذه الأحوال الوَضِرة^(١)، إلى تلك الحياة التي مَنْ هَبَّ عليه نسيْمُها عاش وبَقِيَ، ومن فاتَه ذلك [النسيم]^(٢) طاش وشَقِيَ؛ يا ذا الجلال والإكرام!

رسالة (٤)

أَحَبَّائي على القُرْب بالتصافي، وعلى البعد بالتوافي! جمع الله لكم قواصي المُنَى، وأنا لكم بكرمه أَفْضَلَ الغنى، وخفف عليكم الاعتصام بأسباب الزُّلْفَى، ورفع عن أسراركم مناجاة الشكوى، وأهَبَّ عليكم نسيماً ناعماً من شَرَف المأوى، [١٠ ب] ومَتَّع أرواحكم بمنغاة المَوْلِ، وأوضح لكم غوامض النجوى، وكتب أسماءكم وصفاتكم في ديوان من سبقت له من الله الحُسنى، وأَذَلَّ لكم مصاعب الأمور، وتولاكم في قوارع الدهور، وزين بكم عِراص^(٣) أهل الحقائق، وكفاكم في السفر والحضر فواجي البوائق^(٤):

لكل نفسٍ مُنى وشأن
وأنتُم مُنيَتِي وشانِي
لأنِّي إذا ذُكرتكم ذُكرت بكم ما أخلَقَ جديده؛ وإذا حُنتُ إليكم حُنتُ حيناً ما تزعزع وليَّده، وإذا وُجِدْتُ بكم وُجِدْتُ وجداً ما لانَ شديده، وإذا هُمْتُ بكم هُمْتُ هيماناً ما تناهى رديده، وإذا وُصِفْتُكم وُصِفْتُ وصفاً لا يُحصى عديده، وإذا صافحتُ طيفكم

(١) الوضر: الوسخ. (٢) زيادة من ل.

(٣) عِراص: جمع عَرَصَة: ساحة الدار. وتروى بالضاد، قال الزمخشري: هو بالصاد المهملة.

(٤) البائقة: الداهية.

صافحت طيفاً لا ينقضي نزوله وصعوده. فعليكم السلام من قلب قريح، وفؤاد جريح،
بلسان فصيح، وضمير صحيح. فما أشد بكائي بَعْدَكُمْ على بُعْدِكُمْ! وما أكثر تلفّتي
نحوكم! وما أبلغ تذكري شجوكم!

من أيّ نواحي الأرض أبغي وصالكم وأنتم ملوك ما لمقصدمكم نحو^(١)
كتبت إليكم^(٢) يا أحباب قلبي، ووَرَّادَ شُرْبِي^(٣)، وطُلابَ قُرْبِي، عن قَلْبٍ^(٤) يلتهب
أسفاً عليكم، وشوق يعصر الدموع إليكم، وبال منخزل^(٥) عند تمنّي عطفكم، وليل
يتناهى في مراعاة طيفكم، ونهار مُتعب في توقع لطفكم. فقولوا لي الآن: كيف التلاقي
والمزار بعيد؟ أم كيف التواصل والرقباء أسود؟ أم كيف العزاء والفؤاد عميد^(٦)؟ أم كيف
الصبر والبلاء ممدود؟ أم كيف التوجّه والطريق مسدود؟! فسُقياً لعيش مضى نصيراً
في ظلال صحبتكم، ورعيّاً^(٧) لزمان تقضى حميداً في مجالس عشرتكم! ما كان أحلى
سَمَرنا معكم، وما كان أبهج أنسنا بقربكم، وما كان أملح شمائلنا في خدمتكم، وما كان
أشهى دلالتنا بحضرتكم، وما كان أشجى نعمتنا بين لا ونعم في تمنعكم وإجابتكم! نعم!
وسُقياً للرسائل التي كانت تجري بيننا وبينكم، نعم ورعيّاً [١١ أ] للوسائل التي كانت
تردد عندنا وعندكم، والوشاة على خيبتها في الظفر بنا وبكم، والعيون موكلة بخضوعنا
وتيهكم، والأنفاس متصعدة بالأسى والتلهف من أجلنا وأجلكم، والأكف مبسوطة إلينا
وإليكم، تلتمس فضلنا وتفضلكم، والأحباب تتهادى بحديثنا وحديثكم: فمن كاذب قد
صدق، ومن صادق قد كذب. وكل ذلك يحلو بذكركم، ويُحتمل لوجوهكم؛ ويُستزاد،
وإن كان لا ذعاً لأنه منكم وبكم. من الذي يطمع في نعت ما سلف لنا ولكم؟! ومن يقدر
على استيفاء تلك اللطائف التي جرت بيننا وبينكم؟ وكيف يُؤتى عليها؟ أم كيف يُسلّك
إلى غايتها، وقد كان في عرضها ما تجافى عنه اللفظ، وينأى دونه الوهم، وخفي عن

(١) البيت لعبد الملك بن صالح، أحد رجال الرشيد كتبها إليه معتذراً، وبعده:

ونحو بمعنى: اتجاه. فلا حسن نأتي به تقبلونه ولا إن أسأنا كان عندكم عفو

(٢) ر: إليك. (٣) الشرب: مورد الماء.

(٤) ر: قرب. وما أثبتناه يناسب السياق.

(٥) منخزل: منقطع. (٦) أي معمود: حزين شفه الوجد.

(٧) رعيّاً لك: حفظاً لك.

كوا من الغيب؟! وإنما يتذكر أشياء بقيت رسومها في النفس بآثار بقيت من بقايا الأنس، ألَّفها القلم ونظمها الكلم. فأما ما احتجب عن الظنون، واستتر عن العيون، وسبح في بحر لا ساحل له بكان ويكون، فذاك شيء قد ضربت دونه الأسداد^(١)، ووضعت عليه الحفظة والأرصاد، ولهذا ترنم المترنم، قال:

سَيَّرَ المساكين لا يبدو به أحدٌ هناك حيرة همام ونقار

فيا أحبابي! ارحموني في أوصابي، ودبروا ما بي، فإنني لما بي^(٢). وإن استوحشتم لتقصيري مني، فاستأنسوا بما ألقىته عليكم عني. أنا- وحياتكم إليكم- ذو صباية، لكنني أشتمل من أجلكم على مهابة، فارغوا ذمام خدمتي لكم، وحافظوا على ما تحملت فيكم، فقد شربت العلقم في هواكم، وداريت العدى تحملاً لكم، ولزمت الصمت حتى نسيت الكلام، واعتزلت حتى قيل هو من الوحش، وغضضت حتى قيل من العُميان. لو كنتُ مدعياً فيما أقول، لكان لي تحرُّم^(٣) بكم وكان نولكم^(٤) أن تتكرموا. فكيف، ولي شهود في محبتكم عدول: ذوبُ جسم^(٥)، وانتكاث بشاشة، وتصعدُ نفس، [١١ب] وانهمال دمع، وانتحال صبوة، وخفقان صدر، وذلة نفس، وطاعة أمر، ومواربة حاسد، ومقاربة واش، ومصانعة رقيب، واستحالة سحنة، واحتمال محنة، وتردد حشرجة، وسهر ليل، وتعب نهار، ووحشة وحدة، ودهشة فكرة، وعطشة سفر، ورقبة^(٦) حضرة، وفجعة عيان، وروعة خبر!

فهذه بيناتي في محنتي، وآياتي في فتنتي. فأين أنتم من مجازاتي ومكافاتي حسب ما يليق بكم أو بي؟ أسأل الله مادةً من الصبر على محنتي فيكم، وصنعاً من التوفيق على فتنتي بكم.

(١) السدود والحواجر. (٢) أي: إنه لما به وجود بنفسه.

(٣) أي التجاء إلى حرمتكم ومودتكم.

(٤) يقال: ما نولك ولا نولك أن تفعل كذا: لا ينبغي لك.

(٥) ذوب جسم: عصارته.

(٦) الرقبة بالكسر: الحراسة والتحفظ، والفزع، والمعنى الأخير هو الأنسب هنا.

أيها القوم! انتسبت إليكم، واعتمدت عليكم، ونزلت في جواركم، وعبقت بنسيمكم، وألقت تراب أرضكم، وشربت بكأس وُدِّكم، وعشقت اسمكم، ولهجت بذكركم، وقلت أنتم وأنتم؛ وحُشْتُ^(١) القلوب إليكم، وحشدتُ الجموع على بابكم، وأذنت في الوصول إلى مجلسكم تعظيمًا لقاصدي خدمتكم، وحجبت عنكم غيرةً على عظيم محلكم، وسُئِلْتُ عنكم فمدحتكم، واسترُشدت إلى رُبْعُكم فأرشدت إليكم، وقيل لي: صِفْ لنا كرمهم، فأبلغت عنكم، واستُخبرت عن صنيعكم فأوضحت ذلك لهم بكم.

وقيل لي: ماذا حَصَلَتْ منذ انقطعت إليهم؟ وماذا كسبت منذ تعلقت بذيلهم؟ فرفعت عقيرتي وقلت: حَصَلْتُ مكنون الغيب في الشهادة، وكُسيْتُ عزيز الحال في مَرْجُو السعادة، وغَنَيْتُ بهم غِنًى لا أخاف بعده الفقر. ظاهري الاستقلال بكل وارد، وإن حَنَى الظهر، وباطني الاستكمال بكل شارد، وإن خَفِيَ على أهل العصر. استنار صدري بمعرفته، ونطق لساني بتوحيده، وخَفَّتْ أطرافي لخدمته، والتطم ضميري بأمواج محبته، واكتنف أطرافي بوادي إحسانه ولطفه. فما يسنح لي سانح إلا وفيه آية من آيات كرامته، ولا [١٢] أيرح بي بارح إلا وعليه علامة من علامات برِّه ورأفته. إن قلت فهو مصحوب قلبي، وإن أمسكت فهو ساكن سري. إن قدحت فهو الذي يُورِي^(٢)، وإن غرست فهو الذي يُنمي، وإن سألت فهو الذي يُعني ويعطي، وإن سكت فهو الذي يعيد ويبدى، وإن شكرت فهو الذي يفيد ويزيد ويُسدي. فهو آخر ما قطعت عليه قلبي، على أنني ما بلغت معشار ما عندي.

فيا أحابي! ما في هذا القليل الذي نبأت به عنكم ما يرعى ذمامي عندكم، ويخلطني بصغيركم وكبيركم، ويكثر بي عددكم، ويُعْطِفُ عليَّ أبْيَكُمْ، ويُفِيء إليَّ جافِيَكُمْ^(٣)، ويُبَلِّ لَهَاتِي من سَجَلِكُمْ^(٤)، ويُقرئني عنوان كتابكم، ويمتّع طَرْفي بالنظر إلى حيطان دوركم، ويَطْرَح في عيني ذُرُور^(٥) محبتكم، ويكتب اسمي في عَامَّة حَشَمِكُمْ إذا لم يكتب في

(١) حاش القوم الصيد: جاءوا من حواله ليصرفوه إلى المصيدة. أي وجهت قلبي إلى محبتكم.

(٢) وَرَى الزند: أخرج ناره. وقدح بالزند: ضرب به حجره لإخراج النار منه.

(٣) الجافي: الفظ الغليظ، الخالي من العاطفة. (٤) السجل: الدلو العظيمة مملوءة.

(٥) ذرور العين أو الجرح: ما يُدْرُ على العين أو على الجرح. من دواء يابس.

خاصّة خَدَمَكُم، بل إن ظني بكم لجميل، ولي على ذلك ضامن وكفيل، والله على ما أقول وكيل.

يا أحبابي! إذا قرأتم كتابي، فتفضلوا عليّ بجوابي، فلعلي أداوي بكتابكم ما بي. فقد بقيت بالعراء: أرتاع لطنين الذبابة، وأهيم من حنين ذوي الصبابة. فحالي في الأحوال عجيبة، وهمتي في الهمم غريبة. ظاهري مُتَشَرِّقٌ لا أملك منه شيئاً، وباطني مستعرٌ لا أجد له فيناً. أُجَرِّعُ الغُصَصَ كاظمًا، وأنفرد بالخلوة هائمًا؛ وإن حضرتُ جمعًا فلبسَ تجمل وتوقّ، وإن غبتُ عنهم فبئس تحمّل وتبوّق، لا رائد لي إلا وهو يكذب^(١)، ولا ذائد عني^(٢) إلا وهو يعتب، فأنا المُتَشَرِّقُ^(٣) المقرور، والمتحرّق المصروع^(٤)، والقاصد المحجوب، والرائد المكذوب، والراصد المكروب. وهذا لأنني:

أَطَعْتُ مطامعي فاستعبدتنّـي.. ولو أني قَنَعْتُ لَكُنْتُ حُرًّا^(٥)

فيا سادتي! بالذي خصكم بالفضل، وأهلكم للإفضال، وجعلكم من أهل التفضّل - إلا رققتم لي، وأهديتم إليّ رفقًا بي؛ فقد طال عطشي، واشتد دَهْشي، من كَلِمِ دَام، وسرّ سام، وبيت طُفَى مصباحه، وباب ضاع مُفْتاحه، وأمر تقاعس أوله وآخره، وتَنَكَّرَ غائبه وحاضره. فإني أظن ظنًّا كاليقين أن من تَلُمُّونَ شَعْنَه، وتجمعون بدَّه، [١٢ ب] وتحفظون ضيعته، أنَجَبَ بِكُمْ! وهدي إلى سواء الصراط بمكانكم، وعرف ما له وعليه بإشفاقكم، وَوَضَحَ عنده ما أشكل من حاله بينكم، لأنَّ يدَ الله معكم وليس فوق يدَ الله يد؛ وعينه راعيتكم، وليس بعد عينه عين. فطوبى لمن فاز بحظوته عندكم، وحَصَلَ له ذِكرٌ في صحيفتكم، وجرى اسمُه على أفواهكم، وأَهْلَه الله لخطرته من خطراتكم! فذاك المغبوط الذي تشير إليه الأصابع، وذاك الرشيد الذي تُحَنِّي إليه الأضالع، فكونوا عند ظني بكم

(١) إشارة إلى المثل: «الرائد لا يَكْذِبُ أَهْلَه». (مجمع الأمثال - أبو الفضل النيسابوري - ٣٦٠٦).

(٢) من الذود والدفاع والحماية.

(٣) المتشرّق: المتعرّض للشمس بالشتاء. والمقرور المصاب بالقر (بالضم) أي البرد.

(٤) المصروع: الذي أصابته شدة البرد.

(٥) البيت لأبي العتاهية وقبلة: طلبتُ المستقرَّ بكل أرض .. فلم أرَ لي بأرضٍ مستقرًّا

لي، وانفثوا من بركات ريقكم عليّ، وتوروني بفضل شعاع شمس معارفكم، وبُلوًا رَمَقِي
برشةً من ماء عين كرمكم، وزَيِّنُوا ما بدا مِنِّي بما بدا منكم، وما خفي عني بما خفي عنكم.
وفي الجملة، أدرجوا كُلِّي في كلكم، حتى تكونوني وأكونكم، أعني: بالتصافي والمودة،
والإيجاب والمحافظة، والحياء والمراقبة، والإفضال والمساعدة. وهذه إشارات لا تدق
عن أذهانكم، ولا نفوت فطنكم، فلماذا تلبَّستُ بها استعطافاً لكم، وتكثرُتُ بذكرها تقرُّباً
إليكم، فلا تخيَّبوا رجائي فيكم، ولا تردِّوا كَفِّي عن فضل ما وهب الله لكم، ولا تسوِّدوا
وجهي عند الناظرين إليّ وإليكم، وكونوا فوق الظن بكم، فذاك أعلى لَقْدَرِكُم، وأرفعُ
لناظركم، وأشيع للأحدوثة الحسنة عنكم. والسلام عليكم.

اللهمَّ إني كتبت هذه الكلمات إلى أشخاص أنشأتهم بين عبادك، واختصصتهم
بلطائف هدايتك، وجعلتهم أعلاماً لمن أراد أن يهتدي إلى بابك، ويُنيخ بِراحلته بِفنائك،
ليهبوا لي من فَضْلٍ ما وهبْتهم، ويُمْنُوا عليّ من بعض ما مَنَنْتَ عليهم. وليس مسألتي
إياهم لليأس منك، ولا لِتِهْمَةٍ عَرَضَتْ في نفسي لا تليق بك، ولكن لأن مواجعتي إياك
بالاقتراح، مع إقامتي على مخالفتك، افتضاح. وهم إذا ما أجابوني إلى طَلْبتي فبأدبك^(١)
وتوفيقك ولحسن صنيعك. فهم سُفرائي إليك، وشُفعائي لديك، لا لَعَطْن^(٢) ضاق، ولا
لأمر عاق، ولكن لحياءٍ غلب، وسرٍّ كَرَبَ. وأنت أطلَعُ [١٣أ]، على ما أقول، لأن علمك
مُحِيطٌ بكل شيء، وقد رتكَ سارية في كل شيء، وَحَوْلَكَ آت على كل شيء، لا يختلج
ناظر إلا وعنك مبداه، ولا يعتلج خاطر إلا وإليك متناه. جَلَلْتَ ولذلك تُعَبِّد، وعَزَزْتَ
[ولذلك]^(٣) تطلب. فأنت الذي لا بمكان دون مكان، وأنت النازح^(٤) لا في زمان قبل
زمان، يا مالك الأرواح في الأبدان ويا مُصَرِّف الأسرار في الإعلان، ويا مُدْرِج الأوان في
الأوان، ويا مبرز الألوان في الألوان، ويا ملحق الأكوان بالأكوان، ويا من هو كلَّ يوم هو
في شان.

(١) في ع: فبأباديك. ولعل الأصوب: فبتأييدك.

(٢) العَطْنُ: مَبْرَكُ الإبل ومَرَبَضُ الغنم عند الماء. وفلان واسع العطن: واسع الصبر والحيلة عند الشدائد، سخي المال.

(٣) زيادة ضرورية. (٤) كذا! ولعل هنا تحريفاً والصواب: الداني.

إلهنا! إياك نمجد ونسبح لأننا عبيدك، بك نقوم وإليك نتسبب، وبأياديك نعتزف، وبفضلك نعيش، وعليك نتوكل، وفيك نتدلل. إن بدت منا حدة فذاك لما نجده من قوة فيضك، وإن بان علينا كلة^(١) فذاك لما يصدر عنا من عجز الفطرة. خلقتنا ضعفاء لنبين عنك، ثم قويتنا بمعرفتك لنبين بك. ثم دعوتنا بأصناف لغتك لنكون في ذراك في أهنأ عيش وأنعم بال. فلك الحمد بدءاً وعوداً - حمداً يتجدد على مر الزمان، حمداً يتزايد مع الأنفاس كرمًا ومجدًا، فإن الحمد إذا خلص من شوائبه، والثناء إذا صفا من روائبه، كان الحامد محمودًا، والمُثني مودودًا. اللهم فأهللنا ونجنا من المهالك، واصحبنا في جميع المسالك إلى بحبوحة الممالك، يا ذا الجلال والإكرام!

رسالة (٥)

أي رأي لمكذوب، أم أي عشق^(٢) لمكروب، أم أي قرار لمرعوب، أم أي اطلاع على الغيوب لمن هو محشو بالعيوب؟! هيهات! هيهات! لن تُنال المقامات والدرجات إلا برفض الهنات وما دون الهنات. إنك إن ظننت أنك بالمخالفة والهوى تُدرك الغاية القصوى، ظننت محالاً؛ ومن ظن المحال وسكن إليه وقع في الوبال ودُفع عليه. الأمر جدٌ والتشمير واجبٌ، والداعي مُعذرٌ، والطريق نهجٌ، والعلامة ظاهرة، والعلة مُزاحة، والاستطاعة حاضرة، والنعمة متتابعة، والإحسان [١٣ب] غامرٌ، والبشير صادق، والنذير ناطق، والعذر زائل، واللوم حاصل. فهل بقي بعد هذه الفواتح، التي عمّت الخلق بالصنع والرفق، ما يكون حجةً أو شبهةً لأحد في ترك طلب العتق من الرق؟ وهل يجوز لك، أيها العاكف على الجهالة، أن تحتج بما لا حجة لك فيه ولا مقالة؟ يدعوك الله إلى حظك: تارة بظاهر تنزيله، وتارة بباطن تأويله، وتارة على لسان رسوله، وتارة بخافي دليله، وتارة بواضح

(١) لعلها كلاله: الضعف والتعب.

(٢) قُرئت في د: عيش.

سبيله، وأنت مُعرض كأنك لا تسمع ولا تعقل! أما تعلم أنه ما وهب لك السمع والبصر، إلا لتعي وتعتبر، وإلا لتسأل وتستخير، وإلا لتعلم ما عليك فتشمر، وما لك فتستبشر؟! أما تعلم أنه ما نظمك هذا النظم العجيب، ولا أودعك هذا السرّ الغريب، إلا لأمر بعيد قريب: بعيد إن تصاممت عنه، قريب إن سارعت إليه! يعاتبك فلا تُعْتَب^(١)، ويدعوك فلا تجيب! ويُنعِم عليك فلا تشكر، ويبتليكَ فلا تصبر، ويُخْضِرُكَ قدرته فلا تبصر، ثم تولي وتستكبر، وتعتقد أنك مستقل منتصر! هذا- والله- الجهلُ الغالب عليك، والشقاء المحيط بك، والشماتة الحاضرة لك. يُقَرِّبُكَ فتبعد، ويتألَّفُكَ فتشُردُ، ويلطف بك فتطمح، ويقومك فتجنح. فيا ويلك! أي بلاء أنت على نفسك، وأي خاسر أنت في سعيك! تبغي رضاء المخلوق، وتتهاون برضاء الخالق؟! وما كان المخلوق أنصح لك، وأذَب^(٢) عنك، وأقوم بمصلحتك، وأقدر على الدفع دونك، وأهْدِي إلى مُرادك، وأوفى لك في عاقبة أمرك. هذا، والله، الغرور، وآخر هذا الغرور الويل والثبور.

انتبه، عافاك الله، من هذه الرقدة التي قد استغرقتك بالأحلام، واعترف بحق الله عليك في كل مقال ومقام. واتخذ جُنَّةً لنفسك يوم القيامة إلى الخصام. فإن كنت تؤمن بالله على الحقيقة والتمام، زهدوك في الدنيا ورغبت فيها، ورَغَبُوك في الآخرة فزهدت عنها. [١٤ أ] وكرروا عليك النصيحة في الحالين، فأعرضت عنها، ورددوا إليك فتأففت^(٣) منها! فيا مُؤَثِّرَ الخلاف على الوفاق، ويا غائصًا في بحر النفاق والشقاق، ويا من ليس له في الآخرة من خلاق. كيف يكون الشقي إلا مثلك، وكيف يكون المرحوم^(٤) إلا من سلك طريقك! أما ترى بشائر الحق كيف تتردد بين أذنك وقلبك؟! أما تسمع زواجر الحق، كيف تتكرر على سمعك ولُبِّكَ؟ أما ترى مواهبه كيف تنسكب على قرنك إلى قدمك؟ أما ترى قدرته كيف تنفذ فيك؟ أما ترى حكمته كيف تبدو منك؟ أما ترى داعيه كيف يناديك، أما ترى رسوله كيف يناجيك، أما ترى كيف أبرزك من العدم وحفَّك بالنعيم، وعلمك ما لم تكن

(١) أعتبه: أَرْضاه بعد العتاب. وفي المثل: (ما مسيء من أعتب).

(٢) أذَبُ عنك: أكثر دفاعًا عنك. (٣) قُرئت في د: فنافقت مع إضافة كلمة «الوسيلة» قبلها.

(٤) وكيف يكون المرحوم: مكررة في الأصل مرتين. ويمكن أن يكون قوله: «المرحوم» خطأ وصوابه: المحروم أو المرحوم.

تعلم، وقدّمك فيمن قدّم، وعظّمك فيمن عظّم، وسألك أن تتقدم فلم تتأهب لأن تقدّم، وأمهلك لأن تفكر وتشاور وتستظهر فلم تتبين ذلك ولم تفهم؟! فقد آن لك الآن أن تنقطع حسرةً على حظوظ فاتتك من الله، وحسن بك أن تلطم خدك حزناً على ما صنعتَ بنفسك في إضاعة حق الله. كَذَبْتَكَ نَفْسُكَ فصدقتها، وعُرِضْتَ لَكَ الْآيَاتُ والنُّذُرُ فصدفت^(١) عنها، وذكّرتك الأسقام والعلل فتناسيتها، وحدّثك الليل والنهار فلم تُصغِ إليهما. وأقبلت على لذاتك الخسيسة فتحرقت فيها واستكثرت بها، وتمردت على الله الذي دعاك إلى تركها ليعوّضك خيراً منها.

اللهم إِنَّا ندعو خلقك إلى طاعتك فلا تؤاخذنا بذلك، فما إرادتنا في ذلك إِلَّا أن نحَبِّبَ مِنْكَ إِلَيْهِمْ، وننشر آلاءك عليهم، ونعرّفهم ما سبق من رِفْدِكَ وفضلِكَ إلى صغيَرهم وكبيرهم. فاجْبُرْ ما نقص من عملنا في مَرْضَاتِكَ بأفضل من اجتهادنا في دعائنا إياهم إِلَيْكَ [١٤ ب] ودلالتنا لهم إلى بَابِكَ من غير جدوى نلتمسها منهم على ذلك.

اللهم إِنَّا نسألك أن تَأْجِرَنَا على هذا الحديث، فَإِنْ لَمْ تُؤْجِرْنَا عَلَيْهِ فَلَا تُؤَاخِذْنَا بِهِ. فوَحِّقْ ما نقصد بما نقول واصفين لك، وبما نعيد ونبدئ حائشين لهم إِلَيْكَ، إِلَّا لِيَسْرَعَ^(٢) مُذْنِبٌ، وَيُقْلَعَ مُصِرٌّ، وَيَسْتَبِينَ ضَالٌّ، وَيَتَقَوَّمَ زَائِعٌ، وَيَعْتَدِلَ رَائِعٌ^(٣)، وَيَهْتَدِي تَائِهٌ، وَيَلِينَ قَاسٌ، وَيَتَذَكَّرُ نَاسٌ، وَيَتَوَاضَعُ مُسْتَكْبِرٌ، وَيَنْتَبِهَ نَائِمٌ، وَيَصْحُو مُتَنَشِّسٌ، وَيَصْفُو سِرٌّ، وَيَطِيبَ قَوْلٌ، وَيُطَهَّرَ عَمَلٌ، وَيَقْصُرَ أَمَلٌ، وَيَتَجَدَّدَ شَمْلٌ، وَيَنْفَعَ عَدْلٌ. فَالْوَيْلُ لِمَنْ ذَكَرَكَ لَخَلْقِكَ خَادِعًا بِكَ، وَالْوَيْلُ لِمَنْ دَعَاكَ إِلَيْكَ شَارِدًا عَنْكَ!.

اللهم أَنْتَ حَبِّبْتَ إِلَيْنَا هَذِهِ السَّيْرَةَ، وَأَجَرَيْتَنَا عَلَى هَذِهِ الْوَتِيرَةِ، فَتَقَبَّلْ عَفْوَنَا^(٤) فِي الْعَمَلِ، وَزِدْنَا مِنْ فَضْلِكَ بِمَا يَأْتِي عَلَى الْأَمَلِ، يَا خَيْرَ مَنْ دُعِيَ وَأَكْرَمَ مَنْ سُئِلَ!.

أَيُّهَا الْمَبْتَدِعُ بِالْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَالْخَلْقِ الْمَصْطَنَعِ بِالْمَشِيئَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَالْإِنْسَانِ الْمَحْفُوفِ بِالنِّعْمَةِ الْمَلِكِيَّةِ! تَأْمَلُ مَوَاقِعَ آيَاتِهِ فِيكَ، وَاسْتَنْطِقُ شَوَاهِدَ آثَارِهِ عَلَيْكَ، وَتَصَفِّحُ مِثَانِي

(٢) قُرِئَتْ فِي د «الِنَزْع» أَي: لِيَرْتَدَّ وَيَقْلَعَ.

(٤) الْعَفْوُ: خِيَارُ كُلِّ شَيْءٍ وَأَجُودُهُ.

(١) صَدَفَ: أَعْرَضَ وَانصَرَفَ.

(٣) رَاغَ يَرَاغُ: مَالَ وَحَادَ عَنِ الشَّيْءِ.

أياديهِ عندكَ، وانظر بأي فضل خَصَّكَ، ومن أي حال خَلَصَّكَ، وإلى أي درجة رَقَّكَ، وبأي رتبة^(١) حَلَّاكَ، وإلى أي كهف آوَاكَ، وبأي سرٍّ نَاجَاكَ، وبأي غيب نَاغَاكَ، ومن أي سرٍّ وَقَاكَ، ولأي غاية بَقَاكَ؛ وبأي تاج تَوَجَّجَكَ، وإلى أي حظٍّ هَيَجَّجَكَ، وأي ملك قَلَّدَكَ، وأي مشرب صفا لك، وبأي لطف حاشَكَ^(٢)، وبأي شيءٍ سَكَّنَ جاشَكَ، وبأي صنْعٍ أزال استيحاشَكَ، وبأي صرعة انتاشَكَ^(٣)، ولأي أمر أعاشَكَ!

خَصَّكَ بفضل ما اهتديت إلى طلبه بتحكمك، وخلَصَّكَ من حال ما عرفتها بتوهمك، ورقَّكَ إلى درجة ما خَطَرَتْ قط ببالك، وحَلَّاكَ برتبة ما حَلَمْتَ بها نفسك، وآوَاكَ إلى كنف اطمأنَّ به قلبك، ونَاجَاكَ بسرٍّ به تَثَبُّتُ قدمك، ونَاغَاكَ بغيب به تَضَاعَفَ طربك، ووقاك من شر به تمَّ أمرُك [١٥ أ]، وبَقَاكَ لغاية بها قَرَّتْ عينك، وتَوَجَّجَكَ بتاج به أشارت الأصابع إليك، وهيجك إلى حظٍّ هو غاية أمانيك، وقَلَّدَكَ مُلْكًا هو نهاية آمالك، وصَفَّى لك مشربًا متى كرعت منه لم تظمأ بعده، وحاشَكَ بلطف هو الذي جعلك مغبوطًا في حالكَ، وسَكَّرَ^(٤) جاشَكَ بشيءٍ هو الذي أنالك مرادك، وأزال استيحاشَكَ بصنع أدركت به كل آمالك.

فحدثني الآن واصدُق: هل في المنعمين من ذا جُودُهُ، وهل في المحسنين مَنْ ذا تفضُّله، وهل في المشفقين من ذا رفقهِ، وهل في الكرماء من ذا عطاؤهِ، وهل في المحبين من ذات نافلتِهِ، وهل في القادرين من ذا اقتدارهِ، وهل في الناظرين مَنْ ذا اختبارهِ، وهل في الماضين والغابرين من ذا إirاده وإصدارهِ؟! ولا، وحق الحق الذي يلهج به الخلق، ما يقدر على هذه العجائب إلا هو، ولا وجود بهذه المواهب إلا هو، ولا يأتي بهذه الغرائب إلا هو. جلَّ معبودًا ومقصودًا، وعزَّ مطلوبًا وموجودًا. إن كُنِيتَ عنه سبق التصريح به، وإن صرحتَ به غلبت الكناية عليه. وإن عبَّرت عن صفاته كدرت العبارة، وإن أشرت إلى ذاته اضمحلت الإشارة. فالزم - هداك الله - حدَّكَ في العبودية، واستعصم في نفسك من آفات

(٢) حاشَكَ هنا بمعنى اصطادَكَ.

(١) قُرئت في (د): زينة.

(٤) قُرئت في (د) وسَكَّنَ.

(٣) صرعة: حالة. انتاشَكَ: انتزعَكَ.

البشرية، وتبرأ من كل ما فضحك من البرية، ولن تبرأ حتى تطهر من كل خطية، ولن تطهر إلا بيد من عنده قوة.

يا هذا! لا مُسْتَقَلَّ لك إلا بالله، ولا عود لك إلا إلى الله، ولا توكل لك إلا على الله، ولا خير لك إلا من الله، ولا نجاة لك إلا بالله، ولا منعم عليك إلا الله، ولا بد لك على كل حال من الله. ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢]، وهي أيام معدودة وأنفاس محدودة. وإن التفتت إلى نصيبك من الله أقبل الله عليك، وإن حاسبت نفسك لله أغضى الله عنك، وإن وهبت نفسك لله حفظها الله لك. وإن تواضعت لله رفع الله قدرك، وإن جَنَحْتَ [١٥ ب] لِلسَّلَامِ تقبل الله منك، وإن لُذْتَ بالله عطف الله عليك، وإن شكوت ما بك إلى الله سمع شكواك، وإن أدَّعَيْتَهُ^(١) صادقاً أو كاذباً لم يفضحك في دعواك. هو ألطف بك منك بنفسك، وهو أصدق لك منك عليك لنفسك، وهو أَرَأْفُ بك منك بنفسك. هو الذي دَلَّكَ على خطأ^(٢) ثم عاتبك على تهاونك في تحصيلك، هو الذي أرادك قبل أن تريده، هو الذي أجابك قبل أن تدعوه، هو الذي نظر لك قبل أن تسأله.

أيحسن بك - بعد هذه اللطائف السابقة، وبعد هذه النعم السابغة، وبعد هذه الأيادي المتتابة - أن يطلع من شرك على سوء ظن به، أو على إثثار هوى عليه، أو على تقصير في خدمته، أو على استعانة^(٣) بنعمته، أو على مخالفته؟ لا وحق الفتوة، فإنها شعار الكرام.

يا هذا! إنك لن تقف على حدود هذه المرامي، وعلى عواقب هذه الأسامي، إلا بعد أن تَخْلَعَ نَفْسَكَ من نفسك كما تخلع قميصك من جلدك، وكما تخلع جلدك من لحمك، وكما تخلع لحملك من عظمك. وإنما قلتُ هذا لأن المراد عزيز والمرام بعيد، والفهم قاصر، والهوى متناصر^(٤)، والقوة المسعدة غائرة، والطبيعة الحاضرة حائرة^(٥)، والشهوة بين الإنسان وبين سعادته جارية، وبضاعته في طلب الربح باثرة. فإن لم تكسب هيئة

(١) ادَّعى على شخص شيئاً: نسب إليه وخاصمه فيه عند القاضي، قاضاه.

(٢) قُرئت في (د): خطأك. (٣) قُرئت في (د): استهانة وهو الأصوب.

(٤) تناصر القوم: أيد بعضهم بعضاً. والمعنى أن الهوى يعمل ضدك ويناصر عليك.

(٥) قُرئت في (د): خائرة.

لنفسك غير هذا الذي ورثته بمزاجك، ونشأت عنه بضروب حركتك واختلاجك، لم تظفر بما يكون سبباً لسرورك وابتهاجك. وهذه نصيحة قد كررتها لك وعليك، وأردت بها البخوع^(١) فيك والهجوع منك، وَأَنْ تُقْبَلَ عَلَى نَفْسِكَ الشريفة بإدبارك عن نفسك، أعني أن تقبل على نفسك الشريفة الفاضلة المقتبسة من نور عقلك، الحائلة بينك وبين جحيم طبعك؛ وأعني بإدبارك عن نفسك نَفْسَكَ الأمارة بالسوء الوثابة بالعتو^(٢)، الطارحة لك بيد العدو. فافطنْ لهذه العويصة التي هي إقبالك [١٦ أ] على نفسك وإدبارك عن^(٣) نفسك؛ فإن ظاهر هذا القول يحدث تناقضاً ويورث صدوداً، وباطنه يحدث اتفاقاً ويورث شهوداً.

اللهم إنا قد تَقَلَّقْنَا في نَصَبِنَا حياءً من التعذير في قضاء حقك، واضطربنا في أحوالنا لنكولنا عن حيازة نصيبنا منك في طلب مَرَضَاتِكَ. وإحساسنا بهذا القدر قد أوقد على قلوبنا جمراتِ الحُسرة وحَسراتِ الفُرقة، فلا جَرَمَ نَغْصُ العيشُ في هذا البلد الوبيء، وفي هذا المكانِ الْمُقْصُص، بين هذا السواد المظلم، على هذا البساط الشائك. وبقدر بغض العيش طاب تجرُّع الحِمَام مع التوجه إليك ونيل الخطوة منك. فقرَّب اللهم ذلك على أسهل وجهه، وأقرب حين، يا ذا الجلال والإكرام.

رسالة (٦)

﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَّا لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم: ٤٥].

يا هذا! أما تسمع هذا الخطاب بحضور بال، وبقظة فؤاد، وفكر ظاهر، واعتبار حاضر؟ أما تجده به ما يجده أهل البصائر من الازدجار؟ أما تستيقن به الارتحال عن هذه

(١) يخع له بالطاعة: تذلل له وأطاعه.

(٢) العتو: الاستكبار ومجاوزة الحد.

(٣) ر: على.

الدار؟ أما تعلم أنك متقلب بين هذه الأوزار^(١) التي إن لم تسقطها بالتوبة عنك صرّت حطب أهل النار؟ بلى، والله، إنك لتسمع هذا الخطاب وغيره من بدائع ما في الكتاب، ولكنك بدنسك من الذنوب واحتقابك^(٢) للعيوب، محجوبٌ عن كل غيب في الغيوب. تسمع الحق بأذنٍ مجّاجة^(٣)، وتعيه بقلب متخرق، وتتدبّره بعقل سادر، وتقرأه بلسان ألكن^(٤). والعجب أنك أيها العالم الفقيه والأديب النحوي تتكلم في إعرابه وغريبه، وتأويله وتنزيله، وقصته وشأنه، وكيف ورد، وبأي شيء تعلق، وكيف حكمه فيما خصّ وعمّ، ودلّ [١٦ ب] وشمل، وكيف وجهه، وكيف ظاهره وباطنه، ومشمّله ورمزه، وماذا أوله وآخره، وأين صدره وعجزه، وكنياته وإفصاحه، وكيف حلّاله وحرامه، وبلاغته ونظامه، وغايته ودرجته ومقامه، ومن قرأ بحرف كذا وبحرف كذا، ثم لا تجد في شيء مما ذكرتك به ووصفتك فيه ذرّة تدل على صفائك في حالك، وإدراكك ما لك، بل لا تعرف حلاوة حرف منها، ولا تزال موجوداً فيما دعيت إليه من أوساطها ونواحيها؛ فعلمك كله لفظٌ، وروايتك كلها حفظ، وعملك كله رفض، وتبرّمك كله نقض، ودعواك كلها وقاحة، وخلقتك كله وتّاحة^(٥)، وسركك كله خبيث، وسيرك في الباطل حثيث، وجهرُك نفاق، وباطنك شقاق، وذكرك حيلة، وسكوتك غيلة^(٦)، ومعاملتك اختلاس، وأمانيك أدران وأدناس، ووعظك خديعة، واتعاظك ربح، وبعضك غثاء، وكُلُّك هباء، وعبادتك رياء، وحضورك غيبة، وآخر أمرك خيبة، كأنه ليس لك إلى الله أوبة، لأنك بنيت أمرك كله على المكر والغيلة، وعلى الغش والمكيدة، وعلى الهوى والمطمعة، وعلى الخساسة والنجاسة، وعلى الجهالة والنذالة، وعلى طلب العاجلة دون الآجلة. فلا جرّم بار سعيك في حياتك التي لا تعود عليك، وانبتّر أملك في كدحك بما لا ثمرة لك عندك. فما أشأم ناصيتك^(٧) على نفسك، وما أقلّ رحمتك لروحك، وما أسخاك بحياتك في كل ما يضرّك،

(١) ر: الأوزار. (٢) احتقب الإثم: ارتكبه، واحتقب خيراً أو شراً: حمّله.

(٣) مَجّ الماء أو الشراب من فيه: لَفَظَه. ويقال: كلام تمجّه الأسماع: ترفضه.

(٤) ألكن: ثقبيل. (٥) رجل وتّح (بكسر التاء وتسكينها): خسيس.

(٦) غيلة: خديعة. قتله غيلة: قتله على غفلة منه أو بواسطة خدعة.

(٧) ما أشأم ناصيتك: ما أشدّ شؤمك على نفسك.

وما أطوعك لشیطانك، وما أطوحك في غيِّك وعدوانك! إن عدوّ الله لا يرضى منك إلاّ بالبعد عن باب الله، وإلا بالخزي والهوان من ثواب الله، وإلا بالمقت والخسران عند ملائكة الله، وإلا بسواد الوجه عند أولياء الله.

يا هذا! لو علمت ما قد نزل بك، وما صَبَّ على هامتك، وما أحاط بك من شقائق؛ لمألت الدنيا ضراً على نفسك، وسألت التّواحين أن يساعدوك بالبكاء على ما فاتك. أيُّ مصيبة [١٧أ] أعظم من مصيبتك، وأيُّ بلاء أعظم مما قد استولى عليك؟ قلب لا يهبّ فيه نسيم الوجد، وفكر لا ينتهي إلى تمييز الباطل من الحق، وعين لا تترقق بالدمع على الخد، ورأي لا يصح في الوقوف عند الحد، ونفس لا تبالي بالهجران والصد، ونصيحة لا تقبل على ما فيها من الخير والرُّشد، وصديق لا يثبتكي إليه من شيء من هذا العناء والكد، وصاحب لا يشاور فيما أشكل من هذه الحال في القبول والرد.

يا هذا! فتنت بهذه الزينة الحائلة، وذهبت مع هذه العاجلة الزائلة، فلا نجوع لقول فيك، ولا أثر لفلاح منك. فاسكُب الآن دموعك على هذه الحال التي قد حصلت عليها، وشقّ عليك النزوع عنها. فإن الدموع المنحدرة على هذه الخدود النَّضرة شفاءً للأكباد المحترقة بالندامة والأسف. ألا ترى كيف يقول الأول:

لعلّ انحدار الدَّمع يُعقبُ راحةً
مِنَ الوجد أو يَشْفِي نَجِيّ البلابل^(١)
سار والله الرُّكْبُ المُخْبُون، وتركوك، ونجا والله المُخْفُون ولم يَلُوا عليك، وحَمِد
المُدْلِجون السُّرى^(٢) وبقيت تَعْضُّ أُنَامِلَكَ من الغيظ والأسى.

يا هذا! قد كان القوم أناخوا عندك، وسألوك الرحيل معهم، وبذلوا لك المعونة جُهدَهم، وقدموا لك راحلتهم، وجذبوا بضَبْعِكَ^(٣) طاقتهم، ووعدوك أن يبلغوك غايتهم،

(١) النجى: ما تحدث به نفسك، والبلابل: الهموم في الصدور. والبيت لذى الرُّمة.

(٢) مأخوذ من المثل المعروف: عند الصباح يحمد القوم السُّرى. والسُّرى: سير عامة الليل، ويضرب هذا المثل في احتمال المشقة والحث على الصبر. وأول من قال هذا المثل: خالد بن الوليد رضي الله عنه.

(٣) الضَّبع بالفتح: العضد كلها. تقول: أخذت بضَبْعِي فلان فلم أفارقه.

ورفقوا بك وبجميع ما كان عندهم، ثم خَوَّفوك الوحشة بعدهم، والندم على ما يفوتك منهم، فأبَيْتَ وتوانيت، وجمحت وطَعَيْتَ، وتعدَّيت وبعيت، وتفردت برأيك، وظننت ظَنُونًا كلها عليك. فلما حَقَّت الحقيقة وجاءت المصدوقة، أَخَذْتَ تَلُوكُ لسانك بالويل، وتحكُّ عينك بالإصبع، وتقول: ﴿بَحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنَبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]. هيهات! هيهات! والله لتصيرنَّ الحسرة على [١٧ ب] صدرك جَمْرَةً من النار، تتوقد بالليل والنهار، إِلَّا أَنْ يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ، بما أنت أهله. فإليه المصير.

يا هذا!

هَوْنٌ عليك وكنُ بربك واثقًا فأخو التوكل شأنه التهوي—ن
طَرَحَ الأذى عن نفسه في رزقه لَمَّا تَيَقَّنَ أنه مضم—ون
يا هذا! الحقُّ أحقُّ أن يتبع، خير الأدوية ما نجع، خير الكلام ما نفع، خير الإخوان من رَدَع.

يا هذا! كيف أصف لك احتراقك في حالك، وتقلبك في صروف زمانك، وخمولك بين خُلَطَائِكَ، وكسادك عند العارفين بك، وازدراء الصغير والكبير لك، وتَقَرُّزُ الرفيع والوضع منك، وطرفهم المخفوض لك، وخيبتك منهم إذ [١] طمعت فيهم وانقلابك باليأس عنهم. وأنا في أشباه ذلك ونظائره، بل في دَوَاهٍ تزيد عليه وتوفي، لو ترجمتُ عنها بكلمة عوجاء، أو رمزة هوجاء لضاق بي الثَّقَلان والتقى عليَّ الخافقان، فلا تكونن - عافاك الله - الذي وصفه الأول حيث قال له ^(١) كلمة له:

أطعتُ مطامعِي فاستعبدتني ولو أني فَنَعْتُ لكنت حُرًّا
وما أحسن ما قال الآخر:

حتى متى يسترُقني الطمعُ وليس لي في الكفاف مُتَّسِع
ما أوسع الصبر والقناعة للناس جميعًا لو أنهم سمعوا

(١) وردت في (د): في.

أما المنيايا فغير غافلةٍ لكلٍّ حَيٍّ من كأسها جُرِعَ
وإنما وَقَفْتُكَ على هذا السرِّ لأنَّ جميع ما يتشكَّاه الناس رَجَعَ إلى الطمع والضَّرَع^(١).
اللهم إنا نسألك أن تقطع مطامعنا عن عبادك بالثقة بموعودك، وتكفُّ استشرافنا
لخلقك بالرضا لمقدورك، وتضرمَّ البرحاء^(٢) في شوقنا إلى ما قبلك، وتجعلنا من
خاصتك، وتأذن لنا في وصفك ووصف ما ظهر بإرادتك، وتحول بيننا وبين الالتفات إلى
ما سواك بالإقبال على ما يُزِلُّنا^(٣) عندك.

[١٨أ] يا هذا! لو ذُقت حلاوة عيشك مع ربك، لعلمت أن كل ما عداها باطل، ولو
أشرفت على النعيم الذي أعده لخدمته لأيقنت أن كل شيء بعده زائل، ولو علمنا إلى ما
نتسبب لذهب الفخر [بنا]^(٤) كلَّ مذهب.

بالله، أما تراني، كيف أترأى لك عياناً، وكيف أتوارى عنك خبراً؟ فلا عياني يخبرك
عني، ولا خبري يصدقك مني. خفيتُ في بدويٍّ لأنني متقلبٌ في حالي، وبدوت في
خفائي لأنني متقلبٌ إلى أمرٍ عالٍ، فإذا كلمتك بلسان الظاهر وفيتُ لك وخنتُ نفسي،
وإذا ترنمت لك بلسان الباطن جنيت لك وظلمت نفسي، لأنني في الأول هازل كجاذٍ،
وفي الثاني قابل كرادٍ. فارحمني إذا قلت، وارحم نفسك إذا سمعت، ومهما شككت في
شيء فلا تُسكِّن في أمرك الذي خلص لك وتحصل، أعني الرحيل عن هذه العرصة، التي
قد تجرعت فيها ألوان الغصة، إلى كنف ربٍّ، به وُجدت، وبه عُرفت، وبه حَييت، وبه
سعدت، وبه عقلت، وبه رشدت، وبه أكرمت، وبه أعطيت، وبه خدِمت، وبه شُهرت،
وبه سُررت، وإليه نُسبت، وإليه انتهيت، وإليه سَعيت، وإليه اشتقت، وإليه سلكت، وعليه
توكلت، وعليه تولهت. كنفٌ ما أوى إليه أحدٌ إلَّا وجد أماناً من البؤس، كنفٌ ما سكنه
أحدٌ إلَّا فاز بالرضوان، كنفٌ ما شام^(٥) برقه أحدٌ إلَّا وثق بالسَّحَّ الدائم، كنفٌ ما لاذ به أحدٌ

(١) ضرع له أو إليه: دَلَّ وخَصَّع. (٢) البرحاء: الشدة والمشقة.

(٣) يزلفنا: يقربنا. (٤) زيادة ضرورية.

(٥) شام السحاب أو البرق: نظر إليه أين يكون مطره.

إِلَّا تُوجَّ بالعز، كُنْفٌ ما استنشِقُ هواءَهُ أَحَدٌ إِلَّا وُقِيَّ كُلُّ سَقَمٍ، كُنْفٌ ما أَلِفَهُ أَحَدٌ إِلَّا وَثِقَ بالكفاية، كُنْفٌ ما اطَّلَعَ أَحَدٌ عَلَى ما فِيهِ إِلَّا سَلَا عَنْ كُلِّ ما دُونَهُ، كُنْفٌ ما سَمِعَ أَحَدٌ بِوصفِهِ إِلَّا هَامَ عَلَيْهِ، كُنْفٌ ما اسْتَقَرَّ فِيهِ أَحَدٌ إِلَّا اخْتَلَطَ بِالرَّبوبِيَّةِ، كُنْفُ العزِّ والقدسِ والكبرياءِ والعظمة والقدرة والحكمة والجلود والمجد والجلال [١٨ ب] والتكرمة والنعمة والبهاء والسناء؛ كُنْفٌ لا ظَمَأٌ فِيهِ وَلَا جَوْعٌ، وَلَا نَصَبٌ وَلَا تَعَبٌ، وَلَا قَذَى وَلَا أَذَى، وَلَا خَوْفٌ وَلَا مَرَضٌ، وَلَا عُزَى وَلَا حَاجَةٌ، وَلَا مِرَاءٌ وَلَا لِحَاجَةٌ؛ كُنْفٌ عَرَفَهُ الْعَارِفُونَ فَهَاجَرُوا إِلَيْهِ، وَقَضَوْا حَيَاتِهِمْ فِي طَلَبِهِ، وَتَعَاوَنُوا عَلَى قَصْدِهِ، وَصَبَرُوا عَلَى كُلِّ مَكْرُوهِ مِنْ أَجْلِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ظَفَرُوا بِخَبْرَةٍ لَا عِبْرَةَ^(١) بَعْدَهَا، وَوُضِلَتْ لَا هَجَرَ بَعْدَهَا، وَفَرَحَتْ لَا تَرَحَّةَ بَعْدَهَا، وَأَمْنَةٌ لَا خَوْفَ بَعْدَهَا، وَرَاحَةٌ لَا تَعَبَ بَعْدَهَا.

يَا تِجَارَ الْآخِرَةِ! أَبْشُرُوا بِالْأَرْيَاحِ الْفَاحِرَةِ! يَا مَسَاكِينَ الدُّنْيَا، أَبْشُرُوا عِنْدَ الْمَوْلَى بِالْغِنَى وَالْمُنَى! يَا قَوَّامَ اللَّيْلِ بِالْأَسْحَارِ، أَبْشُرُوا عِنْدَ اللَّهِ بِمَقَامَاتِ الْأَبْرَارِ! يَا صَوَّامَ النَّهَارِ فِي الْهَوَاجِرِ الْوَاقِدَةِ، أَبْشُرُوا عِنْدَ اللَّهِ بِالرِّضَا وَالْكَرَامَةِ وَالْعَاقِبَةِ! أَيُّهَا الْمُسْتَجِيبُونَ لِلَّهِ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الصَّعْبَةِ، أَبْشُرُوا مِنَ اللَّهِ بِكُلِّ رَغْبَةٍ لَيْسَ مَعَهَا رَهْبَةٌ!

يَا هَذَا! ارْفُقْ بِعِبَادِ اللَّهِ إِذَا دَعَوْتَهُمْ إِلَيْهِ، وَشَوِّقَهُمْ بِالْآيِ^(٢) الَّتِي تَتَابَعَتْ عَلَى كُلِّ بَعِيدٍ عَنْهُ وَقَرِيبٍ مِنْهُ، وَلَا تَعْجَبْ مِنْ قِلَّةِ إِجَابَتِهِمْ، فَإِنَّ تِلْكَ مِنْ قِلَّةِ إِخْلَاصِهِمْ فِي دَعَائِهِمْ. وَاعْلَمْ أَنَّ ما تَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ هُوَ الَّذِي يَنْتَشِرُ عَنْكَ عِنْدَ الْخَلْقِ، وَما تَنْتَسِبُ إِلَيْهِ فِي السِّرِّ هُوَ الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ فِي الْجَهْرِ، وَما تَتَزَوَّدُهُ فِي الْحَضَرِّ هُوَ الَّذِي يُقَدِّمُ إِلَيْكَ فِي السَّفَرِ. فَانْظُرْ أَيْنَ أَنْتَ فِي دَعَائِكَ إِلَى اللَّهِ لِعِبَادِ اللَّهِ، فَإِنَّكَ عَنْ هَذَا مَسْئُولٌ، وَبِهِ مَهْجُورٌ أَوْ مَوْصُولٌ، وَلَهُ مَرْدُودٌ أَوْ مَقْبُولٌ، وَعَلَى قَدَرِهِ مَصُونٌ أَوْ مَبْذُولٌ، وَبِحَسْبِهِ مَعْمُودٌ أَوْ مَسْلُولٌ، وَعَلَى حُكْمِهِ فِي الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ مَحْمُولٌ. عَلَيَّ الْجَهْدُ فِي إِيقَازِكَ إِنْ كُنْتَ نَائِمًا، وَعَلَيْكَ الْجَهْدُ فِي التَّيَقُّظِ وَإِنْ كُنْتَ حَالِمًا. وَعَلَى ذَلِكَ فَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَرَادَ بِنَا جَمِيعًا الْخَيْرَ، وَعَرَضْنَا لِلرَّشَدِ

(١) الْخَبْرَةُ، بِالْفَتْحِ: النِّعْمَةُ وَسَعَةُ الْعَيْشِ. وَالْعِبْرَةُ: الدِّمْعَةُ قَبْلَ أَنْ تَفِيضَ.

(٢) الْآيِ: الْآيَاتِ.

ما أنطقتني لك بحرف [١٩أ] ولا وفكك لاستماع حرف؛ وقليل الصَّوب^(١) يُبَلُّ كما أن كثير القطر يسيل. وإنما قلت هذا اعترافاً بنعمة الله التي عرضتنا لهذا القول المختلف الوصل والقطع، المؤتلف الرفع والوضع، والاعتراف بالنعمة مدعاة للزيادة، والزيادة موقوفة على الاعتراف، والشكر عنوان ذلك، ومن لحظ المنعم بقلبه، استغنى عن تليفك اللفظ بلسانه. ألا ترى أن مصافحة الضمير بالوداد، أبلغ من مصافحة اليد بالعهاد^(٢)؟!

وبعد، فإذا وصفنا أنفسنا بالغفلة فقد دللنا على بعض الانتباه، لأن الغافل لا يشعر بغفلته. فما أوجب الحمد في هذا المضيق، وما أنفع الشكر على هذا التوفيق، وما أحسن الوصف بهذا التدقيق، وما أبلغ اللفظ بهذا الترقيق، وما أشرف المرمى بهذا التحقيق!

اللهم إِنَّا أَبْلَيْنَا وَجَدَدْنَا فِي مَحَبَّتِكَ، وسافرنا وحضرنا في طلب رِضَاكَ، وقلنا وسكتنا واجدين بك، وَسَلَّمْنَا وَتَعَرَّضْنَا طَامِعِينَ فِي قَبُولِكَ، وَصَبَرْنَا وَجَزَعْنَا عِنْدَ تَصَارِيفِ قَضَائِكَ، وَجُرْنَا وَعَدَلْنَا فِي مَقَاصِدِنَا إِلَيْكَ، وَأَصَبْنَا وَأَخْطَأْنَا فِي الطَّاعَةِ لَكَ، وبَالِغْنَا وَقَصَّرْنَا فِي جَمِيعِ أَحْوَالِنَا مَعَكَ. فنسألك بإلهيتك المشتملة على عبوديتنا، وبقدرك المستوفية لعجزنا، وبحكمتك المحيرة لعقولنا، وبرحمتك المتلافية لكل خلل منا - [إلا]^(٣) أغضيت عنا، وخففت علينا، وقبَلتنا على عَوَارِنَا^(٤)، وَصُبَّتْنَا عَنِ الشَّفِيعِ^(٥) إِلَيْكَ، وأكرمنا عن اليأس منك، يا ذا الجلال والإكرام.

رسالة (٧)

يا هذا! بأي قوة أنْعَشِكَ^(٦) عن صرْعتك وأنا على مثال حالك؟ وبأي حجة أطالبك بالحق وأنا مطالب به فيك؟ إلا إني مع هذه الحال الملتأنة، [١٩ب] ومع هذه القحة

(١) الصَّوب: المطرُ بقدر ما ينفع ولا يؤذي.

(٢) العهد: جمع عهدة، وهي الموثق أو الشرط أو الذمة.

(٣) زيادة ضرورية.

(٤) العوار: العيب.

(٥) لعلها «الشفيع» وهو سؤال التجاوز عن الذنب أو الخطيئة.

(٦) أي: أنْهَضَكَ.

الظاهرة، أقول قولاً صافيه لك وكدره عليّ، إن قبلت وانتفعت، وراجعت واستمعت، واستقللت وارتفعت.

يا هذا! القول في الجملة كثير مختلف، منتشر مشتهر، بقي أن يصادف قلباً علوقاً ونفساً عشوقاً، حتى يعيش فيها تعيشاً ويريشها تريشاً. وأين ذلك القلب؟ وأين تلك^(١) النفس؟ هيهات! عميت الأنباء وخبت الأنوار والأضواء، وخوت^(٢) السماء والأنواء، وفقد الصباح وأدرك العشاء. فلا كبد إلا وهي مقرونة بالحزن، ولا عين إلا وهي ذارفة عن القلق والفرق. وعند الحقيقة لا معاج^(٣) إلا إلى الله، ولا معراج إلا على باب الله، ولا ظن يحسن إلا بالله، ولا أمل يصح إلا في الله، ولا رجاء يستقيم إلا فيما عند الله، ولا خير يحق إلا عن الله، ولا توكل إلا على الله، ولا نجاة إلا بروح الله، ولا أنيس إلا بكرامة الله، ولا منفذ إلا بهداية الله، ولا ظفر إلا بنصر الله، ولا عز إلا بتعزيز الله، ولا سكنى إلا في جوار الله، ولا أمن إلا في حرم الله. ولا توجه إلا إلى كعبة الله، ولا غنى إلا من خزانة الله، ولا فوز بالجنة إلا بتفضل الله، ولا خلاص من نار الله إلا برحمة الله. فاعلم علم هذه الجملة، تنل حقيقة التفضيل عند الله، ودع - قبل [كل] شيء وبعده - الهوى ولا تتخذ شريكاً.

يا هذا^(٤)! تجمّع عن تفرّقك، وتفرّق في تجمّعك! أندري ما أرى تفسير هذا اللغز؟ أي: احضر عن غيبتك، وتغيب في حضورك. هذا أيضاً لغز أنا أكشفه لك بما هو أبين، فتحل منه بما هو أزين. معنى ذلك: أنف عن سرك الهموم كلها حتى تنقى من كل دنس يكون في الإنس، ثم اخطب محلك من حضرة الحق بقبول ما يوجد به لك، ثم أفرغ كلك في شكر هذه المنائح التي كلما جلوتها كانت أحسن وأبهى، [٢٠أ] وكلما عرضتها كانت أحلى وأشهى.

(١) وردت في ع: «ملك».

(٢) خوت النجوم: سقطت ولم تمطر في نوبتها. وخوى السحاب: خلا من المطر وأخلف.

(٣) عاج: رجع. ومعاج: مرجع.

(٤) من هنا حتى نهاية الرسالة ص ٨٣ مكرر فيما بعد (ورقة ٧٤ ب - ٧٥ ب) ص ١٨٥ - ١٨٦.

يا هذا! أما ترى فنون الإشارة إلى غايات الحقيقة، بصنوف العبارة عن الأركان الوثيقة، دالة على الآيات الأنيقة، جامعة للآراء الربيقة^(١)؟ فَجُلٌ في أطرافها طالباً نفسك فيها، وغُصٌ في أعماقها محصلاً لحقيقتك منها، واجعل بوادي تبشير هذه الأحوال مادةً لصبرك إن كنت مبتلى، أو عِدَّةً لشكرك إن كنت مجتلى؛ وترنح في هذا الفضاء الذي قد انخرق لك من هذه الورقات التي هي ألف ورقة متنزهاً، واقطف من ثمارها ما تدلّي لك ودنا منك، وترشّف من عينها ما ساغ لك وعذب في لهاتك. وإياك والشكّ فإنه للقلب مَرَضٌ، وللدين عَرَضٌ، وللخلق جَرَضٌ^(٢). وإياك أن تريد إلا وأنت مُريد، فأما إذا كنت مُراداً فتجنب كل إرادة لك فإنها إرادة فيك. واجتهد أن تكون سابقاً متمهلاً، وإياك أن تكون سبوقاً^(٣) متعجلاً، فإن ذلك عنوان الفوت وآية الحسرة وعلامة الأسف. وامح عن سِرِّك الفكر في كل ما كان أَمْسٍ، وصله بمحو ما يكون في غد، فإن ذلك أحضر لبالك في يومك، وأدعى لك إلى إحراز نصيبك من وقتك. والوقت حادثٌ، فكن من حدّته على حذر، والحذر هنا أن توكل همك بالعلويات الأبديات الدائمات الباقيات الصالحات الناعمات، فإن اعتلاق الهم بها استغرق لمحاسنها، وفي هذا الاستغرق تشبه كبيرٌ بمعانيها، وفي هذا التشبه بروز لحقائقها، وفي هذا البروز بحقائقها الفوز بنعوتها، ومن نعوتها خلودها. فأی إشارة أخلص من هذه، وأي عبارة أخلص من هذه؟ قد صنع لك فيما نعم به عندك، ولطف بك فيما عرض عليك، فكن لآلاء الله من الشاكرين، ولفضله من الذاكرين [٢٠ب]. وزن رجاءك بالخوف وزناً عدلاً، ثم رجح الرجاء فإنه أدل على كرم المرجو، وقابل التوكل بالتعرض مقابلة صحيحة، ثم اجعل الرّجحان في جانب التوكل فإنه أشبه بحال العبد، وابحث عن مبدأ الوجد، فإن كان من آثار الكون البائر الزائل الحائل فلا تعج عليه، وإن كان من آثار العلو الدائم الخالد فازند به واتزر، والتحف [به واعتطف]^(٤) عليه، وثق بأنك إذا أهلت للتبخر في هذه الساحة، فقد نلت كلّ لذة

(٢) الجَرَضُ (مُحَرَّكة): الرّيقُ يُغَصُّ به.

(٤) زيادة ضروية.

(١) الرنيقة: الموثقة، من ربق الرجل الدابة: ربطها بالحلل.

(٣) وردت في (د): مسبوقاً.

وأصبت كل راحة. وما أقرب هذا البعيد! وما أسهل هذا العسير! وما أشد استجابة هذا
الواني! وما أسرع انحياش^(١) هذا النائي!

رسالة (٨)

أيها الصاحب الغادي عليّ بخشوعه، الرائح إليّ بخضوعه، الملتمس من الحكمة ما
قد أفل نجمه، وتصوّح نبتة، واجتث أصله، واقتضب فرعُه، ولم يبق لأهله مَسْكَن إِلَّا
خَرِبَ، ولا ماء تيمُن^(٢) إِلَّا نَضِبَ، ولا متاع إِلَّا بَارَ، ولا ثَمَد^(٣) إِلَّا غَارَ، ولا حي إِلَّا مَاتَ،
ولا مطلوب إِلَّا فَاتَ، ولا باب إِلَّا أُرْتِجَ، ولا لسان إِلَّا لَجَلَجَ، ولا قول إِلَّا بُهْرَجَ، ولا مرعى
إِلَّا أُمْرَجَ^(٤). فكيف صرت - من بين هؤلاء وهذه الأحوال؟ - تسأل عن الأعمال وآفاتها،
وعن الأحوال وعاهاتها، وعن الأخبار ونهاياتها، وعن الأسرار وغاياتها؟ وتلهج بالبحث
عن الملكوت المحفوفة بالجبروت؛ وتديم مسألتك عن كل ما كَمَنَ في الشاهد ولاح في
الغائب، وبرز بغوالب القدرة، ونشأ عن سوابق العلم، وتواري في أثناء الإدارة، وجرى
على المساءة والمصرة بالنقصان والزيادة.

فإن كنت إنما تبغي - بسعيك وكَدْحِكَ، وإغلاقك وفتحك، وإخفاك ونُجْحَكَ -
حَظًّا من هذه الدنيا المشئومة، فقد ساء نظرك لنفسك، ورَدَّكَ^(٥) اختيارك [٢١أ] في يومك
وأَمْسِكَ، ولم تُؤْتِ إِلَّا من إطراد الله لك عن حضرته، وإبعاده إياك عن خدمته. وإن كنت
إنما تريد مباهاة لأبناء جنسك، واستطالة على من يشير إشارتك، وطلبًا للعز عليهم في
دعواك، فذاك والله أدلُّ على أنك ممقوت عند ربِّك، ومحجوب عن ودائع الله قبلك،
ومحروم في أولئك وآخرك. وإن كنت إنما تحب أن يكون لك طَرَب على ذكر الحق،
واشتياق إلى محل القُرب، والتقاط لما ينتشر من العين المنبثة في الخلق، الكاشفة لسواتر

(٣) الثمد: الماء القليل.

(٢) لعلها: ماء معين.

(١) المكرر: إيحاس.

(٤) أَمْرَجَ الدابة: تركها تذهب وترعى حيث شاءت. وَمَرَجَ الأمر: فسد، التبس، اختلط واضطرب.

(٥) وردت في (د): وردل.

الصدق، فأنت والله غريب في حِلِّكَ، وعزيز في ذُلِّكَ. فما أحقَّ جبهتك بالتقيل، وما أولاك في تأمليك بالتحويل. وكأنِّي بك وقد رُفِعَ عنك الحجاب، وصُيِّرَ ما أنت به وَلَهُ عن العتاب، وصُرفَ عن بالك كوالح الاكتتاب وجوانح الارتياب. نعم! وكأنِّي بك وقد وجدت نسيم الوصال، وأغفيت من الإغماض والإيضاح في طول هذا القيل والقال. نعم! وكأنِّي بك وقد جَلَّى عليك الملك بُرَّتبه، وسُقِيت من دفائن غيبه وشهادته، وقيل لك: إِرَوْ فطالما ظميت، واسعد فطالما شقيت، واكتس فطالما عريت، وتنعم فطالما ضنيت، وابق فطالما فنيت، وانظر إلينا فقد تجلينا لك، واتصل بنا فقد اتصلنا بك، واشهدنا فقد أشهدناك، واطمن إلينا فقد قبلناك، وتمنَّ علينا فقد حكمناك.

بعيننا تَقَلَّبْتَ في فرك وضرك، وبمشهدٍ منا صَبَرْتَ على بلواك ومحتك، ونحن سبكناك في اختلاف أحوالك لتصلح لخدمتنا في آخر أمرك. لم يغب عنا شأنك، ولم يَخْفَ علينا سرُّك وعلايتك. لقد مضغت في محبتنا الحنظل المُبَسَّر^(١)، واقتحمت الجمر المُسَعَّر، وغرقت في البحر الأخضر، وأويت إلى المزابل، [٢١ب] وأصبحت كلاً على كل كاهل. منعك خلق الكسرة والحشفة، وحرموك الخرقه والفضلة، وابتدلوك بأعينهم، وأذكوك بألسنتهم، وطردوك من أقبيتهم، وحقروك بقلوبهم، ونفروا منك لما قربت، وتهللوا بسببك لما بعدت، وسخروا منك عند قولك، وأهانوك عند سكوتك، وأنفوا من مؤاكلتك، وكرهوا أن يصلوا معك إلى جانبك. وكنت إذا دعوتهم لم يلبوا، وإذا حدثتهم لم يجيبوا، وإذا سألتهم لم يسعفوا، وإذا حضرت مجالسهم لم يُفسحوا. كل ذلك كان منا بمسمع ومرأى، لم ينطو عنا منه خردلة ولا ذرة. فقد اخترنا صبرك، وعلى ذلك أجرنا أمرك، ومن أجله ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ [الشرح: ٢]. فلا يهمنك ما كان، فقد أفضيت إلى عزِّ جوارنا، وصرت مكرماً لدينا، مضطفي عندنا؛ حكمك نافذ في مُلكنا، وقولك مقبول على خلقنا، وأملك مبلوغ بإذننا، وأُسْك مُضَاعَفٌ بقرنا، وحبورك زائد بحبنا، وكُلُّك منعم بنعيمنا. ولولا ما تجرعت من جُرْع^(٢) البأساء والضراء لَوَجَّهنا،

(١) المبسر الذي يسبب الكلوح، وفي التنزيل الكريم: ﴿وَجُودُ يُؤْمِنُ بِآيَةِ﴾ [القيامة: ٢٤].

(٢) وردت في د، ع: جَزَع.

ما كنت اليوم تصير إلى حظيرة قُدُسنا، ولا كنت تؤهل لبسطنا وأنسنا. ولو أن عبادي علموا ما أُرْسَحَك له وأسوقك إليه والأطفك به وأنتهي به إلى أجره^(١)، لصرت فتنة عليهم، لأنهم كانوا يأخذون التراب من تحت قدمك، ويكتحلون به عند الرمد، وكانوا يَفْرُشُونَ لك الخدود حتى تمشي عليها، ويهدون لك الأرواح حتى تتحكم فيها. إنما أخفيتك عنهم صيانةً لك، وشغلتهم عنك توقيرًا إليك، وعابتهم مع ذلك بسبك، وقلت لهم: لم تحقرون أوليائي بالجهل، ولم تزدرونها بالكبر، ولم تبخلون عليهم بالقليل؟ أترون أنني زَوَيْتُ عنهم الدنيا وبسطتها عليكم، لانحطاط قدرهم [٢٢]، وارتفاع قدركم؟ إنما عَرَضْتُ بعضكم لبعض محنةً، وجعلتُ بعضكم لبعض فتنة. أردت بهم أنهم لا يطمئنوا إلى نعيم العاجلة فَأَقْتَرْتُ رِزْقَهُمْ، وأوتحت^(٢) من الدنيا حَظَّهُمْ، وأحببت أن ينشوا في كل حال يتعذر عليهم إِلَيَّ، ويتوكلوا في كل ما يلتبسون^(٣) به عَلَيَّ، وليجروا على تدبيري في توسعتي وتقديري، وأحببت لكم أن تفيضوا عليهم مما أفضته عليكم، فتكونوا مُنْعَمِينَ بنعمتي، وواهبين من فضلي، لتحوزوا بذلك مَرْضَاتِي، وتستحقوا بها جوارِي في جناتي. فأما أوليائي، فقد قطعوا أيام الدنيا بالصبر، وانتهوا إِلَيَّ بالطهارة ونالوا المُنَى. وأما أنتم فأَوْقَرْتُمْ^(٤) ظهوركم بالإثم والعُدوان، وأعظمتُم الإساءة إلى أنفسكم بالمنع والحرمان، فاهلموا إلينا بالمعذرة إن كانت لكم، وهاتوا حجتكم إن كانت معكم، وإلا فبعداً وسُحْقاً لأمثالكم.

يا هذا! إلى ها هنا امتدَّ نَفْسِي فيما بدأت به من إيقاظك وزَجْرِكَ وتنبهك. وقد قيل: كلام الحكماء إذا كان صواباً كان دواء. وصوابٌ ما سمعتَ غيرُ خافٍ؛ فإذاً هو دواء، وأنت بك داء، فاجعله دواء لدائك، فعن قليلٍ ما تصير إلى شفائك.

قد مضى هذا الفصل على ما تجد نفسك فيه، أو على ما تجده نفسك فيه. بقي الآن أن نتحول عنه إلى غيره ليكون لي في القول ولك في الاستماع طوفان في أرجاء الحكمة،

(١) وردت في (د): آخره. (٢) أوتح عطاءه: قلله.

(٣) لعل الأصوب «يكتسبون» وقد قرأ: «يكتسون» أيضاً. ووردت في ر «يلتسون».

(٤) أوقرتم: أثقلتم.

ومثاقفة^(١) في ميدان المعرفة، واختطاف من بروق الربوبية، وانصراف من عوائق العبودية، واعتصام بعلائق الخصوصية، وامتناء لظهور البشرية، وأخذ بالتحريم^(٢) فيما عاد بالأنس والراحة والأمل والأمنية. فنقول وتسمع، ونُصرح فتفقه، ونُكَيِّ فتنتقه^(٣).

يا هذا! حَدَّثَنِي الْآنَ عَنِّي، واسمعني مني، [٢٢ب] وَأَقْلَّ حَوَاشِي حَدْسِي وَظَنِي، واثبُتْ لأَصْنَافٍ فَنِّي وَعَنِّي^(٤). فقد قابلتك بوجهٍ وَقَاحٍ^(٥)، وناقلتك بلسانٍ نَوَاحٍ، ووقفت في حالي بين رجاءٍ إِذَا أَنَسْتُ به يئست منه، وَإِذَا اسْتَوْحَشْتُ منه رجعت إليه، وأنا في عُرْضِ ذَلِكَ لَا أَدْرِي كَيْفَ أُبْرِدُ غُلَّتِي وَقَدْ حَرَّتْ، وَلَا أَدْرِي كَيْفَ أُخَمَدُ جَمْرَتِي وَقَدْ التَّهَبْتُ، وَلَا كَيْفَ أُسَكِّنُ زَفْرَتِي وَقَدْ تَوَالَتْ، وَلَا كَيْفَ أَنْفُسُ كُرْبَتِي وَقَدْ غَالَتْ، وَلَا كَيْفَ أَكُفُّ عِبْرَتِي وَقَدْ سَالَتْ، وَلَا كَيْفَ أَصْرِفُ حَيْرَتِي وَقَدْ اسْتَرْسَلْتُ: فَدَائِي مِنْ دَوَائِي، وَعَلَّتِي مِنْ طَبِيبِي، وَبَلَّائِي مِنْ نَعِيمِي، وَفَنَائِي مِنْ حَبِيبِي. وهذا لأنني فزعت من ظاهرٍ قد حُشِيَ بالشُرورِ إِلَى بَاطِنٍ قد غُشِيَ بِالْغُرُورِ، فلم يكن في هذا مَفْنَعٌ وَلَا إِلَى ذَاكَ مَرْجِعٌ. بقيت واللّه بين الباب والدار، يعللني النسيم إذا رَقَّ، ويؤنسني البرق إذا بَرَقَ فأقول:

أَصَاحِ أَلَمَ تُحْزِنُكَ رِيحٌ مَرِيضَةٌ وَبَرَقُ تَلَالَا بِالْعَقِيقِي—نَ لَامِعُ
فَإِنْ غَرِيبَ الدَّارِ مِمَّا يَشُوقُهُ : نَسِيمُ الرِّيحِ وَالْبُرُوقُ اللَّوَامِعُ^(٦)

فهذا شدو من حديث إن تجوزب طرفاه لم يلتقيا إلى آخر العمر، ولكن على كل حال قد تذكرنا به شجواً، وتطلبنا منه صفواً، وإلى أن ينطق مزهرُ الحق بلسان الصدق فلي ولك به مُتَعَلِّلٌ من أفانين ما نتضايق به ونتعاسر عليه، ومن ضروب ما نستغيث منه ثم نفزع إليه. وكيف نبرأ من هذه الأمراض، وقد نبتنا في معادن البلاء، ودعينا في بلاد الفناء، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُغْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١] هذا صحيح، لا محيص بالصبر

(١) المثاقفة: الملاعبة والمبارزة بالسلح إظهاراً للمهارة.

(٢) التحريم: التمتع والاحتماء.

(٣) نقه الحديث: فهمه.

(٤) يُقَالُ: رَجُلٌ مِفْنٌ مِفْنٌ: ذُو فَنُونٍ مِنَ الْكَلَامِ. وَالْمِفْنُ: الْخُطِيبُ الْمَفْوَهُ.

(٥) رَجُلٌ وَقَاحٌ الْوَجْهَ: قَلِيلُ الْحَيَاءِ.

(٦) البيتان للأحوص من أبيات له يمدح عبد العزيز بن مروان (طبقات فحول الشعراء - ابن سلام الجمحي - تحقيق محمود محمد شاكر ج ٢ ص ٦٥٩).

ولا بالجزع، ولكن بلطفٍ مَنْ عند مَنْ كان به الجزع وله كان الصبر، فإنه إذا بدت ذرة من عنايته أغنت [٢٣أ] عن الجزع والصبر، وطمست آثار الحجة والعذر، ورفعت من هذا القطر إلى [ذلك]^(١) القطر، فاستنارت الأشياء المظلمة، واستبانَت الأمور المُبْهَمة، وتحللت العقود المُبْرمَة، وتسَلَّتْ النفوس المغرمة، ووُجد ما كانت الأمانة لا تسري إليه والتحكم لا يطلّع عليه، وصار الخشن ناعماً واليابس لَدناً، والقفا وجهًا، والمعدوم موجودًا، والبعيد قريبًا، والنازل صاعدًا، والمختلف مؤتلفًا، والكثير واحدًا، والغائب شاهدًا، والصادر واردًا، والدائم حامدًا، واللّاهب خامدًا، وتناغت الأشياء بلغة عجماء ولكن مفهومة، وتلاقت الأحوال بملابس الإيضاح ولكن مكتومة.

فهات الآن: أين الجيب الممزق على هذه الأشجان، وأين الذيل المجرور في هذه الأوطان، وأين الخد المخموش على فوت ما بين هذا الخبر والعيان، وأين الكفُّ المبسوطة إلى هذه الأغصان، وأين القامة المتطاولَة إلى هذه الأعيان، وأين العلامة المذكورة بهذا الشأن بين أهل هذا الشأن، وأين سر هذا الحديث من علانية مَنْ يقول كان وكان؟ لا أين، ولا من يقول: ولا أين!

يا هذا! هذه نبرات قوم عن هواجس قد جادها الحق بصور الاختصاص، فتهامسوا بينهم في أوقات كان لتمويلهم فيهم تصرف بحقّ إبداء العين وذمام إنشاء الكون، فتخافتوا بها متهاجرين^(٢)، ونَبَرُوا عن حقائقها متعاجزين، وعادوا على سرائرهم مع خلواتهم لميعادهم متناجرين. فإن كنت تعرفهم أو تفهم عنهم، فادُنْ منهم، ونور قلبك برويتهم، وغامِسْ روحك في غدِيرهم، وارْتَعْ في روضتهم، واعتبق بذكاء طيبهم؛ وتعلق بفضل عطافهم^(٣)، وتعزّز بذكر أسمائهم، واصبغ ظاهرك وباطنك بصفاتهم [٢٣ب]. وإلا فالحذر الحذر، فإنك إن دنوت من نارهم جاهلاً بأسرارهم احترقت احترقا تعود عنه رمادًا.

(٢) التهاجز: المسارة والهمس.

(١) زيادة لازمة.

(٣) العُطاف: رداءً غليظ من صوف ونحوه، يلبس فوق الثياب اتقاء البرد «العباءة».

اللهم لولا إغضاؤك عنا في وصفك، ولولا سترك علينا في ذكرك، ولولا رفقك بنا في الدعاء إليك - لكننا هالكين، لأننا نصِفُكَ صِفَةَ العارفين، ونعبدك عبادة الجاهلين، ونذكرك ذكر الحاضرين، وننسأك نسي الغائبين، وندعو إليك دعاء الناصحين، ونستجيب لك استجابة الغامسين. فنسألك - بفضلك ورحمتك - أن تسمح لنا وتسامحنا حتى ننتهي إلى رضوانك وإلى غفرانك. على أننا لا ننال رضوانك إلا بغفرانك، ولا نملك غفرانك إلا برضوانك، يا أعز من دُعي وأكرم من أجاب، يا أول، يا آخر، يا ظاهر، يا باطن، يا غائب، يا حاضر، يا جابر، يا كاسر، يا شاكر، يا عاذر، يا هادي، يا ناصر، يا قوي، يا قادر، يا وارد، يا صادر! نسألك لطائف صنّعت وغرائب لطفك، حتى نجول في أكناف مملكتك، متصرّفين بأدبك، جادّين بإطلاقك، قائلين بإنطاقك، حائلين عن مساخطك، متطلبين لمراضيك، موحدّين لك، عارفين بك، قارئين معك، قانتين لك، متوجهين نحوك، نازلين في خطّطك، جانين من ثمار كلامك، واجدين غيب ربوبيتك.

اللهم إنك أنت مُفَجِّرُ عيون القلوب، وأنت المُطَهِّرُ لما في العيون، وأنت الواهب لما تشحُّ به النفوس، وأنت القابل للبرّ المحسوس، وأنت القائد إلى المحل المأنوس. فبتفردك إلا أفردتنا، وبعزتك إلا أعزّزتنا.

إلهنا! إنا نقول ما نقول عن عِيٍّ وَحَصَرٍ، ونتناول ما نتناول عن قِماءة^(١) وقِصرٍ، ونطلب ما نطلب عن حاجة وفقر، ونحمل ما نحمل على قدر الوسع والطاقة. فاجبر كل نقیصة لنا، وارفع كل خسيصة منا، وأيدنا منصورين، وانصرنا مؤيدين، وعلمنا اسمك الأعظم [٢٤] حتى ندعوك به ممجّدين، ونتقرب إليك به مُقدّسين. ومهما فعلت بنا فلا تفضحنا على رؤوس الأشهاد، ولا تزعجنا عن وثير المهاد، ولا تبُلُنَا بعواقب العناد، يا ذا الجلال والإكرام! إنك رؤوف بالعباد.

(١) قِماءة: صِغَرُ الجسم، ذل وهوان.

رسالة (٩)

اللهم! كَثُرْ غَلَطُنَا فِينَا، وَطَالَ لَغَطُنَا عَلَيْنَا، وَاشْتَدَّ الضَّعْفُ بِنَا، وَنَادَى مُنَادِي الْعِزِّ بِذَلَّتْنَا، وَدَلَّ دَلِيلَ الْهَيْئِكَ عَلَى فِضَائِحِنَا، وَامْتَدَّتْ حَيْرَتُنَا فِينَا، وَتَرَادَفَتْ حَسْرَتُنَا مِنَّا، وَارْتَدَّ نَظَرُنَا إِلَيْنَا، وَشَمِتَ بِنَا عَدُوُّنَا، وَوَجَدَ السَّبِيلَ نَحُونَا حَاسِدُنَا، وَأَصْبَحْنَا بَيْنَ خَلْقِكَ مَلْحُوظِينَ، وَبِالْمَقْتِ وَالشَّنَانِ مَوْضُوبِينَ^(١)، مَوْطُوبِينَ بِالْقَسْوَةِ وَالْعُدْوَانِ، مَقْرُوفِينَ^(٢) بِالْكَذِبِ وَالبُهْتَانِ.

اللهم! فَجُدْ عَلَيْنَا مِنْكَ بِمَا يُسَلِّبُنَا عَمَّا حَرَمْتَنَا مِنْهُمْ، وَمَيِّزْنَا بِلَطِيفِ لَطْفِكَ عَنْهُمْ، وَعِزِّزْنَا بِعِزِّزِ عِزِّكَ حَتَّى لَا نَرَى عِزَّ الْعِزِّيزِ بِغَيْرِ عِزِّكَ، وَعَدِّ هَمَمْنَا إِلَيْكَ، وَاصْرِفْ مُهَمَمَنَا عَمَّا لَدَيْكَ، وَافْعَلْ مَعَنَا فِي الْآخِرِ نَظِيرَ مَا بَدَأْتَ بِهِ فِي الْأَوَّلِ، إِنَّكَ الْمَجِيدُ الْكَرِيمُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

يا هذا! إني أرى ما ترى، فهل ترى ما أرى؟ أم أنت من هذا الورى نديم السرى ولا تحمد صباح المسرى؟ أرى جملة: أنوار الخالق^(٣) عليها ساطعة، وأخبار الخلق عنها قاطعة، وذلك أنها تُضْحِي مَصْدُوقَةً بِلِسَانِ التَزْوِيقِ، وَتُمْسِي مَكْذُوبَةً بِلِغَاتِ التَّحْقِيقِ، تَمَرُّ فِي التَّهْمِ كَالرِّيحِ، وَتَقِفُ حَرُونًا^(٤) فِي مَسَاكِنِ التَّطْوِيعِ، مَتَوَقَّعة لِعَلَامَاتِ التَّصْرِيحِ، أَوْ أَمَارَاتِ التَّلْوِيعِ. وَمِنْ أَعَاجِيبِ نَعْتِهَا، فِي كُلِّ مَكَانِهَا وَوَقْتِهَا، أَنَّهَا تَتَحَرَّكُ عَلَى نَفْسِهَا، وَتَرَى الزِّيَادَةَ فِي نَقْصِهَا. إِنْ فَعَلْتَ فَعَلْتَ سَرَفًا، وَإِنْ تَرَكْتَ تَرَكْتَ صَلَفًا؛ إِنْ نَطَقْتَ نَطَقْتَ تَمْوِيهَا [٢٤ب]، وَإِنْ سَكَتَتْ سَكَتَتْ تِيهَا؛ إِنْ أَمَنْتْ أَمَنْتْ اغْتِرَارًا، وَإِنْ خَافَتْ خَافَتْ اعْتِدَارًا، وَإِنْ أَبَتْ أَبَتْ اقْتِدَارًا، وَإِنْ أَجَابَتْ أَجَابَتْ اضْطِرَارًا؛ إِنْ أَلْفَتْ أَلْفَتْ إِغْلَالًا^(٥)، وَإِنْ مَلَّتْ مَلَّتْ اسْتِلَالًا، إِنْ طَمِعَتْ طَمِعَتْ مِصَانَعَةً، وَإِنْ تَسَلَّتْ تَسَلَّتْ قَانَعَةً. ثُمَّ إِنَّهَا

(١) رجل مَوْطُوب: تداولت الخطوب ماله. ووظب فلانٌ على الأمر: داومه وتعهده.

(٢) مقروفين: متهمين.

(٣) وردت في ر: الخلق..

(٤) حرونًا: جموح، صعب الانقياد.

(٥) أي خيائنة، من أغل إغلالًا: خان.

لا تجد مصحوبها مع اختلاف فنونها إلا علة لها [و]وبالاً عليها وأخذاً فيها. هذا طَرَفٌ من شأنها. فأما ما يتفَضَّل منها وينفصل عنها ويتصل بها ويصل إليها فهو يدلّ عن خُلس الطرف، فضلاً عن تصوير ذلك بحرف بعد حرف؛ عين تروء للقلب، وقلب يتقوى بأحكام الكرب، وشوق يوهن أركان الجسد، وتيه يهيج الحاسد على الحسد، وينفث النَّفَّاثَات في العُقَد؛ ونفس لولا طروق الخيال بنواحيها لكانت تزهد، وروح لولا إلمام المني بحواشيها لكانت تُزْهَق، وحال لولا تكفُّل المولى بنظامها لكانت تمحق، وحُشاشة لولا صنع اللطيف بها لكانت تحترق. فها أنا قد سبحت في لجة الأفكار، وصرت منها إلى نوع من القلق.

أضمرتُ نَفْسِي في نَفْسِي كما انطبقت أجفانُ عيني على الأشفار والحدَقِ
 إن رُمْتُ إدراكَه عزّت موارِدُه وإن قصَدْتُ خلاصاً منه لم أُطِقْ
 أحدث النفس أن القُرب يُؤنسني وإن وصلتُ إليه هُمْتُ من فَرَقِ
 لا تعجبني فإنني قد دُهيتُ كما يُذهي سوادُ الدجى من سُفرة الشَّفَقِ

اسمع حديثي، وخُذْ من طَيِّبي وخبيثي: أشهدني الأكوان مزخرفةً بأخبار وأعيان، فقلقلني بها تشويقاً، ثم حَلَحَلَنِي^(١) عنها توقيفاً، ثم لم ألبث إلا هُنيهة حتى أدمجني فيها وأدرجني معها. فلما تَشَبَّهْتُ^(٢) هناك قليلاً فتحتُ بصراً [٢٥أ] كليلاً، وجَرَرْتُ حَبلاً طويلاً، فرأيت هنالك خَلْقاً يعشَقُ خَلْقاً، وَخَلْقاً يقتضي خَلْقاً، فطلبتُ فرْقاً فلم أجد فرْقاً، ثم أسندت إليه تهاويله وأفاعيله تملساً^(٣) من إضافة الملك، وخيفة من واقعة الهُلُك، فسَلَطَ عليّ ألسنة مُقرَّعة بالتقصير، وأظهر لي أهوالاً مُروَّعة بالتنكير، حتى كأني نبوت عن الكون نبؤاً، وسموت عليه سموً. فلما أخذ بمخنقتي في هذا الوقت، ومنعني من أن أهتف أو أكشف، عطفت لائذاً بالإسفار عما دهاني به الاستتار. فلما رأيته كذلك

(٢) تشبَّهْتُ: أنست واطمأننت.

(١) حلحَلَنِي: أزاله وحرَّكه.

(٣) تملس: تخلص وأفلت.

حبسني في نفسي، ودفنني في رَمْسِي، وسلبني روحي وأنسي، وغيب عني قمري وشمسي، وحسم^(١) حَسِّي عن غدي وأمسي. فقلتُ بلسان العدم: يا وليَّ القدم! أمعاقب في عشقك أنا؟ قال: بل معاقب أنا في صدقك في عشقك. فقلت: سيدي! فهل وراء الصدق غاية، أو هل فوق العشق نهاية؟ فقال: نعم! غيبتك عن صدقك برؤية صدقك، وعُزوبك عن عشقك باستيلاء عشقك. فعندها صرخت مستغيثاً وقلت: فما حيلة من إن أدنيت أبليت، وإن أخفيت جَلَّيت، وإن عَرَّيت حَلَّيت، وإن واريته أريت، وإن سكنته هيجته، وإن قيدته أمرجته، وإن آوَيْته أزعجته، وإن أردته أدرجته، وإن مقَّته استدرجته، وإن أرويته أعطشته، وإن ترأَّيت له أدهشته، وإن أحوجته خيَّبت، وإن أطلعت غيبت، وإن استدعيت سبَّبت، وإن حركته وقَّفت، وإن سترته كشفت، وإن أَمَّنته خوفته، وإن حرمته أسعفت، وإن سَلَّبت شغفت، وإن أتلفته أتلَّفت، وإن أتلفته شَرَّفته. فكل الذي منك به عجب، وكل الذي بي منك شجب^(٢)، ولا غير له، فما هذا الخبر، وليس غيره فهل من أثر؟!

يا هذا! زَيْن حقيقتك بالحق، كما تزين ظاهره بالخلق، ولا تجهل [٢٥ب] صَرَف^(٣) ما بين الزينتين، فإن إحدهما ظل الأخرى، والشخص أشرف من الظل لأن الظل تابع له ومنبث عنه، والظل لا يكون إلا للشخص، وقد يكون الشخص ولا ظل.

أدرك الإشارة المدفونة في العبارة، والإيحاء الذي في الإيماء، والإيماء الذي في الإنباء، والإنباء الذي في الإغراء، والإغراء الذي في الإسراء، والإسراء الذي في الإيفاء، والإيفاء الذي في الإبراء، والإبراء الذي في الإشفاء، والإشفاء الذي في الإغفاء، والإغفاء الذي في الإلفاء^(٤).

أما الإشارة المدفونة بالعبارة، فهي التي تجافت العبارة عنها لأنها استصحبت تركيب الحروف، ولطفت الإشارة عنها لأنها تنزهت عما يتحكم في الأسماء والأفعال والظروف. وأما الإيحاء الذي في الإيماء فسرَّ حَرَمُ إعلانه في الثاني لما وجب كتمانها في الأول. وأما

(٢) الشَّجْبُ: الحاجة والهم.

(١) حسم: قطع أو منع.

(٤) الإلفاء: مصدر أَلَفَ، بمعنى أنس واعتاد.

(٣) صَرَف: تدبير وحيلة.

الإيماء الذي في الإنباء فلمشافهةً بدت في عرضه من الحق. وأما الإنباء الذي في الإغراء فلا يرتقي حتى تكون مناراً للخلق. وأما الإغراء الذي في الإسراء فلمحو ما دون الأول توحيداً للأول. وأما الإسراء الذي في الإيفاء فليُذلل السبيل لسالكه إلى المحل الأعلى. وأما الإيفاء الذي في الإبراء فليصحّ الطلوع على المراد بلا حاجز يؤذي ولا ظن يقْذِي. وأما الإبراء الذي في الإشفاء فليعتدل التقابل الذي من أجله^(١) الذي هَمَّتِ الدموعُ بالفرق^(٢) والتهفت الضلوع بالحرَق. وأما الإشفاء الذي في الإغفاء فهو من باب اللطيفة التي طال في الفحص عن حقيقتها الخوض، ونَصَرَ من أجل الإقبال على معرفتها الروض. وأما الإغفاء الذي في الإلفاء فللعجبية التي حار بسببها البصر وعُدِمَ على ذلك كل وَزَرٍ [و] عَصَرَ^(٣).

هذه جُونةٌ^(٤) لا يفتحها - عافاك الله - هؤلاء العطارون، أعني الذين بعَرَقَهم يسهكون^(٥)، ويدفأون ويسخنون، ويرقون ويركبون، ويمزجون ويخلطون ويغلطون. هذه جُونةٌ لا يملكها إلا العارفون، ولا يتطيب منها إلا الواجدون [٢٦أ]، ولا يظفر بها إلا الواصلون، ولا يُبَخَّرُ منها إلا الغرُّ المحجَّلون، ولا يعبق بريحها إلا الأفراد الموحَّدون: وَحَدُوا فَوَجَدُوا، وتَوَجَّدُوا فاتحدوا.

يا هذا! أين نحن؟ حدثنا عنا فقد طحنا منا. هذا وليس لنا من هذا الديوان إلا الحديث، ولا من هذه الجُونة إلا الخبر، فكيف بنا لو عاينا هذا المخبر، وشاهدنا هذا المنظر، وقطعنا ها المَعْبَر، وظفرنا بهذا المحبر! الله أكبر! الله أكبر! من أحبنا أفلس، ومن أبغضنا توسوس؛ هذا سرورنا، من شاء يلومنا. هذا غداؤنا وعشاؤنا، فليكمد حُسادنا وشُناؤنا^(٦)!

يا هذا!

خل جنبيك لــــرام وامضِ عنه بــــلام

(١) في ر: التقابل من أجله الذي.

(٢) وردت في ر: بالعريق (دون إعجام) والفرق: جمع فرقة وهي السقاء الممتلئ.

(٣) الوَزَرُ: الجبل المنيع، والعَصَرُ: الملبجأ.

(٤) الجونة: سلة صغيرة مُعَشَّاة بالجلد يحفظ العطار فيها الطيب.

(٥) سَهَكَ: كانت رائحته كريهة. (٦) جمع شاني: الكاره والمبغض.

يا هذا! كم تعذبني وتؤذيني، وتحجبنني عن مصالح شؤوني، بشرح فتوني وفنوني! والله ما يحلُّ لك، ليس هذا من حق الصحبة، ولا من ذمام العشرة، ولا من حسن العهد في الصداقة. أَبْقِ عَلَيَّ لِي، وَإِلَّا فَأَبْقِنِي لَكَ. ما هذه المطالبة الشديدة، وهذه الهزة المقلقة،

(٢) زيادة ضرورية.

(۴) منائحه: نعمه وهياته.

(٥) عَلَبَ: أَثَرٌ وَحَزٌّ.

وهذه اللفظة المستعملة، وهذه القسوة المتكلفة. أرسل خِناقي^(١) واطلب مني ما أملك، ولا تُشَقَّ عليّ فلست من حجر ولا من حديد: «كم تحملون على ضعفي فأحتمل». تستنطقني في المعرفة، وتحولني إلى التوحيد، وتحادّني في البيان، ولا تقابلني بالرفق، وتجري كأنك جواد، وتقف كأنك كودن^(٢)، وتهم كأنك حر، ثم تعجز كأنك عبد، وتُمدُّ باعك إلى ما يقصر عنه، وترمي بوهمك إلى ما يُفَرِّق منه.

ما هذا بالرأي السديد ولا بالهدي الرشيد، ولا بالحزم الجميل، ولا بالعزم الحميد. سَلْ - هداك الله - عن آفات الأعمال، وعن وساوس الضمير، وعن فلتات الجوارح، أعني اللسان عند انطلاق لفظ، واللحظ عند [١٢٧] تسريح لحظ، وما شاكل ذلك من جلسة غير لا ثقة بالعبد، وتُكَاء غير مستحبة من ضعيف، ومن رقدة في غير حينها أو في غير مكانها، أو من أدب قد ساء، ولا بُدَّ من الانحراف عنه والريضة دونه، عن نية الثابت في العبادة، وعن حال راثت في تحقيق الزَّهادة، وكَسَل عرض في طلب الزيادة. فأما المعارف والإلهيات وما هو في حوزتها ويجري في جملتها فما يحل أن تكابرني عليها، ولا أن تجاذبني إليها؛ ولا يحل لي أيضًا أن أعقد بيني وبينك جسراً من الحياء فتتأبر عليه على وقاحة لا تليق بنا في السؤال والجواب. لَمْ لَا نُقْبَل على أنفسنا فنقوم منها ما قد أناد^(٣) من هذه الأخلاق الفاسدة، والعادات الخبيثة؛ حتى إذا نقينا من أدناسها، واستضأنا بأقباسها، وتلهَّينا بأنفاسها، واختلطنا بناسها، حينئذ نروم من هذا الحديث حرفاً بعد حرفٍ على طريقة أهل الأدب الحسن، وعادة ذوي الحِكم والفطن؟

اللهم قَبِّضْ لنا منك ما يقفنا على صراطك المستقيم، ويؤمِّننا من الزلزل في سواء الجحيم. [يا] قدير^(٤) يا قديم^(٥)، يا حليم، يا كريم، يا ذا الجلال والإكرام!

(١) الخِناق: خلق الإنسان، عُق، رقبة. (٢) كودن: البغل والفرس الهجين.

(٣) أناد: انشئ واعوجَّ. (٤) ر: قدَّر.

(٥) «القديم» ليس اسماً من أسماء الله الحسنى، ولا صفة من صفاته، وإنما يجوز إطلاقه على الله تعالى في مقام الإخبار عنه، لا مقام التسمية والوصف. قال ابن القيم رحمه الله: «إن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى، أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته: كالموجود، والقائم بنفسه، فإنه يخبر به عنه ولا يدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العليا». بدائع الفوائد ١/ ٢٨٤. وأما قوله ﷺ: «أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم» رواه أبو داود (٤٦٦) وصححه الألباني في صحيح أبي داود. فالقديم في الحديث وصف لسلطان الله تعالى، وليس وصفاً لله.

رسالة (١٠)

اللهم! رَوِّحْ صدورنا بنسيم وُدِّكَ، واغمر أرجاء قلوبنا بغوامر من رِفْدِكَ، وأذِقْنَا حلاوة بَرِّكَ، ومَلَكْنَا مقاليد مُلْكِكَ، وَجُدْ علينا بك، وَخَلِّ بيننا وبينك، وَحَلِّ أَبْصارنا إليك، واغضضْ أعيننا عن غيرك، وأسلفنا كرامتك، وسَهِّلْ مقادتنا في الإيجاب لك والاستجابة لك والصبر معك. واجعل أرواحنا مغارس معرفتك، وألستنا قواطف وصفك [٢٧ب] ونعتك في قدرتك وحكمتك، وإذا عطشنا فروِّنا، وإذا ضَعُفْنَا فقوِّنا، وإذا اعوججنا فسوِّنا، وإذا أصحَرْنَا^(١) فأوِّنا، وإذا اعتللتنا فداونا، وإذا كَدَّرْنَا فصفِّنا، وإذا دَنَسْنَا (استأسنا)^(٢) فتنِّنا، وإذا فسدنا فاستصلحنا، وإذا نكرناك فعرفنا، وإذا جهلناك فعلمنا، وإذا تعسَّرنَا عليك فسهلنا، وإذا افتقرنا فأغننا، وإذا بَنَّا منك فصلنا بك، وإذا التوينا عليك فقومنا لك.

أيها الصاحب المؤثر للطائف البر، الكاتم لغوامض السرِّ، الحافظ لأعيان الغيب، الطاهر من أدران الرِّيب، الشاكر على اليسير من النعمة، الراعي للقليل من الحرمة، المتمكن في درجات المعارف، المخوِّض في سكرات المتالف! متى انفتح بصرك لطلب حياة نفسك، وانشرح صدرك في تعرف كمالك وفضلك، وانجابت عنك غيابتك، فبدت لروحك منك غايتك، وحنَّ فؤادك إلى الفحص عنك بما يحقق يقينك، ويجمع لك صفتك، ويحرس عليك سَمَتَكَ، ويوجدك بك، ويصفِّيك منك، ويهيؤك لمن هو أولى بتصرفك، وأملك لتصرفك، وأعلم بصرفك ومُتَصَرِّفك - فقابل ذلك كله بالقبول، واستعنْ عليه بالصبر، وصلِّ الصبر بالاستسلام، وامزج الاستسلام بالتوكل، وحلِّ التوكل بالمحبة، وثبَّت المحبة بالصدق، وجُلِّ في أثناء الصدق بالإخلاص، ومُجِّ في الإخلاص بالوجد، وجُدْ في الوجد بالوجود، فهناك مكانك ومَعانك^(٣)، وهناك سرارك وعِلانك،

(١) أصحَر القوم: برزوا إلى فضاء لا يواريههم فيه شيء.

(٢) اضطرب الناسخ هنا فكتب: وإذا دنسنا استأسنا، ووضع علامة «صح» على الكلمة الثانية ولم يشطب على الأولى.

واستأسنا من أسن، أي تغير لونه وريحه.

(٣) المعان: المنزل.

ونكرانك وعرفانك، وولايتك وسلطانك، وحجتك وبرهانك، وهناك أنت أنت: سلالة المعرفة، ومُصااص^(١) التوحيد، وصفو الحق، [١٢٨] وعين العين وكُنه الكُنه، فلعلك إذا شخصتُ عنك بانسلاخك، وانسلختُ منك بشخوصك، وبايتتك مباينة، وعانيتك معاينة، وكنت فيما كنت غير كائن، تصلح لمنادمة من هو أولك وآخرك، وتؤهل لمواصله من هو وليك وناصرك.

هذا ذرؤ من النجوى في هدايتك وإرشادك، ونُبد من الشورى تجد به السبيل إلى استقامتك وسدادك، فإن هشت لها روحك، وثاب إليها عقلك، وثبت عندها سرّك، وانخزل^(٢) عنها اعتراضك، وانجلي دونها امتعاضك، فازدد منه ازدياداً، لا ينفّر قواك عن القبول، ولا يحلّ عُراك عن القيام بالفروع والأصول، ومتى سمعت - في مطاوى حالك ومناشرها، وفي مباشر شؤونك ومعاسرها - هاتف العقل فلا تحفل به، ومتى أحسست في مُفترّق حالك ومجموعها، وفي مظعن مُناك ومرتعها، بهاجس الحس فلا تعجّ عليه، ومتى أوجست - في معتقدك ومعتمدك، وفي مفاتحك ومغالقك - خيفة من تسويل نفس وتزيين هوى، فلا تفرّق منه ولا تنجذب إليه، بل تقبل كلمة أخرى، ففيها صحتك وسلامتك، ورفعتك وسعادتك. اصفُ من كدر النفس العائقة لك عن معاني القدس اللاتئة بك، فإن في صفائك اتصال بقائك، وفي كدرك دوام فنائك؛ ولا تركب بحر البحث فتغرق، ولا تغص على عمقه فتتوى^(٣). إن عجزت فلا تستعف استعفاء المتخوفين، وإن مرضت فلا تستشف استشفاء المترفين؛ وإن مللت فلا تستكف^(٤) استكفاء المتعيقين^(٥). يا هذا! إن كنت تسمع ما يُسمع فاقبله واستبشر به [٢٨ب]. وقم عليه بالحق، وكُنه^(٦) بالصدق، ولاحظ أمام ذلك قديم إحسانه إليك، وغريب امتنانه عليك، وغامر أياديه لك، وصوافي مواهبه عندك: كيف أظهرك بقدرته البالغة، وكيف قلبك في نعمه السابعة، وكيف عجنك من صنعته الرائعة، وكيف دلّك على معرفته البارعة، وكيف قرّبك من حقيقته

(١) مُصااص: خالص كل شيء.

(٢) انخزل عن الأمر: رجع عنه ضعفاً.

(٣) توى: هلك.

(٤) استكف الناس: مد إليهم كفه بالمسألة.

(٥) المتعيقون: الطالبون للمعروف.

(٦) كُنه: احفظه.

الشاسعة، وكيف أَمَّنكَ من سطوته القارعة؟ يحوشك بهذه الأعاجيب إلى نفسه حوشاً بعد حوش، وينوشك^(١) بهذه الأساليب إلى أنسه نَوْشاً بعد نَوْش. كل ذلك لتعرف لَحْظَكَ ولفظك، وتُحَرِّز نصيبك، وتبادر [إلى] ما لك، وتنفي شَيْنِكَ، وتنتقي زينك، وتدخر ما يأخذ بيدك ويجذب بضبعك، ويرفع من طرفك، ويُعلي من كعبك، وينجو لنفسك؛ ولتكون مستضيئاً بمصباح دينك، مستنيراً^(٢) [...] متجلياً بجلباب عبادتك، متسربلاً بسر بال زهادتك. وأنت على عادتك في الفتور والنفور، مؤثراً لمخاوض الظلمات على النور. لم ذلك، وبِمَ ذلك، وفيَم ذلك، وعلام ذلك؟ أما أزاح علتك؟ أما وُفّر طاقتك؟ أما نَهَجَ سبيلك؟ أما وُضِّح دليلك؟ أما رفق بك؟ أما أخذ بيدك؟ أما أنعم عليك؟ أما أحسن إليك؟ أما جال في وهمك؟ أما ساح في سرك؟ أما سكن حَرَمك؟ أما قبل بَرَك؟ أما قَدَمَ إسعافك؟ أما عَظَّمَ أطافك؟ أما قَدَّى عينك؟ أما أمدّ لونك؟ أما أثر نجاتك؟ أما قَدَمَ غياثك؟ أما نصر وليك؟ أما خذل عدوك؟ بلى، ولكن الإنسان لربه كنود^(٣)، ولآياته عنيد، ولنعمه جُحود. أيها الممتّع المُؤَنَس، والمفرّج المُتَنَفَس! أما سمعتَ من قال: أين تُقْتَطَفُ ثمار العُقبى؟ فقل له: حيث تُغَرَسُ أشجار البلوى. فقال: فمتى [٢٩أ] يُقضى ذمام الصحبة؟ فقل له: إذا سكن في مساكن الغربه، يتجرع الكرّبه بعد الكرّبه.

يا هذا! لا تَكْذِبَنَّ ولا تَخْذَعَنَّ ولا تَقْمَرَنَّ^(٤) ولا تَسْحَرَنَّ. فالحديث ذو شجون، والحال مختلفة الفنون، والأمر في الجملة مظنون، والإنسان فيما بينهما مغبون مفتون. ولكن على كل حال: كَلَحُ الظاهر خيرٌ من بُغْض الباطن، وعُتْبُ اللسان أخف من حقد القلب، وحياة بشكٌ خير من موت بيقين، وقليل بنقْدٍ^(٥) خيرٌ من كثير بنسيئة^(٦)، ومُتَوَّهٌ بعلم أشفق من مرشد بجهل، ونفاق ببقيا أجدى من تجليح^(٧) باستئصال، وقابلٌ لعذر أرحم من مُتَجَنِّ

(١) ناش، ينوش، نَوْشاً. ناش الشيء: طَلَبه.

(٢) كذا، ولعل هنا نقصاً تتمته [بنور هداك] أو ما شابه. (٣) كنود: كفور بنعمة ربه.

(٤) قَمَر فلانٌ: بهر نور القمر عينيه فحار ولم يبصر، وأيضاً: أرق في القمر فلم ينم. والمعنى الأول أقرب.

(٥) النقد: الدفع عاجلاً. (٦) باعه بنسيئة: أي بتأخير دفع الثمن.

(٧) التجليح: الإقدام والمُضي.

لغير ذنب، وشاهد بتعريف أبلغ من غائب بتسويق، وخادع ببيان أنصح من محقق بخبر. هذا كلامي بعد ثقة أضرت بي، ومقة سلبت لي، وحال تناجيك وتناجيك وتشاكيك وتباكيك. ووصل الجد بالمزح، ومزج العذب بالملح، وخلط العتب بالصلح، ليكون أغرب في غرائب العبرة، وأذهب لعجائب الفكرة.

يا هذا! إن سهر طرفك فاجعله^(١) يراعي محاسن وجهه، وإن رقد جفحك فليلهو بطيف خياله، وإن ألح فؤادك فليستمتع بالطمأنينة إليه، وإن توالى خطبك فليتنفصل بشهاب قبس منه، وإن اعوج لسانك فليرحم حالك معه، وإن استن شكرك فليعلم مضاعف برّه عندك، وإن خرج صدرك فليهدي أريحته إليك، وإن أرفأ^(٢) جأشك فليذكك خصوصية أنسه بك.

دع ذا أيضاً، فالحد أمضى من أن يستراح إلى هذا، واستيقن أنه هو الخصم والحكم، وقوله الفضل والحكم، وأنه بك أبعدك منك، ولك شوق إليك. وفيك ظهر، وعنك استتر، والظهور والاستتار [٢٩ب] صفاتك، ولست في الجملة غيره، لكن ليس هو في التفصيل إياك. فإن خبرت عن الاسم بالاصطلاح كان ضلالاً منك، وإن خبرت عن المعنى بالمعقول كان وبلاً عليك، وإن خبرت عن المعنى والاسم كان محالاً عندك، وإن قلت المعنى أصل فالاسم فرع عليه، وإن قلت: الاسم أصل فالمعنى غير مشار إليه، وإن قلت: المعنى والاسم أصلان فأيهما يعول عليه! وإن قلت: الاسم والمعنى فرعان، فأين الأصل الذي تقف لديه! هيهات أن يكون مخبراً بلسان، أو مضمراً بجنان، أو محوياً بعبارة، أو معنياً بإشارة، أو معتمداً بجزم، أو معتقداً بعزم، أو مطوياً بقلب، أو ملوياً بلب، أو موهوماً بحدس، أو مهموساً بهمس، أو ملموساً بنفس، أو محسوساً بحس، أو معقولاً بعقل، أو موجوداً ببيان، أو مفقوداً بمكان، أو موسوماً بزمان، أو محرّفاً بنعت، أو مُعرّفاً بوقت، أو مصرّفاً بلفت. حشو القلوب منه التخيل المحض، ونهاية الإنسية منه التمثيل البحث، والحق من وراء ذلك على التحصيل الصرف.

(٢) ارفأ: سكن.

(١) سياق العبارات التالية يحتم علينا أن نقرأها «فليجعله».

أيها السامع! هذا ديوانٌ ما فُضَّ ختمه منذ خُتِمَ؛ هذا بابٌ ما قُرِعَ مذ أُغْلِقَ وأُبهِمَ؛ هذا مقالٌ ما أُسْتَنْبِطَ علمه مُذْ كُتِمَ.

يا هذا! أنى وجدت من هذا التتميق والتزويق وطراً فافضه، وإن فاتك فسلم لأهله ولا تَقْفُهُ^(١)، لأن المعترض على الخلق متعرض لخزي الخلق، فكيف المعترض على الحق؟ والمستزيد من الناس ممقوت، فكيف المستزيد من إله الناس؟ جهْدُ الْمُقِلِّ في هذا الشأن كثير، وإفضال المُثْرَى فيه خطير، وزُخْرُفُ القول فيه غرور، وتحبير اللفظ فيه تحجير، وهتك الستر فيه افتضاح، وكتمان الحال فيه إيضاح. مقادُ القول فيه سهل، مرادُ القائل فيه صعب، الرجاء فيه ممدود [٣٠أ]، والحق به مصمود؛ التلبس فيه تأنيس، التحريش فيه تنعيش، الخُلف فيه إنجاز، الذلُّ فيه إعزاز، الدَّرْكُ فيه فَوَات، الموتُ فيه حياة؛ الزمان فيه بالحق ممتدُّ بلا زمان؛ والخلق فيه عن الحق مرتدُّ بلا بيان؛ السلامة فيه غنيمة، فكيف الغنيمة؟ [العبودية]^(٢) فيه ربوبية، فكيف الربوبية؟ البعض فيه كل، فكيف الكل؟!

أوه! التبسَ الجهرُ بالكتمان، وامتزج الخبرُ بالعيان، واشتبه العدمُ بالكيان، واختلطت الكرامة بالهوان، واعتلقَ الفقدانُ بالوجدان، وغار البيانُ في البيان فجلَّ البيان، واستنار الشأنُ في الشأن فعزَّ الشأن. فلا جِئِدَ إلا وهو عاطل بعد التحلي، ولا حق إلا وهو باطل بعد التجلي، ولا مُزَن إلا وهو سَخَّ بعد التولي. ولا قَلْب إلا وهو عاشق بعد التسلي، بحكم لا مردَّ له، وسلطان لا قبلَ به، وقضاء لا متنقَّس فيه، ورق لا عتق معه، وأسر لا فكاك منه، وعُتْب لا عُتْبَى بعده، وكَرْب لا تنفس عنده.

فما أقول وما أصنع إن كان لسان التناجي محصوراً، وزمان التهادي مقصوراً؟! فهلَمَّ حتى نتشاكى ونتباكى، لعلنا نُبرِّد غليلاً أو نشفي عليلاً، أو نجد إليه سبيلاً. فقد صرنا إلى حد العطب، مُذْ استمرَّ بنا كَيْدُ الزمان واستتبَّ، وانتهينا إلى حريم اليأس وعَرِصة القنوط، لا يُجَادُ لنا بعزاء، ولا يُفَاض علينا صبرٌ، حتى كأنَّ الذنب كله لنا، وحتى كأننا شقينَا بنا وحرَمنا منَّا أو بدَّلنا عَنَّا.

(١) لَا تَقْفُ: لا تتبع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

(٢) زيادة لازمة حتى يستقيم السياق.

ها أنا أصرح وأقول: يا كيد الزمان، ويا نكد الأيام! عوجا على رسم جسمي فخذنا حظكما منه بقسمي ورسمي، فما لكما في ساحة هواي له مسكن ولا مريع، ولا لكما في حل عقد حبي له مأمول [٣٠ب] ولا مطمع. فناذاني وخالفاني وحارباني، فما لكما مني إلا ما تريان، ولا لكما عندي إلا ما تسمعان. يا نسيم روح الاجتماع، انصرف مودعا، يا طيب لذة الشكوى. تباعد مغربا إن شئت أو مطلقا. يا حلائل النجوى أحرمي! يا نوازغ القلب اسلمي! يا نيران الهجر توقدي! يا مضاجع البلوى تمهّدي! يا غاية المنى تباعدي! يا مقادير الدهر ترافدي^(١)! يا حلاوة الهوى أمرّي! يا عاذلتي على جنوني اهدئي عني وقرّي! يا مناهل العيش تكدرّي! يا معارف الغيب تنكري! يا حسرات القلب تحرّقي! يا أستار الضمير تهتكّي! يا معالم الأنس بيدي! يا عقب الهوى زيدي ثم زيدي! يا مصائب الدنيا اقصديني وانزلي بي! يا عجائب الدهر والأيام تعجّبي مني! أترى برّدت غليلا طالما عهدته يغلي؟ أترى [قضيت]^(٢) دينا طالما يُقضى به مطلي^(٣)؟ أترى بلغت غاية نزعت إليها بجوري وعدلي؟ أترى تخلصت من معدن ضاق على بعضي وكلي؟ أترى وصلت إلى من أفنيت له عمري في حلي ورخلي؟ أترى اشتفى غليل من أفنيت له فيه عزّي وذلي؟ والله المستعان.

أخشى - والله مالي من هذا القول إلا عناؤه، ومالي من هذا المعنى إلا هباؤه، ومالي من هذا المدّ والجزر إلا غثاؤه^(٤).

أستغفر الله من زلة أبكتني دما، وأستقبله عثرة أوردتني سقما، وأسترحمه لعبرة قتلتني ندما أو سدما^(٥).

اللهم اكفنا مؤنة قول لا تُراد به، وغائلة معنى لا تصح فيه، وغب أمر لا تكون عنده.

(١) ترافدي: ترافد الأصدقاء: تعاونوا وتبادلوا العطاء.

(٢) المَطْلُ: تسويف الدين وتأجيل موعد الوفاء به مرة بعد أخرى.

(٣) الغناء: ما يحمله السيل من رغبة ومن فتات الأشياء التي على وجه الأرض.

(٤) سَدِمَ فلانٌ: أصابه هم أو غيظ مع حزن.

اللهم اصرف عنا الشيطان وتغويله^(١)، والهوى وتسويله، والباطل وتعليه، وأرنا منك الحق لتتوخاه بتوفيقك ولطفك للذين هما تمام كل شيء وبهجة كل شيء. [٣١ أ]

رسالة (١١)

يا لسانَ الوقت، وواحدَ هذا الورى، وعينَ الزمان! اسمع حديثي عن شوقٍ إليك لاهبٍ، ووَجَدَ به غالب، وعينَ نحوكَ رانية، ونفسٍ في يدك عانية، وكلُّ عندك رهين، وبعضٌ بسوءِ إغفالك له مُهين، وجُلٌّ إذا سُبِرَ كاسِدٌ، ودِقٌّ^(٢) إذا فُتِّشَ فاسِدٌ، وحالٌ إن قام خطيبها بشرحها فَضَحَ وافتَضَحَ، ووديعه إن طلبها صاحبها جَرَحَ واجترَحَ، ورأيي كلما صُنِّى كَدَّرَ، وكلما عُرِّفَ نَكَّرَ، وأمر في الجملة لا ينادي وليده، وسر في التفصيل لا تتناهى وفوده.

ومما قد زاد في بلوأي^(٣) هذا الخطاب، وحاشني إلى هذا الكتاب أني قانط من عودك إلى معهودي منك، مرحومٌ في حالتي التي ملكت زمامي فيها لك، طامع في أريحية تحرّرك، وفتوةٌ تُبعثُ راقداً نشاطك، وتُطلّع عليّ شمس رحمتك، وتجلي عني كرب الفتنة بك. وما اشتملت عليّ هذه الأمور التي كُنيت عنها لنيةً تغيّرت مني فيك، ولا لسبب اقتضاني ذاك لتقصيرك، ولكن لأنك مُعلّى عن محلي الهابط، ومصوّنٌ عن التفات إلى ما يبتذلك، ومرادٌ بالخصوصية التي هي غاية آمال الخلق. فهناك من أعطاك ما أعطاك، ورقاك من سقاك من سُقْيَاك، وأعاذك من عين تُحِيلُ النهارَ ليلاً، وتُقلِّبُ السرورَ ويلاً، وتجعل القطرَ سيلاً، وطَرَحَ في قلبك رقّةً على من يناديك من بعيد فلا تحفظه، ويناجيك من قريب فلا تلحظه، ويسألك أن تعينه على أن يحَيِّيَ لك ما طاب لك، ويموت فيك إذا أردتَ ذلك واخترت.

(١) التغويل: التضليل. وغالّه: أخذه من حيث لا يدري فأهلكه.

(٢) اللّق: ما قل أو صَغُرَ من الأشياء.

(٣) وردت في (د): بلوى. وهي الأقرب للمعنى.

وهذا دعاء إن سمع مني كان حظك فيه أسنى من حظي، وقسطك منه أوفر من قسطني، لأنك تُعرف بالفضل [٣١ب] الذي وُهب لك، وتُشهر بالكرم الذي وُفر عليك، وتتلذذ بالشكر الذي هو مطلوب الخلق. فأمن الآن - أحاطك^(١) - الله - على دعائي، وقرب أذنك من ندائي. خذ بيدي من بلائي، فلأن أبقى في خدمتك وأزكي على طاعتك أشرف لك من أن أموت على هذا الكمد بلا رُوح ساعة، ولا فرح لحظة، ولا نيل نعمة، ولا تحقيق عِدّة^(٢)، ولا تعليل بنظرة، ولا إقالة عثرة، ولا ستر عورة، ولا قبول عُذرة^(٣). فالجلالة والرفعة والكرم والرياسة في إحياء مثلي واستبقائه، لا في إفنائه وإردائه.

سيدي، انظر إليّ! سيدي! أقبل عليّ؛ حبيبي! اذن مني! صاحبي! احفظ عني. وإذا نظرت فارحم، وإذا أقبلت فتكرم، وإذا دنوت فجد، وإذا حفظت فجد. وإنما أردد في هذا المكان لسان التلطف حتى تُعيد عليّ ما فقدته من التعطف؛ وإنما أكلّف عيني البكاء حتى تُنعم عليها بفرحة اللقاء، وإنما أعذب روعي بالشوق إليك حتى تملكها بالأنس معك. وإنما أعيد فنون القول وأبدي، حتى تتفضل بما ملكك الله وتُسدي. وإنما ألهج بذرك عند القريب والبعيد ليكونوا شفعاي عندك ببذل المزيد. هذا على أني، وإن لم أقل بلساني حرفاً، فإن فؤادي يفيض بما فيه غرماً فغراً، لأنه طافح بجفائك، نازح عن وفائك، عار من عطائك، حال بولائك، فان ببلائك، باق ببقائك، مُتناه في وصف علائك، ومستغيث بالله من شدة غلائك.

فهذا حديثي إذا سكّت، وذلك شأني إذا نطقت. فقل لي الآن: كيف المنجى من هذا الفضاء الغاصّ، وكيف الخلاص ولات حين مناص؟ وهل الرجوع بعد هذا كله إلا إلى إطراق يُلهب الأحشاء، ويذري الدموع [٣٢أ] الغزار، ويسد باب رُوح الحياة؟ أو إلى تهلل وجه بالتصنّع، وإنشاء حركة بين الإجابة والتمنع، ولفظ مدارّه على الزخرفة، ومعنى مجازّه إلى السفسفة، وليس بعد هذا القول قول، ولا وراء هذا السكوت سكوت.

(١) أحاطك الله: حفظك وجَلَبَ لك ما ينفعك.

(٢) عِدّة: وعد.

(٣) العُدْر: الحجة التي يُعْتَدون بها. أما عذرة (بالتاء) فلا معنى لها في هذا السياق.

اللهم غفرًا! بلى: هناك ما يطوّح نطق كل ناطق، ويستفتي سكوت كل ساكت بواردات من ناحية الحق، ليس يهلك فيها شيء من رسوم الخلق، وإنما هي هَبَّات نسيم زَفَّتْ^(١) فترنّحت، ولطفت فتستّحت. من رام الخير عنها تاه، ومن حدّث نفسه بالظفر شاه. وكيف يكون ذلك وإنما هو كتمان في وجدان، ونكرة في عرفان، وعِرْفان في حدثان! فالزمان لا يرسمه سَبْحًا، والخاطر لا يجتازه سُنْحًا، واللفظ لا يقوم به وزنًا، والمراد لا ينقاد له حَزَنًا، والدعوى لا تمرّ به وهمًا، والجدال لا يحصّله فهمًا. ذلك شأن لا يلوذ به نبأ، ولا يَطُورُ^(٢) به حلم، ولا يُنْقَر عنه بَأَيْن، ولا يستعان عليه بكيف، ولا تستعمل فيه لِم؛ جلّ فدق، ودق فجّل - أعني جلّ في نفسه فدق على من رame^(٣)، ودق في لطفه فجّل على من سامه. فطوبى لمن بُصّر فأبصر، وأُشْهِد فشَهِد، وجُلِّي عليه فَعَايَنَ، وخُصَّصَ به فتلذذ، ووُهِبَ له فتتعمّم، وأُهِّلَ له فنال، واحتبى منه فأدرك. نعم، وطوبى لمن سمع به فسأل عنه، وقيل له فسعى من أجله، وشوّق في محله فاشتاق، ورُغِبَ في حظه فنشط، وهُزِّإليه فاهتز. نعم! وطوبى أيضًا لمن عجز عن هذا كله فتمنى، وسأل عنها فتأوّه، وسمع وصفه فحنّ إليه، والتدّبحديته فُجِنَ، وتدلّه بوهمه فنزع، وتولّه بوجده فتوسع.

يا هذا! أتظن أن هذا أمر قليل وشأن حقير؟ عليه والله طالت زفرات الزافرين، وبسببه [٣٢ب] سُكِبَت عبرات الباكين، ومن أجله سَهَرَت عيون المشتاقين؟ ولولا ذاك قرّت النفوس وسكنت الحركات، وهدأت الأعضاء، وخفت المئون، وزال التشكي، وسقط النزاع، وذهب الأئين، وفُقد الرنين، ورفع الحنين.

هيهات! وأنى لك بذاك والمهيج تذوب خوفًا من فراقه، والخدود تُلَطَم حسرةً على الفائت منه، والجيوب تشقّق حرقةً على ما عهد عليه، والآمال تغلغل إلى ما لعلها لا تصل إليه. فهل يبقى بعد هذه ترنم بلحن، أو تنغم بشجو، أو تطاول إلى مذكور، أو تقاعد عن سرور، أو تحدث بما يُجدي، أو تخلص بما يُردي ويُسدي؟!

(٢) يَطُور الشيءَ وبه وحوله: يقربه ويحوم حوله.

(١) زفت الريح: هبت. وفي (د): رقت.

(٣) وردت في ر: «رام» دون هاء.

بدأتُ في محادثتك على مذهب المترسّلين الذين يبنون بُنيانهم بالثقة واليقين، فنشبتُ معك في فنونٍ تضلّ فيها ضروب الخلق أجمعين. وهذا أيضًا من رواجع القصة، وتوابع الإشارة، وطرائف ما يبدو من باحة الغيب في ساحة الشهادة، ويغيب من ساحة الشهادة في باحة الغيب. فإن طُلب فات، وإن حُقق طاح، وإن يُسَس منه قابل، وإن تُحَيَّر فيه استوسع، وإن أُعْرَضَ «عنه» تعرّض، وإن تُعْرَضَ له أعرَضَ. فكيف أصفه لك وأنا معذب بالرّمز منه معك، لأنني أذكرك معجبًا بك، وأشتاق إليك نازعًا نحوك، وأنشر فضلك تلذذًا بذكرك^(١)، وأنت على سهوك أو على تساهيك، أو على لهوك أو على تلهيكَ. فإن كان ما أقوله ظنًا مني فيك، فارفعه ببشر منك عند اللقاء، أو بهتئة عند العطاء، أو برأفة عند البلاء، أو برحمة عند اللأواء^(٢)، أو بفرج^(٣) عند البأساء، أو برقة عند الضراء، أو ببرقة عند الظلماء، أو بزورة عند شدة الغماء. وإن كان حقًا فاعترف بتقصيرك فإنه أبقي لشرفك، وأنقي لسرفك، وأدعى إلى حسن العدة عنك، وأقرب إلى اعتقاد البُقيّا منك. فما تقول- أبقاك الله- فيمن يُقنّعه منك اعتراف بتقصير إن كان، أو إحسان بيسير إن [٣٣] وجدت إليه الإمكان؟ وليس بعد هذه الملاوذة^(٤) مستزاد، ولا دونها لباغي الحياة مستراد.

فاعطف- يرحمك الله- على شيخ قد تحكم فيه البلوى، وأقام بين الحياة والردى، لا يذوق أحدهما على تمامه، فيكون في ذلك رَوْحه ونعيمه، أو ما يحزن عليه صديقه وحميمه. فيا ويح مَنْ هذا ذِكْرُه، وعلى هذا ظاهره وباطنه، وإلى هذا الكنفِ عَوْدُه وبدؤه! ما أحوجه إلى نائحة تبكي عليه! وماذا تُغني النائحة، وماذا تنفع الباكية؟ هل في ذلك إلا تعبٌ لا يرد نفعًا ولا يدفع ضرًّا؟ ولا يقرب مطلوبًا ولا يبعد مكروهًا.

وغاية سؤالي لك بعد هذا التكرير والتكثير، وبعد هذا الأذان والتكبير، وبعد هذا التقدير والتقرير، وبعد هذا التفسير والتحسير، أن تأخذ معي بحكم الفتوة التي هي فوضى^(٥) بين أهلها، بها يتوادّون وعليها يتحابون، ومن غرسها يقطفون، وعلى عرشها يعكفون، وإلى

(١) يعني بذكري إياك. (٢) اللأواء: ضيق المعيشة والأواء: شدة المرض.

(٣) في ر: بفرج. (٤) الملاوذة: المراوغة والمداراة.

(٥) فوضى: شرقة، يقال: متاعهم فوضى بينهم إذا كانوا فيه شركاء.

أركانها يعطفون، وإلى قُلُلها يَعْزُّجون، ومن أبوابها يخرجون ويلجئون. فإنك إن بَخِلْتَ عليَّ بهذا القدر ذهب عشقي لك في الهباء، وحصلتُ من حالي معك على العزاء. وتلك والله قاصمة الظهر، وآبدة الدهر^(١). والله يهديك إلى التي هي أشبه بمحاسنك، وأجدي في عُرْض فضائلك.

اللهم لا تؤاخذني بإقبال على خلقك، وبمسألتني إياهم على ما هو عتيد عندك، وبتواضعي لهم فيما أجده حاصلًا قبلك، فإنما ذلك فَرْعٌ مِنِّي إلى كل من ادّعاك، وتحلَّى بحبك، وانتمى إلى خدمتك؛ وبفضل حبِّي لك أحبُّ كل محب لك، ولفرط وجدي بك أجْدُ بكل واحد بك، أنت المُطَّلَع على خَبِّ الضمير، والمحيط بكل مستور، والمصافي كلَّ من صافاك، والموالي كلَّ من والاك. لك الفضل في الثاني لأن لك الفضل في الأول، وأنت الموجود في كل زمان، والصاحب [٣٣ب] لكل إنسان. لا تخفى عنك ذرَّةٌ، ولا تفوتك خَطَرَةٌ. تَجَرِّي بالحسنة أضعافها، وتمحو السيئة عن أصحابها؛ لك الآلاء الخفية، والأأيادي الجليلة، والآثار المكشوفة، والأخبار المعروفة؛ والأنفاس عليك تتحرَّق، والجباه من أجلك تتعرَّق، والعيون إليك بالشوق تترقق. لك مع كل رُوح رُوح، وفي كل قلب تقلِّب، وعلى كل فؤاد رقيب، ومع كل نفس منفس، وإلى كل بعيد مقرب، وفي كل موجود دلالة. طُلِبْتَ فلم توجد، ووُجِدْتَ فلم تُعرَف، وعُرفت فلم تُوصَف، ووُصِفْتَ فلم تُلْحَق، وشوهدت فلم تُدرَك. وكيف لا تكون كذا وفوق ذا، ونحن لا نحيط ببعض خلقك على خوافي ما نظن فيه من حكمتك، وبوادي ما ظهر عليه من قدرتك؟ وإذا كان عجزنا عن ذلك يفضحنا عندنا، ويردنا علينا، ويوارينا فينا، ويخجلنا منا، ويعكسنا إلينا، - فما قولنا فيما خلا ذلك مما لا نحسّه بمشاعرنا، ولا نلحقه ببصائرنا! على أن مشاعرنا بك تُحسُّ، وبصائرنا بك تلحق، وكلنا لك وإن كنت أعرتنا ذلك، وكلنا بك وإن كنا مغترين بذلك. وَلَيْتَنا بأمرِك ونهيك، ثم وَلَيْتَنا بعلمك وإرادتك، فعلينا أن نؤدِّي ما تقدَّمت به إلينا، وليس لنا أن نعترض عليك فيما تفرَّدت به دوننا، لأنك مَالِكُ قُلُوبنا وكثيرنا، ومُصَرِّفُ أولنا

(١) آبدة الدهر: الداهية يبقى ذكرها أبداً.

وآخرنا، والحاكم بما تراه فينا مما ساءنا وسرّنا. يا أحكم الحاكمين! ويا أرحم الراحمين! لك البسطة، ولنا بها الغبطة فقنا منك السخطة، وإن وقعنا في الورطة، ونُشئتُنا في السقطة. إلهنا! إنا لا نَمَلُّ من مواجهتك، ولا نَرَوَى من مناجاتك، ولا نسلو عن حبنا لك، ولا ننسى أبدًا ما توالى علينا من نعمتك. فنحن نذكرك سرًّا وجهرًا [٣٤أ] وحُلمًا وانتباهًا. وعلى كل حال تَلَوْنَتْ بنا، وفي كل مكان تغيّر علينا. إليك نتسب، ورضاك نكتسب، وأرواحنا في طلب ذاك نحتسب. فصلنا بتوفيقك، ولا تُعرّنا من إحسانك، ولا تُحوّجنا إلى أحد من عبادك. يا من إذا أغنى أقتى، وإذا أقتى^(١) أبقى، وإذا أعطى أسنى، يا ذا الجلال والإكرام^(٢)!

يا هذا! لك أحوال في يقظتك ومنامك، وحركتك وسكونك، وغضبك ورضاك، وأخذك وعطائك، ووحدتك ولقائك، وحرصك وعفافك، وقبضك وبسطك، وعلمك وجهلك، وريائك وإخلاصك. فاجتهد أن تكون في يقظتك ومنامك ناظرًا إلى الله بالخشية والحياء، وفي حركتك وسكونك أن تكون وازنًا لها بالعدالة التي تحفظ عليك ما لك، وتنفي عنك ما ليس هو لك، وفي غضبك ورضاك أن تكون ثابتًا على سنن: لا يزدهيك الرضا ولا يستغرقك الغضب، وفي أخذك وعطائك أن تكون: حاضر الذهن متوقيًا من الغلط لك وعليك، وفي وحدتك ولقائك: جامعا لمالك في قضاء الحق عنك وتغافل عن قضاء الحق لك، وفي حرصك وعفافك: متحاجزا عن كل ما يشينك، وفي قبضك وبسطك: على ما سلف القول في نظائره معك، وفي علمك وجهلك مستسلما لمن هو أولى بك منك، وفي رياك وإخلاصك: آوياً إلى مالك زمامك ومُصَرِّفٍ خطامك. اللهم إنا نروغ^(٣) عنك بجهلنا الذي ابتليتنا به، ونريغ إليك بعلمنا الذي كاشفتنا به، ونقف حيارى بين أمرك الذي استصلحتنا عليه، وبين علمك الذي أدرجتنا فيه. وأعجب

(١) أقتى: أَرْضَى بما أعطى. (٢) ورد بعد هذه اللفظة «نسخة أخرى»، بما يوحي أن الناسخ وجد زيادة

بعد هذا الموضع أضافها من نسخة ثانية لم تصل إلينا.

(٣) راغ عن الطريق: حاذ عنه، وراغ إلى كذا: مال إليه سرًّا. وفي التنزيل الحكيم: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَبْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦].

من هذا كله أنك بَصَرْتنا فواتح الأحوال [٣٤ب]، وأغشيتنا عن خواتم الأعمال، فمتى حاولنا دَرَكَ القريب بَعْدَ، ومتى تطاولنا إلى لحوق البعيد قَرُبَ. فلا ما نناله يؤنسنا بالاستمتاع به، ولا ما يفوتنا يؤيسنا من نَيْله بعد الاجتهاد فيه.

إلهنا! ما أعجب أسراركَ فينا، بل ما أعجب شواهدك علينا، بل ما أعجب جُمَلتنا في تفصيلنا، بل ما أعجب تفصيلنا في جملتنا! كَلَّفْتنا معرفتك، وحجبتنا عن كُنْه حقيقتك، وشوقتنا إليك، ثم سَدَدْتَ طريقنا. فوحقك لا بَرَحْنَا ولا سَتَحْنَا، ولا هَدَأْنَا ولا سَكَنَّا، حتى نَصَلَ إِلَيْكَ، ونقف بين يديك، ونقول بما لديك، وننظر إلى وجهك الكريم نظرًا يوجب لنا رضاك عنا، وإقبالك علينا، ونسمع كلمتك العليا: «أوليائي! إنما أتعبتكم لتستريحوا، وإنما أشقيتكم لتسعدوا. سِرِّي فيكم غريب، وشأني معكم عجيب، فاستبشروا الآن»- والسلام.

رسالة (١٢)

سألتني - رفق الله بك، وعطف على قلبك - أن^(١) أذكر لك الغريب ومَحَنَهُ، وَأَصِفَ لك الغُرْبَةَ وعجائبها، وَأَمَرَ في أضعاف ذلك بأسرار لطيفة ومَعَانٍ شريفة، إما مُعَرَّضًا، وإما مُصَرِّحًا، وإما مُبَعَّدًا، وإما مُقَرَّبًا. فكنت على أن أُجيبك إلى ذلك. ثم إني وجدت في حالي شاغلًا عنك، وحائلاً دونك، ومُفَرِّقًا بيني وبينك. وكيف أَخْفِضُ الكلام الآن وأُرفِعَ، وما الذي أقول وأصنع، وبماذا أصبر، وعلى ماذا أجزع؟ وعلى العلات التي وصفتها والقوارف^(٢) التي سترتها أقول:

حَطَّتْ رَكَائِبُهُ ذِلُّ	إِنَّ الْغَرِيبَ بِحَيْثُ مَا
وَلَسَّ أَنَّهُ أَبَدًا كَلِيلُ	وَيْدُ الْغَرِيبِ قَصِيرَةٌ
بَعْضًا وَنَاصِرُهُ قَلِيلُ	[٣٥] وَالنَّاسُ يَنْصُرُ بَعْضُهُمْ

(٢) القوارف: الذنوب.

(١) في (ر) وأن.

وقال آخر:

وما جَزَعًا مِنْ خَشْيَةِ الْبَيْنِ أَخْضَلَتْ^(١) دُمُوعِي، وَلَكِنَّ الْغَرِيبَ غَرِيبٌ
يا هذا! هذا وصفٌ غريبٌ نأى عن وطنٍ بُنِيَ بالماء والطين، وبُعِدَ عن أَلْفٍ لَهُ عَهْدُهُمْ
الخشونة واللين، ولعله عاقرهم الكأس بين الغُدران والرياض، واجتلى بعينه محاسن
الْحَدَقِ الْمَرَضِ؛ ثم إن كان عاقبة ذلك كله إلى الذهاب والانقراض، - فأين أنت عن
قريب قد طالت غربته في وطنه، وقلَّ حظه ونصيبه من حبيبه وسكَّنه؟! وأين أنت عن
غريب لا سبيل له إلى الأوطان، ولا طاقة به على الاستيطان؟! قد علاه الشحوب وهو
في كِنٍّ، وغلبه الحزن حتى صار كأنه شَنْ^(٢). إن نطق نطق خزيان منقطعًا، وإن سكت
سكت حيران مرتدعًا؛ وإن قرب قرب خاضعًا، وإن بُعِدَ بعد خاشعًا، وإن ظهر ظهر ذليلاً،
وإن توارى توارى عليلاً؛ وإن طلب طلب واليأسُ غالبٌ عليه، وإن أمسك أمسك والبلاء
قاصد إليه؛ وإن أصبح أصبح حائل اللون من وساوس الفكر، وإن أمسى أمسى مُتَّهَبٌ
السر من هَوَاتِكِ السُّتْرِ؛ وإن قال قال هائبًا، وإن سكت سكت خائبًا؛ قد أكله الخمول،
ومَصَّه الذبول، وحالفه النحول؛ لا يتمنى إلا على بعض بني جنسه، حتى يفضي إليه
بكلمات نفسه؛ ويتعلل برؤية طلعتة، ويتذكر بمشاهدته قديم لَوَعَتِهِ؛ فينثر الدموع على
صحن خده، طالبًا للراحة من كده.

وقد قيل: الغريب مَنْ جَفَّاه الحبيب. وأنا أقول: بل الغريب من واصله الحبيب، بل
الغريب من تغافل عنه الرقيب، بل الغريب من حاباه الشريب^(٣)، بل الغريب مَنْ نُودِيَ مِنْ
قريب، بل الغريب [ب٣٥] من هو في غربته غريب، بل الغريب من ليس له نسيب، بل
الغريب من ليس له من الحق نصيب. فإن كان هذا صحيحًا، فتعال حتى نبكي على حالٍ
أحدثت هذه الهفوة، وأورثت هذه الجفوة:

(١) خضلت: ندت وابتلت.

(٢) الشَنْ: القربة الخلق الصغيرة يكون الماء فيها أبرد من غيرها. والجمع شنان.

(٣) الشريب: الذي يشارك في الشرب أو ورود الماء.

لعلَّ انحِدَارَ الدَّمْعِ يُعْقِبُ رَاحَةً من الوجدِ أو يَشْفِي نَجِيَّ البَلَابِلِ^(١)
يا هذا! الغريبُ من غَرَبَتْ شمسُ جماله، واغترَبَ عن حبيبه وعُدَّاله، وأغْرَبَ في
أقواله وأفعاله، وغَرَبَ في إدباره وإقباله، واستغرب في طِمْرِهِ^(٢) وسِرِّبَالِهِ.
يا هذا! الغريبُ من نطق وصفه بالمحنة بعد المحنة، ودلَّ عنوانه على الفتنة عقب
الفتنة، وبانت حقيقته فيه في الفينة حَدَّ الفينة. الغريبُ من إن حضر كان غائبًا، وإن غاب
كان حاضرًا. الغريبُ من إن رأيته لم تعرفه، وإن لم تره لم تستعرفه. أما سمعت القائل
حين قال:

بِمَ التعلُّ؟ لا أهلٌ ولا زَمَنٌ ولا نديمٌ، ولا كأسٌ، ولا سَكَنٌ^(٣)
هذا وصفُ رجلٍ لحقته الغربة، فتمنَّى أهلًا يأنسُ بهم، ووطنًا يأوي إليه، وندِيمًا يحلُّ
عُقدَ سِرِّهِ معه، وكأسًا ينتشي منها، وسَكَنًا يتوَدَّع عنده. فأما وصفُ الغريبِ الذي اكتنفته
الأحزانُ من كلِّ جانب، واشتملت عليه الأشجانُ من كلِّ حاضرٍ وغائب، وتحكمت فيه
الأيامُ من كلِّ جانبٍ وذاهب، واستغرقت الحسراتُ على كلِّ فائتٍ وآيب، وشتتته الزمانُ
والمكانُ بين كلِّ ثقةٍ ورائبٍ^(٤) - وفي الجملة، أتت عليه أحكامُ المصائبِ والنوائبِ،
وحطته بأيدي العواتبِ عن المراتبِ، فوصفٌ يَحْفَى دونه القلم، ويفنى من ورائه القرطاسُ،
وَيَسْلُ عن بَجْسِهِ^(٥) اللفظُ، لأنه وصفُ الغريبِ الذي لا اسمَ له فيذكر، ولا رسمَ له فيُسْهِرُ،
ولا طَيَّ له [٣٦] فينشر، ولا عُذَرَ له فيعذر، ولا ذنبَ له فيغفر، ولا عَيْبَ عنده فيُسْتَر. اهـ.
هذا غريبٌ لم يتزحزح عن مَسْقِطِ رأسه، ولم يتزعزع عن مَهَبِّ أنفاسه. وأغْرَبُ الغُرباءِ

(١) هذا البيت لذي الرمة وسبق تخريجه. (٢) الطمر: الثوب البالي والجمع أطمار.

(٣) البيت مشهور، وهو للمتنبى وصحته:

بِمَ التعلُّ؟ لا أهلٌ ولا وطنٌ ولا نديمٌ ولا كأسٌ ولا سَكَنٌ

وبعده:

أريد من زمني ذا أن يُبْلَغني ما ليس يَبْلُغُه من نفسه الزمَنُ

(راجع ديوان المتنبى: ٤٦٨).

(٤) الرائب: المتهم بالريبة.

(٥) وشل، يشل: قل وضعف واقتقر، ومنه الوَشَل: الماء القليل، والبجس: تفجر الماء.

من صار غريباً في وطنه، وأبعد البُعْداء من كان بعيداً في محل قُربه، لأن غاية المجهود أن يسلو عن الوجود، ويُغْمِض عن المشهود، ويُغْضِي عن المعهود، ليجد من يغنيه عن هذا كله بعباء ممدود، ورَفْدٍ مرفود، وركن موطود^(١)، وحدٍّ غير محدود.

يا هذا! الغريب من إذا ذَكَرَ الحقَّ هُجِرَ، وإذا دعا إلى الحقِّ زُجِرَ. الغريب من إذا أَسْنَدَ كُذِّبَ، وإذا تظاهر عُذِّبَ. الغريب من إذا امتار لم يَمْرٍ^(٢)، وإذا قَعَدَ لم يُزَرَ. يا رحمتا للغريب! طال سفره من غير قدوم، وطال بلاؤه من غير ذنب، واشتد ضرره من غير تقصير، وعظم عناؤه من غير جدوى!

الغريب من إذا قال لم يسمعوا قوله، وإذا رآه لم يدوروا حوله. الغريب من إذا تنفَّسَ أحرقه الأسى والأسف، وإن كتم أكمده الحُزْنُ واللَّهْفُ. الغريب من إذا أقبل لم يُوسَّعَ له، وإذا أعرض لم يُسأل عنه. الغريب من إذا سأل لم يُعْطَ، وإن سكت لم يُبَدَأَ. الغريب من إذا عطس لم يُشَمَّتْ، وإن مَرَضَ لم يُتَفَقَّد. الغريب من إن زار أُعْلِقَ دونه الباب، وإن استأذن لم يُرْفَعْ له الحجاب. الغريب من إذا نادى لم يُجِبْ، وإن هادى لم يُحَبَّ.

اللهم إنّا قد أصبحنا غرباء بين خلقك، فآنسنا في فنائك. اللهم وأمسينا مهجورين عندهم، فصلّنا بحبائلك^(٣).

اللهم إنهم عادونا من أجلك لأنّا ذكرناك لهم فنفروا، ودعوناهم إليك فاستكبروا، وأوعدناهم بعذابك فتحيروا، ووعدناهم بثوابك فتجبروا، وتعرّفنا بك إليهم فتنكروا، وصنّناك عنهم فتنمروا؛ وقد [٣٦ب] كُنّا^(٤) عن نذيرهم، ويئسنا من توقيرهم.

اللَّهُمَّ إنّا قد حاربناهم فيك، وسالمناهم لك، وحلّمنا عنهم لوجهك، وصبرنا على أذاهم من أجلك؛ فخذ لنا بحقنا منهم، وإلا فاصرف قلوبنا عنهم؛ وأنسنا حديثهم، واكفنا طيبهم وخبيثهم.

(١) موطود: ثابت وراس.

(٢) امتار: طلب الميرة (الطعام)، ولم يمر: أي منعها.

(٣) حبائك: عطيتك.

(٤) كاع عن الشيء: خافه وجبن عنه.

أيها السائل عن الغريب ومحتته! إلى ههنا بلغ وصفي في هذه الورقات. فإن استزدت زِدْتُ، وإن اكتفيتَ اكتفيتُ، والله أسألُ لك تسديدًا في المبالغة، ولي تأييدًا في الجواب، لتتلاقى على نعمته، ناطقين بحكمته، سابقين إلى كلمته.

يا هذا! الغريب في الجملة من كله خُرقة، وبعضه فُرقة، ولبه أَسَف، ونهاره لَهْف، وغداؤه حَزَن، وعشاؤه شَجَن، وآراؤه ظَنَن، وجميعه فِتَن، ومفرقه مَحَن، وسره عَلَن، وخوفه وَطَن.

الغريب من إذا دعا لم يُجِب، وإذا هاب لم يُهَب.

الغريب مَنْ [إذا] استوحشَ استوحشَ منه: استوحش لأنه يرى ثوب الأمانة ممزقًا، واستوحش منه لأنه يجد لما بقلبه من الغليل مُحَرَّقًا.

الغريب مَنْ فجّعته مُحَكِّمة، ولوعته مُضِرّة.

الغريب من لبسته خِرقة، وأكلته سَلَقَة، وهجّعتة خَفَقَة.

دع هذا كله! الغريبُ من أخبر عن الله بأنباء الغيب داعيًا إليه. بل الغريب مَنْ تهالك في ذكر الله متوكلاً عليه، بل الغريب من توجه إلى الله قاليًا لكل من سواه. بل الغريب من وهب نفسه لله متعرضًا لجدواه.

يا هذا! أنت الغريب في معنك.

أيها السائل عن الغريب! اعمل واحدة ولا أقل منها، وإذا أردت ذكر الحق فأنس ما سواه، وإذا أردت قُرْبَه فابعد عن كل ما عداه، وإذا أردت المكانة عنده فدع ما تهواه لما تراه، وإذا أردت الدعاء إليه فميّز ما لك مما عليك في دعواه. - طاعاتك كلها مدخولة، فلذلك ما هي ليست مقبولة. هممك كلها فاسدة، فلذلك ما ليست هي [٣٧أ] صاعدة.

أعمالك كلها زائفة، فلذلك ما ليست [هي] نافعة. أحوالك كلها مكروهة، فلذلك ما ليست هي مرفوعة.

ويلك! إلى متى تنخدع، وعندك أنك خادع؟ وإلى متى تظن أنك رابح، وأنت خاسر؟

وإلى متى تدّعي، وأنت منفيّ؟ وإلى متى تحتاج، وأنت مكفيّ؟ وإلى متى تبدي القلق، وأنت غنيّ؟ وإلى متى تهبط، وأنت عليّ؟ ما أعجب أمرًا تراه بعينك، ألهاك عن أمر لا تراه بعقلك. الحمار أيضًا يرى بعينه ولا يرى بغيرها. أفأنت كالحمار فتُعذّر؟ فإن لم تكن حمارًا، فلم تشبّه به؟ وإن كنته، فلم تدّعي فضلًا عليه؟ وإذا لم تكن حمارًا بظاهر خلقتك وصبغتك، فلا تكنه أيضًا بباطن نيتك وجليّتك.

قد والله فسدت فسادًا لا أرجوك معه لفلاح، ولذلك ما أدري بأيّ لسان أحاورك، وبأيّ خلق أجاورك، وفي أيّ حقيقة أشاورك، وبأيّ شيء أداورك؟ - سرّك كفران، ولفظك بُهتان، وسُرورك طغيان، وحزنك عصيان، وغناك مرح وبطر، وفقرك ترح^(١) وضجر، وشبعك كظة^(٢) وتخمّة، وجوعك قنوط وتهمّة، وغزوك رياء وسُمعة، وحجّك حيلة وخدعة، وأحوالك كلها بهرج وزيف، وأنت لا تحاسب نفسك عليها: بلم^(٣)، ولا بكم^(٤) وكيف.

ما أسعد من كان في صدره ودیعة الله بالإيمان فحفظها حتى لا يسلبها منه أحد! أندري ما هذه الودیعة؟ هي والله ودیعة رفيعة، هي التي سبقت لك منه وأنت بدد^(٥) في التراب لم تجمعك بعدُ الصورة، ولم يقع عليك اسم، ولم تُعرف لك عين، ولم يدُلّ عليك خبر، ولا يحوِّك مكان، ولم يصفك عيان، ولم يحطك بيان، ولم يأت عليك أوان. أنت في ملكوت غيب الله ثابت في علم الله، عطل^(٦) من كل شيء إلا من مشیئة الله [٣٧ب]. ترشّح لمعرفته، وتلاحظ في صفوته، وتؤهل لدعوته.

فما أسعدك أيها العبد! فهذه العناية القديمة من ربك الكريم الذي نظر لك قبل أن تنظر لنفسك، وأيدك بما لم تهتد إليه همتك، حتى إذا نشر مطويّك ورتق مُفتّقك، وجمع مفترّقك، وقوم مُنادك^(٧)، وسوى مُعوجّك وفتح عينك، وطرح شعاعها على ملكوته التي

(١) تَرَح: هم أو حزن. (٢) كَظَة: امتلاء مفرط من الأكل.

(٣) ر: هلم. (٤) ر: بلم.

(٥) بَدَد: متفرق. (٦) عطل: عار من.

(٧) المَنَاد: الموعّج.

جعلها قِبالة بصرِكَ، وعَرَّفَكَ نَفْسَكَ، ودَعَاكَ بِاسْمِكَ، وشَهَرَكَ بِحِكْمَتِهِ فَيْكَ، وأَظْهَرَ قُدْرَتَهُ عَلَيْكَ، وَعَجَّبَكَ وَعَجَّبَ غَيْرَكَ مِنْكَ، وَلَا طَفَكَ وَلَطَفَ لَكَ، وَبَيَّنَ لَكَ مَكَانَتَكَ إِذَا أَطَعْتَ، وَمَهَانَتَكَ إِذَا عَصَيْتَ. وَثَبَّتَ عَلَى شَهْوَاتِكَ فَتَنَاولَتْهَا، وَعَلَى لَذَّاتِكَ فَانْهَمَكَتَ فِيهَا، وَعَلَى مَعَاصِيكَ [لَمَنْ هَذَا حَدِيثُهُ مَعَكَ] ^(١) فَرَكِبْتَ سَنَامَهَا، وَلَمْ تَفَكَّرْ فِيمَا خَلْفَهَا وَأَمَامَهَا. وَلَمَّا قِيلَ لَكَ: اتَّقِ اللَّهَ! أَخَذَتْكَ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ، وَبُؤْتَ فِيمَا فَيْكَ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْكَ تَهَرُّ ^(٢) عَلَى نَاصِحِكَ، وَتَهَزَأُ بِالْمَشْفِقِ عَلَيْكَ، وَتُحَاجُّهُ بِالْجَهَالَةِ، وَتَقَابِلُهُ بِالْكِبْرِيَاءِ وَالْمَخِيلَةِ. إِنَّكَ عِنْدِي لَمَنْ الْمُسْرِفِينَ، بَلْ مِنْ الْمَجْرُمِينَ، بَلْ مِنْ الظَّالِمِينَ، بَلْ مِنْ الْفَاسِقِينَ، بَلْ مِنْ الْمَطْرُودِينَ، بَلْ مِمَّنْ قَدْ تَعَرَّضَ لِأَنْ يَسْلُبَهُ اللَّهُ مَا أَعْطَاهُ، وَيَجْعَلَ النَّارَ مَأْوَاهُ، حَتَّى يَصِيرَ عِبْرَةً لِمَنْ وَرَاهُ. اهـ.

يَا هَذَا! أَحَجَرْتُ أَنْتَ؟ فَمَا أَقْسَى قَلْبِكَ! وَمَا أَذْهَبَكَ فِيمَا يَغْضِبُ عَلَيْكَ رَبِّكَ! أَبَيْنَكَ وَبَيْنَ نَفْسِكَ تَرَةً ^(٣) أَوْ كِيدَ؟ وَهَلْ يَفْعَلُ الْإِنْسَانُ الْعَاقِلُ بَعْدُوهَ مَا تَفْعَلُهُ أَنْتَ بِرُوحِكَ؟ لَا يَنْفَعُكَ وَعِظٌ وَإِنْ كَانَ شَافِيًا، وَلَا يَنْجَعُ فَيْكَ نُصْحٌ وَإِنْ كَانَ كَافِيًا!

اللهم تفضل علينا بعفوك إن لم نستحق رضاك. يا ذا الجلال والإكرام!



(١) زيادة في ر.

(٢) هر الكلب: نبخ وكشر عن أنياه.

(٣) ترة: نأر والجمع ترات..

رسالة (١٣)

أركان المعرفة

من الإشارات الإلهية

[٣٨أ] العلم بلاء، والجهل عناء، والعمل رياء، والقول داء، والسكوت هباء، والنظر عداء؛ وكلُّ ذلك سواء. فأما بلاء العلم فلاَّنه يهوي بصاحبه^(١) إلى لُجَج الفكر. وأما عناء الجهل فلاَّنه يُقَحِّم صاحبه في شِعَاب التُّكْر. وأما رياء العمل فلاَّنه يجلب على صاحبه جميع الكد. وأما داء القول فلاَّنه يَصُبُّ العُجْبَ على أَهْلِهِ في كل قبول وردّ. وأما هباء السكوت فلاَّنه يُعَرِّي صاحبه من كل فائدة. وأما عداء النظر فلاَّنه يعود على صاحبه بكل أبدة. وأما سَوَاء كُله فلاَّنه عِلْمٌ لذوي النُّهى باحتمال كُله.

فهاث الآن حالاً ليس للعلم فيها نسب، ولا للجهل فيها سبب، ولا للعمل فيها بقية، ولا للقول فيها خيبة^(٢)، ولا للسكوت معها علاوة، ولا للنظر عندها علاقة، ولا لكُله فيها استواء، ولا لبعضه منها التواء. وأين تلك الحال؟ وهل تقف عليها بعدل أو حيف؟ وهل تصل إليها برمح أو سيف؟ وهل تقدر أن تتمنّاها بـ «لعل» أو «سوف»؟ فإذا كانت هذه الحال تنزّه عن التمتّي في ضمائر النفس، فكيف يستطيع الامتلاء بها على صحة الإرادة والحقيقة والقبس؟ هي والله حال ذابت عليها الأكباد، ومَرَّت على هذا الحديث في نعمتها الدهور والآباد. هي والله حال زَهَقَت عليها النفوس والأرواح، وأتى على نعمتها المساء والصباح. هي والله [حال] عَلَتْ عن الصفات والرسوم، كما نزلت الصفات والرسوم عنها. هي والله حالٌ سَبَحَ في لجتها فكر كلٍ تحرير فلم يصل إلى ساحل، وطار في هوائها وَهْمٌ كلٍّ متمكّنٍ فلم يقع على طائل. هي والله حال إن حَلَمْتَ بها أيقظتك، فإن استيقظت

(٢) خيبة: شيء مخبأ، والجمع: خبايا.

(١) ر: بصاحبها.

عنها حَلَمْتُ بك. هي والله حال [٣٨ب] برزت بالجبروت، وخفيت في الملكوت، فلا الكلام يقع في وصفها أو تمنيتها، ولا السكوت. هي والله حال مَنْ ذاقها عرف، ومن عرفها وصف، ومن وصفها انتهى ووقف، ومن انتهى عنها [و] وقف ابتداءً الحنين إليها وتشوّف. دع هذا أيضًا! واسمع شجو لبيبٍ كره المُقَامَ في هذه الدار التي قد امتلأت بالذّئاب، فقال:

نَظَرْتُ ^(١) فلم يَعلَقَ بعيني سِوى القَدَى	وَجُلْتُ فلم أَجلبِ لِنفسي سِوى الأَدَى
ولم أَرَ وجهًا مستحقًّا لـ «مرحبًا»	ولا وجهَ أمرٍ مستحقًّا لـ «جَبَّذا»
رَأَيْتُ شِرَارَ النَّاسِ يُمَضُّونَ حُكْمَهُم	على الجَانِبِ الأَدْنَى إلى الشرِّ مُنْقَذَا
وَيَسْعَوْنَ فِيهِ نَحْوَ أَبْعَدِ غَايَةٍ	وإن كَانَ وَجْهُ الخَيْرِ أَقْرَبَ مَأْخِذَا
ووَاصَلْتُهُمْ حَتَّى سَمِئْتُ فلم أَجِدْ	سِوى هَجْرِهِمْ مِنْ وَصْلِهِمْ لِي مُنْقِذَا
يَعْدُونَ، عِنْدَ السَّخَطِ، حِلْمِي مَهَانَةً	وَيَسْمُونُ يَوْمَ الحَفْلِ عَارِضَتِي بَذَا ^(٢)
وَيَعْلُونَ مِنْ أَرْخَى لَهُمْ مِنْ عِنَانِهِ	بِسُوطٍ، وَيَسْتَخْذُونَ لِلْمَرْءِ ذَا الشَّدَا ^(٣)
فَقَدْ تَرَكَ الوَعْظَ اللَّيْبُ لَأَنَّهُ	إِذَا هَذَا ^(٤) قَوْلُ البِرِّ ظَنُوهُ قَدْ هَازَى
وما يصنع القين ^(٥) العليم بشحنه	إِذَا لم يجد في جَانِبِ السِّيفِ مَشْحَنَا
فَحَدَّ نَائِيًا عَنْ سَمْتِهِمْ مَتَحَرَّرًّا	وَسِرَّ بَيْنَهُمْ مِنْ شَرِّهِمْ مُتَعَمِّدًا
وَعِشْ هَكَذَا طَوْلَ الحَيَاةِ فَرَبَّمَا	سَلِمْتَ عَنِ الأَشْرَارِ إِنْ عِشْتَ هَكَذَا
وَصِلْ حَيَوَانَ الأَرْضِ، لَا مِنْ ارْتَدَى	على صُورَةِ الإنسانِ مِنْهَا أَوْ احْتَذَى
فَإِنْ تَبَلُّ هذا الجَنَسَ تَبَلُّ أَشَدَّهَا	خَبِيئَةً أَحَقَّادٍ وَأَبْلَغَهَا أَدَى

(١) من هنا حتى نهاية الرسالة ثبت معظمه في ل دون عنوان خاص بعد ختام رسالة «أضحت الدار خالية من قطانها من الإشارات الإلهية» (ورقة ٣٣ ب - ٣٥ أ).
 (٢) العارضة: القدرة على القول، وبذاء: قبح وفحش في القول.
 (٣) الشدا: الأذى والإضرار.
 (٤) هَذَا الحديث: سرده بسرعة دون تلجّلج.
 (٥) في ر: العين. والقين هو العبد والجمع قيان.

[١٣٩] ودع هذا أيضًا بعد أن تَرْتَعِي زَهْرَه، وتجتني ثمره، وترد أوله وآخره، وتعرف ظاهره وباطنه. وعُد بنا إلى حديث الأعمال وآفاتها، وإلى حديث الأفكار ومنافاتها، وإلى حديث الأذكار وموافاتها، وإلى حديث العبودية وصفاتها، وإلى حديث الربوبية ومصافاتها. وأما الأعمال فمشوبة، وأما الأفكار فمُربية؛ وأما الأذكار فمعوقة، وأما العبودية فممحوقة، وأما الربوبية فسحيقة.

هذا نَعْتُ على الاختصار والإيجاز، فإن أردت أن تشبع بعد هذا وترَوَى، وتتخلص من فنون القول وتُكْفَى [من البلوى]^(١)، فتجرع مرارة الدنيا، وتجنب حلاوة الشكوى، وتلذذ بصعوبة البلوى، فلعلك تُؤَهِّل لخالصة النجوى، بالنظر في أسفار الهدى، من ديوان العليّ الأعلى. لا ناصح لك إلا من نفى عنك الكدر، وجلب إليك الصفو، ولا مرشد إلا من أخذ بيدك من الظلمات، وهجم بك على النور، ولا مشفق عليك إلا من دعاك إلى حاله بعمله لا بقوله؛ ولا خادع لك إلا من زخرف لك علمه بقلمه. تنكب سبيل الغاوين، واهجر عَرَصات المذنبين، واسهر ليلك مع المتجهدين، وتشبه بأهل الدين المتين، واعتبر بالماضين، واعلم أنك منهم في الباقين، وكاثر البكائين، وادخل في جملة الواجدين، وانطق عن زمرة الله رب العالمين، وانف عنه سوء ظن الظانين، وتقرب إليه بدم العاصين، وصف طاعة الطائعين، وامدح حزيه الغالبيين، وانظر إلى قدرته على الخلق أجمعين، ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

يا هذا! إلى كم أستميلك إلى حظك، وأثقلب معك إلى مرادك؟! لست منك إن لم تُعْنِي على ذلك، ولست مني إن سلكت طريق المهالك. أمن العدل أن أنصحك وتُعْشَنِي وأرق لك وتقسو عليّ، وأريد بك الحُسْنَى [٣٩ب] وتكايدني، وأهوى لك الجميل وتُعْتَنِي، وأدلك على رُشدك وتضلّ عني، وأقيمك على المحبة فتتقاعس عليّ؟ إن هذا إلا شقاء قد سبق إليك دوني.

البُعد منك البُعد! البراءة منك البراءة! الويل لك الويل! الخيبة لك الخيبة! لمثلك

(١) موجودة في ل.

سُعِّرَت الجحيم، وأَعِدَّ لمثلِكَ العذاب الأليم، وبكْ أَغْرِي الْمُقْعَدَ والمقيم، ومثلِكَ سُقِي الحميم، ولمثلِكَ هِيئُ العذاب الأليم. لا ترجع في أمورِكَ كلها إلا إلى رِعاية لوقتٍ أو مِصارِفَةٍ في نفسٍ، أو احتياطٍ في دينٍ، أو أمانةٍ في معاملةٍ، أو جهادٍ لهوى، أو كبتٍ لشیطانٍ، أو فَيِّئَةٍ إلى التقى، أو رجعةٍ إلى الهدى، أو طَفَرَةٍ إلى النُّهى، أو هَجَرَةٍ لِلْعَدَى، أو فعلةٍ للآخرَةِ دون الأولى.

ها أنا قد أَعْرَضْتُ عَنْكَ حياءً لك. ها أنا قد استوحشت منك خوفاً عليك. ها أنا قد أَعْذَرْتُ جِهْدِي وطاقتي إليك. ها أنا قد غَسَلْتُ يَدِي من فلاحك. ها أنا قد بَيَّسْتُ من صلاحك. أهكذا يكون من عرف الله سرًّا أو جهراً؟ أهكذا يكون من اعترف به رياءً أو إخلاصاً؟ أهكذا يكون من تطاعم إحسان الله غائباً أو حاضراً؟ أهكذا يكون من ذكر الله سرًّا أو جهراً؟ أهكذا يكون من اشتاق إليه ساكناً أو متحرِّكاً؟ أهكذا يكون من أحبه متسلِّياً أو متَهالِكاً؟ أهكذا يكون من دعا إليه صادقاً أو كاذباً؟ أهكذا يكون من تمرَّغ في نعمه صباحاً أو مساءً؟ أهكذا يكون من بودي بالآية متنبِّهاً أو نائمًا؟ أهكذا يكون من تلاطف شاهداً وغائباً؟ أهكذا يكون من يحافظ على حظِّه راضياً أو عاتباً؟ أهكذا يكون من هو محتاج مع من هو غنيٌّ؟ أهكذا يكون من هو عاجز مع من هو قويٌّ؟ أهكذا يكون من هو عبد مع من هو سيِّدٌ؟ أهكذا هكذا أبداً، إلى أن ينكسر القلم عند الكتابة، وإلى أن يعيا اللسان [٤٠] عند الخطابة، وإلى أن يهيم القلب في وادي المهابة، وإلى أن تفقد الروح في فلاة الغيبة؟!

يا هذا! قد وَصَفْتُكَ ووصفتُ غيرَكَ معكَ وأنا غيرَكَ؛ ففي وصفكَ وصفِي، وفي وصفِي وصفِكَ، حتى نتعاون على نيل هذه الخيرات بالمبالغة في الطاعات، والمداومة على العبادات، والمبادرة للساعات، والحذر من الآفات، والهرب من العاهات، والثبات على رفض الشهوات، والإعراض عن اللذات، والتوجُّه إلى خالق الحيوان والنبات. فإنه إذا رأى إخلاصنا في فقرنا إليه، وتعاوننا على طلب ما لديه، أخذ بأيدينا، وجذب بناوصينا، وأطلعنا على ما فينا، وكان لنا ناصرًا ومعينًا؛ إنه كريم فصدَّق، ورحيم فحقَّق، وجواد فثَقَّ. سلِّه فإنه

لن يَفْتَحَ باب المسألة منه إلا وَيُدِرَّ أَخْلَافَ^(١) بره من لَدُنْه. معاملته قد جُرِّبَتْ وحمدت، وأخباره شاعت فصدقت، وشواهد بانته وانتشرت، ونعمه واصلت فدامت. إنَّ تَوَعَّدَكَ فَإِنَّمَا يَخَوِّفُكَ، وَإِنَّ وَعْدَكَ فَإِنَّمَا يَشُوقُكَ^(٢)، وَإِنَّ عَاتِبَكَ فَإِنَّمَا يَشَرِّفُكَ، وَإِنَّ كَرَّرَ عَلَيْكَ فَإِنَّمَا يَعْرِفُكَ، وَإِنَّ فَرَّقَكَ فَإِنَّمَا يُؤَلِّفُكَ، وَإِنَّ أَخَذَ مِنْكَ، فَإِنَّمَا يَسَلِّفُكَ. كُلُّ فِعْلِهِ عَجِيبٌ، وكل شأنه غريب، وكل ما تريده منه قريب، ليس له في هذه الصفات شريك ولا ضريب^(٣). حَلَمَ عَنْكَ لِيغْضِبَ عَلَيْكَ، وَغَضِبَ لئَلَّا يَحْلُمَ عَنْكَ، وَوَصَفَكَ حَتَّى كَأَنَّكَ مِنْهُ، ودعاكَ حَتَّى كَأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَيْكَ، ولا طفلكَ حَتَّى كَأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْكَ. وَأَنْتَ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ سَادِرٌ هَادِرٌ، لَا تَلُوي عَلَى فَائِثِكَ مِنْ رِضَاهُ، وَلَا تَبَالِي بِمَا تَجْنِي عَلَيْكَ يَدُكَ. لِمَ هَذَا وَلِمَاذَا؟ أَلَيْكَ رَبُّ غَيْرُهُ؟ أَلَيْكَ مَوْلَى سِوَاهُ؟ هَلْ رَأَيْتَ الْخَيْرَ إِلَّا مِنْهُ؟ هَلْ هَدَأْتُ قَطُّ إِلَّا مَعَهُ؟ هَلْ وَصَلَ إِلَيْكَ بَرٌّ إِلَّا عَنْهُ؟ هَلْ كَانَ لَكَ قِوَامٌ إِلَّا بِقُدْرَتِهِ؟ هَلْ كَانَ [لَكَ]^(٤) انْغِمَاسٌ إِلَّا فِي نِعْمَتِهِ؟ هَلْ كَانَ [٤٠ ب] لَكَ مَدَارٌ إِلَّا عَلَى مَشِئَتِهِ؟ هَلْ كَانَ لَكَ رَجَاءٌ إِلَّا فِي رَحْمَتِهِ؟ هَلْ كَانَ لَكَ نَجَاةٌ إِلَّا بِعِصْمَتِهِ؟ هَلْ كَانَ لَكَ رَسْمٌ إِلَّا بِجُودِهِ وَسَعَتِهِ؟ هَلْ كَانَ لَكَ اسْمٌ إِلَّا بِتَسْمِيَتِهِ؟ هَلْ كَانَ بِكَ غَنَى إِلَّا عَنْ نُصْرَتِهِ؟ هَلْ كَانَ لَكَ التَّفَاتُ إِلَّا عَلَى عَقْوَتِهِ^(٥)؟ هَلْ كَانَ لَكَ اسْتِقْلَالٌ بِغَيْرِ كِفَايَتِهِ؟ هَلْ كَانَ لَكَ مَخْرَجٌ مِنْ وَلايَتِهِ؟ هَلْ كَانَ لَكَ بَيَانٌ عَنْ إِلَهِيَّتِهِ؟ - لا والله! أَيْنَ أَنْتَ بِالنِّسْبَةِ الَّتِي لَكَ مِنْكَ إِلَى ذَرَّةٍ مِنْ خَلْقِهِ لَوْ شَاءَ لِأَبْرَزَ مِنْهَا مَا يَحَارُ فِيهِ بِصْرُكَ، وَيَتَبَدَّدُ عَلَيْهِ عَقْلُكَ، وَيُضْمَحَلُّ دُونَهُ كُلُّكَ وَبَعْضُكَ، وَيَبِيدُ عَنْدَهُ شَاهِدُكَ وَرَسْمُكَ!

الزَّمْ - عَافَاكَ اللَّهُ - حَدِّكَ، وَطَالِبِ نَفْسِكَ لِلَّهِ بِمَا لَهُ عِنْدَكَ، وَاحْرَصْ عَلَى أَنْ تَكُونَ عَبْدًا حَقًّا فَإِنَّهُ إِنْ وَجَدَكَ عَبْدًا حَقًّا لَمْ يَرْضَ لَكَ حَتَّى يَجْعَلَكَ مَلَكًا حَقًّا. هَذَا سِرُّهُ فِيكَ، وَمُرَادُهُ لَكَ. فَافْظَنْ وَدَعْ الْكُسْلَ، وَاطْمَأْنِنْ.

اللَّهُمَّ إِنَّا بَكَ - فَلَا تُلْهِئْنَا عَنْكَ، وَلَكَ - فَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا غَيْرَكَ، وَإِلَيْكَ - فَلَا تُصْرِفْ وَجُوهَنَا دُونَكَ. إِيَّاكَ نَرْجُو وَنَخَافُ، وَسِوَاكَ نَكْرَهُ وَنَعَافُ، وَإِلَيْكَ نَسْعَى حَافِدِينَ^(٦)، وَجَنَابَكَ نَرْعَى

(١) أخلاف: المفرد خَلْفٌ، وهو ضَرْعُ النَاقَةِ.

(٢) ر: يشوقك.

(٣) ضريب: شبيه ونظير.

(٤) زيادة ضرورية.

(٥) العقوة: المكان المتسع أمام الدار.

(٦) حافدين: مسرعين.

وافدين، ونُعماك ننشر على الأقربين والأبعدين، وبحقك نتهادى بين المريدين والعارفين، وفيك نتحير واليهين دالهي^(١)، وفيك نُرغب الزاهدين الشاكين، ورحمتك نرجو محتاجين مفتقرين، وعن ربوبيتك نُنقر واجدين مُرجّين، وبصحبتك نفتخر بهجين وفرحين.

يا هذا! ارحم غربتي في هذه اللغة العجماء، بين هذه الدهماء الغثراء^(٢)، وتعجب من بدائي في هذه الفلاة الغبراء بين الأرض والسماء. فلا أحد^(٣) يجيب مساعدًا أو معينًا حتى كأن أوطان المعرفة قد خلت من سكانها، ومنازل العبادة قد خلت من قُطّانها؛ وحتى كأن القدرة مع بُدوّها خافية، والحوادث [٤١ أ] مع تكرّرها متجافية. أين العقول الصاحية؟ أين الآذان الصاغية؟ أين الأبواب الثاقبة؟ أين القرائح الصافية؟ أين الأذهان المتوافية؟ أين الألسن الفصيحة؟ أين الأخلاق السجيحة^(٤)؟ أين الأيدي المبسوطة إلى الخيرات؟ أين التواصي بالنصائح والعظات؟ أين الإقبال على إنجاز العِدّات؟ أين ملازمة الأساطين^(٥) في المساجد لانتظار الصلاة بعد الصلاة؟ أين الخوض في استبانة المعارف عند سوانح الخطرات؟ أين محاسبة الأسرار عند خائنة^(٦) الأعين في النظرات بعد النظرات؟ أين الأعين الراشحة بالعبرات عند تذكّر العثرات في عَقَبَ العثرات؟ أين الندم القارح للأكباد على الفِرطات^(٧) بعد الفِرطات؟ أين الحُرْق المتوالية على ما سلف من التقصير مع الحسرات على الحسرات!

اللهمّ فسَلِّمنا من هذه الكُرْبَات المتصلة بالكُرْبَات، يا ذا الجلال والإكرام!

(١) دَلَّه عَقْلُهُ عَشَقًا: فقد رشده، تحير.

(٢) الغثراء: الجماعة المختلطة من غوغاء الناس.

(٣) ر: أحدًا. (٤) السجيحة: السَّمْحَة.

(٥) أساطين: أعمدة المسجد. المفرد: أسطوانة.

(٦) خائنة الأعين: النظرة المريبة أو المختلطة، استراق النظر إلى ما لا يحل.

(٧) الفِرْطُ: الأمر الذي يُفْرِطُ فيه صاحبه ويضيّعه بتقصيره.

رسالة (١٤)

ذم التفضيل بالغاشية والحاشية من الإشارات الإلهية

ألا قارعَ لباب الله؟ ألا قاصد إلى الله؟ ألا راغب فيما عند الله؟ ألا عائف لنهي الله؟
ألا قابل لأمر الله؟ ألا هائم في الله؟ ألا واجد بالله؟ ألا متوكل على الله؟ ألا مناجي
لله؟ ألا باذل لرُوحه في الله؟ ألا ناظر لنفسه مع الله؟ ألا آخذ بخُطام سرِّه بحق الله؟ ألا
محاسب لنفسه على حقِّ الله؟ ألا متوجِّه إلى ما عند الله؟ ألا خاطب لما عند الله؟ ألا
مسرور بتوحيد الله؟ ألا نادم على ما فرطَ له من مخالفة الله؟ ألا مشير بالحقيقة إلى الله؟
ألا معظَّم لشعائر الله؟ ألا مقتدي بُسُفراء الله، ألا متبجح في روضة الله؟ ألا شارع في
غدير الله؟ ألا واثق بالله؟ ألا طامع في وعد الله؟ ألا خائف من وعيد الله؟ ألا راحم لعباد
الله؟ ألا عامر [٤١ ب] لبلاد الله؟ ألا مُتَّحِي^(١) لِفناء الله؟ ألا ناشر لكلمة الله؟ ألا داعي
إلى الله؟ ألا مجيب لله؟ ألا شفيع لعبد الله إلى الله؟ ألا مُشْفِق من خيانتَه على نفسه من
الله؟ ألا ذاكر بالتحقيق لله؟ ألا عابد بالإخلاص لله؟ ألا شاكر على النعمة لله؟ ألا صابر
على البلوى لوجه الله؟ ألا مصغي لعتاب الله في كتاب الله؟ ألا مشتاق إلى رِضوان الله؟
ألا منافس في طاعة الله؟ ألا مُتَّحَوِّل عن أوطان المخالفة إلى جوار الله؟ ألا راضي بقضاء
الله؟ ألا محدِّث عن الله؟ ألا دالٌّ على قدرة الله؟ ألا باسط للرجاء في عفو الله؟

يا هذا! خلت العِراضُ^(٢) من ناس كانوا إذا تنفَّسوا أحرَقوا الحجب بينهم وبين الله:
تيهًا به، وثقة بوعده، ورضى بفعله، وخطأ في اختياره، وتسليمًا لحكمه. كانوا إذا برَّزوا لك
صفحات وجوههم رأيت تباشيرَ الخير عليهم، وروائد^(٣) الصدق معهم؛ وكانوا إذا ذكروا

(١) وردت في د: منتح. وانتحى مكان كذا: قصده.

(٢) العراض: المفرد العَرَضَةُ: البقعة الواسعة بين الدور لا بناء فيها، وتجمع أيضًا عَرَضَات.

(٣) روائد: جمع رائدة: ريح رائدة: لينة الهبوب.

الله تقلقلت ضمائرهم بألوان الشوق إلى المصير إليه، وإلى القيام بين يديه. أين أولئك، وأين هم! وكيف ذهبوا بأسرهم حتى لم يبق منهم دينار ولا صافر ولا نافخ ضَرَمَة^(١)؟ فلهذا حَالُ نُورِ الدين، وقل التلذذ بوجدان اليقين، وَقَحَلَتِ الأسرارُ عن ندى الغيب المكنون، وبُلي كل أحد بالظنون والمظنون، وصار ﴿كُلُّ حَرْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]. فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

يا هذا! عدَّ عن ذكر قوم بانوا بأشخاصهم وأرواحهم، فإن كانوا قد أبَقُوا عندنا من تراثهم ما يشوقنا إلى اللحاق بهم، فقم واسمع ما أخصك بذكره وأريد نفسي أيضاً معك في عُرْضِهِ: إِذَا نَفَعَتْ فِي صدرك نفحة من نفحات روض الأنس من العالم الأعلى فارقد عليها، وتلذذ بطعمها، واستدِّمْ نسيما من معدنها، وشِمْ مُزْنَتَهَا من سمائها. ولا سبيل لك إلى ذلك [٤٢أ] إلا^(٢) برفض الرذائل كلها: قليلها وكثيرها، وتحلِّي الفضائل بأسرها: دقيقها وجليلها. وهذه صورة إلهية متى حركت نفسك إليها وحُلِيتَ بزِينَتِها، وبرُزَّتْ ببهجتها، زارتك ملائكة السماء بالتحية بعد التحية، وأهدت إليك العطية بعد العطية، - وكُرِّمَتْ بين البرية، وصِرَتْ إِذَا دَعَوْتَ أُجِبَتْ، وَإِذَا تَمَنَيْتَ أَصْبَتْ، وَإِذَا تَوَهَّمْتَ حَقَّقَتْ، وَإِذَا أَوْمَأْتَ اكْتَفَيْتَ، وَإِذَا أَشْرْتَ بَلَّغْتَ، وَإِذَا قُلْتَ كَانَ قَوْلُكَ مَسْمُوعاً، وَإِذَا سَعَيْتَ كَانَ سَعْيُكَ مَشْكُوراً، وَإِذَا عَمِلْتَ كَانَ عَمَلُكَ مَبْرُوراً.

وقد ذكرت لك الفضائل جملةً بالاسم العام، وكذلك الرذائل، وما أحوجك إلى تصنيفها من طريق الإيجاز إن تعذَّرَ كَشْفُهَا على طريق الإشباع والإبراز. منها - عافاك الله! - الشجاعة، وهي التي بها تقهر كل ما توعر منك وتلين كل ما تعرَّع^(٣) عليك. وكل هذه الشجاعة - التي تتخذها قُعودك^(٤)، وتجعل عليها قيامك وقُعودك - تمكِّنك أن تقهر ما أردتَ مما عداك، لأنك إِذَا قَدَّرْتَ على نفسك فأنت على نفس غيرك أقدر، وَإِذَا جُرْتَ في خاصَّتِكَ فأنت عن خاصة غيرك أجور - ومنها العدالة، التي إِذَا صَارَتْ لك صورة

(١) الضَرَمَة: النار، الجمرية.

(٢) ر: إلى.

(٣) تعرَّعَ: اشتد.

(٤) القعود من الجمال: ما يتخذ مركباً في كل حاجة.

اكتسبت بها بهجة إلهية، لأنك تملك بهذه الخلة التساوي، والتساوي من الوحدة، والوحدة هي التي إليها الشوق، وعليها وَلِه الخلق. - ومنها الحِلْمُ، وهو الذي يُحَلِّيك بحلية ربانية، إذا بدوت بها طُوعت وخودمت وقوربت وحُمدت. والحلم من الخصال المرقية للبشر عن صفات النوع. - ومنها الكرم، وهو الذي به قِوامك في نفسك، وعليه مدارك مع بني جنسك. - ومنها الرأفة، وهي التي تشني إليك أعناق الجبابرة. - ومنها [٤٢ب] الجود، وهو الذي يكملك الكمال اللائق بك بقدر طاقتك.

ومذ^(١) انكشفت لك أيضاً الفضائل بأسمائها الخاصة وحدودها العامة، فقد انكشفت لك أيضاً الرذائل بأسمائها الخاصة ورسومها العامة - أعني أنك إن نظرت إلى الشجاعة التفتت إلى الجبن، وإذا أشرت إلى الكرم فقد أوأمت إلى اللؤم، وإذا ذكرت الحلم فقد زهدت في السَّقه؛ وإذا ما كُنيت عن الجود فقد صرحت بالبخل. فلهذا قلت: إن بانكشاف الفضائل انكشاف الرذائل، وكذلك بانكشاف الرذائل انكشاف الفضائل؛ لأن الأضداد تدخل تحت الأسماء المعروضة بنوع التصاحب، بلا تقدم ولا تأخر، لأن التأخر والتقدم بالزمان والمكان، وليس هنالك زمان ولا مكان. فإن قلت: والتصاحب أيضاً في الزمان والمكان. فالجواب: إن هذا غلط، إلا إذا سلطت إرادتك على قوايل الحس، لأن التصاحب صورة مأخوذة من الوحدة، والوحدة بها يكون غيرها متوحداً، ولا تكون به هي وحدة. وهذا كلام زللنا به عن مكاننا الذي كنا واقفين عليه. ولا عجب، فإن المعاني إذا تدفقت بالعز رأيت الحروف تتبدد بالذل، لأن تلك من المبسوط الأول، وهذا من المقبوض الثاني. فلهذا ما شنع هذا الفعل، وحسن هذا العذر، ووجب بعدهما الغفر والقبول على عادة أهل التفضل. وإذا كان قولهم:

وفي كل شيء له آيةٌ تدلُّ على أنه الواحدُ^(٢)

صحيحاً، فلا شك أن أصناف الحيوانات وضروب الجمادات على هذا. وبقي أن نفهم عنها نطقها، فإن بعضها ينطق بالشكل والقدر، وبعضها بالحلية والصورة، وبعضها بالحرف

(٢) البيت لأبي العتاهية (ديوانه: ١٠٤).

(١) ر: وقد.

والصوت، وبعضها بالنقصان والكمال، وبعضها بالعقل، وبعضها بالحس، وبعضها بالتركيب من الجميع، وبعضها بالفعل الوارد عليه. فإذا صَدَقَتْ رغبتك [٤٣أ] في البحث عن هذه الغرائب التي لديك في نفسك وفي جنسك، بان لك حينئذ، بالعيان واليقين، ما كنت غافلاً عنه بالشك والظنون، واستفدت من ذلك نوعاً من التوحيد لا تجده في قاصٍّ^(١) المحلة وحاكم البلدة ومتوسط الخصومة ومفتي الجادة؛ بل هو نمط قد خصَّ الله به أعيان عباده، وأعلام خلقه في بلاده، فلهم بهذه الخصوصية منازل الملائكة وكرامة أولي العزم من الرسل. وكيف لا يكون هذا التَّعْتُ تاماً، وهذا القول عامّاً، ونحن نعلم أن استخراج الذهب من معدنه أشرف من جمع البعُر من عَطَنِهِ^(٢)! وإذا كان الله تعالى كما قال ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]، فلأن نجته في وصفه بكل ما كان دالاً عليه وداعياً إليه وموثقاً به ومؤمناً منه كان أولى وأوجب، والتوحيد من ناحيته أعلى وأمجّد. فلهذا وشبهه عَثَرْتُ بتلك الكلمات الروائع في سمتها غير هائب، من كل حاضر وغائب، وسامع وطالب.

يا هذا! إن الله عمّ بنعمته وخصّ بفضله، وجعل العامّ فوضى لا تَزَاحُم عليه ولا تَنَافُس فيه، وجعل الخاصّ مصروفاً إلى أهليه. فانظر في حالك مميّزاً بين ما لك منك، وبين ما عليك فيك، فإن كنت من الذين عمَّتْهم نعمته، وأنت قانع بذلك لا تتوق إلى أكثر منه، فأنت على شأنك غير ملوم ولا مذموم. وإن كنت من الذين خَصَّهم فضله، وبك نزاع إلى تخليص ذلك منك وإظهاره عنك، حتى يبرز لعينك، ويتجلى لبصرك، ويصح به التنافس لك، فاجتهد أن تتصفّح عالم ربك المجيد فتعرف منه ما بطن وما ظهر، وما علن وما استتر، وما جلّ وما دقّ، وما فعل وما انفعّل، وما نطق وما صمت، وما ضرّ وما نفع، وما دبّ وما مشى، وما انتصب وما انتكس، [٤٣ب] وما ضاق وما اتسع، وما استدار وما استقام، وما اختلف وما ائتلف، وما صعد وما هبط، وما لزم قراراً واحداً وما دار كل مدار، وما

(١) كذا ورد، ويمكن أن يكون لفظ (قاضي) أنسب للسياق.

(٢) العَطَنُ: مَبْرَكُ الإبل ومَرِيضُ الغنم عند الماء.

تغير وما جلَّ عن أن يتغير، وما حسن وما قبح، وما أنس وما نفّر، وما عار^(١) وما قرَّ، وما انتظم وما التأم، وما أخصب وما أجذب، وما اعوجَّ وما اعتدل، وما أراد وما كره، وما قرَّب وما بُعد، وما بلى وما بقي، وما سَعَدَ وما شقي، وما نزل وما رَقِيَ، وما اختلط وما استقلَّ^(٢)، وما احتاج وما استغنى، وما نما وما نقص، وما طار وما سبَح، وما حقَّ وما بطل، وما صفا وما كدر، وما رطب وما ييس، وما زان وما شان، وما كان وما يكون، وما لم يكن ولا يكون. وإذا عرفت هذه الأشياء عرفته بها من ناحية دلالتها عليه، وعرفتها به من ناحية صنعه لها. وبهذه المعرفة تستوضح غوامض حكمته، وتستجلي غوالب قدرته. وبهذه المعرفة تشهد منافذ مشيئته في مجاري إرادته. فإذا اتلّفت لك هذه المعارف اتّلافاً وصارت معرفة واحدة، علقت به على يقين وعيان. فحينئذ لا يكون في نوعك من هو أكرم منك عند الله، ولا أوجه عنده إلا مَنْ كان له نصيب مثل نصيبك وولاية كولايتك. وهذا شيء ليس باللعب ولا بالأمر الحقيق، ولا بالحديث الخفيف.

فتعالَ حتى نفرض أن هذه المعرفة حُصِّلَتْ لواحدٍ من عباد الله الذين قد طَبَّقُوا^(٣) الأرض: أليس ينبغي أن يكون له الشَّفُّ^(٤) والفضل والمزية، والإبراز والتبريز، والتقدم على الباقيين الذين يجرون بالشكل والتخطيط والرسم والتحديد مجراه، وينطلق عليهم اسمه. فلم لا تكون - عافاك الله - هذا الرجل، ولم لا أكونه أنا؟ ولكن أقول ذلك^(٥). فما أنت أسعد بقبولك مني بقولي ممن هداني لهذا ودلّني.

يا هذا! أنت ربما فَضَّلْتَ حِمَارًا على حمار، وبَغَلًا على بغل، وفرسًا على فرس، وهرة على هرة [٤٤أ] وكذلك جنس الحيوان كله - فلم لا تفضّل إنسانًا على إنسان؛ وإذا فَضَّلْتَ إنسانًا على إنسان، فلم لا تفضّله بالفضائل والأخلاق والعادات والأفعال، ولكن تفضله بالدراهم والدنانير، والثياب والضياع، والغاشية والحاشية؟ إنك إذا لمن الظالمين، لأنك قد جهلت الفاضل: مَنْ يكون، والفضل: ماذا يكون. إن كنت لم تجهل

(١) عار: ذهب وجاء مترددًا، وهو ضد «قر» وفي ر: عاد.

(٢) استقل: انماز عن غيره ولم يختلط به.

(٣) طبقوا: ذاعت شهرتهم وانتشرت.

(٤) الشف: الريح والفضل والتفوق.

(٥) يبدو هنا وجود سقط في النص.

الفاضل ولا الفضل، فكن الفاضل واكتسب الفضل، فليس بين العلم والعمل سور؛ وإن كان سورٌ فليس من حديد؛ وإن كان من حديد، فالحديد أيضًا يعالج بما يلين به ويستجيب له.

يا هذا! صارف نفسك^(١) في أنفاسها وفي خواطرها، فإن لم تقدر ففي نياتها وعزماتها، فإن لم تقدر ففي مقاصدها ومراصدها، فإن لم تفعل ففي أفعالها واختياراتها، فإن لم تقدر ففي أبدالها وفيما يقوم مقامها، فإن لم تقدر فاكثر^(٢) نائحة تنوح عليك فإنك^(٣) في الأحياء ميت كما كان غيرك في الأموات حيًا.

ما أغرب هذه الإشارة! وما أخص هذه العبارة! ولكن أين الذين يدورون ويحضرون فيسمعون، بل أين الذين يسمعون فيعقلون، بل أين الذين يعقلون ويحصلون ما يعقلون! فكم كلمة عقلت، ولكنها من ذلك شردت، فطالت عليها الحسرة والندامة. إن الكلمة تطلب مقرَّها الموافق لها؛ فإذا صادفت سكنت، وإذا لم تصادف جالت في آفاق النفوس دائبة إلى أن تجد مكانها اللائق بها. وإذا نطق بها من لا ينتفع بها فذاك أيضًا لتبرؤها عن صدر الناطق وقلة رضاها به، وقلقها إلى غيره. وأسرار الإنسان في نفسه، وأسرار نفسه فيه غريبة بديعة، لا تستوعب بتحصيل، ولا يُوقف منها على تفصيل. ولهذا يجب البحث والنظر على طول الزمن، فإن الفائدة مع الزمان بطول الاعتبار وشدة الاختبار؟

إلهنا! [٤٤ب] زاغت الأبصار حين سرحت نحوك، وارتدت خاسئة حين رامتك، وحاتت الأبواب حين فحصت عنك، وانكفأت على أعقابها فرقة^(٤) منك: فالأحاساس تنزّه عنها لأنها أحسن من أن توجد بها، والألباب تتحير فيك لأنها - على كل حال - خلقتك، ولست تأذن لخلقتك إلا في لزوم حده وطاعته لك. فقد أضربنا تنزّهك في الأول وتحيرك في الثاني، ولذلك ما قد تبرّنا بهذا الشوق الدائم، وبهذه الحركة المتصلة، وبهذا النزاع القائم.

(١) صَارَفَ نَفْسَهُ عَنِ الشَّيْءِ: تَكَلَّفَ صَرَفَهَا عَنْهُ، صَرَفَهَا عَنْهُ.

(٤) فَرِيقَةٌ: خَائِفَةٌ.

(٣) ر: فَإِنْ.

(٢) اكْتَرَى: اسْتَأْجَرَ.

إلهنا! فإن لم يكن محالاً من أحد هذين الوجهين فَبُحْدُ علينا بذلك، وإنا لديك شاكرون وله مستحقون. وإن كان محالاً، فنحن أعلم بك من أن نسألك المحال ونطلب ما لا يجوز أن يُطلب. فَبُحْدُ أكبادنا من حَرِّ الشوق إلى ذلك بالقناعة والتسليم حين نتثبت لك على الصراط المستقيم، راضين بما قسمت، شاكرين لما وهبت، متقبّلين لما تفضّلت، مفوضين إليك، راغبين فيك، عالمين بأنّك المنعم الأول والمحسن الأفضل.

اللهم احذف عن ألسنتنا فضولَ القول معك، خاصةً في وقت مسألتك. واجعل هيتنا لك بقدر توكلنا عليك، ولا تجعل بعض أقوالينا وبالأ، ولا بعض عقائدنا ضلالاً. فإننا لا نقولُ إلا ما أنت أهله، ولا نعتقدُ إلا ما أنت أولى به، يا ذا الجلال والإكرام!

رسالة (١٥)

إلهنا! لا حمد إلا لوجهك، ولا إتقان إلا لفعلك، ولا نفاذ إلا لحُكمك، ولا بهجة إلا لعالمك، ولا نور إلا ما سطع من لدُنْكَ، ولا صواب إلا في قضائك، ولا حلاوة إلا في كلامك، ولا قوام إلا بتأييدك، ولا تمام إلا بترتيبك، [٤٥] ولا صلاح إلا بتهذيبك، ولا مضاء إلا بتسبيحك، ولا سكون إلا في فنائك، ولا هناءة إلا في عطائك، ولا حكمة إلا في أنبائك، ولا أنس إلا مع أوليائك، ولا نشر إلا لآلائك، ولا بصيرة إلا بإلهامك، ولا سكينَة إلا بإمامك، ولا حجة إلا في أحكامك، ولا تدبير إلا بين نقضك وإبرامك، ولا وصف إلا لك، ولا وَجْد إلا بك، ولا توكل إلا عليك، ولا رحمة إلا منك، ولا تهالُك إلا عليك، ولا خير إلا عنك، ولا شرف إلا بتشريفك، ولا استبانة إلا بتعريفك، ولا اهتداء إلا بتوقيفك، ولا إجابة إلا بتلطيفك، ولا رُشد إلا في تكليفك.

إلهنا! فبقدرتك التي أنت من وراء خلقك، وبحكمتك التي اشتملت على جميع برّيتك، وبمشيئتك التي نفذت في كل عبادك - إلا أنسنتا بعبادتك، وأمَدَدتنا منها بزيادتك، وأذقتنا عذوبة القرب منك، وخلطتنا بالذين اجتبيتهم لخدمتك، فإنك إذا فعلت ذلك بنا

فقد صرفت عنا غائلة كل غائل، وأمّنتنا كيد كل ماحل^(١).

إلهنا! كيف نطلبك وأنت قبل الطلب موجود؟ أم كيف نجدك وأنت بعد الطلب مفقود؟ لست مفقودًا بالعين ولكنك مفقود عن العين، ولست موجودًا بالعقل ولكنك موجود للعقل، وليس يلتبس أمرك إلا على من حجبته عنك، ولم تؤهله لمعرفةك، ولا رأيته مستحقًا للإشارة إليك. مَقَّتَه فجْهَلْكَ، وَحَجَبْتَه فجْهَدْكَ، وَأَنكَرْتَه فَأَنكَرْكَ.

إلهنا! بحرمة هذه السابقة منك إلينا إلا ألحقنا بعصاة الأتقياء عندك، وحشرتنا في زمرة الأولياء قبلك، وخصصتنا بعد هذا وهذا بما لا نُحْسِنُ أن نتمناه، ولا نجسر على أن نتخطاه.

يا هذا! إذا سمعت مثل هذه الصفات [٤٥ب]، بمثل هذه السمات، على شكل هذه اللغات، فاستشعر العظمة، فإنك بهذا الاستشعار تستحق التكرمة. وهذه المعارف بهذه النوع هي سلايلم قلوب العارفين في الترقى إلى ساحة الربوبية الغاصّة بأحكام الإلهية، فهى - عافاك الله - لنفسك سُلَمًا منها، واحرص على الترقى عليها، فإذا حصلت هناك فتَبَجَّح كيف أردت، وتبوأ حيث شئت، فقد نجوت من الدنيا وآفاتِها، وتخلّصت من هذه الدار وعاهاتها، وفُزْتَ بنعيم لا نفاذ له، وخلود لا آخر له، وعِزٌّ لا ذل بعده.

حبيبي! أما ترى ضيعتي في تحفظي؟ أما ترى رقدتي في تيقظي؟ أما ترى تفرقي في تجمعي؟ أما ترى غُصَّتِي في إساغتي؟ أما ترى دعائي لغيري مع قلة إجابتي؟ أما ترى ضلالي في اهتدائي؟ أما ترى رشدي في غيبي؟ أما ترى عيبي في بلاغتي؟ أما ترى ضعفي في قوّتي؟ أما ترى عجزى في قدرتي؟ أما ترى غيبي في حضوري؟ أما ترى كمونى في ظهورى؟ أما ترى ضِعَّتِي^(٢) في شرفى؟ أما ترى سخافتي في زمامتي^(٣)؟ أما ترى غشي في نصيحتي؟ أما ترى عنائي في راحتي؟ أما ترى دائي في دوائى؟ أما ترى بلائى من مولائى؟ أما ترى علىّ هذا إلى أن يفنى الورى، ويُفدَ الثرى، ويُفقدَ السرى؟

(١) محل به، محلًا ومحلًا: كاده بسعاية إلى السلطان. (٢) ر: ضعفي. والضعة تقابل الشرف.

(٣) زمت: يزمت، زماتة: كان وقورًا.

يا هذا! لو توحَّدت عن كثرتي، أو تفردت عن صحبتي، أو لزممت حجتني بدل شبهتي، أو رفضت شهوتي على شدة شهوتي، لأبصرت الطريق واضحًا. وكان دعائي لك بعد سبقي إلى الإجابة، ونصحي إياك بعد انتصاحي لمن عداك، ولكني ممنو مبلو منحو ممحو: ممنو بنفسي، ومبلو بجنسي؛ منحو بعادتي، ممحو بآفتي؛ فلهذا قد أصبحت مفضوحًا عند كل ناظر إليّ وواقف عليّ، وصرت علماً لدى الخلق بالدعوى العارية من البرهان، والحجة الملفقة بلا بيان. إن استترت ذُكرت، وإن انتشرت [٤٦أ] شُهرت، فقد بقيت مكدودًا مهدودًا، ليس معي تعللٌ بالوعد ولا تقلقلٌ من الوعيد. أتدري لم هذا كله؟ أقول لك: «لم» بيني وبينك جاريةٌ على سبيل الخبر والاستخبار، وعلى وجه التحفظ والاستظهار. هذا كله لأنه أبدى لي الحركة والسكون، وصرف بينهما كل ما كان ويكون، ففرقت العيون في العيون، واختلطت الظنون بالظنون، وأشكَل أمر الغابن والمغبون، وحصل الخلق تحت الحال لا يدرون ولا يعقلون. عمّ التلبس، فغمض الفرق بين التعميم والتخصيص. فلا جرَم، إن قال قائل: هل هو؟ - أجيب بما يحيرُه. وإن قال: لم هو؟ - أجيب بما يخيبُه. وإن قال: كم هو؟ - أجيب بما يُخرسه. فما الحيلة والسَّتر مُسَبَّل، وليس له رافع، والعجب^(١) واقع وليس له دافع، والشك معترض وليس له مانع!

يا هذا! دع سكران الهوى حتى يتهادى في سُكره، ودع مقلد الحال حتى يتمادى في نُكره، ودع مدبر الخلق حتى يوصفَ بذكره، ودع المحتاج حتى يموت على حاجته، والمريض حتى يتناهى في دَنَفه^(٢)، والدَّنَف حتى يفضي إلى تلفه، فليس إلى البغية سبيل، ولا على دَرَك الرضى دليل. للعقل صَلفٌ شديدٌ، فإذا قُدَّته إلى التقليد جمح، وللحس ترف ظاهر إذا أُشرت له إلى التسمع ثاب وعاد، وثبت واعتاد؛ والإنسان بينهما أسير، إن أراد طاعتهما حادَّاه وشاقَّاه، وإن مال إلى أحدهما اجتمعا عليه ودَّاه. فكيف يطيب عيش مَنْ يفيض صدره بهذه الحفاظ^(٣)، ويغلي سرُّه بهذه المغاظ! ما يطيب والله لحظة عين.

(١) ر: العجائب.

(٢) الدَّنَف: المرض المُثقل، والدَّنَف: مريض لَزَمَه المرض الشديد.

(٣) الحفاظ: جمع حفيظة وهي الغضب، الحَمِيَّة.

الحديث أطول من هذا، ولكن في فمي ماء. على أنني قد سقت العبارة هكذا وهكذا، شرقاً وغرباً، وجنوباً وشمالاً، وأرضاً وسماًء، فلم أدع للكتابة قوة إلا عصرتها عند العثور عليها، ولا للتصريح علامة إلا ونصبتها حين وصلت إليها. وإشفاقي على من لا يفهم لكدر طباعه، أو لبلادة فهمه، أو لغالب جهله [٤٦ ب]، أو لعصبية تعتريه شديدة، لأنه يفسد وقد قصدتُ صلاحه، ويغوي وقد أردتُ فلاحه. إنا لله وإنا إليه راجعون.

أصبحت:

..... كَأَنِّي ذُبَالَةٌ نُصِبْتُ تَضْيِيءُ لِلنَّاسِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ^(١)

لعلك تقول بغفلتك وقلة تجربتك وقصور نظرك: فلو سكت في الجملة كان أصلح من هذه الاستغاثة المكررة، ومن هذا العويل الطويل، ومن هذه البداءات المعترضة، ومن هذه الطرق المختلفة. فالجواب عن قولك: إنك لو أحسست بالداعي إلى هذا القول، وبالمهيئ على هذا التهويل، لكان عذري عندك مبسوطاً، وكان اعتراضك عني مقبوضاً. ولكنك لا تحس، ولا أظنك تحس. والله ما نبست من هذه السطور الكثيرة والورقات المتصلة بحرف إلا بعد الخناق الشديد وعصر الفؤاد بالكره، وإلا بعد التلويح في المنام، وإلا بعد الإلقاء والإلمام، وإلا بعد الاعتراض في المقام والمقام. وكان روحي يخرج في هذه الحال التي كانت تعرض، فرأيت الخطر بالبوح مع هذا الحث المتوالي أهون من هذا الصمت مع هذا البعث المتغالي. فنبست كما ترى. على أنك لو أنصفت، علمت أنني في كل ذلك واسطة مستخدم، ومُستعارٌ مستقدم، ليس لي في أطرافه أثر إلا ما يتعلق بالنسخ والهجاء، والنقس والأباء^(٢). والدليل على ذلك أنني نظرت فيه كله بعد ارتفاعه، فما وجدتني في موضع منه: لا بالذوق من الباطن، ولا بالشوق من الظاهر. فإن صدقتني في هذا الخبر، فقد قضيت حق الذمام الجامع بيني وبينك في الطريقة؛ وإن كذبتني فما لي بعد هذا حيلة على الحقيقة.

(١) البيت للعباس بن الأحنف. (ديوان المعاني، أبو هلال العسكري) وأوله لفظة «وصرت».

(٢) النَّقْس: الحبر، والأبَاء: القصب، يقصد الأقلام.

يا هذا! دَعْنِي من هذا وهذا، قُلْتُ نَعَمْ وَقُلْتُ، وَأَشْرْتُ وَكَنَيْتُ. وَسَمَّيْتُ وَكَنَيْتُ^(١)، وحاججت ولا ججت، وَبَقَيْتُ^(٢) [٤٧أ] واشتريت، ومحوت وأثبتت، وجمعت وفترت، وَنَصَحْتُ وَغَشَشْتُ، وَمَحَضْتُ^(٣) وَمَذَقْتُ^(٤)، وَعَسَّرْتُ وَسَهَّلْتُ، وصدقت وكذبت. كأن يا ذا أنت مسيطرٌ عليّ، وأنت مطالبٌ فيّ، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]. ما هذه النفاسة^(٥)، ما هذا الحسد، ما هذه المغايظة؟ هل فيكم من برز له من بين سِنِّي قَلَمَهُ هذا كله أو بعضه؟ ثم لا فخر بالإمساك، لأن الإمساك قد يكون عن قدرة كما يكون عن عجز. وأقول أيضًا قول الآخر على شكل آخر حتى يكون أقد^(٦) لحشا الحاسد، وأضرمَ لنار الكمد، وأفتَّ لكبد المنافس: نعم سيّدي! نَطَقْتُ بالحق، ونطقْتُ للحق. وما نطقْتُ ولكنه أنطقني؛ على أنه ما أنطقني حتى خصني، وما خصني حتى أذن لي، ولا أذن لي حتى حلاني تحلية^(٧) الخطباء الذين لا يجوز لهم صعود المنابر إلا بعد أدوات يستعينون بها، وهيئات يتحلون بها. فهكذا جرى أمري وأعلى وأمجد، فليحسد من شاء، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الجمعة: ٤].

إلى متى أداريك وتماريني، وأرائيك وتواربني، كأني جوزة تدفعني كيف شئت، وتسمني بما أردت.

يا هذا! عدّ عن هذا أيضًا. فإنك إن أخذت في اقتصاصه وسياقته طال ولم يدخلك فيه ملل، لأنه يجري مجرى شفاء الغيظ، وأمور الدنيا أحقر وأزرى من أن يُوهب لصوابها وقتٌ تمدح به، أو يفرغ لخطأها زمان تدم فيه.

(١) كَنَيْتُ (بتخفيف النون) تكلم بما يُسْتَدَلُّ به عليه ولم يصرح. كما في قولك: رجل كثير الرماد - كناية عن كثرة الكرم. أما

(كَنَيْتُ) بتشديد النون، تقول: كنى الشخصَ أبا فلان: سَمَّاهُ به.

(٢) كذا في ر، د، ومن سياق الكلام يمكن أن تكون «وبعت».

(٣) محضت: سقيت لبنًا خالصًا لا ماء فيه.

(٤) مذقت: خلطت اللبن بالماء.

(٥) نَفْسُ الشَّيْءِ وبه على صاحبه: حسده عليه ولم يره أهلاً له.

(٦) أقدّ: أقطع.

(٧) قُرِئْتُ في (د): بحلية.

يا هذا! عَدَّ بنا إلى متن التوحيد، وإلى عُمُق المعرفة، وإلى عُقْبَان^(١) الوجد، وإلى آخر مدى التوكل، وإلى العلل العارضة في هذه الأحوال، وإلى الواضحات الواردة بالإشكال، وإلى المشكلات الصادرة بالداء العضال. فإن الخَوْض في هذه الأشياء أنفع من المهاترة فيما كُنَّا فيه، لأن الكلام مع الخصم من المهاترة [٤٧ب] والمناظرة والمذاكرة. فأما المهاترة فبابٌ ينشأ من التنافس وإيثار الغلبة. وأما المذاكرة فالمقصود بها طلب الفائدة، كالرأي المعروض على العقول المختلفة إلى أن يقع الاختيار عليه بعد الاتفاق. وأما المناظرة فمتوسطة بين المهاترة والمذاكرة، قد تفضي إلى المنافسة، وقد توجد بها الفائدة، وهي كالفكاهة بين العلماء.

فإذا سلمت هذه العبارة، فتعال حتى نقول: مَتْنُ التوحيد مشاهدةٌ الواحد بالضمير المعتقد على مباينة كل ما سواه. وعُمُقُ المعرفة سكونُ النفس إلى المعروف بما لا بس النفس من الأنس. وعُقْبَان الوجد هو أن كل ما عدا من الوجد، به بدا. وآخر مدى التوكل غُنْيَة صاحبه برؤية المتوكل عليه عن كل ما اقتضاه التوكل في الأول. وأما العلل الواردة في الأحوال فهي عبارة عن الآفات الناشئة من النفس الأمارة، وعن الآفات الفاشية في الكون. وأما الواضحات الواردة بالإشكال فكلُّ ما سُمِعَ مما اقتضى «لِمَ»، فوقع الحجاب عنه. وأما المشكلات الصادرة بالداء العضال فهي المقابلات للواضحات الواردة بالإشكال لأنها تصدر عن نيات مَشْوِبة وطويات مُربِية.

فهذا ما اعتَنَ^(٢) من القول في هذا الوقت. وإذا بَسَطَ الزمانُ كَفَّهُ وَغَضَّ طَرَفَهُ، أَتَيْنَا على هذا كله ببيان أَشْفَ من هذا وأشفى، وضممنا إلى جميعه ما يكون داخلًا في شكله وناهضًا بحمله، إن شاء الله. فلا يروعنك لفظ يكون قاصرًا عن مرادك في الحال، فإنك إذا عدت بالنظر عاد ذلك القاصر بالغًا وذلك المتضائل ضخمًا.

يا هذا! جَرَّدَ عزيمتك في تطرية ذهنك، وتطهير نفسك، وتقذية^(٣) عينك، وتنقية قلبك، وتحلية روحك، وتوفية بعضك، وترقية كلك، فإنك [٤٨أ] مطالبٌ بعد قليل بأن

(١) عقبان: خاتمة. (٢) اعتنَّ: ظهر.

(٣) تقذية: أخرج ما في العين من قذى، والقذى كل ما يقع في العين.

تناجى ربك بلا واسطة بينه وبينك. فانظر كيف تكون في هياتك وحجتك، ومعدرتك ومكانتك، وانبساطك واحتشامك- فإنك إن لم تأخذ عتاد الأمر قبل إطلاله أعجلك إطلاله عن إرساله على حاله. وبهذا جرت العادة ومَرَّ الدهر واستتب الأمر، فلا تجعل التقصير ديدناً لك فليس كل وقت يحتمل ذلك؛ واحذر نفسك وحذرهما منك، فإنك إذا ضمنت حذرَكَ إلى تحذيرك نصحتك وثبتت لك. هذا منتهى قولي لك في هذا الجزء بعد التيات وتقاعس اعترضاني بك ومنك. فاستقو- أبقاك الله- بما أمرتك بذلك وبما نهيتك عنه من أجله، والسَّلام.

اللهمَّ إن بَحْرَكَ إذا غطمط^(١) مَوْجُه وهال الواقف منه على الساحل، فكيف مَنْ هو في وسطه يترنح به الموج وتهاداه الريح!

اللهمَّ فَسَلِّمْنَا كيفما شئت، واهدنا للتي هي أقوم عندك وأرشدْ لديك. فاحفظنا إذا قلنا، فإنما نقول لك ولوجهك؛ وَأَلْهَمْنَا إذا سَكَنَّا، فَإِنَّمَا نَسْكُتُ مِنْ أَجْلِكَ ولعظمتك. وإذا كنت لنا في حالتِي القول والسكوت، أَمَّنَّا بعدهما بعفوك إن نَزَلَ أو نَضِلَّ. يا ذا الجلال والإكرام!

رسالة (١٦)

أشرقت الأكوان بالأشباح، وشُرِفَت الأعيان بالأرواح، وتجلت أسرار الحق فيها بين الافتراح والارتياح؛ وتناجت النفوس على بُعد الديار بما تتخافت فيه الأفواه على قرب المزار، ورُدَّت على الناظرين خوائن^(٢) الأبصار، والتقت في الغيب سوانح الإقرار والإنكار، وقيل لصاحب الشوق: هِجْ وَلَهَا وَغِبْ عَلَهَا^(٣)؛ وقيل لصاحب الوجد: رُدْ ثَمَدًا^(٤) أو مُتْ كَمَدًا؛ وقيل لصاحب العيب: اخسأ مهينًا [٤٨ ب]، وأنا

(١) الغطمطة: اضطراب الأمواج.

(٢) خوائن: جمع خائنة، وهي النظرة المريية أو المختلصة. (٣) العله: الحزن.

(٣) ثَمَدًا: الثمد: الماء القليل الذي ليس له مَدَد. والتمد: المكان يجتمع فيه الماء. ويعني هنا: اكتف بالقليل. و «رد» فعل أمر من «ورد» وقد جاء في ر وفي د: «زد».

مشيناً؛ وقيل لصاحب الحب: هات بياناً، وأبرز برهاناً. فعندها لحظ اللاحظون بعين الصدق، ولفظ اللافظون بلسان الحق شناناً^(١) الحال، واضمحلال المقال، والتواء المنال. فناجوا في السرائر، وباحوا بالضمائر، ورفعوا رقوم البواطن والظواهر، وافترقوا عن الألفة، وتكثروا بالوحدة، وخيموا بين سواحل التجني وبلاغ التمني، فما مكثوا مطمئنين ولا لبثوا مُرَجَحْنِينَ. حتى هاجت دواعي المنى، وماجت سواعي الهوى، فمن طائح في البحر غريق، ومن تائه في البر بلا رفيق. على أن حفظ الحال مع الشتات والانبثاق^(٢) أولى من إهمالها وإرسالها بالعناد والإعنات، ولأن يُكَّان^(٣) في الهوى بحكم التشيت خير من أن يُكَّان في السلوة. بحكم الاجتماع. السلوة مجانية، والهوى مكاثبة^(٤)؛ السلوة سهو الروح، والهوى روض الروح؛ والسلوة طرد، والهوى تحريش^(٥). السلوة إعراض، والهوى استعراض. وهل تعرضت للهوى إلا بعد أن عرضك، فتعريضه قبل تعرضك، ودعاؤه قبل إجابتك، ولطفه قبل استلطافك، وعطفه قبل استعطافك. وليس الهوى في هذه القصة حظ النفس أو حظ الحس إلى الحس. لا وحق الحق الذي برأ الأشياء ثم برئ منها، وجلاها ثم جلا عنها، وأبانها ثم بان فيها، وأفاضها ثم فاض عليها. ما المراد بالهوى هناك، ما يراد بغير ذاك إلا أشياء مترادفة بالعادة، متصادفة بالإفادة. فالأسماء مطروحة بالتوقيف، والمعاني مأخوذة بالتعريف. الأسماء مختلفة بكدر الخلق، والمعاني مؤتلفة بصفو الحق. الأسماء مسموعة بلسان التفرقة، والمعاني مسموعة بلسان الجمع. الأسماء متنافية باللغات، والمعاني متصافية بحكم الصفات. أما تعلم أن الأنس بالمعاني على إثثار الحق، مُقَدَّم [٤٩أ] على الاستيحاش في الأسماء لتنافيها على إثثار الخلق؟ الأسماء محدودة بالأفهام، والمعاني معدودة بالإلهام. فإياك أن تلحظ المعاني بعين الاسم فتعطب، وإياك أن تعطي الاسم ذات المعنى فتتعطب، وإياك أن تعطي المعنى رسم

(١) شنان: حقد وبغض وقرئت في د: شتات. (٢) انبت الرجل في السير: جهده دابته حتى أعيته.

(٣) كان يكين: خضع - وأكانه الله: خضعه وأدخل عليه الذل.

(٤) المكاثبة: القرب، وهي تقابل «مجانبة» وفي ع: مكاثبة.

(٥) التحريش: الإغراء. ومنه: حَرَّشَ بين القوم: أغرى بعضهم ببعض.

الاسم فتكذب؛ وإياك أن تفرق بينهما فتُتهم، وإياك أن تجمع بينهما فتوهم. ههنا رَلَقْتَ أقدام المتكلمين، وانتكست أعلام المتحدلقين، لأنَّهُمْ ﴿سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ [سبأ: ٥]، ونظروا في الآية مستهزئين، وركنوا إلى عقولهم مفتخرين متعززين، فنكصوا على أعقابهم خائبين خاسرين.

إن كنت من أهل القِصَّة فتجرَّع بالتسليم مرارة الغُصَّة، إن أردت أن تلحق بالملأ الأعلى فذُبْ بين البلاء والبلى، إن كنت من أهل المحنة فلا تنظر إلى المِحْنَة، ولكن انظر إلى المِنَّة في المحنة.

يا هذا! افحص عن ودائع الحق فيك، وانفُضْ خزائنه قَبْلَكَ، واشهد آلاءه عندك، واطلب مزيدة بالشكر على ما نَوَّلَكَ. فإذا أعوزك الشكر فاعترف بالعجز عن القيام بما أمرك. فَوَضْ إليه ما زُوِيَ عنك علمه، وطَوَى دونك حكمه، وسَتَرَ عن عقلك حكمته، وأظهر على جملة قدرته. إن أوحشك خفاء الحكمة، فاستأنس بظهور القدرة. إن أدهشك فضاء الإلهية فاستأمن إلى حدِّ العبودية. إن غاظك انفراده بمعلومه منك، وإرادته فيك، فاسكن إلى ما ألبسك من أمره ونهيه. واعلم أنه إن اطرَّد عليه اعتراضك لم يصلح أن يكون إلهاً لك. وإن سُمِعَ فيه قولك، لم تصلح أن تكون عبداً له.

يا هذا! انظر إلى زينة الكون مستطرفاً، وفكر في دواوين ملكوته مستعرفاً، وانتبه عن رقدتك متخوفاً، ثم انتبه في انتباهك متوقفاً، ثم احكم على نفسك مترفراً. ولن يُفْتَحَ لك هذا الباب، ولا يُبَسِّطَ لك هذا البساط [٤٩ ب] حتى تصحب كونك بفراق كونك، وتبید في عينك عن عينك، وتنأى عن شاهد زَيْنِكَ وشَيْنِكَ، وتمحو أثر المكان في أينك، وحتى تبقى «أنت» منسلخاً عنك، ونعتك منفسخاً^(١) عليك، وحتى ترى أن مطاربك بالتمني معاطبك بالتمادي، ومآلفك بالعيان متالفك بالخبر. فإذا بلغت هذا الحد، لم يبق بينك وبينك ضدٌّ، ولا ندٌّ. فَرَدُّ، حينئذ، بحره الطامي ظامئاً، وردُّ روضه الناضر^(٢) ناظرًا، فإنك تذوق بغير مذوق ما لم يدُقه مخلوق.

(١) ر: منفسخاً.

(٢) في ر الناظر.

يا هذا! إن عاقبك العجز المبذور فيك عن تناول الجوهر المنشور عليك، فأرْعَ زهرة الأمانى متعللاً، وتشبث بعلائق التوحيد مترسلاً، ونُحْ على نفسك نوح الثُكُول، وكاشفها مكاشفة النَّصُوح العُقُول^(١)، وافتتح أمرها بأن تفظمها عن عاداتها وتكظمها على جرتها^(٢)، وتخدمها مستخدماً لها. فإذا صرخت عليك فاضحةً لك، فامتنعها صائناً لها، وذللها طالباً لغيرها؛ وانسبها إلى غيرتها^(٣)، واستر عليها ما في طيها - فإنها إن لم تطعك كل الطاعة، لم تشنع عليك كل الشناعة.

يا هذا! ارفق قليلاً، والحق معنى جليلاً: احتجب عن البهمل بالحلم، وغُضَّ عن الفهم بالوهم، وانثر الذكر بالفكر، واطلب المزيد بالشكر، وأخف المكر في الأمر، وامزج الصحو بالسُكْر، وألف ما بين العذل^(٤) والعُذْر، وشرّف القول بالفعل، وتردد بين الفصل والوصل، ثم ارق على الكل في الكل، فإن محقق الكل فوق الكل. أتدري ما الذي وجدت فيما وجدت ممن أوجد كلَّ واحد ما وجد؟ وجدت الجملة العويصة على الجمهور هي التفصيل المشكل على الأفراد، والحال المفروضة بالكمال هي النهاية المنقوصة بالتحقيق عند الخواص، فأنا عند العيان قائم مع البُهْت^(٥)، وعند الخبر واقف مع التُّهْمَة، ومع النصيحة متمسك بالاستغشاش. إن قلت قلت متحسراً [أ٥٠] وإن سكت سكت متحيراً، وإن نظرت نظرت متنمرًا، وإن أغضيت أغضيت متذمرًا، وإن سَكَنتُ سَكَنتُ متهورًا، وإن تحركتُ تحركتُ متشورًا^(٦). فأنا كما قال بعض العارفين:

عرفتُ [الحبَّ^(٧)] لما صار كلي يداني كله صبًّا عَمِي——دا

(١) العقول: الذي يعقل ويفهم.

(٢) كظم البعير على جرتة: أمسك عن الاجترار، أو ردد الجرة في حلقه، والمعنى تحبسها وتمنعها.

(٣) في د: عترتها.

(٤) العذل: اللوم.

(٥) البهت والبهتان: الكذب؛ الافتراء.

(٦) متشور: خجلان، أو فعل ما يستحي منه.

(٧) بياض بالأصل، وما بين القوسين أو ما في معناه زيادة حتى يستقيم الوزن.

أشرت إليه من أمم^(١) لأنني
 فتَّهْتُ به عليه إذ جبانني
 أنستُ به لبُعْدِ الخلق مني
 مَعَادَى أنت في وهمي وحسبي
 وقالوا: قد وصلتَ فقلت: قولاً
 أكون به غَوِيًّا أو رشيماً
 ظننتم أنني أدركت معنى
 وأنِّي يُدْرِكُ العَدَمُ الوجودا

يا هذا! هذا لسان التصوف، والتصوف اسم يجمع أنواعاً من الإشارة وضروباً من العبارة، وجملته التذلل للحق بالتعزز على الخلق^(٢).

يا هذا! حواجز الكون معترضة دون تملِّي العيش بزيينة الكون، لأن مدار الكون على تقلُّب وتقلُّت يصيران بهذا الغير إلى مدخل ضيق. وحكم المدفوع إليه حكمه، لأنه من نتاجه ونسجه، وغراسه وسقيه. وإنما يوحد الحقُّ الأحد الواحد بعد الواحد مما يهب له من الغيب في الغيب، حتى يطهرها هنا من الرِّيب والغيب. وهذا مرام بعيد، وأمر صعب، ومحنة عمّت وشملت، وبلية أطلَّت من فوق وأقلَّت من تحت.

فقل لي: متى تجلّى بنات الصدور^(٣) على هذه الشرائط؟ ومتى تقوى عزائم الصبر على هذه البسائط؟ - ليس إلا التلمّظ بحلاوة النجوى، والعزوف عن مواطن الشكوى، والأنفة من كشف آثار البلوى، - إلى أن تعطف عواطف، وتلطف لواطف، فيشتفي حرّان، ويهتدي حيران، ويرقأ دمع، ويصفو سَمْع، ويُنْفَى من العين [٥٠ب] ما كدَّرها، ومن النفس ما غَيَّرها، ومن الطَّرْف ما أقدّاه، ومن القلب ما آذاه.

أفدي واللّه هذه الفنون، المستخرجة من هذا المعنى المصون. أفدي واللّه عيناً باتت تدمع من خشية الله. بل أفدي واللّه نفساً ظلت خاضعة مهينة هيبةً لله. بل أفدي واللّه

(٢) في (د) الحق.

(١) أمم: قريب.

(٣) بنات الصدر: همومه ووساوسه.

لسانًا تلجلج بالاعتذار إلى الله. بل أفدي والله قلبًا ما يزال خائفًا حيًا من الله. بل أفدي والله قدمًا زَلَّتْ على الحركة في سخط الله. بل أفدي والله يدًا كَفَّتْ بنانها عن تناول ما لم يُبَحِّه الله. بل أفدي والله روحًا تهالكت وَجَدًا على أولياء الله. بل أفدي والله نعمة أُدِّيَتْ بها حقوق الله. بل أفدي والله عقلًا اشتاق إلى موعودِ الله. بل أفدي والله كَبَدًا^(١) أوثر على الراحة لوجه الله. بل أفدي والله الحديث عن الله والحياة مع الله. بل أفدي والله خاطرًا يسنح مبشرًا بذكر الله. اللهم هَبْ لنا حال القائل:

ما إن تنفّستُ إلّا	خطرت أنت ببالِي
ولا رميتُ بطرفِي	إلا وكنت حِيالِي
وما ذكرْتُك إلّا	وَجَدْتُ وَجَدًا بَدَا لِي

اللهم^(٢) وَقُونَا^(٣) بعزيمة الراجعين إلى بابك، وبَيِّضْ وجوهنا عند مناجاتك، واغمرنا بمواد مواهبك ومنحك، وآونا إلى كَنَفِ أَمْنِكَ بالأمن منك، وَأَمْطِرْ علينا سحاب جُودِكَ وعطفك، ووفقنا لأَقْصَدِ السبيل إليك، وخفف علينا في كل الأمور التوكّل عليك، وسَهِّلْ علينا طُلاب ما أعدده لأوليائك لديك، واسلُبْنَا مِنَّا، وشرِّدْنَا عَنَّا، وَخُذْنَا لَنَا، وَبَقِّنَا عَلَيْنَا، ولا توالنا بالنعم استدراجًا، ولا تمهلنا بالتناول احتجاجًا؛ ولا تأخذنا ببياتنا^(٤)، وارحمنا إذا صرنا عظامًا ورُفَاتًا، وَجُدْ عَلَيْنَا إذا صدر الناس أشتاتًا. إليك وَكَلْنَا كَلَّنَا، وعليك طرَحْنَا كَلَّنَا. يا من هو أرحم بنا مِنَّا، وَأَنْظِرْ لَنَا من أنفسنا، وألطف بنا من آبائنا وأمّهاتنا. امحُ عَنَّا صفاتنا باستيلائك، ثم خَلِّنا علينا فيك بولائك.

(١) الكَبَدُ: التعب والمشقة.

(٢) من هنا وحتى نهاية الرسالة تكرر في أول الرسالة (٢٩) ورقة (٨٥ب) ص ٢٠٥.

(٣) المكرر: قدنا.

(٤) أخذه بياتًا: أخذه ليلاً على غرة.

رسالة (١٧)

[٥١ أ] اللهم إني أسألك الحمد [لك] ^(١)، والرضى عنك، والسكون إليك، والثقة بك، والقرار معك. فإن في الحمد لك زيادة، وفي الرضا عنك قُرْبَة، وفي السكون إليك توكلاً، وفي الثقة بك إخلاصاً، وفي القرار معك مصافاة. فأَجِرْنَا من عَيْبٍ يُمَضُّ ^(٢) النفس صباح مساءً، وأَعِزَّنَا من كل ما لا طاقة لنا به في ظلام وضياء، واصرفنا عن كل سُمعة ورياء، واكشف عنا كل بلاء وعناء، واعمُّمنا بكل عطاء وحِباء، واخصِّصنا بكل ولاء وآلاء، وحُلِّ بيننا وبيننا حتى نكون لك على الصفاء والنقاء، بعد الفناء في دار البقاء، فإن الحيلولة بيننا تُصَفِّي صفاتنا، وتطيب حياتنا، وتكثر تحياتنا، وتدنيننا من فنائك، وتؤهلنا لرفدك ^(٣) وعطائك، وتصل بيننا وبينك بلطفك وعلائك، وترسمنا في زُمرَة أوليائك وأصفِيائك.

أيها المسترق للسمع، المتوالي في هذا الجمع! إذا سمعتني أدعو الله، فثق بحسن ظني به؛ وإذا رأيتني أدعوك إليه، فثق بخالص نصحي لك؛ وإذا وجدتني أذكر الله، فاعلم أنني أريد التقرب إليه؛ وإذا صادفتني أصف الشوق، فتيقن أنني أريد بك أخذ العناد والأهبة؛ وإذا لحظتني أشير إلى المحبة، فاعلم أنني أهيجك على المواصله؛ وإذا رأيتني أعيب الدنيا، فاعلم أنني أريد أن أصرف عنها نظرك. أما سمعت الحكيم كيف يقول:

إني رأيتُ عواقبَ الدنيا فتركتُ ما أهوى لما أخشى ^(٤)
فكرتُ في الدنيا وجددتُها فإذا جميعُ جديدها يَبْلَى
وإذا جميعُ أمورها عَقَبَ ^(٥) بين البرية قلماً تَبْقَى

(١) زيادة ضرورية. (٢) يُمَضُّ: يُتَعَب وَيُؤْلَم.

(٣) الرَّفْدُ: الصَّلَة والعطاء. وفي ع: لوفدك.

(٤) هذه الأبيات لأبي العتاهية (ديوانه ص: ٢٢).

(٥) يتعاقبونها واحد بعد آخر فلا تدوم لواحد. وفي الديوان (دُول).

وإذا بها صرْفٌ يُعِدُّ لَنَا في كل موضع زَهْرَةٌ أَفْعَى^(١)
 وبلوتُ أكثرَ أهلِهِـا فإذا كلُّ امرئٍ في شأنه يسعى
 ولقد نظرتُ فلم أَجِدْ خُلُقًا^(٢) أعلى بصاحبه من التقوى
 ولقد طلبتُ فلم أَجِدْ أَحَدًا^(٣) بأعزَّ من قَنَعٍ ولا أغنى
 ولقد مرَّرتُ على القبور فما ميَّزتُ بين العبدِ والمولى
 [٥١ ب] ما زالت الدنيا مُنْغَصَّةً لم يخلُ صاحبُها من البلوى

يا هذا! إذا وجدت طبيياً يجمع لك بين الحِذْقِ والنُّصْحِ فارفع إليه داءك، واعرض عليه علَّتكَ، واصدِّقه عما تقدم من غيبك، في مطعمك ومشربك، حتى يصدقك عنك، ويخبرك منك، ويتلافك لك، ويسقيك ما ينفعك، ويحميك ما يضرُّك. هذا إن كنت تحس بدائك، وتحنّ إلى شفائك، وتعلم أنك مطبوب ومحتاج إلى قيمِّ بك ومُرفق لك. وما أحسن ما ألَّم بهذا المعنى بعضُ الممتحنين^(٤)، فقال:

أجبروني من الكَمَدِ المُعْنِي وإن لم ترفقوني فارفقوا بي

يا هذا! دعني من دائك وعلتك! أين أنت عن مرتبتك في همتك؟ وهل لك فضل في قوتك؟ ومن لك بأمنك في خيفتك؟ أتراك تفرق في حالتك بين ذلَّتكَ وعِزَّتكَ؟ إن كان عندك لهذه المنازل علامة فاستبشر، فقد جعلك الله من أهل الكرامة. وإن كنت غريباً منها فالزم باب الندامة، فلعلك تُهْدَى إلى الغنيمة أو إلى السلامة.

يا هذا! اختلط الإفصاحُ باللكنة، وتلاقى النعيمُ والمحنة، والتبست الغباوةُ بالفطنة، وانتقضت عهودُ الرغبة والرغبة، وصار الاستئناسُ من أحكام الجهر، في مقادير الاستيحاش من أحكام السر؛ فالشفاه ذابلة والصدور حامية، والقلوب متلظية، والعيون

(١) لم يرد هذا البيت في ديوان أبي العتاهية.

(٢) في الديوان «طلبت» بدل «نظرت» و«كرماً» بدل «خلقاً».

(٣) في الديوان: سبباً بدل أحداً.

(٤) الممتحنين: أي الذين أصابتهم محنة.

غرقى بالدموع، والحدود ملطومةً بالأكفّ، والوجوه مخموشةٌ بالأظفار، والجيوب مشقوقةٌ بالأيدي، والفوائت متمنّاة بالحرّق، والعينان مشوبة بالحسرات، والأكباد مفتتة بالعبرات، والأحشاء ملتهبة بالزفرات، والنظارة متحيرة عن هذه النوازل، والأعداء شامته بهذه الدواهي، والأخبار مرفوعة بهذه الشناعات، والديوان ناطق بهذه الفضائح، والمأتم منعقد بهذه النوائح. فاللائم ملومٌ والحامد مذمومٌ، والمعزي ناكل، والسالي متناول، والزاهد محاول، والراغب متناول. فيا لك^(١) من هرج ومرج قد وقع فيهما أهل هذه العبارة والإشارة، بلا أمانة ولا أثارة^(٢): بلا أمانة من حلم يكف طلائع البأساء، ولا أثارة من علم يزفّ عرائس السراء.

يا هذا! إذا دَهَمَ [أ٥٢] مثلُ هذا الأمر المُشْكل، وحاد له اللب، وعزب عن تصريحه الرأي، فلم تجد هَضْبَةً تقيك إذا نَحَوْتَهَا وَعَلَوْتَهَا، فانخلع من صفاتك^(٣) التي قد عادت عليك وبالأ، وأورثتك حيرة وخبالاً. ولقد أجاد من فسر هذا المراد بظاهر من القول يزكو في نفس المستمع إذا كان لنفسه نصيحاً وكان في سعيه نجيحاً، حين قال:

وإذا جهلتَ فلم تجد خَبَرًا	فَسَلِ الزمانَ فعنده الخبَرُ
وإذا نظرتَ تريد مُعْتَبَرًا	انظر إليك ففِيكَ مُعْتَبَرُ
أنت الذي لا شيء منه له	وأحقُّ منك بما لك القَدَرُ
صُورٌ خُلِقْنَ من التراب معًا	يبقى التراب وتذهب الصُّورُ

يا هذا! ما أجنحك^(٤) عن كل حظ لك في مسرتك، وما أجمحك على كل حال هي عليك في مضرّتك! فيا أيها الحاسي سَمّة بيده، ويا أيها الساعي على نفسه بحتفه! إلى متى تغترّ وأنت تظن أنك غير مغترّ؟ إلى متى تُدبِر وأنت عندك أنك مُقبِل؟ وإلى متى

(١) كذا، ولعل أصلها: فيا له.

(٢) أثارة: ما بقي من الشيء أو من أصوله، وفي التنزيل الكريم: ﴿أَتَتَوَكَّلُ عَلَى كَيْفٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَتَنَزَّلُ مِنْ عِلْمٍ﴾

[الأحقاف: ٤]

(٤) جنح: حاد عن الطريق السوي.

(٣) في د: حماتك.

تُصَمُّ وأنت في حسابك أنك تَسْمَع؟ وإلى متى تَعْمَى وفي تقديرك أنك مُبْصِر؟ وإلى متى تحسب أنك رابح وأنت عين الخاسر؟ تقول: خُذْ يومك، وانتَهزْ لذتك، وبادر ساعتك، ومِلْ^(١) إلى إرادتك، وابلغ آخر ما في نفسك، فإنك ميت عن قليل، وهالك في أول الرعيل. صدقت يا جاهل في قبلك^(٢)، فالآن وجب النظر فيما بعد هذا الحديث. فليست الغمارة^(٣) إلا في هذه الغرارة^(٤)، ولا ترك الحَزْم إلا في تقديم هذا العزم، ولا انعقد البوار إلا في هذا البدار، ولا الدمار إلا على هذا الغرار.

أرجع فأقول: لعل عذرك مقبول، فإن النفس أمارة بالسوء، والشياطين مستحوذة بالكيد، وقرين السوء متسلط. [٥٢ب] فالإلْف والعادة جارية على سَنَنِها، والإرادة جادة على عَنَنِها، والمعالجة عارضة يَفْتِنُها. فأين تجدك أو أين نجدك؟ ذهبت والله قبل أن جِئْتَ، وهلكت قبل أن سلمت، وبطلت قبل أن حُقِّقْتَ، وبِدْتَ قبل أن كنت، وفُقدت قبل أن وُجدت، واعوججت قبل أن استقيمت، وهبطت قبل أن علوت، وثكلت قبل أن مُتَّعت، وغبت قبل أن شهدت، وعُزِلْتَ قبل أن وليت، وأمست قبل أن أصبحت.

فيا أيها الجاني على نفسه، الجاري في يومه على حكم أمسه! أما تظن أنك مبعوث، وعلى البعث محثوث؟ هذا إن لم تعلم باليقين. أن الظن ربما نفع، وربما حمل على الاستطهار وأمتع. فما لي أَدْعوك وأنت نافر؟ لعلك عند الله في حكم كافر. ولم أقطع زمانك بك من غير جدوى تنطق بفلاحك ورجعتك؟ ها هنا وصية، فيها لك نصيحة وفيّة، فتقبلها عاملاً بها بعد أن تقف عليها عاقلاً بما فيها، غير مُدَاجٍ^(٥) لنفسك، ولا خادع لها عن حظك - كما قال الأوّل^(٦):

اسْتُرْ بِصَبْرِ خَلِّكَ والبَسْ عَلَيْهِ سَمْلَكَ^(٧)
وَكُلْ هَزِيلِكَ عَلَى _____ راحة واشْرَبْ وَشَلَّكَ^(٨)

(١) في ع: ونِلْ.

(٣) غَمَارَةٌ رجل: جهله وعدم خبرته.

(٥) داجه: داراه بالعداوة، ولم يكشفه بها.

(٧) السَّمْل: الخَلْق البالي.

(٢) قبلك: قولك.

(٤) الغَرَارَة: الغفلة.

(٦) هذه الأبيات وردت في أمالي القاضي ٢/ ٢٢٩.

(٨) الوَشَل: الماء القليل.

إِذَا اعْتَرَتْكَ فَاقْسَمُ	فَارْحَلْ بِرَفْقٍ جَمَلًا
وَارْغَبْ إِلَى اللَّهِ وَنُطْ	بِمَا لَدَيْهِ عَمَلًا ^(١)
وَأَخِ فِي اللَّهِ وَصِلْ	فِي دِينِهِ مَنْ وَصَلَكَ
رِزْقَكَ يَأْتِيكَ إِلَى	حِينَ تُلَاقِي أَجَلَكَ
مَالُكَ مَا قَدَّمْتَهُ	وَلَيْسَ مَا بَعْدَكَ لَكَ
وَلِلزَّمَانِ أَكْلُهُ	إِذَا اشْتَهَاها أَكَلًا
وَلِلرَّذَى قُوسٌ فَإِنْ	رَمَاكَ عَنْهَا قَتَلَا
يَا رَبِّ إِنِّي رَاغِبٌ	أَدْعُو وَأَرْجُو نَفْلًا ^(٢)
أَنْتَ خَفِيٌّ ^(٣) لَمْ تُخَبِّ	دَعْوَةَ رَاجٍ أَمَلًا
فَأَعْطِنِي مِنْ سَعَةٍ	يَا مَنْ تَعَالَى فَمَلَا
سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ! مَا	أَجَلٌ عِنْدِي مِثْلُكَ!

أما تراني يا هذا كيف أداريك بالرفق، وأواريك بالحق؟ أدعوك بالنشر إلى أن تنتشر عما قد زيفك وأفسدك، ثم أعطف عليك بالنظم إلى ما قد شرفك [٥٣أ] ورفعك. ولا تعجب من فراغي لك فإنني موكل بك من قبل من هو أملك بي وبك، فلعلك إذا أجبت ندائي، وفهمت دعائي، درجت معك، وسلكت منهجك، وتحليت بحليتك؛ فإنني من حيث أناديك مجاب، وأنت من حيث تجيب مُنادي. فإذا التأمت الكلمة والكلمة بالدعاء والإجابة، صار الداعي مجيباً، والمجيب داعياً. وإذا صححت هذه الإشارة كنت أنا القائل وأنا السامع، وكنت إياي في هذا الذكر الجامع. فبادر بدار الكيس لتستريح، وتأن تأني المتنفس لتستريح، فالخير كله أمامك - وأنت تجد ما أقول حقاً إذا شهدت مقامك.

اللهم زدنا طمأنينةً إلى ذكرك، وزدنا خوفاً من مكرك، واغمسنا في بحر نعمتك

(٢) النَّفْل: الهبة.

(١) في رواية الأماي: أملك.

(٣) الحفي: العارف الشيء حق معرفته.

وشكرك، واعلننا بعد النَّهْلِ^(١) من حبك، ولا تَغُرَّنَا بخلقك في خلقك، وصلنا بتأييدك في معرفتك ووصفك، واقطع بيننا وبين العادلين^(٢) بك والشَّاكِّين فيك والناكثين لعهدك والمكذِّبين بوعدك. وصافحنا بيدك، وكافحنا^(٣) بوجهك، وقَدَّسنا بنورك، وحَلَّنَا بشعار مَرْضَاتك، وعَلَّنَا إلى معادن كرامتك، وهيَّمنَا^(٤) في الوجد بك، وغَلَّب علينا التوكل عليك، وألهمنا الانتساب إليك، وكن حافظنا بقدرتك، ومحموظنا بتأييدك. وقبل هذا كله فَأَنسِنَا- يا ربنا- خَلْقَكَ، فقد أَشْجَوْنَا فيك، وكذَّبُونَا في وصفك لك، وأَجْلَبُوا^(٥) علينا بسببك، ورمونا عن قوس واحدة لاعتزازنا بك، فاكفناهم كيف شئت، وأَرَحْنَا منهم كيف أردت، فما لنا عيشٌ إلا معك، ولا لنا مأوى إلا عندك، يا إله الخلق أجمعين!

قد تجشمت لك- متبرعاً- هذه النصائح، فتجشم لنفسك- متسرعاً- إلى القبول، فإنك بذلك أحطى مني، ودع عنك الهَوَيْنَا فإنها مَدَحَصَّة لكل قدم، ومَعَثرة لكل خابط، وَمَهْوَاة [٥٣ب] لكل جهول، ولا يغرنك ما يواتيك من حظوظك التي يغبطك عليها بنو الدنيا، فإن ذلك إلى اضمحلال. فاجتهد في استبانة أمرك، وتعرَّف خاصة ما يعينك، وزَجَّ يومك بما طفَّ^(٦) وكفَّ، واعمل على أنك عابر سبيل وقافي دليل، فإنك إن لم تفعل ذلك هلكت، وإذا هلكت فقد فُتَّ (به)، ولو انكسرت لرجونا لك الانجبار، ولو افتقرت لطمعنا^(٧) لك في اليسار، ولو ضللت لتعبنا لك في الإرشاد. فأما إذا هلكت وفُتَّ، فَمَنْ لنا بك وَمَنْ لك بنفسك!

هيهات! ذلك أمر قد خرج عن مُسْتَطَاع غير مُسْتَطَاع البشر^(٨)، وزَلَّ عن حيلة ذوي الحيل، واليوم أنت حاضر ولك السمع والبصر، وأنت بحمد الله على خطر، فلا عُدْرَ، فابذُر واحرُث واسقِ وحافظ. فعن قليل إذا حال الحَوْلُ أُنَاكَ أوان الحَصَاد، فحينئذ تُسَرُّ

(١) النهل: الشرب الأول. وشرب عَلَلًا: شرب ثانية أو تَبَاعًا بعد الشرب الأول.

(٢) عَدَل فلان برَّه: أشرك. (٣) الكفاح: المواجهة.

(٤) هيَّمه الوجد: جعله ذا هُيام. (٥) أجلب القوم: تجمعوا من كل وجه للحرب.

(٦) طفَّ منه الشيء: دنا، يعني ما دنا منك وأغناك عن الناس. (٧) في ر: لطمعنا.

(٨) وقع الناسخ هنا في اضطراب فكرر «مستطاع» والصواب: «خرج عن مستطاع البشر».

وتبتهج، وتعلم أنك قد أصبت فائدة ما كنت به تلهج.

أما أني لو عقلت أمري، لما أعرضت عن أسوي لجرحي إلى الشغل بك، والإشبال^(١) عليك. وما عليّ منك؟ والله لو نجوت ما كان ذلك ناعفي، ولو نشبت ما كان ذاك ضائري: كل شاة برجلها تَناط^(٢)، وكل حَرَم فبعرّة يحاط.

أنا والله في أمر لا يُنادى وليده، ولا يرجى جهيده، ولا تُنشد ضالّته، ولا تؤمن غائلته، لأنني مع طيٍّ مستور بيقين، وضمير محشو بفتون، وقلب مقلّب على فنون، إن نسبت من خبري بحرف، سُقيت كأس حتف. فلا جرَم كلامي كله كناية، وإشاراتي كلها مُدْمَجَة، وبياني من أوله إلى آخره فهاهة، والتُّهْمَة عليّ مشتملة، والآفة بي محيطة، والبال قلق، والجو أَكْلَف^(٣)، والسر أغلف، وأنا أهرِف بما أعرف وبما لا أعرف.

اللهم إليك أشكو ما نزل بي منك، وإياك أسأل أن تعطف عليّ برحمتك. فقد وَحَقَّ شددت الوثاق، وضيقت الخناق، وأقمت الحرب بيني وبينك. [٥٤أ] فبحقك وبعزّتك إلا أرخيت وتغمدت، وأحسنّت وتفضلت، فقد كدنا نحكي عنك ما يُبعدنا منك. ولو حكينا ذلك لكان في حلمك ما يسعنا^(٤)؛ ولكننا نخاف خلّك الجاهلين بك فإنهم يضيقون عما تسع، ويجهلون ما تعلم، ويُبخلون ما تجود، ويُغصّون^(٥) بما تسيع.

يا هذا! طهر نفسك من الحُرقة على فائت الدنيا، وقَدّس نفسك من الأسف على ما لم ترزق في الأولى، وتطامن لحكم الحق وإن شَقَّ عليك، فإن ذلك أنهض بك وأشد لاستقلالك. وانظّم بدد^(٦) همّك في سلّك نزاهتك، وانثُر عن كاهلك كلّ ما أثقلك في مقصدك، وكُنْ لنفسك بنفسك تجد أنسك في أنسك. وإياك و«لو» فإنها مرّلة. وإياك و«لعل»، فإنها مغلقة. وإياك والتمني، فإنه^(٧) مقلقة. وإياك والهوى فإنه مغلقة. وإياك

(١) الإشبال: العطف والرعاية.

(٢) النوط: التعليق، أي كل جانٍ يؤخذ بجنايته. قال الأصمعي: أي لا ينبغي لأحد أن يأخذ بالذنب غير المذنب. (مجمع الأمثال للميداني ج٢).

(٣) الأكلف: الذي تعلوه حمرة كدرة - يقصد مكفهر. (٤) في (ر): يسعك.

(٥) غَصَّ يَغْصُ بالطعام والماء: اعترض في حلقه فمنعه التنفس والبلع.

(٦) البَدْدُ: الطاقة. (٧) في (ر): فإنها.

والتهمة، فإنها مَغْرَقَة. وعليك بالفكر الصحيح، والرأي الصريح، والصاحب النصيح، فإنك بهذا وأشباهه تنعم سرًّا وجهراً، وتملك بطناً وظهراً. ومهما شككت فلا تُشكَّ في رحيلك عن هذا المكان إلى ذلك المَعان^(١). فاجْهَدْ أن تكون مقبُولاً لا مردوداً، ومجموعاً لا مُفَرَّقاً، وعَبَقاً لا تَفَلاً^(٢)، وساطعاً لا كاسفاً، ومطمئناً لا حَرَجاً، ووثاقاً لا مَتَهماً، ومُسَلِّماً لا مُعْتَرِضاً، وباقيّاً لا منقرضاً.

قرن الله جَهْدَكَ بالتوفيق، وعصمك بالحياطة، وهداك بالحق إلى الحق - والسلام.

رسالة (١٨)

الحمد لله الفرد الذي عَنَت له الوجوه، وحارت في كنهه الأبواب، وطاعت لأمره المَعاسِر، واستتبَّ على إرادته المياسر.

يا هذا! قَدِّم إلى حَضْرِي^(٣) شخصك، وأُخِر عن فهم مقالتي نَقْصَك، وقَرِّب أذنك، وفَرِّغ بالك، وحَصِّل عقلك، ومَكِّن قلبك [٥٤ب]، واستوقف حِسَّك، واحفظ باليقظة نفسك، واعصِ طبعك، وانسِ رفعك وَوَضْعَك، واعْرِفِ الحق فيما أُنبِذُ إليك، فقد أرسلتُ القلم، وقلتُ ما سَنَحَ غير منقبض ولا محتشم، ولا متحمَّد ولا مُتَدَمِّم. واعلم أن سوابق زفرتي في الحال من دفين وجدي به، وبوادر عَبرتي عليه من مكين شوقي إليه، وثوابت كَمَدِي معه من ملاهب أسفي على ما يفوتني منه. فلهذا لانصاف^(٤) عندي ولا عدل، ولا لوم عليه ولا عدل. وقتٌ ينفُض ما أودعه الحق من أحكام قدرته، شاهداً بآثار حكمته، والثقلان تحت الملكة بحسن السياسة والإبالة^(٥)، وفي نجوة من الهلكة بجميل الحراسة والإيالة، لا مُبَدِّل لآياته ولا مُعَقِّب لكلماته وهو الحق المبين، الفعال لما يشاء، المصَرِّف على ما يريد. يُفَرِّق والسر فيه تأليف، ويَجْمَع والحكم فيه تفريق. عجبٌ

(١) المَعان: المنزل - ويقصد به هنا: الآخرة. (٢) تَقَلَّ الرجلُ تَفَلاً: ترك الطيبَ فتغيرت رائحته.

(٣) في (د): حَضْرَنِي. (٤) هكذا في الأصل! ولعلها: لا إنصاف.

(٥) الإبالة: حسن السياسة في المال وغيره.

ينفرد به، ولطيفةٌ لا توجد إلا منه، وأمر لا يمضيه غيره، وحكم لا يقضيه سواه. هنالك لا مجال للعقل، ولا مسرى للوهم، ولا ثمرة للتحصيل، ولا فائدة في البحث، ولا غاية للطلب. حارت الأبصار عنه كلاً، وزاغت البصائر فيه تيهًا وجلالًا. المستأنس به على خطر، والمستدرج عنده هالك، والذاكر له غافل. بلى! سلّ لطفه، واطلب عطفه، فإنه إن رأى فقرَكَ رحمك، وإن شهد أَوَدَكَ قَوَمَكَ، وإن شاهد تضاولَكَ عَظَمَكَ، وإن رأى حاجتك وفاقتك سَوَمَكَ^(١). وإياك والاعتراض عليه أو التعرض له، فإنه متى شهد ذلك منك سامك خسفًا، ونسفك نسفًا، وقشرك قشرًا، ووشرك وشرًا^(٢). اعتقد محبته ولا تُبْدها: لا مصرحًا بها ولا كانيًا عنها، لأنك إن أبديتها مزجتها، والمزج كدر، وإن كتمتها صُتْها والصون صفو. واشهد آلاءه راعيًا لحقه فيها بالشكر، فإنه لا يستر عليك حقه حتى ترعى حقك. ثم يعينك على المطالب، ولا يستدعيك إلى ماله حتى يوفر عليك مالك [٥٥أ]، ثم يفسح لك في المَقْصِد. لطائفه تجلُّ مضافة إلى الخلق، وعظائم الخلق تَقَلُّ مردودة إلى موجبات الحق، لأن الأولى شائعة بالكمال، ناطقة بالتمام، شاهدة داعية إلى الإخلاص؛ والثانية واقعة على درجات النقص، مغمورة بأسباب التقصير. وهذا تميز بلفظ مستعار ومجاز مستعمل وقول ضعيف؛ وإلا فالآية ظاهرةً بسلطانها، عالية ببرهانها، راجعة إلى رَوْح اليقين من العارفين، وسلامة التسليم من المريرين.

وفى الله الجميع وجعلك منهم، ولا أفردني عنك، وأنطقك بلسان آلائه، وحرسك بعين ولأئه، وثبتك على مناهج صَفَائِهِ. فوحدك ما استرسلت هذا الاسترسال ولا خليت عنان القول على هذا المقال، إلا لأنني ناجيت بك نفسي، وجبرت بما وهب الله لك نقصي. ولم أقصد ظلمك، ولا استشرت^(٣) علمك، ولا أدميت كَلَمَكَ^(٤)؛ فإنه ليس يخفى عليك من هذه العبارة إلا ما تجده في باب الإشارة. فلا عليك، ولا بأس بك. ثق بالله، واسكنُ إليه، وتولَّه فيه، واعتمد عليه، واستكن^(٥) له، واطلب المزيد لديه: فلأن يُصَيِّبك هو خيرٌ من أن ينعمك سواه.

(٣) د: استنزرت.

(٢) وشر: قطع.

(١) سَوَمَكَ: حكمك في المال.

(٥) في (د): واسكن.

(٤) الكَلَم: الجرح.

واعلم أنني شاهدك وإن كنت غائبًا عنك، وواجدك وإن كنت طالبًا لك، لأنني لم أفقد منك إلا مراسم الإحساس التي تتصرف بها عين الرأس. فأما المعنى الذي به أكاتبك منبسطًا، [فـ] هو الذي به أنقبض عنك مُستجيبًا. فأسكتُ عما تقلبتُ فيه بعدك من أحوال لا تخص بلفظ، ولا تحصل بحفظ، فالسكوت عنها أحلى، والإقبال على غيرها أولى. ألسْتَ سالمًا في نفسك، معافى في بدنك؟ فقد ترقى إليَّ ما أشركني معك في الألم، وشبهني بك في السقم. ألسْتَ جامعًا لأطرافك، مقبلًا على شأنك، فقيرًا إلى فقير يطلع عليك، مفضلًا على فاضل ينقطع إليك. فإن كنت كذلك، فأنت بحمد الله كذلك [٥٥ ب].

فحمل أبا فلان من ثقل سلامي ما يطوّحه، لا بل لَقَّه^(١) من طيب كلامي ما يروّحه. فقد أفرط عليّ في محبته؛ فأنا والله مقصّر في أداء لوازم حقه. ولا تتعرّض لأبي فلان! فذاك ألصقُ بكبدي، وأعرق في كمدي، من أن تكون رسولي إليه، وأقرب إلى سرّي، وأقدر على نفعي وضريّ، من أن تكون دليلي عليه. بلغه الله سُؤله ومنحه مأموله. ولستُ أدري بأي شيء أفرّد فلانًا، فقد ورث منه حسرة لا تفيء لي بها نعمة، وإن شاء الله ردّني إليه وزودني من آثار فضله، وهو القادر إذا أحبّ ذلك. وإياك بعد هذا أن تُطيف بفلان، فلي معه خطوب: تركني يا سيدي مشغول القلب به، عاشقًا لفضله، وأعاني على مفارقتها بانقباضه. ولو لزمني لأفدته، ولو جَزَم عليّ لخدمته، فما رأيت مثله زاده الله ولا نقصه. وفلان لا يفوتنك السلامُ عليه، فقد أولاني من جميل ذكره ما الله مكافئته. وبعد أن تخصّ هؤلاء فاعممُ بأجمل تحيةٍ سائر ذوي الفضل من الصوفية، فإنهم ملوك الدنيا وسادة الآخرة. ولست أدري كيف الوجه في تسليمته خفيفة على فلان؛ والاختبار والاختيار في ذلك إليك، فإنني فارقته مستوحشًا منه، متعجبًا من أخلاقه، حزينًا على عقله، لأنني وجدته تاركًا لأحكام المروءة، جاهلًا بحقوق الدعوى، شديد العُجب بما هو عليه. وله من قلبي مكانة من السنّ والعقل، والعلم والفضل، والرياسة والإشارة. وما أدفعه دَفْعَ زاهد فيه، ولا أطلبه طَلَبَ من لا غنى به عنه. ولقد نشرتُ على فلان أحواله، وصوّرت له أموره، فبقي

(١) لَقَّى فلانًا الشيء: طرحه إليه.

مبهوتاً، وقال فيما قال: أعمى الله عيناً لا تَقَرُّ بك، ولا صان نفساً لا تُقَرِّ بفضلِكَ. وهذا كلام لو افْتُدِّي به ما تحويه يده ويفيده يومه وغده، كان هو الرابع الغانم. وإذا أبى فهو الخاسر الغارم. وما قصدت بهذا تهجينه، فهو شيخ له حق وعليه حقوق. ولكن قصدت تنبيهك على الواجب [٥٦أ]، فإن تفصيل الأشياء واجب بحكم الرسم وقضية الشاهد. فأما إذا صَحَّت الولاية، ودامت الغلبة^(١)، وَسَطَعَ نورُ الحق، وَسَطَا سلطانُ القدرة، فحينئذ المعذرة مبسوطة، والحال في تلونها مغبوبة، لأنها بأطراف الحقيقة منوطة، وبعين الحق محوطة. دَعْ ذا، واقبل مني كلمة واحدة: لا تسكنْ إلى الدنيا فإنها وَحْشَةٌ، والقلوب فيها مستوحِشَةٌ.

أستغفر الله إلا من محبتكم^(٢)

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ما صَحَبَ ليلَ نهاراً، أو أرسلت السماء مدراراً. يا هذا! اسمع وَصُفِّي لحالٍ ملتحمة. النظام والله محمود. ويعزّ عليّ أن أقنع بالوصف دون المشافهة، محتجاً ثمرة الأُنس بك، مقتبساً غرر الفوائد منك، مجدداً عهد المودة معك. وليست هاهنا معذرة: لي أن أستند إليها ولك أن تعتمد عليها، إلا مالك^(٣) القضاء وحاجزَ القدر وسبباً من الأسباب الإلهية وسراً من الأسرار التي تجري بها المشيئة.

وبقي بعد هذه الخطبة أن أقرع باب التسليم، وأفرع في أضعاف ذلك إلى من له الأمر القويم، فلعله يسهّل ويسر ما قد طال الشوق إليه، وتضاعف الأسف عليه. ولو ذكرتُ النزاع، وأدّعت الحنين، وَصُلْتُ بالصباغة، وتأهبت بالاشتياق - لَعَلَّني غبارُ التملق، وَحَصَرَ لساني فرطُ العيِّ، وكان قُصاراي التقصير، ووقف أمري على العجز والقصور. ولأنّ أستشهد ضميرك المرضي، والشاهد الزكيّ، والمخبر الصادق، والمبلّغ المبين، خيرٌ لي وأليق بي، وأجدى عليّ، من أن أتعاطى نمطاً أفتضح به، وأركب طريقاً أعر فيه، وأباري من

(١) قرئت في د: الغاية.

(٢) شطر بيت لعباس بن الأحنف وتماحه:

فإنها حسناتي يومَ القاء

أستغفر الله إلا من محبتكم

(٣) في (د): مانع.

انقطع دونه. على أن شوقي إلى محاسن فضلك، وغرائب علمك، وظواهر خلقك، وبدائع فطنتك، وروائع حلمك وبدائه [٥٦ب] حججك، شوقُ الفاقِدِ لواحدِها. وإلى الله المرجع، وإليه المعتمد في فتح أبواب الأنس وبَلِّ غُلِّ النفس. وما أحوَجني إلى جسارة بانبساط يرخص لي معك في التصرف، وينيح البلاغة على طريق التصوف. فقد اغترفتُ من بحرك ما يسع من ينازعني في أمرك، وبزاحمني في ذكرك، فإنك بحمد الله مشتمل على شأن عظيم، ومحيط بسر مكتوم. يلزم من قد هبَّت عليه ريحك وفاحت عليه رائحتك أن يلزم فناءك، ويعتقد ولاءك، ويجري على سنن مرضاتك، مجتهداً في بلوغ مَسَعاتك. وهيهات أن تُنال المعاني بالأمانى والتواني. بلى! إن هذا الحق [جاد] ^(١) بمواد الصدق، وبثِّ المواهب من عين الإفضال ببوادي التفضل على غير اقتضاء لتحقيق الشكر، ولا تصفح لعواقب الصبر. فلعمري إنه ليحلو العشق، ويطيب الحديث، وتحمد المقالة، ويحسن الذكر، وينشر لسان الصدق في الآخرين، ويَحِقُّ الأخذ بهدي الأولين. فأما والحاجة تلزم، والفاقة تعم، والضرورة ترد، والشهوة تغلب، والشبهة تستحكم، فالقول تمويه، والرأي معكوس، والشكر تملق، والصبر علة، والابتداء غرور، والعاقبة نور، والكل أسف، والجميع لهف. والناس رجال: فَرَجُلٌ - مع أحكام إلفه وغوالب عاداته - لا يرفع على نفسه ولا يُمكنُ المواعظ من سماعه؛ ورجل وقف بين الأمور محاسباً، فطال حسابه، وضاق جنباه، فخلطَ ورجى وتمنى؛ ورجل اذكر واعتبر، فبكى واستعبر، وقال وحَسَّر، ثم سكت وتحسَّر.

جَفَّ ^(٢) - أثار الله صدرَك - القلم، وفني القرطاس، وحَصَرَ ^(٣) اللسان، وما في النفس من طيب محادثتك يتدفق كالعين الفؤارة والسحائب المَوَّارة. عليك سلام الله ما اقترن مساءً بصباح واتصل ضياءٌ بمصباح، وعلى من [٥٧أ] يليك ويواليك قدر تهالكه فيك، ورحمته وبركاته.

(١) زيادة ضرورية لتمام المعنى.

(٣) حصر اللسان: أصابه عَيٌّ.

(٢) في (ع): حَفِيَّ.

يا هذا! اسمع بأفة أخرى: الهوى مَرَكَبِي، والهُدَى مَطْلَبِي، فلا أنا أنزل عن مَرَكَبِي، ولا أنا أصل إلى مطلبِي. ولعل انقطاعي عن مطلبِي إنما هو لاعتلاقي بمركبي، بل هو كذاك وفوق ذاك: علم يَصْحُحُ بكل بيان، وحجة تَضَحُّ في كل أوان، وأنا بينهما مأخوذ عن حقيقة الخبر بتمويه العبارة.

وإذا سمعت خطابي، وفهمت عتابي، فمتعني بإرشادك لي، وزودني مما أفاء الله عليك، ولعلّ دواءك يقع على دائي، فأنتخلص قليلاً من نفسي التي قد صادقت الشيطان، وهوت في غروره عند كل أمر وشان؛ وإلا فَتَحْ عَلَيَّ باكيًا، فقد جاء من أمر الله ما لا مَرَدَّ له، وأظَلَّ من قدرته ما لا قَبَلَ لأحد به. ومتى أرشدتني بعد طمعك فيّ، أو نُحِتَ عليّ بعد بأسك مني، فقد قضيتَ حقَّ الأخوة، وبُنَتْ بين معارفك بفضل المزية.

بالله! أما ترى شجوي في كلامي؟ أما ترحمني لما بي من غرامي؟ أما تعجب من حَيَرْتِي من خلفي وأمامي؟ أما تقودني إلى كرامتي وسلامتي بخطامي وزمامي؟ أسألك بحق الحقِّ إلَّا جُدْتَ عَلَيَّ بما استطعت من ذلك، فما فزَعْتُ إِيكَ إلَّا أَنْ صَفَرْتَ يدي مني، وإلا بعد أن انقطع رجائي من علمي وظني، وإلا بعد أن خانني ابتلائي بأني وأني. وَمَنْ فَرَعَ إِيكَ خَلِيقٌ بَأَنْ يَنَالَ بُغْيَتَهُ عَلَى يَدَيْكَ، وَأَنْتَ الْجَوَادُ بِالْحَقِّ، الْمَعْتَادُ لِلصَّدَقِ.

اللهم لا تجعل خطابي لبعض خَلْقِكَ حجابًا، فوحقك ما أفعل ذلك إلَّا منافسة بك، وإلا استهداءً إِيكَ، وإلا عشقًا لحلاوة ذكرك، وإلا ظهورًا بِسِمَةِ من سِمَاتِ حِكْمَتِكَ، وإلا تحليًا بما زان عند ملائكتك، وإلا شوقًا لحيازة المكانة عندك. فَرُبَّ كَلِمَةٍ لَكَ نَافِعَةٌ عندهم، وَرُبَّ صِفَةٍ لَكَ شَرِيفَةٌ بينهم، وَرُبَّ حِكْمَةٍ بِالْغَةِ لَكَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، [٥٧هـ] وَرُبَّ فَضِيلَةٍ مُسْتَمْلَاةٍ مِنْ أَحَدِهِمْ. ولولا هذه المعاني والوجوه، ما الذي كُنْتُ أَرْجُو مِنْهُمْ إِذَا شَافَهُتَهُمْ، وَمَاذَا كُنْتُ أَتَوَقَّعُ عَنْهُمْ إِذَا سَأَلْتَهُمْ؟ إِنَّمَا أَخَاطِبُهُمْ مِنْ أَجْلِكَ، وَإِنَّمَا أَسْأَلُهُمْ بِسَبَبِكَ، وَإِنَّمَا أَسْتَمِشُّهُمْ^(١) لِأَجْلِي عَلَيْكَ، وَإِنَّمَا أَتَقَرَّبُ إِلَيْهِمْ لِأَقْرَبِ مِنْكَ. ولولا أنت،

(١) الْمَشْطُ: (بافتح) الخلط؛ يُقَالُ: مَشَطَ بَيْنَ الْمَاءِ وَاللَّبَنِ. ويقصد: يخالطهم.

ما كان لهم في عيني خطر، ولا لهم في نفسي وطر. أنت المراد وأنت المطلوب، وأنت المقصد وأنت المحبوب، يا ذا الجلال والإكرام!

يا هذا! كُنْ ذاكراً لما قد أَلْقَيْتَهُ إِلَيْكَ في هذا الجزء من وصف العبارة والإشارة، فإنك تجد به ما يُقَلِّكُ إذا نهضت ويُظِلُّكُ إذا ضَحَيْتَ^(١). ومهما لاح منك أو لاح لك فيك أو لاح لك عليك، فإياك أن تَسْهُو عن قلبه وتقليبه حتى يتبين لك ما أنت له مما أنت عليه. واجعل أساسك الأثبت ودعامتك الأرسخ ألا تكذب نفسك بالباطل، ولا تكذبها في الحق، واجتهد أن تخلو من أشغالك. وإذا خلوت من أشغالك، فاعطف على نفسك واخُلْ بها. وإذا خلوت بها، فاعلم أن رقيب الحق ناظرٌ إليك ومُرفِفٌ فوقك، وأنت بعينه التي لا تنام، وفي قبضته التي لا ترام، وحرمة الذي لا يُضام.

اللَّهُمَّ إِنَّكَ جَوَلْتَنَا فِي آفَاقٍ مُلْكِكَ؛ وَأَنْطَقْتَنَا بِلِسَانٍ قَدْرَتِكَ؛ وَأَدْرَجْتَنَا بِضَعْفِنَا فِي قُوَّتِكَ؛ وَأَسَكَنْتَنَا عِنْدَ مَشَاهِدَةِ عَظَمَتِكَ؛ وَحُلْتَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَمْرِكَ وَنَهْيِكَ بِسَوَابِقِ عِلْمِكَ وَمَشِيئَتِكَ، وَجَمَعْتَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَرَادِكَ بِغَالِبِ قَضَائِكَ وَلاَزِمِ حِجَّتِكَ. اللَّهُمَّ فَكَمَا مَلَكْتَنَا فَارْفُقْ بِنَا، وَإِذَا رَفَقْتَ بِنَا فَأَعْتَقْنَا، وَإِذَا أَعْتَقْتَنَا فَاقْبَلْنَا، وَإِذَا قَبَلْتَنَا فَكُنْ لَنَا، وَإِذَا كُنْتَ لَنَا فَكُنْ معنا، وَإِذَا كُنْتَ معنا فَأَنْتَ أَنْتَ يَا وَلِيَّ الْحَمْد!

اللهم إياك نقصد بآمالنا، وعليك نشي بصنوف أقوالنا، ورضوانك نبتغي بأعمالنا، وإليك نرجع في اختلاف أحوالنا، [٥٨] وعليك نلج في طلبنا وسؤالنا؛ لأنك لكل راج ملاذ، ولكل خائف معاذ، ندعوك دعاء المضطرين، ونتعرض لك تعرض المُعْتَرِّين^(٢).



(١) ضَحَى الرجلُ: برز للشمس، أصابه حر الشمس.

(٢) المُعْتَرِّ: الفقير يتعرض للمسألة دون أن يسأل، وفي القرآن الكريم: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦].

رسالة (١٩)

يا هذا! قف عليّ قليلاً واعتبر فيّ طويلاً. ثم إن كان في أخلاقك طهارة، ولك في إثثار الحسنى بطانة وظهارة^(١)، فتعطف عليّ برقة من قلبك، ورحمة من نفسك، فقد أصبحت مغتوتاً^(٢) في كل ركية^(٣)، ومفتوناً بكل ثنية^(٤)، ومطروداً عن كل منهل، ومحدوداً بين كل سهل وجبل. إن رمقت رُشقت، وإن تطاولت قُمعت، وإن سكّ شُنعت^(٥)، وإن نطقت كذبت:

وما مَرَّ بي بالصبر مَنْ ليس وَجْدُهُ كوجدِي، ولا إعلانٌ حالي كحالهِ^(٦)
فإن أَفقد العيشَ الذي فات باللوى فَقَدْما فَقدتُ الظلَّ عند انتقالهِ
سهوٌ قد غمرني، وحالٌ قد حال بيني وبينِي، وغفلةٌ أتت على زَمِّي^(٧) وحِلِّي، وغائب
طالت غيبته عني، وحاضر نال مناله مني، فلا وعده جالبٌ لي فرحاً، ولا وعيده صارفٌ عني
ترحاً^(٨)، ولا سراره مُهدٍ إليّ رَوْحاً، ولا جهاره ممسكٌ دوني نوحاً، ولا مداراتي نافعة، ولا
مماراتي دافعة، ولا صبري عائد بالجدوى، ولا جَزَعي ناقصٌ من البلوى. حَسرةٌ راکدة بين
الجوانح، وفترةٌ جامدة بين الجوارح، وعبرةٌ واكفةٌ على الجيب بالحسرات، وعبرةٌ واقفةٌ في
القلب من الجمرات. وما لي ملاذٌ بالذي أبلى، ولا أسأل العافية إلا من قد أطال الضنى. هو
مالِكُ الظل إن شاء قلّص وإن شاء أسبغ، وهو العالم بالحال إن شاء قطع، وإن شاء بلغ.

صبراً على النائبات صبراً ما صنع الله فهو خير

(١) البطانة: ما يُبطن به الثوب وغيره من الداخل. والظهارة، وهي خلاف البطانة: أي ما يظهر للعين ولا يلي الجسد، والمعنى: لك حظ مكتمل من إثثار الحسنى لا يختلف فيه ظاهره عن باطنه.

(٢) مغتوتاً: مغموساً أو غائصاً، من الفعل غَتَّ.

(٣) الركية: البثر ذات الماء.

(٤) ثنية: طريق في الجبل. والمعنى: مُضَلَّلاً في كل وادٍ وطريق.

(٥) شُنعت: شُتِمَ وفُضِحَ.

(٦) الشعر للبحري (انظر ديوانه ١٦٢٣).

(٧) أي زَم الرحال، والحل: أي الإقامة، أي أتت عليّ في الظعن وفي الإقامة. وفي (د) دقّ وجلّ، أي: ما دق من أمري وجلّ.

(٨) تَرَحّاً: همّاً أو حزناً.

يا هذا! ذرت^(١) الشمس بحقائق الوجد الطاعن من عَرَصَةٍ^(٢) القلب المقيم في ساحة الروح، فضاحت به الأرض بما رَحِبَتْ، [٥٨ب] واشترأت الأبصار نحو الغاية المصمودة^(٣)، فثابت خاسئة حَسِيرَةً لما دَهَمَهَا مِنْ عَزٍّ مَنْ لَهُ الْعَزَّ حَقًّا، وبيده ملكوت كل شيء عدلاً وصدقًا، وهو مُصَرِّفُ الْعَالَمِينَ نَقْضًا وَلَفْقًا، ومُظْهِرُ الْأَعْجَابِ رَتَقًا وَفَتْقًا. ربوبية لا تليق إلا به، وإلهية لا تنبغي إلا له، وقدرة لا تُسَلَّمُ إِلَّا إِلَيْهِ، وحكمة لا تصح إلا ممن له منزلة لديه.

يا هذا! اختلفت اللغات في تصاريف أحواله وفِعاله، وتشتَّتِ الهمم في غرائب ما بدا من إيضاحه وإشكاله، حتى قال قائل:

وَإِنِّي لَأَرْجُو قُرْبَكُمْ وَوَصَالَكُمْ وَلَكِنِّي عَمَّا أُرِيدُ بَعِيدٌ

إرادة مشوبة، وحال مختلفة، وعلامات مُتَّهَمَةٌ، وطمأنينة قلقة، ومعرفة مدخولة، ولغة عجماء، وعين طموح، ولفظ جريش^(٤)، وخُلُقٌ عَسِرٌ، وبال خائر، وقول كلما رام استنارة ازداد ظلامًا، وقلب كلما حاول خمودًا ازداد احتدامًا.

فَطُوبَى لِمَنْ هُوَ مِنْ هَذِهِ الشَّكِيَّةِ^(٥) فِي نَجْوَةٍ! وطوبى لمن إذا طلب وجد، وإذا لم يجد عُلِّلَ! وطوبى لمن إذا فقد سلا، وإذا عَدِمَ قَلَى^(٦)! بل طوبى لمن بوشر فؤاده ببرد اليقين، وحُلَى بحلية المتقين، وصين في خاصته عما عليه جميع العالمين! بل طوبى لمن نُفِثَ فِي رُوعِهِ الْأَمْنُ، وكُفِيَ فِي مَعَامِلَتِهِ الْغَبْنُ، وأَغْضَى عَمَّا عَلَيْهِ الْجَفْنُ! بل طوبى لمن إذا تنفس الصُّعْدَاءُ تَذَكَّرَ السُّعْدَاءَ، وإذا انتبه أبصر الضيَاءَ، وإذا رقد تخيل النجاء! هتفت الهواتفُ فحقت المخاوفُ، وبرقت البوارق فشرقت الشوارق، وسحت السحائب فتابت النوائب. حفيظة مذودة بالصبر والعزاء، وهمة مرفوعة عن الصفراء والبيضاء، ونفس آنفة من كل ما رآته العين وصادفه الحسّ، وحار فيه البصر، وأتى عليه الوصفُ، وانتهى به الحد.

(١) ذرت الشمس: برز قرنها.

(٢) العرصة: الساحة. وفي (ع) «غير صد» ولا وجه له من حيث المعنى.

(٣) المصمودة: المقصودة.

(٤) جَرَشَ القمح ونحوه: دقه دَقًّا غير ناعم، ورجل جريش: صارم. وهذا يوحى بمعنى الخشونة.

(٥) الشكية: الشكوى.

(٦) أي إذا افتقر كره الشيء المفتقر إليه.

يا هذا! أَطْلَقَ عِنَانَ هِمَّتِكَ فِي مِيدَانِ رَاحَتِكَ، وَاسْتَعْفَفَ فِي ظَاهِرِكَ، وَاسْتَشْرِفَ فِي بَاطِنِكَ، فَإِنَّكَ بِأَحَدِهِمَا تَكْسِبُ عِزُّوفاً، وَبِالْآخَرِ تَنَالُ مَعْرُوفاً. وَارْعَ حِمَى التَّوْحِيدِ، فَإِنَّهُ مَجُودٌ بِالْغَيْثِ الرَّبُوبِيِّ، وَتَيَقَّنْ بِأَنْ رَاعِي هَذَا الْحِمَى إِذَا سَمِنَ لَمْ يَهْزَلْ [٥٩أ]، وَإِذَا رَوِيَ لَمْ يَعْطَشْ، وَإِذَا اكْتَسَى لَمْ يَغَرَّ، وَإِذَا اسْتَظَلَ لَمْ يَضَحْ، وَإِذَا أُوْمِيَ لَمْ يُعَوِّرْ^(١). وَكَيْفَ يَكُونُ ذَاكَ، وَبَعْضُهُ مَدْرَجٌ فِي كُلِّهِ، وَكُلُّهُ مَدْمُجٌ فِي بَعْضِهِ؟ عَلَى أَنْ بَعْضُهُ كُلُّ بَعْضِ الْجَمْعِ، وَكُلُّهُ بَعْضٌ بَعْضِ التَّفْرِقَةِ. وَهَذِهِ صَحِيفَةٌ قَدْ طُوِيَتْ مِنْذُ زَمَانٍ؛ لِأَنَّ الْأَذْهَانَ غَلِظَتْ عَنْهُ، وَالْعُقُولَ خَاسَتْ^(٢) دُونَهُ، وَلَمْ يَزِدْهُ الْإِعْرَابُ إِلَّا عُجْمَةً، وَلَا الْإِنَارَةُ إِلَّا ظُلْمَةً، وَلَا التَّشْعِيبُ إِلَّا ثَلَمَةً، وَلَا الْكُشْفُ إِلَّا تَغْطِيَةً، وَلَا التَّبْصِيرُ إِلَّا تَعْمِيَةً. وَهَذَا لِأَنَّ الْحَقَّ غَارَ فِي هَذَا الْوَقْتِ أَنْ تَكُونَ أَسْرَارُهُ مَبْتَدَلَةً وَأَسْبَابُهُ مَتَحَلَّةً، وَلَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ تَدْبِيرٌ لَا يُحَاطَ بِهِ، وَلَا يُطَّلَعُ عَلَى غَيْبِهِ، وَإِنَّا نَطْقُنَا لِرَائِحَةِ بِهِ، عَبَقْنَا فَفَاحَتْ عَنَّا عَلَى غَيْرِنَا. فَأَمَّا الطَّيْبُ الَّذِي لَهُ هَذِهِ الرَّائِحَةُ فَهُوَ فِي صَدُورِ دُونِهَا وَعَوْر^(٣):

خَلِيلِيَّ قَدْ فَاتَ الْهُوَى غَيْرَ أَنَّنِي إِلَى الْمَيْثِ^(٤) مِنْ أَكْنَافِ رَمَّانٍ^(٥) نَازِعٌ
وَإِنِّي مَتَى مَا أَذْكَرَ الْحَيَّ لَا يَزَلُ لِعَيْنِي مِنْ أَطْرَافِ كَفِّي وَازِعٌ
أَهِيمَ إِلَيْهِمْ صَبُوءَةً فَتَشَوْقُنِي^(٦) مَالِفُ عَهْدٍ لِلْهُوَى وَوَدَائِعُ
يَا هَذَا! أَخْلَصْ [تُوفَّ]^(٧) وَنَادِ تُجَبِّ، وَاقْصِدْ تَوْفَقَ، وَانْوِ ثَعْنَ، وَجَرِّدْ عَزِيمَتَكَ عَنْ
شَائِنَاتِ الْخَلْقِ تَلْبَسْ بِهِ زَائِنَاتِ الْحَقِّ. وَمَهْمَا وَنَيْتَ فِيهِ وَفَتَرَتْ عَنْهُ وَقَصَّرَتْ دُونَهُ، فَإِيَاكَ
وَالشَّرْكَ بِهِ وَالْإِفْكَ عَلَيْهِ. وَلَسْتُ أُرِيدُ بِالشَّرْكَ شَرْكَ الْجَاهِلِينَ، وَلَا بِالْإِفْكَ إِفْكَ الْمُخَالَفِينَ،
فَإِنَّكَ تَمَسُّ بِهِمَا جَمِيعَ أَهْلِ الدِّينِ. وَإِنَّمَا أَعْنِي بِهِمَا مَا خَفِيَ وَلَطْفٌ، لَا مَا ظَهَرَ وَكَثُفٌ.
فَإِنْ أَرَدْتَ الْمِثَالَ أَلْقَيْتَ إِلَيْكَ، وَإِنْ أَحْبَبْتَ النَّصَّ أَطْلَعْتَهُ عَلَيْكَ: وَهُوَ أَنْ يَقْضَلَ مِنْ أَمْلَكَ
فِيهِ مَا يَكُونُ غَيْرُهُ مَأْمُولاً لَكَ بِهِ، أَوْ يَسْرِي مِنْ رَجَائِكَ إِلَى سِوَاهُ مَا [تَكُونُ] مَلُومًا عَلَيْهِ.

(١) عَوَّرَ فَلَانًا: صَبَّرَهُ أَعْوَرَ. وَفِي (د): أَوْفَى لَمْ يَعْوِزْ. وَأَوْمَى: لُغَةٌ فِي أَوْمَأَ.

(٢) خَاسَتْ الرُّجُلُ: كَذَبَ. ذَلَّ. وَالْمَقْصُودُ هُنَا: قَصَرَ. (٣) جَمَعَ وَعَرَّ: وَهُوَ ضِدُّ السَّهْلِ.

(٤) الْمَيْثُ وَالْمَيْثَاءُ: الْأَرْضُ السَّهْلَةُ. (٥) رَمَانَ (بِفَتْحِ الرَّاءِ): جَبَلٌ لَطِيءٌ.

(٦) فِي (د): لَتَشَوْقُنِي. (٧) زِيَادَةُ ضَرُورِيَّةٌ.

يا هذا! إنما خاب أملك فيه لأنه لم يصف من كدر غيره، كما ردّ طاعتك عليك لأنها لم تُنق من الرياء. فاجتهد - عافاك الله - أن تُقلَّ^(١) العمل لأن تُحقّق [٥٩ب] الإخلاص، فإن من حقّق الإخلاص صار من أهل الاختصاص. ومن صار من أهل الاختصاص، غار الحق عليه من العام والخاص.

يا هذا! ما أعجبني وإياك! أقرّبك إلى ما أنا بعيد منه، وأكسوك ما أنا عار عنه. فلو جعلت مكان دعائي لك إلى حظك إجابةً مني إلى حظي، كان ذلك أرفق بي وأبرّ بي. ولكنني ممتحنٌ بالقول، فإن كنت أنت أيضًا ممتحنًا بالسمع، فقد خسرنا جميعًا، لأننا قد خلونا، في حالتي القول والسمع، مما يملأ الصاع، ويسلك بنا البقاع، ويُحلّلنا تلك الربّاع^(٢)، ويخلصنا من هذا السّباع^(٣).

يا هذا! غب عن^(٤) سماع قولي بمسموعه، فلعلي أيضًا أغيب عن قولي بحقيقة مقولي. فإن قلت لي: لو بدأت في قولك بالتحقيق، لحصلت في سماعي على التصديق، - كان لك ذلك. ولكن ماذا يضرك تيهي في قولي عند اهتدائك في سماعك؟ لا تجعل عثارَ غيرك عذرًا لك في عثارك، وكن في طريقتك التي أنت عليها على استمرارك. وخذ بحقك في آناء ليلك ونهارك. وأنل^(٥) ضميرك بين سرارك وجهارك^(٦)، وسَمَّ نفسك بما لا تخفى به عند شرارك وخيارك، واجتهد أن تعرف الحق عند إيرادك وإصدارك. وإياك أن تبید بين عارك ونارك، فإنك بعين من يشهدك في حالتي ظعنك وقرارك، ويرقيك بين إقبالك وإدبارك. فإن صمّدت صمده قبلك وأرادك، وإن وليت عنه ردّك وأبادك. وكيف لا وهو في الأول قد أبْدَأَكَ وأعادك، وأمدك وأفادك، وساقك وقادك؟

يا هذا! أما لك خاطر في هذه البلاد؟ أما لك رائد في هذه المراد؟ أما لك بياض في هذا السواد؟ أما لك شوق إلى هذا الانقياد؟ أما لك حياء من هذا الارتداد؟ أما لك سكون عن

(١) هذه اللفظة لا تناسب السياق، ولعلها «تصل» بمعنى تواصل. وفي (د): تتقن.

(٢) الرّباع: الديار، المفرد الرّبع. (٣) السباع: المشاتمة. سابع جاره: تبادل وإياه الشّاتم.

(٤) في (ع) من. (٥) وردت في د: وأنل، الأمر من وثّل، بمعنى مكنّ.

(٦) أي بين سرّك وجهرك.

هذا الاعتداد؟ أما لك لين عن هذا الاشتداد؟ من هذا الذي وفى فندم؟ من هذا الذي صفا فعدم؟ [٦٠ أ] من هذا الذي طلع فغاب؟ من هذا الذي طمع فخاب؟ من هذا الذي وصل الذي وصل فانقطع؟ من هذا الذي رفع فاتضع؟ من هذا الذي أشار فبار؟ من هذا الذي عرّف فغاب؟ من هذا الذي وجد ففقد؟ من هذا الذي صلح ففسد؟ من هذا الذي نفق فكسد؟ من هذا الذي حقق فهجر^(١)؟ من هذا الذي صدق فحقّر؟

اللهم إنا نقول ما نقول وأنت تعلم ما نقول قبل أن نقول، ونعمل فتحيط به قبل أن نعمل، فأنت أولنا في كل قول وعمل، وآخرنا عند كل رجاء وأمل. فكما كتبت أسماءنا في ديوان المرحومين، وإن لم نكن من المستحقين: أعمالنا سيئة، ولكنها تضيع في أوائل عفوك؛ وأقوالنا كبيرة، ولكنها صغيرة في أوائل استحقاقك.

إلهنا! قد صبرنا على مرارة عشرة خلّقتك، فلا تحرمنا حلاوة مواصلة ما يصلنا بك. كأدونا بسببك، فحلّمنا عنهم من أجلك؛ وعادونا فيك، فاحتملناهم لوجهك.

إلهنا! ما لنا ذنب إليهم إلا [أنا]^(٢) ذكرناك لهم، ولا لنا جناية عليهم إلا أنا أغرنا^(٣) بك بينهم. حسدونا، لأنّا عرفناك فوصفناك؛ وقرفونا^(٤)، لأنّا قصدناك فصددناك.

إلهنا! كما ابتليتنا بهم لنصفو لك، فارحمهم لثلا يكدروا بنا. وكما أريتنا قدرتك فيهم، فأرنا عفوك عنهم، واجعلنا وإياهم في زمرة الواصلين إليك، المقبولين لديك.

يا هذا! عليك بدعاء الله، فإن الدعاء من الله بمكان: فإنه يصدر عن فاقة العبيد خاطبًا عزة الملوك؛ فاجعله ديدنك في مُتَقَلِّبك. وإياك وملائته، فما فُتِحَ باب الدعاء على أحد إلّا دلّ على أن الله يحب أن يسمع كلامه. وربما أّخر الإجابة لتدوم الضراعة؛ والويل لمن ييأس من رَوْحِ الله مع سعته، أو يقنط من عفو الله مع اشتماله. والدعاء جامع للحال والحقيقة، والوجد والاستكانة، والعبادة والعبارة. أما الحال فإنها ترتب^(٥) الإنسان في [٦٠ ب] محل السائلين، وأما الحقيقة فإنها تروّج عن قلوب الصادقين، وأما الوجد فإنه يستخرج عن اليقين، وأما الاستكانة فإنها تهوّن ما يبدو على صاحبها المسكين، وأما

(١) التهجير: التحقير. والمُهَجَّرَات: القبائح. (٢) زيادة ضرورية.

(٣) د: اعتزنا.

(٤) قرفونا: عابونا واتهمونا.

(٥) في ر: ترتب.

العبادة فإنها تؤدي حق التكليف على ما ورد به الكتاب المبين، وأما العبارة فإنها تقف صاحبها على مَدْرَجَةِ المتلطفين المترفين. وما لهج بالدعاء أحدٌ إلا رأى في عاقبة أمره ما يسرُّ النفس، ويجرُّ الأنس. وما رفضه أحدٌ إلا كان قاطعاً للعصمة بينه وبين ربِّ العالمين.

أترى رافض الدعاء بأي شيء يحتج؟ وبماذا يتعلق؟ وإلى أي ركن يستند؟ وبأي شيء يتعلل؟ ولو لم يكن في الدعاء إلا التلذذ بالمواجهة، والتنعم بالمشاهدة، وإلا خرق الحجب، ورفع القُنع، والدنو من الباب، ومخالصة أولي الألباب، لكان فيه مَقْنَعٌ. فكيف وفيه مناجاة تقضض الحيازيم^(١)، وتهالك يرفرف على اليقين، وتعرض للسبب^(٢) من ربِّ الخلق أجمعين. وما أَلْهَمَ الدعاء أحدًا إلا كان ذاك عنوان خير عليه، ودليل فضيلة به. فإن قلت: أنا أسلم ولا أدعو، وأتوكل ولا أسأل، وأكل ولا أتعرض، - فإن تسليمك دعاء، وتوكلك مسألة. ومن وكل إلى كافٍ فقد بالغ في الثقة. فهل هذا كله إلا ما أومأنا عليه، وعلقنا آنفاً بوصفه؟! لا تتجاف - فديتك - عن بدائع هذه الطريقة، فتجافها بادٍ ﴿لَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ سَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

أما الإشارة بالقلب فإلى صفائه، وأما الإشارة بالسمع فإلى حضوره. وأما الوصف بالشهيد، فإنه كناية عن اليقظة: فقد يكون حاضراً من هو كالعائب، وقد يكون سامعاً من هو كالأصم. فالشهيد جامع لكل ما في الحال، ومشير إلى الغاية المقصودة بالكمال. وهذا لسان يعزب^(٣) إلا عند المؤيدين من أهل اليقين الذين عانوا ها هنا فعانوا هناك.

اللهم إنا لو وفينا الحياء منك حقه لم نواجهك متلوئين بلطائخ الدنيا، [٦١أ] مُدْلِينَ بالقول، مُقْلِينَ من العمل، عارين من الحقيقة، بعيدين مما يوجب الوثيقة. ولكننا على ذاك نُعيد أنفسنا من اليأس من رحمتك، لأنك قد حظرت ذلك علينا، ودعوتنا إلى حُسن الظن بعفوك، وإلى جميل عُقبك في آخر أمرك.

(١) تقضض: تكسر، الحيازيم: جمع الحيزوم وهو الصدر ووسطه. وفي ع: تقضض الجبارين.

(٢) السبب: العطاء.

(٣) في ر: يعرب.

اللهم فكنْ لنا أكثر منا لأنفسنا، ودافع عنا غوائلنا علينا، وإذا تهتكتنا فاسترنا، وإذا تفرقنا فاجمعنا، وإذا غفلنا فأنبهنا، وإذا أعرضنا فأقبل بنا، وإذا فسدنا فأصلحنا، وإذا بعدنا فقرّبنا. أنت القادر ونحن الضعفاء، أنت الواحد ونحن العدماء، أنت الغني ونحن الفقراء، يا ذا الجلال والإكرام.

رسالة (٢٠)

يا قوم! ما لي وما بالي! وما الذي غيبي عن حالي، وشغلني عمّالي، حتى صرت أقذَح بزئِد مُصِلِد^(١) وأنفخ في غير فَحَم^(٢)، وأناذي من ليس بحاضر، وأنصح من ليس بقابل، وأحيي من ليس بعقل، وأهيم في وادي الظن، وأخبط في أشب^(٣) الوهم. وأرى أنني قد أدركت الفأنت، وحصلتُ العزم، وملكت النفس، وأحرزت المأمول، وبلغت التي إليها سعي الساعون، وفي سرحها رعي الراعون. أما فيكم من يقابلني بوجهه، ويقاولني بما عنده من غيبه وشاهده بالحجة والشبهة، لعلني أرى بئمنه ما قد غُيِبْتُ عنه، وأدنو بهدايته إلى ما قد بعدتُ عنه! فقد والله توالى تَعْسِي، وخرجتُ بالحسرات نفسي، وطال التفاتي من كدر يومي إلى صفاء أمسي.

يا قوم! فإن لم تأخذوا بيدي فإلى من أَكَلُ أمري، وعلى من أعرض وفائي وغدري، ولمن أفرش احتجاجي وعذري؟ أنتم أهل صَبُوحِي وغُومِي، وعلى خدمتكم ومودتكم وشَجْتُ عروقي، وبمساعدتكم ومقاربتكم اتسعتُ خروقي، وفيما بينكم اشتدت رعوذي وبروقي، وعندكم بارت بضاعتي وكسدت سوقي. فبالحرمة السالفة إلا سمعتم صراخي، وسددتم فاقتي، ورحمتهم ضعفي، وعظمتهم على عَظْمِ بَالٍ وقلب [٦١ب] خالٍ وبلاء متوالٍ. إلهي! لا خير في خلقك، فكن لي أنت بما أردت. فالصبر على البؤس معك أمتع من النعمة بتعرُّض^(٤) غيرك، يا ذا الجلال والإكرام!

(١) مصلد: صلد الزئد: صَوَّت ولم يور. (أي لم يخرج شرراً).

(٢) قولهم: «نفخت لو تنفخ في فَحَم» يضرب مثلاً للحاجة تطلب في غير موضعها أو ممن لا يرى لك قضاءها. (الأمثال للميداني ج٢).

(٣) الأشب: شدة التفاف الشجر وكثرته. والمعنى: اختلاط الوهم. (٤) أي النعمة التي تأتي عن طريق غيرك.

رسالة (٢١)

أيها الحيران في سعيه، والسَّكران في رَغْيه، والمتغافل عن حظه، والمتجاهل بين لحظه ولفظه، والمتكاسل عن خدمة ربه، والمتحامل على حَبَّةٍ بِحَبَّةٍ: تصفَّح سرِّك بعقلك، واحكُم على نفسك بعَدْلِكَ، وتَجَمَّع عما قد تفرقت فيه، وتَفَرَّق عما قد تجمَّعت له. واستيقن أنك مَرْعِيٌّ لَا مُهْمَلٌ، ومطلوب لا متروك، ومحموظ لا مُضَاع، ومقيَّد لا مطلق، ومربوط لا سُدى^(١)، وملجم لا مُخْلِى. وإذا وضح لك اليقين بذلك، فانظر أين أنت منك، أعني ما لَكَ فيكَ، وما عليك بك. فبهذه الموافقة الصادقة تلحق تلك المرافقة السامقة، وبهذه الحركة القائمة تنال تلك البركة الدائمة. فتهياً يا هذا جُهدَكَ لقبول تحاياها، وكن منك على بالٍ لعلك تغني بعطاياها، وإياك والحِرَّان^(٢) والتعذر في أمر جدواه لك، ونَجْواه بك، وبلواه منك، وشكواه فيك، وعدواه عليك. ضاعف خشيتك لتأمن، وورق دمعتك لتسكن، وعَفْرَ حَدِّكَ لتُرَحِّمَ، وابسُط يدك لتُكْرِمَ، وابتذل نفسك لتعزَّ، وابدُل رُوحك لتحرز^(٣).

يا هذا! جُدْ بالمعنى الطالع عليك، الغارب فيك، البادي^(٤) منك، المحيط بك، الحاصل لك؛ فإنك إذا وجدتَ وُجِدَ بك، وإذا وُجد بك جاد عليك، وإذا جاد عليك أغناك، وإذا أغناك نلت غاية مُناكَ.

يا هذا! ثق بأنك لا تفوز بقربه إلا ببعْدك عن كل ما كان قاطعاً عنه وشاغلاً دونه. وتذكر في أضعاف حالاتك مَعَارِضَ أفعالك ومقالاتك وقل: سلام [٦٢أ] على نسيم كان يصل من الحبيب، إلى قلب كلِّ عنه كلُّ طبيب. نعم! وسلامٌ على رُوحٍ كان يُهدى بعلامة القبول والرضا، صار كرباً بحسرة على فَوْتِ ما مضى. بل سلامٌ على ليلٍ كان يلتقي طرفاه

(١) سُدى: مُهْمَل.

(٢) الحِرَّان: حَرَّنت الدابة، حرَّاناً، فهي حرون، امتنعت عن السير ورفضت الانقياد.

(٤) في (ر)، وكذلك في (ع): كالبادي.

(٣) تحرز: تمتنع وتحصن.

بأنس، يفتن عليه الجن والإنس. بل سلامٌ على لحظٍ كان ينتعش به العاثر، ويتجدد بنوره الدائر. بل سلامٌ على حَرَمٍ كان لا يدبُّ فيه واش ولا رقيب، ولا يحل به ظنين ولا مُريب؛ بل سلامٌ على رسائلٍ كانت ترد بعثٍ يحترق به القلب، ولُطفٍ تحيا به الروح. بل سلامٌ على علاماتٍ كلما طرق خيالها هاجت البلبل، وتقطعت السلاسل. بل سلامٌ على مصافحة كانت الكبدُ بها تذوب، وعلى معانقةٍ كانت الأمانى بها تثوب. بل سلامٌ على مجلسٍ كان ممتلئًا بحديثٍ حلوا جرى مع الحبيب، ليس لأحد من الخلق في تعريضه وتصريحه نصيب. بل سلامٌ على يقظةٍ كانت مقصورة على الشوق إليه والوجد به. بل سلامٌ على رُقَادٍ كان الحلم يعرضه ويجلوه بأكثر مما كانت النفوس تتمناه وتهواه.

يا هذا!

ما لعيني كأنها بعد حبي
حُشي الصَّابَ جفنها والمآقي
عزَّ والله عليّ ذاك عيانًا، وعزَّ أيضًا عليّ خبرًا!

نعم يا سيدي! إن سألتني عن هذه الحال، فما أن أطويها عنك حياءً، وإما أن أنشرها رياءً. وفي الجملة، تجلّت سماؤها، وتنقلت أفناؤها، وعاد محضها سَجَاجاً^(١)، وعذبها أجاجاً، ولينها لَجَاجاً^(٢)، وروحها سَمومًا وهَجَاجًا، بعدما كانت بردًا وسلامًا، ومغبوطة أعظماً وإكرامًا، لا جَرَمَ^(٣) أصبحت كمن وصف لحالي حين قيل فيه:

كَأَنَّ فؤَادَهُ كُورَةٌ تَنْزَى
حِذَارَ الْبَيْنِ، لَوْ نَفَعَ الْحِذَارُ^(٤)

يا هذا! أما حان لنا أن نستحي من العكوف على المخالفة؟ أما وجب بعدُ أن نهجر

[٦٢ب] هذه العادة القبيحة في المقارفة والمقاذفة؟!

(١) السَّجَاج: اللبن الذي رُقِّق بالماء. والمحض هو اللبن الخالص غير المخلوط بشيء.

(٢) لَجَّ في الأمر لجَاجًا ولجاجة: تمادى فيه معاندًا. فهو يناقض اللبن.

(٣) لا جَرَمَ: لا بد، لا محالة.

(٤) تنزى إليه: توثب وتسرع. والبيت لبشار بن برد. يشبه فيه خفقان القلب بالكرة في تدورها وتوثبها.

إلى متى:

نُؤمِّل عيشًا في حياة زهيدة أضرت بأبدان لنا وقلوب^(١)
وما خير عيش لا يزال مُفَرَّغًا بفوت نعيم أو بموت حبيب!
أمل يضرب، وظاهر يغرب، وباطن يعر^(٢) وكل يمر، بما يسوء ولا يسر.

دع ذا، أخلق الدين، وعمت الفحشاء، وفسد العلماء، وفشا الجهل، وظهر الغي، وتكاشف الناس، وفقد الصدق، وغلب الجهل، وكثرت الجراءة، وصار ذكر الله لغوا على الألسنة، وخوت القلوب من الفكر بين السيئة والحسنة. فلا جرم عاد عتابنا لهم بينونة، وإمساكنا عنهم دينونة. فما ندري ما نصنع، ولا ندري إلى من نفزع. والمؤمن إذا قصرت يده عن المعروف، وأمسك لسانه عن الزجر، وكلت عينه عن النظر، وضعفت مئنته عن الإنكار - تمنى الرّحيل عن هذه الدار المحشوة بالنار والعار، إلى الدار التي هي دار القرار. فقد جمدت العيون فما تدمع، وتكبرت القلوب فما تخشع، وكلبت^(٣) البطون فما تشيع، وغلبت الشقوة فما تنزع، وعاد نهار الدين ليلاً، والتلذذ بالعلم حرباً^(٤) وويلًا. ولله أمر هو بالغه ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾ [الأنعام: ٣٥] ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا﴾ [البقرة: ٢٥٣].

يا هذا! إنما نتنفس بهذه الكلمات كما يتنفس المملوق^(٥)، ونهذي بها كما يهذي بها المألوق^(٦). وإلا فما نحن ممن وصفناهم ببعيد. وكيف نبعد عنهم وهم الجيران في المحلة، والمجتمعون في المسجد، والمعاملون في السوق؟ والله إني لأظن أن هشاشاتنا

(١) الشعر لبشار بن برد. انظر ديوانه، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور ص ٢٨٠. وورد فيه البيتان مع اختلاف بسيط:

نؤمِّل عيشًا في حياة ذميمة أضرت بأبدان لنا وقلوب
وخير عيش لا يزال مفجعًا بموت نعيم أو فراق حبيب

(٢) عرّ فلانًا يعرّ: أصابه بمكروه.

(٣) كلب في الشيء: طمع فيه.

(٤) حربًا: ويلًا وهلاكًا.

(٥) المملوق: الذي يضرب بشدة، أو الذي يُداهن ويُتودد له. ونسبة صعوبة التنفس له لا تصح مع هذه المعاني. وأظنها: المخنوق.

(٦) المألوق: المجنون.

في وجوههم، ومساعدتنا على أمورهم، وسعينا في حوائجهم، وطمعنا فيما في أيديهم، ومداراتنا لهم، ورفقنا بهم، من الكبائر العظيمة والخلائق اللثيمة والعواقب الوخيمة. نسأل الله أن يرفع عن ألسنتنا ذكرهم، وينسينا أمرهم، ويميزنا عنهم، ويخلصنا منهم، حتى نلجأ إلى الله الذي هو الْوَزْرُ^(١) والملجأ، وبعونه [٦٣أ] يُنال الفوز والمنجى. هلك من تاه عنه وضل دونه، واهتدى مَنْ عَرَفَهُ وحبا نحوه ولاذ به وأسلم وجهه له.

فَدَيْتَ! - صاحبُ هذا النعت ما أظرفه وأظرف حديثه! وما أسعده وأسعد من ساعده! يا هذا! أما ترى كيف أديرُك من باب إلى باب، وكيف أصف لك حالاً بعد حال، وكيف أُلقي إليك فناً بعد فن، وكيف أقوي رجاءك حتى تكاد تطمئن، وكيف أغلب بأسك حتى تكاد ترجحن؟ وكيف أناغيك بالسلوة عن الدنيا، وكيف أسأرك بأعاجيب المولى، وكيف أجذبك إليّ تارة ثم أنجذب معك أخرى، وكيف أرددك بين حلاوة «لعل» ومرارة «عسى»؟! فإن كنت قد فهمت شغلي بك، فاهمُّم بشغلك بنفسك، ولا تنتظر من غيرك أن يكون لك فوق ما أنت لنفسك. واعلم واحدة، فما بعد هذا بينة في التنبيه، ولا دونها حجة في التموية: ليس من الله بدُّ على حال، فاجعله منك على بال. واعلم أنه واسع الرحمة يتغمَّد^(٢) ويعفو، ولكنه أيضاً شديد العقاب يطرد ويجفو، وإذا جفاك فما لك بعده بارٌّ، وإذا ساءك فما لك بعده سارٌّ.

هذا قولي لك فانتصحنى، فلو قد شغلت عنك بخاصتي لم تسمع هذه النغمة من غيري، ولم تطرب على هذا اللحن من سائر إخوانك وإخواني. فالوقت كدر، والأمر عكر، والحال قذر، والقول مُكْرَر، والفعل مُنْكَر، والبناء مُهَوَّر، والوجه وقح، والخلق وَتَح^(٣)، والغفلة غالبية، والأحداث سالبة. وأثبتهم قدماً أشدهم ألماً، وأوسعهم علماً أوحشهم كَلِماً، وأكثرهم دعوى أقلهم رَعوى^(٤).

(١) الْوَزْر (محرّكة): الجبل المنيع وكل معقل، والملجأ والمعتصم.

(٢) تَغَمَّدَ الله برحمته: غمّره بها. (٣) وتَح: قليل تافه.

(٤) رَعْوِي: من الفعل رَعَا بمعنى كَفَّ وامتنع.

فقل لي الآن: هل لك مرجع إلا إليك، وهل لك بك مستعان إلا عليك؟ دع عنك أَمْسَكَ فَإِنْ فَكَّرَكَ فِيهِ وَسَوَسَهُ، ودع عنك أَيْضًا غَدَكَ فَلَسْتَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ ظَفَرِكَ بِهِ. خذ بَعْنَانَ نَفْسِكَ فِي سَاعَةِ وَقْتِكَ إِلَى خَطَّتِكَ الَّتِي تَجْمَلُ بِكَ فِي عَاجِلَتِكَ عِنْدَ النَّاظِرِينَ إِلَيْكَ، وَتَجْمَلُكَ فِي عَاقِبَتِكَ عِنْدَ [٦٣ب] الطَّالِعِينَ عَلَيْكَ، وَاسْعَ لِهَذَا الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ، فَلِذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ، ﴿لِيُثَلِّ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصفات: ٦١].

اللهم إِنَّا إِلَيْكَ نَفْزُ، وَفِي رِيَاضِكَ نَرْتَعُ، وَصَوْبٌ^(١) رِضَاكَ نَتَوَقَّعُ، وَثَوْبَ خِدْمَتِكَ نَتَدَرَّعُ^(٢)، وَبِفَنُونِ الثَّنَاءِ عَلَيْكَ نَتَذَرَّعُ، وَلِجَلَالِ وَجْهِكَ نَتَضَرَّعُ، وَبَابَ جُودِكَ وَإِحْسَانِكَ نَقْرَعُ، وَمِرَارَةَ مَا يَفُوتُنَا مِنْ فَضْلِكَ الْوَاسِعِ بِتَقْصِيرِنَا نَتَجَرَّعُ.

اللهم اجْعَلْ أَمَارَةَ قَبُولِكَ لَنَا وَمَنَا وَفِينَا أَنْ تُخْرِسَنَا إِلَّا مِنْ ذِكْرِكَ، وَتُزِمْنَا^(٣) إِلَّا فِي طَاعَتِكَ، وَتُعْمِينَا إِلَّا مِنَ النَّظَرِ إِلَيْكَ. وَتَبْعِدْنَا إِلَّا مِنَ النَّزُولِ بِفَنَائِكَ، وَتَفْقِرْنَا إِلَّا مِنَ الْفُوزِ بِعَطَائِكَ، وَتَضْعِفْنَا إِلَّا مِنَ الظَّفَرِ بِأَعْدَائِكَ. قَدْ وَجَّهْنَا أَمَانِينَا إِلَيْكَ، وَوَقَّفْنَا آمَالَنَا عَلَيْكَ، وَوَحَّدْنَاكَ كَمَا أَعْلَمْتُ، وَمَجَّدْنَاكَ كَمَا أَلْهَمْتَ، وَقَصَدْنَا^(٤) فِي طَلَبِ رِضْوَانِكَ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ. فَعُدْ بِفَضْلِكَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ سَائِلُونَ، فَقَدْ جُدْتَ بِفَضْلِكَ فِي الْأَوَّلِ وَمَا كُنَّا سَائِلِينَ. وَمَزِيدًا بِالْإِحْسَانِ تَمِّمْ، وَمَنْ كَانَ أَهْلًا لِلْكَرَمِ عَلَى عِبِيدِهِ خَصَّصَ وَعَمَّمَ.

يَا مَوْلَانَا! مِنْكَ تَعْلَمُنَا مَا قَلْنَا، وَبِكَ اهْتَدَيْنَا فِيمَا سَأَلْنَا، وَإِيَّاكَ أَمَلْنَا فِي قَصْدِنَا. وَهَذَا لِأَنَّكَ أَوَّلُنَا وَآخِرُنَا، وَغَائِبُنَا وَحَاضِرُنَا، وَمَالِكُنَا وَنَاصِرُنَا، وَبَاطِنُنَا وَظَاهِرُنَا، وَطَالِعُنَا وَغَارِبُنَا؛ وَأَنْتَ كُلُّ كُلِّنَا، وَحَامِلُ كُلِّنَا، وَالْفَاتِحُ بَابَ الْجُودِ عَلَيْنَا، وَالطَّالِبُ لَنَا أَنْ نَسْأَلَكَ مَا عِنْدَكَ بِرَغْبَتِنَا وَرَهْبَتِنَا، وَالْعَالِمُ بِضَعْفِنَا وَاسْتِكَانَتِنَا، وَالْآخِذُ بِأَيْدِينَا عِنْدَ عَثْرَتِنَا، وَالسَّانِحُ فِي ضِمَائِنَا عَلَى كُلِّ حَالٍ نَتَقَلَّبُ عَلَيْهَا، وَالشَّاكِرُ لَنَا عَلَى بَعْضِ خِدْمَتِنَا.

(١) الصوب: المطر.

(٢) أدرع الثوب: لبسه.

(٣) تزمننا: تمرضنا مرضاً يدوم وقتاً طويلاً.

(٤) لعل الصواب: قصرنا.

فيا وليَّ النِّعم، ويا مُحَرِّكَ الهمم، ويا واهب القِسَم، ويا مذكورًا بالكرم، ويا معروفًا عند جميع الأمم، ويا موجودًا على بُعد وموجودًا على أَمَم^(١)، ويا مُتَجاعِب بصنوف الكلم، ويا معبودًا على القِدَم، ويا منشئًا من العدم، ويا جاعلاً من شئت كالعلم، ويا من ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤-٥] جُد علينا بنا، واهدنا إلينا، وأوضحنا لنا. [٦٤ أ] قد بَلينا فجددنا، وبَلينا فسددنا، ونُكَبنا فأنعشنا، وانجَرَدنا فَرشنا^(٢)، وتعرَّسنا فسهلنا، وتعقدنا فحللنا، ونُكِرنا فعرَّفنا، وجُهِلنا فَعَلَّمنا، وقَلِقنا فسكَّننا، واستوحشنا فأنسنا، وبُعِدنا فقرَّبنا، وتُبنا فاقبلنا، وبدنا^(٣) فكوَّننا، وضعفنا فققونا، وزهدنا فرغبنا، ورغبنا فرَّهَدنا، وسلَّونا فشوقنا، وأصبنا^(٤) فعرَّزنا، وضللنا فاهدنا، وعُطِلنا فحللنا^(٥)، وأغفلنا فسمَّنا^(٦)، وخُذِلنا فانصُرنا، وهبطنا فرقنا، ووقعنا فخلصنا، وعَطِبنا فارحمنا، وبُذِلنا فصُنَّا، وزُغنا فقومنا، واعوججنا فسَوَّنا، ورَقَدنا فأيقظنا، وسألنا فأعطنا، وقصَّرنا فاحتملنا.

إلهنا! إليك سافرنا فكن غنيمتنا، وعليك توكَّلنا فكن عِصمتنا، ولك دَلَّلنا فعزَّزنا، وبك وجدنا فجدد علينا، وإليك اشتقنا فأوصلنا، وإياك عبدنا فشرَّفنا، وعنك حدَّثنا فصدَّقنا، وإليك دعونا فأعنا، وفيك تولَّهنا فارحمنا، وعليك تدلَّهنا فاخصصنا.

أيها الصاغي بأذنك إلى شرح هذه الحُرُق^(٧)، العاجب من اختلاف هذه الأسماء والصفات والعُلُق^(٨)! الزَم حدَّك في العبودية التي فُطِرَتْ عليها، إلى أن تصطفق من أمر الألوهية التي عساكَ ترقى إليها، فإنك إذا ألزمت علمك بالتكليف، أهدى إليك ما تستحقه بحق التشريف. وإياك أن تحيد عن حدِّك صاعداً أو نازلاً، فإنك إن فعلت ذلك مُحَيٍّ

(١) أمم: قُرب.

(٢) انجَرَدنا: ذهب ما علينا من شعر أو ريش. رشنا: اكسنا بالريش. والقول على المجاز، أي: افتقرنا فأعنا. وفي (ع): «فرمشنا».

(٣) بدنا من ياد بمعنى هلك.

(٤) أي: فجعلنا بفجعية فاجعل لنا عزاء عنها.

(٥) العاطل: المتجرد أو العاري عن الشيء؛ والمتحلَّى عكسه.

(٦) الغُلُّ والموسوم ضدان، و«سمنا» فعل أمر من وسم: جعل له سمة أي علامة.

(٧) جمع حُرُقة وهي الحرارة، والمقصود: الأمور الصعبة الشديدة.

(٨) جمع عُلقَة: علاقة.

اسمك من ديوان الخدم، وطُردت إلى هوة الهوان من ذروة الكرم، وقيل لك: اخسأ عن
مرايع المُقَرَّبِينَ، وابعد عن حَصَرَات المستخلصين، فإنك لا تصلح أن تطأ بساط الملوك
مع سوء الأدب وقلة المبالاة والشرود، مع الخلاف وترك ما تقدم إليك بلزومه، وركوب
ما زجرت عن التعرض له.

اللهم إنا نلوذ بك عائدين، ونعوذ بك لائذين، ونسألك أن ترشحنا للزلفة عندك بحسن
القبول منك، يا ذا الجلال والإكرام!

رسالة (٢٢)

[٦٤ ب] أيها المستأنس بالوحشة، الغائص في الدهشة! أما لك من صرعتك نعشة؟
أما لك إلى حظك عند الله عطشة؟ لعلك واثق بعاجلتك الغائلة الزائلة: ألم تسمع قول
الحكيم: رُبَّ واثقٍ خجل؟ لعلك آمن من غائلتك: ألم يبلغك: رُبَّ آمِنٍ وجِل؟
يا هذا! أسلمت نفسك في يد عدوك، ووليته تدبيرك، وسلطته على روحك، كأنك
مكايّد لمن يُحبُّ فلاحك، ويبغي صلاحك. ليس هذا من الحزم المأخوذ به، ولا من
الاحتياط المعمول عليه.

انتبه! فقد طال رقادك. وأنب إلى الله فقد تمادى غيُّك^(١). واعتبر حالك بغيرك فقد
اشتدَّ سهوك. أظن، يا عاجز، أنك تُخلق هذا الخلق السوي، وتُمَنَح هذا العقل الزكي،
وتُعطى هذا العلم الرضي، وترزق هذا الوجه الوضي، ثم تَمُرُج في شهواتك مَرَجًا^(٢) خالغ
العذار^(٣)، جاهلاً بما يجري بالليل والنهار، غير مُطالب بما لك وعليك، ولا معاتب بما
فيك ولديك؟ - لقد رأيتُ خلقًا كثيرًا، وعرفتُ صغيرًا وكبيرًا، فما رأيتُ أجنبي منك على
نفسك، ولا عرفتُ أوهى منك في طلب أيسك^(٤). أما أن لك أن تقلع عن هذا الإصرار؟ أما

(١) في (ر، ع): عنك. (٢) مرج في شهوته: خاض فيها.

(٣) خالغ العذار: دون حياء أو خجل.

(٤) الأيس: القهر والإخضاع: ليس أضعف منك في طلب ما تقهر به الناس وتسمو به عليهم..

وجب عليك أن تستحيي من مخالفة الله في الجهار والسرار؟ أما تشعر بفائتك^(١) بين الإيراد والإصدار؟ أما ترى القارعة بعد القارعة آناء الليل وأطراف النهار؟ أما تأنف من مصاحبة الأشرار؟ أما تشتاق إلى مجالسة الأخيار؟ أما تحب أن تكون حبيب الملك الجبار؟

حدثني: بم تثق، وبم تصول، وبم تحتج؟ فأني شيء تقول؟ الوعد يشوقك وأنت ساهٍ، والوعيد يخوفك وأنت لاهٍ، والعتاب يوافيك وأنت ذاهل، والعلامة تلوح لك وأنت جاهل؛ والعبرة توقظك وأنت ناعس، والداعي يرفق بك وأنت متشاكس؛ والناصح يصدّقك وأنت جامح، والصديق ينصحك وأنت جانح؛ والحجة تتوكّد [٦٥] عليك وأنت مُعْرِض. والحكم يُنفذ فيك وأنت معترض. فما أناك^(٢) عن حيازة نصيبك في عمرك بسعيك! وما أهواك في مهبط الردى في حياتك بيدك ورجلك! وما أعندك عن سبيل الرشد في مهلك بسوء تحفظك! وما أغفلك عن حظك في عاقبتك! إن أنت إلا بلاءً على نفسك، وحجاب بينك وبين روحك وأنسك، وغيم كثيف بين قمرك وشمسك، وبرزخ قوي بين طهارتك وقدسك! قد آن لك أن تتوب من هفواتك التي أصبحت من أجلها نادماً سادماً^(٣)، وأن لك أن تثوب إلى سيرتك الحسنى التي كنت عليها قاعداً أو قائماً.

يا هذا! بادر واصطبِحْ بَعْدُوكَ قبل أن يغتبق بك عَدُوُّكَ، إن غدوت إلى الربح مختاراً، وإلا راح بك الشقاء إلى الندم مضطراً. أما أرى في يدك إلا التمني، والتمني رأس مال المفاليس؟ أين الحاصل الموثوق به؟ أين الحجة الثابتة؟ أين البينة المُرَكَّاة؟ أين الذخيرة النفيسة؟ أين الاستظهار النافع؟ أين الاحتياط المحمود؟ أين الأخذ بالوثيقة؟ أين الحكم المسجل؟ أين الخير المعجل؟ أين الإدلال بالكفاية؟ أين العذر في الجناية؟ هيهات! اضمحل كلُّك ببعضك، وهلك بعضك بكلك، فلا كلُّ لك الآن ولا بعض. تاهت بك التوائه، واشتبهت عليك الشبائه، كلما احتجت طلبت، ولما طلبت فقدت، لأنك بنت بك، ثم لنت لك، ثم

(١) مما يفوتك وفي (ع): بغابتك

(٢) في (ع): أبدأك.

(٣) سادماً: سديم فلان: أصابه همٌّ أو غيظ مع حزن.

احتجبت^(١) عنك، ثم استمليت منك فلما جاءت الحقيقة بادت رسومك وصفاتك، وانمحت نعوتك وسمائك. ومن كان مثلك لم^(٢) يبالِ الله في أي وادٍ هلك. لا عين تدمع بالاعتذار، ولا يد ترفع إلى الله بالاستغفار، ولا قلب يخضع عند تصرف الأقدار، ولا نفس [٦٥ب] تخشع لما فاتها من التذكرة والاستبصار. إنما هو قِحة وجراة، وتجليح^(٣) ومكابرة، ودعوة ومجاهرة، وعجز واستطالة، حتى إذا ﴿وَالنَّفَّاتِ السَّاقِ بِالسَّاقِ﴾ ^(١٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقِ ﴿القيامة: ٢٩-٣٠﴾ حصلت وقد جف ريقك عن الكلمات، وانسد طريقك في الظلمات، وحينئذ تقول: ﴿رَبِّ أَرْجِعُونِ﴾ ^(٢٠) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴿

[المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

كلا! أما كان لك يا هذا، فيما سلف من عمرك، ما يلقي^(٤) التفاتةً منك إلى نجاتك؟ ألم تسمع تنزيل الحكيم العليم، وقول العزيز الكريم: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرْ﴾ [فاطر: ٣٧]. بلى والله، لكن ران على قلبك ما كسبت يداك، وخدعك عدو الله وأرداك^(٥). فاتبع الآن من ملكته قيادك، ووهبت لمراده مرادك، فإنك من الخاسرين.

اللهم! فارحم فاقتنا إلى كفايتك، وألبسنا جناح رأفتك، واعطف علينا برحمتك، ووكل أبصارنا بمواقع قُدْرَتِكَ، وأنطق ألسنتنا عن بدائع حكمتك، واستعمل جوارحنا بطاعتك، وسرّح أرواحنا في معادن منحتك، حتى نستريح من هذا الكرب الجاثم في صدورنا حسرة على ما يفوتنا من رضوانك وتقبلك؛ واصرف أطماعنا عن خلقك، واجمعها في عطيتك بكرمك. فما أشقنا إن جهلناك! وما أجهلنا إن خالفناك بعد أن عرفناك! وما أحسن حالنا إذا ذكرناك! وما أقربنا منك إذا دعوناك! وما أسعدنا بنجواك! وما ألهجنا بذكراك! وما أنعمنا في ذراك! وما أجحدنا لسواك! يا من هو بلا إحاطة وإدراك.

(١) يمكن أن تقرأ هكذا، ويمكن - وهو الأرجح - أن تقرأ: احتجبت.

(٢) في (ع): لن. (٣) التجليح: الإقدام والتصميم.

(٤) في (ع): يلتقي. ولعلها يقتضي.

(٥) في (ع): وأرداك.

إلهنا! إنَّ مرضنا كان بك، فاجعل شفاءنا على يدك؛ وإنَّ خلافنا لك كان بقضائك، فاغفر لنا الآن بتفضلك وحبائك^(١)؛ وإنَّ زَيْغَنَا كان بعلمك بنا وحلمك عنا، فاجعل تقويمنا الساعة [أ٦٦] بلطفك عندنا، وتفضلك علينا. لا نَمْلِكُ إلا ما مَلَكْتنا، ولا نُملِكُ أيضًا ما مَلَكْتنا إلا إذا أمددتنا وأزفدتنا. لك الآلاء الجسيمة، والنعماء العظيمة، والأيادي الكريمة، والخيرات الحديثة والقديمة.

لا طِفْ قلوبنا بالفيئة إليك! سَهِّلْ علينا في كل الأمور التوكلَ عليك. وعَرَفْها حُسْنَ التَّائِي في طلب ما لديك. قُدِّها صافية من غيرك إلى بابك. احشُها باليقين والخشية. املاها بالسكون والطمأنينة. عَوِّدْها الرجاء والخوف. شُبِّها بالمحبة والشوق. هي بيدك فقلِّبها كيف شئت. اللهم فَشَأْ ما يُرضيك عنها، وقلِّبها على ما تريد منها. هي أوانيك فينا وأهدافك عندنا، فاملأها بخالص ذكرك، وأصِبْها بالأمن من غضبك، يا واحد!

إنما أزلُّ في كلامي لك أيها الإنسان من فن إلى فن، وأطفر من وطن إلى وطن، لأن المرامي فيما أحاول وصفه بعيدة نازحة، والأحوال فيها لأهلها سائحة بارحة. فكل ما أحبره مطموس، وكل ما أجدده ملبوس، وكل ما أقومه معكوس. وذاك لأن العورة في القول بادية، والرقباء من دونه منادية. فإن أخذت بعد هذا كله في السكوت، جاءت^(٢) الفكرة متقدة بالوسواس، والخاطرة مترددة مع الأنفاس. فما حال من إن قال كان قوله ردًّا، وإن سكت كان سكوته هُدًّا! نعم، وإن برز كان بُروزه تعرُّضًا وتحكُّكًا، وإن كَمَن كان كموه تمرُّضًا وتمعُّكًا. نعم، وإن كَنَى كان كناية مغالطة، وإن صرَّح كان تصريحه مُباهتة. نعم، وإن أشار كانت إشارته جهالة. نعم، وإن عبَّر كانت عبارته ضلالة؟ فما حال مَنْ ذا حاله، وما جواب مَنْ ذا سؤاله؟ غالته والله الغول، وبقي حيران فيما يكتُم ويقول. جهدٌ والله قليل الجدوى، وأمرٌ والله مقرون بالبلوى. فإلى الله مِنْ أَوَّلِهِ وآخره الشكوى، فإنه نعم الناصر [٦٦ب] والمولى، في الآخرة والأولى.

(١) الجباء: العطاء.

(٢) في الهامش: «نسخة: جاءت الهواجس».

وأعود فأقول: اعتبرني فلكَ فيَّ معتبر، واستخبرني فلكَ عندي مستخبر. ثم إذا اعتبرت [و] استخبرت فقسَّ عيانك على عياني، وانظر أين إسراك من إعلاني! وأين بوحك من كتمانني! وأين مكانك من مكاني! لعلك تطلع على شأنك أو شأني! يا من رأيي وكأنه لا يراني! أما تراني كيف براني، ثم أراني ما أراني، ورأيي فيما رأيي، ثم استرأيي فاسترعاني، ثم قال: لن تراني، أو تراني بأن لا تراني.

فخذ بي الآن، يا صاحبي، فيما تسمع، أو خذ بي لما تعرف إن لم تسمع، أو خذ لي ما تسمع إن لم تعرف.

هيهات! ضاق اللفظ، واتسع^(١) المعنى، وانخرق المراد، وتاه الوهم، وحرار العقل، وغاب الشاهد في الغائب، وحضر الغائب في الشاهد، وتنكرت العين منظوراً بها ومنظوراً إليها ومنظوراً فيها. فكيف يمكن البيان عن قصة هذا إشكالها؟ وأين الدواء، والعلة هذا إعضالها؟ اليأس اليأس، القنوط القنوط! الويل الويل! اللهم إلا أن يُجلِّلها لوقتها من هو أولها وآخرها، وواردتها وصادرها.

دع هذا أيضاً فإنه ألدع من جمر الغضا؛ وخذ فيما يتلافى ما مضى، ويحدث في المستقبل بعض المراد إن لم يكن كل الرضى. كن رقيبك على نفسك تكن نفسك رقيباً عليك، فإنكما إذا تراقبتما استغنيتما عن كل رقيب عليكما، وخذ حقيقتك بالصبر فإنه ملح الحال، ولا ظفر لمن لا صبر له، ولا نجاة لمن لا أناة معه. ثم اجتهد بعد ذلك أن تستيقظ بين النيام وتنام بين المستيقظين، فإن استيقاظك بين النيام يفرغك لنفسك، ونومك بين المستيقظين يريقك^(٢) لحظك. وهذا رمزٌ إن فطنت له كان لك راحة، وإن غُيِّبَ عنه كان وتاحة.

اللهم إننا قد أكثرنا القول فيك ثقةً بك، لا جرأة عليك، وافتتنا في الخبر عنك حباً لك، لا اغتراراً بك. فقابل ثقتنا بك بالتحقيق، وحبنا لك بالتصديق، فنعم الرفيق أنت ونعم

(١) في الهامش: واتسق.

(٢) في د: يرفهك.

الشفيق. وإذا قابلت ذلك بما سألتك، [٦٧أ] فزدنا من فضلك ما أنت أهله، وإن لم نكن نحن أهله. يا أهل التقوى وأهل المغفرة.

يا هذا! إن فُتح عليك بابُ الربوبية باستيعاب العبودية، ورُقِّيت إلى الحرية بعد ذلة الرق في الخدمة، شاهدت عجائب وعجائب، ورأيت غرائب وغرائب. فإن قلت مثل ما [ذا]؟ قيل لك: وأين مثل ذلك وأين ما قاربه؟ أدناها أنك ترتعي^(١) حدائق الأمن، وتشمُّ نواضر الأزهار، وتشهد العقول سائرة في هواجس الكرامات نحو الأرواح المقدسة بالطهارة، وتسمع معاتبة الأحياب على شجوى يسحر الأبواب، ويقطع دون الحق كُلَّ حجاب، ويفتح كل باب. هذا ذَرُؤُ^(٢) من الحديث عن هذا المقام الذي وصل إليه بعضُ الكرام، ثم وراء ذلك أيضًا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، لأن العين إنما تألف المحدودات، والأذن إنما تحدُّ المرسومات، والقلب إنما يخطر عليه ما جرت به العادات^(٣). فأما ما يعلو عن هذا كله، علوًّا لا بمسافات ومجازفات، فلا خبر عنه إلا بالإيماء اللطيف، أعني الإيماء الذي (لا) يَلْطُفُ عن الوهم ويأنف من الحس، ويستغيث من الشكل والضدّ. فبذلك الإيماء يمتلئ برّ^(٤) العارف نورًا، ويتقد بحرُّ نارًا، ويكون الوجد به وجد السائحين في أعماق الملكوت، ويكون الذوق له ذوق الوالهيين ببوادي الحق. ولولا أن الرب سبحانه يُمسك العقول عن التهافت، والأرواح عن التهالك، والنفوس عن التطاوح، والقلوب عن التمارج، لتبدد منها الشمل الملموم، وانتثر عنها الأمر المنظوم، وتزايلت الأشياء عن سِماتها القائمة عليها، وتعاندت عن صفاتها الثابتة بها. فإنما يمسكها بسابق علم له فيها ونافذ تدبير منه عليها، له الحكم وإليه المرجع.

اللهم إنا نعتسف هذه الطُّرُق الوَعرة، ونصبر على مَشَاقِّها بالجوع والعرى [٦٧ب] والوحدة لنخرج منها يومًا إلى نورك الذي أضاء عالمك، وفيه برز غيبك، وعليك دَلٌّ

(٢) ذرو: من دار يذرو: أطار وأذهب.

(١) ترتعي: ترعى.

(٤) في (ع): سِرّ.

(٣) في (ر): العبادات.

فَعَلَّكَ، وَإِلَيْكَ أَشَارَ أَتْرَكَ. فَنَسْأَلُكَ بِهَذِهِ الْقُدْرَةِ أَنْ تَقْبِلَنَا وَلَا تَرُدَّنَا، وَتَصِلَنَا وَلَا تَضُدَّنَا، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ!

رسالة (٢٣)

اللهم اكفنا كلُّ مُكَايِدٍ لَنَا فِيكَ، واقمَعْنَا كُلَّ عَدُوٍّ لَنَا مِنْ أَجْلِكَ، واشغَلْنَا كُلَّ شَاغِلٍ عَنْكَ، وَأَلِّفْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ كُلِّ مُؤَلَّفٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، وَأَحْسِنِ جِزَاءَ كُلِّ مَنْ صَرَفَ وَجُوهَنَا إِلَيْكَ، وَأَكْرِمِ كُلَّ مَنْ حَدَّثَنَا عَنْكَ. وَإِذَا كُنَّا نَحْبُ مِنْ يَدْعُونَا إِلَيْكَ مِنْ أَجْلِكَ، فَكَيْفَ لَا نَحْبُكَ إِذَا قَبِلْتَنَا خَدَمًا لَكَ، وَشَمِلْتَنَا بِأَيْدِيكَ وَمِنْكَ! كَذَبَ مَنْ ادَّعَى مُحِبَّتَكَ ثُمَّ التَفَتَ إِلَى سِوَاكَ سِرًّا أَوْ جَهْرًا، اخْتِيَارًا أَوْ قَهْرًا.

إِلَهْنَا! قَدَرْنَاكَ حَقَّ قَدْرِكَ، لَمْ نَطْفِ بِذِكْرِكَ، وَلَكِنَّا نَذْكُرُكَ بِإِذْنِكَ كَمَا أَلْقَيْتَ إِلَيْنَا عَلَى لِسَانِ الصَّدَقِ عَنْكَ. فَاسْمَعْنَا إِذَا ذَكَرْنَاكَ، وَأَجِبْنَا إِذَا دَعَوْنَاكَ، وَأَعْطِنَا إِذَا سَأَلْنَاكَ، وَزِدْنَا مِنْ فَضْلِكَ، إِنَّكَ كَذَاكَ وَفَوْقَ ذَاكَ.

أَيُّهَا الْجَوْهَرُ الشَّرِيفُ! أُجِلُّكَ عَنْ شِنَاعَةِ الْخَطَابِ فِي التَّقَرُّبِ إِلَيْكَ، لِأَنِّي - وَحَقُّ الْحَقِّ - مُخْلِصٌ فِي وَلَائِكَ وَالْاعْتِمَادِ عَلَيْكَ، وَثَقِيْتُ بِهَذَا الْمَمْنُوحِ الْعَزِيزِ قَدْرَهُ، الْعَظِيمِ شَأْنَهُ، تَلَاظِفِي مَلَاظِفَةَ الْمُنْبَسِطِ، وَتَشَفَّقِي عَلَيَّ إِشْفَاقَ الْوَالِدِ الْمُحِبِّ، وَلَيْسَ هَذَا أَخْصَّ صِفَاتِي فِيكَ، وَلَا غَايَةَ مَا لِي مِنْكَ، وَلَكِنَّ الْعِبَارَةَ قَدْ تَخُونُ مُطْلَقَهَا فِي اشْتِمَالِهَا عَلَى غَيْرِ الْمَعْتَقَدِ، وَسَقُوطُهَا دُونِ الْغَرَضِ الْمَعْتَمَدِ. فَمَا الْحِيلَةُ لِمَنْ كُلفَ ذَاكَ، أَعْنِي كُلفَ مَا لَا يَطَاقُ، وَحُرْمَ بَخْدَائِعِ الْحَسَنِ قَبُولِ ذَلِكَ؟ وَمَحَقَّقُ الْحَقَائِقِ وَمُسَهِّلُ الطَّرَائِقِ شَاهِدٌ عَلَى صَادِقِ دَعْوَايَ فِيكَ، كَمَا هُوَ شَاهِدٌ لَكَ فِي خِصَائِصِ مَا وَهَبَ لَكَ، لِأَنَّكَ - بَلَا كَافِ التَّشْبِيهِ وَلَا هَاءِ الْكِتَابَةِ - فَرُدُّ فِي تَفَرُّدِكَ، وَاحِدٌ فِي تَوْحِيدِكَ. هَذِهِ خُطْبَةُ الْحَقِّ عَلَى مَنبَرِ التَّفْضِيلِ، وَلَيْسَ لِي عِلْمٌ فِيهَا أَقْتَبِسُهُ، وَلَا حِظٌّ أَلْتَمِسُهُ، إِنَّمَا أَلُوذُ بِهِ لِإِيَادِ الصَّبِّ الْوَاقِعِ، ثُمَّ أَعُوذُ بِهِ [٦٨أ] عِيَاذَ الْمُتَوَتِّرِ الْحَانِقِ.

اسمع، أيها الإنسان، بدءًا من الكلام، وغريبًا من المعاني. فإني أقول: لاحت بوارقُ التمني فسمت نحوها نواظرُ الافتقار، وتهيأت صور المعنى تبدو فتقطعت عليها أكبادُ الأحرار، وأذعنت النفس الأبناء^(١) على مداهايتها، تروم حيلةَ المشار إليه مستوفاة بقضايا الحس، والحس حاكم مُرْتَشٍ، وخابط خبط عشواء في ليل مُدْلَهَمٍ. وإنما انخدع به من وزن حقائق مطالبه برأيه المتهَم، وخاطره الكذوب. وقد طالت الشكِيَّة، ودامت البلية، وتضاعفت الرزية، في تسلسل قول لا يَبْرُزُ معناه مِنْ خَلَلِ حَجَبِهِ^(٢)، وانقلب الفصيحُ المَقُولُ عِيًّا في كشف المراد على الغاية. فالإشارة كأنها نكاد^(٣)، والعبارة على الأيام تزداد، ونار الوجد على اضطرابها تبيدُ رسومَ العقل بتحصيله، وتردُّ جُمَلَ القول بتفصيله، فلا حُرْقَ الخلوة تلتقي سكونَ السلوة، ولا أسبابُ الصولة تتصل بمواد الدولة. فهل يحسن أن يكون (بقول^(٤)) مَقْطَعُ القول عِيًّا وعَجْزًا، ومنتهى الطلب خيبة وإخفاقًا، وغاية البحث يأسًا وتسليمًا، ومردودُ الجواب زجرًا وانتهازًا، وثمره التحقيق حسرة وتحيرًا؟ هذه عِلَّةُ عوراء، وشُبْهة عُمياء، وحجة طامسة، ومَحَجَّة دارسة. ومحاسن الحال موقوفة على طلب المولى، وغاية الفكر مصروفة إلى ابتغاء الأخرى. ومنذ قريب حدثتني الأيام عن كُنْه أفعالها، المضافة بالمجاز إليها، أن أول الأمر اغترار، وهذه رتبة السواد؛ وأوسطه قناعة العلم، وهذه فضيلة ذوي البحث؛ وآخره نكرة في تحقيق، وهذه منزلة اللَهْف والندامة والتلف. فأين من لا أين له؟ أم كيف من لا كيف له؟

هيهات! زاغت الأبصار، وبلت الخواطر، وافْتُضِحَت السرائر، وانعكست الأوائل على الأواخر، [٦٨ب] وغارت العين في منابعها، ورَدَّ القول في وجه القائل، وكسر التحصيل في نحر العاقل، وقيل للسامع: صُمِّ! لعلك تنجو، وللقائل: اُخْرَسْ! فعساك تسمو، وللناظر: غَمَضْ! فلعلك ترنو. فهذه أعلام الحق قد علتْ إلى مراتب التطويح،

(١) الأبناء: الشديدة التمتع والإباء.

(٢) أي لا يظهر معناه من ألفاظه وإشارات التي هي بمثابة الحجب له.

(٣) نكاد: أرض نكاد: قليلة الخير والعطاء.

(٤) هذه الكلمة زائدة ولا مجال لها هنا.

وصار مصير الفضل إلى رتبة الظن، وهُجَّنة الكذب، وسخافة الحال، وضعفِ المُنَّة، وانتكاث القوة، والتياث الهيئة. كل ذلك من عِشْق الآفة وإيثار الزهرة^(١) والتعرض لما لا يصفو بحيلة:

«بكلِّ تداوينا فلم يَشْفِ ما بنا»^(٢)

على ذاك سكونُ القلب بالرضا أجدى من قلق الاعتراف باللسان، وظنُّ العلم أنفع من يقين الجهل، والسكوتُ مع التسليم أحمَدُ من النطق مع التفتيش، ومحقُّ الوقت بالتهاون أهدى إلى مراد المعنى من مصارفة الزمان بحسن التوهم. أليس القول في منشأه عن العين الثابتة، يزاحم الصمت في مورده على الأشخاص البائدة؟ بضروب المشاكلة وصنوف المماثلة؟ قد بان أن كل المعنى بعضٌ، وبعضُ المغزى كلٌّ، وأن كل ذا وبعضُ ذا منقسم، وأن المنقسم منقوص. فهل كل بعض المعنى إلا كبعض كله؟ وهل بعضُ كله إلا ككل بعضه؟ وهل كله في اللفظ إلا على غاية التفريد، وبعضه على نهاية التشيت؟ هذا نوح القلوب على مذاهب أسرارها. ومأتمُّ العقول على فوائتها. عندها يطيب البكاء الطويل، بالويل والعويل، من منابع قلب قد جف بالوجد والغليل:

لعلَّ انحدارَ الدَّمْعِ يُعَقِّبُ راحَةً من الوجدِ أو يَشْفِي نَجِيَّ البلبَلِ^(٣)

قُتِلَ الخَرَّاصُونَ، الذين هم في غَمْرَةٍ ساهون، وهَلَكَ الخَدَّاعُونَ الذين هم في عَرَصَةٍ الباطل لاهون. ما فائدة البكاء إلا استراحة. لا جَرَمَ قد ضيق عليه الفكرُ ساحةَ الإصابة فَدَمَعَ وَقَطَرَ وَهَمَعَ، وسال ومَطَر، ولم يجد مساعاً لريقه، ولا فضاء لطريقه. ولقد أحسن

(١) يعني زهرة الحياة الدنيا.

(٢) صدر بيت ينسب إلى غير شاعر، وأصله:

وقد زعموا أنَّ المحبَّ إذا دنا يَمَلُّ وأنَّ النَّأيَ يَشْفِي من الوجدِ
بكلِّ تداوينا فلم يَشْفِ ما بنا على أن قرب الدار خير من البعدِ
على أن قُرْبَ الدار ليس بنافع إذا كان من تهوَاه ليس بذِي ودِّ

وقد نُسِبَت هذه الأبيات إلى ابن الدمينية وقيس بن الملوح (مجنون ليلي) ويزيد بن الطثرية.

(٣) مر هذا البيت لذي الرُّمَّة.

ما شاء بعض المُحَنِّكِين في قوله حين قال: [٦٩أ] إذا خِفَتِ صعوبة أمر فاصْصَبْ له تَدَلُّ لك مراكِبُه، وخادع الوقت عن أحداثه.

سيدي! ليس بموفق من توسل بغير الافتقار إليه، ولا بمُعَانٍ من رجع إلى غير الاعتماد عليه. اليأس معه أروح من الرجاء في سواه، والصبر على بلواه أفضل من التعرض لنجواه، أطلتُ وما أطللت^(١)، وقربتُ وما أصبت. فليتني احترقتُ بنار الوجد ولم أستضيء بنور العلم. أم ليتني قطعتُ الوقت بحسن الفعل، ولم أفنِ العمر بزُخرف القول. أم ليتني غرقتُ في بحر التسليم، ولم أركب برَّ التنكير^(٢). أم ليتني سلكتُ فِجَاجَ العَمَى، ولم أعلَّ قُلَّ البصيرة. أم ليتني انطويت على غُصَصِ القَوْت، ولم أبح بسرائر الحال. أم ليتني خليت الوقت يرددني في أرْجوحة المحنة، ولم أهتِكُ بنات صدري على رؤوس الخلق. أم ليتني لم أكلف أسباب التعريض، إذ مُنِعْتُ لذَاذة الرواية والتصريح. أم ليتني أصبت قاتلاً يفهم، إذ حُجِبْتُ عن سامع يفهم. أم ليتني كُفِيتْ مؤونة الطلب، إذ حرمت فضيلة الدرك. أم ليتني عُرِلْتُ عن باب الهذيان، كما قد ضربت بلوافح الحرمان.

هيهات! قول يرقُّ، ومعنى يلطفُ، وكلام يدقُّ، وحقيقة تُشرق. والخلق في خوضهم يلعبون، وفي طغيانهم يعمهون، والمحترسون مما يضرهم قليلون، وطُلاب الشفاء مما ضرَّهم كثيرون. وإنما تفضلت الأشياء بهياتها ونعوتها، وأسمائها وصفاتها. فأما الخاصة التي فيها فواحدة، لظهورها من حال القدرة متصرفة على أذلالها^(٣)، متشاكلة في إقبالها وإدبارها.

هذا لسان التصوف، والتصوف معناه أكبر من اسمه، وحقيقته أشرف من رسمه. ولذلك المنطق المقدم عند أهله إذا أصغى إلى علمه، واحتال في تحصيله، رجع إلى نفسه خاسئاً وهو حسير، يرى حروفاً تشيع بحلاوتها في نفسه، وأغراضاً [٦٩ب] ترتفع بلطفاتها^(٤) عن

(١) أي ما أشرفت على المراد بتلك الإطالة.

(٢) التنكير: البحث.

(٣) أذلال: جمع ذلٍّ، والذلُّ من الطريق: ما مُهِّد منه بكثرة الوطء.

(٤) في (د): لطافتها.

تصور إدراك عقله؛ وأرباب القلوب وذوو العقول وأهل المحبة يملكهم اللائح، ويقهرهم اللامح، ويأتي عليهم الجزء الذي لا يتجزأ، ويستوفيهم الوهم الذي لا يترأى.

هذا خبرهم على ما يقتضيه المخبر عنه. فأما قواعد التي بنيت عليها أمري، وأركان التي أسندت إليها شأني، فأشياء لا يحويها شرح كتاب، ولا يستغرقها بيان خطاب، لأنها مشبهة المناظر، متلونة البواطن والظواهر، ولكن جملة تُتم على التفصيل. إني حشوت وقتي بالظلف^(١) والتنزه للذين يعمران حال النفس بالرياضة والتهديب، ثم رفعت التهمة من الاعتقاد والضمير التي تربي الآفة وتذيب الخاطر وتُضِلُّ الرأي؛ ثم حللت ساحة الرسوم متربعا على توفية العمل بقدر الوسع وبذل الجهد؛ ثم أشعرت قلبي خوفا لا لبث معه على شيء، وطالبتها بالصبر على المهانة والذل، وخاطبتها بعد ذلك بأشياء: وَعَدْتَنِي في بعضها صلاحا، وذهبت في بعضها جماحا. ثم انثنت مرتاعا إلى من نهج السبيل بالآلاء والنعم، وأوضح الدليل بالأنباء والحكم، فقلت: مولاي! أنت لا شيء غيرك! الإشارة إليك باللسان نقص وعجز، والتوجه نحوك بالقلب فضل وعز، والإعراض عنك خذلان وبوار، والإقبال عليك مسار ومبار. تباركت وتعاليت، وتعظمت وتناهيت، أسألك بغاية افتقاري إلى ما عندك أن تُحَلِّينِي بغاية افتخاري معك.

سيدي! قد صرّفت القول في هذه المخاطبة بين إشارة لها عمق بالاعتبار، وبين عبارة لها مُتَغَلِّغٌ في غوامض الأسرار. وإذا قرأتها فارغ حقي فيها، وحسن ظنك بي في عرضها، وتداركني بما أحببت منها، فإني غني عن كل أحدٍ إلا عنك. وإقراري عليك بهذا يوجب عليك التفضل عليّ، والإحسان إليّ.

وبعد، فإني أوصيك - متبرعا - بما أرجو أن أكون به قاضيا لحق الصفاء في المودة بيني وبينك، ومستديما به شوقك [١٧٠] على الأيام التي تجمعني وإياك، أو تحدث فرقة على العادة التي لها مع غيري وغيرك: لا تَذْبُذِبَنَّ في عزماتك التي يلوح رشك فيها، فإن ذلك يثبطك، ويعقل همتك، ويجرّ حبل الندم في التآني عليك بك. بل إذا هممت فعانق، وإذا

(١) الظلف: منع النفس من أن تفعل شيئا.

عانقت فالزم، وإذا لزمتم فاستسلم. فإن همك في الأول محرّك نحو المقصد، ومعانقتك وجدانٌ للمراد، ولزومك استثباتٌ للحال، واستسلامك تفويضٌ إلى من يحفظك في المحل. ومهما عجزت عن شيء فلا تعجزنَّ عن تطهير القول وشَوْفه^(١)، وتنقيته وغسله وتبصيصه^(٢)، فإنه آنية الحق يضع فيه ذخائره، ويلقي عليه أنواره ويطهره، وهو إصلاح الفكر ونفي الهم والبراءة من المقاذر، والتنحي عما يُوسّخ النفس ويُبعد الأنس. فإنما كُلُّك قلب، والباقي منك تابع له، وبسوانحه تتصرف، وبصورفه تتماسك، وبدواعيه تنهالك. فإذا كان نقيًّا جليًّا نقيًّا ذكيًّا كانت حركاتك موزونة بالناموس الإلهي، وسكناتك معدّلة بالغيب الحكمي. وأقل ما لك في هذا المصباح إذا وقد لك أن تعدّم الشكَّ في الأشياء لامتلائك باليقين، وفيضك بالسكون، ونظرك إلى ما كان ويكون، بغير فاصلة من زمان، ولا حيلولة من مكان.

هيهات! بلغت هذا المكان بقلمِي، وقد خنقتني العبرة تذكرًا لهذه الأحوال من قوم شاهدتهم مُدَّ أربعين سنة، كانت صفحات وجوههم مبشّرة بالخير المطلوب، ومقاديرُ حركاتهم ناطقة بالحق الذي هو آخر ما يُكدِّله ويُسعى إليه، وشواهدُ ألسنتهم ناصحة لكل سامع له من نفسه يقظة، وعليه من عقله حفَظَة، وله إلى الله عز وجل التفاتة، وقد قيل:

وآخر ما يبقى من الذاهب الذِّكْرُ

وقد قيل أيضًا:

تذكرتُ شيئًا قد مضى لسبيله ومن حاجة المحزون أن يتذكَّرًا^(٣)

[٧٠ب] اللهم اشغلنا بذكرك عن ذكر غيرك، وإذا حركتنا لذكرك فحرّكنا أيضًا لنشهد ذكرك لنا، فلولاً ذكرك لنا ما ذكرناك، يا ذا الجلال والإكرام!

(٢) التبصيص: الترشيح.

(١) شَوْفه: جلاؤه.

(٣) البيت للناطقة الجعدي (ديوانه: ٥٧) دار صادر - بيروت.

رسالة (٢٤)

اللهم^(١) اصنع لنا، والطف بنا، وافككنا من أسرنا، واجبرنا من كسرنا، وحولنا من عُسْرنا إلى يسرنا. فجدودك فائض، وخزائنك ملاءى، وحكمك نافذ، وملوكك عظيم، ورحمتك واسعة، والطريق إليك^(٢) رَحْب.

يا هذا! تضرّع إلى ربّ له خَضَعَتِ الرَّقَابُ، وَعَنَتِ الوجوهُ، وحارتِ العقولُ، وجالتِ البصائرُ؛ وله بان كلُّ شيءٍ، وإليه انتهى كل شيءٍ، وعليه وقف الأمل، وفي فناءه أناخ الراجي، فإنك إذا تضرعت إليه سَحَّتْ سماؤه عليك، وامتدّ ظله السَّجَسَج^(٣) لك، واثمر لك كل شيءٍ، واستفاد منك كل شيءٍ. إنك إن ذقت حلاوة وصاله، وأويت إلى عريش كرمه لم تصبر ساعة واحدة عن ذلك النعيم الخضل، والفناء الخضر، واليسار الدائم، والأمر القائم، والبر المتصل، والمراد الحاصل.

يا هذا! إلى متى تنافس أهل الدنيا في الدعوى؟ لِمَ لا تنظر إلى حالك في العُقْبَى؟ لم لا تسلك الطريقة المثلى؟ لم لا تلتمس مآربك بالحسنى؟ ماذا يجيء من هذا التهافت وهذه الذلّة وهذا الجهل؟ كأنك ما رأيت بعينك عبرة، ولا حَصَلْتَ لك بشيء خبرة؟ أما تستحيي أن تستخدم عقلك، الذي هو أشرف مَنَحِ الله عندك، لشهوتك التي هي أفضح الأشياء لك؟ وما في قضاء وطر ساعة، وما في نيل لذة منقطعة، يبقى عارها ويرتهنك وزُرْها؟ يا عدوّ نفسه! يا جانيّاً على روحه! يا جالباً لحتفه بيده! يا شارباً للسمِّ بكأسه على علم منه به! ما أرداك لنفسك! وما أطرحك لبدنك في عذابك! ما ألهاك عن شأنك، وما أقسى قلبك على مهجتك، وما أذهلك عن رشدك! وما أركبك لمطية غيّك، [وما أهملك^(٤) لسلوك سعادتك]، وما أصفق وجهك في خلافاك! وما أصلب حَدَقَتَكَ [٧١] لإصرارك^(٥)، وما أضيق عذرك عند احتجاجك واعتذارك! [وما أهمل نظرك لنجاتك]^(٦).

(١) معظم هذه الرسالة ثابت في ل (ورقت ٣٨ أ - ٤٠ ب) بعنوان: صياقل الأنفس الصدية في تهذيب الأخلاق من الإشارات.

(٢) ل: إليها. (٣) السجسج: الهواء المعتدل بين الحر والبرد. وظل سجسج: لا ظلمة فيه ولا شمس.

(٤) زيادة في ل. (٥) ر: لإصدارك. (٦) زيادة في ل.

يا هذا! الحديث أَكْنَى^(١) عن الغاية مما يقرع أذنك، أعني أنه شيء بدا في الأول من سابق العلم، وسرى في الثاني على رادف الحال. فاتفق الأول والثاني، لأن الأول أَوْجَبَ، والثاني وجب. فلهذا غمض البيان في ديوان التكليف، واختلف القول عليه من الوضع والشريف. فقال هذا: إنما أتيت من اختيارك^(٢) الردي. وقال ذاك: إنما أتيت من اختيار القوي العزيز. فلما لجج اللحاء^(٣) بين هذين القائلين، جنحنا إلى الضجر، وقالوا: فما نصنع؟ فقال العارف: سَلَّمْنَا ما نجعل، وقبلنا ما نعلم، ولا نجمع بين الإساءة والاحتجاج، ولا نصل المخالفة باللجاج. الخَلْقُ له والأمر له، والخلق عبارة عن كل ما تراه موجودًا بحس وعقل، وظن، ووهم، وشك، ويقين، وعلم، وما أشبه ذلك، والأمرُ تصريفه بالدواعي الباعثة، والبواعث الداعية، وبالصوارف المانعة وبالموانع الصارفة! فهل بعد الخلق له في الذي هو له والأمر الذي هو أيضًا له «قال لك» أو «قيل لي»؟! بلى عجزي عني هو الذي قَدَمَ فمي^(٤)، وأخذ بكظمي، وألجأني إلى ندمي وسَدَمي، وشَوَّقني إلى بطلاني وعدمي، بعد إحساسي بما سبق من ثبات قدمي على ما استتب في قَدَمي. ولولا هذا العجز لكان لي مجال في القول ومجاز إلى الدرك، ولكن جلَّ من لا يطاول، ولا يقاول ولا يُغاول^(٥)، ولا يجادل، ولا يعادل ولا يزاوِل. له اليد الطولى ساء أم سر، والحجة العظمى^(٦)، حلا أم أمر. يا هذا! ليس للعبد إلا ما هو به عبدٌ، فإن جُنَّ قليلًا وظنَّ أنه ربٌّ، فهناك هلاكه وبُطوله وهبوطه وسفوله وسقوطه.

عَدَّ أيضًا عن هذا، وخذ حديثي: إمَّا جملة لا تشفيك شرًا، وإما تفصيلًا لا ينفي عنك بَرَحًا، ولا يَدْمُلُ^(٧) منك قرَحًا، ولا يحمي لك سرَحًا [٧١ب]، ولا يجلب إليك فتَحًا، ولا يخفف عنك^(٨) مَتَحًا. وذاك أني حِمْتُ حول الورد فما وردت، وتعرضتُ لنيل المكانة فما أهْلْتُ، واستغثتُ فما أُغِثْتُ، [واستعنت فما أُعِنْتُ]^(٩) ودعوتُ فما أُجِبْتُ، وسألتُ

(١) ل: اكتنى. (٢) ل: اختيار. (٣) لجج في الأمر: تمادى فيه معاندًا، واللحاء: الخصومة.

(٤) قدم فمي: وضع عليه القدم، وهو ما يوضع على فم الجمل لمنعه من الأكل أو العض. والمعنى: أسكتته.

(٥) يغاول: يبادر. (٦) ر: الوضعي. (٧) دمل: برئ.

(٨) في (ل): ولا يجفف عنك. والمتح: استخراج الماء. ومتح من الشيء: استقى وأخذ منه. (٩) زيادة من ل.

فما أعطيتُ، واعتذرتُ فما قبلتُ، واحتججتُ فما مُكنتُ، وطلبتُ الجادة فما هُديتُ، وأُصِبتُ فما عُرِّيتُ. فبقيتُ هكذا بالعراء منزور^(١) الصبر، مغزور الوخر^(٢)، قد نَقَبَ خُفِّي وَدَمِي أَظْلِي^(٣)، وذهب أكثرِي وبقي أقلي. فلو قيل لي يوماً: نعم كان منك كذا أو كذا فلهذا أنت على ذا وذا، لكان ذلك مثلاً لعيني أتعلل به، وتعلل نفسي أتمثل له. لكن جرى ذلك كله بعزة سلطان، وقدرة ساط، وعلو يد، واستبداد قديم. على أي إذا أنصفتُ اعترفتُ بالنعمة في أضعاف هذه البلية، لأنها أَخَذَتْ وأبقت، ونالت وأَسَارَتْ^(٤)، وتطرفت وتَعَدَّتْ، وحَزَّتْ وجارت، وجرحت وآست، وقرحت ودملت، ورعدت وبرقت. ولو أنت على الأصل والفصل، وذهبت بالدق والجل، من كان يتدارك ومن كان يعترض، ومن كان يقول: لِمَ، وَلِمَ محذوفة في مخاطبة الملوك، ومن كان يقول: كيف، وكيف مرفوعة عن مواجهة الأرباب؟ - إنما لِمَ وَكَيْفَ للعزيز إذا أدب به الدليل، وللسيد إذا قوم عليه العبد، وللرفيع على الوضع إذا أثبت عليه الأمر. فأما من علا عن هذا كله، فكيف يقابل بما لا يجوز معه، ولا يؤذن له!

هيهات! قصر الفهم، وطال الوهم، واضطرب الحس، وثبت العقل، وسَبَحَ العلم، واعتلى اليقين، وتَرَجَّرَجَ الظن، واقتحم الشك، وعَرَضَ الإيجاس^(٥)، واعترض الإلباس، واشتد بين هذا وهذا اليأس. فأما قصور الفهم فلأنه رَكَنَ إلى الطبيعة، وأما طول الوهم فلأنه نَدَّ عن قرار القلب. [١٧٢أ] وأما اضطراب الحس فلأن منشأه من الأعراض. وأما ثبات العقل فلأنه يستملي من الحق. وأما سُبْحُ العلم فلأنه محيط بكل شيء. وأما اعتلاء النفس فلأنه من العالم العلوي. وأما تَرَجَّرَجَ الظن فلأن مصدره من اعتنان^(٦) القلق. وَأما اقتحام الشك، فلأنه صيغة الإنسان. وأما عَرَضَ الإيجاس فلأنه من روادف الحال^(٧). وأما اعتراض الإلباس فلأنه من تمام جميع ما سلف. ولما

(١) منزور: قليل. (٢) الوح: الغيط، الحقد، وساوس الصدر. (٣) أَظْلُ: بطن الإصبع. والجمع ظُلٌّ.

(٤) سَأَرَ من الطعام والشراب: أبقى بقية.

(٥) الإيجاس: من «أوجس» وأوجس الشخص: وقع في نفسه الخوف. وأوجس فلان الأمر: أضمره. وقرئت في ع:

الإيحاش، وهو الشعور بالوحشة. (٦) اعتن: اعترض.

(٧) يقصد: أما ظهور المضمهر فهو من لوازم الحال وتوابعها.

كان الإنسان دَنَسَ الجيب، مُتَّهِمَ الغيب، مَعْدِنَ الرَّيْب، وَمَقَرَّ العيب، توالت عليه ومنه وفيه هذه الأمور الشائنة، وهذه الأحوال المتشاحنة. وإنما يُنْقَى وَيُطَهَّر في الثاني بالقيام على وظائف التكليف، وحدود الأمر والنهي، وقبول ما يشير به العقل الكريم والرأي الرشيد.

تَحَرَّم - هداك الله - في هذه النكت البديعة، وتجمل بأحسنها متزيئاً به. واجعلها كلها إماماً لك: تَطْلُبُ سعادتك فيها، وتستبين مقامك منها، وتعرف قيمتك بها، لأنها صياقل الأنفس الصدئة، ومجالي الأخلاق الكدرة، وهوادي الآراء الضالة، ومرائج^(١) الألباب العازبة، وساقى النصول الكليية، وشافي الأرواح العليية، وناصح القلوب الذاهلة.

فاطلب نفسك التائهة منك، أو اطلبك في نفسك المهلكة لك في هذه الفقر الملفوظة من أفواه العارفين، المقطوفة من أشجار الواجدين، المسقاة من الماء المعين، في المقام الأمين. واجعل ديدنك معاتبة النفس في الليل وخاصة في السحر الأعلى، فإن شَمَلَ الفكر لا يكون قد تصدَّع، وبال النفس لا يكون قد تبلبل، والأحاساس تكون خاترة، وفي خثورة الأحساس زكاء^(٢) الرأي، [٧٢ب] واشتعال الصواب، وورود الحق، ونفور الباطل، وتبيان المشكل، ووضوح الغامض، واستبانة الصحيح، وبرء السقيم، وإذا غلبت عليك هذه الحال بهذه الصفة رأيت أيضاً في منامك ما يزيدك بصيرةً في يقظتك، كما كانت يقظتك على هذا النعت سبباً قوياً في صدق رؤياك.

إنَّ الحق يُناغي العارف في رؤياه، للصفاء الذي يكون عليه في تلك الحال، فيتزود منها ما تصير به اليقظة مضاعفة. فهناك يرى العارف الغيبَ شَهادَةً، والمستور مكشوفاً، والمظنون مستيقناً. هذه حال مذكورة بين أرباب القلوب وأصحاب الخرق السائحين في هذه العرصات تزجية للوقت، وتقطيعاً للزمان، وتعليلاً للنفس، واعتداءً^(٣) بالاعتبار، وانتجاعاً^(٤) بالسرار، وانتجاعاً بالجهار، وقلقاً إلى الصدار إلى دار القرار. فلا تنكر نعتي لها، وبعثي عليها، فقد لاحت لي منها أشياء طريفة، وأمور بديعة، ولولا أنَّ هذه الورقات

(٢) زكا يزكو: نما.

(١) في (ع، ر): ومريح.

(٤) انتجاع: خَصَّه بمناجاته.

(٣) كذا، ولعلها: اعتداءً.

أرفع قدرها عن رسمها فيها، لَوَسَّمْتُهَا معجباً منها كما عهدتها عاجباً بها؛ وغيب الله عز وجل ليس بمحدود، وبإديه غير مردود، ومتواريه غير معدود.

وأول هذه القصة في تهذيب الأخلاق، ووسطها في أخذ العبر من جميع الآفاق، وآخرها الوصول إلى الله العزيز الخلاق. والإنسان نصفان: نصفه خُلِقَ ونصفه خُلِقَ، فإذا صلح نصفاه كمل ما هو به إنسان. فأما نصفه الأول الذي هو به خُلِقَ فهو أيضاً على نصفين، أعني أنه بالصبغة الأولى على وتيرة لا مَزَالَ له عنها، وبالكلفة الأخرى فله رفع ووضع. وكذلك هو بالنصف الثاني، الذي هو به ذو خُلِقَ، فعلى نصفين: فالنصف الأول هو التشبُّه بالصبغة الأولى حين كان بها خُلِقًا، [١٧٣] وبالنصف الثاني هو الذي به يصير أحسن الناس خُلِقًا، وأقبح الناس خُلِقًا. وهذا كلام، وإن لم يكن في حومة التوحيد، فإنه لا يُستغنى عنه عند قصد تلك الغاية، لأن العارف بالله، الواجد لله، والقاصد إلى الله، والمتهالك في الله، والمتنسب إلى الله، والذاكر إلى الله، والواصل إلى الله، والمتصل بالله لا يخلون من معالي الأخلاق، وعوالي الهمم، وشرائف العادات، وغرائب الأفعال، وبدائع الأحوال. ولهذا، قال قائل منهم، - وقد أكثروا عنده ذكر الدنيا-: أما أنا فإن تُقْبِلَ الدنيا عليّ لا آخذها أخذ الأشرِ البَطِر؛ وإن تُدْبِرَ عني، لا أبكي عليها بكاء الخرف المهتر^(١). وقلت لأبي حنيفة الصوفي ببغداد: كيف أنت؟ قال:

كُلَّمَا قُلْتُ: غَدًا موعِدُنَا؟ ضحكت هنّد، وقالت: بعد غد^(٢)!

يا هذا! إنما احتجت إلى تهذيب الأخلاق لأنك معجونٌ من عقاقير كثيرة، ومركبٌ من أضداد متعادية، وأشكال متوافية. وكانت فيك كأنها أنت، وكنت بها لأنها فيك، فلهذا

(١) المهتر يفتح التاء: من ذهب عقله من كبر أو مرض أو حُزن.

(٢) البيت لعمر بن أبي ربيعة في قصيدته التي مطلعها:

وَشَقَّتْ أَنْفُسَنَا مِمَّا تَجِدُ

ليت هنّدًا أنجزتنا ما تعد

والرواية المشهورة لهذا البيت هي:

ضحكت هنّد، وقالت: بعد غد!

كلما قلت: متى ميعادنا

راجع ديوانه.

احتجت إلى ضم نشرها، وَلَمْ شعثها، وتَأَلَّف شاردها، وإصلاح فاسدها، وتقويم أعوجها، وإرشاد أهوجها. فإذا صَلَّحَتْ أخلاقك، حَسُنَتْ آدابك. وإذا حسنت آدابك، شُرُفَتْ هممك. وإذا شرفت هممك، طابت مآربك. فعندها تصلح لخدمة الملوك ولحضور خلواتهم، وسماع نغماتهم، وحفظ كتاباتهم؛ وعندها ينزل عليك الوحي الخاص فيما تصير سعيداً به. ولا تُبال^(١)، عند حصول هذا الشعار، أن تجوع وتُعْرَى، وتظماً وتضحى، وتُطرد وتُحْفَى، وتُهان وتُنْفَى، وتُعاب وتُقْفَى^(٢)، فإن ذلك كله صنع من الله لك، لأن فيه تخلية لِرَسْنك، وإلقاء لحبلك على غاربك، وتركاً لك ولحالك، وإسقاطاً للعوارض عنك، وتوفيراً على المهمات [٧٣ب] لك. فإن الخلق شغل في شغل على شغل، وما شُغِلَ أحدٌ بالخلقِ فوصل إلى الحق، لأنهم لا يدعون أديماً إلا فَرَوْه^(٣)، ولا صحيحاً إلا عَرَوْه^(٤)، ولا نابهاً إلا شَرَوْه^(٥)، ولا هارباً إلا قَرَوْه^(٦)، ولا خليطاً إلا مَرَوْه^(٧)، ولا جَدَّاً إلا كَرَوْه^(٨). والبلوى عظيمة^(٩). وحسبك أنهم يشغلون صاحب الدنيا عن الدنيا، فكيف يتركون صاحب الدين مع الدين! هذا ما لم تَجْرِ به منهم عادة، ولا لهم فيه حفاوة.

فلهذا واثرت في هذا الجزء الكلام في الأخلاق وتهذيبها، فإنك بذلك تصفو بعد التهذب. ثم ليس بعد الصفو إلا ما إذا بدا من الحق باديه زانك وجَمَلَك، وأطلعك على الغيب وأشهدك، وأصدرك وأوردك، وصرت من الذين أنعم الله عليهم على طريق الإخلاص من ناحية الاختصاص. فهنيئاً لك إن وجدت هذه الحال بجهدك إن وفقت له أو بتوفيقه وإن لم تجتهد فيه. والله محقق كل أمل، ومُزَكِّي كل عمل، بمنه وجوده.

(١) في (د): تُبَلِّ.

(٢) قفاه يقفوه قَفَّوْا وقَفَّوْا: قذفه بالفجور صريحاً ورماه بأمر قبيح.

(٣) فراه: شقَّه.

(٤) عَرَه: ساء وأصابه بمكروه.

(٥) شر فلاناً: عابه وألحق به الشر.

(٦) أي جعلوه يسكن ويطمئن.

(٧) جعلوه مراً.

(٨) الجَدَد: الأرض الغليظة، وما استرق من الرمل ووجه الأرض. وكرا الأرض يكروها: حفرها.

(٩) ل: والبلوى بهم عظيمة.

رسالة (٢٥)

اللَّهُمَّ ارفُقْ بنا رفقًا يحفظنا لنا، واطْلَعْ علينا اطلعًا يأخذنا عنا، واهدنا إلينا، وأرحنا منا، وخبرنا عن دائنا، وجُدْ علينا بدوائنا. وامحُ عنا آثار الخلق الفاني، وأودعنا أسرار الحق الباقي، وسلّمنا من كل عاقبة عنك، وقنا كلَّ بائقة^(١) منك، ولاطف ضمائرنا بروح لطفك، ودبر ما بدا لنا بتوالي عطفك^(٢)، واحمِ حريمنا من هبوب نسيم غيرك، واملاُ أسرارنا بغرائب برِّك وخيرك. إنك خير المنتَجِعِينَ، وأجود الأجودين، وأكرم الأكرمين. يا هذا! إذا تمنيت نفسك بقاء الأبد، فلا تسكنُ إلى أحد، ولا تنخدع بسبَد ولا لَبَد^(٣). إذا هفا بك الشوق إلى غاية مجهولة، فارُقْ في معارج الوجد إلى نهاية مُسَلِّمة. إذا سوَّلت لك نفسك نسبة إلى [٧٤أ] فعل بشاهد الكسب، فانسبُ بالتفويض إلى جاري القَدَر. إذا استعرتَ عبارة الغائب في الشاهد بالعادة، فلا تطردها^(٤) على وجهها في الغائب. إذا استغرقتك رؤية الاختيار، فالتفت إلى وارد أحكام الاضطرار. وإذا أحسست بغالب الاضطرار، فلا تنكر مجلوب ما ساقه إليك الاختيار. وإذا عرفت منادي الكل، فلا تميز الاختيار من الاضطرار. وإذا بدت لك العين بالوحدة، فلا تنسب مقدارًا إلى مقدار على طريق الاستكثار. وإذا طاب لك المُقام في وطن، فاعلم أنك بَعُدْتَ عن آثار المعدن. وإذا ملكك النزاع إلى مكان من غير سكنى ذلك المكان، فاعلم أنك قد رشحت لشأن من الشأن.

يا هذا! إذا أمكنتك المشافهة فلا تقبل منه التوسط، وإذا توسط لك بنفسه فقد أغناك عن سواه. إذا سارَكَ بغيبه، فقد صانَكَ عن علانية غيره. إذا قربك المعشوق، فاحتجب عن تقريب المعشق، إذا غشيك المذكور بباي ذكره إياك، فزُلْ عن ذكرك إذكار

(٢) في (د): وزين أبداننا بتوالي عطفك.

(٤) أي لا تجعلها مطردة.

(١) البائقة: الشر، الداهية.

(٣) ما له سبَد ولا لَبَد: ما له قليل ولا كثير.

المُذَكِّرُ لك، إذا استكنمك المَلِكُ سِرَّ المملكة، فلا تشافه في طيه من يعرضك للهَلَكَة. إذا فاجأك الحبيب بمحاسنه، فالهُ عن الرقيب مستمتعاً باللحظ. إذا ناجاك الحق بما يَدُقُّ عن الفهم، فلا تحاكمه إلى نقص العقل. إذا عدا عليك الحسُّ بالاستحالة، فاعدُ عليه بسلطان الحق. إذا فتنك العقل بدقائق البحث، فاستقبله بحقائق التسليم. إذا أعجبتك النفس في الطاعة، فعرِّفها استحقاق المطاع. إذا خدعك الشكر برؤية النعم عن طلب المزيد، فانتفِ بذلك عن رؤية المنعم، إذا حَدَّثتك نفسك بالوصول، فكن على حَذَرٍ من مكر الموصِّل. إذا سما بك الرجاء إلى الطمأنينة، فاهبط إلى ساحة [٧٤ب] الخوف بالقلق. إذا رصدك الهوى بتسويله، فاجبه^(١) سائله بالرد، وعامل غريمه بالتسويق. إذا لاح لك شاهد الحق منك، فواصله بشاهده فيك. إذا استعجمت عليك مراسم الظاهر، فأيدها بحجج الباطن. إذا ساعدك الوقت بخوادع اللذات، فخَفِّ تواع التبعات. وإذا استرقك^(٢) منظرٌ من مناظر الكون، فتكَبَّر عليه بزيئة الصون. إذا زخرفت لك العين شاهد الوجدان، فاستند أنت إلى رُكن العرفان. إذا نَعَمَّ لك بالحن التوحيد، فاطرب عليه بأصناف التمجيد. إذا عكسك حاضر الأمان في مدارج التواني، فاطرِدْ أنت بثابت المعاني. إذا ادَّعى عليك المحال بشواهد التمويه، فابرِزْ أنت بحقائق التعريف والتنزيه. إذا أضلوك بأوائل الإحساس، فاهتد أنت بثواني العقول. إذا كدُّوك بمطالب التعريض، فاسترح أنت بحقائق التفويض. إذا أراحوك من لوازم الظاهر، فاكدُدْ نفسك أنت ببوادي الباطن. إذا حرموك على وجه الاختيار، فتلَقَّ ذلك بشدائد الاضطرار.

لعمري لقد وصفتُ شأنا يعزُّ عن الوصف، ويغربُّ على الواصف تَعَلِّياً عن دَنَس اللسان بحدود اللفظ. ولكن ما يصنع من إن بَدَلَ رَدَّ عليه، وإن بَخَلَ طُلب منه، وإن تَقَرَّب نُسِبَ إلى المَلَق، وإن أُمْسِكَ أُحْصِيَ في زمرة الأبعد؟ رَقَدته غِرار^(٣)، ودموعه غِرار، وقوله وَبَالَ، وسكوته إثقال، ووحدته وحشة، وفكرته دهشة، وصحوه سكر، ونصحه مَكْر، ولسانه ذكر، وربحه وكَس^(٤)، وزيادته نقص، وطِيَّه عَرَض، وإبرامه نقص.

(١) اجبه: الأمر من جَبَّه، أي: قابل.

(٢) في (ر): سرمك، وفي (ع): سرفك.

(٣) أي: نومه يكون غراراً، والغرار: القليل من النوم.

(٤) وكَس: خسارة.

يا هذا^(١)! تَجَمَّعَ عن تفرقك، وتفرق في تجمعك! أتدري ما تفسير هذا اللغز؟ أي: احضر عن غيبتك، وتغيب عن حضورك. هذا أيضًا لغز آخر أنا أكتشفه لك بما هو أبين، فتحل منه بما هو أزين. معنى ذلك: انفِ عن سِرِّك الهموم كُلِّها حتى تنقى من كل [٧٥أ] دَنَسٍ يكون في الإنس. ثم اخطب مجلسك من حضرة الحق بقبول ما يوجد به لك. ثم أفرغ كلك في شكرك هذه المنائح التي كلما جلوتها كانت أحسن وأبهى، وكلما عرضتها كانت أحلى وأشهى.

يا هذا! أما ترى فنون الإشارة إلى غايات الحقيقة، بصنوف العبارة عن الأركان الوثيقة، دالة على الآيات الأنيقة، جامعة للأثار الرشيقة؟ فجل في أطرافها طالبًا نفسك فيها، وغُصْ في أعماقها مُحَصِّلًا لحقيقتك منها. واجعل تباشير بوادي هذه الأحوال مادةً لصبرك إن كنت مُبتلى، أو عُدَّة لشكرك إن كنت مُختلى، وترنح في هذا الفضاء [الذي] قد انخرق لك من هذه الورقات التي هي ألف ورقة، متنزِّهاً، واقطف من ثمارها ما تدلِّي لك ودنا منك، وترشَّف من عينها ما ساغ لك وعذب في لهاتك. وإياك والشك فإنه للقلب مرض، وللدين عَرَضٌ، وللخلق حَرَضٌ^(٢). وإياك وأن تريد إلا وأنت مُريد. فأما إذا كنت مُرادًا، فتجنب كل إرادة لك، فإنها إبادة فيك منك. واجتهد أن تكون سابقًا متمهلاً، وإياك أن تكون مسبوقًا متعجلاً، فإن ذلك عُنوان الفوت وآية الحسرة وعلامة الأسف. وامحُ عن سِرِّك الفكر في كل ما كان أَمَس، فَصَوِّله يمحو لك ما يكون لك غداً، فإن ذلك أحضر لبالك في يومك، وأدعى إلى إحراز نصيبك من فَوْتِكَ. فالوقت حادٌّ، فكن من حدته على حَذَر. والحذر هنا أن يكون همك بالعلويات الأبديات الدائمت الباقيات الصالحات الناعمات، فإن اعتلاق الهم بها [٧٥ب] استغراقٌ لمحاسنها. وفي هذا الاستغراق تشبُّه كثيرٌ بمعانيها، وفي هذا التشبُّه بروز لحقائقها، وفي هذا البروز لحقائقها الفوز بنعوتها. ومن نعوتها خلودها. فأی الإشارة أخلص من هذه؟ وأي عبارة أخلص من هذه؟ قد صنع لك فيما نعم به عندك، ولطف فيما عرض عليك، فكن لآلئه من الشاكين، ولنعمه من المستحقين، ولفضله من الذاكرين. وزن رجاءك بالخوف وزناً عدلاً ثم رجِّح الرجاء فإنه

(١) من هنا حتى قوله: «إيحاش هذا التنائي (ص ١٨٦ فيما يلي) تكرر في ر، وقد ورد من قبل ص ٨١ - ٨٣.

(٢) الحَرَضُ: المرض والفساد الشديد. وفي «د»: للحلق جَرَضٌ. وجرَض فلان بريقه: بلغه بقاء.

أدل على كَرَمَ المرجوِّ، وقابل التوكل بالتعرض مقابلةً صحيحة، ثم اجعل الرُّجْحان في جانب التوكل، فإنه أشبه بحال العبد. وابتح عن مبدأ الوُجْد، فإن كان من آثار الكون البائد البائر الزائل الحائل فلا تَعَجَّ عليه؛ وإن كان من آثار العلو الدائم الخالد فارتد به وائتزر، والتحف به واعتطف عليه، وثق بأنك إذا أُهْلِت للتبختر في هذه الساحة، فقد نلت كل لذة وأصبت كل راحة! وما أقرب هذا البعيد! وما أسهل هذا العسير! وما أشد استجابة هذا الآتي! وما أسرع إيحاش هذا النائي!

إنما^(١) هو رقدة كالحُلْم، وحُلْم كاللَمَح. ثم الاطلاع على نعيم كُنَّا نتهالك هاهنا بشبائهم، لا بحقائقهم، ونحن على أسمائهم لا على معانيهم، ونظن أننا قد وجدنا عزيزاً وملكننا نفيساً. وأيُّ عزٍّ لما يتذله الليل والنهار؟ وأيُّ عزٍّ لما يتخونهُ^(٢) القياس والمقدار؟ وأيُّ شرفٍ لما لا يثبت في لحظة على حال؟ له في كل آن اسمٌ، وفي كل أوان رَسْمٌ: أعني أنه يقال له: غريض^(٣) وذابل، وجديد وخلقٌ، وشاب وهَرَمٌ، ومُقبِلٌ ومُؤَلٌّ. فإن الأمثال بمثله مضروبة، والأدلة على نظائره منصوبة، ولكن القلوب عن التحقيق بمعرفتها [١٧٦] محجوبة، والنفوس مع طلب ذلك منها وفيها مكروبة.

يا هذا! عَضُّ على ناجذك عند مرارة الكدر العارض، فإنه كَلَفَتَة لافِت أو عَطْفَة عاطف. فإن ذلك يُهَوِّن عليك الصبر، ويُفَسِّح منك الصدر، ويزيدك ثقة بالعِوض، وزهادة في هذا الغرض. يا هذا! إن كنت تحب نفسك فلا تحفر لها مُغَوَّاتِها^(٤) بيدك، ولا تكسبها عارها بجهدك. واستيقن أن محبة النفس في معرفة النفس، وأن [في] معرفة النفس استكشافاً لمحلة القدس، أعني أنك إذا لهجت بذلك عرفت الله الذي به قوام النفس، وإليه مصير الجن والإنس. وفي هذه المسألة دقائق من البحث وغوامض من النظر وغرائب من الجواب^(٥)، ولكن لا قوة لي على نشرها، ولا ثبات لك على استماعها. فقد اتفقنا على الفسولة^(٦) بسوء الاختيار، أو

(١) من هنا حتى قوله: «وغرائب من الجواب» آخر هذه الصفحة سيتكرر فيما بعد ص ٣١٥. وأوله هناك: يا هذا! إنما أنت في حال كرقدة في الحلم... إلخ.

(٢) تخونه: تنقصه، اتهمه بالخيانة.

(٣) غريض: طري نَصِر.

(٤) المَغَوَّاة: حفرة كالزُّبَّة تحفر للأسد، وفي مثل للعرب: من حضر مَغَوَّاةً أوشك أن يقع فيها. والمغَوَّاة من الأرض: المهلكة، والمضلة.

(٥) هنا ينتهي المكرر، وزاد هناك: وبدائع من الإفصاح، والله المستعان. (٦) الفسولة: قلة المروءة وضعف الرأي.

جربنا على المكر بحكم الاقتسار.

فقل لي الآن: ما الحيلة لي حتى أبدي ما عندي، وما الحيلة لك حتى تحصل عني ما معي بجهدك وجهدي؟ والله لو لم تظفر من هذه الأجزاء إلا بجزء واحد، بل بورقة واحدة، بل بسطر واحد، لكان الغنم معك والربح في يدك، وكُنْتُ في مناط الثريا اتصالاً بالسعادة، وعند العيوق^(١) اطلاعاً على الحقيقة. فكيف وقد استكثرت منها وظفرت بها كلها، وهو ما ارتفع إلى هذا الوقت قدر ألف ورقة. فجدد لنفسك نشاطاً لقراءتها، والتبحر لمعانيها، والاغتراف مما فيها، والتصرف في أوائلها وثوانها، والإلمام بأطرافها وحواشيها. فإنك بتجديد هذا النشاط تمشي على ذلك البساط، وتؤهل لعجائب الانبساط، حتى يقال لك كن خليفتنا [٧٦ب] في مملكتنا، ومُصَرِّف الكون بأمرنا وإذننا.

يا هذا! إذا اعتراك الرِّيبُ في هذا المسموع، فاحتط لنفسك بالرجوع إلى قلب سليم من الهوى، مُفَعَّم بالنهي. ثم استشره فإنه يهديك إلى صراط مستقيم، بلا تعلّم ولا تعليم، ولا تكلم ولا تكليم. وإن كنت فقد كفيت الريب - وإنما ترنُّحك لعائقات عادتك، وباقيات قرنائك الذين سحبوك على الضَّراء بالغرور، وقَرَّبوك بالأمانى على الدهور - فإن ذلك يَمَحِي عنك بعزيمة أواه أو همة مُنيب ووثبة صادقة^(٢) وكد يسير. فتهاً ذلك، فإن المراد مُطْلَب والمراد مُكْتَب. ودع قَوْلَكَ: ورائي أم وأخت، وأب وابن، وخال وخالة، وعم وعمّة، فإن هذا من غبن الشيطان ووسواسه، ومن دقيق حيله وإغوائه وإلباسه.

وقد قال عيسى بن مريم، عليه السلام، وهو رُوح الله، للحواريين: «إنكم لن تُدْرِكُوا مَلَكُوتَ السموات إلا بعد أن تتركوا نساءكم أَيْامِي^(٣) وأولادكم يتامى^(٤)». وهذا رمز وراء رمز، وإشارة فوقها إشارة، وعبرة حولها عبارة. ولكن التقيُّ مُلْجَم، ولا بد من بعض السكوت؛ كما أنه لا بد من بعض القول، ومن قال كل ما عنده فقد باء بغضب من الله؛ ومن سكت عن كل ما عنده فقد تعرض لطرْد الله. إن لكل شيء حداً، ولكل أمر

(١) العيوق: نجم أحمر مضيء في طَرَفِ المجرة الأيمن يتلو الثريا، لا يتقدمها. (٢) في (ع): وونية صارم.

(٣) الأيم والجمع أَيْامى: من لا زوج لها، بكرًا أو ثيبًا. (٤) انظر إنجيل «لوقا»، أصحاح ١٨: ٢٩، ٣٠.

قدرًا، أعني: لكل قول آخر ينتهي إليه، ولا يجوز أن يزداد عليه؛ ولكل سكوت حدٌّ يُبلَّغ إليه، ويوقف عنده. أما سمعت بعض العارفين يقول: قَبْلَ مَنْ قَبْلَ بغير علة فإدناه، وَرَدَّ مَنْ رَدَّ بغير علة فأقصاه. فلا التَّامُّ عنده بمقبول، ولا الناقص عنه [١٧٧] بمردود، ولكن له الخلق وإليه الأمر.

هذا باب - عافاك الله - كلما قرع زاد رتاجًا، ومَشَرَبَ كلما خُوِّضَ صار أجاجًا. والاحتياط فيه ترك الأمر على صيغته. فإن بقي على فنونه، فذاك؛ وإن نضا عنها^(١) فذاك. اللهم إنا إليك نفزع ضارعين، ولك نضرع محتاجين، وإياك نخاطب متبسِّطين، وعنك نُمسك هائبين، وعلى بابك ننيخ طالبين، وبنارك نصطلي مقرورين^(٢)، وشريعتك نردُّ لاهثين، وبك نعتصم متحيرين^(٣)، وإليك ننتسب مفتخرين. وهذه حرمان أنت أولى مَنْ رعاها، وأحقُّ مَنْ حفظها لنا وأنماها، يا ذا الجلال والإكرام!

كَلَمًا انقضى سَبَبٌ	عَادَ لِي بِهِ سَبَبٌ
تَضْحِكِينَ لَا هِيئَةً	وَالْمَحَبُّ يَتَحَبُّ
تَعَجَّبِينَ مِنْ سَقَمِي	صَحَّتِي هِيَ الْعَجَبُ ^(٤)

رسالة (٢٦)

اللهم إن معرفتنا بك تبعدنا^(٥) عنك، ومخالفتنا لك تؤيسنا منك؛ وإنناختنا بفنائك تطمعنا في رَوْحِ رضوانك؛ وإصرارنا على الشرود عنك يحول بين رجائنا وتفضلك. فارحم تذبذبنا بين اليأس والقنوط، واكفنا خطر التراجع بين الصعود والهبوط.

(١) نضا عنه: خرج وتجرد.

(٢) مقرورين: مصابين بالقر وهو البرد. وفي ر: مقرورين.

(٣) لعل أصلها مستجيرين.

(٤) الأبيات لأبي نواس. وفي الديوان: * منك عاد لي سبب *

(٥) في (ر): بعدنا، وقوله: «تبعدنا» في مقابل قوله: تؤنسنا. والمعنى هو أننا كلما ازددنا بك معرفة شعرنا ببعدنا عنك، أي ببعد الفارق بين المخلوق والخالق، أو ببعد ما نفعله مما يجب علينا فعله بإزائك.

أيها الهائم الملتاح! كم تتلذذ^(١)، وربك بين يديك؟ أيها العامل المكدود، كم تغتر وقد أَحْبَطَ رِياؤُكَ عملَكَ عليك؟ أيها القارُّ المطمئن، كم تنعم، والمزعج قد أَطْلَّ على رَبْعِكَ؟ أيها الواعظ المُدِلُّ، كم تهدي وأنت في واد من حقيقة وعظك؟ أيها الساكت بالعي^(٢)، كم تظن أنك سالم من العتب؟ أيها الناطق باللسان، أين شعارك [٧٧ب] الذي يشهد لك بالصدق؟ أيها المفكر في الملكوت، أين مرماك منك فيما للحق عليك؟ أيها الجائب للبلاد بزد وبغير زاد، أين غنيمتك من السفر؟ أما والله لو صحبك في قولك لزايك الرياء في فعلك، ولو دُقَّتْ حلاوة من تناجيه بسرك لَوُشِّحت بالثقة في عبارتك، لكنما^(٣) تَمَلُّ العبادَة لأنك محجوب عن الزيارة. ليست معاملتك مع من لا يطلع على غيبك، ولا يتصفح منافذ سرك، ولا يعلم ما أنت عليه وما أنت إليه وما أنت فيه وما أنت به. هيهات! أنت آنيته، وفيك وديعته، وعندك آيته، وعلك طليعته. أنت رقيه على نفسك^(٤) وأنت لا تشعر، والشاهد عليك وأنت لا تذكر. فانظر كيف أخفاك فيك ثم أظهركَ لك. وطواكَ عنكَ ثم نَشَرَكَ عليك - حتى تَرْمَ جوارحك إذا أردت، وَتَضُمَّ سوانحك إذا قصدت نجواه، لتعلم أنك مرشح لأمر^(٥). إن صبرت على زلازله في أوائله صرّت من الأبرار الذين ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]. وإن جزعت فلن تفوت إلا نفسك، وما يهلك على الله إلا هالك. تصبح طافياً وتمسي راسباً، وتتقدم نشيطاً وتتأخر ناصباً، وتظن أنك على الربح، ألا في الخسران أنت راجع، وإلى غير ما شوقت إليه نازع؛ فإن «كان» الخبر منك مبهمًا، فادلل بلسانك على عيبك، وأذل بحجتك على نفسك، فكفى بك حسيًا عليك.

يا هذا! أتدعي أنك مُحِبٌّ لمولائك، وأنت متلطح ببلواك؟ أتزعم أن بينك وبين الحق وُصلة، وأنت عاكف على بساط الخلاف والمعصية؟ بادر، يا هذا، وكذب نفسك من نفسك، من قبل أن يُكذِّبَكَ من لا قِبَلَ لك بتكذيبه، فإن مناظرتك به في ضميرك أخف عليك [١٧٨أ] من مناظرة من ﴿يَعْلَمُ خَائِبَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

(١) د: تتلذذ.

(٢) في (ر): بالغى.

(٣) ر: لأنما.

(٤) في (ع): نفسه.

(٥) ر: لأمرك.

يا هذا! لا تعرّ من لبوس الإيمان فقد زُيِّت به، ولا تعرّ عين اليقين وقد شربت منه، ولا تشردّ على متألفك^(١) وقد ربّيت في برّه، ولا تفتّر في طلب نجاتك وقد مكنت منه. وكيف لم تمكّن من هذا ومن غيره وقد دُعيت ونوديت، وكوشفت وبودئت، وحُفظت ورعيت، وسوررت ونوجيت، ووصلت ونوغيت؟ فأما الدعاء فبالرسول، وأما النداء فبالكتاب، وأما المكاشفة فبالعبر، وأما المبادأة فباللطف، وأما الحفظ فبالرقباء، وأما الرعاية فبالمدافعة، وأما السرار فبالإخلاص، وأما المناجاة فبالتكريمة^(٢)، وأما المواصلّة فبالتشريف^(٣)، وأما المناغاة فبالتعريف.

فحصّل الآن- عافاك الله- قيمة هذه الحال التي ردّدك فيها، وطهّرك بها، وأظهرك عليها، وخصّك بالمقام المعلوم منها، والحظّ في أضعاف هذه الأحوال مقرّك، فقد رفع ذكرك، وقوم أمرك، وأسبل سترك، وأوضح عذرك. فإنك إن حصّلت هذه الأوائل حصّلت على ما وراءها بين الشواهد والدلائل، وتخلّصت من جميع الأهوال والבלابل، وقرّرت في مغاني أهل الفضائل، وسمعت ترنماً ينسبك كل ما تقدم، وطربت طرباً يذهلك عن كل ما تعلم، ثم سُقيت بكأس لا تظماً بعدها أبداً، وأويت إلى بقعة لا تزعج أبداً عنها، واختلطت بأرواح لا كثافة لها، ونطقت بلغة لا عهد لك بها، وحلّمت بكرامة لا هبوب منها، وحلّيت بحلية لا تكشف بعدها. فماذا يمنعك عن الشوق بعد هذا الوصف الذي تسمع؟ وماذا يصدّدك عن الوجد بعد هذا النعت الذي ترى؟ وماذا يحجبك في [٧٨ب] إعراضك عمن هذا عطاؤه لك، وهذا نبأه عنك، وهذا تطفه بك، وهذا عرضه عليك؟

يا هذا! دَع ما كان خبراً عنك، ومدارة لك. وخذ مُتَفَهِّمًا ما أنا مَمْنُوٌّ به، ومدفوع إليه. فإن دَقَّ عليك فيه لَفْظٌ، أو نَبأ عنه تحصيل، فسامح، فالغليل أحرّ من ذلك، والضرر أظهر مما هنالك. نعم! حبيبي دعاني فلما أجبته طردني، وقربني فلما دنوت^(٣) أبعديني، ومَنّاني فلما توقعت حرمني، وحكمني فلما اقترحت خيبيني، واستنطقني فلما نبست أخرسني،

(٢) وضع الناسخ إشارتين فوق هاتين الكلمتين وكتب في الهامش: معروف.

(١) ر، ع: متألفك.

(٣) في (ر): دعوت.

ودلني فلما استدلت توّهني، وقال: كن لي تَكْنِي، وجُدني تجدني؛ وأراني فلما تأملت أعماني، وأمراضي فلما استشفيته أضناني. فلما دُفِعْتُ إلى هذه المحارج^(١)، وضللت عن طرق المخارج، قلت محدثاً لنفسي: أترى هذه لِمَهُ وفيَمَهُ وَعَلَامَهُ؟ فأَجَجَ عليّ مني ناراً لا يُطفأ لهبها ولا يخمّد جمهرها ولا ينقطع شررها، وقيل لي: اقتحم باختيارك متلذذاً بها^(٢)، وإلا أصليناك مُكْرَهاً عليها. قلت: نعم! اقتحم طاعة وائتماراً، ولكن طيّبوا قلبي بسرّ أمري، وعرفوني ما بي من حُلوي ومري. فقيل لي: لو أهْلناك لهذا لما أحرقتك بهذا. مَنْ أذن لك في البحث عما طويناه؟ من أباحك المسألة عما ورّيناه؟ من جرّأك على قرع باب مُدّ أغلقناه ما فتحناه؟ مَنْ أطمعك في مرعى مُدّ حميناه ما أبحناه؟ وَمَنْ هَوَّنَ عليك رفع ستر مذ أسبلناه ما رفعناه؟ أَتظن أنك شريكنا في الملك، أو رقيب علينا في التدبير، أو قادح في إرادتنا بالاعتراض؟ خلقناك عبداً فتبرّيت^(٣) لتكون ربّاً، ولولا أنا نعلم من أين أتيت فيما كان منك لأبدناك، وجعلناك رميماً في مغناك. لكننا نعود عليك بالمنة عليك، كما بدأنا ما طيّه لديك. فاحترس الآن منا نحرسك بأنفسنا. وثق بأنك نجوت من مقام دَحْض لولا عَطْفُنا عليك وتوفيقنا لك لكنت من [١٧٩] الهالكين. فانظر: هل لك منا محيص إذا أردناك بما لا يوافقك، وهل لك منا مانع إذا خصصناك بحلية الربوبية؟ فيا ساهياً عن نفسه، ويا لاهياً عنا بفرط أنسه، كيف ترى قدرتنا عليك، وتصريفنا لك، وإحاطتنا بك، واستباحتنا إياك، وتمكننا منك، وتملكنا لناصيتك، وإشرافنا على دانيتك وقاصيتك؟ إن لك في بعض هذا معتبراً فسيحاً، وتوبة نصوحاً.

اللهم إنا نفتتح كلامنا بذكرك ودعائك استعطافاً لك، ليكون نصيبنا منك بحسب تفضلك لا بحسب استحقاقنا؛ ونختم أيضاً كلامنا بما بدأنا به رغبةً في رحمتك لنا وتجاوزك عنا ورفقك بنا، وإهدائك ما لا ندرية ولا نتمناه إلينا. ونسألك -إلهنا- أن تجعلنا في كَنَفٍ من ضمانك، فقد رمانا خَلْقُك عن قوس واحدة، وقذفونا بالسنة حدّاد، وقصدونا

(١) المحارج: الأمور المحرجة.

(٢) في (ع): متلذذة أيها. وهذا خطأ في القراءة.

(٣) وفي (د): فتنزيت.

بسواعدٍ شِداد، لأنَّا ذُكرناك لهم، ودعوناهم إليك، وغرنا عليك^(١) أن يكونوا جاهلين بك ومخالفين، وقد غرقوا في نعمك، واعتزوا بكرمك، وتكبروا من أن يكونوا من خدمك. اللهم استصلحهم لعبادتك، وخذ بأزمَّتْهم^(٢) إلى بابك، وإلا فاستأصلهم بقدرتك؛ فقد احترقنا بنارهم من أجلك، وفقدنا كُلَّنا بينهم بسببك. فأنت مُحَرِّكنا إليهم، وأنت مُفْتَرِّهم عنا، وأنت معاتبنا فيهم، وأنت طاردهم دوننا. وهذا لِسَرِّ لك فينا وفيهم، ولغيب لك عندنا وعندهم. إلا أَنَّا قبل أن نتعرض للسِرِّ بالظن، وقبل أن نلَم بالغيب بالعَن^(٣)، نفزع إليك قالين لهم، هاجرين لبقاعهم، متباعدين من رباعهم، متعيِّين^(٤) لطباعهم، متنزهين عن باعهم وذراعهم، عالَمين بأن العيش معك أرقُّ، وأنت بتأَمِّلنا أولى وأحقَّ، وإن كان معنى هذا الموصوف بالمعانية^(٥) أشد علينا وأشق.

إلهنا! قد وقعت البينونة بيننا وبين خلقك فلا تصلها بالبينونة بيننا وبينك، فإن ذلك شديد. وإذا أردت بنا عقابًا فاجعله [٧٩ب] ما دون هجرنا لنا، فإن الهجر مَجْلِبَةٌ للمقت، والمقت مَدْعَاةٌ للهوان، والهوان عذاب شديد وعقاب أليم.

يا هذا! نزّه طرفك عن النظر إلى غير الله! شَرِّفْ فكرك بالفكر في عظمة الله! بَيِّضْ وجهك بالصبر على عبادة الله! أخلص عملك من الشرك بالله! أطرب نفسك بأغاني ملكوت الله! اقْرَعْ صباحَ مساءً بابَ جودِ الله! تعرض لوُبُلِ المواهب الهائلة من الله! ادْنُ حتى تصغي. أصغِ حتى تسمع. اسمع حتى تفهم. افهم حتى تعقل، واعقل حتى تشرف، واشرف حتى تنقى. وانقَ حتى تنعم. وانعم حتى تسعد. واسعد حتى تتقي. واتقِ حتى ترقى. وارقَ حتى لا تشقى.

يا هذا! أما ترى نِعَمَ الله عليك نازلةً، وخيراته إليك واصلة، ومبارّه^(١) لديك متكاملة، تارة في اليقظة وتارة في المنام؟ أما في اليقظة فإنه يجلو عليك هذا الملك البسيط حتى

(١) في (ر): وغيرنا عنك، وفي (ع): وعَبَّرنا عنك.

(٣) العَن: ما يعن، أي يظهر.

(٥) في (ع): المقايضة.

(٢) أَزَمَّة: جمع زَمَام وهو ما يُشد به الحيوان ونحوه لقيادته.

(٤) متعيِّين: كارهين.

(٦) مبار: جمع مَبَرَّة، العطايا والخيرات.

تشهد الكواكب المتلاثلة بالليل، الجارية بحقائق المشيئة، الدائبة^(١) على سَنَن الإرادة، مع عجائب غيرها. وأما في المنام فإنه يعرض عليك الأمور لعبارتها^(٢)، فاجتهد أن تعرف المغزى في جميعها. على أن ما يشكل من جنس ما لا يشكل، ومَن آَلَ إلى فطنة وذكاء نفس عَلمَ أن مُشْكِلَةً ما أَشْكَلَ إلا لأن الإلهية في هذا المكان غريبة، والبشرية مشهورة، والغريب مُتَجَنَّب، والمشهور مستصحب. عزَّت الأنباء، وغرَّت الأهواء، وتبددت الآراء، وغصَّت الأرض والسماء، وكل فلك عند الحق سواء، لأن الأنباء به عزت، والأهواء بقوته غرَّت، والآراء لهيبته تبددت، والأرض والسماء بنوره غصت، فلا خبر عنه، ولا مخبر إلا هو، ولا مستخبر سواه.

العجب العجب! أين نحن! ويلك! وما هذا الذي قد نُوسوس به؟ وما هذا الذي نتهالك عليه؟ إن كان إيانا فَلَمْ نغفل عنه؟ وإن كان غيرنا فلم نشغل بالنا به؟ وإن لم يكن ذا وذا، فما هذا الويل الذي غلينا منه.

[١٨٠] يا هذا! هو هو لا بانقسام الإشارة النفسية^(٣)، ولكن هو هو بالتتام الإشارة العقلية. وليس أيضًا كذلك ولكن إلى ههنا انتهت المسالك، أغنى مسالك النفس النازعة نحو الأمور البارعة، ومسالك العقل النيرة نحو الغاية [...] ^(٤)، ومسالك الوهم السانح نحو المرام الأبعد، ومسالك اللفظ المزخرف نحو المطلوب الأشرف، ومسالك الإرادة المتلظية^(٥) نحو الخير المطلق، ومسالك المُنْية المحلوم بها نحو الواحد الأحد.

يا هذا! إن ثَبَّتَ عقلك في المداحض^(٦)، ولاح لك في أثناء هذه المعارض، فأنت المراد بأمر ليس دونه عارض، ولا وراءه فارض، وإن تحلَّل^(٧) بوزن حبة خردل فاعلم أنك بعيد من مواصلة الأول، بل بعيد من معرفة ما دون الأول.

(٢) أي تفسيرها.

(١) في (ع): الدانية.

(٤) سياق الكلام يفترض أن هنا كلمة ساقطة مثل «القصى».

(٣) (ر، ع): النفسية.

(٦) المداحض: المزلق.

(٥) تلظي: تلهب.

(٧) تحلل: تحرك، زال عن موضعه.

يا هذا! عليك بطلب الجنة حتى تعانق فيها الحُور العِين، وتُسقى بكأس من معين، وتستخدم الولدان المُخلَّدين، وعليك بالهرب من النار الموقدة التي لا طاقة بك عليها، ولا نعمة لك معها، ودعنا حتى نرعى في وادي المحبة، ونجتني ثمار المعرفة، وتبَلَّل بصُوب الاتصال، ونستريح من ضروب القيل والقال، ونشهد مَنْ به أنارت الشمس، ولعزته خضع الجن والإنس، ونُناجي من به غنينا عن خلقه، وإليه لجأنا بعد أداء حقه، وإياه عبدنا بيقين لا شُوب فيه، ونحوه قصدنا بإخلاص لا ريب فيه، وعليه شققنا جيوبنا^(١) بوجد لا غبار عليه، وفيه تولهنا ولهاً لا شبيه له. فإن كنت منا، وفهمت لغتنا، وتصرفت في ديواننا، ونطقت بلساننا، وكتبت بأقلامنا، فلك ما لنا وعليك ما علينا. وإن تكن الأخرى، فاكفنا مؤونتك، فقد وهبنا لك كُلَّك وبعضك، ووفرنا عليك أحمرَك وأصفرَك. فتمتع - كيف شئت - بأهلك وولدك، وظنَّ [٨٠ب] ما شئت بمن خالفك وباينك، فلست منا ولسنا منك.

اللهم إن القلم قد تعرَّم^(٢) في نفث قصتنا معك، واللسان قد طفيء في تشقيق اللفظ بذلك، وفيض الوهم قد طفع على أصبار^(٣) القلب، وأنت أول ذلك وآخره، وخافيه ولائحه^(٤)، فاستر ذلك علينا حتى لا نُفتَضَحَ على رؤوس الأشهاد الذين لا يعرفون نسبنا منك، ولا يقفون على سببنا معك. وصنَّا عندك في محل المصافاة، وقفنا بآرائك موقف المناجاة، وآثرنا وقدَّمنَا، وأدبنا وقربنا، وإلا فالطُفُّ بنا وارضمنا. وقبل ذلك كله وبعده، أجب خواطرنَا بنار الذكر لك، وعجَّج ألسنتنا بنغمات تمجيدك، ولا تُفترنا عن الانتصاب بين يديك، ولا تُدقنا مرارة البعد عن فنائك، ولا تبُلُّنا بالاستحسار^(٥) عن عبادتك، وقيدنا بقيد محبتك، وأطلقنا في رياض الوجد بك. وإذا عثرنا فقابلنا بالنعشة، وإذا سهونا فارددنا إلى التذكُّر، وإذا بغيَّناك فامدِّدنا بالتسديد، وإذا قصدناك فاعمِّمنا بالتأييد.

(١) جيب القميص ونحوه: ما يُدخل منه الرأس عند لبسه.

(٢) تعرَّم العظم: نزع ما عليه من اللحم. يقصد أنه قد استنفد ونحل في وصف قصته مع الله.

(٣) الأصبار: الجوانب. المفرد: الصَّبْر.

(٤) لائحه: مُظهِره. لاح: ظهر.

(٥) الاستحسار: الإعياء والتعب.

يا هذا! لو لم يَمُرَّ لك في جميع هذه الأجزاء إلا ما في هذا لكفاك وأوفى على مرادك. فطالعه بقلب رقيق، واشرحه بلسان فتيق^(١)، وارتع منه في روض أنيق. والسلام.

رسالة (٢٧)

اللهم حَقَّقْنَا فيما نتصدَّى مخبرين عنه، وحققه فينا إذا حاولنا أن نستفيد منه، وبيِّنا لنا حتى نستعدَّ لخدمتك، وأَبْنَأْنا منا حتى نصلح لمحبتك، وأَرَأنا منك ما يستوفيك في غوامض معرفتك. ومهما سبق من تقصير في ذكرك، ومصير إلى أمرك، وتشاكس في الصبر على بوادي قدرتك، فتمغده بسترِكَ، وامحُه بتجاوزك.

يا هذا! إذا دعوته بلسانك، فجرَّد دُعَاكَ بخالصة قلبك [...] ^(٢) فطهره من شَرِّكَ. وإذا وصفته بعلمك، فنزَّهه عن جهلك. وإذا أخبرت [٨١ أ] عنه ببيانك، فخَفَّ مقته لك على بُهتانك. وإذا توجهت إليه برجائك، فاستصحب مادة قوية من تسليمك. واعلم قبل كل شيء وبعده أن أحكام هذه القصة عجيبة، وأعراضها غريبة، وشرائطها وثيقة، وملاحظها أنيقة، ومراعيها مُحَلُولِيَّة^(٣)، وآفاتها مستولية، وعلى قدر الصبر على الشدائد والمكاره يكون الظفر بالمطالب والمنازة.

ومن أحكامها العجيبة أن إحسانك ربما استحال إساءة، وتقربك ربما عاد تباعدًا. وتحت هذه الحال ضروب من المحنة، وفنون من الفتنة، أدناها تظن أنك مقبول وأنت مردود، وتحسب أنك موصول وأنت مطرود. ومن أعراضها الغريبة أنه يراد منك السكون بالتعويض فتتحرك بالتعريض، ويُراد منك الطمأنينة والدَّعة فتستهلك نفسك بالاجتهاد والمشقة. ومن شرائطها الوثيقة أنك لا تنفك عن العبودية التي بها تصحَّ نسبتك إلى الربوبية، ولا تستطيع أن تتنفس مرة واحدة على شيء من المملكة إلا بإذن مَنْ أظهرَكَ في المملكة. ومن ملاحظها الأنيقة أنك لا تُسرح طرفك فيما علا وسفل، وفيما

(١) فتيق: فصيح حاد اللسان. وقد وردت في ر: فتيق، وهو تحريف.

(٢) واضح من سياق العبارات وجود كلام ساقط هنا. (٣) احلولى الشيء: حلا وحسن.

وضح وأشكل، إلا أصبت منه منظرًا يسبيك بالحيرة، وعجبًا ينتهبك بالغيظ والحسرة. ومن مراعيها المحلولة: أنك لا تذوق شيئًا من هذه الخضرة، ولا تسمع ولا تبصر، ولا تشم ولا تلمس، إلا حال بينك وبينه حتى تنكر عينك: أي نفسك، وأنتك: أي مكانك، وأصلك: أي ما أنت منه، وفصلك: أي ما أنت إليه، وحالك: أي ما أنت به، وحاصلك: أي ما أنت عليه. ومن آفات المستولية أنك إن بحثت لم يزدك البحث إلا عمى، وإن شربت لم يزدك الشرب إلا ظما- وهذه أمثالها وأمثال أمثالها إلى أن تنقطع نفسك لفظًا، ويتقد فؤادك غيظًا: يُدِيرُك ويدور بك، ويسلط الوسواس عليك، ويددك فيك، ويشتك بك. ومن أجل هذه الصفات [٨١ب] اختلط العرفان بالإنكار، وتشابه الإيراد والإصدار، وارتدت الأنفاس في الصدور، بحرارة كحرارة النار، وتجامحت الحقائق بالإبطال والإظهار، وصار- للعجب- النهار كالليل والليل كالنهار.

يا هذا! إن صَعَبَتْ عليك الوصف فهو صعب، وإن سَهَلَتْ فهو سهل. فأما صعوبته فلأنك غدير كفور، وأما سهولته فلأن ربك غفور شكور. وإذا كانت القصة على هذه الشاكلة المشكلة، فكيف يكون حالك في حالك؟ وكيف تكون فيما أنت به كائن؟ وكيف تبين عما أنت به بائن؟ اللهم غفرًا! كاد الرجاء بكرمه يُغري بمخالفته، وكاد الخوف من غضبه يُقنط من رحمته. وهذا مقام ما وقف عليه أحد إلا زلت قدماه، وجُهل منه مأواه، واعتاص^(١) دونه منتهاه، وذبلت دون الرِّيِّ به شفتاه.

يا هذا! السعيد من استطبَّ لسُّقْمه، وسَعَى في طلب عافيته^(٢)، وقام بالحق للحق على خطرات باله وهواجس نفسه، وتلذذ بالفقر، وتنعم بالاستكانة، ووجد بالعدم، وأدرك بالفوت، وصحَّ بالمرض، وحيي بالموت، وروي بالعطش، وانتبه في الدهش، وجاد بالموجود، واستقل بالمفقود، وأنس بالوحشة، واستوحش من الأنس، وقال وهو ساكت، وسكت وهو قائل.

(١) في (ر): اغتاض.

(٢) في (ر، ع): عاقبته.

وإنما كان السعيد مَنْ هذا بعضُ حديثه، لأنه لبس الأعيان بحقائقها، وعَرِيَ من الأكوان وعلائقها، وتطاول إلى النجد^(١) الذي لا وصول لأحد إليه إلا إذا جذب الحق بضبعه^(٢)، وكان هو الدافع عنه، والرافع له، والغائر عليه، والناظر إليه. ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١].

وما أحسن ما هتف به بعضُ أصحابك حين سَمَتْ همته إلى هذه الذرى، تاركاً لجميع ما عليه الورى، حيث يقول:

إلهنا! إن ذكرناك أنسينا، وإن أشرنا إليك أبعدتنا، وإن اعترفنا بك حيرتنا، [أ٨٢]
وإن جحدناك أحرقتنا، وإن توجهنا إليك أتعبتنا، وإن ولينا عنك دعوتنا، وإن تركناك
أزعجتنا، وإن توكلنا عليك أكلفتنا، وإن فكرنا فيك أضللتنا، وإن انتسبنا إليك نفيتنا، وإن
أطعناك ابتليتنا، وإن عصيناك عذبتنا، وإن انقبضنا عنك بسطتنا، وإن انبسطنا معك طردتنا.
فالسوانح فيك لا تُملَك، والغايات منك لا تُدرَك، والحنين إليك لا يسكن، والسلو عنك
لا يَمُكُن. فأرحمنا في بلوانا بك، واعطف علينا في صبرنا معك، والطف بنا لانقطاعنا
إليك، وعاملنا بالكرم الذي أمرتنا باستعماله بين خلقك، واصرف عنا كل صارف عن
بابك، وأجل نواظرننا فيما برز بقدرتك، وخواطرنا فيما بطن من حكمتك؛ وإذا دعوناك
فأجبنّا، وإذا دعونا إليك فأعنا، وإذا استجركنا فأجركنا، وإذا أعطيتنا فهنتنا، وإذا حرمتنا
فصبرنا، وإذا أذنت لنا فأوصلنا، وإذا أطمعتنا فصلنا، وإذا كدّدتنا فأرحنا.

يا هذا! إذا كان من يفقد غيره يبكي فيعذر ويسمى ثاكلاً، فما تقول فيمن فقد نفسه؟
هذا والله أحقُّ بالبكاء، وإذا بكى الأول دمعاً، فالأوجب أن يبكي الثاني دمًا. الرحيل قد
أزف، والشمس قد اصفرت للغروب، فما هذا السهو في اللهو، وما هذه الغفلة والعطلة!
أما سمعت القائل يقول:

(١) مكان نجد: مشرف، مرتفع.

(٢) الضُّبع: الكنف والناحية، وهو في ضبع فلان: أي في كنفه.

الدهر يصرع أهله سُوقاً^(١) ويصرعهم ملوكا
والموت شيء قد نفت عنه حقائقه الشكوكا
والبغي شرُّ راحل الدنيا وأكثرها بُروكا

والله لو لم يكن ههنا واعظ ولا موقظ إلا الموت، لكان الحزم في أخذ العتاد له. فكيف
ومن دونه أهوال، ومن ورائه أهوال! وقد قال من قال:

نَعَى لَكَ ظِلَّ الشَّابِّ الْمَشِيبُ وَنَادَاكَ بِاسْمِ سِوَاكَ الْخُطُوبُ
فَكُنْ مُسْتَعِدًّا لِدَاعِي الْمُنُونِ فَكُلُّ الَّذِي هُوَ آتٍ قَرِيبُ
[٨٢ب] وَقَبْلَكَ دَاوَى الْمَرِيضِ الطَّبِيبُ فَعَاشِ الْمَرِيضُ وَمَاتِ الطَّبِيبُ
يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ يَتُوبُ فَكَيْفَ تَرَى حَالَ مَنْ لَا يَتُوبُ؟^(٢)

أما تراني يا هذا كيف أرددك بين هذه المحاليل^(٣) مدارياً لك، ورافقاً بك، وآخذاً
بأطراف الشفقة معك، لتفيء إلى حظك، وتنقاد لرشدك، وتحن إلى نعيم لا انقطاع له،
وروح لا روح فوقه، ورب لا رب سواه، وجنة عرضها السموات والأرض؛ إن حُرمتها
حققت عليك كلمة العذاب. تارة أزهّدك في هذه الزينة الخادعة التي ما حمدها مؤثّرها،
ولا نعيم الواصل إليها، ولا نجا من كربها من لاذبظلها ودخل تحت كلّها. وتارة أرغبك
فيما عند الله من النعيم المقيم، والرضوان العظيم. وتارة أحبب إليك ربك لتسارع إلى
طاعته وتأوي إلى حظيرة أمنه. وتارة أنفضك^(٤) عليك فيكون نظرك عائداً إليها بثمرة إذا
أكلتها حلّت لك، وإذا أسغتها نعيم بالك.

وتارة أعرفك آفات أعمالك وعلمك وضرر أحوالك وفساد أهل زمانك لتستيقظ
فتدري أين قدمك، وكيف صمتك، وفيما ماذا صمدك، وعلى ماذا قصدك، وهل لك

(١) السُّوقَة: أوساط الناس وتطلق على الواحد وغيره، فيقال: هو سوق، وهم سوقة والجمع سوق.

(٢) وردت هذه الأبيات في العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي منسوبة لأبي العتاهية. وفي كتاب المجالسة وجواهر العلم
للدينوري غير منسوبة لأحد. وفي بهجة المجالس جـ ٣ ص ١١٨ منسوبة لأبي العتاهية.

(٣) كذا في الأصل، ولعل الصواب «الخمايل». (٤) في (د): انفضك، والكلمة غير منقوطة بالأصل.

منه هَمَّةٌ مشايعة، ونَفْسٌ طائعة، وإرادة تابعة، وتارة أبسط رجاءك، وأنشر أملك، وأفتق طمعك، وأقرب مطلبك حتى تتناول راغبًا ولا تنقمع هاربًا، ويكون ذاك سببًا قويًا إلى انتعاشك من سَقَطَتِكَ، وبابًا مفتوحًا إلى مُنَيَّتِكَ.

وتارة أسلَّطَ الخوفَ عليك، وأجلب عساكره إليك، لأصرفك بذلك عن كثير مما أنت به ملتبس، وفيه منغمس: فإن في الخوف قبضًا من المخوف، كما أن في الرجاء بسطًا في المأمون. وتارة أجمع لك بالخطرات، التي تفكحك بأسرار المحبة، وتموِّج عليك بحر المعرفة، وتُبدي لك مَخيلة التوحيد، وتريك الحق موجودًا، وتحدث بينك وبينه عهدًا معهودًا.

وتارة أجرد لك اللفظ من عقال التعويض، لترتقي من حضيض التعميم إلى قُلَّة^(١) التخصص:

وتارة أمزجه عليك لتفرق بين ظمئك وريِّك، وتقر على فرق ما بين بيانك [أ٨٣] وعيِّك، وتطلب فائتك بما عندك من كيفك وأينك وأيِّك. وتارة أستوفيك حتى لا تبقى، وتارة أوفِّيك حتى لا تستقي^(٢). فانظر إلى نظري لك، وإلى رفقي بك، وإلى فراغي لمصلحتك وقيامي بمنفعتك. واسمَعْ ما قال الآخر:

عيبُ ابن آدم ما علمتَ كثيرُ	ومجيئُه وذهابه تغريبُ ^(٣)
يا ساكن الدنيا ! ألم تر وهرة الـ	دُنْيا على الأيام كيف تصير؟
نَلْ ما بدا لك أن تنال من الغنى	إن أنت لم تقنع، فأنت فقير
يا جامعَ المال الكثيرَ لغيره	إن الصغير من العيوب ^(٤) كبير

(١) القُلَّة: أعلى الجبل والرأس والسنام أو أعلى كل شيء.

(٢) أستوفيك: أطلب منك أن تفني حتى لا تبقى على شيء. وأوفِّيك...: أعطيك ما فيه الكفاية حتى لا تستقي من الغير.

(٣) الأبيات لأبي العتاهية. ديوانه ص ١٧٠.

(٤) الديوان: الذنوب.

اللهم لا تستدرجنا بالقول عن العمل، ولا تفتننا باليأس بعد الأمل. اللهم إن إلهيتك بحرّاً لا ساحل له، وطوّد لا قُلَّةَ له، وأُفُق لا غاية له. وهممنا قاصرة عن نعتها إلا إذا واصلتنا بالإلهام، وعجزنا أظهر علينا من أن نطمع لا بالإلهام أو شبيهه بالإلهام.

اللهم إنا وصفنا إلهيتك، وطوينا في الوصف عبوديتنا لك. فنهاية حظنا من إلهيتك، مع عجزنا الظاهر، أن تلهمنا ذكرك، وغاية نصيبنا من عبوديتنا لك أن تستخلصنا لنفسك. اللهم فافعل كلا الأمرين بنا، فإنك فوق ذلك عندنا، وصُنْ أسرارنا معك عن أعدائنا فيك، الحاتين^(١) لورقنا من أجلك، الهاتكين لأستارنا بسببك، الحاسدين لنا على ما أنطقنا به من آثار نعمتك وغرائب حكمتك، المتنكرين علينا من أجل خبرنا عنك وإشارتنا إليك. اللهم فاشغلهم عنا لنفرغ لك، وفرغنا لك لنشتغل عنهم بك.

اللهم ازممنا^(٢) عن مخالفتك، واعممنا بموافقتك، وانظمنا على ابتغاء رضوانك، والمم شعثنا بضروب إحسانك، واختم أعمالنا برحمتك وغفرانك؛ وخوِّضنا في بحار العلم بك، واكشف لنا عن سُبُحات^(٣) وجهك، واستخلصنا لخدمتك، وأهلنا لمؤانستك، واستعمل جوارحنا في طاعتك، واملأ جوانحنا من محبتك، واجعل طريق معرفتنا بك [٨٣ب] على السكون إليك؛ وذوقنا حلاوة الثقة بكرمك، وهبْ مؤونتنا على توحيدك، واقبله^(٤) لنا حياةً عندك، يا ذا الجلال والإكرام!

رسالة (٢٨)

أطال الله أيها الشيخ بقاءك - ولا غبطة في البقاء - وأدام صفاءك - وكلُّ العيش في الصفاء - وأيدك في تناول الحق من معادنه، وقَدَّم قَدَمَكَ إلى ديار الصدق ومساكنه، وفَضَّلَكَ بأفضل الفضل، وأشرف بك على أشرف الشرف، وأحسن إليك بأحسن

(١) حَتَّ الشجر: أسقط ورقه أو قشره.

(٢) زمه: شده، وزَمَّ الرجل الشيء: شده بالزمَام.

(٣) سُبُحات وجه الله: أنواره.

(٤) كذا في (ر)، ولعلها: واكتبه.

الإحسان، وأكرمك بأكرم الإكرام، وأنعم عليك بأنعم الإنعام، ونصّبك قدوةً بين الأنام، على تطاول الليالي والأيام. ولاطفك في السر ملاطفة المُشفّق الرؤوف، وعاطفك في الجهر^(١) معاطفة المرفق العطوف. وغمر صدرك بمعاني القرب والأنس، ورفع قدرك عن لواطخ^(٢) الجن والإنس، وعاد عليك بأقسام التنزيه، وأغار^(٣) فيك بأحكام التنبيه، وكفأك مؤونة المؤونة بمعونة المعونة، ولا جلب إليك محنته، ولا قدّر عليك فتنته، وفعل بك ما هو أولى به منك بنفسك. نعم، وحرس خصائص مواهبه عندك، ولطائف منائحه قبلك، وفكّك من قيد نفسك، وسلبك مدانس بني جنسك؛ ورقّك عن مواطن التنبيه إلى مشاهد الحجة، وطوقك بطوق البهاء، وتوّجك بتاج العلاء، وأعطاك عنك، وأفناك منك؛ وأقبل بك إليه، وهجم بكلك عليه؛ وأشهدك أسرار الخلق، وآنسك بمواد الحق؛ وحط عنك ثقل الوسواس فيه، وجذب دُونك منادي^(٤) الهواجس عليه. وجعلك تسكت معتبراً، وتقول صادقاً، وتفعل مصيباً، وتعتقد واجباً، وتهتدي طوعاً، وتحتوي نفعاً، وتسأم مطاقاً، وتكلف مُستطاعاً، وتؤمن خائفاً، وتخوف آمناً، وترغب زاهداً، وتزهد راعباً. فإذا فعل ذلك بك، فلا متّعك الله بغيره، ولا ألجأك إلى سواه؛ ولا أحسن إليك إلّاه، ولا سلّط عليك بعده، ولا أذاقك صده. ولا أزل بك القدم، ولا استثير^(٥) لك الهمم. فإذا فعل ذلك بك، فأخرس [أ١٨٤] الله لساني وأنقذ أسر خاطري منه، وكفاني هُموم طلبه بوجدانه، وخوف فراقه بطغيانه، وجعلني ناطقاً بالسكوت عنه، وساكناً بالحيرة فيه؛ ومتحيراً بالتسليم، ومسلماً بالالتجاء إليه، وملتجئاً بالاعتماد عليه. وبلغني القرار الذي لا يشوبه اضطراب، والغاية التي لا يحدها بعداً ولا اقتراب، والنهاية التي لا يتحكم فيها خطأ ولا صواب.

(١) في ر، ع: الحمد.

(٢) لواطخ: معرّات.

(٣) كذا، ولعلها: وأعاد.

(٤) في (ر، ع) مبادئ.

(٥) استثيرها: جعلها تثير، أي تمتنع وتتناقل.

حَرَكَك الله! لولا رقيب من رقباء هيبتك، ونقيب من نقباء سطوتك يحرسان نفسي ويحbsان نفسي لأطلقت في الدعاء لك والثناء عليك عناناً وعناناً، وأبدت في النزاع نحوك شانا وشانا. ولكن التصافي الذي انتسج بيننا، والتوافي الذي انتهج عندنا، يقضي عليه ولا يقتضيه، وينحو شطره ولا يستدعيه. فالحمد لله الذي أولاني منك ما لا ينال إلا بتوفيقه، ولا يصاب إلا بتيسيره - حَمَدَ مَنْ علاه عجزه عن شكره بالانقياد لأمره والاستبسال في يده والثقة بوعده. وصلى الله الواحد الحق على العارف المحض.

وسأخذ في حديثي وما يختص بشأني ويتمي إليه أمري. وأعلمك أنني في حساب لا ينتهي، وعتاب لا ينقضي، لأنني ألوح كالبرق المنتشر فلا أضيء ولا أستضيء [و] أتواري في الظلام كالمستتر فلا أغنى ولا أغني. قد عرفت آفتي ووقفت على علتي، وفطنت لمحتتي، وهي أشياء: فأعلاها وأعداها الكون لأنه محطّ البلاء، ومغار^(١) الحِذنان، ومَجَلْب الصروف، وفُرْضة^(٢) الغير، وعمق^(٣) الكدر، وأول الغيظ وثاني الإنكار وثالث المحو. فأما ما أدناها وأوباها فطلبي للمحال، وتعللي بالفاني، وانخداعي بالعارض، وإعراضني عن النفس، وندائي على نفسي باسم التمام وأنا عين النقصان، وجرأتي على الدعوى بفقد البرهان، وتشرّدي في القول مع ضعفي وتقصيري في الفعل، وإطالتي الهذيان على غير وزن ولا تحبير. فإذا أنصفت فأنا الضائع المضيع، والخامل المجهود، والصِّلَف^(٤) الذليل، والطالب المبتلى، والوارد المُحَلَا^(٥) والعاجز المتقاوى، والمُتَرَدِّي المتعالى، والألكن المِهْذار، والمتوهم المُعْنَى، والحادي بلا بعير، والمتملك بلا فتيل [٨٤ب] ولا نقير. كِبَرُ قد سَدَّ طُرُقِي، وعُجْبُ أتى على جُلِّ أُمْرِي، وعِلْمُ قد صار وبلاً عَلَيَّ، وحِرْمَانُ كأنه حليفني أو حَرِيفي^(٦)، ومراد قد جدّ في التولّي عني ورسخ مثاله في صدري، وحقيقة همّت وما فعلت، ولاحت وما ثبتت، وأبرقت وما سكبت. وحقّ لا يُبقي عليّ ولا يذرّ،

(١) مغار: كهف. الحِذنان: حذنان الأمر: أوله وابتدأؤه.

(٣) الفُرْضة: الثغر والفرجة في الحائط.

(٣) العمق: الفج والوادي.

(٤) الصِّلَف: المتكبر، المدّعي.

(٥) المحَلَا: الممنوع من الماء.

(٦) حريفني: زبوني، معاملي في حرفني.

وَحُلِقْ لَا يَشَاكِلْنِي وَلَا يَقْرُبْ مِنِّي. ومجموع ذلك كله في حروف أقولها: قد تعلق كَلِّي بواقع لا رجوع لغايته، ومُتَوَقَّع لا يقين في لحاقه، وحاجزٌ قد اتكأ عليَّ بأرواقه^(١)، وأخذ بالمخنق مني في وثاقه، وخطر على العقل تفتيشه، وعلى اللسان تكشيفه. والبلاء أجمع من باب أنا أفتحه، وإن كان مقفلاً، وألجه وإن كان شديداً معضلاً، وأقر الروح به، وأشجع نفسي بسببه. أَعْلِمَكَ - منحك الله السُّؤْلَ ودَرَكَ المَأْمُولِ - أن الجملة المأخوذة علينا المسوقة^(٢)

بالعقل والشرع إلينا: الوقوف على المقاصد بحقائقها من غير ريب يقدر، ولا شبهة تسنح. وقد سَلِمَتْ هذه الجملة في البديهة واستمرَّت، لكنها قلقت في الروية واقشعرت، لأن البديهة تشبثت بحكم القول والتسليم للفطرة الحانية إليه، والعادة النامية إليه، والكمال المرجو منه، والاحتياط الحاكم به. وأما الروية فإنها وقفت على محل البحث وطريق الفحص وباب التحكم، ونقضت سوانح^(٣) التقليد، ولم تقتنع في القصة إلا بأشد التوكيد، لأن مادتها عقل موثوق برأيه، ومحكوم بشرفه، وجميل الأولى والعقبى منتظر من جهته. ولكن وقع التدافع والتصانع^(٤) لعل أخرى، وهي اختلاف القوى وشتات الهمم، وتباين الأحوال، وترؤج المقاصد، والنياث المراد، ونفي الرسم والاعتبار.

هيهات! هيهات! لن يصفو العمل حتى يصح العلم، ولن يصدق الخبر حتى يتحقق العيان، ولن تفيض الحكمة حتى تطول التجربة، ولن يحمد الذكاء حتى يسلم الطبع، ولن يُجْدي القول حتى يتصل الفعل، ولن يعتد^(٥) الحرّ حتى يُزال عنه الضُرُّ، ولن يُملِك الإنسان حتى يُعَمِّر بالإحسان، ولن يتحلى بالخير حتى يتعرّى من الشر. ولن توجد القناعة حتى يُعدم الحرص، ولن يُؤْلَف الكمال [١٨٥] حتى يُرفض النقص. ولن يُعرف حُلُو السعادة حتى يذاق مُر النَّحْس، ولن يُهتدى إلى المعروف حتى يُضَلَّ عن المُنكَر، ولن يُعرف الحق حتى يُتَبَرَّأ من جميع الخلق، ولن تُسَكَّن حُرْق الحرمان حتى يُتَمَكَّن من بَرْد الوجدان. ولن

(١) الرُّؤْفُ من كل شيء: مُقَدَّمُهُ وأوله. والروق: قرن الدابة. والجمع أرواق.

(٢) في (ر، ع): المشوقة. (٣) ر: سوالح.

(٤) وردت في «د»: «التصايح» من سبع به وعليه يصعب صعباً: أشار نحوه بأصبعه واغتابه أو أراده بشرّ، والآخر غافل لا يشعر.

(٥) يعتد: اعتبده. اتخذه عبداً.

تنقطع سلسلة الهذيان، حتى يُدرك الثأر من الزمان. وهذا حديث لا يكون ولا كان.

أطلت- [أطال] الله طَوَّلَكَ^(١) - من غير طائل، لأنني لم أصف من حالي مراسمها، ولا من قصتي مَقاسِمَها، وسحبتُ القول على مساحب الثقة ومناكب المِقة، من غير مغالاة بِسِرِه ولا مبالاة بِشَرِّه. وفي الجملة قد استندت إلى الحسنى منتظرًا لحמיד العُقبي، دائرًا مع الأخف الأسهل، ثابتًا في كنف النزاهة وضمنان الحيلولة^(٢)، مستشعرًا من طوارق الحِداث راحة وأمنة، نائبًا عن مواقف الخزي والإذلال، قانعًا بالمستيسر من الحال، عالمًا بما قال الحكيم بعد الحكيم. أضمن يقبل هذا معرفة، ويشتمل عليه يقينًا، كيف يجزُّ على الخشناء^(٣) نفسه؟ أم كيف يملك اللثام عرضه؟ أم كيف يسوق إليهم رجاء، ويصوغ لهم مدحه وثناءه؟ وهذا خُلْفٌ من العمل. وعكس صدی الرأي، وإيثار للجهل، ورجوع إلى الأخس، لا يختاره عاقل، ولا يرضى به فاضل.

وأنا على التغافل عن ذكر شوقي إليك، وحنيني نحوك؛ لعلمي بأن ذلك لا يُمليه خاطري، ولا يجيزه^(٤) لساني، ولا يرسمه قلمي، ولا يقلِّه كتابي. ولا عجب! فإنه ميراث أنس، ووليد مودة، أنشأهما فضل قد وَحَّدك الله به، وجميلٌ قد جَعَلَكَ من أخص أهله، ولا زالت المحاسن تحبو إليك، والفضائل تزدهم عليك، والقلوب تَحِنُّ نحوك، والآمال تنعقد بك، ولا زلتُ لحقك مراعيًا جَهْدِي وطاقتي، وإلى مُرادك مسارعًا قوتي واستطاعتي؛ ولا حرمت منك مادة تحفظ مهجتي، وتحوط بغيتي، لأفوز مستمتعًا بذكرك، مسرعًا إلى أمرك، متشرِّفًا بصنوف^(٥) ما يرد من جهتك، متشوفًا إلى ما يصدر عن وجهتك، عليك طيِّبُ سلام الله ورَوْحُ تحيته، ما اعتلج خاطر، واختلج ناظر^(٦).

(١) يقال: طال طَوَّلُكَ وطِيلُكَ وطُوْلُكَ وطُؤْلُكَ: أي مكثك وعمرك.

(٢) الحيلولة: المناعة..

(٣) الخشناء: أرض فيها رمل وحجارة.

(٤) غير معجمة في الأصل.

(٥) في (ر): بالصنوف.

(٦) د: خاطر ناظر، وهو سهو من الناسخ.

رسالة (٢٩)

[٨٥ ب] اللهم قَدْنا بعزيمة الراجعين إلى بابك، وبيّضْ وجوهنا عند مناجاتك، واغمرنا بموادِّ مواهبك وَمِنْحك، وآوِنَا إلى كَنْفِ أَمْنِكَ بالأمن منك، وأمطر علينا سحاب جُودك وعُطْفِكَ، وَوَفَّقْنَا لأَقْصَد السبيل إليك، وَخَفَّفْ علينا في كلِّ الأمور التَّوَكَّلَ عليك، وَسَهِّلْ علينا طِلَابَ ما أَعَدَدْتَهُ لأَوْلِيائِكَ لديك، واسلُبْنَا منا، وشرِّدْنَا عنا، وَخُذْ لنا، وَبِقْنَا علينا. لا توالنا بالنعم استدرأجًا، ولا تُمَهِّلْنَا بالتطاول احتجأجًا. ولا تَوَاخِذْنَا بِيَأْتَا^(١)، وارحمنا إذا صرنا عظامًا ورُفَاتًا، وَجُدْ علينا بكرمك إذا صدر الناس أشتاتًا. إليك وَكَلْنَا كُلَّنَا، وعليك طَرَحْنَا كُلَّنَا، يا من هو أرحم بنا منا، وَأَنْظِرْ^(٢) لنا من أنفسنا، وَأَلْطَفْ بنا من آبائنا وأمهاتنا. امحُ عنا صفاتنا باستيلائك، ثم خَلِّنا علينا فيك بولائك^(٣).

يا هذا! اسمع لغة أخرى على وجه التعويض، مترجمة ببيان منسوب إلى التلخيص، وَتَصَرَّفْ فيها بين مُبْهَم يحارُّ لُبُّك منه حتى تبقى مدهوشًا، وبين واضح يُعِزُّ نَفْسُكَ حتى تَرْقَى مَنُوعُشًا.

يا هذا! إذا ذكرته فاذكره واجدًا به. إذا وجدته^(٤) فجدّه ذاكراً له. على أن الذكر وجدٌ أيضًا. ولكن من ناحية العبادة. والوجد ذكر أيضًا، ولكن من ناحية الاستفادة. والوجد مُسْتَعْرِقٌ للصفات كلها بالمحو، والذكر مُسْتَفْرِشٌ^(٥) للسمات كلها بالزهو. فإذا اضطرع الذكر والوجد كانت الغلبة للوجد، لأن الذَّاكِر قد يذكر وهو غير واجد، والوَاجِد لا يجد إلا وهو ذاكر. على أن هذا الذكر ليس من مراسم اللسان، ولا من مناسم الفكر، ولكنه أوَّل

(١) بيأتا: وقت بيات، أي ليلاً. أي على غرة.

(٢) نظر لليتيم: رثى له وأعانه. يقصد أن الله - عز وجل - أكثر رعاية وعونًا لنا من أنفسنا.

(٣) من أول الرسالة حتى هذا الموضع ورد نهاية رسالة (١٦) ص ١٣٧.

(٤) من الوجد. (٥) أي يستعرضها ويبسطها. وتقرأ أيضًا: مستعرش، أي يظلمها كالعرش.

من المذكور، وثان من الذاكر. فأما الوجد فيرتفع عن تجديده بنظم لفظ، وترتيب حرف، لأنه صوت من حضرة الحق بعيان^(١) روحاني، ومباشرة ربانية، وإذا وافى توفيّ ليستوفي، وإذا استوفي فقد علا على المراد وأوفى.

يا هذا! وما وصفي لك الذكر بغرائب، والوجد بغوالبه، وما يدور عليهما بحوالبه^(٢) وجواده، وأنت إلى أن تذوق حلاوة ركوعك وسجودك بصدق النية وطهارة الطوية أحوج، وبما عاد [٨٦] عليك من ذلك أبهى وأبهج! ولكن ما أصنع؟ لعل وصفي استراق لي، واعتياق مني عما هو أخص بي وأجدي عليّ. وإذا كان تدبيري إلى غيري، فسيأتي وحسني تشركان في الحدوث، وتعزيان إلى المشيئة، وإن كانتا تفترقان في الاسم، وتباينان بالنعته. فيا عجباً من فكّ هو أسر، ومن أسر هو فكّ، ومن تخلية هي حصر، ومن حصر هو تخلية! فإن نبست بكاف أو ميم، أو بحاء أو بجيم، فدم^(٣) فوك، بل فُصّ، وردم كفك بل رُضّ^(٤). فلا جرّم لا إشارة ولا عبارة، إلا على وجه الاستعارة والإعارة؛ والله المستعان!

رسالة (٣٠)

اللهم إنا لا نصلح بوجه حتى تصلحنا، ولا ننجو حتى تنجيننا، ولا ننال ما نتمناه إلا بعد أن تُقرّبهُ إلينا، وتهيئه لنا وتؤهلنا. فافعل ذلك، اللهم! فإنه لا يكبر عليك شيء، ولا يضل عنك شيء. ومهما كان منك فلا يكونن المقت والإعراض، فإن ذلك شقاء الأبد وشماتة الأعداء.

(١) في (ر) بغسيان، وفي (ع) بغشيان.

(٢) حوالب البثر: منابع مائها. وجواده: الأرض الجدياء اليابسة.

(٣) فُدم فوك: وضع عليه القدم، وهو ما يوضع على الفم سداً له، وهو أيضاً ما يُشد على فم الإبريق ونحوه لتصفية ما فيه.

(٦) الرض: الدقّ والجَرش.

اللهم إِنَّا قَدْ عَادَيْنَا الْجَاهِلِينَ بِكَ فَوَالنَّاسِ لَمَعَادَاتُنَا لَهْمْ فِيكَ، وَصَدَّقْنَا الْمُخْبِرِينَ عَنْكَ فَاجْزِنَا عَلَى ذَلِكَ بِفَضْلِكَ، وَبَيِّضْ وَجُوهَنَا بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَحَيِّنَا بِرِضْوَانِكَ إِنَّكَ أَهْلُ ذَلِكَ.

اللهمَّ هذه أشعارنا وأبشارنا^(١) تبين معترفة بأنك إلهنا وخالقنا، وكافلنا ورازقنا، وولَّيْنَا وهادينا، وناصِرُنَا وكافينا. ليس لنا ربٌّ سِوَاكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ. فبهذه المعرفة الثانية وبهذه المسئلة الثانية إِنْ رَوُّفَتْ بِنَا وَعَظَفَتْ عَلَيْنَا، وَحُلَّتْ بِكَ بَيْنَنَا وَبَيْنَنَا، حَتَّى نَكُونَ لَكَ بِلا أَنْفُسِ أَمَارَةٍ بِالسَّوَاءِ وَلَا مُسَوَّلَةٍ بِالْهَوَى وَلَا خَوَّانَةٍ فِي الطَّاعَةِ.

يا هذا! اعتاصت والله الغاية على الغاية، وانتهت النهاية إلى النهاية، وأدرجت الآية في الآية. فلهذا ما صار الدواء داءً، والأسو جراحًا، والعطاء سلبًا، والبلاغة عيًّا، والرَّشَادُ غِيًّا، والنَّشْرُ طِيًّا، والقَبُولُ رَدًّا، والوَصَالُ صَدًّا، والتَّامُّ نُقْصَانًا، والرجحان وَكَسًا^(٢)، والتوجه استدبارًا، والتبسم استعبارًا، والربح خسرانًا، والزيادة نُقْصَانًا، والرِّضَا سُخْطًا، والأمر فُرْطًا^(٣)، والمستقيم محالًا، والثابت مزالًا، والطاعة ذنبًا، والإجابة قلبًا. وعلى هذا إلى أن ينفذ القول، ويضمحل [٨٦ب] الاسم، ويبعد الفعل، وينحرف الحرف، ويُنسى التأليف، ويطوى الضمُّ، وينشر النشر، وتفنى العبارة، وتزول الإشارة، وإلى أن يقال للقائل: قل فلا يقول، ويقال للسامع: اسمع فلا يسمع، ويقال للمتحرِّك: اسكُنْ فلا يترمم^(٤)، ويقال للسَّاكن: تحرك فلا يهتمهم.

يا هذا! دع أيضًا هذا، وتعالَ حتى نتعلَّلَ كيفما ما خَيَّلْتَ. فكل حيٍّ مُعَلَّلٌ^(٥)، وكُلُّ كثيرٍ مُقَلَّلٌ، وكل عزيز مُذَلَّلٌ. طَيَّبَ بَيْتَكَ الَّذِي أَنْتَ سَاكِنُهُ حَتَّى تَنْعَمَ بِالْحَقِّ مُدَلًّا، وَلَا يَجَاوِرُنَّكَ فِيهِ مَنْ لَا تَأْمَنُ غَيْلَتُهُ حَتَّى تَسْلَمَ عَلَى الْخَلْقِ مُجَلًّا؛ وَمَهْمَا سَهَوْتَ عَنْ شَيْءٍ فَلَا تَسْهُ عَنْكَ، فَإِنَّكَ إِنَّمَا تَعْرِفُكَ بِأَنْ تَسْأَلَ عَنْكَ وَأَنْتَ الْمَسْئُولُ وَالسَّائِلُ. هَكَذَا رَبَّتْكَ الْمَلِكُ،

(١) جمع شعر وجلد.

(٢) الوكس: النقص.

(٣) الفُرْطُ من الأمور: إسراف وتضييع ومجاوزة الحد.

(٤) لا يترمم: لا يتحرك.

(٥) علل العطشان: سقاه سقيًا بعد سقي.

وبهذا أَرادَكَ المريد، وإلى هذا دعاكَ الداعي. إلا أَنك في أحد طرفي السؤال والإجابة عبد ذليل، وفي الآخر ربٌّ جليل. فافطنْ لما فيكَ بما بك، واحرُسْ ما بك^(١) بما لك، وغِرْ على ما لك بما معكَ، واصفُ بما معكَ لما عندكَ، وأصفُ ما عندكَ إلى ما عند من هو عندكَ، وأطلع على الفضاء الذي بين ما ومن، ثم أخلص إلى الغاية القصوى منهما بشيرًا ونذيرًا، شاكراً وعذيراً^(٢). على أَني بعيد الطمع من رشادكَ لانهماككَ في غيِّكَ وفسادكَ، وشدة غُلُوِّائِكَ في أخذ عُدَّتِكَ وعَتادِكَ، وإصلاح زادكَ في يومكَ لمعادكَ. وإنما بعدَ طمعي لأنني أجِدُكَ مستهماً بظاهر الحياة الدنيا، مستهيناً بباطن ما أنت صائر إليه بعد هذا الذي ترى. وكيف لا أكون بعيد الطمع، سيئ الرجاء، كليل الأمل، وليس على وجهكَ سحناء^(٣) الزاهدين، وعلى شمائلكَ سكون المُخبتين^(٤)، ولا على أطرافكَ خُشوعُ العابدين، ولا في حركاتكَ هدي الصادقين، ولا في كلماتكَ صدق المهتدين، ولا في لحظاتكَ حلاوة المُشاهدين، ولا في أوقاتكَ ما يَدُلُّ على أَنك من المستيقظين، ولا في معاملتك ما يشهد بسلامة المُعاملين؟ ظاهرُكَ أعيثُ^(٥) من باطنكَ، وباطنُكَ أخبثُ من ظاهرِكَ، وإشارتكَ أَنكَدُ من عبارتِكَ، وعبارتكَ أَفسدُ من إشارتِكَ، وكُلُّكَ مستغيث من [أ٨٧] بعضكَ، وبعضُكَ هاربٌ من كُلِّكَ، وَلَيْلُكَ يضجُّ من نهاركَ، ونهارُكَ يبرأ إلى الله من ليلِكَ.

ثم إنكَ بعد هذا كله بصفاقة وجهكَ وبذاعة لسانكَ، وقبحكَ في سَخفِ عِبَادتِكَ، تدَّعي منازل الصادقين، وتبحث عن ضمائر النبيين، وتسأل عن أسرار الملائكة المُقَرَّبِينَ، وتُهَجِّنُ مراتب المختصين، وتعترض على أفعال رب العالمين، كأنكَ شريك له في خلق الخلائق أجمعين! سَوَاءٌ لَكَ، وبراءةً مِنْكَ، والويلُ لِمَنْ أَجَرَكَ رَسَنُكَ^(٦) من قُرَنائِكَ.

أما تستحيي ممن خلقكَ فسوّاك، وأرشدكَ فهداك، وتممكَ وقوّاك، وأعطاك وهنَّاكَ، ثم وعدكَ ومَنَّاكَ، ثم خَصَّكَ واجتباكَ، ثم عَلَّاكَ وحلَّاكَ، ثم رَفَّاكَ^(٧) وحيَّاكَ، ثم مَلَكَكَ وولَّاكَ،

(١) ر: بابك.

(٢) العذير: العاذر، النصير.

(٣) السحناء: اللون والهيئة.

(٤) المخبتين: الخاشعين، الخاضعين.

(٥) أعيث: أكثر فساداً وخراباً. من الفعل عاث.

(٦) أَجَرَهُ رَسَنَهُ: تركه يصنع ما يشاء.

(٧) رفأه: دعا له بالبركة والنماء.

ثم أحضرِكَ وآوَاكَ، ثم استخلصَكَ وتَوَلَّاهُ؟! فَأَيَّ أَيَادِيهِ قَدْ شَكَرْتَ؟ وَأَيَّ آيَاتِهِ قَدْ نَشَرْتَ، أَمْ أَيَّْ إِحْسَانِهِ ذَكَرْتَ؟ هِيَهَات! هِيَهَات! إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ، وَخِبَالِكَ الْعَظِيمِ.

بالله أيها السامع، لا يروعنكَ ما أصفُكَ به مُهَجَّنًا لَكَ، وخافضًا من قدرك، وقادحًا في عرضِكَ، وغامرًا في قناتِكَ^(١)؟ فَوْحَقَّ الْحَقُّ الَّذِي بِهِ حَقٌّ كُلُّ حَقٍّ، وَبِهِ اسْتَحَقَّ مَا اسْتَحَقَّ كُلُّ مُحَقٍّ: إِنْ مُكَلِّمَكَ لَشَرِّ مَنْكَ كَثِيرًا، وَأَقْدَمُ مِنْكَ فِي الضَّلَالِ بَعِيدًا، وَمَا يَنْطِقُ بِمَا تَسْمَعُ إِلَّا لِيَكُونَ ذَاكَ حُجَّةً عَلَيْهِ [و] وَبَالًا بَيْنَ يَدَيْهِ. وَلَوْلَا أَنْ ذَاكَ كَذَلِكَ، لَكَانَ لَهُ فِي اسْتِمَاعِهِ مِنْ نَفْسِهِ شَاغِلٌ عَنْ اسْتِمَاعِهِ لْغَيْرِهِ، وَهِيَ مُحَنَةٌ كَمَا تَرَى، وَبِلَاءٌ كَمَا تَسْمَعُ. فَهَلُمَّ فَاذْدُبْهُ، وَإِنْ كَانَ حَيًّا فِي الظَّاهِرِ، فَإِنَّهُ مَيِّتٌ فِي الْبَاطِنِ. وَعَدَّدَ مَخَازِيهِ فَإِنَّهَا بَادِيَةٌ؛ وَقَلَّ فِيهِ، فَإِنْ فِيهِ مُتَسَعًّا لِلْمَقَالِ. وَاجْعَلْ إِشْرَافَكَ عَلَى تَقْصِيرِهِ وَإِصْرَارِهِ وَجَهْلِهِ بِمَقْدَارِهِ سُلْمًا لِنَفْسِكَ، وَبَابًا إِلَى طَلَبِ السَّلَامَةِ مِنْ جَمِيعِ بَنِي جَنْسِكَ. فَإِنْ وَاعِظُكَ إِذَا كَانَ بِهِذِهِ الْحَالَةَ الْمُخْزِيَّةَ، وَعَلَى هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ الْهَابِطَةِ، فَكَيْفَ حَالٌ مِنْهُ هُوَ مُتَمَادٍ فِي غُرُورِهِ، مُتَهَالِكٌ [٨٧ب] فِي شُرُورِهِ؟ عِنْدَهُ أَنْ الْحَزْمُ كُلُّهُ فِي مَعَاطَاةِ الْكَأْسِ بَعْدَ الْكَأْسِ، وَشَرْبِ الْخَمْرِ بَعْدَ الْخَمْرِ، وَنِيلِ الشَّهْوَةِ بَعْدَ الشَّهْوَةِ، وَبُلُوغِ اللَّذَّةِ بَعْدَ اللَّذَّةِ، وَلَوْ بِخَرْقِ الدِّينِ، وَلَوْ بِمَفَارِقَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَوْ بِتَرْكِ الْحَيَاءِ بَيْنَ جَمِيعِ الْمُبْصِرِينَ وَالسَّامِعِينَ، وَلَوْ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ مِنَ الصَّالِحِينَ وَالطَّالِحِينَ. هَذَا وَاللَّهُ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ، وَالْخُسْرَانُ الْمُبِينُ.

أيها السامع! قَدْ قَلْتُ مَا تَسْمَعُ وَاعْظَا لَكَ بِالنَّصِيحَةِ، وَنَاصِحًا لَكَ بِالْمَوْعِظَةِ، وَعَاطِفًا عَلَى نَفْسِي بِفَضْلِ الْقَوْلِ لَكَ، وَفِيكَ. فَإِنْ كُنْتَ وَجَدْتَ بَرْدَ ذَلِكَ فِي صَدْرِكَ، وَثَلَجًا بِيَعِضِ الْيَقِينِ مِنْ نَفْسِكَ، فَاتَّخِذْنِي صَاحِبًا لَكَ، لَعَلِّي أَجِدُ بِذَلِكَ شَيْئًا مِمَّا وَجَدْتَهُ، وَلَعَلِّي أَنْالُ بِهِ ذَرْوًا مِمَّا نَلْتَهُ، فَإِنْ أَيَادِي اللَّهِ مُخْتَلِفَةُ الْمَصَادِرِ وَالْمَوَارِدِ، وَمُتَبَايِنَةُ الْمَبَادِي وَالْعَوَائِدِ^(٢)، وَلَيْسَ بِضَائِرٍ أَنْ يُسْعِدَنِي اللَّهُ بِكَ لِقَبُولِكَ مِنِّي كَمَا أَسْعِدُكَ بِقَبُولِ مَا نَجَعُ^(٣) فِيكَ مِنْ قَوْلِي. وَلَعَلِّي قَلْتُ مَا قَلْتُ مَزْخَرَفًا، وَقَبَلْتُ مَا قَبَلْتُ مَخْلَصًا. فَرَحِمَكَ اللَّهُ بِي آخِذًا

(١) فِي (ع): وَغَامِرًا فِي فَنَائِكَ. (٢) جَمْعُ عَائِدَةٍ: فَائِدَةٌ.

(٣) نَجَعٌ: نَفْعٌ، وَفِي (ع): نَجَحٌ.

بيدك، ثم رحمني محسنًا إليَّ. إنما يحب أن يرفع الله درجتك على واعظك، لحسن تقبلك، ثم يجعلك مشفعًا في واعظك. إن ذلك لشرف بين، وكرامة عالية، ومنزلة ما مثلها منزلة.

فالبدار - أكرمك الله - البدار، إلى منازل الطاهرين الأبرار، المخصوصين بالحق في السرار والجهار، الصابرين للحق عند اختلاف الأحوال في الاضطراب والاختيار، والمحاب والمسار.

أيها الصاحب المدل بالمح والمؤانسة، الباعث على المباراة والمنافسة، القائم بشروط الوفاء، المتجلي بحقائق الصفاء، الناظر إلى الدنيا بعين اللفاء والعفاء^(١)، في زمان قد أفل فيه نجم الحق، واجتث أصل الخير، وغار ماء الإيمان، وانمحي رسم الدين، وتناسى فيه أهله العرف^(٢)، وتلاقوا بينهم بالنكر، وسقط التعبير على التقصير، [٨٨أ] وبطل التشمير بالتعذير. اسمع هينمة نفس قد طال نزاعها^(٣) إلى وطن عنه صدرت آمنة مطمئنة، ثم انقطعت دونه خائفة مرجحة^(٤) بألوان العجائب التي تقلبت فيها، وبلت بها، وارتكضت عليها، وتنكرت لها، حتى ضلت عن عيبتها، وغرقت في ريبها، وباءت بسخط الله.

شرّفها بالأمر والنهي فخالفت، وعرضها للنعيم المقيم فأبت، وأنفت. لا جرم الآن قد انتبعت لحظها الذي حرمت، ووقفت على جنايتها التي تقدمت. فها هي، دهرها، تسكب الدموع على فائت ليس له رجوع، وتتقطع حسرات على هنات كانت منها وهنات. فهجّرها^(٥) في ليلها ونهارها قولها: إلهي! بك أعصم مني، وإليك أفرّ عني، وإياك ألحظ بكلي وبعضي، وإليك أدين بتطوعي وفرّضي، وعليك أقبل بوجهي، وعندك أهدأ بحقيقتي، وأنت أحق بي منك^(٦)، وأملك لي، لأنك أولى وأخرى بالخلق. [.....]^(٧) وباطني

(١) اللفاء: التراب، الشيء القليل. والعفاء: تراب الأرض، الزوال والهلاك. وفي (ع): اللقاء.

(٢) العرف: المعروف. (٣) النزاع: الشوق.

(٤) ارجحن الشيء: اهتز. وارجحن: مال. وفي المثل: إذا ارجحن شاصيًا فارفع يدا. يقال ذلك للرجل يقاتل الرجل، يقول: إذا غلبته فاضطجع ووقع ورفع رجليه فكف يدك عنه.

(٥) الهجّري: الدأب والعادة. (٦) كذا، والأوضح أن يكون أصله: مني.

(٧) يبدو أن هناك كلمات سقطت من الناسخ.

وظاهري بالتصريف والتهئية، وحُلُمي وانتباهي بالعقيدة والطَّويَّة، وفكري وذكرني بالمعرفة والتصفية، ووجدني في وجدي بالحقيقة في الحقيقة، وروحي في رُوحِي عند الغاية المصدوقة، ومَراحِي في مرامي على الجَرح والتزكية، ومُرادي بخالص القصد والنية، ومنتهى غياري^(١) وإيثاري بصادق البديهة والروية. فلا تصرّيح لي فيك إلا هو تعريض انبساطاً معك، ولا تعريض لي إلا وهو تصرّيح غيرةً عليك، ولا إطناب لي في نعت إلهيتك إلا لتشيع عني ما وجدته بك، ولا إيجاز^(٢) لي في وصف شأنك إلا لتغلب صبابتي في كل ما يكون خبراً عنك، أو نبساً بالإيمان إليك، وهمساً في الظن بك. أنت عزُّ الكون، ومالك الدهر، ومُصَرِّف الكل، ومُقلِّب الكل، ومبدي الدَّق والجُل. بل أنت الموجود في كل شيء لا كما يوجد ما دام بك وافترق إليك، ولكن كما توجد أنت، وليس واجدك سواك، ولكن سواك واجد بك [وواجد لك]^(٣) وواجد منك. فأما واجد بك، فلأنه وجد عينه بك. وأما واجد لك، فلأنه وجد وجده من أجلك. وأما واجد منك، فلأنه وجد ما به وجد ما وجد من جهتك؛ فأنت المحيط وأنت المشتمل، [٨٨ب] إلا أن إحاطتك بالقدرة واشتمالك بالمعونة؛ وكلُّ ما لَخَلَقك بالمجاز، فلك بالحقيقة؛ وكلُّ ما لسواك بالأثر، فلك بالعين. والإشارة التي هي إليك، هي منك. والذاكر الذي هو لك، هو بك. والوجد الذي هو منك، هو بك. والوجد الذي هو بك، هو منك. ولم تختلف هذه الحروف إلا لحاجة الخلق إليها في النكور، وإلا فالمعنى واحد مؤتلف متَّفِق لا يُرَنَّق^(٤) عليه لبسٌ، ولا يمر به جن ولا إنس، ولا يتبدله طرف، ولا يؤثر فيه صرف، ولا يوضحه اسم ولا فعل ولا حرف.

(١) غار يغور غَيْرًا وغيَارًا. غَارَه: نفعه. غار الله القوم بخير: أصابهم بخصب ومطر ونفعهم.

(٢) في (د، ع): إيجاب.

(٣) اضطراب في رسم الكلمة، والتكملة من (د). ويدل عليه الكلام بعده.

(٤) يرنق: يرفرف. وقد تكون «يرين».

أيها السامع هذه الغرائب! جَهْدُ الجاهد في معرفته نكرة، وبلوغ الغاية في وَصْفِهِ حيرة، وفي الإعراض عنه بوار وتلف، وفي التعرض له عناء وكَلَف، وفي التذبذب بين الإعراض والتعرض أَسَى وأَسَفٌ، وهلاك وتلف. فواعجباً مني:

صَـرْتُ كَأَنِّي ذِبَالَةٌ نُصِبْتُ تَضْيِئُ لِلنَّاسِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ^(١)

يا هذا! لو غَفَلَ الرقيب قليلاً لاستمع الطرف باللحظ؛ ولو بَرَدَ الغليل قليلاً لانتفع القلب بالوعظ، ولو سكن لهيب الشوق لسلك الطريق إلى الحبيب، لأن الشوق إذا استوعب المشتاق حَصَرَهُ عن قصد مَنْ إِلَيْهِ طَالَ الاشتياق. على أَنْ السُّلُوْ مُعْتَرِضٌ، واليَأْسُ مُتَحَكِّمٌ، والصدر خافق، والعجز حاصر، والمُنَى خطر، والقول فضل، والنصيب عدل، والبال كاسف، والمَحَلَّ حَرَجٌ، والعادة مُسَلِّطَةٌ، والقرين خاذل، والطريق وَغَرٌ، والزاد نَزَرٌ، والعهد منكوث، والسير محثوث، والمانع مبثوث، والرائد كذوب^(٢)، والمحرك خلوب^(٣)؛ والأنف راغم، والهوى مسؤول، والظاهر مُعَلَّلٌ، والباطن مُخَبَّلٌ، والقائل متأوِّلٌ، والسامع متحوِّلٌ، ووراء هذا كله مُتَقَوِّلٌ ومُتَقَوِّلٌ.

أيها الراغب في العاجلة، الزاهد في الآجلة، المغتر بآل^(٤) الضحى، الغافل عن دَوْر هذه الرِّحَى! ما هذا التغير الذي أنت آلفه، وما هذا السهو الذي أنت مُحالفه، وما هذا [أ٨٩] الإصرار الذي يُحِيطُ الأصل والفرع، وما هذا التسويف الذي يخالف العقل والشرع، وما هذا الرأي الذي عاقبته الويل والحَرَب^(٥)، وما هذا السعي الذي قد بار باللهو واللعب؟! انتبه يا غافل^(٦)!

(١) بيت شعر للعباس بن الأحنف، وقد مرَّ من قبل.

(٢) إشارة إلى المثل: الرائد لا يَكْذِبُ أَهْلَهُ، وقد مرَّ من قبل.

(٣) الخلوب: الخادع. والمحرك من يحثك على فعل شيء.

(٤) الآل: السراب.

(٥) الحَرَب: الويل والهلاك.

(٦) لم يختم أبو حيان هنا بالدعاء كما اعتاد في رسائله.

الرسالة (٣١)

استعلام الفطنة من الإشارات الإلهية

أيها الصاحب المُحاور، والصديق المجاور! كيف أتكلم، والفؤاد هائم بكل واد، والخاطر خال من كل حادٍ وهادٍ؟ أم كيف أشكو، والسر ظاهر بادٍ؟ أم بأي شيء أتعلل وكل ما أجده مُردّد ومُعادٍ؟ أم على مَنْ أعتمد وكلُّ أحد أراه فهو لي ضدٌّ ومُعادٍ؟ أنفاسي متحرقة بالحسرات، ودموعي مترققة بين النَّعرات^(١) والزفرات، وكبدي مشتعلة على المناظر والهيئات، ويقظتي جارية على الرسوم والعاتات، وأحلامي عارية^(٢) من كل ما له حاصل وثبات، ونفسي رهينة بالسيئات، مفتونة بالسوانح والخطرات، مغبونة عن الحسنات والصلاحات.

الجهات دوني منسدة، والوجوه أمامي مُسوّدة. إن قلتُ، قيل: هذا زورٌ وبهتان؛ وإن أشرتُ، قيل: هذا بورٌ وعُدوان؛ وإن سكّيتُ، قيل: هذا سهو ونسيان. فليت من ابتلاني بما لا طاقة لي به، رحمني بما لا غنى لي عنه؛ أو ليت من طردني عن بابه، أهلني لعتابه؛ أو ليت من جرّني مُرّ فراقه، أخطر على بالي حلاوة لقائه. أو ليت من غمّسني في بحر البلوى، طرحني إلى ساحل المنى. أو ليت من حطّني عن درجات المخدومين، رقّاني إلى مقامات الخدم، أو ليت من حرمني روح المخصوصين، كفاني نوازع الندم والسّدم^(٣)! أو ليت من نبذني وراء كل شيء منّ عليّ بشيء، أو ليت من حظر عليّ البسط عنده، لم يحظر عليّ التبصص^(٤) له. أو ليت من قطع عني عاداتي منه، لم يُملّك مقادتي غيره. أو ليت من

(١) النَّعرة: صوت الخيشوم، وكبر وخيلاء وعصبية.

(٢) عارية: خالية.

(٣) السّدم: سَدَمٌ سَدَمًا: أصابه هم أو غيظ مع حزن.

(٤) تبصص في دعائه: رفع سبّابتيه إلى السماء وحركهما. وهنا يقصد لم يحرمه من نعمة دعائه.

منعني بَرْدَ الرضا لم يشوني بجمر الغضا. أو لَيْتَ من تركني هكذا سُدى [٨٩ب]، لم يفضحني في مجالس العدى.

آه من أنفاس تتحقق بأسرار الحق في عَرَصات الغيب على بُسْط التملل، حيث ليس للعبارة فيه نصيب، ولا للإشارة فيه تقريب!

آه من قول مردود، وقائل محسود، وقاصد مطرود، وباذل مجهود^(١)، وسائل محدود! آه من زمان متكرر، وصديق متغير، وعدو متنمر، وجار متذمر، ومعامل متنقّر^(٢)!

آه في الجملة من مكان ناب^(٣) بالمستوطنين، ومن مسؤول آب^(٤) للسائلين المستعطفين! إلى من يفرع طريد المحبوبين؟ وبماذا يحتج من زجر عن محل الحاضرين؟ وإلى ماذا يلجأ من غمر بالظلام، ومنع من الاستراحة إلى الأمان والأحلام، وجعل آية بين هذا الأنام؟ إذا ظهر بصفاته التي أعيرها قمعه، وإذا تفرق في زخارف الملك جمعه. وإذا سأل رَوْحَ ساعة في العمر منعه، وإذا غاب بأشجانه وأحزانه شيعه، وإذا حضر برفقه ولطفه شَمْتوه^(٥) وأسمعوه. فكله من بعضه في بلاء، وبعضه من كله في عناء، وآخره مع هذا وغيره إلى شقاء: **إِنْ وَصَلَ هُجِرَ، وَإِنْ سَأَلَ زُجِرَ، وَإِنْ أَدْعَى طُوبِ، وَإِنْ اسْتَرْسَلَ عَوْتَبَ، وَإِنْ قَالَ: لَا أَدرِي؛ قِيلَ هَذَا تَحَاجَزَ، وَإِنْ قَالَ: أَدرِي، قِيلَ هَذَا تَعَزَزَ، وَإِنْ وَلَّى اسْتَقْبَلُوهُ، وَإِنْ أَقْبَلَ وَلَّوْا عَنْهُ.** **عِنَادٌ وَلَكِنَّهُ عَجَبٌ، وَكِيَادٌ^(٦) وَلَكِنَّهُ ذُو طَرْبٍ، وَعَنَوَةٌ^(٧) وَلَكِنَّهَا أَلَذٌّ مِنَ الصَّلَحِ، وَغُرْبَةٌ وَلَكِنَّهَا أَطِيبُ مِنَ الْوَطَنِ، وَغَضَبٌ وَلَكِنَّهُ أَحْلَى مِنَ الرِّضَى، وَحَرَمَانٌ وَلَكِنَّهُ أَرْوَحُ مِنَ الْعَطَاءِ، وَجَفَاءٌ وَلَكِنَّهُ أَلْطَفُ مِنَ الْبَرِّ، وَرَدٌّ وَلَكِنَّهُ أَشْرَفُ مِنَ الْقَبُولِ.**

يا هذا! **إِنَّ الْحَقَّ مَا نَبَّهَكَ عَلَى هَذِهِ الْغَوَامِضِ إِلَّا وَقَدْ قَدَّسَكَ عَنْ سَائِرِ الْعَوَارِضِ، وَمَا هَتَكَ دُونَكَ هَذِهِ السَّوَاتِرِ إِلَّا وَقَدْ أَطْلَعَكَ عَلَى تِلْكَ السَّرَائِرِ، وَلَا أَوْحَشَكَ مِنْ رَقِ**

(١) مجهود: مُتْعَب. (٢) متنقّر: كثير البحث والتدقيق. والتنقير على الرجل: ذكر عيوبه.

(٣) نبا به المكان: كان غير مناسب له. (٤) آب: من الفعل أبى، أي: كاره.

(٥) شَمَّتَ فلاناً: خَيَّبه. (٦) كِيَاد: جمع كَيْد، وهو إرادة مَضَرَّةٍ الْغَيْرِ خَفِيَّةً. وفي (ر، ع): كناد.

(٧) العنوة: الاغتصاب والقهر.

العبودية إلى وقد هيأ لك خِلعة الحرية، ولا كَدَّرَكَ بما يصحّ منه في هذا الشاهد إلا وهو يريد تصفيتك في ذلك الغائب. أما لك في هذه الأحوال العجيبة فطانة! أما لك من لُبِّك وتجربتك ظهارة أو بطانة؟ أما لك مما ترى فيما لا ترى عبْرَة [١٩٠أ]؟ أما لك مما تشهد بما لا تشهد خِبْرَة؟ أما لك بما تجد بما لا تجد حجة أو عذرة^(١)؟

يا هذا! إنك لمراد بأمر عظيم، ومُرَّشَح لسر مكتوم. فالجَدَّ الجَدَّ! فكأنك وقد بلغت الحدَّ: إنما هي حياة ذات أنفاس، وحال دائرة بين طمأنينة ووسواس. فإن أغضيت عنها أنفًا منها، ولم تحلم بها عائفًا لها، ولم تكمد عليها مستغيثًا بما فوقها، رفعوك إلى حظيرة القدس وتَوَجَّوْكَ^(٢) بتاج الروح والأنس، ورَدَّوْكَ^(٣) رداء المخصوصين، وأنسَوْكَ جميع ما قاسيته بين العالمين، وخاطبوك بلفظ التشريف، وأعَفَّوْكَ من كل توقيف وتعنيف، وقيل لك: تحكم باقتراحك فلا حائل بينك وبين أمنيته، وابلُغ غاية ما تجد بوهمك فلا خيبة لك بعد ما سلف منك في أيامك، وناغنا بأسرار صدرك، فطالما تكسرت في حجب الكتمان عندك، وكل ذلك كان بعيننا وتحَرَّكنا. ونحن كنا أولك وآخرك فيها، ولو شئنا لكفيناك، ولكنا رقيناك بما صفيناك، لتكون عندنا على ما أردناك. وإن أنت لم تُغَضَّ عن هذه الزهرة الحائلة، ووَكَلْتَ بها طَرْفَكَ وقَصَرْتَ عليها سعيك، وجعلتها همَّك وبالك، ووهبت لها سرَّك وجهك، جعلوك حَطَبَ جَهَنَّمَ. وحينئذ لا أبعد الله غَبْرَكَ^(٤).

اللهم^(٥) إنا نرتاح لذكرك على تَلَوُّننا في مخالفتك^(٦)، ونرتاح من مكرك على علمنا بجودك وكرمك. فهب ارتياحنا من مكرك لارتياحنا لذكرك، وزدنا من عندك ما هو لا تُقِّ بمجدك، ولا إذن لنا في طلبه منك. [فإن] جودك أسبق إلينا بفنون العطاء من تضرُّعنا إليك بأصناف الدعاء. مننت علينا في الأول فكان ذاك كرمًا منك، وستُمنُّ علينا في الآخر بمثله لأن

(١) العذرة: المَعذرة.

(٢) في (ر، ع) وتوجك.

(٣) رَدَّوْكَ: ألبسوك.

(٤) الغَبْر: الغبار، كناية عن الشخص نفسه أو أثره.

(٥) من هنا حتى نهاية الرسالة ورد في ل (الورقة ١٦ ب- ١٩ أ) متصلًا بما مر من الرسالة رقم ٣.

(٦) في (ر): مخالفتك لك.

آخرك شبيه بالأول، وأولك شبيه بالآخر، بل أولك آخِرٌ وآخِرُك أول. فَمَنْ كُلُّهُ واحد، وهو على ذلك شاهد، كيف يخاف عليه، أم كيف يرتاب بما عليه، أم كيف يقنطُ من رحمته؟ ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

إلهنا! نحن عبيدك، متصرفون على إرادتك، مُتَقَلَّبُونَ بين مشييتك وحكمك، مترددون بين قدرتك وحكمتك، آملون روادفَ عَطْفِكَ [٩٠ب] ورحمتك، معترفون بسوابغ نعمتك وإحسانك، خائفون من عواقب سطوتك ونقمتك. فغلب، يا إلهنا رجاءنا على يأسنا، وغيب خوفنا في أثناء أماننا، واهتف بنا إذا سهونا، وأيقظنا إذا نعسنا، وادعنا إذا فترنا، وارؤف بنا إذا ضعفنا، وشرفنا إذا اتضعنا، وأوردنا إذا ظمئنا، وأوقدنا إذا طفئنا، وأطبنا إذا خبئنا، وتألفنا إذا شردنا، وتكرم علينا إذا لؤمنا، وذكركنا إذا نسينا، ولطفنا إذا كئفنا^(١)؛ وفي الجملة، قربنا منك إذا بعدنا عنك، وصلنا بك إذا انقطعنا دونك، فإنك مالك نواصينا في الشهادة والغيب، ومُدبِّر أدانينا وأقاصينا في الرُّوح والكَرْب.

إلهي! كلُّ ما أقوله فأت فوقه، وكلُّ ما أضمره فأت أعلى منه، فالقول لا يأتي على حقك في نعتك، والضمير لا يحيط بكنهك. وكيف نقدر على شيء من ذلك، وقد ملكتنا في الأول حين خلقتنا، وقدرت علينا في الثاني حين صرفتنا؟ فالقول وإن كان فيك فهو منك، والخاطر وإن كان من أجلك فهو لك. من الجهل أن أصفك بغير ما وصفت به نفسك، ومن سوء الأدب أن أعرفك بغير ما عرَّفَني به حقيقتك، ومن الجُرأة أن أعترض على حُكْمك وإن ساءني، ومن الخِذلان أن أظنَّ أن تدبيري لنفسي أصلح من تدبيرك. كيف يكون هذا الظن صواباً والعجز مني ظاهراً، والقدرة منك شائعة؟! هيهات! أسلمتُ لك وجهي سائلاً رفدك، وأضرَعْتُ^(٢) لك خدي طالباً فضل ما عندك، وهَجَرْتُ كل من ثنائي^(٣) بي إلى غيرك، وكذَّبْتُ كلَّ من أيأسني من خيرك، وعاديت فيك كلَّ من أشار إلى سواك. أنا أنسى ما جُدت به عليّ في القدم، حيث أنا ليس وفي العدم، ثم ربيتني بين القسم

(١) كُئِفَ الشيءُ: غُلِظَ. كناية عن الغلظة في الطبع والسلوك.

(٢) أَضْرَعْتُ: أخضعت وأذلت.

(٣) ثنائي: أمانني وحنج بي.

والنعم، ثم ألبستني قميص معرفتك، وفَعَرَت فمي بذكرك، ثم أهَلَّتني لمناجاتك، ثم أذنت لي في الدعاء لك، ثم أمرتني بالدعاء إليك، ثم رشحتني لحفظ أسرارك، وأطلعتني على نجودك وأغوارك، بغرائب أخبارك وآثارك. إني إن نسيتُ هذه اللطائف، [٩١أ] وَسَهَوْتُ عن هذه الطرائف، لَمَمَن لا خير له في حياته، ولا زاد له بعد مماته.

اللهم إِنَّا إن ذكرناك فبتوفيقك، وإن وصفناك فبتأييدك، وإن لَهَّينا عن بعض ذلك فلننُفِذَ حكمك فينا وأمرك.

أيها الأخ الراغب في الخير، والصاحب المُجَانِبُ للشر! إن تكلفت لك وصفي ووصفَ زماني وزمانك، وما قد دُفَعْنَا إليه في شاني وشانك، كان ذلك شاعلاً للوقت عما هو أولى به، وأَعُوذُ عَلَيْنَا بالجدوى منه. فتعالَ حتى لا نشتكي ولا نتألم، ونهب أنفسنا لبلايا هذا العالم، فعن قليل نتقل إلى ما تعلم وأعلم. فليس من المروءة أن نشكو صديقاً إذا قَصُرَ، ولا من عِزَّة النفس أن نجزع من عدو وإن بالغ. وما فقرُ أيام، وبؤسُ ساعات، وتغيّرُ إخوانِ ثقات وغير ثقات، حتى نضجَّ هذا الضجيج ونفني زماننا بالأسى على الفاتت؟

ما أحوجنا - عافاك الله - إلى الإعراض عن هذه الأعراض والأمراض، بالإقبال على ما فيه إعداد الزاد للمعاد! فعن قليل تقف هذه المطية بالكلال فننزل عنها إمّا إلى الرشد والغبطة، وإمّا إلى البلاء والورطة. فهلَمَّ أيها الإنسانُ حتى لا ننطق إلا بما فيه فائدة، ولا نعمل إلا ما له ثمرة وعائدة؛ وندع الدنيا حتى تجمح بأبنائها وعُشَقائِها^(١)، ونكون نحن من عَتَقائِها وطلقائِها.

أيها الإنسان! تَبَّه فقد طالت الرِّقْدَة، وانتعشْ فقد استمرت في السَّقْطَة، واستأنسْ فقد أفرطت في الوَحْشَة، وخذ حِذْرَكَ فقد أحاطت بك الشَّقْوَة، واسلك^(٢) نفسك من نفسك نتج نفسك من نفسك. فما بعد الفضيحة التي أنت عليها فضيحة، ولا بعد النصيحة التي تسمعها نصيحة!

(١) ر: وعشاقها.

(٢) في (د): واملك.

اللهم أغننا بتبنيهم عن تنبيه خَلْقِكَ، وغَيِّبنا في مَشْهَدِ رُضْوَانِكَ عن عبادِكَ، وأشْهَدنا في غيب ملكوتك كُلَّ ما غاب عنا باحتجابنا عنكَ، واغْضُضْ أبصارنا إلا عن النظر إلى وجهك، وازمُمْ خواطرنا [٩١ب] إلا من السبوح في مُراد^(١) إلهيتك، واجعل أول قولنا عندك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّكَ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤].

اللهم إنا ربَّما تركنا دُعاءكَ وقد علمنا أنَّنا إذا كنا في وصفكَ فقد استغرَقنا ذاك وتجاوزنا ما هنالك، لأنَّ وصفكَ بما أنتَ أهلُه فوق دعائنا بما نحن نطلبه، وإنما دعائنا حَظٌّ لنا منك، ووصفنا لك نصيبك منا. وإذا وافقناك فيما تستحقه واصفين، قابلتنا عليه بما نأمله وبما لا نأمله غير واعين. ونحن إذا وصفناك فإنما نستنشق نسائم ربوبيتك من أوطان معرفتك بوسائط هدايتك. وإذا دعوناك فإنما نشكو إليك كُربنا الجاثمة على قلوبنا من خوف فراقك، ومع هذا وذلك فإننا نسألك اللهم أن تَقْبَلنا على عِلَّاتنا، وأن تُسَدَّ منا خَلَّاتنا، وأن تَقِيلنا^(٢) عثراتنا، وأن تَسْتُرَ علينا عَوْرَاتنا، وأن تُبَدِّلَ سيئاتنا حسنات، وأن تُغْضِيَ عن هفواتنا، وأن تهب لنا رضاك منا في جميع حالاتنا! فحاجتنا إليك فوق حاجة محيل النبات إلى القطر، وفوق حاجة الموتى إلى الرُّوح، وفوق حاجة الطالب إلى الوجدان.

اللهم فاجعل قولنا لك مسموعاً، وفكرنا فيك مرفوعاً، ودعائنا لك مُجَاباً، وعلمنا بك صواباً، ورغبتنا فيك صادقة، وشواهدنا بآلائك ناطقة، وآثاركَ عندنا باقية، وأيديك لدينا صافية، وألسنتنا بذكرك مأخوذة، وبصائرنا باليقين مشحوذة. يا ذا الجلال والإكرام!

رسالة (٣٢)

اللهم حِطَّنَا حِياطةً لا يَهْتَدِي من أَجلها عدوُّنا إلينا، وأَحِطَّنَا إحاطةً تستهلُّ بها سماءُ جُودِكَ علينا، وآتانا منك ما لا نتوقعه ولا نحسبه، وصَلَّنَا من فضلك بما لا نستحقه ولا نكتسبه، وكن دليلنا، وأنْهَج^(٣) سبيلنا، واحفظ كثيرنا، وكثِّر قليلنا، واشفِ عليلنا، وارحم

(١) المُراد (بالضم) الهدف والغاية، والمَراد (بفتح الميم): مكان اختلاف الجمال في المرعى إقبالاً وإدباراً.

(٢) من: أقال الله عثرته: أنقذه منها.

(٣) أنهج: وضع وأبْن.

أَيْنِنَّا وَأَلَيْنَا^(١)، وَاَمْدُدْ حَوِيلَنَا^(٢)، وواصل تخويلنا وتنويلنا. إنك أهل كل جود، [٩٢أ] وراعي كل موجود. وإذا أردت بنا ما لا طاقة لنا به، فاصرفه عنا بنظرِكَ الرحيم، وِرْفِكَ القديم، وعِزِّكَ العظيم، فإننا إليك ذوو فقر، وأنت عنا غنيٌّ كريم.

يا هذا! لُذْ بِاللَّهِ مجتمعا عن تَفَرُّقِكَ، واضرَعْ إليه منظوماً عن أَشْتَاتِكَ^(٣)، واعرضْ عليه ذاك الذي خُفْتُ منه فَنَاءَكَ، وَغَمَّضْ عن كل زهرة راقتك في هذه العَرْصَةِ، لعلك تُؤَهِّلَ لما هو أَرْأَفُ منها وآتق - فما تناهت القدرة ولن تتناهى.

إن عرفت فحوى هذا الخطاب فقد نجوت من عُقْبَى هذا الخُطْبِ؛ وإلا فأنت العَطْبُ المشموت به، والطالِح المذهول عنه. قال:

فإن تَنَجَّ منها تَنَجَّ من ذي عَظِيمَةٍ وإلا فَإِنِّي لا إِخَالُكَ نَاجِيًا^(٤)

رجل ضعيفٌ، وهاجرة مُحْرِقَةٌ، وَبَرٌّ قَفَرٌ، وعطش قديم، ورِشَاءٌ^(٥) قصير، وعمق بعيد. كيف الوصول إلى الرِّيِّ والحال هذه! آه! الآن توافيك معونةٌ ممن أنت تعينه: فيبرق الجوى، ويبعث النسيم، وَيُنَدِّي الهواء فيصل إلى كبذك ما تنعم به؛ ولعلك تستقل بوجدانه، وتستغنى عن فقد ما أنت مُبْتَلَى بطلا به. فيا لها راحة وسكوناً وَقُرَّةَ عين وطيب نفس وبلوغَ مراد، إن جُعِلَتْ لهذا الذي سمعته أهلاً. ولست تكون هذا المذكور بهذا الوصف إلا بعد أن تُطَلِّق الدنيا ثلاثاً، وتُعَرِّضَ عنها طلقاً، ثم تقبل على طليق نفسك من شهواتها الذميمة وعاداتها الفاسدة وقرنائها المُضِلَّة، وسواسها الباطلة، ثم تأخذ بعنانها نحو الذكر واللَّهَج به، والطَّوْف عليه، والاشتغال عليه، والصدق والإغراق فيه؛ ثم تجعل عمرك نوماً، ونومك حلمًا، فلا يقظة لك بعد ذلك إلا عند الله الذي إليه طال شوقك، وبه هام فؤادك، ومن أجله هجركَ أَقْرَبُوكَ، وبسببه عاداك مُحِبُّوكَ. ذاك الذي لا تخسر تجارتك معه، ولا تبور بضاعتك عنده، ولا تخشى نفاذ ما يعطيك، ولا ترى خُلُفاً فيما سبق إليك

(١) أَلْ أَلَّا وَأَلَّا: صَرَخَ مِنَ الْأَلَمِ، رفع صوته بالدعاء. (٢) الحَوِيل: الكفيل.

(٣) في (ر): أسبابك. وما أثبت هنا هو الأصح بدليل قوله قبلها تَفَرَّقَكَ.

(٤) جاء في البيان والتبيين (١: ٣٦٧): «قص الأسود بن سريع، وهو الذي قال: فإن تنج... البيت. (تحقيق: محمد عبد السلام هارون. ط ٧ - الخانجي).

(٥) الرِّشَاء: الحبل، أو حبل الدلو ونحوها. كناية عن قصر الباع.

به وعده. وهناك تعلم أنك به وصلت [٩٢ب] إليه، وبتوقيقه نلت مَرْضَاتِهِ، وبنعمته تهنأت بنعمته، وبقدرته اطلعت على قدرته، وبحكمته وصلت إلى حكمته. وهناك تعلم أنك كنت منصوحاً بداعيك إلى بابه، ومكنوفاً^(١) بأياديهِ عند استجابتك لأمره، ومشهوداً بما شهدت في الثاني بإشهادهِ، ومرفوداً^(٢) بما انتهيت إليه من إرفاده.

أفما تحب بعد هذا البشير والنذير، أن يكون لك من نفسك ناصح وعذير؟ أفما ينبغي بعد هذه العثرة بعد العثرة أن يكون لك انتعاش واستقلال؟ أفما تحن بعد هذا التلطف والترفق إلى قرارك الذي لا قرار لك دونه؟ بلى! واللّه، قد آن وقته، وانكشف غطاؤه، واتضح سبيله، وأبلغ داعيه، ومدّ الصوت مناديه، ولم يبق إلا: كَيْتُكَ وسَعْدَيْكَ، فإن الخير كله بيدك ولدَيْكَ.

يا هذا! إن كنت غريباً في هذه اللغة فاصحّب أهلها، واستدِم سَماعها، واشغَل زمانك باستقرائها واسترائها^(٣). فإنك بذلك تقف على هذه الأغراض البعيدة المرامي، السحيقة المعامي^(٤)، لأنها إشارات إلهية وعبارات إنسية، إلا أن العبارات الإنسية ليست مألوفة بالاستعمال الجاري، وأنت محتاج إلى أن تألف في الأول بطول السماع، ثم تتصعد من ذلك إلى الإشارات الإلهية ببسط الذراع ورَحْبِ الباع ولُطْفِ الطباع. وما أحرأك بنيل هذا كله إن خَلَصْتَ نيتك من شوائبها، ونقيت طويّتك من روائبها^(٥)! فأما شوائبها التي وقعت الصّريحة^(٦) بها، فهي ترَجُّجها وتمجمجها بخطرّات الدنيا وبلايا هذه الحساسات التي تُرى تارة بالعين، وتُذاق تارة بالفم، وتُلَمَس تارة باليد، وتُتمَنَّى تارة بالقلب، ويُهجر من أجلها القريب، ويُقطع الرّحِم، ويجاب البلد النازح، ويُتَوَخَّى بالسانح والبارح؛ وهذه كلها متعرّفات النّيّات. - وأما روائبها التي سلفت الكناية عنها فهي نظائر الشوائب، إلا أن

(١) مكنوفاً: مصوناً ومحفوظاً. وفي (ع): مكنوفاً.

(٢) مرفوداً: موصولاً بالعتاء.

(٣) الاسترءاء: الاختيار.

(٤) المعامي: جمع معمية، وهي المجاهل وأغفال الأرض التي لا أثر للعمارة فيها.

(٥) أي: مما يريبها ويجعلها متهمّة.

(٦) يعني الكلمة الصريحة، مقابل الكناية في ما يلي.

مداخلها ربما اختلفت، ومآتيها ربما تشابهت. فالحازم مَنْ أخذ بزمام فكره فكبحه عن سبيل غيّه، وجذبه إلى طريق رُشدِه. [٩٣أ] فإن الخطر عظيمٌ شديد، مُتضاعفٌ صعب. وإنما هان النظر في هذه العقبي لسواتر الغفلة التي هي من سُوس^(١) الفطرة ومن تُوس^(٢) البنية، ومن كَدَر الطينة، ومن تشاكس الخِلقة^(٣). وكيف لا يكون الخطر على ما وصفت، والمنالُ منه فوزُ الأبد ونعيم الدهر ورضا الرب واتصال البقاء وطيب العيش وروح الحياة، والفائت منه خُسْرُ الأبد وشقاء الدهر وسخط الرب واتصال الشَّقوة وخُبْثُ العيش وكَرْبُ الحياة؟ ثم لا واسطة بين هذين بوجه، [و] كما لا واسطة كذلك أيضًا لا طَرْف، لا من هذا الوجه ولا من ذاك الوجه. فما أولى اللبيب المتبصّر في أمره، المعنّي بشأنه، المفكّر في مآله ومَرَدّه وعاقبته، أن ينقي عينه من قذاها، ويتحمّل في هذه القصة بعضَ بلواها، فإنه إذا فعل ذلك فقد أخذ بالحزم: حَزَمَ أهل العقل، وفاز بالعزم: عزم أولي الفضل.

ما أشوقني والله إلى أن أرى مُريدًا له من القراءة وَرَدٌ، ومن الركوع والسجود وظيفَةً، ومن الصمت والفكر قِسْطٌ، ومن التسييح والتهليل ساعة، ومن التفكير في الملكوت سَهْمٌ، ومن الرغبة في الموعود حِرْصٌ، ومن الإشفاق من الوعيد فَرَقٌ! هذا، والله، أضعف شوق وأقله، وأنزر حنين وأقله^(٤). فأما الشوق الأعظم، والحنين الأعمّ فإنما هما إلى عارف قد ترعّج إلى سرير الرضا، واطمأن إلى ركن الثقة بالمولى، وشهد الغيب من وراء سِتْرِ الضنا. فإن قال فعنه، وإن سَكَتَ ففيه، وإن تحرك فله، وإن سكن فبه، وإن اشتاق فإليه، وإن تهالك فعليه. له مع نفسه شأن، ومع الحق شأن، ومع الناس شأن: فأما شأنه مع نفسه ففي تصنيفيتها مِنْ كَدَرٍ حَجَبَ عن الله؛ وأما شأنه مع الحق فاستملاؤه منه كلّ ما سهّل الطريق إلى الله عز وجل؛ وأما شأنه مع الناس فكلُّ ما عاد بالجدوى عليهم من الرقة والرحمة والرافة واللطافة عند الدعاء إذا تكرر منه، وعند الإباء إذا تردد منهم فهذا أيضًا هذا.

(١) السوس: الطبيعة والأصل.

(٢) التوس (بالضم) الطبيعة والخلق، ويقال: الكرم من توسه وسوسه.

(٣) في (ع، ر): الخليقة.

(٤) مكررة بنفس الرسم.

يا هذا! ما قَيَّضَنِي الله بنطقي [٩٣ب] لك على هذا التهذيب والتقريب، وعلى التصعيد والتصويب، إلا لتكون حجة عليك إن لم تقبل، ومحجة لك إن قبلت. فإن قلت لي أيضًا على وجه العذر فهو أيضًا حجة عليك ومحجة لك، فقد صدقت وما أَحَلَّت^(١). ولكن أين أنت مني، ومن أين تقف على خبرك عني؟ أنا نطقت بهذه الألفاظ بعد سبعين سنة وقد تحطمت قناتي^(٢) وتكشمت شواتي^(٣)، وتفللت صفاتي^(٤)، واضمحلت صفاتي، وبليت لُحمتي وسداتي، وفقدت شهواتي ولذاتي، ومُنيت بموت أحبتي ولذاتي؛ فنطقتُ وغالبُ الهوى مغلوب، وشارِدُ الحزم مألوف، وغُرَابُ العزة واقع، وجناح الكبر مكسور، ورَبْعُ اللهو طامس، وماء الشبيبة ناضب، وهدير العذل ساكن، وعُود الهوى عاس^(٥)، ورَوْضُ المنى خاو، وبَصَرُ الغيِّ مكفوف، وریش العرامة^(٦) منتوف، وعازب العقل رائح، ورائح الجهل سارح. وأين أنا منك، وأين أنت مني! فهذا جوابك الذي أجاتني^(٧) إليه بعثك.

فأما ما وراء هذه مما هو عند الله، من القبول والرد، والذم والحمد، فذاك سرٌّ لا تمرُّ بجَنَبَاتِهِ، ولا تتعرض لهَبَّاتِهِ، لأنه من الأمور التي له فيها إمضاءٌ وتوقيف، وإنهاء وتعريف، وإرعاء وتصريف. وإنما الذي هو علينا بحكم العبودية، وبعجز البشرية أن نقف عند الأمر إذا صدر، وعند النَّهْي إذا وَرَدَ، فنجري فيهما بالامتثال والانتها، لنكون بهما طائعين، وإلى غاية طلبه منا جارين، وفيما يعرض لنا من التقصير مستغفرين، وفيما يصفو من الشاكرين، وفيما يكدر من الخائفين.

يا هذا! قد سمعت فنوناً من القول في المعرفة والتوحيد، والتوكل والزهد، والعبادة والوجد، والشكر والصبر، والوسوسة والخطرة، والدعاء والمناجاة، والتفويض والتقييض^(٨)، والرضا والسخط، والورع والتقوى، والحجا والنهي، والرقدة والهبة، والمراد

(١) لم تقل مُحالاً. (٢) القناة: القامة. (٣) الشواة: جلدة الرأس.

(٤) تفللت: تشققت. الصفاة: الصخرة الملساء، والمقصود هنا: تشقق وانحل كياني وضعف الشباب.

(٥) عاس: من عسا النبات يعسو، غلظ ويس.

(٦) عرامة: عرامة العواطف: اشتدادها وخرجها عن الحد.

(٧) أجاتني: ألجأتني، وفي (ر، ع): أجاتني إليه بغيتك.

(٨) قَيَّضَ الله له كذا: قَدَّرَ له وهياً.

والمريد، والصلاح والفساد، [٩٤أ] والسر والجهر، والقرب والبعد، والانسباط والانتقاض، والإقدام والإحجام، والبلاغة والعِي، والرياء والإخلاص، والتحقيق والتلبس، والتخنيق والتنفيس، والتكدير والتخليص، وما هو فوق هذا بدرجات، وما هو دون هذا بمسافات^(١) فهل وجدت نفسك في شيء منها تآمًا أو ناقصًا، زائدًا أو قاصًا^(٢)؟ وهل مرت بك في عُرْضها صفنك فهششت لها، أو كَلَحْتَ^(٣) بها؟ فإن كنت قد وجدت ذلك وحمدته، وكان كما أَمَلْتَهُ وتمنيتَه، فهَنَّاكَ الله ذلك، وبارَكَ لك فيه، وصانَكَ من عوارض الفساد، وأكرمَكَ بأسباب الرشاد. وإن كنت وجدته، ولكن لا على ما حمدته بل على ما ذمته، فبادر بالإقلاع، فإن الزمان شديد الفوت بالفرص، كثير الغشي بالغُصص.

يا هذا! توقف قليلًا، وتفكر طويلًا، فإن توقفتك يُحْضِرُكَ بالك، ويَصْغِلُ فهمك، وَيَشْحَذُ بصيرتك، وَيَحْدُ^(٤) ما كَلَّ منك. وفِكْرُكَ يَبْحَثُ عنك وَيَعْرِضُكَ عليك، ويريك من أنت، وما أنت، وكيف أنت، ومن أين أنت، وعمَّاذا أنت، وعلى ماذا أنت، فإن فِكْرًا نتائجه هذه الأمور الشريفة، وهذه الأحاديث الطريفة، وهذه الإشارات اللطيفة، لَفِكْرُكَ قد صافحه الله بيد التوفيق، ونظر إليه بعين التأييد، وليس أَحَدٌ بهذا^(٥) الفكر إلا فاز قَدْحُهُ، ووجب مَدْحُهُ. فإن هذا عنوان نجاته، ومن دلائل نيَّله لِمَرْضَاتِهِ.

اللهم ارحم رَوَعَاتِنَا في أطراف هذه الإشارات، من اختلاف هذه العبارات. فوحَقُّكَ ما ندري كيف ندعوك، وبأي شيء نتقرب إليك، وعلى أي وجه نطلب رضاك، وأَيَّ باب نَقْرَعُ حتى يُؤْذَنَ لنا بالوصول إلى حضرتك. فارفع عنا هذا الرَوَّغان^(٦) وتَعَبَ هذا الطوفان، واهدنا إلى سواء السبيل، إنك على ذلك قادر وجوادٌ به. قد طال بنا النَّصَب، واشتمل علينا الوَصَب، وأنت المرجوُّ لِفك هذا القيد، والمأمول لتعديل هذا الميْد^(٧).

(١) ص: بسافات.

(٢) قالصًا: منكشًا، منقبضًا.

(٣) كلحت: عبست وأفرطت في العبوس.

(٤) يحد: يجعله حادًا.

(٥) في (ر): هذه، وفي (د): هداه.

(٦) الروغان: الذهاب ها هنا وها هنا.

(٧) الميْد: الميل.

يا هذا! أما يعطفك عليّ من فضلك عاطف؟ أما يبعثك على الرحمة لي من فنونك باعث؟ [٩٤ب] فتقول: والله لأسمعَنَّ قول القائل، ولأُسْبِرَنَّ^(١) عَقْلَ هذا العاقل، حظيت بقبوله وسَبَقْتُ إلى الزُّلْفَةِ عند الله به: فإن كان رُشْدًا، يَخْرُج من أذن^(٢)؛ وإن كان غيًّا، فما ضاق مخرج كلام دخل من أُذُن. ولو فعلتَ - عافاك الله - هذا به، وقلته لنفسك في خلوتك، أرحتني من تعب كثير، ورَقِيتَ معي إلى محل كبير، لأنَّا كنا نتعاون على رفض هذه الخسيسة التي قد جَعَلْتُ على أبصارنا غشاوة، وضربت على أرواحنا إتاوة، فنحن هالكون بها لأننا متهاالكون فيها. وليتها مع هذه المخازي والعيوب، وهذه المعايير والذنوب، دامت إن لم تخلص، أو خلصت إن لم تدم. وأين ذلك وهي بحيلولتها دالّة على زوالها، ولزوالها جارية على حيلولتها؟ فما أعمى بَصَرَ مَنْ يرى هذه العيوب عيانًا، ثم يعطيها بيده عِنَانًا وزمامًا وخطامًا، ثم ينقاد إلى محل العَطَب وشقاء الأبد غير عائج على فكر، ولا ناظر إلى خَلْف، كأنه بهيمة أو كالبهيمة. وإن إنسانًا يرضى أن يكون بهيمة أو كالبهيمة لقد رضي بسخط الله عليه ومَقْتَه، لأنه قد كفر النعمة وجحد المِنَّة. والسلام!

رسالة (٣٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ^(٣)

اللهم^(٤) كن عند ظننا بك، وامْحُ عَنَّا فُرْطَاتنا معك؛ وإذا أنطقنا فآلهمنا النجوى، وإذا أسكّتنا فاملأنا بالتقوى. وإذا استعملتنا فارزُقنا البُقْيا والرعى^(٥)، يا ذا الجلال والجمال [والإكرام]، ويا ذا النوال والإفضال!

ناجِ أَسْرَارنا بجبروتك، وأَسْرِحِ قلوبنا في مَلَكُوتك. أهْلنا لمؤانستك. اخْصُصْنا بمخالصتك. اجعل علمنا كُلّه بك، وتَقَدُّسنا كله لك، وثناءنا كله عليك، وإشارتنا كلها

(١) السبر: الاختبار والتجريب. (٢) هذه العبارة مضطربة. وأعتقد أن بها سقطًا. (٣) زيادة من ل.

(٤) ورد بعض هذه الرسالة في ل (٥٠ ب - ٥١ أ) بعنوان: «حظيرة الرضوان وسجف الغفران من الإشارات الإلهية».

(٥) الرعى: الكَفُّ والامتناع.

إليك، وصبرنا كله معك، وقرارنا كله عندك. لا تفرق شملنا من حَضْرَتِكَ، بعدما جَمَعْتَ شملنا على معرفتك. لا تَبْلُنَا بِجَفْوَتِكَ بعد ما [٩٥أ] أذقتنا من حلاوة بَرِّكَ وكرامتك. لا تَرْمِنَا بهجرِكَ؛ بعدما عَرَضْتَنَا لوصلِكَ. لا تهتك سِرَّنَا بغضبِكَ، بعدما أَنْطَقْتَنَا بتوحيديكَ، وأشربت قلوبنا من محبتِكَ، وملكت آمالنا بقدرتِكَ، وأطمعتنا في نعمتِكَ. يا وَلِيَّ الخير ومُتِيحِهِ، وواهب المأمول ومبيحِهِ! صلِّ على صَفِيِّكَ المخصوص بفضلِكَ، المبعوث إلى خَلْقِكَ، المنعوت بعلامتِكَ، الْمُقَلَّبُ في كرامتِكَ [محمد وعلى آله] ^(١) صلاةً تزيده بها رَوْحًا ورِيحَانًا، وتعرِّفنا بركة ذلك سرًّا وإعلانًا، إيمانًا وإيقانًا، بمتَّكَ وفضلِكَ.

أيها السامع بالأذن، هل لك شَرِبٌ من هذا المسموع بالقلب؟ أيها الحاضر بالشخص، هل لك حاصل من الأنس؟ أيها الواجد بالشوق، هل لك حِسٌّ بالذوق؟ أيها المعجب باللفظ، هل لك نصيب من المعنى؟ أيها المُدِلُّ بالعبرة، هل لك حقيقة في الإشارة؟ أيها المسحور بالبلاغة، هل لك بلاغ إلى الغاية؟ أيها المفتنُّ في العلم، هل لك علامة من المعلوم؟ أيها المولع بالبحث عن العجائب، هل وقفت على عجيبة العجائب؟ أيها العاشق للغرائب، هل وصلت إلى غريبة الغرائب؟ ما أخوفني أنك منافق عليم اللسان على ما نطق به ديوان النبوة في وصف إنسان بعد إنسان؛ فإن لم تكن ذاك في الماضي فلا تَكُنْهُ أيضًا في الآتي، والزَمْ حَدَّكَ في أمر رُشْدِكَ، وانتهِ عن كل صاحب يُغويك واستوصِ بنفسك خيرًا، فالإيك انتهى الخبر، وعليك وقف الأثر. فكن وَلِيَّ نفسك في حياتك، ووصيَّها بعد وفاتك. ولا تَكِلْ مصلحتك إلى غيرك، فإن عنايته تُقَصِّرُ عنك، ورعايته تعجز دونك. فحينئذ تندم فلا تنتفع، وتأسى فلا ترتجع. هذا لسانُ الناصح لك، إن أَمَرَ مسموعُهُ اليوم، حلًّا مقبولُهُ غدًا. وإن ثَقُلَ مقوله الساعة، خَفَّ معموله بعد قيام الساعة.

يا هذا! إن شكوتُ إليك خاصة أمري، ونشرت [٩٥ب] عليك حقيقة سِرِّي، ورحمتني أو مَقَتَّنِي. ما تقول فيمن نَشَرَهُ طِيٌّ، وبلاغته عِيٌّ، ورشده عِيٌّ، وكله في كله لِيَّ وَزِيَّ ^(٢). إن وَرَدَ وَرَدَ لاهفًا، وإن صَدَرَ صَدَرَ لاهثًا. إن عَهْدَ عَهْدَ ناكثًا، وإن حَلَفَ حَلَفَ حاثًا. إن

(١) زيادة من (ل).

(٢) الرِّي: زواه يزويه بمعنى: حجب وطوى.

انتبه انتبه عائثاً، وإن هجع هجع عابثاً. إن قرع الباب حُجِبَ ورُدَّ، وإن تعرَّض (تعرَّض) (١) للوصل جُذِبَ وُصِدَّ. فحدَّثني ما حيلتك منه وما حيلته فيك؟ أخذ الله بأيدينا إلى حظيرة رِضْوَانِهِ، وأسبَل علينا سِجْفَ (٢) غُفْرَانِهِ، في جوار أوليائه وأصفيائه، حيث نسمع مناغاة الملائ الأعلَى في الجنة التي هي المأوى، عند سِدْرَةِ المنتهى، حيث لا أذى ولا قَذَى ولا شذَى (٣).

يا هذا! عجبني من سرِّ محفوف بكل فن، ومن عيب مرجوم بكل ظن، ومن ظاهر مجلي بكل طُنٍّ (٤)، ومن باطن معجوف في كل كن. بل عجبني من مشاهد (٥): الفرج بها مع رؤيتها مضمحل، ومراتب: الأنس بصحبته مشمعل (٦)، ومعنى الحق في أقطارها مستقل، ودليل الخلق على إدبارها مستدل. بل عجبني من راض قد باء بأحكام السَّخَط، وعادل قد ناء بأسباب الشَّطَط، وقائل قد ملكه سلطان الغَلَط، وساکت قد أفضى به الاعتبار إلى الفِرْط. بل عجبني من حركة جانب السكون، ومن سكون صَحْب كَوْن كل ما يكون، ومن فن استدراج سائر الفنون، ومن عين استوعبت أعيان العيون. بل عجبني من اختلاف نُظَم به كلُّ مؤتلف، ومن ائتلاف شتت كلَّ مختلف، ومن منكر عيَّره كلُّ معترف، ومن معتصم نازعه كلُّ مقترف. بل عجبني من لسان مفتون بالعبرة، وطمع (٧) محجوب بالعيارة، وقلب تاه في أوائل الإشارة، وحال استحالت بين الإمارة والأمارة. بل عجبني من شيخ اخترع موجوداً، واصطنع كرمًا وجوداً، وزين بالتكليف ركوعاً وسجوداً، [١٩٦] وطرح في بحر البلوى فناء وبُيوداً. بل عجبني من لفظ محلَّى بالزین، ومعنى جَلَّ عن كَيْفَ وأين، وعين أشكلت على كل عين، وزُخْرِفَ عنها الخبرُ بكل كَذِب ومين.

يا هذا! التَّرجُمان حاذق، والرائد صادق، وكُلُّ الكلِّ عن الكلِّ ناطق، وجميع الجميع بالجميع فائق ورائق. ولكن شاهد السمع غائب، وحاضر القلب هائب، وآمل المنى خائب، والوقت بضروب أحداثه ثايب آتب.

(١) مكررة في الأصل. (٢) السَّجْف: الستر. وأسبل: أرحى. (٣) الشذى: الشر، الأذى.

(٤) طُن: الإنسان: بدنه أو قامته. وفي ر: محلى.

(٥) (ر): شاهد.

(٦) اشمعل: خف وطرب.

(٧) لعل الصواب: «وطبع».

يا هذا! أندري من الذي غاب^(١) عن الكون، وجل عن الصَّوْن، وأتى من وراء كل بحث دقيق، واستجفى إشارات الألسنة بأنواع التكذيب والتصديق؟ هو الذي علَّلَ الفاني بالفاني، وأزعج هذه المعاني؛ هو الذي إن ريم بالإثبات انتفى، وإن حوّل بالبقاء صفاً؛ وإن لوطف بالطاعة شرف، وإن كوشف بالسر أتلّف، وإن وقف مع باديهِ جرّ وعرّ، وإن تُعرض لخافيه ضرّ ومرّ؛ هو الذي يريك حقائق الأشياء دون الحق تخيلاً، ويمزجك بحقائق الأشياء فيما فوق العقل تخويلاً.

يا هذا! إن لحظت أمره أتعبك؛ وإن شهدت إرادته عذّبك؛ وإن هتكت حجابَ حكمته حيّرك، وإن كايدت رقيب قدرته طيّرك، وإن شهدت معانيه فيك أغرقك، وإن أعرت نفسك من نفسك نفساً أحرّكك، وإن أنكرته أبادك، وإن أقررت به أعادك، وإن توكلت عليه أرادك، وإن اقتبست منه أفادك.

يا هذا! انظر إلى سحائب الحق كيف سكّبت عجائب الودّ! وكيف استوفى بصّوادق الجبروت صفات الخلق، حتى لم يبق في مذموم الكذب ما ينأى تنزّهاً عنه، ولا في محمود الصدق ما يصفى تشبّهاً به. بلى! بقيت عين مغرورة بمساكب الدموع، مع نفس قد احترقت بملاهب الضلوع، بين خيال إن لاح أضنى! وإن ثبت أفنى، وإن خاب أغنى وأقنى.

يا هذا! ارجع إلى لغات المطالبة بالشكر على إبراز جملة محشوة بالحياة، ثم انظر إلى حيرة العقل في سرّ هذه الحياة. [٩٦ ب] ثم اعجب مما صحب الكون من مادة الحياة، فإنها لغات مختلفة مؤتلفة على لسان قد قام خطيباً بنشر [شؤون]^(٢) أصحاب النعيم، وذكر فنون أصحاب التسنيم^(٣). فإذا فرغت من ذلك - وأتّى لك بالفراغ! -، وبلغت هنالك - ومنّ لك بالبلاغ! -، فالتفت إلى هاتف الحقائق بالعجز عن مقدار الواجب في تصاريّف ما بدأ به من عجائب الإلهية، فبهذا ونظائره تشرف على عيوب العبودية. نعم -؛ ومما يسرق

(١) في (ر، ع) عاف. (٢) زيادة ضرورية.

(٣) التسنيم: ماء في الجنة. وفي (ع): التسنيم.

عينك، ويملك عليك أينك. فأما ما صرفه بالاختيار مقصوراً على الأخطار والأقذار، مردداً بين الجَزَع والاصطبار، فذاك ما ليس للخلق فيه نظام ولا نثار^(١). نعم وأما ما سطا بحقائقه مبايناً للعقول، وملك بآلائه مطابقاً للعقول، فكنهه يعزّ عن مسارب وهم الواهمين، وإن كان لائح ما وقع الخبر عنه موجوداً في مشارب إلهام الملهمين.

يا هذا! لقد قصصْتُ أثري مني، فضلت خبري عني، وصُلْتُ بما صحبني عليّ، فما ازددت إلا نفوراً إليّ. طلبته فوجدتني، فلما وجدتني وجدته لي، فلما وجدته عِدْمْتِي. وسكْتُ عنه فخرّني عنه، وخبرت عنه فسكّنتي، وأعزّته فأذلّني، فلما أذلّني أعزّني. فلما شهدت العزّ بَزْني، وعشقتة فهميني، فلما شكوت حُبّه^(٢) تيمّني. طواني فنشّرتني، وظهر لي فبهّرتني. وكوّنتني فمحقّنتي، ثم كانني فحقّقني، فلما حقّقني، حقق لي. فلما حق لي، حقّ حقّه بعدم حقي.

أيها القائل البائح، والسامع^(٣) النائح! كيف أنفك من وجدي بمن أوجدني وجدي بوجدني؟ أم كيف أعرب عن قصدي، وقد وشّحتني بقصدي في قصدي؟ أم كيف أذلّ بجهدي، وقد أمدني في جهدي؟ أم كيف أتنجز وعدي في وعدي، وقد وعدني بخلف وعدي؟ أم كيف أهدأ في صدري وقد أفناني لمّا أفنى وردي؟ أم كيف أتهنأ [١٩٧] بوردي وقد شغلني وفدي عما كان به رفدي؟ أم كيف أروي عمّن فات روايتي؟ أم كيف أترأى لمن قد طاحت معه رؤيتي؟ أم كيف أروي فيه، وقد جذّ رويتي؟ أم كيف أروي به، وهو سبب ظمأي بفقد ربي؟ أم كيف أركن إلى قولي، وقد استهلك فيه معنأي؟ أم كيف أقرّ معه، وقد أبلاني بمن هو سواي؟ بل كيف أصحب الذات، وقد جهلت الصفات؟ أم كيف أدعي بمن هو سواي؟ بل كيف أصحب الذات، وقد جهلت الصفات؟ أم كيف أدعي جهل الصفات وقد ناولني السمات؟ أم كيف أقف على السمات، وقد اشتبهت

(١) نثار: ما يتناثر من الشيء.

(٢) في (ر، ع): عنه.

(٣) السامع: مكررة في الأصل.

عَلَيَّ السَّمَاتِ، وَصُرِّفْتُ فِي تَخْلِيصِهَا وَتَلْخِيصِهَا بِأَحْكَامِ الشَّتَاتِ، وَحَسَرَاتِ الْبَتَاتِ^(١)؟
هِيَهَاتِ! هِيَهَاتِ! التَّبَسُّتَ الْهَنَاتِ بِالْهَنَاتِ، وَأَمْرَجْتَ اللُّغَاتِ بِاللُّغَاتِ، وَحَصَلَ الْخَلْقُ فِي
الْخَلْقِ مِنَ الْحَقِّ عَلَى الْفَوَاتِ.

نعم يا سيدي! حدثني إن الحديث من القرى^(٢). كان من ذلك أني تعرّضت لأسرار
الملوك، وأمعنت في إدمان السلوك، فأشرفت على أمواج بحار الشكوك. فإن قلت لي:
ما الذي انتسب إليك من هذه الأحوال، ولصق بك من تلك الأحوال؟- واجهتُك بوجه
صفيق، وناجيتك بلسان ذليق، وقلتُ: بدا حتى تجلّي للبصر، ثم غاب حتى [لا] عين ولا
أثر. فإن جحدت ما شهدت كابرُ العَقْل والعَقْلُ حُجّة، وإن حَقَّقْتُ ما حَكَيْتُ استحققت
القتل، والقتل مَحَنَة؛ وإن ملتُ إلى موقف ثالث طال بي المَطْلُ، والمَطْلُ كُرْبَة. أتدري
ما السر؟ السرُّ أن يحتاج كلُّك في كلِّك بتمزيق بعضك على بعضك، ليكون فَنَاؤُك في
فَنَائِكَ طريقًا إلى بقاءك في بقاءك. وهذه وَحَقُّ الْحَقِّ لُغَة مُشْكَلَة، وَحَالٌ مُعْضَلَة، والعقول
بينهما مهملة. متى كان البقاء ثمرة الفناء؟ متى كان البقاء سبيل الفناء؟ أين المشرق من
المغرب؟ أين المنعم من المعذب؟ أين الوجدان من العدم؟ أين الحَدَث من القَدَم؟ أين
الثريا من الثرى؟ أين اليقظة من الكرى؟ أين السماء من الأرض؟ أين الطول من العَرَض؟
أين العَوَض من القَرَض؟ أين ما ليس له أَيْن، من عين أشرقت به كل عين؟

يا هذا! مَنْ طَمَسَ أَعْلَامَ الْحَسِّ وَرَكَبَ رَوَاحِلَ الْأُنْسِ، لَحَقَ رَوَاقِصُ^(٣) [٩٧ب]
الْهُمُسِ، وَشَهِدَ وَلَائِمَ الْعَرَسِ. مِنْ اسْتَبَاحِ الْجَزَعِ حَمَى قَلْبِهِ، فَلَيْلَتْجَى إِلَى مَنْ هُوَ صَوْبُهُ
بَعِينُهُ فِي غَيْبِهِ^(٤). مِنْ انْسَلَخَتْ نَفْسُهُ مِنْ نَفْسِهِ، فَقَدْ ظَفَرَ بِغَايَةِ أَنْسِهِ. مِنْ انْتَفَى عَنْهُ عِلْمُ
الْغَيْبِ بِقَوَادِحِ الرَّيْبِ، فَلَيْسَتْ أَنْفَ أَوَائِلُ التَّوْحِيدِ؛ مِنْ شَهِدَ مُعَاجِزَهُ فِي مَطَالِبِهِ، فَلَيْلَزَمَ
حُدُودَ الْعَبِيدِ.

(١) البتات: الانقطاع.

(٢) القرى: الضيافة والكرم.

(٣) رواقص: الإبل التي تسير بسرعة. والهمس: الذين يقدرّون على سير الليل دون توقف.

(٤) أي من هو قُبَالَتُهُ هُوَ بَعِينُهُ، فِي غَيْبِهِ؛ أَيْ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ، وَ«هُوَ» تَعُودُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

يا هذا! ذهب اللفظ المنمَّق، فهات الآن المعنى المُحَقَّق. طال القولُ المُزَيَّن، فَحَصِّل المراد المُعَنَّ (١). كَثُرَت العبارة، فَحَقَّق الإشارة. تَرَدَّد الهذيانُ، فَقَرَّب أنت البيان.

يا هذا! اغترب عن وطنك المألوف بالعزم الصحيح إلى وطنك بالتحقيق، وإن كان قد اتصل به التلويح؛ وثِقْ بأنَّ مروِّي ذلك المكان أشرف من مرِّي هذا المكان. والسلام!

رسالة (٣٤)

أُتاح الله لك من غيبه ما لا يحلم به أملك، وصرف عنك كل ما يحول بينه وبينك. ولذلك بخطابه إذا ناجاك. ومَتَّعك بنعمته إذا خصك. وجعل ظاهرك ينطق عنه تحقيقًا، وباطنك يوقن به تصديقًا. ورقاك إلى ذروة عليا آيات الحق فيها تُصَفِّك، وأحكامه تتصرَّف فيك، وأنت في خافي ذلك وباده تشهد آلاءه شاكرًا، وتتقلب في أثنائها شاكرًا، مُسَلِّمًا وصابرًا.

كتبْتُ إليك في أواخر شهر رمضان ومُسْتَقْبَل العيد عن حال ذات ألوان، ما أرضاها مكتومةً عندي لما أعرف من غوائلها وبرحائها (٢)، فكيف أرضاها مكشوفةً عندك بغلوائها (٣) وعدوائها (٤)؟ وإذا لم يكن إلى كتمانها في خوالج الصدر سبيل، ولا على الإفصاح على علائها دليل، فلا أقل من ذكر بعض فنونها بالكناية التي، إن لم تَشْفِ غُلَّةً، ولم تُبَرِّد فؤادًا، ولم تَمُتَّع روحًا، فإنها تؤنس نفسًا قد أشفقت على العطب، وتُجَبِّر أركانًا قد تخلخلت (٥) بالتعب والنَّصَب. فمن أوائل تلك الكناية أني قد قابلت العيد بصبابة لا يُنادى وليدها، وترحة لا أطمع أن يبلى جديدها، وغرام كلما خمدت ناره، [١٩٨أ] وسكن أواره، رَدَفَه (٦).

(١) عَنَ الكتاب وعُتُونه: كتب عنوانه. وعَتَه: جعل له عنوانًا. أي المراد المحدود المقيد المعين، لا الممتد الواسع.

(٢) البُرْحاء: شدة ومشقة، أذى وشر. نقول: عانى بُرْحاء الحُمى.

(٣) غلواء: التشدد والإفراط. وغلواء الشباب: أوَّلُه وحدته ونشاطه.

(٤) عدواء: شغل يمنع الإنسان عن الأمر. والبعء، وعدواء الشغل: موانعه.

(٥) خلخله: قلقه وحركه من مكانه.

(٦) رَدَفَه: تبعه.

ما يُنسى الأول ويُذهل عن المستقبل. وما أحسن ما قال الأول:

كَمْ قد تَجَرَّعْتُ مِنْ غِيظٍ وَمِنْ أَسَفٍ إِذَا تَجَدَّدَ حُزْنٌ هَوَّنَ الْمَاضِي^(١)
وَكَمْ غَضِبْتُ، فَمَا بِالْيُثْمِ غَضِبِي حَتَّى رَجَعْتُ بِقَلْبٍ سَاخِطٍ رَاضٍ
والعجب من رُوحٍ تصر على هذا العذاب الأليم بلا تنفيس يعتقب، ولا تأنيس يرتقب.
وكيف لا يكون حالي هكذا وحبيبي هاجري، وَمَنْ أَهِيَمُ بِهِوَاهِ سَالٍ عَنِي، وقد بقيت
مرجوماً من أعزّتي، كما صرت مرجوماً من أحبّتي! فهذا أنا أقول:

لِيَهْنَأَ الْعِيدُ: مَنْ لَهُ وَطَنٌ يَا وَي إِلِيهِ، وَمَنْ لَهُ سَكَنٌ
وَمَنْ لَهُ الْأَهْلُ وَالْبَنُونَ وَمَنْ بِلَادُهُ مِنْهُ مَنْزِلٌ قَمِيْنٌ^(٢)
لَا الْمُفْرَدِينَ الْمُطَرَّدِينَ وَمَنْ يَعْتَادُهُ الْهَمُّ فِيهِ وَالْحَزَنُ
وقد قطعْتُ حداداً لألبسه^(٣) في هذا العيد الذي أقبل عليّ بالحدّ^(٤) والحديد،
وبالعذاب الأليم الشديد. فلو رأيْتني وأنا أمشي إلى المُصَلَّى شاحِبَ الْوَجْهِ، غُرَابِي
الشُّعَارِ، رَاغِمِ الْأَنْفِ، نَاكِسِ الرَّأْسِ، كَلِيلِ اللِّسَانِ، خَافِضِ الصَّوْتِ، ظَاهِرِ الْاسْتِكَانَةِ، -
لرأيت منظرًا يُبْكِي الْعَيْنَ الْجَامِدَةَ، وَيُحَرِّكُ الطَّبَاعَ الْقَاسِيَةَ، وَيُبْعَثُ الرَّحْمَةَ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ:
أَمَّا مِنَ الصَّدِيقِ فَبِحَقِّ الصَّدَاقَةِ وَالْمِلْحِ، وَأَمَّا مِنَ الْعَدُوِّ فَبِفِرْطِ أَلَمِ السَّقَامِ وَالْقَرْحِ. وَلَوْ
سمعتني وأنا أنشد قول الأول:

قَالُوا: سُرِرْتَ بِيَوْمِ الْعِيدِ؟ قُلْتُ لَهُمْ وَلَا عَلِمْتُ بِهِ، وَالْوَاحِدِ الصَّمَدِ!
لَمَا تَيَقَّنْتُ أَنِّي لَا أَعَايْنُكُمْ غَضَضْتُ طَرْفِي فَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى أَحَدٍ
لعجبت. فكيف يكون حال من هو في عيده محزون، ومما تقدم من جرائره^(٥) حامل
مدفون، وفي جميع حالاته مفتون مغبون؟ قد تضاعف في عيده بلاؤه، وزاد عناؤه

(١) البيتان لإبراهيم الصولي (ديوانه: ١٤٦) في الطرائق الأدبية - تحقيق عبد العزيز الميمني.

(٢) قمن: الخلق والجدير. أي أنه منزل جدير أن يحل به. (٣) في (ر، ع): لا ألبسه. وما أثبتناه هو الصواب.

(٤) الحدّ: ما يعترى الإنسان من الغضب والنزق. الحديد: بمعنى الشدة.

(٥) جرائره: ذنوبه. المفرد جريرة.

وشقاؤه، وأدهى مما به وأمر أنه لا سامع لشكواه، ولا ناصر لبلواه، ولا مقبل عليه في نجواه. قد خذله [٩٨ب] أنصاره، وأسلمه أحبابه، قد ترك غريباً، فريداً وحيداً حزيناً مبهوتاً سليباً^(١). فهو بين هذا الجمع الكثير مُنكر^(٢) على عرفانه، وساکت على بيانه. **إِنْ نَظَرَ نَظَرَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ، وَإِنْ نَطَقَ نَطَقَ بِلِسَانٍ عَبِيٍّ^(٣)؛ وَإِنْ هَمَّ هَمَّ بِقَلْبٍ مَسِيٍّ، وَإِنْ نَهَضَ نَهَضَ بِكَاهِلٍ مَلُوءٍ، وَإِنْ جَسَرَ جَسَرَ بِطَبَاعٍ غَوِيٍّ، وَإِنْ أَوَى أَوَى إِلَى رُكْنٍ وَهِيٍّ^(٤).** فهذا حديثي ومقالي، في عيدي وجمالي، لا جرم قد جعلت الشجو سربالي، والكآبة عصابتي، واللوم - لوم النفس - درسي، والاستعانة بالتضرع حالي:

ليس عيدُ المحب طَوْفَ الْمُصَلَّى ووقوفاً بالجمع والوجدان
بل عيده أن يتوارى بحاله، وَيَسْخَرُ بما دُفِعَ إليه من زياه^(٥)، ويعثر إذا خطا بأذياله، ويمسح عينه بطرف كُمِّه، ويتخلى بهمه وسمه^(٦)، ويرفع إلى حبيبهِ كَبَدَه المحترقة بحبه، ويعرض عليه ما أثار فيه من عتبه، ويسأله الإقالة بما استمر به من خطبه. فلعله إن رُحِمَ في أمره انكف الغطاء عن قلبه، وانحلت عنه عُقْدَةُ كَرْبِهِ. ثم ينشد:

للناس عيدٌ، ولي عيدان قد جُمعا وجهُ الحبيب ويومُ الفطر إذ حضرا
فالحمد لله - شكراً - لا شريك له إن المزيْد لَمَرْجُو لَمَنْ شَكَرَا
فطوبى لهذا البائس المسكين، ولهذا الغريب المستبين، إن فاز بمنية نفسه، ووجد ضالته في أنسه، وذهل عما مرَّ على رأسه في أمسه! ولله في غيب سره وسر غيبه فنونُ الخلق فيها يضلون، وعن لحاق حَرْفٍ منها يعجزون، ويُسلمون ذلك كله ويستسلمون.
وإني مع ما وصفتُ به شأني بأول قلبي لقويُّ الرجاء، سمينُ الأمل، بعيدُ الهمة. وما ذاك بي إلا من قبل مَنْ أنا إليه مُشَوِّقٌ، وعنه مُعَوِّقٌ، وبحبه مُطَوِّقٌ. فإذا حرَّك رجائي،

(١) السليب: سليب العقل: مُسْتَلَب، معتوه - مجنون. (٢) منكر: غير معترف به. وفي (ع): مُسَكَّر.

(٣) في (ر) عربي وفي (ع) كذلك. (٤) وَهِيٍّ: واه، ضعيف.

(٥) زياه: اسم بلد.

(٦) أي: يخلو إليهما، والهم: الحزن. «السم» كناية عن المصيبة وما في معناها.

فقد أراد خلاصي من بلائي؛ وإذا بعث أُملي، فقد عرضني لزكاء عملي. وقد أَلقيت إليك خَفِيَّتِي، ونشرت عليك طَوِيَّتِي، ففَقَ عليهما [١٩٩] برقة الصديق للتصديق، وأجبنني عنهما بما يدل على الخاصة والتحقيق، وتجنب معي استطالة الأغنياء واستقالة الفقراء^(١)، واسلكني طريق الأَخلاء الأوداء، وخاطبني بلسان البُلغاء والحكماء حتى أفهم عنك إرادتك، وآخذ منك بالشكر زيادتك، وأهب نفسي غاية العمر لك، وأريك من حاضري وغايتي مساعدةً تنسى معها ذوي الأرحام المتأصرة، وتعجب منها مع هذه الأحوال القاصرة عن الغايات التي إليها بَكَرَ المُبَكِّرون، وبسببها هَجَرَ المُهَجَّرُون^(٢)، وعنهما أخبر المخبرون، وعليها لَطُمَت الخدود ونُزِفَت العيون.

وامزج عتابك بالرضا لأسلم على جمر الغضا. وإذا أُمَرْتني بأمر، فاستعمل الرفق حتى يخفَّ عليَّ أمثالُه؛ وإذا نهيتني عن شيء فلاطفني حتى أُسارع استعماله. وصِفْ لي أيضًا مِنْ حالك ما أكون بمعرفته شريكك، وأحمد الله على ما وهب لي من شفقتك، واذكر لي كيف خرجت أنت إلى هذا العيد، وَمَنْ صَحَبَكَ من خِل ووديد، وهل خطر ببالك ما أنشأت هذه الرسائل له من بعيد، أم غير ذلك مما يجوز أن يقف عليه مثلي من العبيد؟ فبالله إلَّا صدقتني إذا خاطَبْتُ، وشفيتني إذا كاتبْت، وأبقيت عليَّ إذا عاتبْت، وقصدت نصحي إذا قاربْت، وأثرت نجاتي إذا باعدت، وطلبت في الجملة إنشالي^(٣)، فقد اكتفتني الوحشة، وبلَلْتُ كبدي بندى قولك، فقد ذبحتني العَطْشَة؛ ومهما أتيت في أمري شيئاً فلا تَدْعني من يدك، ولا تُخَلِّني من وعدك ورِفْدك، ولا تَقْصِم ظهري بإعراضك، ولا تُضَيِّق صدري بانقباضك. وثق بأني قد سرحت لحظاتي إلى ما يردُّ من جهتك، ولا قرار لي دون ذلك، ولا صبرَ عندي إلَّا بعد أن تعيد وتبدي عليَّ من فضلك وإنعامك، فقد علمتُ أنك كهفي إذا أَوَيْتُ، وشمسي إذا أصبحتُ، وقمري إذا أمسيتُ، ونجمي الذي أهتدي به إذا

(١) في (ع، ر): الفكراء. ولعلها سهو من الناسخ، بدليل قوله قبلها: أغنياء.

(٢) هجر: سار في الهاجرة، وهي شدة الحر ونصف النهار.

(٣) إنشالي: إنقاذي. وفي (د): أنسألي.

ضللت، ومسرّة نفسي إذا اغتممت، وقرة [٩٩ب] عيني إذا اهتممت، ونظامي إذا انتشرت، وناصري إذا انتصرت، وحاضري إذا غبت، وظاهري إذا بطنت. وما رزقك إلا بدعاء السّحر، وإلا بالحجّ والشّك، وإلا بالتضرع عند الحطيم^(١) وزمزم. أفاغفل عن نعمة الله عليّ بك، وأسهو عن شكر الله على ما منحني منك، وأذهل عن حظي الصائر إليّ بمعرفتك، وأكفر بسالف إحسانك وفضلك، وأحرم نفسي ما أنتظره في غد من تأييدك ونصرتك؟ هذا ما لا يكون، ولا تطيف به الظنون، ولا يجمله المعتوه المجنون. إني بك لغنيّ، وفيك هائم، وعليك مُتَوَلِّه، وإياك أطلب جدّي واجتهادي، وإليك أبادر مع كل هادٍ وحادٍ، وبفضلك أتحدّث في كل مقام وناد. وهذا قليل فيما تستحقه عليّ، وتستوجه لديّ، لأنك تخبرني عن البناء العظيم، وتدلّني على الصراط المستقيم، ثم لا ترضى لي حتى تداويني عند كل داء بما يحسّمه، وتقابلني عند كل أود^(٢) بما يُقَوِّمه.

إذا وجدنتي متهالكاً في الوعد عدلنتي بالوعيد، وإذا وجدنتني سادراً في العوائق جذبنتي إلى الدواعي^(٣). وإذا وجدنتني أغيب عن حظي بالعادة أشهدنتي فائتي بالحضور. وإذا وجدنتني أهدر في القول قرننتي بالعمل. وإذا وجدنتني أجهل قدرني في أمري، عرفنتني مجهولي في السر والجهر: في سرّ لا يُطوى عني فيه النصح، وجهر لا بأس لي فيه من النّجح. فمن لي بمثلك؟ ومن لي بمن يقاربك؟ أنا أحلك من يدي، وأسلو عنك وعقلي معي؟! هيهات! هذا ما لا يكون، ولو كان ما كان له كون به يدوم.

أنا - أكرمك الله - إلى نظائر هذه المشافهة [فهو]^(٤) مرتاح، ولكنني من التثقل عليك مرتاع؛ وبقدر ارتياحي وارتياحي أتقدم بين يديك في مخاطبتك محتاجاً، وتأخر عنها مهتاجاً. وإذا حدّدت لي في معروف ذلك ومُنكره حدّاً، استظهرت لنفسي فيه بما يدنيني منك،

(١) الحطيم: هو الحجر، ولهذا المكان عدة أسماء منها: حجر الكعبة والجدار، وحجر إسماعيل عليه السلام، والحطيم. وهو المكان المعروف المشهور بجانب الكعبة المشرفة، مما يلي الميزاب شمال الكعبة. وهو محوط مدور على شكل نصف دائرة وله فتحتان من طرفيه الشرقي والغربي.

(٢) أود: اعوجاج. (٣) في (ر، ع): الدواهي.

(٤) هكذا في الأصل بهذه الزيادة.

وَيُحَلِّينِي [١٠٠ أ] بعينك، ويجري لي بالخير لسانك، ويعرضني عليك، ويفيدني منك. وهذه حال اصطفاك الله بها، وأحوج غيرك إلى طاعتك في اقتباسها. ولله الشكر على ما أفردك به، واستفردك له، وعلى ما جعل لك وإليك من تقويم كل زائغ، وتعديل كل رائغ^(١)، وتهذيب كل قائل، وإغناء كل سائل. وهذه درجة الأنبياء الذين هم بين الله وبين الخلق، فهناك الله هذه النعمة بالتنعم فيها، وخفف عليك إمدادنا ومعونتنا بها. فإننا إلى ما نصل به من جهتك محتاجون، ولما يصل إلينا من برك وتفضلك شاكرون، ولله فيما حوّلنا من هذه المودة والمساهمة حامدون. فإن رأيت أن تتصدق علينا بزمانك الذي فيه يمكنك جوابنا متفضلاً بما يريك الله في أمرنا في التوجع لنا إذا أصبنا، وفي التنبه لنا إذا غفلنا، وفي شحذ بصائرنا إذا كَلَّتْ فينا، وفي الأخذ بأيدينا عند عثرائنا، وفي الاهتمام بنا إذا رفعنا ظلاماتنا - فعلت إن شاء الله.

أيها الطالع علينا من بلدك النازح، والمستحث على ضعفنا بالبارح والسانح! أما تعجب من رقة هذا اللسان المشكل الواضح؟ أما ترغب أن يكون لك منه نصيب رابح؟ فإن حركتك همّت إلى هذا [الذي]^(٢) حثثتك إليه، ونزعت بك النية إلى هذا الذي أقبلت بك عليه، فخذ أُهْبَةً ذلك.

أتدري ما الأُهْبَةُ؟ هي أن تُجَدِّد العزيمة في نفسك من قاذورات هذه الدنيا، ثم تصل العزيمة بالصريمة^(٣) في الصبر على واردات البلوى، ثم تظهر بباطنك نفسك، ثم تتسّر بباطنك لظاهرك، ثم تعتمد إلى الحق معتقداً، وتثابر على العمل معتمداً، وتظلف^(٤) نفسك عن شهوات المرأى والمسمّع مجتهداً، وتجعل الهمّ كله همّاً واحداً، فإن صاحب الهموم الكثيرة مُشَتَّت البال، ضعيف النحيضة^(٥)، مغلوب بأول يارق من الدنيا، مخدوع عند أول سانح من الهوى. وصاحب الهم الواحد، عاض على الناجذ صَبُورٌ عليه صبر الماجد، ومتلذذ به [١٠٠ ب] تلذذ الواحد. وهذا واضح عند من له خبرة يسيرة، وتجربة

(١) رائغ: راغ عن الطريق: زاغ عنها، حاد عنها.

(٢) الصريمة: العزم وإحكام الأمر.

(٣) زيادة ضرورية.

(٤) تظلف: تكسف.

(٥) النحيضة: الطبيعة.

قصيرة. أعني أن الإنسان يعلم بأدنى تماسك يرجع إليه، وأقل سبب من التمييز يتعلق به، أن الهم إذا كان واحداً تلاحقت به القوى، وساعد على رفده النُّهى، وقدر صاحبه أن ينجو من كُرب إذا كُرب، ومن واثب إذا وثب، لأن الشكيمة تشتد في الدفاع، والروية تحتد في الامتناع. فأما إذا تشتت السرُّ في أودية الأمانى، وضلَّ الرأي في أجناد الشهوات، وكل الحدّ عن مقاومة الخادعات، فإن الإنسان يُؤتى عند ذاك من مآمنه، ويوحش في مآنسه، ويُفقر أغنى ما يكون في حسابه.

اللهم إنا لا مَقْصَرَ لنا عنك، ولا مَطْلَبَ لنا دونك، ولا مَذْهَبَ لنا وراءك. فبحرمة ذُلِّنا في حاجتنا إليك إلّا أعزّزتنا بالوصول إلى حضرتك، وفككتنا من أيدي خلقك، وكنت لنا بفضلك، وعُدّت علينا برحمتك، يا ذا الجلال والإكرام!

رسالة (٣٥)

اللهم إني أشكو إليك شاهداً جَدْوَعاً، وغائباً مقطوعاً، وحالاً بين هذين لَسْنَا ننفكُ منها نُزُوَعاً، ولا نستسهل عنها رجوعاً، ولا نجد لأنفسنا فيها خشوعاً ولا خضوعاً.

اللهم فاجمع هذا الشَّمْلَ المُبَدَّد، واكفنا مؤونة هذا اللفظ المُرَدَّد، بالمعنى المقوّم المسدّد؛ وإنما نعيد السؤال ونكرره لعلنا بأنك القادر الممجّد.

اللهم إنا كما نعجز عن وصفك بما أنت أهله، نستحي أن نسألك ما نستحقه. ولولا أنّك تحرك منا الساكنات عند التوجه إليك، وتُسكِّن منا كل متحرك عند تعظيمك وإجلالك، لما كنا نتذبذب هذا التذبذب في هذه الأحوال المختلفة بالعيان، ولا كنا نتسبب^(١) هذا التسبب في هذه الأمور الملتبسة بالعي والبيان. ولكُنَّا بك، لأنّا لك، ومعك، لأنّا منك؛ وعلى كل وجه فإليك المفزع، وإلى بابك المرجع [١٠١ أ] فانفِ عن رجائنا حوائِم^(٢) اليأس، واصرف عن حاضرنا وغائبنا خوالي الوَسْواس.

(١) تسبب الماء: سال. يقصد: نُستدرج.

(٢) ما يحوم.

يا هذا! قد طال نَشْرِي عليك مَطْوِيَّ هذه القِصَّة بضروب من العبارة، وصنوف من الإشارة، رغبةً في شعله تبدو منك، وطمعاً في نجابة تنطق عنك، ونظراً إلى إثارة الحق في سرِّ يَطَّلَع عليك، وأنت على طينتك جامد لا تذوب، وخامد لا تلتهب، وراكد لا تهبُّ، وميِّت لا تتحرك، وباهت لا تبصر، ونشوان لا تفيق، وكثير لا تتوحد، وكدير لا تصفو، ومنقبض لا تنبسط، ومدعو لا تحضر، ومسؤول لا تجيب، ومنصوح لا تقبل، وغاد لا تروح، وثاكل لا تنوح، وكاتم لا تبوح.

يا هذا! لا تُرْعُ^(١) فما أقربني منك، وما أشبهني بك، وما أشد انخراطي في سلكك، وما أسفرني عن نقابك، وما أسكنني في كهفك، وما أطيرني بجناحك، وما أفوهني بلسانك، وما أرْناني^(٢) بطرفك، وما أحملني لثقل مثل ثقلك! لكني مُمتَحَن من باب آخر قد^(٣) كفيته وغنيت عنه، وهو أني مستنطق بما إن خالفت فيه كان دماري، وإن استحققت به كان ويلي منه.

هذا بعض حديثي على تقطّعه وانبثاره، وباب من شأني على تشعبه وانتثاره. فما بقي في ديوان قصتي أن قيل: يا هذا ترحزح عن هذا المكان قليلاً حتى نتاجى بلغة أخرى، ونتهادى النصح بها على طريقة هي أولى بنا وأحرى:

من استأذن على الله أذن له. مَنْ قَرَعَ باب الله دخل. كيف تنتفع بالنصيحة، وأنت مقيم على الفضيحة! خَوْفُ الله جُنَّةٌ من كل كارث. معرفة الله روضة من رياض العقل. ما أنطق الليل والنهار لو^(٤) استمع إليهما وفهم عنهما! كم من عقل أسير عند هوى أمير! الجدل في الدين مطرّدة لليقين! الاتباع خير من الابتداع! الابتداع أخطر من الاتباع! النية عِرْق، والخير شجرة، والعمل به ثمرته. الشريعة مأدبة الله [١٠١ ب] للعباد. السُّنَّة حلية الديّانين. التوحيد حياة النفس. المعرفة الفوز بالقدس. من تبع هواه فقد عبد غير الله. أَكْرَمَ نفسك ما أعانتك على طاعة الله. أَهِنَ نفسك ما عاقتك عن خدمة الله. الويل

(٢) أرْناني: أفعّل تفضيل من رنا يرنو: أدام النظر بسكون الطرف.

(١) لا تُرْعُ: لا تخف. من الفعل راع.

(٤) ر: ولو.

(٣) ر: فقد.

لمن ضاقت رحمة الله - مع سعتها - عنه. لك من الله نسبٌ أصحُّ من نسبك إلى أبيك، فاحفظه فإنه ينفَعك. إذا ضللت عن حكمة الله فقف عند قدرة الله، فإنه إن فاتك من حكمته ما يشفيك، فلن يفوتك من قدرته ما يكفيك. سُق عقلك إلى ملكوت الله، ولا تُقحمه في جبروت الله. إذا استأثر الله بشيء فآلهُ عنه. إذا ما تلطّخت بعار فارحضه^(١) عنك بالإناابة. أنت بين هادٍ يقودك وحادٍ يسوقك، ففيمَ تَبْطُك وتَبْطُوك؟! ليس للغواية غاية تقف دونها جُهدك. لا تحلم عن نفسك إذا اعتبتك، ولا تعصها إذا أرشدتك. اجعل الجَدَّ كله في إعداد الجواب يوم المسألة. عَرَّضْكَ لبقاء الأبد ربُّك بحسن اختياره لك، فلا تتعرّض أنت لفناء الأبد بسوء اختيارك لنفسك. من انقطع إلى غير الله وكله الله إليه. من صلح مع الله لم يفسد مع غيره. من حارب الله حُرِبَ^(٢)، ومن سالم الله سَلِمَ. أصدُقُ الكلام كلامُ الله. كيف ينجو من الله طالِبُه! كيف يضيع مع الله كافله. ما أقرب العبد من الله إن فطن لما فيه. لله عندك وديعة، فاحفظها وتوسّل إليه بها.

المعرفة مصباح القلب. التوحيد نورُ الله في قلب العبد. التوكّل حصن المؤمن. الوجد حقيقة الحال. العقل رسول الحق. الظُّلْفُ^(٣) عِزَّة النفس. الظرف عنوان الطهارة. الصمت روضة الفكر. اللفظ ثمرة الإرادة. الإرادة تصوّر القلب. الأريحية هبة الكرامة. الكناية همس الفؤاد. التصريح بروز المراد. العمل شعار البدن. العلم شعور الروح. الوصف تبيان الموصوف. الموصوف غاية الواصف. [١٠٢] الحظر التنزيه عن الدنس. الإباحة علم التصرف في الملْك. الطمع رقّ، لكنه خداع؛ واليأس عتق، لكنه قَطَاع. العقل صعود، ولكن إلى أعلى عليين. والهوى حدور^(٤)، ولكن إلى أسفل السافلين.

يا هذا! مرّاً أيضاً هذا الفن فلا والله إن أدري كيف انتشاؤك به، وكيف ارتشافك له! وكيف انتعاشك عليه، وكيف انتعاشك منه؟ فإن كانت الغلبة لروحك اللطيف، فلا شك أن حظك من كل ما يمر هو الحظ الشريف. وإن كان الحظ لبدنك الكثيف، فلا شك أن حظك - من

(١) ارْحَضْهُ: رَحَضَ الثوب: غسله. (٢) حرب (بالبناء للمفعول) الرجلُ ماله: سُلْبُه.

(٣) الظلف: ظَلَفَ نَفْسَهُ عن كل مكروه: صرفها عنه، منعها: ظَلَفَ نفسه عما يشينها.

(٤) حدور من حَدَرَ: نزل وهبط.

جميع هذا - الحظ الطفيف. فاسترسل الآن في نفسك باحثاً عن أمرك وخبرك، فعساك تظهر بمردك ونظرك وعبرك، فإنك ملك في ملك، فانفض الملك ناشراً، وانشره نافضاً، وقابله مدابراً، ودابره مقابلاً، وياسره معاسراً، وعاسره مياسراً، وتقلب طالباً، وتطلب مُتقلباً. فإنك تصعد باختلاف هذه الحالات في سلاليم هذا العالم المنضود بالحكمة، المنظوم بالقدرة، المنقوش بالزينة، المزين بكل حلية مخزونة.

يا هذا! مداراتي لك مدارةً لنفسي، ودعائي لك استكانة مني، واستكانتي استجابة إلى حظي. فاستجابتي إلى حظي بلوغٌ إلى غايتي، وبلوغي إلى غايتي فوزي بمن أنا به وهو لي. إذا بلغ اللفظ هذا الحد، فالرأي البريء من العاهة السليم من الآفة، أن تُداوى بالسكوت الذي هو أغطى للمكشوف، وأكنى عن المألوف، وأعنى بالمعروف.

تأمل مخزون قول بعض العارفين، فإنه قد هتف بشأن عظيم عن محل في أعلى عِلين. قال: إذا رأيت الله عز وجل يؤنسك بذكره، ويوحشك من خلقه، فقد أَرادك. وإذا رأيتهُ يؤنسك بخلقهِ، ويوحشك من ذكرهِ، فقد طردك. وقال آخر: يا تُجَّار الآخرة! أبشروا بالأرباح الفاخرة! لا تمهرو الدنيا دينك فإن من مهراً^(١) الدنيا دينه زُفت إليه بالندم والسقم والألم.

وقال آخر: حمية^(٢) العارفين [١٠٢ ب] حمية المرضى، ونومهم نوم الغرقى، وندمهم ندم الهلكى.

وقال آخر: من دواعي المقت ذم الدنيا في العلانية، واغتنامها في السر.

يا هذا! انظر في كم مراقبة قد عليتك، وفي كم بساط قد خطيتك! وكم ثمرة عرضتها لك، وبكم جهد لاطفتك! وبكم عبارة شافهتك! وبكم ضرب عللتك! ومن كم وجه أردت الخير لك! وفي كم طريق سلكتك! وعلى كم ثنية أطلعتك! وفي كم بحر غمستك! وأي شمس أطلعت عليك! وأي كنز أحضرت بين يديك! فبادر إلى حظك ولا تلو على غيره. فإن النفس وإن كان ممتداً فإنه مرتد، والزمان وإن كان متصلاً فإنه منفصل، والوقت

(١) مهراً الدنيا دينه: جعل دينه مهراً للحصول على الدنيا.

(٢) الحمية: الإقلال من الطعام ونحوه مما يضر.

وإن كان مساعداً فإنه خاذل، والكتوم وإن كان جلدًا^(١) فإنه باذل.

يا هذا! الحركة في نوع السكون، والسكون في هيئة الحركة، وأنت بينهما مطحون على رفق ولين، وليس لك عنهما مُنْفَرَج، ولا إلى غيرهما مُنْعَرَج. فخذ بِخِطَامِ نَفْسِكَ إلى غايتك، فلا شفيق لك ولا رفيق؛ وكن كما قالت البدوية لما وضعت ذات بطنها، ولم يكن لها من يعينها على شأنها: «تَخْرَسِي يا نفسُ لا مُخْرَسُ لك»^(٢) أي: اصنعي الخُرْسَةَ بنفسك لنفسك، فليس لك من يتولى ذلك على العادة القديمة.

يا هذا! ارفع طَرْفَكَ. أجلْ فكرَكَ. أطلْ اعتبارَكَ. اصدُقْ نفسك. اعبُدْ ربك. اهْجُرْ غاشَّكَ. أطعْ نصيحتك^(٣). طَهِّرْ سِرَّكَ. ارقُبْ رسولَكَ. أصلِحْ فاسدَكَ. أَلِمِ شَعْنَكَ. جَدِّدْ خَلْقَكَ. جرِّدْ نيتَكَ. هاجر إلى مولاك. باين شهوتك. عادِ شيطانَكَ. أجب داعيك. ارعِ راعيك. قدم زادك. كثر عتادك. ثبت أياديك. وثِّرْ وطائك. كثف غطاءك. أفهم وتفهم، واعلم وتعلم؛ وبين وبين.

اللهم صلِّ التوفيق بقولنا، والتصديق بعملنا، والتحقيق بقلوبنا، ولا تكلنا إلى حولنا وقوتنا، ولا تحلِّ بيننا وبين ما يقرِّبنا منك، ويدنينا من بابك، ويجيرنا من عذابك، [أ١٠٣] ويُهْدِي إلينا رِضْوَانَكَ، ويُفِيض علينا غفرانَكَ.

يا هذا! أَرَوِدُ^(٤) فالأمر غريب، وارْفُقْ فالشأن عجيب، واتخذ الصبر جُتَّةً فالخطب عظيم، وقل الحق فالسرّ كريم، واسبح في بحر الأحوال فالساحل بعيد، وتشبث بالهادي فإنك سعيد.

يا هذا! إذا ترنموا لك بغيب التوحيد على ألحان المعرفة فاشخص عن مكانك، واشتقْ إلى معانِكَ^(٥)، وانقطع عن أقرانِكَ، وانسلخ عن شأنك في شأنك. وليس يكمل لك هذا

(١) جَلْدًا: قوياً ذا بأس.

(٢) الخُرْسَةُ: ما يُصْنَعُ للنفساء من طعام أو حساء. يُقال: خَرَسْتُ النفساء: أي أطعمتها الخُرْسَةَ. فأما الخُرْسُ بلا هاء فهو الطعام الذي يُدْعَى إليه عند الولادة. وقوله: «تخرسي يا نفس لا مخرس لك» قد جرى مجرى المثل يضرب في قيام المرء بحاجة نفسه إذا لم يكن من يقوم له بها.

(٣) ر: نصيحتك.

(٤) أَرَوِدُ: امشِ رويداً.

(٥) المعان: المنزل.

الرأي، ولا ينصع في نفسك هذا النصع، حتى تقشر جملتك قشراً، وتنشر تفصيلك نشرًا، ثم تطوي معنك طيًا، وترتد عن غيك شيئاً فشيئاً. وما أهون هذا التدبير بالوصف، وما أسهل هذا الإرشاد باللسان، وما أغزر هذا العذر^(١) بالفرض، وما أعزّ هذا المراد بالعرض! هاجت الأسرار، وماجت الأحوال بين الإرادة والإصدار، ووزن كل شيء بالاختيار والاضطرار. سقى الله ليلاً كان يلتقي طرفاه على رفّ بنات الصدور^(٢) من معادن الغيث بوسائط العلم على بساط الحقيقة، بلا قذّي من قاذٍ، ولا شوب من شائب، ولا هم من هامّ، ولا نبز من نابز، ولا هفوة من هاف، ولا ضجرة من جاف، ولا وهم من واهم، ولا طرفة من ساهم. ما كن أحلى تلك الشمائل عند اختلاف الحركات! وما كان أحلى تلك النوائل عند ائتلاف السكنات! وما كان أعلى تلك القلّل عند تناول الثمرات! وما كان أشفى لتلك الغلّل مع تواتر الوصبات! وما كان أضوأ تلك الوجوه عند المباسم المؤنسات! وما كان أسعد تلك القلوب عند اتصال المبشرات^(٣)!

يا هذا! الزّم سَمَتَكَ في سيرك، وزدّ في تشمير ذيلك، وواصل نهارك بليلك، وافقه عن مجاورك، وأبه^(٤) لمجاورك، وتحصّن من نفسك في نفسك، وتبرّأ من جنسك في بني جنسك، واشهد الغيب وغب عن الشهادة، واحفظها عند بروز الحق الذي إذا بدا لك أباد، وإذا أحبّ أعاد [١٠٣ ب] وأفاد. وإياك وملابسة الكون؛ فإنها تؤدّيك إلى الفرقة والبين. وعليك بالتجريد والتفريد، وعليك بهجران كل شيطان مريد.

يا هذا! أتدري مَنْ شيطانك؟ أنت شيطانك، وأنت الذي سهوت عنك بعدما بدّوت، وغربت بعدما طلعت، وبعدت بعدما قربت، واستوحشت بعدما أنست، واستبددت بعدما استعنت، فآل أمرُك إلى الخُسْر والضَّياع، ووقف حالك على الغبن والخداع؛ وليس هذا من علامات عمارات الرِّباع^(٥)، ولا من أمارات خصب البقاع، وليس فيه أيضًا ما يدل على بياض وجهك عند من به ثباتك، وإليه صراطك، وعليه عَرْضُك، وعنده مثواك،

(١) في (ر): الغدر، وفي (د): العدد.

(٢) بنات الصدر: الهموم.

(٣) في (د): المسرات.

(٤) من أبه يأبه له: فطن له.

(٥) جمع ربيع: مسكن.

وهو مالِك ومُصَرِّفك، وهاديك وكافلك، وفي عالمه يبسطك ويقبضك، وتحت مشيئته جَرِيَانُكَ وسَرِيَانُكَ، وإليه مصيرُك ومآبُك.

يا هذا! إن كنت مصابًا، فأين الحزن والجَزَع؟ وإن كنت مستفيدًا، فأين الفرح والتمتع^(١)؟ وإن كنت حائرًا، فأين الدليل والهادي؟ وإن كنت جائرًا، فأين التائب^(٢) والتفادي؟

إذا سما بك العزُّ إلى علياء التوحيد، فتقدَّس قبل ذلك عن كلِّ ما له رسم في الكون، وأثر في الحس، وبيان في العيان. فبالتقديس يمكنك أن تعانق البادي من ذلك المحلِّ بَكُلِّك وبعضك. ليس الأمر باللعب، وليس الحقيقة بالتمني ولا المطلوب حيث تظن، الظن هناك يدهدك^(٣)، والوهم يُسَفِّهك، والخبر يعصمك، والاستخبار يُنَوِّهك، والتسليم يُؤمِّنُك، والاستسلام يحفظك، والوصف يُغلِّطك، والكشف يشططك؛ والاستمرار يُذلِّك، والاستهتار يُضِلُّك، هناك فنون أنت منها في عراء لا مؤنس لك فيه:

غُرَّ امرؤٌ منته نفـ سُسُّ أن تدوم له السلامة^(٤)

اقتصَّ من نفسك فقد قتلتك، ثم أقصَّها منك بعد قتلها. قتلتك بالتسويل^(٥)، وقتلتها بالتعويل^(٦)، [١٠٤ أ] فكان قَصْرُكما^(٧) التضئيل والتخييل.

اللهم إنا نرُزِّي إلى خلقك بما تلقى في رُوعنا من هذه الزجرات المُنبِّهات، والعظات النافعات - قصدًا منا لانتفاعهم بنا، وإراغة^(٨) منَّا لاجتلاب حظهم إليهم باجتهادنا، وليكون ذلك كله جلاءً لبصائرنا، وشحذًا لما كلَّ منا، وتنشيطًا لما فَرَّ^(٩) عنا، ونظمًا لما تناثر دوننا. ونحن نسألك أن تُسدِّدنا في مقالنا، وتعيننا في فعالنا، وتوجَّه إلينا توفيقك الذي لا يُضِلُّ مَنْ

(١) في (ر): الفرح والتمتع. (٢) في (ع): التائب.

(٣) دهده الحجر: دحرجه. دهده الشيء: قلب بعضه فوق بعض.

(٤) ورد هذا البيت في شرح ديوان الحماسة لأبي تمام. للتبريزي ص ٣٩٨ ط دار القلم. بيروت.

(٥) أي سَوَّلَ لك أمورًا خبيثة. (٦) التعويل: الاعتماد على الغير.

(٧) القَصْر: الغاية. وقصرك أن تفعل كذا: قصارك وقصارك: أي جهدك وغايتك.

(٨) إراغة: إرادة. (٩) لعلها: فتر.

سلك نحوك، ولا يُعَيِّي من قال عنك، ولا يخطئ من أشار إليك، ولا يُخَيِّب من سألَكَ، ولا يُضَيِّع من توكل عليك.

إلهنا! لولا أنا نجد من رَوْح هذا الحديث ما يبعثنا على مناغاة عبادك ما انبعثنا لذلك؛ ولولا أنا نرجو به وبأمثاله تقرباً إليك ومكانة لديك، ما نَقَرْنَا^(١) عن شرك المخزون، ولا نطقنا عن غيبك المكنون. وكان إعراضُ مَنْ أَعْرَضَ عَنْكَ هَيِّنًا عَلَيْنَا، وهلاك مَنْ هَلَكَ عَنْ حظه سهلاً عِنْدَنَا. ولكننا نرى في ذلك ما تُرِينَا، فيرى غيرنا منه ما يكون زيادتنا في مقامتنا، وسبباً للرفق في سعادتنا، وباباً مفتوحاً إلى الفوز الذي طال في طلبه سعينا، وأنْفَذَ في تحصيله وسعنا. يا ذا الجلال والإكرام!

رسالة (٣٦)

اللهم إِنَّا قد بذلنا دون طاقتنا في طلب ما عندك، فهب لنا تأييداً منك حتى نستنفدها في حيازة رضاك، فإنك إن وكلَّتنا إِلَيْنَا عَجَزْنَا، وإن تركتنا عَلَيْنَا تَحَيَّرْنَا، وإن كنتَ لنا فيما بينك وبيننا فُزْنَا. وكيف لا نطلب فائتاً منك وأنت المفيت^(٢)؟ وكيف لا نحاول فائدتنا عندك وأنت المفيد؟ وكيف لا نشهدك في كلنا وبعضنا وأنت المحيط؟ جلَّ شأنك عند كل شأن، ودقَّ شرك عن الإسرار والإعلان، وعَنَيْتَ عن أن تُعَرِّفَ بدليل وبرهان، لأنك قبل كل أثر^(٣) وعيان، وبعد كل إيضاح وبيان. فمن ذا ينعتك وأنت تَفُوت النعت، ومن ذا يحجِّدك وأنت مالك الوقت؟

[١٠٤ ب] أيها الصديق المشفق، والصاحب الموالي، والمشتكي المساعد! [استمع] ما غشيني من عياني وخبري فلعلَّ حُسْنَ الاستماع منك ينفي عني وحشة قد كَدَّتَنِي وأَدَّتَنِي^(٤)، ورَدَّتَنِي عن مقاصدي وأرَدَّتَنِي. فلو انكشف عنك غطاء أمري، وبدا لِتَصَفِّحَ وجهه عذري، أشرفتُ على حقيقة عُرْفِي ونُكْرِي، وتجلَّتْ عندك خالصة سِرِّي وجهري. وكنت أَكْفِي مؤونة الاعتذار، كما قد كُفِيتُ غائلة الاعتذار، وخِلابة^(٥) الاختيار والاضطرار.

(١) في (ع، ر): تقرباً. (٢) أفات فلان الأمر فلاناً: أذهب عنه. (٣) ع: أثر.

(٤) أد الأمر فلاناً: اشتد عليه ودهاه. (٥) خِلابة: خديعة.

قد أصبحت مرضوضَ البال، مخفوضَ الحال، مِنْ معنى قد ولَّهني على خيال ما مضى، وأذهلني عن الكائن^(١) الذي عرا، واستعارني بالفكر في المستقبل الذي لعله لا يُحسُّ ولا يُرى، لا جَرَمَ أُسْقَى ممزوجًا وأُسْتَسْقَى صِرْفًا، وأَهَبُ حياة، وأكافأ حَتْفًا؛ وأعد ما أعد حقًا، ولا أَجِدُ ما أُوجِدُ^(٢) إِلَّا خُلْفًا^(٣). على أنني إن [تحركتُ] تحركت متقبلاً، وإن سَكَتُ سَكَتُ مُسَلِّمًا، وإن قُلْتُ قُلْتُ متأدبًا، وإن سكنت سكنت متهيِّبًا، وإن طلبت طلبت متضرعًا، وإن أمسكت أمسكت متفرعًا. فأين الآن ما لي فيما عليّ، أو أين ما بي بما في؟ فيا بُشْرَى إن كان المراد مستجيبًا، والسعي نجيحًا، والتمني حقًا، والمطلوب مدرَكًا! ومرحبًا بالخيبة إن كانت مريحة، وبالحرمان إن كان غاية، وباليأس إن كان آخرًا، - فقد قيل: القتل أعفى^(٤) من الأسر.

عجبًا من سرِّ أناف على العلانية بالحقيقة، وعلانية تمزقت بالبحث عن الجليلة والدقيقة. بل عجبًا من خَبَر استعلى على العيان، وعيان توارى بالخبر بلا بيان! وأعجبُ من ذا وذا أنني أراه بعين الرِّضا في الغضب، فيا ويلني مني أو ممن أنا به في كيفي وأيني! وماذا أريد بي؟ وماذا أريغ^(٥) نحوي؟ أي قضاء غُصَصَ بَعْتِي وشجوي؟ أثبتني لي ثم أبطلني، وعَطَفني عليّ ثم خَطَفني مني. فلو أنه حين أثبتني أمدني، لكنت بالرضا محسودًا؛ أو حين عطفني عليّ بقاني، لكنت بالمنى مقصودًا. ولكن وهب لي ما وهب من غير حاجة مني إليه، ثم أخذ مني ذاك بعد إلفي له وولَّهي عليه، قدرة لا تحاط، وحكمة لا ينال منتهاها ومُشَبِّه [١٠٥ أ] منتهاها، ومشئئة لا يدرك مداها، وخَيْرَةٌ مُسَلِّمَةٌ في أولها وأُخْرَاهَا. ولولا شَرَّةُ^(٦) النفس الكذوب، وجماح الطَّمَعِ الوَثوب، لكان اليقين تلو الإيمان، والتسليم قِبْلَ البرهان، والثقة في الخبر قبل الشهادة بالعيان، لأن المنعم بدأ بالنعمة قبل الاستحقاق، فأسلف العتق قبل الاسترقاق، فسبق الجود بما أوفى على التحكم، وأتت الجملة بما زاد على التفصيل. فويلي من جهلي بجهلي، بل ويلي من علمي بعلمي، بل

(٢) د: أجد.

(١) الكائن: الحادثة والمصاب.

(٥) أريغ: طُلب.

(٤) أعفى: أسهل مؤونة.

(٣) الخُلْف: التناقض والكذب وعدم إنجاز الوعد.

(٦) الشرّة: الحدة، النشاط. يقال: أعوذ بالله من شَرَّةِ الغضب.

ويلي من كلي وبعضي، بل ويلي من ظني وفرضي! بل ويلي من قالي وقيلي، بل ويلي من طلبي وسؤلي، بل ويلي من ويلي وعولي من عولي. غيب رمز بالحقائق، وشاهد صرح بالعوائق، ومحصّل الرمز والصّراح حيران حَران بين الروائق والبوائق^(١).

يا هذا! إن فهمت هذه اللغة من هذا الديوان على هذه الكناية فقد قرب^(٢) ما تريد لأنك لا تصغي إلا إلى ناطق، ولا تقع إلا على شاهد، ولا تقترب إلا بمفصّح، ولا تستنيم إلا إلى مرشد. وعند ذلك تحوّل وحشتك أنسًا، وتزول دهشتك رأسًا، وتبرأ من كل ليت ولو، وكيف وأين وعسى.

يا هذا! أحص أركان نعمته عندك، وأصناف أياده قبلك، ثم اعترف بأنه أولها بالوجود وثانيها بالمزيد وآخرها بالدوام. فإنك إن سهوت عن الإحساس بنعمته لم تصلح أن تكون في المخصوصين بخدمته، ومن لم يصلح لخدمة الملوك لم يؤهّل لأسرار القلوب، ولم يوثق به في عوارض الأمور.

فمن جملة ما نبهتك له وحركتك إليه أنه وهب لك حياة بها تحس وتلدّ، وبها تعيش وتنعم، وبها تتحوّل وتسكن. ثم وهب لك قلبًا جعله معدن توفيقه، ومأوى الطمأنينة به، وكهف الإيمان بربوبيته، وحرّم الأنس بمناجاته، ومنع الخواطر في مناغاته. ثم وهب لك عقلًا به وصلك بنفسه، وبه أطلعك على غيبه، وبه عرض عليك بدائع ملكه وعجائب كونه، وبه استخلصك لمخاطبته، وبه حاشك^(٣) إلى حظك في معاينته، وبه منعك من نكرته، وبه عمك^(٤) في معرفته، وبه وعدك لتملك، وبه يوعدك لئلا تهلك، وبه ربّاك وغذاك، [١٠٥ ب] وذراك ورواك؛ وبه كلّفك وشرّفك^(٥)، ولطفك وطرّفك؛ وما لا تحصيه فكرًا، ولا تلم به ذكرًا. ثم وهب لك لسانًا تذكره وتذكر أسماءه، وتصفه وتصف آلاءه، وبه تشر عجائب قدرته، وتستخرج دقائق حكمته، وتستنبط جسائم نعمته، وتستدعي عواطف رحمته،

(١) الروائق: جمع رَنَقَة، هي الماء القليل الكدر يبقى في قاع الحوض. البوائق: جمع بائقة، وهي البئر الممتلئة التي فاض ماؤها.

(٢) في (ر): فزت. (٣) حاش القوم الصيد: جاءوا من حواليه ليصرفوه إلى المصيدة.

(٤) يمكن أن تقرأ: «غمسك». (٥) د: شوفك.

وتتعرض للطائف رافته. فانظر كيف رَكَّبَكَ وَقَسَّمَكَ، وكيف جَمَعَكَ وَنَظَّمَكَ، حتى تحس بروحك وتنعم، وتهتدي بعقلك وتعلم، ويطمئن قلبك ويسلم. فهل منعّم له هذه الأوائل والثواني، وهل قادر على هذه الأسرار والمعاني، وهل أحدٌ يرقى إلى هذه المغاني، ويشهد هذه العيون الرواني؟ هيهات! أنت مغرور بالآمال والأمانى، مخدوع بالأشغال والثواني. فليتك إذ عرفت «عرفت» محللك منذ جنحت إلى ما يجلب الرحمة إليك ولا يوكل الغيظ بك.

يا هذا! توكل وخَفْ، وارْجُ وسلِّمْ، وارْضَ واصْبِرْ، واشْكُرْ واطمع، وأخْلِصْ وتيقن، وأحِبْ وثِقْ، واعْرِفْ واسترح. فإنك إذا توكلت خائفًا آمنك كافيًا، وإذا رجوت مسلمًا قبلك مصافيًا، وإذا رضيت صابرًا قريك متقبلًا، وإذا شكرت طامعًا زادك مكافئًا، وإذا أخلصت متيقنًا اتخذك مناجيًا، وإذا أحببت واثقًا أبرزك عينًا، وإذا عرفت مستريحًا استخلفك واحدًا. وإذا بلغت هذه الذروة العليا فقد اعتصمت بالعروة الوثقى، ولا يبقى بعدها لك ما يكون اقتراحًا منك، وتحكمًا لك، بل يصل ذلك بنظائره: ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فَهَلِّمْ - عافاك الله - إلى حضرة العز، وبساط الكرامة، ومجلس الأنس، وسُدَّة الغنيمة، وفضاء الروح، وسُرَر الأمان، وساحة الإلهية، وبُحْبُوحة الربوبية، حيث الكون بما فيه عَدَمٌ، وكلُّه بما عليه حُلْمٌ.

يا هذا! ارحم نفسك لنفسك، واطلب حَظَّكَ بحظك، وحَصِّلْ غَدَكَ من يومك، وتفرد بخَوْبِصَةٍ^(١) أمرك، ودع عنك ما خباله عاجلٌ عيائًا، ووباله آجلٌ إيمانًا. أما تمتعض من وقوعك في فخ الهوى وحباله الشهوة وشرك الشيطان بسبب ظاهر لا ثبات له، وزبرج

(١) خويص: تصغير خاصة، وهي كل ما يُخَصَّ به. وفي الحديث الشريف الذي رواه أبو هريرة في صحيح الألباني (٢٨١٣): «بادروا بالأعمال سُتًا: طُلوع الشمس من مغربها، والدُّخَان، ودابة الأرض، والدجال، وخويصة أحدكم، وأمر العامة» وقال: صحيح. وقال في شرح الحديث: أو خاصة أحدكم، أي: ما يخصه من الموت الذي يمنعه من العمل، أو هي ما يختص به الإنسان من الشواغل المتعلقة في نفسه وماله، وما يهتم به أو أمر العامة يعني القيامة؛ لأنها تعم الناس جميعًا بالموت، يقول فبادروا الموت والقيامة بالأعمال الصالحة.

لا صنعة فيه، وعارض [١٠٦أ] لا غيث معه، وظل لا معوج^(١) عليه؟ وهبك اغتررت وفوداك^(٢) يحكيان الغراب، فما عذرک الآن وقد نبا عنك الخضاب؟ لا عذر إلا سوء العافية، وقلة النظر وفساد النية. وإلا فالمنادي بعيد الصوت، رخم^(٣) الجرّم، لطيف النصح، حسن الهداية، شديد الشفقة. لكنك في سكرتك عامّة^(٤)، وفي صحوتك من خمارك واله. فعلى هذا، متى تستقل والفرص تمر مر السحاب، والندامة والحسرة تجتمعان في العواقب؟ أتدري ما قال الواعظ النصيح، وهو أبو الدرداء؟ قال: البر لا يلى، والوزر لا ينسى، والديان لا ينام؛ فكن كيف شئت، فكما تدين تدان.

اللهم إنا نسألك عصمةً بها نصل إليك، وتوفيقاً به نثق بك، ولطفاً إذا جُدت به استرحنا بنا معك. فقد أتينا من حيث [ما] إن احتجبنا به كسرته علينا، وإن سكتنا عنه رجونا أن تحسن بفضلك إلينا. على أنه لا يليق بنا إلا ما يليق بالعبد، ولا نتوقع من جهتك إلا ما نتوقع من جهة السادة. والعبد، وإن أساء أدبه جهلاً وعبطة^(٥)، فإن المولى لا يؤاخذة إخاذاً يجتاحه^(٦).

اللهم إنا لا نخاف حقدك، ولا نخشى جورك^(٧)، ولكننا نخاف عدلك ونرجو فضلك. ونحن وإن كنا أهلاً لعدلك الذي يأتي علينا، فإنك أهل لفضلك الذي يتم به إحسانك إلينا. أيها السامع! أما ترى تناثري في كلامي، وترجحي في مقامي، وقصوري لتلوثي^(٨) عن مرامي؟ هكذا أجدني فيما أقول، وعلى ذا أراني مما أصول. فحدثني عنك وعن حالك، واصدقني عن غايتك ومالك، لعلني أجد بك ما لا أجد بي، وأحصل عنك ما ليس يحصل

(١) لا معوج عليه: لا اعتماد عليه.

(٢) الفودان: جانب الرأس، ويحكيان الغراب: أي أن لونهما أسود كناية عن الشباب.

(٣) الرخم: اللين، السهل المنطق. (٤) عامه: اسم فاعل من عمه، أي: حاد عن الحق ولم يهتد لطريقه.

(٥) كذا! ويمكن أن يكون: عبطة، أي تعسفاً واعتباطاً، أو غيطة. ووردت في د: «غلطة».

(٦) الإخاذ: العذر، وقيل الإخاذ واحد والجمع آخاذ. وقيل الإخاذ والإخاذ بمعنى، والإخاذ: شيء كالغدير.

(٧) الجور غير موجود إطلاقاً في جنب الله تعالى؛ لذلك لا خشية منه. أما المذنب فيخاف العدل ويتعلق بالفضل الذي يحقق الرحمة والمغفرة.

(٨) تلوثي: يبطائي.

مني. فقد طال لهْثي واردةً، وتضاعف لهْثي صادرًا، وعظم شَغْفي شاهداً، وامتد نَفْسي بالحسرة غائبًا، وتردد قلبي مملولًا، وعاد حَدِّي مفلولًا. كأني وبال عليّ، أو كأني آفة فيّ، أو كأني بلاء عندي. ليس يخلص لي رأيٌّ في وجدان ما أطلب متلطفًا، ولا يصفو إليّ مُرادٌ فيما أقضيه عني متكلفًا. قد اكتنفتني المصائبُ في فَوْتِ المطلب وعزة المطلب، واستولت عليّ الوسوسُ في نفي ما لا سبيل إلى نفيه، فبُذِلَ التالذُّ والمكسوبُ، فأنا البارَك المتجعجِع^(١)، والتارك المتشعشع^(٢)، والقائل المُعَدَّد، [١٠٦ب] والساكت المتلدد^(٣). إن ظهرتُ بالرسم لزمني حدُّ النِّفاق والشَّقاق، وإن بَطُنْتُ بالحقيقة حُمِلت على تكليف ما لا يطاق. وإن تظلمت قيل لي: جنيت على نفسك بالجهل فاستحققت العقاب؛ وإن تشفعتُ بالواسطة قيل لي: قد آن أن تنقطع بك الأسباب، وتَسْمَت بك الأعداءُ، ويرجمك الأحبابُ. أما تعلم أن المُستغاث إليه في شُغل عنك، ولكلِّ في حقيقته حقٌّ يعنيه، وأول يديه، وآخر يُبْلِيه، ووسط يغنيه ويقنيه^(٤)؟.

أما تعلم أن كل شيء مما تكلفه لغيرك موصول بالكفاية، ولكن ليست الكفاية موصولة بالنهاية؟

أما تعلم أن المراد منك لا يدين لك به، والعلم بك على خلاف ما تظنه منه؟ فمفروضك لك مردود عليك، ومعرضك منك ممدودٌ إليك؟ أما تعلم أنك مخدوع بالسراب عن الشراب، ومحجوب عن الوصال بالعتاب، ومطالب بما لا تحقُّق وهما [و] لا تظفر به فهُمَا ولا تنال منه سَهْمًا؟

أما تعلم أنك أَعْرَيْتَ جُنْبَكَ لكل رام، بدَعواكَ التي قد فضحتك بين الأنام بهذا الكلام الذي ليس دونه ولا فوقه إلَّا كلام. فإن كان ذوق أو وجد، أو شهود أو انكشاف، أو لَحْظٌ أو إدراك، أو أثر أو خبر، أو حاصل أو راحة، فأين علامة استقلالك به، ودلالة كمالك

(١) تجعجع: ضرب بنفسه الأرض، مِنْ وَجَع.

(٢) يُقَال: تشعشع الشهر: أي بقي منه قليل. والمقصود هنا: أنه هو التارك مع أنه لم يبق منه إلا القليل.

(٣) تلدد: تلفتَ يمينًا وشمالًا تحيرًا.

(٤) يقنيه: يرضيه.

فيه؟ وأين ما بوشر به فؤادك صفاحاً^(١)، وبُشِّرَ به روحك كفاحاً^(٢)؟ وأين ما يؤخذ منك فيما يوجد بك؟ وأين [على]^(٣) ما يوجد لك مما يوجد فيك؟ وأين النطق الإلهي، والبيان الرباني، والنظر الذي إذا امتد شعاعه من العين أحرق الكون بجميع ما في الكون؟ وأين القدرة التي بها تُقَلَّبُ الأعيان، وفيها تُفَرَّقُ الدهور والأزمان؟ وأين الحكمة التي بها تستأمن عقولُ الخاصَّة، وبها تستولي على فضائل الخاصة والعامة؟ وأين الفهم الذي به تملك الوجوه والنواصي، وبه تُصَرَّفُ الدواني والقواصي، وتأمُرُ الكون فيقف، وتشير إلى كُلِّ فَيَجِبُ^(٤)، ثم تنبعث فتَصِفُ، وتنتهي فتعرف؟ إن كنت لم تبلغ هذا المدى فلا تتعرض بجهلك للردى، والزَمَ حدك فيما أنت مرفوق بك فيه، ومرحوم عليه به. فإنه إن اشتعلت عليك ناره لم تطفأ ببحرك، وإن حمى عليك أواره لم يسكن بقوتك وحولك. والله المستعان، وعليه التكلان^(٥).

رسالة (٣٧) [١٠٧]

يا هذا! أما ترى كيف نُصِبَ كُلُّ شَيْءٍ تُجَاهَ عينك لتبصر، وقبالة قلبك لتفكر، ورُدِّدَ على مشاعرك وإحساسك لتعتبر، ولُطِفَ بك في الأول والثاني لتثق وتنتظر؟ فأبيت إلا اللجاج الذي به هلك مَنْ تقدمك وأنت تراه، وعاندت نفسك حتى كأنك عدوك. إن أنت إلا بلاءً عليك، وإن أنت إلا ميؤوس منك. الويل لك منك، والحسرة لازمة لك بك! أما لك من شراب الدنيا صحو؟ أما لك من أقدارها أنفة؟ أما بك حاجة إليك؟ أما لك ذرة من الشفقة عليك؟ أما تشهد هذه الآثار التي يجلوها عليك الليل والنهار؟ أما تعاین هذا الاختلاف الدائم بين الإيراد والإصدار؟ أما تستبين الفرق بين مدارج الإعلان ومناهج الأسرار؟ أما تبحث عنك؟ أما تعرف إياك؟ أما تحنُّ إلى مأواك؟ أما تشاق إليك؟ أما

(١) صفاحاً: مصافحة. (٢) كفاحاً: مواجهة.

(٣) زيادة في (ر).

(٤) وَجَفَ الشَّيْءُ: اضطرب، ووجف القلب: خفق وخاف.

(٥) التكلان: الاتكال، الاعتماد.

تَفَرَّقُ^(١) من فاجئات الغيب؟ أما تَسْتَحْيِي من الاشتمال على العيب؟

إلى متى هذا الأُنْس بالوحشة، وهذا الاعتراف بالنِّكْرَة، وهذا الذهاب في المَضَلَّة، وهذا الزهد في الحظ، وهذا التجليح بالبُهْتِ^(٢)، وهذا الاعتقاد للباطل، وهذا الاستشهاد بالزور؟

أين التوقع للموت؟ أين الإعداد لما بعده؟ أين الفكر فيما له طائل، إذا جاء الحق وزهق الباطل؟ أين لائمة النفس على التفريط؟ أين قبول الهُدْي من الناصح؟ أين الرضا بالمقدور؟ أين الاستسلام للحكم؟ أين إمساك اللسان عن الفضول؟ أين سلامة الصدر في الأمور؟ أين الشفقة على زمان الحياة المتصرِّم^(٣)؟ أين الشوق إلى البقاء الدائم؟ أين الاعتبار بهذا العالم القديم بقدرة الناظم؟ أين التزود لهذا الطريق الشاسع؟ أين الاحتياط في أمر لا محالة واقع؟

لَمْ تَكْذِبْ نَفْسَكَ، وأنت تغضب إن كَذَبَكَ غيرك؟ لم تغمسها في البلاء وأنت تطالب بها في جميع معاملتك؟ لَمْ تُوقِدْ نار الغضب عليك وأنت لا ترضى بمثله من مثلك؟ لم تحول بينك وبينك، وأنت المتهالك في ذَلِكَ؟ لم تخالف العقل في نفسك، وأنت تحتج به على سواك؟ لم تنقض العادة في خاصتك، [١٠٧ ب] وأنت تطالب بها في جميع معاملتك؟ لم توقد نار الغضب عليك حتى تحترق بها؟ لَمْ تُشَاقَّ^(٤) الحق حتى يفارقك عند حاجتك إليه؟

يا هذا! ﴿أَرْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]؟ فَلِمَ تَعْبُدُ هَوَاكَ، وَتَذِلُّ لَشَهْوَتِكَ، وتحمل الأذى في البلوى في حظ ساعة تبقى عليك تبعاته، وتنأى عنك لذاته، وتدع السعي فيما له مَرَدُّ عليك، وثمره لك على الدوام والسرمد والخلود والأبد؟

(١) تفرق: تخاف.

(٢) جَلَحَ في الأمر: ركب رأسه فيه. وَجَلَحَ: أقدم ومضى. البُهْتُ، والبُهْتَانُ: الكذب المفترى.

(٣) المتصرِّم: المتقطع.

(٤) شَاقَّ الحقَّ: خالفه وعاداه. وفي التنزيل: ﴿وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٤].

أما سمعت بعض الدعاة إلى الله كيف قال في أمثاله ومواعظه: لو كانت الدنيا من ذهب فان، والآخرة من خزف باقٍ، لكان ينبغي أن يُرغب عن الأولى ويُزهد فيها، وتُطلب الأخرى ويرغب في الأخرى؛ فكيف والأمر على العكس، بغير شك ولا لبس: إن الدنيا من خَزَفٍ فان، والآخرة من ذهب باقٍ. أَشْهَدُ أن أمرًا يعوق عقولنا عن هذه الغاية التي قد جَلَّتْ عن الخبر وبادت على العيان لعجيبٌ، وأن سببًا أَوْرَثَنَا هذا الجهل لغريب؛ وَأَشْهَدُ أن حكم الله نافذ، وقضاءه ماضٍ، وإرادته سابقة، ومشيتته مُعَيَّنَةٌ، وعلمه خافٍ، وأن الخَلْقَ على تلك المناهج يَصْعَدُونَ وَيَتَحَدَّرُونَ، وإلى تلك المعارج يَعْرُجُونَ وينقلبون. فطوبى لمن سبقت له منا الحسنَى، فسلك الطريقة المثلَى في هذه الحياة الدنيا، ثم ارتفع إلى الدرجة العليا، واختلط بالملأ الأعلى، غير مُعَرَّجٍ على ما ترك ههنا وخَلَفٍ، لسروره بما وجد هناك مما قد وأسلف.

فقد نَظَرْتُ - عافاك الله - ونظرنا، وعرفت وعرفنا، وبان لك كما بان لنا: أن مدار الأمر منا والأخذ بالأحوط عندنا إنما هو في اللياذ بالله والفرع إلى الله، والاستسلام لله، والتصرف بين يدي الله، بخلع الحَوْل والقوة إلا بالله، والهرب من أوطان عدو الله، والتعلق بهُدَى أولياء الله، لعلنا نحوز مَرْضَاة الله في جوار الله.

اللهم إنك شاهدنا، وشاهدُ فينا، وشاهدُ بنا، وشاهدُ علينا. فبحرمة شهادتك التي قد اكتنفتنا منك، وبقدرك التي أبرزتنا [١٠٨] لك، وبجلالتك التي حَقَّقَتْ فاقتنا إليك، وبنورك الذي سطع علينا منك، وبنعمتك التي غمرتنا بك، وبرحمتك التي جمعتنا على بابك، وبسلطانك الذي قَهَرْنَا لعزك، وبالخير الذي توالى عندنا من جهتك، وبكلمتك التي سمعناها على لسان المُبَلِّغ عنك، وبسرك الذي حجبنا عنه بحكمتك - إِلَّا بَشَّرْتَنَا بِرِضَاكَ عَنَا، وَمَحَوْتَ بِكَرَمِكَ صَحَائِفَ ذُنُوبِنَا، وبدلت سيئاتنا حسنات، ورفعتنا إليك درجات بعد درجات، وأقررت عيوننا بالنظر إلى وجهك ذي السُّبُحات^(١)، وعَمَّمْتَنَا بِالكَرَامَاتِ، وَخَصَّصْتَنَا بِمَا لَا نَصِلُ إِلَيْهِ بِالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ وَالْحَجِّ وَالْغَزَاةِ^(٢)، ولا بشيء من الأعمال

(٢) الغَزَاة: الجهاد في سبيل الله.

(١) سُبُحات وجه الله: أنواره.

والقُرْبَات، بل بفضلك وجودك اللذين أتيا على الطلبات والرغبات، وزادا عليها مقامات وبَسَطَات بلا غايات ولا نهايات.

إلهنا! هذه آمالنا فأعطيناها، وهذه أمانينا فبلَّغناها، وهذه عطايك فهنَّتناها.

اللهم إنك إن دعوتنا دعوتنا في الظاهر بلسان تكليفك، وغمرتنا بضروب حججك، وأسمعتنا محكم آياتك، وشملتنا بأنواع خيراتك، وملكت نواصينا بقدرتك، وظهرت^(١) عندنا المخبرين عنك المرشدين إليك. لكنك، يا ربنا! طويت عنا إرادتك بنا، وأخفيت حَكَمَك لنا وعلينا، فبقينا حيارى متسكعين، وسُكاري مُتَدَلِّهين. وهذه ربوبيتك المُسَلَّمَةُ لك، وسلطانك المردودُ إليك، لا مُعَارِضَ لك، ولا مُتَحَكِّمَ عليك. لكننا، يا رَبَّنَا! لا نستطيع حِفْظَ أنفسنا على طرائق أَمْرِكَ ونهيك إلا ببوادي صُنْعِكَ ولُطْفِكَ. فاكْتَفْنَا، يا إلهنا! بِالْعِصْمَةِ، واحْفَظْنَا، يا رَبَّنَا! بِالنَّعْمَةِ، واعطفْ علينا، يا سيدنا ومولانا! بِالرَّحْمَةِ، حتى نحوز رضاك، وننال الفوز الأكبر في ذُراكَ.

أيها الرفيق المُوَاسِّسُ، والصاحبُ المُلَابِسُ: إلى متى تطالبنني بالكلام في هذا النَّمَطِ وأنا على ما تعرف من ضيق صدر، وتَقَسُّمِ فكر، وعُزُوبِ لُب، وذُهوْلِ بال، وتشتُّ رأي، وخاطر عقيم، وفؤاد سقيم، ومصائب في الدين والدنيا متوالية، وآفات في الصباح والمساء متواترة؟ لا جَرَمَ إن وعظتُ استحييتُ من الله مِنْ قِلَّةِ [١٠٨ب] اتعاطي، وإن هَدَيْتُ خجلتُ من شدة ضلالي، فإن بَيَّنْتُ قطعني عن البيان سوء استبانتي. فإذا كان كُلِّي وبالأَعْلَى، كيف يكون بعضي فائدة لغيري؟ إلى الله نشكو ما حلَّ بنا منا. فقد والله طالت البلوى، واشتدت النَّجْوَى، وقلت الدعوى؛ فإنه أولى من شُكِّي إليه، وأحقُّ من تُوكَّلَ عليه. اللهم إنه لا غِنَى إِلَّا مِنْ أَغْنَيْتِهِ، ولا مَكْفِي إِلَّا مِنْ كَفَيْتِهِ، ولا محفوظ إِلَّا مَنْ حَفِظْتَهُ - فَأَغْنِنَا وَاكْفِنَا واحْفَظْنَا. وإذا أردت بقوم سوءاً فميزنا عنهم، يا أرحم الراحمين!

(١) ظاهر: عاون وناصر.

إلهنا! الرغبات بك موصولة، والآمال عليك مقصورة، والحدودُ لقدرتك ضارعة، والوجوه لوجهك عانية^(١)، والأرواح إليك مَشوقة، والنفوس إلى كهف غيبك مَسوقة، والأمانى بك منوطة، والأيدي لجودك مبسوطة، والهَمَمُ إلى طلب مَرْضاتك مرفوعة، والآؤك عند جميع الخلق مشهودة ومسموعة. فآتِنا اللهم من لَدُنْكَ ما لاقِ بكرمك، وأنفِ عَنَّا ما قد نفانا عن بابك، واشرح صدورنا للثقة^(٢) بك، ووفقنا لما يُبَيِّضُ وجوهنا عندك، ويُطِيلُ أَلْسِنَتَنَا في تحميدك وتمجيدك، يا نعم المولى ونعم النصير!

اللهم أفرغ علينا من رحمتك ذَنوبًا^(٣)، واجعل لنا في مسالك مَرْضاتك طلوعًا وغروبًا، وأنلنا من لَدُنْكَ هدى وبشرى ونصييا، واحفُفْنَا برضوانك بعد أن تَعَمَدْنَا برحمتك وغفرانك، إنك ذو الجلال والكرامة، في هذه الدار ودار المُقامة^(٤).

أيها الإنسان الذي قد شَقِيَ في هذا الحرِّ الواقِد، والهواءِ الراكِد، بالجوع والعطش صائمًا، هل لك خبر عنك فيما أريد بك؟ وهل لك إحساس بما سيق إليك؟ أم أنت من الجاهلين، بل الغافلين عنك؟ ما أخوفني عليك! وأشدَّ يَأْسِي مِنْ فلاحك! طال جوعُك وعطشُك في صومك، ولا تدري ما حاصلُك في غدك من يومك، وما الذي عاد إليك بقصدك ورؤمك^(٥)؟ أظن أنك مغرور، وعلى ما أصبت به غير مأجور، وبما طلبته ووجدته غير مسرور. وهذا لأنك مسلوب الإخلاص في العبادة، قليل النشاط في الاقتداء بالسادة والقادة. [١٠٩] أ تتيقظ في أمور الحياة الدنيا، وتحلم بأحوال الدار الأخرى. وليس هذا من رأي أولي النُهي والحِجَا^(٦)، ولا من عادة ذوي الورع والتقوى. بل اصحَبَ عاجلتك بالحلم حتى تستيقظ في آجلتك بالعلم، أعني العلم الذي لا شوب فيه من الشكوك، ولا غشاء على صاحبه من الريب، ولا أثر فيه من الظنون، بل هو يقين حق وحق يقين، لمثله جهْدُ الجاهِد رائجًا وغادياً، ومن أجله زَهْدُ الزاهِد نائياً ودانياً. فاطلب

(١) عانية: خاشعة مستسلمة. وفي التنزيل: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١].

(٢) ر: الثقة. (٣) الذَّنوب: الدلو المملأ.

(٤) دار المقامة: دار البقاء، أي: الآخرة. (٥) رومك: رام الشيء: طلبه ورغب فيه.

(٦) الحجَا: عقل وفطنة.

نفسك أيها الصائم في هذه المواطن: فإن كنت بها ثاوياً، وفي عَرَصاتها متبختراً، ومن أغصانها جانئاً، زانتك العبادة، وشملتك العصمة، ودرَّ عليك خَلْفٌ^(١) التوفيق. وإن كنت عنها بعيداً، وعن أسبابها ساهياً، شمت بك عدوُّ الله، وتجنبك عباد الله، ومقتك ملائكة الله، ورفضك كلُّ خلق الله. لا تُظَلِّك سماء إلا بالصاعقة، ولا يُقَلِّك أرض إلا بالفاقة^(٢)، ولا ترمقك عين إلا بالزراية، ولا يذكرك لسان إلا بالغواية، ولا تصافحك يد إلا بالكراهة.

فاختر - هداك الله - تجارة لا بوار لها، وأنح غاية لا لبث دونها، واستشعر الرُّعب فيما أنت عليه تنل الدعة فيما تنتقل إليه. واحصر فلتات لسانك في صومك، وحركات قلبك في نيّتك، وخواطر شرك في ضميرك. واعلم أن الله على قدر ذلك يُجزل مواهبك، ويفتح مذاهبك، ويُريك في نفسك ما يتضاعف به أنسك، ثم يطويك عن الدنيا وآفاتِها، وينشرك للأخرة وبركاتها، ويحبب إليك خيراتها وبهجاتها.

قد أقبلت^(٣) العيد، ولبست الجديد، فهل أنت واثق بما عرج منك إلى الله الحميد المجيد؟ إن كنت واثقاً غير مغرور، وآمناً غير خائف، ومطمئناً غير مستوفز، فما أسعدك بما كان منك! وما أغبطك بما أفضيت إليه! - وإن كان الأمر على غير هذا النهج، فما أولاك بالنوح على نفسك! وما أحوجك إلى استئناف أمرك! وأغلب ظني أنك في الحالة الثانية راسخ، وللحال الأولى ناسخ. قد قيل لبعض السلف: متى يكون العيد؟ فقال: كل يوم [١٠٩ب] لا تعصي الله فهو عيد.

حبيبي! للناس عيد بالعادة في الخروج من الصوم، ومراجعة الأكل والشرب والتنعم. فإن كنت منهم، فما أخس حظك فيما كنت متقرباً به إلى ربك! وإن باينتهم، فما أفوز قدحك^(٤) فيما أنت مخصوص به عند ربك! فهات علامتك التي هي علامة القبول، وإلا فابك على ما فاتك بكاء المُعولة الثَّكول.

(١) خَلْف: ضرع الناقة. (٢) الفاقة: داهية أو مصيبة تكسر فقار الظهر من شدة هولها. الجمع: فواقر.

(٣) جعلته قَبالته، أي: استقبلته وجعلته مقبلاً لديك.

(٤) القَدْح: سهم الميسر، نصيب. وله القَدْحُ المَعْلَى: له النصيب الأوفر.

أتدري ما العلامة؟ العلامة أن ترى نفسك يوم العيد ذليلة بالشكر، لهجة بالذکر، مستبسلة بالصبر، خاضعة بالتوجه، متواضعة بالشنز، متبدلة بالتوبة، مُقلعة عن الحوبة^(١)، راغبة في ذخائر الحق [و] الصادقين من الخلق.

فإذا اشتملت على هذه الصفات، وعلى ما كان من جنسها من سائر الجهات، غشيتك الملائكة بالتحية، ومسحت ناصيتك بالبركة، وكانت شفعاءك عند الله. فعند ذلك يُلبسك^(٢) الله شعار الهدى، ويهيئك للصواب في القول والعمل والتقوى، ويبث محبتك في صدور أهل الحجا، ويبلغك الغاية القصوى، متمسكا بالعروة الوثقى.

﴿يَقَوْمٍ إِنَّمَا هَـذِهِ أَلْحَيَوَةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩]. تأمل هذا الكلام بعقلك كله، فإنه جماع كل نصيحة، ونظام كل موعظة، وباب كل نجاح، وطريق كل فلاح، ومنهج كل صلاح. فإذا تبصرت ما في ضمنه، فثب إلى المكان الذي دُعيت إليه، ولا تكسل كسل الجاهل الغوي. والسلام!

رسالة (٣٨)

اللهم إنك إن طردتنا عن بابك فبأجراننا^(٣) التي هتكنا بها ستر حُرَماتك. وإن قبلتنا على هَنَاتنا، فبكرمك الذي لم نزل نتوقعه منك. وإن لم تطردنا ولم تقبلنا، استهانة بنا وازدراء لنا، وقحنا^(٤) وجوهنا، وأطلقنا أَلْسِنَتنا، وقلنا: على من تَرَدُّدنا ونحن عبيدك؟ وإلى مَنْ تَكَلَّمنا ونحن خَلْقُك؟ تولنا كيف شئت، ساخطا وراضيا، فقد استسلمنا وسَلَّمنا. وقد علمنا، يا إلهنا! أنك لا تعاملنا بعد هذا الانقياد والاستخاء، وطرح الكاهل في الفناء [١١٠ أ] بعد الفناء، إلا [بما]^(٥) أنت أهلُه في الجود والكرم والإحسان الذي سبقت به إلينا في القَدَم. وكيف نياس من رُوحك، أو نقنط من رَحمتك، بعد ما أهَلتنا لمواجهتك،

(٢) في (ر): يلبسه.

(١) الحوبة: الإثم.

(٣) أجرام وجروم: جمع جُرم، بمعنى الذنب. (٤) وقح وجهه: صبره وقحا. والوقح: قليل الحياء.

(٥) زيادة لازمة.

وَأَذِنَتْ لَنَا فِي مَشَافَهَتِكَ، حَتَّى وَجَدْنَاكَ بِمَا عَرَفْنَاكَ، ثُمَّ سَأَلْنَاكَ عَلَى مَا وَعَدْنَاكَ. فَكُنْ لَنَا عِنْدَ هَذَا الظَّنِّ، فَإِنَّكَ عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِكَ.

يا هذا! أين الحياءُ من الله الذي أنعم عليك بدءًا وَعَوْدًا؟ وأين الخوف من الله الذي إن سطا أباد وأفنى؟ أَمَا تَأْخُذُ حِذْرَكَ مِمَّنْ إِنْ شَاءَ سَلَطَكَ عَلَيْكَ، فَهَتَكَ^(١) عَضُوءًا عَضُوءًا، وَبَدَّدَكَ شِلْوًا شِلْوًا^(٢)، وجعلك عِبْرَةً لِّكُلِّ نَازِرٍ بَعِينٍ، وَمِثْلًا لِّكُلِّ سَامِعٍ بِأُذُنٍ. اتَّقِ اللَّهَ تَجِدْ ثَمَرَتَهُ حُلُوءَةً، وَعَاقِبَتَهُ مَحْمُودَةً، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَتَّقْهُ اتَّقَاهُ غَيْرُكَ بِمَا تَرَاهُ مِنْ إِنْزَالٍ بِأَسْهَبِكَ، وَأَخَذَتَهُ لَكَ. ثُمَّ تَغْتَرُّ بِمَا لَكَ: فَلَوْ شَاءَ لَأَفْقَرَكُ قَبْلَ الْمَسَاءِ، وَأُحَوِّجُكَ إِلَى أَقْلِ الْخَلْقِ؛ أَوْ بِقُوَّتِكَ: فَلَوْ شَاءَ لَأَعْجَزَكَ عَنْ أَصْغَرِ الْبَقِّ^(٣). إِنَّكَ غَيْرُ مُبْقٍ عَلَى نَفْسِكَ، وَلَا وَاصِفٍ لِمَا بِكَ لَطِيبٍ يَجُودُ بِدَوَائِهِ عَلَيْكَ.

أيها الباحث عن غيب هذه الشهادة، بلسان التُّسْكِ والزَّهَادَةِ، تَلَقَّ مَحَبَّتَهُ لَكَ بِرَوْحِكَ، وَانْعَمْ بِنَسِيمِ وُدِّهِ تَجِدْ رَاحَتَكَ؛ وَأَنْفِ عَنِ هِمَّتِكَ كُلِّ مَا نَفَاكَ عَنْ حِظِّكَ؛ وَاخْطُطْ عَلَى قَلْبِكَ بِقَلَمِ الْعِلْمِ حَقَائِقَ الْحُبِّ بِعِلَاقِ الْوُجُدِ، مَتَبَرِّئًا مِنْ كُلِّ مَا رَاقَ الْعَيْنَ، وَاسْتَرْقِ السَّمْعَ، وَاسْتَعَارِ الْمَشَاعِرَ، وَحَالَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ السَّرَائِرِ، فَإِنَّكَ مَتَى رَأَيْتَ هَذِهِ الرَّبَاعَ الْخَصْبَةَ، وَوَرَدْتَ هَذِهِ الْمَنَاهِلَ الْعَذْبَةَ، وَتَعَطَّرْتَ بِهَذَا الْجَوْ النَّدِيَّ وَالْهَوَاءَ الرَّقِيقَ عَطَفْتَ عَلَيْكَ بِكَ، وَرَجَعْتَ إِلَيْكَ مِنْكَ، وَأَدْرَكَتْ مَا فَاتَكَ، وَوُلِّيتَ بِلَدَكَ، وَصِرْتَ أَذْنَا سَمِيعَةٍ، وَعَيْنًا نَازِرَةٍ، وَلِسَانًا خَطِيبًا، وَقَلْبًا وَاعِيًا، وَرُوحًا طَيِّبًا، وَشَاهِدًا مَقْبُولًا، وَغَائِبًا مُنْتَظَرًا.

يا هذا! الطريق مختصر، والدليل واضح، والشوق متوقد، والسَّرَارُ^(٤) مرفوع، والثقال مجموع، والشمل منتظم، والحبل ملتئم. وَلَكِنْ يَبْقَى أَنْ تَحْبِبَ إِلَى مَا لَكَ بِمَا فِيكَ، وَتَعَافَ مَا يُغْوِيكَ وَيُرْذِيكَ، فَإِنَّكَ مَتَى تَبَوَّاتَ هَذَا الْمَكَانَ، وَتَرَبَّعْتَ فِي هَذِهِ الْمَغَانِي، تَرَنَّمْتَ وَاجِدًا بِقَوْلِكَ: [١١٠ ب]

(١) الهتك: الكسر والتمزيق. (٢) الشلو: العضو من أعضاء الجسم.

(٣) حشرة صغيرة مسطحة من فصيلة البقبات، من رتبة نصفيات الأجنحة، قانية اللون، تمتص دم الإنسان وتلدغ، لها رائحة كريهة.

(٤) السَّرَار: جمع سرارة. سرارة من الشيء: أطيبه.

مكانك من قلبي هو القلب كله فليس لشيء فيه غيرك موضع
وذكرك روعي بين جلدي وأعظمي فكيف تراني إن نسيتك - أصنع!
إذا كدت أخفي ما أجن من الهوى تكلم من سرى بجفني أذم ع

دعني أيضًا من هذا، فقد والله بالغت في الأذى. أما تعلم أن الزرداب^(١) في السرداب، والخناجر في الحناجر، والسرداب^(٢) في الفؤاد، والمكاوي على المطاوي^(٣)، والمناشر على المباشر^(٤)، والمعالق^(٥) على المخانق، والعلاقم^(٦) في الحلاقم^(٧)، والمناصل في المفاصل، والفواتل^(٨) على المقاتل، والمشاقص^(٩) على الفرائص، والأوتاد على الأكباد، والتبار^(١٠) في العار، والنُدوب في القلوب؟ إن كنت لا تعلم، فتعلم، وإن كنت تعلم فتكلم، وإن كنت لا تتكلم فاستسل. طاش - والله - الحلم عندما لاح من أسرار هذا العلم، حتى لو قبل الدعاء بالرد، وعومل المواصل بالصد، وتعدى في جميع الأحوال كل حد، لكان العذر بيّنًا، والعذر هينًا، والشنان مُحْتَمَلًا، والقَرْح مندملاً.

يا هذا! لا تذكره ناسيًا، ولا تنسه ذاكرًا. فإنك إن ذكرته ناسيًا حجبك بك، وإن نسيتَه ذاكرًا عَجَبك منك. بل اذكره ذاكرًا، ولن تذكره هذا الذكر حتى تنساك^(١١) في ذكرك، وتفقدك في أمرك، فحينئذ يستولى عليك مذکورًا قبل ذكرك له بذكره لك. على أن هذا الذكر توسّل واستعطاف، والمرء من ورائه ووراء ما وراءه. وليس هناك ذكر، لأنه ليس هناك نسيان، إنما هو اتصال ومواصلة، ووصال ووُصلة، وحديث يأتي على كل حديث، وأمر يجل عن كل أمر، وشأن يعزب عن كل ذي شأن. وكيف لا يكون كذلك وفوق ذلك بما لا منتهى لذلك، والربوبية تسري أنوارها، والبشرية تضيق أقطارها، والنفس تبدو

(١) الزرداب: ما انحدر من السيل، وزرد به: خنقه أو دحرجه. ولعله يعني أن الخنق يتم في الزرداب.

(٢) السرداب: المثقب، وما يُخَرَّز به. (٣) المطاوي: أي طيات الأعماء والبطن.

(٤) مصدر ميمي بمعنى البشرات. (٥) الأشياء التي يُعلَق منها المخنوق.

(٦) مصدر ميمي من علّم الشيء: كان مرًا. (٧) جمع حلقوم.

(٨) بمعنى الجبال المقتولة. (٩) جمع مشقص، من النّصال: الطويل العريض.

(١٠) التبار: الهلاك والعار. (١١) أي تنسى نفسك.

أخبارها، والغاية يُعَرَفُ إضمارها، والحال يَبْرُزُ عَوَارُها! فمن ذا الذي يرى بَصْرُهُ هذا التلاميذ^(١) فلا يَغْشَى؟ ومن ذا الذي يجد هذه الروائح فلا يَنْشَى^(٢)؟ ومن ذا الذي تكتنفه هذه الأعاجيب فلا يلتاع؟ ومن ذا الذي تتردد على سمعه هذه الأحاديث فلا يرتاع؟: [١١١] ومن ذا الذي يُسْقَى من هذا الشراب فلا يَسْكُر؟ ومن ذا الذي يُحَدِّق طَرْفُهُ إلى هذه المناظر فلا يَسْدِر^(٣)؟ ومن ذا الذي يشهد هذه الصورة فلا يَعْشَقُ؟ ومن ذا الذي يُحْرَم التلذذ بها فلا يَقْلُقُ؟ ومن ذا الذي يُؤْهَل لهذه الحال فلا يبتهج؟ ومن ذا الذي يُزْحِزُ عنها فلا يَنْتَشِج^(٤)؟

واشوقاً إلى قوم تَلَهَّبَتْ أكيادهم شوقاً إلى الله! واشوقاً إلى قوم فارقتهم أرواحهم وَجَدًا بالله! واشوقاً إلى قوم تبلغوا بِالْحَبْوِ والزحف إلى الله! واشوقاً إلى قوم امتلأت قلوبهم بمعرفة الله! واشوقاً إلى قوم طلبوا الراحة بالتعب حُبًّا لله! واشوقاً إلى قوم طَلَّقُوا الدنيا وزَهْرَتِها غَنًى بالله! واشوقاً إلى قوم باينوا الكون وما فيه استقلالاً بالله! واشوقاً إلى قوم صافحت أرواحهم يدُ الله! واشوقاً إلى قوم سبقت لهم الحُسنى من الله! واشوقاً إلى قوم ضاقت عليهم الأرض بما رَحَّبَتْ نِزَاعًا إلى الله! واشوقاً إلى قوم راحوا إلى مصدوقة ليس فيها غير الله! واشوقاً إلى قوم قالوا لله، وسكتوا لله، وتحركوا إلى الله، وسكنوا مع الله!

آه! ماذا ينفعني شوقي إليهم إذا لم أكن منهم؟ وماذا يجدي على نزاعي نحوهم إذا لم أُعْرِفَ بينهم؟ وماذا حاصل لي مِنْ ذكْرهم إذا كنت مجهولاً عندهم؟ وماذا يُغْنِي عني انتسابي إليهم إذا كنت منفيًا عنهم؟ وماذا يبقى معي من تعزُّري بهم إذا كنت ذليلاً فيهم؟ فما حيلة من إن اشتاق بِحُسْن ظَنِّه عاقه سوءُ فِعْله، وإن حَنَّ بفِرط صبابته تقاعس بسالف جنائته، وإن قال كان عِيْه في بلاغته، وإن جَرَعَ^(٥) كان شَرَقُه^(٦) في إساغته، فليس يصفو له حالٌ إلَّا تكدر، ولا يتسهل عليه مُراد إلَّا تعسَّر ولا يصح أمانه لا في سَفَر ولا حَضَر.

(١) التلاميذ: من تلمع البرق وغيره: أعضاء.

(٢) ينشئ: يجد نشوته.

(٣) يسدر: يتحير.

(٤) نشج الباكي: غص بالبكاء من غير انتخاب.

(٥) جَرَعَ الماء و الدواء: بَلَّعه.

(٦) شَرِقَ بالماء بالماء شَرَقًا: غَصَّ به.

يا هذا! إن الذي صَمَدُكَ إلهه، وَلَهْكَ فيه، وإيماؤك نحوه، وإعجابك منه: حاضره غائب، وغائبه حاضر، وحاصله مفقود، ومفقوده حاصل، والاسم فيه مُسَمًّى، والمُسَمًّى فيه اسم، والتصريح به تعريض، والتعريض له تصريح، والإشارة نحوه حجاب، والحجاب نحوه إشارة. وهذه قصة لا تعرف إلا به، وحال لا تُعزَى إلا إليه، وشأن لا يوجد إلا له. وإنه بائن من الأشياء بما هو به هو، وبانت الأشياء عنه بما لا يكون به، فائتلفت الأسماء والمعاني حسب ما وجدت [١١١ ب] أنصباؤها منه، واختلفت أيضاً حسب ما فاتها مما كانت تكمل به. فوقفت الأشياء كلها بين الاختلاف والائتلاف، وجلّ هو عنها بما ليس فيها اختلاف وائتلاف. فلهذا وشبهه فُقدت الأشباه والأضداد في تلك الساحة لعلّوه منها، وغناه عنها، ووُجدت ها هنا لحاجة بعضِها إلى بعضِها؛ وتلك الحاجة هي السَّمة الواضحة، والعلامة البائحة^(١) بأن الذي أحوجها هو الذي غني عنها، وأن الذي غني [عنها]^(٢) هو الذي برئ منها، والذي برئ منها هو الذي قَدَر عليها وصرّفها، وأجرها ووقفها، وأسمائها ووصفها، وعرفها وعرفها، ووضعها وشرّفها، وأهلها وكلفها. وسَوّاها وحرّفها، وبددّها وألفّها، وثقلها وخففها، وكثّفها ولطّفها، وأبرزها وكثّفها^(٣)، وأقامها وعظفها^(٤). أفيكون هذا النعت، إلا لمالكِ الوقت الذي جلّ أن يكون له فوق أو تحت؟

أفما ينبغي لك، إذا عرفت هذا السيد، أن تبغي ما يصلك به أو ما يوصلك إليه لتكون عزيزاً به، مَرْضِيّاً عنده، مأموناً على سرّه، مجاباً إذا لَبِيتَ، مقبولاً إذا شَهِدْتَ، محفوظاً إذا غَبْتَ، مرعياً بعينه كيفما حالت بك الحال، وآل بك المآل؟ بل إذا أَنْفَتَ^(٥) على هذه الذورة الإلهية، وأشرفت على هذه الروضة القدسية، فلا يحول بك حالٌ عن حال، ولا يكون لك حال؛ وإنما الحال عبارة عن معهود غير مشهود، وهناك إذا صِرْتَ إليه مشهودٌ غير معهود، إلا أنك تستعير ها هنا أسماءك التي هي حَدُّكَ، فتستعير بها أعراضاً ترتفع عن حَدِّكَ. ولولا التشابه بين المَصْدَر والمُورِد، وبين

(١) البائحة: الظاهرة.

(٢) زيادة ضرورية.

(٣) كثّفها: أحاطه وصانه وحفظه.

(٤) عظفها: أمالها.

(٥) أناف على الشيء إنافاً: أشرف وطال وارتفع.

المَشْهَد والمَعْهَد، وبين المَرْصَد والمَقْصَد، لكانت العلائق تنقطع، والحقائق ترتفع. وهذا يُبين الحكمة الماثورة في عالمك، ويخالف القدرة الموجودة لعينك وقلبك. وبهذا وأمثاله قَوِيَّ رجاء العالمين، واشتد شوقُ العابدين، واستولى الحنين على العارفين، وانقاد عنان المشتاقين، واستخذى^(١) أهل^(٢) السموات والأرضين، وإلى هنا انتهى قول القائلين، وعنده وقف علمُ العالمين، وعليه طافت أرواحُ الواهليين^(٣)، وإليه انتهى سَعْيُ الخلقِ أجمعين.

أيها السامع! هذا شَرِبٌ قليل الوراد، ورَبْعٌ عديم السكان، لأنه توحيد بَحْت، وتجريد مَحْض، وهو العطاء الذي [١١٢ أ] لا يُؤْهَل [له]^(٤) إلا من ارتضاه الله من عباده، وجعله عِلْمًا في بلاده. فَإِنْ صَحَّ لك عَزْم، وحضرَك حَزْم، ولاح لك نور، وانجاب عنك غرور، وشاع فيك حبور وسرور، فَجَدَّ في هذه المناهج سالكا إلى تلك الغايات التي قد شُوِّقَتْ إليها بكل ما أدركه طَرْفُك وسمعتُهُ أُذُنُك، وحواه قلبك، وبالجملَة بكل مشاعرك التي هي شعائر الله عندك، وآثاره قبلك، وروائده إليك، وهوائفه بك، وطوالعه عليك، وتوابعه منك، فإنك متى جعلت التروُّح بهذه الأحاديث الغريبة دَيْدَنَكَ، فَعَمَّا قليل تصير ممن إذا قال باح، وإذا سمع ارتاح، وإذا فكر طاح، وإذا اعتزم ساح، وإذا عَبَق فاح؛ بل تصير ممن إذا هَمَّ مَلَك، وإذا تمنى أدرك، وإذا رَنَّا لَحَظَ، وإذا وجد حفظ، وإذا تحرك حَنَّ، وإذا سكن اطمأن، وإذا اقترح نال، وإذا سئَل أنال؛ ربوبيته غلبت على البشرية، وبشريته بادت في الربوبية. ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

فاتحة مقاصد القوم أن يقال: الحق خفيٌّ لكنه جلي، وجليٌّ لكنه خفي، والجلاء والخفاء اسمان شاعا به، لا حكمان جريا عليه، وحيلتانظهرتا منه، لا معنيان حلا فيه. إن أردت النجاة فاعبده، وإن أردت الاتصال به فاقصده، وإن أحببت أن تجده فاعرفه، وإن تمنيت أن تعرفه فجدّه.

(٢) أهل: مكررة في (ر).

(٤) زيادة ضرورية.

(١) استخذى استخذاءً: خَضَعَ.

(٣) وَهَلَ: فَزَعَ.

يا هذا، لَطْفُ الحق يحول بينك وبين الإعراض عنه، وعُتْفُ الخلق يحثك على الاعتراض عليه. الحق وَشِي، والخلق حَشُو، والوهم نَفِي، والوصف لغو. الحق أقرب من أن يُشار إليه، وأبعد من أن يُطَّلَعَ عليه، لأن قُرْبَهُ ليس بتدانٍ، وبُعْدَهُ ليس بتناء. مواهب الحق متصلة، وأسباب الخلق منفصلة، وليس هذا الترتيب عبارة عن محلين، ولكنه إشارة إلى عَيْنٍ من غير كيف ولا أين، ولا تمويه ولا مَيِّن^(١): عين هي ينبوع العيون، وحقيقة ما كان ويكون، على اختلاف القلق والسكون.

يا هذا! الكل بادٍ منه، وقائم به، وموجودٌ له، وصائرٌ إليه.

اللهم إِنَّا رَضِينَا فِي الْأَوَّلِ عَنْ أَنْفُسِنَا عَلَى مَذْهَبِ الْمُغْتَرِّينَ، وَسَخَطْنَا فِي الثَّانِي عَلَيْهَا عَلَى طَرِيقَةِ الْمُسْتَبْصِرِينَ، فَقَابَلْنَا عَلَى ذَلِكَ بِمَا يَحْفَظُنَا لَكَ، وَيُحَظِّنَا لَدَيْكَ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ!

رسالة (٣٩)

[١١٢ب] اللهم إِنْ سَأَلْنَا إِلَيْكَ وَذَرَّائِعَنَا لَدَيْكَ: إِخْلَاصُ معرفتك، وحسن الثقة بك، وفَرْطُ الاستسلام لك، وجميلُ الثناء عليك، ولطيفُ النَّجْوَى معك، وشريفُ العبارة عليك، وغريبُ الإشارة نحوك. فنسألك - بفضلك وجُودك وكرمك ومجدك - أَنْ لَا تَرَدَّ سَائِلُنَا، وَلَا تُهَيِّنْ ذَرَائِعَنَا، فَإِنَّهَا صَدَرَتْ مِنْ قُلُوبٍ مَحْشُوءَةٍ بِمَحَبَّتِكَ، وَنَبَتَتْ فِي صُدُورٍ مَمْتَلئةٍ بِرِعَايَتِكَ، وَهِيَ الَّتِي تَسْتَحِقُّهَا بِأَلُوهِتِكَ، وَتَجِدُ السَّبِيلَ إِلَيْنَا بِعِبُودِيَّتِنَا لَكَ، وَأَنْتَ أَكْرَمُ مَنْ أَنْ تَنْبَذَهَا فِي وَجْهِهَا، وَلَا تَقْبَلَهَا بِحَسَنِ رِعَايَتِكَ لَنَا مِنْهَا.

يا هذا! جَدَّدْ نظرك في أمرك، وجَوِّدْ فكرك في شأنك، فقد علَتْ السَّنُّ، وَرَكَتِ الْكِبَرَةُ^(٢)، وصرت تتحرك بأنين، وتسهر برنين، وتتذكر زمانك الأول بحنين، فالجد قد وقع في التحرك عن هذا المحل الذي طال فيه كَدُّكَ، واتصل شقاؤك، وتغير بك حالٌ

(٢) رَكَتْ: ضعفت. الْكِبَرَةُ: كبر السن.

(١) المين: الكذب.

بعد حال؛ والربح معك في هذا التحول، لأن معك توحيداً تضيق عنه الأرض والسماء، ومعرفة تطابقه في ضروب الشدة والرخاء، وتوكلًا يتلقاك بالكفاية، وإشارةً تهدي إليك العناية، وإيماناً هو قرّة كل عين، وإيقاناً يزيد على كل زين^(١)، وطمأنينة هي^(٢) كنز، وخوفاً هو حرز، ورجاءً هو فوز. فلا يَحْرَجَنَّ صَدْرُكَ بهناة كانت منك في عَرْضِها، فإن تلك لا تطمسُ المعالم، ولا ترفع الأصول، ولا تعمل في القواعد، ولا تأتي على الأسس. وأي موقع لقطرات شيء كربه في بحر لُجِّي يغشاه مَوْجٌ من فوقه موج؟ مَنْ مِثْلُكَ - ونفسُك بريئة من الشرك، وقلبك نقي من الكذب، ولسانك بليلاً بالذكر، ورؤحك غائص في الفكر! أنت والله المحسود المغبوط، بل أنت المحفوظ المحوط. ستبلغ إلى حضرة رَبِّكَ فتصادف رَوْحاً ورِيحاناً، وسكوناً واطمئناناً، وتلقى هناك أولياءه مقدسين مُقَرَّبِينَ، يتقبلون في النعيم المقيم، فتحدثهم مستأنساً بهم، وتذكر نعمة الله عليك وعليهم، وتسمع من قولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، وتصف ما كنت فيه ها هنا من أصناف الأذى، وتشكر الله على نجاتك منها وانسلالك عنها وما عاضك^(٣) عنده من الرضا والقبول اللذين هما فوق الذهب الأحمر والورق الأبيض والسلوك الرقيق والتطعم اللذيذ. وليس هذا ببعيد. وإنما بينك وبينه نومة، ثم انتباهة، [١١٣ أ] ثم التَّبَوُّء من الجنة حيث تشاء، آمِنَ السَّرْبِ، طيب الشُّرْبِ، رخي البال، رفيع الناظر، مُحَيًّا بتحية الأئمة^(٤)، مُتَلَقِّ بالسلم والسكينة، في حياة موصولة بحياة، ونعمة موقوفة على نعمة، وكرامة متبوعة بكرامة، وسلامة مشفوعة بسلامة.

يا هذا! قابل تشويقي لك بالشوق منك، وواصل اذكاري لك بالتذكر، واقبل نصيحتي بالشكر، فإن راحَ القلوب وهزّة الأرواح وطمأنينة النفوس في قبول النصائح ورفض القبائح. وصل قبولك مني ما تسمعه بالزيادة في الركوع والسجود، وبالثبات على معرفة المعبود المقصود، وبالكَدْح في كَسْب ما يرضيه من العبيد، واثقاً منه بحسن النظر فيما ساء

(١) الزَّيْن: كل ما يَزِين، الحَسَنُ.

(٢) في (ر): هو.

(٤) جمع أمين.

(٣) عاضك: عوضك.

وسرّ، أو نفع وضرر، أو أحلا وأمرّ. إن مَضُغَ الحَنْظَلِ الحَوْلِيَّ على بَسَالَتِهِ^(١) ومرارته قليلٌ في طلب الدار العلوية، والنوم على المزابل ومجاورة الكلاب سهلٌ مع المصير إلى حيث لا مَرَضٌ ولا عَرَضٌ، ولا آفة ولا عاهة، بل الانتحار وفَتْ الكبد وزَهَقَ الروح هَيِّنٌ إذا كان ذلك طريقاً إلى رضا الله الذي هو مالك الأولين والآخرين، ومُدَبِّرُ الخلائق أجمعين.

يا هذا! تَقَلَّبَ متنعمًا في هذه الرياض التي قد ازدهرت بالعلم الحق، والحكمة البالغة، والنصح الحاضر، والإرشاد الحسن، والموعظة الحلوة، والدعوة الجامعة. وخذ نصيبك من ناضرها في المنظر، وطيبها في الرائحة، وحُلُوها في المذاق، فإن ذلك عليك عائد بالجدوى، ومُخَفَّفٌ عنك ما تجده من ثَقُلِ البَلْوَى، ومُقَرَّبٌ لك إلى فناء باب المولى.

لعلك تشكو قلبك، وتجد التواءه عليك، وتراه مخالفاً لك. فلا عجب! ولكن داره، فإنَّ قلبك أنت، وأنت قلبك، وقد رأيت غيرك يضج من قلبه ويشكو ما يناله من كَرْبه، حتى قال في وصفه متضجراً بفعله:

قلبي إلى ما ضرّني دَاعي يُكْثِرُ أحزاني وأوجاعي^(٢)
كيف احتراسي من عـدوّي إذا كان عدوي بين أضلاعي؟!
وقال آخر قد زاد على الأول:

هذا فـؤادي وطـرفـي قد سبّأ لي حـتـفـي
[١٣ب] فكيف أحذر يا قـو مـن فـؤادي وطـرفـي!

صَدَقَ الرجلان: فالأول وجد عدوه في نفسه فاستصعب الخلاص منه، ولعمري هو صعب! وأما الثاني فجمع بين فؤاده وعينه، واستغاث منهما، وذكر أنهما قد أضافاه إلى حَتْفِهِ، وهذا كله للفسولة^(٣) والخَوَرُ^(٤)، والركاكة والكسل. وإلا لو صدقت النية وَجَدَتْ المِرَّةَ^(٥) وخلصت العزيمة، لكان قهر القلب إذا عتا سهلاً، وغَضُّ العين إذا طَغَتْ قريباً.

(٢) البيتان للعباس بن الأحنف. انظر الأغاني ج٨.

(١) بَسَالَتُهُ: مرارته.

(٤) الخور: الضعف، التلاشي، الانكسار.

(٣) الفسولة: قلة المروءة وضعف الرأي.

(٥) المِرَّة: القوة.

ولكن النِّيات مدخولة^(١)، والعزائم ضعيفة، والتمني غالب، والنفس مسوّلة، والطباع خوّارة. وفي الجملة توفيق الله غير مُستبدّع، وتأَييده غير مُشتمَل، فكيف يكون حال من هو موكولٌ إلى حوِّله الضعيف، ورأيه السخيف!

هذا والعادة على نعتها جارية، والقرناء على غشهم مأروُن، فلا ترى عينٌ للخير مَجَلِّسًا، ولا للتناصح مَشْهَدًا، ولا للتعاون على البرِّ والتقوى مجمعًا، حتى كأن الشريعة ما وردت بمرآشدهم، والسياسة ما قامت بمصالحهم. حتى كأنهم إنما فضّلوا على البهائم بالعقل، لا للعاقبة التي لا بد من الصبرورة إليها، [بل]^(٢) لتعجل اللذات في هذه الدار الزائلة الفانية التي ما حمدها أحدٌ: لا مَنْ طَلَبَهَا فلم يجدها، ولا مَنْ وَجَدَهَا، ولا مَنْ زهد فيها بغير خبرته لها، ولا مَنْ بلغ غاية مراده منها. فقد رأينا هذه الضروب، فكلهم ذمُّوها وكرهوها، واقشعروا من دواهيها، وأنّوا من فجائعها، وراحوا إلى الله بوجوه باسرة، وظهور ثقيلة، وأكفٌ خالية، وآمال خائبة، وظنون كاذبة، وشقاوة غالبية.

وليس عجبي من هذه الحال بعد المعرفة بأمرها والخبرة بشأنها، ولكن عجبي من تهافت المتهافتين فيها، وتهالك المتهالكين عليها، وتسرع المتسرعين إليها، وانخداعهم بأحمرها وأصفرها منها، وظنهم أنّ من فاز بالدنيا فهو الغانم، ومن فاتته فهو الشقيُّ، وليس ينقضي هذا العجب ولا ينتهي إلى آخر، والله المستعان!

يا عاشق الدنيا بَجَلْ^(٣) لا تجهلن فيمن جَهْلُ
فكل ما أحيّا قَتَلْ

يا جامع المال! قارب وانظر، هل جَمَعَ غَيْرُكَ جَمْعَكَ وبلغ إرادتك، فماذا كان آخره؟
[١١٤ أ] يا مشتهرًا باللّهو واللعب! قد أفنيت قَشِيْبَكَ^(٤) في ذلك، فما حاصلك؟! يا ساعيًا في الشر والفساد، اجعل لنفسك غاية تقف عندها. يا شاكيًا لربه^(٥) إلى خلقه بقوله: «رزقي

(١) المدخول: مَنْ طرأ على عقله دخلٌ (وهو ما يدخل الإنسان من فساد في العقل أو في الجسم؛ أو المكر والخديعة)؛ المهزول؛ العيب.

(٢) زيادة ضرورية. (٣) بَجَلْ (كَنَعَمْ) أي: حَسْبُكَ حيث انتهيت.

(٤) القشيب: الجديد، يعني عهد الشباب، ولعل اللفظة: شببيتك.

(٥) كذا، ولعل الأصح ربه.

قليل، وحظي نذير^(١)، وحالي قاصرة، وحاجتي متصلة»، لا تفعل، واستيقن أنه ناظرٌ لك في حالتي عُسرِكَ ويُسرِكَ، وأنه أعلم بتدبيرك وأحفظ لمصلحتك. لا تتهمه في قضائه، ولا تنقبض من تدبيره. فما زَوَى عنك ما تريده بخلاً عليك، ولكن لأمر جليله دقيق عندك، ودقيقه جليل^(٢) في نفسك. ولن تعرف حقيقة ما تسمعه مني إلا بأن تتحقق أنك عبد. فإذا تحققت أنك عبد، تحققت أنه مولى. وإذا تحققت أنه مولى، تحققت أنه ليس بين المولى والعبد حَقْد ولا تَرَّة^(٣) ولا طائلة. فَإِنْ دَبَّرَكَ بما يلائم طباعك ويوافق هواك فذاك، وإن دَبَّرَكَ بغيره فذاك. أنت عبد ومُسْتَعْدَم ومُدَبِّر، ولمولاك فيك مُرَاد، وذلك المراد غيب، وليس لك أَنْ تَدُقَّ بَابَ الغيب، وتستشف ما وراء الحجاب، وتدنو إلى مَحَلٍّ لم تؤهل له، ولم يُؤْذَنَ لك في الوصول إليه. فهل تَبَقَّى بعد هذا كله مع هذا الجُمُوح والطُمَاح^(٤)، والغِيظ والكَمد، والتطويل والتهويل، إلا ما تسلم به عاجلاً وآجلاً: عاجلاً من بلاء يَهْتُكُ^(٥) به، ويجعلك مشاراً إليه بين خلقه، وآجلاً: بغضبه وإيعاده^(٦) وسُخْطه وعذابه؟ إنك إن لم تسدد الفكر في هذا وشبهه، شِمْتَ بك من هو دونك.

يا هذا! عُدْ بنا إلى ذِكْرِ قوم قطعوا أيام حياتهم بالصبر المُرَّ، وتجرعوا مرارتها بشدة الشكائم وقوة الصرائم، وطووا ما انتشر منها بالثقة الموقنة، والطمأنينة التامة، وطلب الزُّلْفَةِ عند من له السلطان والعظمة والقدرة والعزة، ورأوا أن ما بذلوه من أنفسهم دون ما أحرزوه^(٧) لأنفسهم، وما جرَّوه إلى أنفسهم فوق ما أطلقوه من أنفسهم، وأنهم بصبر أيام قصيرة أدركوا ما أَمَلُّوه، وبتحمل أذى مُنْقَص نالوا ما تمنوا. فتعال حتى نلبس شعارهم، ونَلَزِمَ هَدْيِهِمْ، ونتوخي وحيهم، ونقتفي إِثْرَهُمْ، ونأخذ عِنايتهم، ونرضى بما رضوا، ونحيا كما حيوا، ونهوى ما هَوُوا، ونرمي إلى غرضهم فإنه منصوب، وندين بدينهم فإنه محسوب. وإذا كان الطريق نَهْجًا، والساكون فَوْجًا، والعمل خفيفًا، [١١٤ب]

(٣) ترة: ثأر.

(٢) في (ر): جليله.

(١) نذير: قليل تافه.

(٤) الجُمُوح: جَمَعَ الرجل: ركب هواه فلا يمكن رده. والطُمَاح: الكبر والفخر. والطُمَاح مصدر طَمَحَ: التطلع إلى هدف بعيد.

(٧) في (ر): أحرزه.

(٦) أوعده إيعادًا: تهدده.

(٥) هَتَّ العِرْض: مَرَّقه.

والزمان قصيرًا، والغُرم قليلًا، والغُنى كثيرًا، والمعونة حاضرة، والنية طاهرة، والرزاد موجودًا، والمنهل آهلاً، والمسلك آمنًا، والسماء مُصْحية، والليل مُقَمِّرًا، والنجوم زاهرة، والشُّرى متصلة، والصباح محمودًا، والبلاغ قريبًا، فما الذي يقعد بالمسافر عن قطع المرحلة وطي السهولة إلا سوء الاختيار وقلة النظر لنفسه في الإيراد والإصدار؟! والله ما هو إلا إغفاءة عن هذه الدنيا الجافية الغليظة القاسية الغادرة الفانية الفاجئة النكدة، ثم المُتَقَلَّبُ إلى الله الكريم، وجناته المحفوفة بالنعيم، وُحُبة ملائكته المقربين. فَلِمَ هذا كله، وعلَام هذا كله؟!

من غَصَّ دَاوَى بِشُرْبِ الْمَاءِ غُصَّتَهُ فكيف يصنع من قد غَصَّ بالماء؟! (١)

اللهم إِنَّا نرى الطريق سهلًا قريبًا إذا نظرنا إلى تفضُّلك علينا وإمدادك لنا ورأفتك بنا، ونراه عسيرًا بعيدًا إذا فَكَّرْنَا في إصرارنا على مخالفتك، وقلة انقيادنا في طاعتك، ودوام عكوفنا على سخطك، وسوء نظرنا فيما بيننا وبينك؛ فنحن بين النظرين على ترجح وترنُّح، لا استقرار لنا ولا ثبات ولا زاد. إِلَّا تَثَبَّيت بإحسانك في الثاني كما بدأت به في الأول! فَإِنَّكَ إِذَا فعلت ذلك، وَجَدْنَا ما ضَلَّ عَنَّا، وأدركنا ما فاتنا، ونعمنا وسعدنا، وَحَسَدْنَا غَيْرُنَا كما كنا نَحْسِدُ غَيْرَنَا. وما يَكْبُرُ عليك ذلك، فقد عرفت فقرنا وحاجتنا، وعجزنا وفاقتنا. وإن اختيارنا لا يعبُق بالصواب إِلَّا إذا أُرشدته، ونَظَرْنَا لأنفسنا لا يظفر بالنُّجْح إِلَّا إِذَا سَدَّدْتَهُ. فكل ذلك لا يتم إِلَّا بك، ولا ينتظم إِلَّا بمعرفتك.

يا هذا! قد صرَّفْتُ لك القول في فنون من العبارة على ضروب من الإشارة، جذبًا لَصَبْعِكَ (٢) إلى المحل الأعلى، ورفعًا لَطَرْفِكَ إلى الحد الأقصى، ورفعًا بك في كل ما تَفَرَّقُ منه وتَخْشى، وتقديماً للحزم في أمرك بإرشادك وتنبيهك. فكنْ مُعِينِي على نفسك

(١) شبيه هذا بقول:

وكيف نُجِيزُ غُصَّتَنَا بِمَاءٍ ونحن نَعَصُّ بالماءِ الشُّرُوبِ

ومنه أيضًا في الأمثال: «لو يغير الماء غصصت».

(٢) الصَّبْعُ: ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلاها.

كما كُنْتُ معيَّنًا لك في اجتلاب أنسك. وعلى أي حال كُنْتُ، فلا تَثْبُ على محارم الله متهتكًا، ولا تَقْسُ على عباد الله محتكمًا، ولا تَيأس من حظك من الله معترمًا، ولا تنس ذكر الله متهاونًا، [١١٥ أ] ولا تبحث عن مكنون غيبه مُقَدِّمًا، ولا ترتكب مخالفته مجاهدًا، ولا تترك التوبة في كل حال مستظهرًا، ولا تَسْلُ غيرك مستخبرًا. فَإِنَّكَ أَعْلَمُ بدخْلِكَ، وصَالِحِكَ وطالِحِكَ، وفائدتك وغائلتك، وعائدتك وعاديتك. ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤]. وصادقٌ من يدعوك من الدنيا إلى الآخرة، ومن الخلق إلى الله، ومن الشهوة إلى العفة، ومن الكسل إلى النشاط، ومن الغفلة إلى اليقظة، ومن الإهمال إلى الحزم، ومن السُّكْرِ إلى الصحو، ومن الخُرْق^(١) إلى الرِّفْق، ومن الهوى إلى العقل، فإن أكثر الناس نجوا بقرنائهم، كما أن أكثرهم هلكوا بقرنائهم، للتدبير الواقع بينهم، والتناصح المرفوع عنهم، والتكالف^(٢) الذي يصطلحون عليه في كل حال، لا جَرَمَ يتورطون في عواقبهم ويتمنون الرجعة إلى أحوالهم، فيكون ذلك كله غرورًا منهم، وجهلاً بهم، ونعوذ بالله من الشقاء إذا أَظْلَ، والحين إذا أَقْبَلَ، والعُسْر إذا استمر، ومن البلاء إذا استقر.

فالله الله في نفسك الضعيفة، لا توردها إلا بعد الثقة بصدرها، ولا تُصدِرْها إلا بعد الأمن من ورودها.

يا هذا! هذا كله هيئمة^(٣) لقوم قد فقد سوادهم في عصرك من بين من ترى. كانوا يديرونها بينهم كصحيفة منشورة: ينظرون فيها، ويتعرفون ما في حواشيها. فإذا رأوا حَسَنَةً سُرُّوا بها غير بطرين، وإذا رأوا سيئة نَدِمُوا عليها مستغفرين، ولم يعودوا إليها مجتهدين. فاليوم قد نُسِيتَ هذه الهيئمة وأُخِذَ فيما لا عائدة له ألبتة: مِنْ شَتَمَ عَرَضَ وَذَكَرَ شَعْرَ وَحَسَدَ صَاحِبٍ، وَفَرَحَ بِأَرْجَافٍ، وَإِظْهَارَ لِسَخَطٍ، وَتَطَاوَلَ بِكِبَرٍ، وَتَبَسَّطَ فِي نُكْرٍ، وَتَقَبَّضَ عَنْ عُرْفٍ^(٤). لا جَرَمَ إذا رأيت ذا دين وعقل، رأيته شاحب الوجه، خفيض الصوت،

(١) الخُرْق: الجهل، الحمق. وعن قيس بن حازم قال: كان يُقال: «الرُّفْقُ يُمْنٌ، والخُرْقُ شُوْمٌ».

(٢) تكلف بعضهم أمور بعض. ووردت في (د): «التكاذب» ولعلها: «والتكاتف».

(٣) الهيئمة: الصوت الخفي. (٤) عُرْف، أي: معروف.

ضئيل الجسم، قليل الحد، قليل النشاط، شديد التبرم بالحياة، كثير الحنين إلى الوفاة. يتكلف إذا تكلم، ويتحمل إذا نهض، ويتباعد إذا أدنى، ويغتم إذا أقصي. قد يئس من الحياة وطيبها، ورفع الطمع عن عود الشريعة إلى مائها الحلو المذاق، وإلى زيتها الأولى، وإلى عهدها الأول. فهذا وما أشبهه قد بهته وكربه وحال بينه وبينه، [١٥ب] فهو كالغريب بين الناس: يعلم ما هم فيه، ولا يعلمون ما هو فيه، مشغول بنفسه، معتذراً إلى الله تعالى من عجزه عن إقامة مناره، وإظهار شعاره، على غاية اختياره، ونهاية اقتداره؛ للناس شان وله شان، والسلام!

رسالة (٤٠)

إلهنا^(١)! إلهنا! كيف نسهو عنك وأنت تُجَاهِنَا، وتواصلنا بالنعمة بعد النعمة، وتغمرنا بغرائب فنون المواهب والقسم، وتناغي أسرار قلوبنا بصنوف اللغات، وتشر علينا عجائب الملكوت على اللمحات، وتلاطفنا في كل حال من الحالات، بما هو أعود علينا من الحياة الموصولة بالحياة؟ نسألك بجلال وجهك، وغامض غيبك، وخفيات ملكوتك - أن توفّقنا لشكرك، وتهيئنا لقبول مزيدك، حتى إذا أحسنا بذاك من فضلك، نعمنا في توخي مرّضاتك، وغنينا به عن جميع خلقك.

إلهنا! أنت الكهف عند الشدائد، والمُنْتَهَى عند الأوابد. ذلّ لجبروتك السهل والجبل، وطاب من أجلك اللوم والعذل، وزكا بتوفيقك العلم والعمل، وانقاد لأمرك الإنس والجن، واستوى في إدراك كُنْهِك اليقين والظن. قد تعرضنا لجودك، وشمنا^(٢) بَرَقَ عطائك، ووردنا شريعة فضلك، ورفعنا قلوبنا بالإخلاص إليك، وتوكلنا في سرائنا وضرائنا عليك. فيضك نلتمس، ونورك نقتبس؛ وفي بحر أياديك ننغمس. اللهم فتمم النعمة علينا، بأن تكفيننا مؤونة خلقك التائهين عن بابك، المُصِرِّين على

(١) ورد ملخص لهذه الرسالة في ل (الورقة ٥٥ - ٨) بعنوان كسوف الضو وخلوف النور من الإشارات الإلهية.

(٢) شام الشيء: حَزَرَهُ وَقَدَّرَهُ.

مخالفتك، الجاهلين بحقك الجاحدين لنعمتك، المخدوعين بزخارف عالمك، المغرورين بخوافي استدراجك. فقد عادونا من أجلك، وحسدونا لما خصصتنا به من وحيك وتأيدك، وحاولوا بُعدنا عنك، وسعوا في إبادتنا وإبارتنا، لأننا دعوناهم إليك ورغبناهم فيما لديك، وفطمناهم عن ارتضاع الدنيا المشؤومة، وعَنَفناهم عند احتقابهم للأوزار الثقيلة. وفي الجملة، مللناهم وملُّونا، وضائق صدورنا بهم وصدورهم بنا. فكما فرَّقَت بيننا وبينهم بما وهبت لنا وحرمتهم، فرَّقَ أيضاً بيننا وبينهم حتى لا نحس بهم إذا سبعونا^(١)، ولا نحفل بقولهم إذا سبُّونا، ولا نكثر لنكايتهم إذا قصدونا ونصبوا لنا.

[١١٦ أ] أيها السامع! هذه مناجاتي لربي مع أخوات لها عندي. فإن حرك العشق الرباني، وحفز سِرِّك الشوق الإلهي، وهبَّ في فضاء صدرك النسيم القدسي، فتبَّغ إليّ واحمل ثقلك عليّ حتى تصدر غنيًّا بلا مال، وعزيرًا بلا عشير، ومستقلًّا بلا معين، وحيًّا بلا آفة، وواجدًا بلا عدم، وكافيًّا بلا فناء، وفردًا بلا رقيب، وتامًّا بلا نقص، ومسرورًا بلا هم، ومشروحًا بلا كرب، وطالعًا بلا غروب، وصاعدًا بلا نزول، ومنظومًا بلا انتشار، وملموماً بلا انتشار، ومَرَحًا بلا بطر، ومُدْرَكًا بلا عُسر، ومقبولًا بلا رد، وموصولًا بلا صد، ومُنْعَمًا عليه بلا تنغيص، ومحبوبًا بلا تنقيص.

نعم! فديتك! هذا حظك مني إن قادتك التوفيق إليّ، وأوفدك السَّعدُ عليّ. وإلا فأنت من خُشارة^(٢) هذا السواد الذي لا يبالي الله في أي واد هَلَكْتَ، وعلى أي جانب وَقَعْتَ. يا هذا! دَعْ ما وَقَرَّ في أذنك من جملة ما هَذَيْتَ به عليك، وحَصِّل الآن ما أقول: فإنه الوصف الذي شملني، والنعت الذي ملكني، واطلب نفسك في جنباته، وتصفح عن أصلك وفصلك بعلاماتك، فلعلك تأخذ بيدي عند عثرتي، وترحمني لانسكاب عبرتي. فأول ما أقول واصفًا لحالي في سري وعلايتي: استرقني^(٣) في عياني عن خبري، فها أنا بين العيان والخبر بلا عين ولا أثر. ولقد صبرتُ على الاستراق، لولا أنه اتصل الآن بالاسترقاق، فقد وَحَقَّ الحقُّ ذُبْتُ كمدًا، ومدت ومدًا^(٤)، ومارست كِبَدًا^(٥)، حتى لحظت

(١) سَبَّحَ فلا تَأْتِ شتمه ووقع فيه. (٢) الخُشارة: سفلة الناس. (٣) استرق الشيء: سرقه، أخذه خُفِيَّةً.

(٤) الومد: الغضب. (٥) الكِبَد: المشقة والشدة.

أحدًا فردًا صمدًا. فالآن شوقي إلى عَيْن تبسط خبري، وإلى خبر يحقق عيني، فأرتقي من ذاك إلى أن أبين في كوني، وأتبرأ من شَيْني إلى زَيْني، وأخلص إلى حَرَم ساكنه مطمئن، ومنتجع مختصم^(١)، واليقظان فيه متنعم، والحالم به مغتنم، والراضي به مَرْضِيّ، والمستكفي به مكفِيّ. هناك هناك وما أدراك ما هناك! هناك غيث رذاذه وابل، وقليله كثير، وصعبه منقاد، وعدمه وجدان، ونقصانه رُجحان، وبعضه كل، ونثره نظم، ولحظه نُطق، وعبداه سيّد، وفقيره غنيّ، وكرهه شهِيّ، ووَعْره وطيّء، وغريبه أهل، ومصروره باهل^(٢)، ووارده ناهل، وظلامه نور، وصوبه درور، وكله سرور، وبعضه حبور.

يا هذا! [١٦ب] زللت عن رسم حالي، لاختلافي في مقالي وفعالي، وغيبتي فيما عَلَيَّ عَمَّا لي. وهذه أماراة سوء، وكسوف ضوء، وخلوف نوء. فما أصنع؟ البرق خَطُوف، والمُزْن قذوف، والمركب قطوف^(٣). والسائق عفيف، والقائد شَوْوف^(٤)، والنفس عزوف. إن شكوت ما بي لم يُسمع، وإن سُمع لم ينفع. وإن نفع مع الحال يقطع، وإذا قطع زاد الوجع.

فيا عجبًا! أين العطف والرأفة، وأين الرقة والشفقة! وأين البقيا^(٥) والرحمة؟ هيهات! النعشة عند العثار معدومة، والدهوة عند النثار مكتومة، والشهادة في الغيبة مجهولة، والغيبة في الشهادة محمولة. وكل هذا عجب، وكل عجب من هذا شَجَب^(٦).

فهل عندك يا أنيسي حيلة فيما ذكرت؟ بل هل عندك خبرة بما طويت ونشرت؟ بل هل تقف على عويص هذه الترجمة الإلهية؟ بل هل لك طريق إلى ترجمة هذه العويصة الإنسية؟ إنه يسبق إلى ظني أنك من لفيف هذا السواد، الذين يتقلبون في البلاد، بلا زاد ولا عتاد، ولا مراد ولا ارتياد، ولا اعتياد ولا اعتداد، ولا انقياد ولا اقتياد. رؤوس وعمائم، وأكتاف وطبالس وأكمام،

(١) مختصم: يأكل اختصامًا، أي بملء فيه.

(٢) تكون الناقة مصرورة حين يُربط ضرعها لئلا يرضعها الفصيل، والباهل التي لا صرار عليها يحلبها من شاء، وهذا غير ممكن، أو هو مصدر عجب لإمكانه رغم التناقض.

(٣) القطوف: الدابة التي تسيء السير وتبطئ، والجمع: قُطَف.

(٤) شَفَف: خاف خوفًا شديدًا.

(٥) بقيا: ما فُضِّل، أو ما أُدْخِر. نقول: نشدتك الله والبقيا: أن تستبقي المودة والتواصل.

(٦) الشَّجَب: الحاجة والهم. وربما تُقرأ «شَجَب». والشَّجَب: العنت يصيب الإنسان من مرض أو نحوه.

وتبخر وأذبال، وتسحب «وإدلال» ثم لا لفظ منقّى، ولا لحظ موقّى، ولا رأي له عُقبى، ولا امرؤ له تقوى، ولا علم له مُقتبس، ولا عمل له مُلتبس، ولا استظهار لغد، ولا أَسَف على أَمْسٍ، ولا انتباه لحكم الوقت^(١)، ولا أَسَى على فائت، ولا ندم على تقصير، ولا تلافٍ لممكن، ولا قيام بواجب، ولا تناقل عن ممتنع، ولا إحساس بالمهم، ولا احتفال بالملم. إنما هو حرص خنزير، وتبصيص كلب، ورَوَّغان ثعلب، وافتراس أسد، وجهل حمار، وغارة ذئب، ونوم فهد، وحقد جمل. لعمرى إن عُمرًا انقضى بهذه الأخلاق لعمرٌ مشؤوم على صاحبه غير ذي غبطة في جميع أمره.

يا هذا! ارجع إلى سِرِّك الذي تحت حُجُب صَدْرِكَ، وانظر: هل تجد لهذا الكلام مصافحة له أو أثرًا فيه، أو مرورًا ببابه، أو إلمامًا بحافاتِه، أو حومًا في عَرَصاته، أو وجدًا في نغماته، أو حنينًا إلى نبراته، أو نزاعًا إلى خَطَراته، أو ولهاً على سَوْرته، أو طلبًا على نقراته، أو دنوًا من [١١٧ أ] حجراته، أو سبحًا في غمراته. فإن كنت تجد، فأنت والله المخصوص بالمنحة الكبرى، المعموم بالنعمة العظمى، المُرشَّح للغاية القصوى، المراد بصادق البُشرى، المذكور في الملاء الأعلى، المأخوذ بيده إلى سِدرة المنتهى، المقرَّب إلى الذورة العليا بلا عدوى ولا دَعوى.

(١) الوقت لغة: مقدار من الزمان قُدِّرَ لأمر ما، وجمعه أوقات. والله عز وجل هو الذي يخلق الوقت أو الزمان ويحدده، وكثيرًا ما يتحدد بالليلة لارتباطه بالهلال أو الشهر. والوقت يحكم الإنسان ولا يحكم الله عز وجل.

واصطلاحًا: الوقت عند الصوفية عبارة عن العبد في زمان الحال، أي عندما يتصل واردٌ من الحق بقلبه، ويجعل سرّه مجتمعًا فيه بحيث لا يذكر في سره الماضي ولا المستقبل.

وقد يريدون بالوقت: ما يصادف الصوفي من تصريف الحق له دون ما يختاره لنفسه. ويقولون: «فلان بحكم الوقت» أي أنه مستسلم لما يبدو له من غيب، من غير اختيار له. وهذا فيما ليس لله تعالى عليه فيه أمر أو اقتضاء بحق الشرع؛ لأن التضييع لما أمر به، وإحالة الأمر فيه على التقدير، وترك المبالاة بما يحصل منه من التقصير: خروج عن روح الدين.

(الفتاوى الكبرى - الشيخ محمد متولي الشعراوي - حوار الأحمدين - مكتبة التراث الإسلامي - القاهرة - اصطلاحات الصوفية، القاشاني، تحقيق وتعليق د/ محمد كمال جعفر - الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر ١٩٨١م ص ٥٣).

وإن كنت لا تجد ما وصفت لك بهذا البيان الصريح وهذا اللفظ الصحيح، فأنت والله اللقي^(١) الشقي، المطرود من باب الكرامة إلى فناء الهوان وعذرة^(٢) الذلّ وساحة الحسرة. قد ركبك الوحشة، وملكتك الدهشة، وزايلتك النعشة، وحالفتك الرعشة. فأطل البكاء، وأجدّ اللطم، وتجرّع مرارة الكأس، المثرعة بالحسرة واليأس. وليت البكاء نفعك! وليت النوح أجدى عليك! وليت الحسرة أفادتك! وليت الندامة نفعتك!

هيهات! فت فوّنا [لا] درك بعده، وبدت بيوداً^(٣) لا عود معه، والعشرة غير مقالة^(٤)، والمحنة غير مزالة، والحال غير محالة.

وبعد وقبل: فإن أمكنك أن تكون يقظان فلا تنعس، وإن استطعت أن تقرع الباب فلا تكسل، وإن قدرت على تلافٍ وإن كان يسيراً فلا تنكص، وإن وجدت سبيلاً إلى الاعتذار فلا تعجز، وإن كان وراءك حجة فلا تجبن، وإن اهتديت إلى ذخر فلا تبخل، وإن كنت من أمرك على بصيرة فلا تجهل.

الحازم - أخذ الله بيدك - من شمر واتخذ الليل جَمَلاً^(٥) وعبر. فإن الفتور في المهم مؤدّ إلى التلف، والتقصير في حيازة الحظ من أسباب الحرمان. ومهما أخذت وتركت، فلا ترّ لنفسك بالهويّنا في أمر عاجلته زين، وآجلته أمن. وثق بأن العمل محفوظ، والعلم من دونه ملفوظ، وأنت من بينهما مبهور^(٦)، والحساب دقيق، والجزاء مرصود، والغاية مع بعدها قريبة، والرقب عتيد، والاهتمام شديد، والخبر صحيح، والوعد صريح، والوعيد فصيح، والرحيل جدّ، والظن كذوب، والمرء دؤوب، والصبح مُنْجَل، والمدي مبلوغ، والقول كثير، والنصح قليل. وكلّ عَيْن فلها شغل بمنظرها: أنيقاً كان أو غير أنيق؛ وكلّ أذن فلها ذهول بمسموعها: مُطرباً كان أو غير مُطرب؛ [١٧ب] وكلّ نفس فلها شذّه بمعشوقها: مستحقاً كان أو غير مستحق. فإذا صحّ اعتزامك على تخليصك من أسرك

(١) اللقي: ما طرَحَ وترِكَ لهوانه.

(٢) العذرة: فناء الدار.

(٣) باد: هلك.

(٤) من: أقال العثرة: خلصه منها.

(٥) ر: جَملاً وعر.

(٦) مبهور من بهظ: أي أثقله، أرهقه، غلبه.

فابدأ بعينك فاغضضها عن مناظر الدنيا، ثم بأذنك فاسدُدها عن أخبار السُّفلى، ثم بنفسك فازممها عن استشعار البلوى، ثم بلسانك فاكففه عن إعادة الشكوى، ثم صِرْ أَحْصَنَ حِصْنٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ كُلِّ مَا خَبَلَكَ أَوْ حَبَّلَكَ^(١)، أَوْ خَدَعَكَ أَوْ سَحَرَكَ أَوْ قَمَرَكَ^(٢)، وَلَنْ تَقْدِرَ عَلَى هَذَا إِلَّا بَعْدَ رِيَاضَةٍ لِنَفْسِكَ الزُّعْرَةِ^(٣)، ومفارقة عاداتك الوضيرة، والتنزه عن الأمور القذرة.

فإن وجدت مع هذه الحال التي أنشأتها فأُنِستَ بها صحابةً يعينونك بالعلم الحق، ويساعدونك على العمل الصالح، ويغذونك بالرأفة، ويأخذون بيدك عند الزبغة والورطة، فاذهب فإنك من الذين أنعم الله عليهم، ونظر بالتوفيق إليهم. فحينئذ شجرتك تُورقُ، وأغصانك تلدن، وفننك يخضر، وثمرتك تحلو، وربُّعك يزكو، ونارك تذكو، وناصيتك تعلو، وباعك يطول، وصوابك يدوم، وخطأك يزول، وسَهْوُكَ يفارق، ويقظتك تعانق، ويُمْنُكَ يحضر، وبركتك تكثر، وقلبك ينقى، وذكرك يبقى، وقدرك يرقى، ومَلَكُكَ يَأْنَسُ بك، وشيطانك يئأس منك، وعينك تَقَرُّ، ونفْسُكَ تُسَرُّ، وخيرك يَدِرُّ، ورُشْدُكَ تَلْزَمُ، وغَيْبُكَ يُهْزَمُ، وكُلُّكَ يَسْعَدُ، وبعضك لبعضك يشهد. فيا له من مُلْكٍ سِيقَ إِلَيْكَ، ويا له من شمسٍ طلعت عليك!

اللهم كما وفتقنا لنصيحة غيرنا، فوفِّقنا لنصيحة أنفسنا حتى نبدأ بالأهم فالأهم من أمرنا، ولا يُشْغَلُ بَالُنَا بِالْأَعْمِ عن الْأَخْصِ، ولا نلهوَ عن الْأَنْفُسِ بِالْأَخْسِ، واجعلنا عند الدعاء إليك من المستجيبين لك، وعند ذكرك من الواجدين بك، وعند موافقتك من المتهاكين فيك، وعند مخالفتك من التائبين إليك، وعند الشدائد من المتوكلين عليك.

اللهم كما هديتنا لهذا البيان الذي فُقد من جمهور عبادك فاهدنا للإخلاص فيه، ووفِّقنا للعمل به، واجعلنا إذا ذكرناك وجدناك، وإذا وجدناك عرفناك، وإذا عرفناك أطعناك، وإذا

(١) بمعنى احتبلك: أي أوقعك في المصيدة.

(٢) قمرت فلانة قلبه: شغفته حبًّا.

(٣) الزُّعْرَةُ: طائر لا يُرى إلا قلَقًا، استعير هنا للنفس المضطربة.

أطعنك رَعَيْنَاكَ، وإذا رعيناك حفظناك، وإذا حفظناك اشتقناك، وإذا اشتقناك رأيناك، [١١٨ أ] وإذا رأيناك ارتضيناك، وإذا ارتضيناك أرضيناك.

إلهنا! كُنْ لنا فوق ما نتمناه لأنفسنا، واعصمنا من كل ما يُسْخِطُك علينا، وأَجِرْ أَلْسِنَتنا في تمجيدك وتوحيدك وتقديسك وتحميدك وتنزيهك وتعظيمك بما يكون نورًا في صدورنا، واملأ قلوبنا من محبتك وموافقتك ما يكون قرة لأعيننا، وضرْحًا^(١) لأفئذنا عيوننا، وبردًا تتلذذ به أسرارنا، ورفعًا لكل حجاب بيننا وبيننا. ومهما أتيت في أمرنا، فلا تطردنا ولا تمقتنا، ولا تُرْغِ قلوبنا بعد إذ هديتنا، ولا تجعلنا فتنة للذين جهلوك، وشردوا عنك، وكَفَرُوا بأياديك، وجحدوا نعماءك، ولا تُشْمِتْ بنا أعداءنا فيك. وفي الجملة، ارحمنا، وفي التفصيل أكرمنا، يا ذا الجلال والإكرام!

رسالة (٤١)

اللهم إِنَّا نخشع لك لائذين بك، ونخبر عنك مُتَحَرِّينَ^(٢) فيك، وندعو إليك مُقْصِرِينَ فيك. فارحمنا رحمة المولى لعبده، واعصمنا من خبث لا ينقى بما أنت أهله، يا ذا الجلال والإكرام، والمجد والإحسان والرفد!

بالله أيها الصديق المحالف، والصاحب المكانف^(٣)! أما ترى انتشاري في كلامي، ووقوعي دون مقصدي ومرامي، وتلعثمي في عبارتي، وتعثري في إشارتي حتى كأني أجنبي من حالي أو غريب في مالي! هنا والله شعار المرحومين وحيلة المقصرين. ولا عجب من عي العبد في وصف سيده! فَمَنْ وَجَدَهُ كوجدي وكنايته كنائي وإيماءه إيمائي يَحْصِرُ^(٤) وإن كان بليغًا، ويتبَلَّد وإن كان متحفظًا، ويغيب وإن كان حاضرًا، ويعجز وإن كان قادرًا، ويحار وإن كان ناظرًا، ويكلّ وإن كان سائرًا.

(١) ضَرَحَ الشيء: دفعه وأبعده جانبًا.

(٢) وردت في د: «متحجرين»..

(٣) المكانف: المعاون.

(٤) يَحْصِرُ: أي يصيبه الحَصَرُ: وهو العي.

يا هذا! لن تقدر على النظر في هذا الديوان إلا بحساب تقدمه بينك وبين نفسك على مؤامرة^(١) لك فيها رُشد وغبطة، واستظهار وحِيطَة. فإنك إذا نويت هذه النية، وأخلصت فيه الروية، وأحكمت عليه الطَّويَّة اطلَّعت على النجد، وامتلات بالوجد، استغنيت بالمشافهة عن السَّفرة، وكُفيت مؤونة الترهيب والتحذير.

[يا^(٢) هذا] ما الذي يقعد بك عن هذه الذُّرى العالية، وعن هذه الغايات المتناهية، وقد انثالت عليك العبرُ [١١٨ ب] والغَيْر، والتقى عندك الخبرُ والأثر، وحصلَ قبلك الظاهرُ والباطن، وأملي عليك الغابر والراهن، وشهدتَ في خلال ذلك المتحرك والساكن؟ وقرَّ في عقلك كلُّ ما يتمخض به الليل والنهار، فأين يُذهب بك عن هذه الآيات المتشابهة بالحق، وعن هذه الأمارات المتحدثة بالصدق، وعن هذه النعم المتصلة بأصناف الخلق؟ أفيها شيء خلا من الحكمة؟ أم فيها شيء عَرِيَ عن النعمة؟ أم فيها شيء فات القدرة؟ أم فيها شيء نبا عن المشيئة؟ أم فيها شيء سكت عن الدلالة؟ لا والذي أنطقني بلطفه، وأسمعك برحمته، ما ترى عينك إلا مُحَكَّمًا، ولا تجد نفسك إلا مُعَلَّمًا، وإن عقلاً يصدأ عند هذه الآيات لسخيف، وإن لساناً يعيا عن وصف هذه الأسرار لضعيف.

يا هذا! الطود ذو قُلة شامخة، والبحر ذو أمواج متلظمة، والغِيضة ذات دَغَلٍ أَشْب^(٣) فحدثني الآن: بم يَدِلُّ المُدِل، وعلامَ يعتمد المعتمد؟ فحبذا موحشي بمراده، وحاملي على مكروهي بين إصداره وإيراده!

لا أتاح الله لي فَرْجًا —————
يوم أدعو منه بالفــــرج
وجدتُ ما وجدت منه، وعَدِمْتُ ما عدمت به، وقلْتُ ما قلتُ له، فكلي لي بالاستعارة وله بالحقيقة. فإن شاء أبقى وأنعم [ونعم]، وإن شاء أبلى وأسقم، لا اعتراض للعبد على المولى، ولا عار على العبد وإن رُدَّد بين البلوى والبلوى. ألا ترى الأول يقول:

(١) المؤامرة: «عمل تجمع فيه الأوامر الخارجة في مدة أيام العمل، ويوقع السلطان في آخره بإجازة ذلك، وقد تعمل المؤامرة في كل ديوان» (الخوارزمي - مفاتيح العلوم ص ٣٨).

(٢) من هنا وحتى نهاية الرسالة (ورقة: ١٢٠ ب) ثابت معظمه في نسخة ل (ورقة ٣٥ أ - ٣٨ أ).

(٣) الدغل: الشجر الكثير الملتف يتوارى فيه للختل والغيلة. وأشب الشجر: اشتد التفافه.

العبد عبدك فاحكم فيه واحتكم واعِدْ وجُرْ غيرَ مأخوذٍ بلا ولم
ويحك! كيف تحكم بِلَمَ على خالقٍ لِمَ؟ أم كيف تحتج بالحجة على مظهر الحجة؟ أم
كيف تُدَلُّ بالعقل على منشيء العقل؟ أم كيف تباهي بالعلم واهب العلم؟

أيها الإنسان! لو عريت من جلبابه الذي به زينك، وخلوت من فضله الذي به أمكنك ما
أمكنك ثم حصلت حقيقتك، كنت هباءً منثوراً، وغُثاءً^(١) منشوراً، لولا أنه ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ
فَعَدَّلَكَ﴾ [الأنفطار: ٧] متى كنت تستقل بذاتك؟ وكيف كنت تشرف على صفاتك؟ وبأي
شيء كنت تميز ما لك منك، وما عليك فيك، وما عندك بك؟ هذا سوى ما عَرَضَ عليك
من آثار مُلكه، وأخضره بين يديك من أسرار غيبه، حتى ناداك بلسان السفير، وناجاك بعدُ
في كل أمر يسير [١١٩أ] وعسير، وأهلك لما وَحَدَك به من بين هذا الصغير والكبير،
بالبشير والنذير، مرة في الخاطر بالضمير، ومرة بالبيان الواضح الشهير.

اشهَدْ يا هذا غرائب نعمه عندك، وكنْ له من الشاكرين، وانشر آلاءه بين عبادِه، وكن
من الحامدين، فإنَّ الشكرَ مفتاحَ المزيد، والحمدَ بابُ التوفيق والتسديد. ومهما قَصَّرت
فلا تقصِّر في حفظ ما منحك، وطلب الفضل من عنده بقدر ما فتح عليك، فإنك بعُرِضَ
خيرِه ما دمت تصغي إلى هذا النمط - فلعلك تعتبر. واعلم أن الاعتبار روضة العارفين،
والتفكر في ملكوت السموات والأرضين من عادة عبادِه المخلصين. فلا يشغلنك من هذه
العوائد شاغل.

يا هذا! التصفح يُريك حُسْنَ الثناء في مقابلة حُسْنِ الخلق، ويفيدك من المعرفة
التعظيم، ويُسِّطُك في سلطانه بحلية الاختصاص، ويُشرفك بما دنا إلى ما نأى حتى تأخذ
العتاد، وتقدم الزاد، وتعمل لدار المهاد.

ها أنا أشتاق مُهِيمًا إلى محل [عنه] صدرت، وأهذي بحالي مُتِيماً على من به
وجدت ما وجدت. فلا لي في شوقي سكون أتعَلَّل به، ولا لي في هذيانِي استقلال

(١) غثاء: ما يحمله السيل من رغوة ومن فُتات الأشياء التي على وجه الأرض.

أَرْجِعْ إِلَيْهِ، لِأَنِّي مُغَفَّلٌ^(١) فِي الْأَوَّلِ، وَمَخْدُوعٌ فِي الثَّانِي، وَهَالِكٌ فِي الثَّالِثِ. وَإِنَّمَا تَغَلَّبَ هَذَا الْمَعْنَى عَلَيَّ لِأَنِّي أَرَى طُلُوعِي عَلَى مَا أَطْلَعَهُ غُرُوبًا، وَاسْتَحْقَاقِي فِيمَا أُنْتَظَرُ بِهِ سِرَابًا. فَمَا حِيلَةٌ مِنْ إِنْ عَلَنَ كَتَمَ، وَإِنْ نَادَى رُحِمَ، وَإِنْ انْتَشَرَ نُظِمَ، وَإِنْ وَجَدَ عَدَمَ؟ لَهُ مِنْهُ سِرٌّ خَافَ عَلَيْهِ، وَفِيهِ بِهِ خَوْفٌ لَا طَمَآنِينَةَ مَعَهُ. وَإِنْ شَكَا عَجَزُوه، وَإِنْ تَجَلَّدَ مَقْتُوه، وَإِنْ صَرَّحَ طَرَدُوه، وَإِنْ كَنَّى عَانَدُوه، وَإِنْ سَاعَدَ اسْتَقْلُوه، وَإِنْ نَافَرَ اسْتَجْهَلُوه، وَهُوَ فِي عُرْضِ ذَلِكَ يَقُولُ:

لَا أَسْتَطِيعُ نَزُولًا عَنْ مَوَدَّتِكُمْ أَوْ يَصْنَعُ الدَّهْرُ بِي غَيْرَ الَّذِي صَنَعَا^(٢)
فَأَيُّ فَكَأَكٍ لِأَسِيرٍ قَدْ أَسْلَمَهُ أَحِبَّاءُوه، وَلَوْ فَكَّ لَكَانَ أَسْرُهُ فِي فَكَأَكِهِ، وَلَوْ نَجَا لَكَانَ وَقُوعُهُ فِي خِلَاصِهِ؟ وَكَيْفَ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ وَهُوَ ذُو شَجَنٍ مُخَامِرٍ يُقْلِقُهُ إِذَا أَطْرَقَ، وَذُو حُزْنٍ ظَاهِرٍ يُخْرِقُهُ إِذَا نَطَقَ، فَلَا قَرَارَ إِلَّا عَلَى نَزْوَعٍ، وَلَا سَكُونَ بِهِ إِلَّا عَلَى تَفْزَعٍ، وَلَا عَجَبَ مِمَّنْ حَالُهُ هَذِهِ الَّذِي يَبْكِي الْعَيُونَ مَسْمُوعُهَا، وَيُطِيلُ الْحَيِرَةَ مَنْظَرُهَا. وَلَكِنَّ الْعَجَبَ مِنْ اسْتِسْلَامِهِ فِيهَا، وَتَلَذُّذِهِ بِمَا يَتَوَلَّى عَلَيْهِ مِنْ لَوَازِعِهَا [١٩١ب] وَخَوَادِعِهَا. وَهَذَا خَبْرُهُ، وَعَلَى هَذَا سَمَرُهُ؛ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُ الْفَرْجُ مِنْ جِهَةٍ مِنْ أَبْلَاهُ بِمَا أَبْلَاهُ، وَيَكْشِفُ عَنْهُ الضَّرَّ وَيَتَوَلَّاهُ. جُلُّ حَدِيثِهِ إِذَا خَلَا أَنْ يَقُولَ: إِلَهِي:

لَوْ أَشْرَبَ السُّلُوكَانَ مَا سَلَيْتُ مَا بِي غِنَى عَنْكَ وَإِنْ غَنَيْتُ^(٣)
وَمِنْ غَرِيبٍ شَأْنُهُ أَنْكَ إِنْ بَشَّرْتَهُ بِالْعَتَقِ اغْتَمَ، وَإِنْ حَدَّثْتَهُ عَنْ عِزَّةٍ أَعْرَضَ وَلَمْ يَسْتَمِ. وَالنَّازِلُ إِلَيْهِ رَاحِمٌ [و] هُوَ فِيمَا فِيهِ مَغْتَبِطٌ. فَوَاعِجِبًا مِنْ أَسْرَارِ الْحَقِّ فِي أَعْمَاقِ قُلُوبِ الْخَلْقِ! لِكُلِّ امْرَأٍ شَأْنٌ مَخْصُوصٌ، وَهُوَ: إِمَّا زَائِدٌ، وَإِمَّا مَنْقُوصٌ. الْإِلَهِيَّةُ لَا تَمَسُّحُ بِالْوَهْمِ، وَلَا تَقْدَرُ بِالْفَهْمِ، وَلَا تُشْرَحُ بِالْعَقْلِ، وَلَا تُنَالُ بِالترجمة. وَهَلْ يَجُوزُ ذَلِكَ، وَالْعِبُودِيَّةُ لَا نِسْبَةَ

(١) قُرِئَتْ فِي (د): مَعْلَلٌ.

(٢) الْبَيْتُ لِلْأَحْوَصِ، دِيَوَانُهُ: ١٥٣، وَرَوَايَتُهُ:

لَا أَسْتَطِيعُ نَزْوَعًا عَنْ مَحَبَّتِهَا أَوْ يَصْنَعُ الْحُبُّ بِي فَوْقَ مَا صَنَعَا

وَقَدْ جَاءَ مَنْسُوبًا إِلَى مِجْنُونٍ لَيْلَى (دِيَوَانُهُ: ٢٠٠).

(٣) الرِّجَزُ لِرَوْيَةِ. انْظُرْ لِسَانَ الْعَرَبِ (سَلَا) وَدِيَوَانُهُ (٢٥-٢٦).

لها إليها، ولا سبيل لها عليها؟ إنما هي جبلةٌ عجز، وحيلةٌ عَوَز، وديدنٌ حاجة، ومعدنٌ لجاجة، وقطبٌ كون، ومدارٌ فساد، وبابٌ حيلولة، وجانبٌ زيلولة، ليس لها ثبات، ولا عليها مَعَوَلٌ لذي ثبات. حتى إذا طلعت عليها شمسُ الرحمة، وكنتفتها يدُ العصمة، وغذتها كَفُّ الشفقة، تطاولت بعد تطامُنِها^(١)، واستقلت بعد انخذا لها، ومَرَّت على خُيَلائها بما صحبها من غُلُوائها. فعند ذلك يظهر الشكر الصحيح بشرط الإيمان القوي، أو يغلب الكفر الصريح بحكم الشُّرْكِ الغَوِي. فيا عجبًا من أول هذا الأمر! وواحربا من آخره!

طاحت الأبواب المفتوقة بفنون الصواب، وانحلت الأحقاد بما غلب على جميع الأشهاد، وبادت الكينونة في البيدودة^(٢)، وبدت البيدودة في الكينونة، فصار المَحْوُ رَسْمًا مشهودًا، وعاد الرِّسْمُ أمرًا محدودًا. فإن قلتَ «لِمَ» ازدروك، وإن قلتَ: «نعم» اعتروك، وإن تبرأت منهما انتهوك حتى لا بَقِيَا لك.

هذا نَبَأُوك وأنت تشمخ بأنفك وتنثني بعطفك، وتظن أنك قد أَوَيْتَ إلى كنفِ يُعْزُكَ ويحرزك. وإنما ذلك غرورٌ منك بهذه المناظر المزخرفة، وتعلُّلٌ بهذه العادات المستسخفة. أين أنت عن سُكْرِ في صَحْوِكَ، أو عن صَحْوِ في سُكْرِكَ، فتذوق طعمًا لم تعهد مثله فيما خلا من زمناك، فتفيء هناك عن جفائك لمن به قويت على ذلك، كي تنسل من إهابك الذي به نكرت عينك؟ حتى إذا استبنت هذا كله وبعضه، حقت عليك كلمة الله بالخصوصية، وأشرفت على ما سيق لك من الخير في الحال [١٢٠أ] الأولية. فيا بَرْدَها على الفؤاد! ويا طربًا على القُرْب بعد البعاد!

أيها^(٣) السامع! هذا كله تأنيس لك من الحق، لأنك مستوحشٌ [من نفسك] بنفسك التي أطعتها فعصتك، ووفيت لها فغدرت بك، ونصرتها فخذلتك، وتابعتها فأردتك؛ وهي النفس الموصوفة؛ فإن أنست به وبما جرى في عُرْضه فالحظُّ إليك راجع، والنورُ فيك شائع، والأرج منك ساطع. وإن ترعنت^(٤) فأنت الخاسر الدَّامِر^(٥)، والحائر البائر - والسلام.

(١) تطامن الشيء: انخفض.

(٢) البيدودة: مصدر (باد) بمعنى هل واختفى.

(٣) من هنا حتى نهاية الرسالة ثابت في ل (ورقة ٣٦ ب - ٣٨ أ).

(٤) في (ع) قُرئت: «رغبت عنه» وأرعت: صرت أرعن.

(٥) الدامر: الهالك.

اللهم إنا قد قابلناك بوجوهنا فحينا، ومُتْنَا في محبتك بين أيديك فأحينا، وبُدُّنا عن بابك بالجهل فاجمعنا، واتضعنا بملابسة الهوى في مخالفتك فارفعنا، وكن لنا دوننا فإننا وإن كُنَّا كُنَّا بعجزنا وضعفنا، وإذا كنت لنا أغينتنا عنا وأنقذتنا منا، وبَصَّرتنا لنا. فلم لاندعوك بلسان الضَّرْع تاركين لأسباب المكر والخدع، ناصحين لأنفسنا عند التَّجَع^(١) والرجع، لعلك ترحمنا رحمة تُسَلِّينا عمن سواك ولا لعل. فإن يدك بالعطاء أبسط^(٢) من ألسنتنا بالدعاء. وسَبَقَكَ بالتفضل أقدم من بدارنا بالتدلل. وإنما هي كلمة نقولها بالعادة التي أجرينا عليها ووسمتنا بها. وإلا فإنك ترحم وتعطف، وتصنع وتلطف، وتعديل وتُنصف، وتعطي وتُسعف، وتهب وتُنحف، وتحبو وتشرف، شئنا أم أبينا، كنت [أنت]^(٣) لنا أو علينا.

يا هذا! قد اختلفت المناجي^(٤)، وتباينت المغازي، وتباعدت المرامي، وتنازحت^(٥) المساعي. فهل لك في جليل ذلك أو دقيقه نَسَبَ إذا ادعيت، صَحَّ لك؛ وإذا تشرفت به سلم في يدك؟ أو هل لك في قليل ذلك أو كثيره علامة تدل على عبوديتك بالتحقيق؟ لست أعني عبودية الخلقة، وما وُجِدَتْ عليه من الخور والركاكة؛ بل أعني عبودية الخدمة والأدب، وما إذا ثَبَّتَ عليه كان لك زلفة، وجَلَبَ إليك ألفة، وحَذَفَ عنك كلفة. فأما الزلفة فمكسوبة بالشفقة الظاهرة الغالبة، والنصيحة الحاضرة والغائبة؛ وأما الألفة فبتأكد الحرمة ورسوخ العهد وثبات الذمة. وأما حَذَفُ الكلفة فبالترويح المأمول، والتنزيه المسؤول. ومن اختار هذه، أعني الزلفة، بحقيقتها، والألفة بخالصتها [بخالصتها]^(٦)، وكفي الكلفة بما فيها، فقد عَلِيَ إلى مُعَلَّةٍ ليس للناظرين إليها إِلَّا حَسَدٌ مَنْ ملكها ونالها.

(١) يقصد التوجه والإبانة إلى الله. (٢) أشد بسطا وسعة.

(٣) زيادة من ل. وفي ل: كنت أنت لنا وكنا علينا.

(٤) المناجي: جمع منجي؛ مكان الخلاص.

(٥) تنازحت: صارت نازحة، بعيدة، ومنه قول قيس بن الملوخ:

متى يستريح القلب، إما مجاور
بقولون كم تجري مدامع عينه
حزين وإما نازح يتذكر
وليس الذي يجري من العين ماؤها
لها الدهر، دمع واكف يتحدر
ولكنها نفس تذوب وتقطر

(٦) كذا مكررة في الأصل سهواً من الناسخ.

يا هذا! إن كنت وَجِعًا فَأَيْنَ تَأْوُهُكَ؟ وإن كنت مريضًا فَأَيْنَ أُنِينِكَ؟ [١٢٠ ب] وإن كنت مهجورًا فَأَيْنَ استيحاك؟ وإن كنت موصولًا فَأَيْنَ استئناسك؟ وإن كنت قريبًا فَأَيْنَ علامتك؟ وإن كنت بعيدًا فَأَيْنَ حزنك وحسرتك؟ وإن كنت مريدًا فَأَيْنَ اجتهادك؟ وإن كنت مُرادًا فَأَيْنَ استقلالك؟ وإن كنت عارفًا فَأَيْنَ انبساطك؟ وإن كنت غريبًا فَأَيْنَ انقباضك؟ وإن كنت متوكلًا فَأَيْنَ تفويضك؟ وإن كنت مُدَّعِيًا فَأَيْنَ شاهدك؟ وإن كنت شاهدًا فَأَيْنَ دُعَاكَ؟ وإن كنت محتاجًا فَأَيْنَ تبصّبك؟ وإن كنت غنيًا فَأَيْنَ صولتك؟ وإن كنت ممتحنًا فَأَيْنَ حزنك؟ وإن كنت آمنًا فَأَيْنَ طمأنينتك؟ وإن كنت خائفًا فَأَيْنَ خفقانك؟ وإن كنت زاهدًا فَأَيْنَ عفافك؟ وإن كنت راغبًا فَأَيْنَ مبدولك؟ وإن كنت مترنمًا فَأَيْنَ لحنك؟

يا هذا! لا تُكَذِّبَنَّ نفسك ولا تحملنّها على أن تُكَذِّبَكَ، فإنكما إن تكاذبتما هلكتما، كما أنكما إذا تصادقتما حييتما. فأما تكاذبكما فهو في قبولك خداعها، وفي قصدتها خداعك. وأما تصادقكما فهو في أخذك الحذر منها وفي انقطاع طمعها منك. وهذه مشاكسة بينك وبين نفسك، لا بينك وبين غيرك، فانتبه لها، واعمل في تنقيح شوكتها، وفي استفتاء^(١) ما شَرَدَ عنها، وفي نفي ما ركد عليها مُفْسِدًا لها. فإنك بهذه العناية منك بك، ولك فيك، تبلغ غاية تنال بها هواك، وتُدْرِك بها مُنَاكَ، والسلام.

رسالة (٤٢)

كيف^(٢) أتكلّم والفؤاد سقيم؟ أم كيف أترنّم والظاهر عقيم؟ أم كيف أصبر والبلاء شامل؟ أم كيف أجزع والعناء حاصل؟ أم كيف آنس بالصدّيق والصدّيق مُدَاج^(٣)؟ أم كيف أسلو عن الإلف، والإلف مُنَاج^(٤)؟ أم كيف أثق بما نُمِق من الخبر وقد كَذَّبني ما

(١) استفتاء: استفتاء: طلب فيّه، أي: رجوعه.

(٢) ورد معظم هذه الرسالة في ل بعنوان «من ألقى السمع وهو شهيد من الإشارات الإلهية» (ورقة ٤١ أ - ٤٤ ب) وقد سقطت العبارة التي جعلت عنوانًا لها في ل.

(٣) مداج: اسم فاعل من أدجى: أظلم، وأدجى البيت: أرخى ستره، وهنا بمعنى: يستتر عن صديقه ولا يكون واضحًا معه. وفي ل: مداجن.

(٤) ناجاه مناجاة: فهو مناج: سارّه بما في قلبه من أسرار أو مشاعر، وخصّه بالحديث.

حَقَّقَ بالعيان؟ أم كيف أَسْكُنُ إلى الانتباه وقد أقلقني المنام؟ أم كيف أَسْتريح إلى المنام و[قد] لعبت بي الأحلام؟ نَفْسٌ يتردد بالحرق في جوانح قد تهتكت بالأمانى، وجمرة تتوقد بالحسرات كأنها سير السواني^(١)، فما تنفع الراحة المأمولة مع الكرب اللازم، وماذا يجدي الرجاء الكذوب مع الخطب المتفاقم؟ الويل لمن أعرض عنه الحق! والويل لمن بُلي بالخلق! وكيف لا تعظم البلوى بالخلق على من هو أيضاً [١٢١أ] من الخلق؟!

يا هذا! الضلوع مشوية بالأسى والحزن، والأكباد متهرئة بأنواع الآفات والسقم، والأرواح ذائبة بضروب الحيرة واليأس - فلا إلى الخلوة معاج^(٢)، ولا بالمجالس ابتهاج. ليل يَكْرَبُ بهم ناصب، ونهار يَمُرُّ بكرب لازب، وعينٌ إذا رمقت بهتت، ونفس إذا تمتنت فتنت، وروح إذا هشت عذبت، وأعراض بين هذه الأحوال ليس لها بُتُّ فنعرف، ولا لها ريث فيصرف. وعلم مع ذلك كله لا ينفع، وعمل لا يصح، وإشارة لا تصدق، وعبرة لا تتحقق، وحجة إذا لاحت طاحت، وشبهة إذا وردت ركدت، وقول كلما طال عني، وسكوت كلما امتد أضنى وأفنى. فالسلم حرب، والروح في كرب، والمستقيم مُعَوِّج، والخاطي على الساحل ملتج^(٣)، والوقت كدر والزمان غير، والراجي قانط، والصاعد هابط.

فقل لي الآن: بمن أتعلق؟ ولمن أتملق؟ وماذا أقول؟ وبأي شيء أسمع؟ وفي أي شيء أفكر؟ أي ركن ألوذ؟ وفي أي وادٍ أهيم؟ وعلى ماذا أعرج؟ وإلى ماذا أنتسب؟ قد بنت عني بما بان مني، وازدهيت [بي] بما ازدهى علي. فلا جرم الاستطالة غالبية، والكبر متسلط، والروم محال، واليأس وبال، والتحدث جسارة، والتريث خسارة. ومع هذا كله:

فأينمــــا كنتُ من بلادٍ فلي إلى وجهه التفــــاتُ

(١) السواني جمع سانية، والسانية: الناضحة وهي الناقة يُستقى عليها من البئر؛ وفي المثل: سير السواني سَفَرًا لا ينقطع.

(الميداني: ١: ٢٣١). يريد أن الإبل التي يُستقى عليها لا تكف عن السير، وكذلك هذه الجمرة لا تكف عن التوقد.

(٢) معاج عَوَّجًا ومعاجًا بالمكان: أقام به.

(٣) التَّجُّ البحر: غمر واضطرب، التَّجُّ الظلام: التبس؛ التجت الأصوات: اختلطت.

أما تعلم:

أَنَّ الْوِدَاعَ مِنَ الْأَحْبَابِ نَافِلَةٌ لِلظَّاعِنِينَ إِذَا مَا يَمَّمُوا بَلَدًا
ولست أدري إِذَا شَطَّ الْمَزَارُ غَدًا، هل تَجْمَعُ الدَّارُ؟ أم لا نلتقي أَبَدًا؟

يا هذا! إِذَا استعفيتك من الكلام فاعلم أَنَّ فيضي زاهر. وَإِذَا حضضتك على السماع فاعلم أَنَّ بحري نازح^(١). وَإِذَا أنشدتك بيتًا فاعلم أَنَّ إشارتي وراءه، وَإِذَا رَوَيْتُ لَكَ حكاية فاعلم أَنَّ مغزاي دونها. وَإِذَا أبرزت لك العين فاعلم أَنَّ مرادي عرفانك بها. وَإِذَا سترت عنك الغاية فاعلم أَنَّ قصدي استعدادك لها. وَإِذَا صرحت بالمعنى فاعلم أَنَّي حائشك إليه، وَإِذَا كَنَيْتُ لَكَ عن الفحوى فاعلم أَنَّي مُشَفِّقٌ عليك من غائلة الحال التي أنت مُبْتَلَى بها أو ستبتلى بها.

فانظر كيف تدبيري لك وكيف جُودي عليك! فلا تشهرني فيما أقول، ولا تعجب مني فيما تسمع. فإِنما هذا كله بَسْطٌ من الحق في حلية [١٢١ب] القبض، وإيحاش من الخلق في شكل الإيناس، وَبَعَثٌ لغرائب نسيم الغيب في فضاء الشهادة حتى تطيب الأنفاس، وتحيا به النفوس، ويقع التنافس، وترق أخلاق، وتطمئن قلوب، وتقشعر جلود، وتطرب أرواح، وتُفَصِّحُ أَلْسُنٌ، وتلين جوارح، وتمتلئ صدور، وترنو عيون، وتنضّر وجوه، وتكف أيد، وتخف أقدام، وتبرد أكباد، وتحلو شمائل، وتُبْتَغَى شواكل^(٢)، وتزول غوائل، وتكثر نوافل، وتُرد نوائل، وتخرس عواذل، وتُنثر فواضل، وتُدرك طوائل. وعلى هذا مما لا يجري به ولا يشرحه قلم، ولا ينتظم بتنميقة كَلِم، ولا يظهر بمخزونه ومكنونه عِلْم. فجد الآن لحالك إن كان لك في هذه اللغة عبارة، وَوَهَبْتَ في حجاب صدرك من هذا الحديث إشارة. وَإِذَا وجدت بحالك ذلك فاستمّل من وَجْدِكَ بوجدك حتى تحضر غائبًا، وتغيب حاضرًا، وتغمض مُبْصَرًا، وتبصر مُغْمَضًا، وتحيا مُكْرَمًا وتُكْرَمُ مُحْيَا.

(١) نازح: قليل الماء، أو نافذ.

(٢) شواكل: جمع شاكلة، أي: مثال. وفي (د): «ولتلقى شواكل».

لا تستغرب هذه المناجاة فإنها والله ضاحيةٌ عند من ﴿أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. أتدري ما ضمير هذا الحرف؟ لعلك تدري، ولكن ليس لك لسان يجدُّ في الإلقاء التسليم، والسَّمْعُ القبول، والشهادةِ الوَجْدَ، بل الإلقاء اللباز، والسمع الارتياح، والشهادة الكُنه، بل الإلقاء الرنوّ، والسمع السموّ، والشهادة الدنو.

أما ترى بالله هذا التشقيق في هذا المضيق؟ والله لو وثقت بإدراكك، وسكنت إلى نيلك، وظننت أنك تذوق وتجد وتشم وتشهد، لقلت في عنوان هذا الأمر العجيب، ما يُسَلِّيك عن متنه الغريب. على أنني إن أمسكت فلمالك لا بد من أن يطاع، وإن أطلّقت فليسرّ لا بد من أن يذاع.

يا هذا! طالت الدندنة، واشتدت النجوى، وتكرر التشاور، والقلب في خلال ذلك واجب^(١)، والطرف عليه واجم، والظهر [واقف]، والرحيل آزف، وربك بالمرصاد. وما أولانا مع هذا الأمثال مضروبة، وهذه المياه المسكوبة، وهذه القباب المنصوبة، وهذه الغايات المطلوبة، بأن تنتهي حيث أنتهي بنا، ونقبل ما قيل لنا، ونصدق من أتاننا، ونسلم ما خفي علينا، ونكتفي بما بدا لنا، ونقدم على ذلك كله بدارنا، ونكل جميع ما بنا إلى من يملك جهارنا وسرارنا.

وإنما قلت: ما أولانا بهذه الحال! [١٢٢أ] لأننا عبيد، والذي يليق بالعبد أن يلزم حده، ويبدل جهده، وينفق وجده^(٢)، ويحفظ وجده^(٣)، ويؤكّد عقده، ويطلب رفده، ويلحظ سعده، ويتنظر وعده، ويصحّ قصده، ويستديم وكده^(٤)، ويحصل نقده، ويرتقب فقده. فإن العبد إذا فرغ مما عليه بحق العبودية، شغل بما له من حق الربوبية، وكما كان في حاله الأولى مربوطاً بما عليه، كذلك يكون في حاله الثانية مغبوطاً بما لديه. فهل رأيت عبودية أدت إلى ربوبية غير هذه؟ وإنما كان هذا على هذا لأنها عبودية بحق لمن

(١) من الوجيب: الخفقان.

(٢) ما يجده من مال.

(٣) من الوجْد: شدة الانفعال والعواطف.

(٤) الوكد (بضم الواو): السعي والاجتهاد.

له ربوبية بحق، والحق أحقُّ بالحق. فتعالَ حتى نسكت هائبين، ونقول مُخْبِتِينَ^(١)، ونعمل مجتهدين، ونعلم مستسلمين، ونرقد مُودَّعِينَ، وننتبه متعجبين، ونصطحب مشفقين، ونفترق متواصلين، ونذاكر مستفيدين، ونعتقد محققين، ونحقق معتقدين، ونستقبل القبلة مستغفرين، ونذكرُ في الذاكرين، وننتبه بين الغافلين، ونرجو خائفين، ونخاف راجين، ونفرّق بين الشك واليقين، ونتوغل في إقامة وظائف الدين، ونزاحم مناكب المتقين. فإذا تعاونًا على هذه الأحوال الحسنة في هذا الزمان الذي قد عاد الإسلام فيه غريبًا كما بدأ غريبًا^(٢)، كنا نجوم الأرض وأعلام الخلق، وآتانا الله من عنده ما نغبت به وننافس عليه. وقد قال الحق في تنزيله على قلب رسول الله عليه السلام: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

فما الذي يبقى بعد هذا الدعاء والحضّ على إحراز النصيب والحظ، إلا أن نكون جاهلين بما لنا وعلينا، عُميانًا عمّا بنا وفينا؟! ونعوذ بجلال وجه ربنا من ذلك أن يكون. وكيف ذاك ولنا أعينٌ تجول في ملكوته، وقلوب تفقه كريم خطابه، وآذان تسمع لطيف سرّه؟ فما بالنا نجحد أياديه عندنا، ومِنَّه قِبلنا! وكيف ننسى ما سبق به إلينا، ونحن إذ ذاك لا عَيْن ولا أثر، ولا عيان ولا خبر، فأنشأنا وأظهرنا، وبَصَرْنَا وعلمنا، وقَدَّمْنَا وكرَّمْنَا، وهَدَانَا وأرشدنا، وأبرزنا وأشهدنا، وأَلْفَنَّا وأفردنا، وجاد علينا بما لم يكن في حُسباننا ووهمنا! فآيَةٌ يد بيضاء لم تسبق له إلينا؟ وأي مَنَّة غراء لم تسبق له علينا؟ وأي نعمة لم تخلُص له لدينا؟ وأي نور لم يشعّ له على كل واحد منا؟ وأي رُوح لم يصل منه إلى قلوبنا؟ وأي كُرب لم يزل به عنا؟ وأي [١٢٢ب] رائحة لم تطب به لنا؟

اللهم إِنَّا قد أحسننا بأياديك عندنا، وتقلبنا في نوافلك قبلنا، وشممنا فوائح برك بنا، ووجدنا حقيقتك في إسرارنا، وذقنا حلاوة مناجاتك لنا، ورأينا عيانًا آثار رأفتك بنا،

(١) أحببت الشخص لله: خضع وخشع وتواضع، اطمأن وسكن. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [هود: ٢٣].

(٢) إشارة إلى الحديث المشهور: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود كما بدأ غريبًا، فطوبى للغرباء» (مسلم: باب الإيمان، ح ٢٣٢؛ الترمذي: باب الإيمان ب ١٣؛ ابن حنبل: ١: ١٨٤، ٣٩٨، ١٧٧/٢، ٢٢٢، ٢٨٩، ٧٣).

وأصَبْنَا - بفضلِكَ وجودِكَ - ما أردنا وفوق ما أردنا. فهذه المعرفة التي قد أنبأنا بها على نعمِكَ علينا إلا ختمت لنا بالحُسنى، وهَوَّنتَ علينا المصير إلى ذراك في المحل الأعلى. وقبل ذلك: فإننا نسألك أن تكفينا مؤونة خَلْقِكَ، فقد صَدُّونا عن سبيلِكَ، وقرَفونا^(١) من أجلك، وطلبوا عثراتنا بسبيلِكَ، لأنَّا ذكرناكَ حين نَسُوك، وقرَعْنَا بابكَ حين لا ذوا بباب غيرِكَ.

اللهم فامُحْ أسماءَهُم عن ألسنتنا، واطمِسْ صِفَاتَهُم من قلوبنا، واشغَلْنَا بِكَ عنهم حتى نذكرك بالإخلاص، ونصير من حزبِكَ بالاختصاص، فإنكَ رَبُّ النَّاسِ ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾^(٢) إِلَهُ النَّاسِ ﴿الناس: ٢-٣﴾ - نسألك بكلماتكَ التامة، وسُبُحات^(٣) وجهكَ ذوات الكرامة: أن تجيب دعاءنا؛ وتسمع نداءنا، وترحم نجاءنا^(٤)، وتقبل ثناءنا - وما أولاك بأن تفعل ذلك وما فوق ذلك!

أيها الأجنبي في هذه الطريقة، المُنْكَرُ لهذه الحقيقة! حَرَامٌ عليك أن تسمع من هذا الديوان حرفاً بقلبك المنحرف، وخُرقك المنكشف، وبلائك الملتحف. وحرام علينا أن نبدي لك من هذه الصحائف كلمة سائغة، أو حكمة بالغة، فإن بلينا بأن نقول أو فأبليت بأن تسمع، فذاك والله لتقصير قد كان منا، ولمحنة قد أُرِدْتَ بها^(٥). وقانا الله فتنة القول، وكفاك فتنة الجحود، وجعلنا جميعاً تحت جَنَاحِ رحمته طائرين إلى ذروة عِزِّهِ، نائلين من خيرات ملكه، راتعين في رياض نعمته، سابقين إلى حيازة مَرْضَاتِهِ.

أيها المَزُورُ^(٦) عن أكناف الحكمة، والثاني لعطفه عند فواتح المعرفة، والمتكبر على أبناء جنسه بفضل اليسار والثروة، والمتشدِّق في حديثه إذا جرى نَعْتُ المملكة، والمتبعثر عند سماع أعاجيب القدرة السارية في البرية! أَقْلَعْ عن عادتك هذه الذميمة، واتَّقِ عواقب هذه الطرائق الوخيمة، وتطلَّع نحو هذه الأنباء الكريمة، وتذوق حلاوة هذه النِّعم

(١) قرف فلاتاً: عابه وشتمه.

(٢) سُبُحات (بضم السين والباء) وجه الله: أنواره.

(٣) النجاء: الخلاص.

(٤) في (ر، ع): بنا.

(٥) ازورَّ عن طريق الصواب: مال غيه وانحرف

الجسيمة، وابتحث عن هذه الأسرار [الكريمة] المكنونة، وعانق هذه [١٢٣أ] الأحوال العزيزة المصونة، وأبْلُ صِدْقَ ما أقول وحقيقة ما تعي مرة واحدة. فإن رأيت الرُّشد [والخير] والغبطة والسرور والحبور والتمام والعز والعظمة في ذلك فزِدْ في اجتهادك، وتَصَفَّ في اعتقادك، وتَرَقَّ إلى غايتك في اعتمادك، وحقق عزيמתك في كل وقت بحسن ارتيادك. وإن لم تر ذلك ولا شيئاً منه، فأمرُك في يدك، ورأيك إليك، واختيارك لديك. وهذه مكاسرة^(١) مني في مخاطبتك، وإلا فلو وردت هذا الجنب لرعت آمناً، وأقمت ساكناً، وأدركت ما تدركه معانياً. كان الله لك حافظاً وكافياً!

اللهم حقق ما نسألك ونطلبه منك، يا ذا الجلال والإكرام!

رسالة (٤٣)

اللهم اسلُكنا في سبيل مَرْضاتك على شمائل العارفين بك في درجات المُخْبِتِينَ لك، عند كل خاطر هَجَسَ بِسَرِّك، مع كل لسان يبين بذرك. وارفع عنا جَهْدَ الزمان، وجَوْرَ الإخوان، وتَلَوْنَ الشان بعد الشان. وصِلِ ائتمارنا بأمرك، وأسبِلِ علينا كَثِيفَ سِتْرِكَ، واملأنا ببرهان ربوبيتك، وفجّر فينا ينابيع البيان عن إلهيتك، وصُنْ وجدنا بك عن وجداننا لك، وأنشئ فينا نوراً نهتدي به إليك، واجعل في الجملة والتفصيل كلامنا كله عنك، ودعاءنا إليك، وخبرنا عن قدرتك، وسكوننا معك، وتلفتنا لك، وتهالكنا فيك، وتوكلنا عليك، وقرة أعيننا عندك.

نسألك اللهم بجبروتك أن تعلمنا إذا جهلنا، وتستعملنا إذا علمنا، وتتألفنا إذا شَرَدْنَا، وتؤنسنا إذا استوحشنا، وتُكْرِمنا إذا هِنَّا، وتهدينا إذا حَرُنَّا، وتُنْفِقنا إذا بُرْنَا^(٢)، وتصلحنا إذا فسدنا، وتُعِزنا إذا ذللنا، وتكثرنا إذا قللنا، وترشدنا إذا ضللنا، وتُنشِطنا إذا مللنا، وتَجَبِّرنا

(١) أي ملاطفة. وتقرأ: «مكاشرة» أي الضحك في الوجه والمباشرة.

(٢) نفقت البضاعة: راجت ورغب فيها. والبوار: الكساد.

إذا انكسرنا، وتغنيينا إذا افتقرنا، وتُبَلِّغنا إذا انقطعنا، وتدارينا إذا امتنعنا، وترفعنا إذا اتضعنا، وتحضرنا إذا استمعنا، وتسهلنا إذا تعسرنا، وتعفو عنا إذا قصّرنا، وتنفعنا إذا علمنا، وتوقفنا إذا عملنا.

يا هذا! إذا أَهْلَكَ لدعائه فقد عَرَّضَكَ لأنبائه، وإذا وَقَفَكَ بِفِئائِهِ فقد اجْتَبَاكَ لعطائه، فاختر في جميع خطراتك الباطنة ونظراتك الظاهرة بين قُدْرَةٍ بها استترت في [١٢٣ب] هذا الظلام، وبين حكمة بها استعلنت^(١) على هذا الأنام، والحَظِّ النعمة بعين الوقار، فإن لحظك لها بعين الوقار امتراء^(٢) من الزيادة فيها وامتياز^(٣). ومهما جمحت هكذا وهكذا فابغِه يُغْنِكَ، وتوجه إليك يقبلُك، واعمل واحدة فإنها دعامة حالك، وقد قرنتها ببالك. ولا تألف الشكوى، ولا تنخدع بالدعوى، ولا تتوجع بالبلوى، ولا تطلب السُكْنَى في غير دار السكْنَى، فإن من أَلَفَ الشكوى يقدم من البلوى على البلوى، ومن طلب السكْنَى في غير دار السكْنَى فعن قريب يسمع: «وَيْلِي!» «وَوَايِلِي!».

يا هذا! رياض الأنس زاهرة، وحدائق المعرفة ناضرة، وبحار النعيم زاخرة، وآيات الحق حاضرة. فما هذا التعلل بأحلام النائمين، وما هذا الزهد في حياة العالمين، وما هذا الإعراض عن علم اليقين والعلم المبين؟

يا هذا! اعتصم بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها. استمتع بالنعمة التي لا كَدَرَ فيها. اقطف من الشجرة التي لا نَفَادَ لثمرها. تَنَعَّمْ بالكلمات التي لا فِرَاقَ بعدها. اشهد العزة التي لا بؤس عندها. باين صفاتك التي لا خير لك منها. استقل عثراتك التي لا عثرة لك وراءها. غَمِّضْ عينيك عن هذه الزهرة التي في الحياة الدنيا، وادنُ إلى ما وراءك وارنُ^(٤) إلى ما وراءها في الدرجات العُلى. قد أُلْفَتْ تأليفاً به نظامك، فلم تشئت؟ ورُعيت مراعاة بها قوامك فلم تتفتت؟ وكُفيت أموراً لو طولبت بإحضارها لقصّر عنها حَوْلُك وقوتك،

(١) استعلنت تقابل: استترت. وفي (ع): استعليت.

(٢) امتري الشيء، امتراءً: استخرجه.

(٣) امتار لعباله امتيازاً بمعنى أمارهم ومارهم: أي أتاهاهم بميرة.

(٤) فعل أمر من رنا يرنو، بمعنى: أصغى.

وباد دونها نشاطك ومُنتك. واشهد هذه الكفاية التي سبقت لك في القَدَم، وصنع لك بها وأنت في العَدَم. ثم اشهد ما لاح لك في مقامك هذا من العلم بعد العلم حتى رَويت بعد العطش، واطمأنت بعد الدهش.

يا هذا! عزَّ عليَّ حالك فإنها عُرْضة خبايا غيوب الحق^(١)، ولك فيها صدور وورود، فاحذر كل الحذر أن تزلَّ قَدَمُك بعد ثبوتها فتصبح من النادمين السادمين. وتحك قفاك^(٢) وتلوك إصْبَعَك! لا راحم لك، ولا مُقْبَل عليك، ولا باسط لعذرِكَ، ولا ناعش لصرعتك. قد أمكنت من نفسك الشامتين بك، وبسطت ألسنتهم عليك، وما بك [منك]^(٣) قد أنساك ما بك من غيرك.

[١٢٤أ] يا هذا! اجمع ذيلك، وأزررُ جييك، وقصّر كُمك، وثبَّ عن مكانك هذا وثبة الطالب لنجاته، العامل بوصاته، الواصل برجاته، الكابت لعداته، النازع إلى مسراته، النائل لحياته، الجامع بين وُلّاته وحُمّاته، الواصل إلى هدايته وثقاته، المتخلص من آفاته وعاهاته. يا هذا! هذه مناغة الحق لأصحاب القلوب المحترقة فيه، ونَجوى الحقّ لأسرار [النفوس]^(٤) الحائمة عليه. فالزَمْ هذا اليفاع^(٥) فإن الألفاف تنشر عليك. وأعلم أنها إذا انتشرت عليك انتظمت لديك. وإذا انتظمت لديك غنيت بها. وإذا غنيت بها أغنيت منها. وإذا أغنيت منها استغنيت عنها، [وإذا استغنيت عنها^(٦)] عدت غنيًّا بمُوليها ومُسديها.

يا هذا! أما ترى هذه الدقائق كيف تجلُّ بالحروف المجموعة المفرقة؟ أما ترى هذه العجائب كيف تدق عن اللغات المرقومة المنمّقة؟ أما تراني فيها كأني من أهلها ولست من أهلها؟ أما تراني عاريًا منها وكأني حالٍ بها؟ أما تراني غريبًا فيها وكأني مستأنس بها؟ الويلُّ لي إن كنتُ فيما أقوله غريبًا منه. والويل لك إن كنت فيما تسمعه بعيدًا عنه. إن القائل إذا لم يقل عن الحقيقة الأولى لم يسمع السامع على الطريقة المثلى. وبعد فإن

(١) في (ر): عُرْضة سبايا عيون الحق.

(٢) كناية عن الندم.

(٣) زيادة ضرورية.

(٤) زيادة لازمة.

(٥) اليفاع: التل المشرف، وكل ما ارتفع من الأرض.

(٦) زيادة.

القائل إذا لم يكن واجداً لما يقوله لم يكن السامع واجداً بما يسمعه: إنما هو قلب يناجي قلباً، وروح تناجي روحاً، وعقل يطرح عقلاً، وربُّ ينادي عبداً، وعبد ينادي عبداً: فالمنادى من حيث ينادى بالصدق يجيب، والمنادى من حيث يجيب بالحق منادٍ.

يا هذا! التيقظ بالمعارف إيقاظٌ للقلوب من الغفلات، والتعارف بالتذاكر استحضار للغيوب من الهفوات. فاجتهد أن تديم المذاكرة، فإن أدنى ما فيها أن يتصرم عنك وقتك ولك فيه أثر، وليس ينصرف عنك وقتك ولك فيه أثر إلا وبقي عليك منه روح يكون لك عنه خبر. ودع عنك الشواغل من زيد وعمرو وبكر وخالد، فإن الخلق عليك لا لك، واجعل الحق قبالة سرِّك وتجاه حبة قلبك [و] وراء شغاف فؤادك، فإن الحق لك، لا عليك. وثق بأنك إذا أدمجت نفسك وأخلاقك وأعمالك ومعارفك وخطراتك^(١) في هذه الصفات التي قد تكررت عليك وصارت ديواناً واسعاً عندك، لم تعدم روحاً ينفي [١٢٤ب] عنك كل كرب جائم كان على كبك، بل لم تعدم كشفاً به تشرف على كائنات الغيب الذي لم يكن في ظنك، بل لم تعدم حالاً إذا رُمّت وصفها بالكاف والقاف، والعين والغين، والخاء والحاء، لم تستطع، لأن لغة ذلك البلد لا تفهم في هذه المدينة، كما أن عادة هذه المدينة لا تستمر في ذلك البلد.

يا هذا! إن شعاع هذا الشمس يختطف أنوار هذه الأبصار، وبحر هذه الأحوال يبتلع جميع البحار، وثمره هذه الشجرة تُسَلَّى عن كل الثمار، وسرّ هذه القصة يمحو رسوم سائر الأسرار. فالزَمْ حَدَّكَ في جدك، وتَنَجَّزْ وعدك بإنجاز وعدك، وخَفْ رَدَّكَ بِرَدِّكَ، واستمد مُمَدَّكَ فإنه إن أَمَدَّكَ كفاك مؤونة قُربك وبُعْدِكَ، وأغناك عن ترفك ورَعَدِكَ.

اللهم إِنَّا نغدو ونروح، ونبوح وننوح، فاجعل غُدُونَا إذا غدونا لك، ورواحنا إذا رُحْنَا بك، وبُوحنا إذا بُحْنَا عندك، ونُوحنا إذا نُحْنَا على فائتنا منك، حتى نكون في حالاتنا كُلِّهَا متشبثين بذيل الذل لك، منتسبين إلى عِزِّ كَنَفِكَ، مهتدين بقبس لُطْفِكَ، قارئين في عَقْوَةِ^(٢)

(١) في (ر): وخطواتك.

(٢) العَقْوَةُ والعَقَاة: الساحة وما حول الدار والمَحَلَّة، والجمع عَقَاء. يُقال: نزل بعَقْوَتِهِ، ويُقال: ما بعَقْوَةُ هذه الدار مثل فلان.

عزك، متفيئين بظل كرامتك، متقلبين بنعمتك على نعمتك، سالكين طريق طاعتك بطاعتك، واصلين إلى معرفتك بمعرفتك.

يا هذا! تجنب الأضداد فإنهم مفسدة، وتجنب الأمثال فإنهم مشغلة. واعلم في الجملة أن وصالهم صرْمٌ، وحُبُّهم بُغْضٌ، وبرَّهم جفاءٌ، وعَطْفُهم صدودٌ، ومسالمتهم حَرْبٌ، وإقبالهم كَرْبٌ، ونوالهم حَرْبٌ^(١)، والفكر فيهم عطب.

يا هذا! إن كنتَ مع العلم فأين العمل؟ وإن كنتَ مع اليقين فأين الهية؟ وإن كنتَ مع الحياء فأين المراقبة؟ وإن كنتَ مع الطمع فأين البذل؟ وإن كنتَ مع كِبَرِ الهمة فأين الشدة؟ وإن كنتَ مع المحبة فأين الاتباع؟ وإن كنتَ مع الظاهر فأين الأدب؟ وإن كنتَ مع الباطن فأين الطرب؟ وإن كنتَ مع الدَّعْوَى فأين البيّنة؟ وإن كنتَ من أهل الديوان فأين المنسوب^(٢)؟ وإن كنتَ من عند الصاحب فأين الخاتم؟ فلا لك من المبدأ خبر، ولا لك من المنتهى أثر. رضىت بزُخرف القول غرورًا، وذهبت بما لك عما عليك حسرة وسرورًا. حتى إذا جدَّ رَحِيلُك وحضرَك مُبْرَمُك وسحيلك^(٣)، بقيت على قارعة الطريق بلا هادٍ ولا حادٍ. أما علمت أن من أشار إلى الحق قولاً ثم ركن إلى غيره فعلاً فقد حُجِبَ عن الصديق عقدًا وأجلاً. أما علمت أن كل عامل [١٢٥أ] مطرود إلا من أريد بذاك، وكل وارد محدود إلا من أُذِنَ له في ذاك، وكل متمكن مغرور إلا من كُوشِفَ هناك؟

يا هذا! إن قصدت بالأدب حُفِظْتَ، وإن خادعت في قصدك لُفِظْتَ. أما علمت أن الصادق مغبوط، والكاذب محطوط؟ أما سمعت الذي أنبأ عنه حين قال: أَوْفُوا بعهدي في دار محنتي على بساط خدمتي لحفظ حرمتي، أَوْفِ بعهدكم في دار نعمتي على بساط قربتي بجلال رؤيتي.

(١) الحَرْبُ: الويل والهلاك.

(٢) المنسوب: نوع من الخطوط العربية ينسب إلى أبي علي محمد بن مقله.

(٣) السحيل: جبل يفتل على قوة واحدة.

يا هذا! قد أصبحت في قبضة العز تجري عليك تصارييف القدرة وأحكام المشيئة، بين أستار سابغة من النعمة، وأكنان^(١) ظليلة بالرأفة والرحمة، فلا تتعرض لتغيرها عليك فإنه قد أبان في تنزيله ذلك حين قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

[الرعد: ١١].

يا هذا! قد ناجيتك وناديتك وناغيتك، كل ذلك بلطف قصدتك به، وشفقة أثرتها: تارة بأن أريتها إياك حتى تنقي ما بك مما قد أقداك، وتارة عرضت عليك صفاتك حتى تعرف منها حقيقتك فتصح لنفسك، وتارة حدثتك عن إخوانك وأعدائك لتأخذ أهدبتك فيما يجب لك وعليك، وتارة نكرت عليك الظاهر لترتاض، وتارة شوقتك إلى الباطن لتعتاض، وتارة سفرت بينك وبين ربك ليصير لك عنده وزن فيخصك إذا قرعت بابه ذاكرًا، أو إذا حضرته مفكرًا، أو إذا شهدته واجدًا، أو إذا وجدته مشهودًا، أو إذا أجبته مُلبّيًا، أو إذا دنوت منه مجيبًا، أو إذا أخدمته متحبيًا، أو إذا ناجيته مُتَقَرِّبًا، أو إذا أخبرته عنه شاكِرًا، أو إذا وصفته ممجدًا. فما جزائي على ما تفرغت لك به؟ وما ثوابي على ما أفرغت عليك من ذنوبه؟ إنما جزائي أن تضاعف سماعك مني، وتزيد في إصغائك إليّ، وتقطع ما بيني وبينك بسبيي، وتصل ما بينك وبينك من أجلي. فإن قبولك مني يزيدني رغبة في إرادة الخير بك جهدي وطاقتي.

إلهي! إني قد لاطفت عبدك ليفيء إليك، ويطلب ما لديك، فأعنه على ذلك، وأعني عليه في ذلك، فإنك الجواد المالك.

يا هذا! قد نبهت منك عليك فلا ترقد، وقد عرفت ما لك فيك فلا تغفل. وسبق إليك ما كان غائبًا عنك فاستكن. وكيفما دارت بك الدائرة فكن مستكينًا فإنك تُرحم؛ وإذا رُحِمْتَ فقد فاز قدْحُك، وأوري زَنْدُك. إن الرحمة من المولى للعبد مبلغة بالعبد المبالغ. وإياك [١٢٥ب] وإلف السَّهْوِ، فإن الساهي ههنا جدير هناك بالندم والأسف، والسَّدَمِ واللَّهْفِ.

(١) الكن (بالكسر): وقاء كل شيء وستره، والبيت. والجمع: أكنان وأكنة. وظليلة: كثيرة الظل، أي ندية بالرأفة والرحمة. وفي (ع): ظليلة.

اللهم أعنا على أنفسنا الوثابة علينا حتى تقممعها عنا فتعبدك بعزائم الأحرار وشكائهم
الأبرار، يا ذا الجلال والإكرام!

رسالة (٤٤)

اللهم إِنَّا ندعو^(١) بلسان الإخلاص من مَعْدِن الاختصاص، فنقول: إلهنا! لا فقر لنا
إلا إليك، ولا اعتماد لنا إلا عليك، ولا قرار لنا إلا لديك؛ أنت كهفنا الحصين، وحبلنا
المتين، ومالكنا الرؤوف، ومُدَبِّرنا اللطيف - فهب لنا من لدُنكَ رحمةً واسعة تَغْمُرنا
بجودك وكرمك، وأفض علينا من عندك نعمة سابعة تُسَرِّنا بفضلك ولطفك، ولا تَكِلنا
إلينا فنعجز عن إصابة خيرك، ولا تَرُدِّنا علينا فنكسد على غيرك.

أيها السامع! احضرْ بقلبك، واستدركْ بلبِّك، وانظرْ لنفسك في يومك بغير ما كنت
عليه في أمسك، وانته للزاجر من ربك، والتفت إلى اللَّمَّة^(٢) من الملك الموكل بك! فلا
خاسر أخسر منك إن لم يكن لك سكون من يقين، أو تبصُر من معرفة، أو حياء في مراقبة،
أو خوف من سطوة، أو رغبة في قرْبَة، أو طمع في وُصْلَة، أو ندم على هفوة، أو حنين إلى
مناسمة، أو ظمأ إلى مجالسة، أو إشارة إلى عين التوحيد، أو عبارة عن مَحْض التجريد،
أو نقطة من عقل قد حُفَّ بالتأييد، أو وجد لمشاهدة خَلَصَتْ على الاتصال والتأييد. فإن
جَسَرْتَ على أن تدعي هذا المقام وتحدث نفسك بهذا المرام، فهات العلامة التي تدلُّ على
هذه الكرامة، فإن الدعوى بلا برهان مردودة، والنفس في الغاية بلا طمأنينة مكدودة - قُلْ
متى كان الليل مطيتك بالتهجد؟ متى كان النهار متصرفك بالتزهد؟ متى كانت ساعاتك
مشغولة بالتفرد؟ متى كانت حركاتك مقصورة على التعبد؟ متى كانت سيرتك جارية
على التوحش والتأبد؟ متى جعلت حياتك قعودَ سَفَرِك؟ متى قصدت الجنة بغاية وطرك؟
متى وجدت الله في أقاصي نظرك وفكرك؟ متى تركت الدنيا قاليًا لها ببصيرتك؟ متى

(١) في (ر): لا ندعو، ولعل أصله: «لندعو».

(٢) اللَّمَّة: الشدة، الخطرة في القلب، الدنو. وفي (ع): اللمد.

أصبحت ماقنًا لها بخبرتك؟ ما اعتبرت^(١) فيها ما وصفها به الواصفون: أليس قيل: الدنيا سِجْنُ المؤمن؟ فلم جعلتها أنت رَوْضَتَكَ وبهجتك؟ ولم أدخلت إليها بجهلك [١٢٦أ] وغررتك؟ وهلا أخذت في تحصيل ذلك أهبتك؟ متى كان العقل دليلك في طريقك؟ متى كان الجوع والعطش صاحبك في حالك؟ متى كان اللوم والزراية مُعينك على نفسك الأمانة بالسوء؟ متى اتخذت الصديقين إمامك وإخوانك في أمرك؟ متى استظهرت بالورع والتقوى في شأنك؟ متى كان ذكر الله بالخشوع شعارك، والافتقار إليه دثارك؟ متى كان القرآن حديثك والخلوة بمناجاة الله ديدنك؟ متى اتخذت الصبر وسادة، والصمت عصابة، والحكمة جُنة، والتسليم حُجَّة، والخوف قرينًا، والرجاء خدينًا^(٢)، والتوبة فراشًا، والأمانة رياشًا، والاعتبار معاشًا؟ أين سهر العيون وموت الطباع في المخالفة؟ أين حنين القلب وشدة النزاع إلى الموافقة؟ أين راح النفوس والشوق إلى المحل المأنوس، والتطعم من ذلك الجَنَى المغروس؟ أين متعة الأرواح بطرائف المساء والصباح، وهناء [النفوس] بالغدو والرواح؟ أين الهشاشة بالنجاح، والبشاشة بالفلاح؟

ألا تعرف الفرق بين الظلام والشعاع يا من تهاون بنظرة الله إليه حتى استجرأ بجهله عليه، غير ذاكر لموته، ولا خائف من فوته؟ يا من عظم جُرْمُهُ، وتضاعف عَزْمُهُ، وقلّ بما عليه وله علمه! يا من طالت غفلته، واستحكمت قسوته، واستمرت على ما ساءه وناءه زلته! يا من امتد به نومه، وضاع أمسه ويومه، وشَمَتَ به عشيرته وقومه! يا من قلّ حياؤه فلا يكثر ث نظر الله إليه، ولا يهاب اطلاعه عليه! يا من توالى وَعْدُهُ، وتمادى خُلْفُهُ، وتقدم عهده، وقُرْبَ نكثُهُ، وحَلَفَ بعزته فما وفى، وغُمس في ينابيع الهدى فما صفا، ووَلَّى أمر معاشه ومعاذه فما كفى! يا من يُدمِّرُ أحبَّته وأعزته وإخوانه وجيرانه كل يوم فما يُقلِّع عما عليه من البَغْي والزهو والغشْم^(٣) والظُّلْم! يا من ذنوبه لا تحصى مع التضييع لما أمر به! قد رضي أن يكون مطرودًا عن باب ربه لا يراه أهلًا لمعاملته. صدق الحكيم المتقدم:

(١) في (ع): اعتذرت. (٢) خدينًا: صاحب، صديق حميم.

(٣) الغشم: الظلم الشديد.

لا يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه^(١)

يا أبا العثرات بعد العثرات! يا كاسب السيئات بعد السيئات! يا صريع الشهوات في الشهوات! [١٢٦ ب] يا خائضاً في الشُّبُهات على الشُّبُهات! يا أسير اللذات في اللذات! يا قرين الغفلات في الغفلات! يا ثاوياً في الضلالات بعد الضلالات! يا معتقداً في الجهلات بعد الجهلات! متى يكون انتباهك؟ وإلى أي حد يبلغ سهوك؟ لعمرى فطام الأرواح عن الأجساد شديد، ولكن هلاك الأرواح والأجساد أشد، وفوت الدنيا والآخرة خسرانه أبين وأبين. ويحك! إذا فاتك الله فبم تسلو؟ وإذا وجدت الله فعلام تحزن؟ أما تعلم أن في الله عوضاً من كل فائت، ودركاً لكل مأمول، وبلوغاً إلى كل مراد؟

ألا قفوا على ديار الهالكين، واستخبروها عنها إن كنتم شاكين، ونادوا في أقطاب الربوع الهامدة، وأثار الجموع البائدة: يا منازل الأمم الخالية، ومعقل أولي الهمم العالية! ما فعل سكانك الأولون، وأين حلّ قطّانك المتحملون^(٢)؟ وكيف تفرقت تلك الأجسام الكثيفة، واضمحلت تلك الجواهر الشريفة؟

أيها المغرور عن تصاريף الأيام! ما أغفلك! أما تعتبر بمن كان قبلك! ألهامهم الأمل فهم ساهون، وغرّتهم الأماني وهم غافلون، واخترمتهم^(٣) يد المنون وهم يلعبون، واعتورتهم الأيام بكرّ صروفها وهم يمرحون. لقد ناداهم ذو الجلال بالتنبيه لو كانوا يسمعون، فقال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ إلى قوله^(٤): ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩]؟

أنذرتكم الأيام بعبرها فلم ترتدعوا، وأرتكم الليالي تقلبها بأهلها فلم تنتفعوا، وناذتكم الدنيا بترك السكون إلى لذاتها فلم تستمعوا. خدعتكم الشهوات فملكتمكم،

(١) البيت لصالح العباسي، الأمير، عم السفاح والمنصور، وأول من وُلِّي مصر من قبل الخلفاء العباسيين. (الأعلام للزركلي ١٩٢/٣، وابن عساكر ٦: ٣٧١).

(٢) نحل: سافر وارتحل. (٣) اخترم الموت القوم: استأصلهم، أهلكهم وأفناهم.

(٤) جاء بعدها في (ر): ﴿يَسْمَعُونَ﴾ والآية التي تنتهي بهذه اللفظة هي الآية رقم (١٠٠) وتقع بعد قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ رقم (٩٩).

وغرّتمكم الأماني فأهلكتكم، وسباكم الشيطان من أوطانكم فباعكم في أرض أعدائكم بثمان بخس، فخرستم وربح عليكم، فبقيتم في بلاد الغربه حيارى متلذذين^(١) بلا أنس ولا سلوة، فأنتم بين شَرِّ بشرته غَصَّان، وشَجِّ بغصته ظمآن، ومُدَلَّ بشهوته حيران، ومقلقل بلوَعته ولَهَّان. قد غرقتم في بحار الغرور، وتُهِتَم في مَهَامه الثبور، وبُعْتَم^(٢) في مَنَابِتِ الندامة، وركضتم في ميادين أجرامكم التي تلزمكم منها الملامة، فلا إلى ثقة [١٢٧أ] من سراركم تسكنون، ولا في مدة آجالكم لأنفسكم تمهّدون، ولا من غضب ربكم يوم القيامة مشفقون. إن عذاب ربكم غير مأمون. أما سمعتموه يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧]؟ فيا للساجمين على شَجْو أنفسهم العبرات! ويا للمقطّعين نياط قلوبهم بالزفرات! ويا للهائمين على وجوههم من شدة الحسرات! ويا للاطمين من حُرِّق الوجد خدودهم والوَجَنَات! فيا رحمتا^(٣) لقوم بعدوا عن منازل المقربين فسحقت ديارهم، ونأوا عن درجات الفائزين فانمحت آثارهم، ونُفُوا عن باب الله الكريم فقبحت أخبارهم. فلو رأيتم يوم العَرْض، وقد ساخت بهم^(٤) الأرض، فندموا على ما فرطوا أيام المَهْل، وحقت عليهم كلمة العذاب بالوعيد الأول، لعلمت أن التاجر في الدنيا من صادف ربحه في الآخرة، والناجي منها من قنع بالفَلَقَة والخِرْقَة. أتدري ما كلمة العذاب؟ قوله: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ [الزمر: ٧٢]، ﴿أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. آه من الشقاوة التي ليس بعدها شقاوة!

يا هذا! من سمع نداء الحق في أعماق جوانح سره، شهد الأول والآخر في عجائب أمره. ومن ارتاح إلى صيانة ما تحت ستره، أخذ بضْبُعِهِ إلى غاية ما أريد في دهره وبعد دهره. ومن فتح فاه ناطقاً بودائع الحق في صدره، أَهْلٌ لذخائر ما في ملكه من تُحَفِهِ وبرّه. ومن غبن نفسه بنفسه، نكص على عقبيه في حياته وعُمْرِهِ. ومن اتكل على عفوه مع إصراره فقد باء بسخط في وَزْرِهِ وضيق عذره في عذره. ومن لزم حُدود العبيد في صبره

(١) في (ر، ع): متلذذين.

(٢) من باع يبيع: أبعد خطاه.

(٣) في (ر): فارحمتا.

(٤) ساخت بهم الأرض: انخسفت.

وشكره، فقد أُن من استدراجه ومكره. ومن استعزَّ بوجده وقوته، فقد حشد على روحه من يأتي على عَقْرِهِ ونقره^(١).

يا هذا! إن كنت عبداً فالرُقُّ بالذلِّ والقُلِّ. وإن كنت رباً فأبرزُ قدرتك على ثقة. أنت هنا لست هناك، فلم تجمع؟ اشهد ضعفك في قوتك، وأشرف على قوتك في ضعفك، تجدك منقوصاً بعد الزيادة. وَرَدَتْ قبل أن تحوم، فَشَرَقَتْ. ولو حُمَتْ قبل أن تَرْدَ لشربت سائغاً، وجرعت هنيئاً، وثملت ناهلاً، وعلمت أنك مكفِّيٌّ مُعَانٌ، ومُشَرَّفٌ مُآن^(٢). فالآن وقد خذلك سوء الاختيار، لُدَّ بحسن التنصل والاعتذار، فليس لك من دونه اقتدار ولا انتصار. إن قبلك فلفضله عليك، وإن رَدَّكَ فلنقصك الذي لا يخفى عليك، وإن عاتبك فلأنه يستصلحك، وإن أعرض عنك فلأنه [١٢٧ ب] يستدرجك، وإن ناغاك فلأنه يحب أن يجتبيك، وإن محا ما بينك وبينه فلأنه قد قلاك واطَّرحك.

يا هذا! إياك أن تسأله في الطاعة إلا الطاعة في الطاعة، وإياك أن تطلب منه العطية ولكن العطية في العطية، وإياك أن تشير إليه بالإشارة ولكن الإشارة في الإشارة. أتعل ما تسمع؟ أو تلذ ما تجرع؟ أو تخشى ما يلقي إليك من هذه النجوى التي فاتت أهل الدنيا؟ ليس لهم منها لا^(٣) الشخص ولا الظل، ولا الكثر ولا القُلِّ.

يا هذا! الطاعة في الطاعة الإخلاص، والعطية في العطية الرضا، والإشارة في الإشارة التجريد - فحدثني بعد هذا الشرح: هل وقع دوائي منك على الجرح؟ وهل وجدت خفاء من البرح^(٤)؟ وهل وثقت بروح البرء بعد مَسَّ القرَح؟ إن كنت مراداً فقد نوديت، وإن كنت مُزْدَاداً فقد بوديت، وإن كنت مردوداً فقد عوديت، وإن كنت مجتبي فقد هوديت. أنت أعلم بنفسك بقدر ما أُعْلِمْتَ، وأبصر بها بقدر ما بُصِّرْتَ. إنما أروك العين لتبصر العين في العين، وأشهدوك الشاهد لتشهد الشاهد في الشاهد، وأخبروك عن الغائب

(١) العقر: أصل كل شيء: وفي الحديث: خير المال العُقْر (بالضم) وقيل هو بالفتح. أراد أصل مال له نماء. والنقر: النكتة في ظهر النواة، يمثل بها على الشيء القليل. والمعنى: يأتي على ما كثر وقل لديه.

(٢) اسم مفعول من آنه: رفق به.

(٣) في (ر): إلا.

(٤) برح الخفاء، أي: وضع الأمر.

لتغيب في الغائب، وكلفوك ليرفّهوك، وثقلوا عليك ليخففوا عنك، وكّدوك ليلبغوا بك الراحة التي لن تنالها إلا بالكّد. فلا تتهم مالكك، ولا تستغشّ ناصحك، ولا تتركّن إلى ما سَوَلّت لك نفسُك وزخرفه لك هواك، وأعاده وأبدأه قرين السوء معك. واعلم أنك بعرض أمر جسيم، ومُرادٌ بخطر عظيم، ومدعو إلى خلود ونعيم مقيم، في جوار رب كريم. أفلا تبذل على هذه المكرمات كدَّ عمر قصير، وتعب أيام معدودة قد ذهب أكثرها باللهو واللعب، وبقي آخرها بالكلال والتعب؟ لئن بذلت قليلاً، لتعوضنّ كثيراً. ولئن نصبت يسيراً، لتستريحنّ طويلاً.

يا هذا! دع هذا وخُذ بنا في حديقة الحداثق، لعلنا نتخلص من هذه البوائق، ونسلم على هذه العوائق، وننسلّ عن هذه العلائق، ونتلبس بتلك الأنوار والبوارق، واسمع ما أقول لك في وصف الملكوت الذي قد بهر الخلائق، وميز السوايق من اللواحق: تراءت المناظر فحارت النواظر، وتوارت المخابر [١٢٨أ] فتبارت الحوار^(١). فأما ترائي المناظر فبشواهد الحق [الذي هو المعمور فيها والمغلوب بها]^(٢)، المترائي فيها والمرئي منها، والمُربى عليها والمرابي بها. وأما حيرة النواظر فبشواهد الخلق الذي هو المعمور فيها والمغلوب بها والمقلوب بها والمقهور عليها. وأما توارى المخابر فللعزّ المحفوف بها والسلطان القائم عليها والتدبير الخافي فيها. وأما تبارى الحوار فبلغيرة عليها والوجد بها والشوق إليها واللهف عليها. وهذه حدود ما لاذ بها بشر إلا بقي مسحوراً، ولا بحث عنها إلا عاد مبهوراً مقهوراً، ولا أفرج عنها إلا كان معذوراً، ولا ادّعاها متكذباً إلا كان مهجوراً منكوراً.

رسالة (٤٥)

من قرع باب الله ولج، ومن طلب ما عند الله أدلج، ومن توجه إلى الله استسلم، ومن طلب المكانة العلية عند الله استعصم؛ ومن ذاق ما لدى الله استجلاه، ومن اشتاق إلى ما وعد به استجلاه. وفي الجملة، من تأهب واستظهر بزاده، وخفض من مقاده،

(١) الحوار: الأمور السارة. جمع حابرة، أي سارة.

(٢) كتب فوقها: معاد.

وتعرّى من مراده، فإنه يصل إلى غبطته وبهيجته وراحته ورشاده. ومن سكر من شراب الدنيا، هلك في خُمَار^(١) الهوى، وبعد من أوطان الهدى، وتاه في أودية الردى.

يا هذا! انتصحي^(٢)، فوالله ما آلوك جهدًا فيما عاد عليك بالثمرة الحُلوة والمَسرة الباقية والجَدوى الحسنة. وإن رددت نصحي وتأففت عند قلبي، وسددت [دون]^(٣) ذلك كله أذنك مكيدةً لي، وأنفةً مني، فلا عَجَب! فلك في هذا شركاء، وهُم بأمثاله ملاء^(٤). ولا عجب منك، فيما تسمع، إذا نأيت عنه. فها أنا أقول ما أقول، ونصبي منه أقل القليل. ولولا أنني مراد بما ترى، لنكصت عن طريقة ليس لي فيها زاد ولا قرى. فما أقبح النصح إذا كان الناصح به مخالفًا لنُصحه في سيرته، وما أسمح الوعظ إذا كان الواعظ به غير متحلٍّ لأحسنه، وعندي أن الدعوى بلا بيّنة فضيحة، والظاهر بلا باطن فاحشة، والقول بلا حجة بُهتان، والتمني بلا سعي صغو^(٥)، والسعي بلا توفيق شقاء، وركوب البرّ بلا دليل بلاء وعناء.

أيها الراكب سنام الدنيا، المُعرَض عن حُرْم المولى، التارك للطريقة المثلى! أبشر بالخُسْر والعُسْر وضنك المعيشة [١٢٨ب] في الآخرة والأولى! أيها الجاهل تعلّم! أيها العالم اعمل! أيها العامل أخلص، أيها المُخلص اثبت، أيها الثابت استمسك، أيها المستمسك خَفِ المكر! أيها الخائف ارجُ! أيها الراجي ازود! أيها الواعظ اتعظ قبل أن تعظ! أيها السامع احتفظ قبل أن تستحفظ! أيها الشامخ تطامن! أيها الذاهب في الشمال تيامن! أيها المطرود عن الباب أجدِ البكاء لعلك ترحم! أيها البائس أفلح واندم لعلك تقبل وتكرّم! أيها الخائض في غمرات هذه العاجلة رَوِّ لعلك تسلم! أيها المغتر بالصحة والشباب اعلم أنك ستسقم! أيها المسرور بالمال والولد والريح والنعمة تنبه لعلك تعدّم أو تُعدّم.

(٢) انتصحي: اتخذي نصيحًا.

(٤) ملاء: جمع ملائ.

(١) الخُمَار: ما يعقب شرب الخمر من صداع وأذى.

(٣) زيادة لازمة.

(٥) صغو: ميل وانحراف.

إلهنا! لولا قِحْتُنَا معك لم نستقبلك بوجوهنا مع اللَّطَخِ^(١) الذي بنا، والدَّرَن الذي قد غلب علينا. ولولا جودك وكرمك لم تؤهلنا لما أَهَلَّتْنَا لأننا نذكرك بالسنّة سليطة في الخنا والشرّ والقَدْعِ^(٢) والزُّور، ونشأقك بقلوب مُطْفَحَة بالرياء والنفاق والخبث والفساد والريّة، ونُدِلُّ عليك بأعمال إذا قَدِمْنَا بها عندك جعلتها هباءً منثورًا لأنك لا ترى فيها نَفْسًا خَلَصَ لك، ولا وَهْمًا سَلِمَ من سِوَاكَ، ولا خيالًا جرى على مَرْضَاتِكَ. ثم إذا كان هذا حديثنا في ألسنتنا إذا ذكرناك، وفي قلوبنا إذا اشتقناك، وفي أعمالنا إذا قصدناك، فكيف ننجح عندك، وكيف نسلم عليك؟ إلا أن الظن بك يا ربّنا جميل، وأملنا فيك قوي. لا بل بدأتنا بما لم نكن أهله من الكرم والجود والإحسان والفضل. ومن بدأ بالحسن عاد بالأحسن، وأنت البادي بالحسن والعادي^(٣) بالأحسن. هذا حكم أنت أقمته في عقولنا حين أعلمتنا كرم الكرام، وأنت فوق كل كريم. فكيف لا تعود بمثل ما بدأت به وبأزيد منه ونحن نضرعُ إليك هذا الضَّرْعَ، ونلوذ بك هذا اللِّياذ، ونعفر وجوهنا لك بالخشوع والذلة. وأنت حين بدأت بما بدأت لم يكن من شيء من هذا الذي وصفناه؛ وكيف تخيب مسؤولاً^(٤) وقد أنلت مبتدئاً^(٥)؟! هذا ما ليس في عقولنا التي وهبتها لنا وجعلتها حجة علينا.

أيها الصاحب الطروب على ما تسمع! إياك أن تُفْتَلِ^(٦) عن حظك وتخدع، فتسيل في وادي الرجاء غير عامل على [١٢٩ أ] كيس^(٧) المستظهرين، ولا آخذًا بجِدِّ المُسْتَبْصِرِينَ. يا هذا! إن الله وَهَبَ لك هذه الأَحْسَاسَ لتعتبر بها فيما ترى، وتسمع، وتذوق، وتشم، وتلمس، فجعلت الاعتبار بها بَطَرًا وأَشْرًا، وتألَّبت على واهبها لك منهمكًا مستكبرًا. أهكذا يُشْكِرُ المنعم، وبهذا تُقابل النعم، وإلى هذا كان الشوط، وعلى هذا كان الشرط؟ ما

(١) اللطخ: التلوث.

(٢) القَدْع: الفحش.

(٣) لعل عادي هنا منقبة عن عائذ لتناسب مع «بادي».

(٤) أي حينما تسأل.

(٥) أي مبتدئًا بالمعروف قبل أن تسأله.

(٦) فته عن كذا: صرّفه.

(٧) الكيس ضد الحماقة، وهو الخفة والتوقد.

أقل حياءك! وما أصلب وجهك! وما أوقع حَدَقَتَكَ! بل ما أغرقك في بحر الجهل! وما أتيهك في بَرِّ الضَّلال! بل ما أعماك عَمَّا لَكَ، وما أبصرَكَ فيما هو عليك!

يا عدوَّ نفسه، وجالب حَتْفِهِ بيده، ويا شارِب سَمِّهِ بأنفه، ويا خانق حَلْقِهِ بحبله، ويا مُخَرَّبَ بيته بساعده، ويا سبيَّ النظر لنفسه، ويا جاهلاً بحظه، ويا مستعقِباً لحسرتَه بذنبه، ويا مُجَهِّزاً على روحه بخنجره: إنما أنعم عليك هذه النعم المختلفة وشابها بما أثر في صفاتها، لتحنَّ إلى نعم هي أصفى منها وأوسع، وأدوم وأرفع، وأطيب وأسيغ وأهنأ، حتى إذا حننت إليها سألت عن الأسباب التي تَوَصَّلُك بها وتوفر قِسْطَكَ منها من خير تفعله، وشر تنكبه، وجائع تُشبعه، وعار تكسوه، وجارٍ تُسفعه، وخائف تُؤمِّنه، وضائع تحفَظه، وذمام تَعْقِده، وفقير ترفده، وحق تنصره، وباطل تخذله، ومَسْجِد تَعْمُرُه، وبر تتعوِّده، وضال تُرشده، وداع تحببه. فهذا وأمثاله تُشكِّرُ النِّعم وتُستدام، لا بمخالفة الله وعِصيانِه والعكوف على مَحَارِمِهِ، والمجاهرة بما يُبْعِد من رِضْوَانِهِ.

يا هذا! قد صرَفْتُ لك القولَ، وضَرَبْتُ لك الأمثالَ، وافتننت في اللفظ والمعنى ناصحاً لك، وطالباً لسعادتك، وهادياً لك إلى راحتك. فإن أصغيت إلى هذه كلها قابلاً، وتشبثت بها عاملاً، وثَبَّتَّ عليها راجياً آملاً، ضمنتُ لك الفوز بالنعيم الدائم، وبالحياة الصافية، وبالعيش الطيب، وبالرَّوْح المتصل، وبالرضوان الرفيع، وبالنظر إلى وجه الله الكريم كفاً بلا حائل ولا حاجز. وليس بعد ذلك أَمَلٌ أضمنه لك، ولا مطلوب فأشوقك إليه.

يا هذا! غَيَّبَ هذا الحديثُ خاف، والرمزُ عنه متجاف، وإنما ندندن حول هذه المعافي، هنالك تنال ما لا أُذِنَ سمعت، ولا عَيْنَ رَأَتْ ولا حَظَرَ على [١٢٩ب] قلب بشر. فتق - عافاك الله - بهذا الذي كنيّا عنه ثقةً توفي على ما صرحنا به، فإن غاية الإيمان اليقين، وغاية اليقين ما تجده بقلبك، وتُحِسُّه بروحك، وتهيم عليه بفؤادك، وتسلب به عن نفسك وحسك. وإن عبداً بَلَغَ مع الله هذا المَقَامَ، لجديرٌ بأن يكون قَريرَ العين، مغبوطَ الحال، عظيمَ القَدْر، واضح العذر، شريف الحِلْيَةِ، عجيب الجملة، غريب التفصيل، بديع الخبر، طريف الأثر، عزيز الوصف. إن ذُكِرَ وُجِدَ عليه، وإن نُعتَ اشتيق إليه.

اللهم كما علمتنا هذه الصفات التي تختصُّ بها من تشاء من عبادك بمشيئتك السابقة، وقدرتك النافذة، وحِكْمَتِكَ الخافية، حتى وصفناك بوصف شاف، وذكرناك بذكر بالغ، فخلنا حتى نظهر لك بحسنها وتَجَلَّى لعبادك بنورها، وندعوهم إلى خدمتك بما يعود عليهم مِنها، ونعدهم عنك مثلها، ونكون سبباً لهم في محبتك وعبادتك، ولزوم فنائك، وطلب عطائك، وغشيان بابك، والتعلق بأسبابك، وانتحال توحيدك، واللَّهَج بتمجيدك.

إلهنا! أنت أهَلَّتنا لهذا التوجُّه، وألهمتنا هذا الدُّعاء، وصرَّفَتنا في هذه الفنون، وأرتعتنا في هذه الرياض، وسقيتنا بهذه الكؤوس، وغمستنا في هذه العيون، وأوردتنا هذه الغُدران، وأطلعتنا على هذه الشنايا، وحييتنا بهذه التحايا، وأوسعتنا من هذه العطايا، وناغيتنا في المنام، وصارحتنا في اليقظة. فكما أهَلَّتنا لهذا كله فأهَلُّنا لرضاك عنا، وإحسانك إلينا، ولرفقك بنا، ولصنعك لنا، وزدنا بعد ذلك ما لا نهتدي إليه فنسأل، ولا نعرفه فنطلب.

اللهم إنا لا نشبعُ من فضلك، ولا نروى من إحسانك، فلهذا نلجُ ونلحف، ونطلب ونقترح، ونتجاوز قدرنا في الانبساط.

يا هذا! إن كنت ظامئاً فردَّ ولو حبواً، وإن كنت غريباً فاستأنس فلك المثنوى، وإن كنت عليلاً فصِفْ ما بك فإنك تشفى، وإن كنت فقيراً فتعرَّضْ^(١) فلك الغنى وما فوق الغنى، وإن كنت ضالاً فاضرع فلك الإرشاد والهدى، وإن كنت معزولاً فاخطب [١٣٠أ] فلك الولاية الكبرى، وإن كنت مهجوراً فاعترف فإنك تنال المرتبة العليا، وإن كنت حزيناً فاذكر فلك الفرحة الطولى، وإن كنت عاتباً فتلطَّفْ فلك العتي، وإن كنت مبتلى فواصلْ فإنه تُصرف عنك البلوى، وإن كنت تريد الدنيا فلا تذكُرْ المولى. أما تعلم أن العيش مع المولى أحلى من المَنِّ والسَّلوى؟

أما ترى بالله يا صاحبي ما نحن فيه؟ نَعْرِفُ كأنَّا لا نعرف، ونعرف ما نصفُ كأنَّا لم نصف. قلوبٌ تعترف، وألسنة تختلف، وأعمال لا تتظم ولا تأتلف. ليت هذا لم يكن شقاء بنا، ولا استدراجاً لنا!.

(١) أي: توجه بالسؤال إلى الله.

اللهم إليك نفرع في كل ما هَمَّ وَدَهَمَ، وعليك نتوكل في كل ما ناب وأَلَمَّ. وقد أَهَمَّ أَمْرُنَا، ودهمنا بلاؤُنَا، ونابنا التقصير الذي فضحنا، وأحاط بنا الخوف من الخزي المالك لنا. فاكفينا أنت، وارؤف بنا أنت، واعطف علينا أنت، فإنك أنت أنت، وإنما نحن بك لأننا لك. نتقلب في ظلال نعمتك، ونرجو غواشي رحمتك، ونسألك الاتصال بك، والدعاء إليك، والخشوع لك، وأنت مالِكُنَا وَمُصَرِّفُنَا، فارزُقْنَا رضاءنا عنك برضاك عنا.

أيها السامع! هذا لسان الحق واعظًا وموقظًا، فانظر أين أنت منه، فإنه إن كان لك فيه نصيب فأنت حبيب، وإن لم يكن لك منه نصيب فأنت غريب، وإذا أردت أن تعرف نصيبك منه فانظر إلى سرِّك كيف استنارته عند ذكر الحق، وإلى قلبك كيف استراحته عند مجاري الأحكام، وإلى روحك كيف هشاشته وبشاشته إذا صدرت بوادي الغيب إلى مواطن الملك، وإلى شمائلك كيف اهتزازها في أرجاء القدس، وإلى نفسك كيف استجابتها للصبر عند الكوارث، وإلى جملتك كيف انتهاضها بأثقال الحوادث، وإلى كُلك كيف ثباته عند اختلاف الصوارف والبواعث، وإلى بعضك كيف فراره عند طلوع السواحر النوافث، وإلى وجدك كيف صحته عند السماع، وإلى طمأنيتك [وصفك] كيف طمأنيته عند الوداع، وإلى طاعتك كيف [١٣٠ب] إخلاصك فيها عند الهزاهز، وإلى معصيتك كيف نفورك منها عند الحوافز.

تصفح النفس - عافاك الله - صعبٌ، وحملها على الجادة شديد، وإذعانها للحق مُعَوِّز، وإنصافها متعذرٌ، والانتصاف منها معدوم، وبلاياها بلا نهاية، وسراياها بلا آية، لها خداع ولك انخداع، فما الذي يبقى من الخداع والانخداع مع شرِّة^(١) العادة، وخُبثِ الطباع، وبين مكاره الوقت وفتن الزمان؟ لأن الكلمة متشعبة، والدعوة ملثثة، والرحمة مفقودة، والوصاة بالغيرة مهجورة، والقبائح فاشية، والخيانة ناشية^(٢)، والاصطلاح واقع على رفض المواعظ وترك التناصح. لا جرمَ اللبيب كئيب، والمُحَصِّلُ غريب، والقول في هذه الحال العامة الطامة طويلٌ عريض، فقد أصبح الدين وما لمنهجه سالك، ولا عن

(١) شرِّة: حدة، نشاط.

(٢) نشى بالشيء: أحبه وعاوده مرة بعد أخرى.

حُكْمه سائل؛ وأمست الدنيا وحُلُوها مُرٌّ ونفعها ضُرٌّ. غلب والله اليأس^(١) لما قد غَمَرَ الناسَ. إليك المُشْتَكَى يا إلهنا!

يا هذا! الدارُ دارُه، والخلقُ خلقُه، والمصادر عنه! والموارد إليه، والمشية منه، والتصاريف بإذنه، والحوادث بأمره، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. فما بالنّا نقلق هذا القلق، ونفترق^(٢) هذا الفرق؟ أيحسن بنا أن ننازعه التدبير، وأن نرد عليه التقدير، وأن نظن أن نظرنا أصلح، ورأينا أصح، وعلمنا بالغيب أولج، ومعرفتنا بالكون أبهج؟ لا والله! ما هذا بلائق بنا، ولا مُسَلِّم لنا، لأنّا أذلاء بالفطرة، عبيد بالخلق، مسوطون^(٣) بالحاجة، محمولون على المسكنة. إن رأينا فال^(٤) رأينا، وإن ظننا التبس بالشك ظننا، وإن حكمنا اختلط بالجور حكمنا، وإن وهننا اتصل المحالُّ بوهننا. فكما لنا صادر عن التقصير، وعلمنا مشوبُّ بالجهل، وواضحنا راجع إلى العويص، وصلاحنا ممزوج بالفساد. فعلى هذا كيف يصح لنا قضية، وكيف تنجلي لنا خفية، وكيف تغنم لنا سرية؟ وكيف تصفو لنا عطية، وكيف تصدقنا روية، وكيف تخلص لنا طوية، وكيف تبقى فينا بقية؟ هذا ما لا ينبغي أن نطمع فيه وأن نحوم حومه، ونروم رومه.

بلى! إن الذي يجب علينا، ويحسن بنا، ويدخل في آداب العبيد مع ساداتها، أن ننظر إلى الملك على مجاري كون الكائنات، مُسَلِّمين مُذْعين، متعجبين مُعجبين؛ فما كان مُواطئاً^(٥) لذيذاً قبلنا بالنشاط والأريحية، وما كان منافراً شديداً حملناه بالمرّة^(٦) السوية والعقيدة القوية. فإن التردّي بهذا الرداء، والاستطهار بسكنى هذا الفناء، مَجْلِبَةٌ لسواغ النِّعماء، مَكْسَبَةٌ لمهانى العطاء، مَسْلَبَةٌ لأثقال العناء، مَطْرَبَةٌ بأنواع الغناء، مَطْرَدَةٌ لأسباب الفناء، مَقْرَبَةٌ لأحوال البقاء.

(١) مخففة من اليأس.

(٢) ربما قرئت: نفرّق هذا الفرق بمعنى: نفرّع هذا الفرع.

(٣) مسوطون: من (ساط)، ساطه بقضب: جلده، ضربه بالسوط، والمعنى: مجبرون ومقيدون.

(٤) فال رأيه: أخطأ وضَعُف ولم يُصَبِّ.

(٥) أي: سهلاً ميسوراً.

(٦) المرّة: القوة وشدة العقل.

هذا ما أفضى إليه نظري، ووقف عليه بصري، واحتوى نحوه وردي وصدري، وطاح في عُرْضه خَطَرِي وغَرَرِي، بعد الاستخارة المقدمة، والاستشارة المتممة، وبعد توجه القلب لصفاء الضمير، وبعد التَّبَرُّء من التقدير والتدبير. فإن سَرَّكَ أن تبرز بهذه الخلعة، وتتخلص من ضروب الخدعة، وتفوز بغرائب المتعة بعد المتعة - فافعل، فإن الحظ في ذلك كله لك، والريح في يدك، والغبطة مكتنفة لطيفك، مشتملة عليك. والسلام!

رسالة (٤٦)

كُتِبَ إليك والربيع مُطَلٌّ، والزمان ضاحك، والأرض عروس، والسماء زاهر^(١)، والأغصان لدنة، والأشجار وريقة، والغُدران مُتَرَعَّة، والجبال مبتسمة، والرياض معشوشبة، والجنان ملتفة، والثمار متهدلة، والأودية مُطَرَّدَة. فما تقع العين إلا على سندس واستبرق ووشي اليمَن وديباج الروم ونقش الصين. وكما أن للعين في جميع ما وصفت مَرَادًا^(٢)، كذلك للقلب في عُرْض ذلك كله مُرَاد. ولكن أين القلب وأين صاحبه؟ وأين العقل وأين ما يعقله؟ العين تبصر الألوان وتكلُّ، والنفس تضمّر الأحزان فتضل، وليت الحبيب دَنَا بعد نأيه، وقَرُب بعد بُعْده، فكانت حرارة الفؤاد تبرد، وحَسْرَةُ الروح تخمد. وليت الحبيب كان يَهْمُّ بالوصل، ويأذن في اللقاء، ويعد بإعادة العهد، ويترنم بما سلف من الأيام الخالية من تنفس في خَلْوَة^(٣)، وتأنس في خَلْوَة^(٣)، وكانت الجبال تقشعر، والأشجار تتساقط، والأودية تنصبّ، والغُدران تجفّ، والرياض تَقْفُ^(٤)، والأغصان تَجْسُو^(٥)، والبلاد تقسو، فإن في مشاهدة الحبيب عوضًا من كل بعيد [١٣١ ب] وقريب.

(١) قال الجوهري: السماء تذكر وتؤنث. وقال غيره: إذا ذكرت السماء عنوا به السقف، ومنه قول الله تعالى: ﴿الْأَسْمَاءُ مُنْقَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل: ١٨].

(٢) موضع ارتباد.

(٣) «خلوة» الأولى بمعنى: المكان الذي يختلي فيه الرجل، و«خلوة» الثانية بمعنى: انفراد المرء بنفسه.

(٤) تقف: تجف.

(٥) تجسو: تصلب، تغلظ، تيبس.

فحدثني يا سيدي كيف أسرَّح طَرْفي في آثار هذا الربيع؟ وكيف أفرح بما أرى من الزَّهر والنور، وعلى قلبي أقفال الهموم وليس لها مفتاح، وعلى كاهلي أثقال الغموم وليس لي منها سراح؟

وإنما كتبت إليك بعنوان حالي على غير إشباع لذكر ما بي طلباً للروح في محادثتك، وتسكيناً لما بصدري من حرارة الشيطان^(١) إلى من طوقني بمننه، ثم غرقني بفتنه، ثم روقني بمحنه، ثم ختم عليّ بالصبر وأغلق دوني بابه، ونهني عن الشكوى وأغلق عليّ أسبابه، وطوفني على رؤوس الأعداء ساهمَ الوجه بالمخالفة، ذابل الشَّفة باليأس، كئيب البال بالحُزن، مُقيَّد الشاهد والغائب بالتحكم، متلجلج اللسان في الاعتذار، مردود الحجة عند الانتصار: إن رمقتني عين رحمتي بالبكاء، وإن دنا مني إنسان وجدني كرسم الهباء، بعدما عهدتني جذلان ناعم البال رِيح القلب، أرجع إلى ثقة النفس في السراء والضراء، وإلى مقة الأنس في الليان والخشناء. فهل تعرف يا سيدي بلوى تشبه هذه البلوى؟ وهل يصبر العبد على مثل هذا من المولى؟ بل يصبر ويصبر، ولكن بعد مائة من نظر جميل يقتاتها، ويتقوى على حاله التي يتقلب في عَرْضها وطولها. فالمسجون يُرْفَق به لئلا يموت، والمحزون يُعْطَف عليه لئلا يَبْلَى، والمهجر يُسأل عنه لئلا يتلف. وما غاية أُملي بعد هذا الذي طولت به خبري إلا أن أعلم أين مقر قدمي من مكاني، وماذا الذي يصيبني ممن رماني بألوان أشجاني؟ وهل العطفة مرجوة؟ وهل الفيئة^(٢) منتظرة؟ وهل الرحمة متوقَّعة؟ وهل لزمان الفكرة والمؤانسة، والغبطة والمنافسة، رجوع وإياب، وشهادة وغياب، وعتاب واعتياب^(٣)، واعوجاج وانتصاب [وإقامة]^(٤) واغتراب، وتباعد واقتراب؟

فدبت ذلك التباعد بحلاوات التجني، بل فدبت ذاك الاقتراب بعد تحمل أثقال التمني، بل فدبت تلك الطمأنينة التي كانت تحفظ دعائم حالي، بل فدبت ذلك الارتباب الذي

(١) كذا في (ر، ع)، وترى د. وداد القاضي أن الصواب: «من حرارة شاطية» أي ملتهبة.

(٢) الفيئة: الإنابة والرجعة.

(٣) العتاب: عَتَبَ صاحبه عَتَبًا وَعَتَابًا: لاهمه، وأعتبَ إعتابًا: أرضاه بعد العتاب.

(٤) زيادة لازمة.

كان يستوقف حظي من مالي، أيام كنت أهيّمْ في كل شِعب، وأنتسب إلى كل قبيلة،
وأنتصب لكل فضيلة، وأبرأ من كل رذيلة، وأقول للحَجَر: ذُبْ - فأرى بأنه قد ذاب،
وأقول للبحر: امدُدْ - فأظن أنه استجاب، أيام أقول:

[١٣٢] يا مُعيري طول الضنا والسقام ما تراني أهلاً لردّ السلام؟

جُدْ بوعد إذا مَطَلَتْ دَهْـوَرًا فلعل الميعاد يشفي سقامي
أيام حلمي يُربني كل فائت ملحوقًا، ويصوّر لي كل باطل محقوقًا، ويناغيني بحال أَكْثُفُها
يلطفُ عن الفهم، وأخفاها يعلو عن الوهم، حالّ كلما سلطت عليها العبارة وأرسلت إليها
الإشارة جَلَّتْ عن هذه، وزَلَّتْ عن هذه - حالّ كانت المنى تخطبها على وجه الدهر، فلما
بدت بحقيقتها استولت عليها يدُ الدهر.

فيا حَزَنًا لمن لَمَّا وَجَدَ فَقَدَ، وَلَمَّا مَلَكَ هَلَكَ، ولما أَبْصَرَ عَشِيَ، ولما أَمِنَ خَشِيَ، ولما
أَوْضَحَ افْتَضَحَ، ولما ارتفع اتضع، ولما علا هبط، ولما استوى سقط. ووالهفَى ووالأسفَى
على سِرِّ كُنْهٍ حتى لم يُعرف منه لا الرسم ولا الاسم. لعلك تظن أن الاسم قد عُرِفَ لا أنه
سِرٌّ. فيا ويحك! هذا خبال منك، ووبال عليك! أين الاسم الذي هو حروف، من مضمونه
الذي هو وراء الحروف، الذي لا يناله الوهم لا بالسعي ولا بالوقوف؟ وذاك هو الذي أفاد
الاسم مرتبته، وجمع بينه وبين نظيره، وفرّق بينه وبين ضده، ذاك الذي نظر فعان، وأراد
فكان، وظهر فبان، وأظهر فأبان، ورقّق فزان، وكفل فمان^(١)، وتولّى فضان، ودنا فآن. سِرٌّ
هو كاتمته، وأمر هو ناظمه، وبرق هو عارضه، وشأن هو فارضه، وكلُّ هو حافظه، وبعض
هو ناقضه، فليس لمخلوق أن يلم بحافات هذا الحديث رمزًا أو نِسْأً، أو غمزًا أو هَمْسًا،
إلا مِنْ بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى.

سيدي! قد أَرخِيتُ عِناني معك، وطرحْتُ بثِقلي عندك، وناقَلْتُكَ^(٢) بلغة أنت أعرف
بها من غيرك، وأوقِفُ عليها مَنْ سواك. وإنما كان ذلك مني لأشياء كثيرة شريفة خطيرة،

(١) مان يُمونه مؤنًا: احتمل مؤنثه وقام بكفائته.

(٢) ناقَلْتُكَ: يقال ناقَلْتَهُ الحديث: حدّثته وحدثني، أي نقلت له ما عندي، ونقل إليّ ما عنده.

منها: تسكين هذه الفورة التي قد بدت لك هواديها بما يدلك على تواليها؛ والثاني طلب الفائدة منك بما جمع الله فيك؛ والثالث إذعان النفس بالاعتراف لتصاريف الوقت؛ والرابع مغالطة الأضداد فيما لم يفتح عليهم منه باب، والخامس استبراء^(١) الغيب بما هو صمد^(٢) له من هذه الشهادة؛ والسادس التعاون على نيل المراد من جناب الملك بحال لا تفسرها ألف ولا ياء [١٣٢ ب]، ولا يخبر عنها جيم ولا حاء.

بالله يا سيدي! أما تراني كيف أبدأ لك بلسان قد ظهر بيانه، في معرض شأن قد استتر عيانه؟ وما هذا إلا لأن المكاتبه بالقلم تدعو إلى مثل هذه الحال التي وإن كنت مستغيثاً بالله منها، فإنني مُغاثٌ بتوفيق الله فيها. فهل بقي الآن بيني وبينك بعد هذه النجوى إلا أن تكفَّ ناظري عن محاسن غيرك بِفَضْلٍ إحسانك، وتضاعف نشاطي فيما يصل إليَّ من جوابك بما يضاعف نشاطك؟ فإنك إن فعلت ذلك وصلت قديم برِّ بحديث شُكر، وأفأت على سائلك ضالةً حقَّ. فبحرمة انتسابك إلى الحق، وبشرف انبساطك مع الحق، وبعدوبة سرارك للحق إلا بللت طلبي بنداك، وجُدت عليَّ بما خُصصت به من هُداك. وإني إلى ذلك منك محتاج، وليس لي إلى غيرك فيه معاج. فاسمع ما أقوله متحققاً، فما قلته إلا محققاً. وكيف أستحلُّ النفاق معك وأنت عَيْنُ الوَقْتِ ولسانُ الزَّمان وعنوانُ الحق!

اللهم إِنَّا نكاتب الخلق التي أظهرتها في آفاق ملكوتك ليكونوا شفعاءنا عندك، ونستدعي من أحوالهم خبراً عنك حتى تكون لنا في ذلك وُصْلَةٌ بك وقيامٌ على أمرك ونهيك. فإذا حركتنا لطلب ذلك منهم لأجلك، فحرَّكهم لإسعافنا بذلك، ليكون ما يكون منهم بك مضافاً إلى ما كان مِنَّا لك. وارحم فقرنا إلى غيرك بسبيك، وأغننا بك عن كل ما سواك. وكما أظمأنا إلى عين معرفتك، فأرُونَا منها بقدرتك، فقد جَزَزْنَا^(٣) نواصينا في حَرَمِ طاعتك، وضممنا قواصينا في ساحة خدمتك، وتلهبنا آسفين على فائت منك، وتحرَّقنا لاهفين على فوائدنا بك.

(١) استبرأ الشيء: تقصى بحثه ليقطع الشبهة عنه.

(٢) صمدٌ له: ثابت له.

(٣) جز الناصية: كناية عن إذلال النفس.

فنسألك اللهم أن تغمرنا بفضلك، وتسقينا بسجلك^(١)، وتُصَفِّينا^(٢) للقرب منك، ثم تصافينا بتأنيسك. وقبل ذلك كله فاكفنا مؤونة خلقك وغوائل عبادك، فقد أصفقوا^(٣) على هجرنا وجفائنا لاعتصامنا بحبلك، وانتسابنا إلى قدسك، وشغفنا بذكرك، واقتباسنا من نورك، واعتزازنا بربوبيتك.

يا هذا! إذا مرَّت بك هذه الطرائف فخذُ بها نفْسك، ثم جُدْ بها على نفسك، ولا تنكرها برماً بها، ولا تبرم بها منكراً، ولا تجعل منشأك الفاسد حاكماً عليها، ولا قرينك السوء معترضاً عليها، فإن أكثر الناس لا يعلمون ولا يعقلون، وإنهم بما بهم عمّا لهم جاهلون. [١٣٣أ] وإن عقلاً بعل^(٤) عن هذه المحارج لمؤيد؛ وإن وهماً يصل إلى هذه المناهج لموحد؛ وإن وجداً يعبق بهذه الفوائد لموقّد. فُديت قلباً لأنّ عنده هذه المعاني. فُديت عيناً ذرفت على هذه المغاني. فُديت لساناً جرى بهذه الفنون. فُديت عقلاً جُنّ على هذا الجنون. فُديت عيناً اغرورقت على هذه العيون. لله الأمر من قبل ومن بعد.

أين نحن ويحك! وفي أي شيء كنا؟ وعمن أخبرنا بما أخبرنا؟ وإلى أي غاية أجرّينا؟ ومن أي فنن قطعنا؟ وبأي سحاب ابتللنا؟ وعن أية غاية أنبأنا؟ وأي درة استخرجنا؟ وبأي معرض اجتليّنا؟ ومن أملنا ورَجونا؟ وبأي بيت غنيّنا وسجونا؟ وكتاب من فضضنا وقرأنا؟ وعتاب من سمعنا وفهمنا؟ وبحكمة من قهرنا وشهرنا؟ ودعوة من أجبنا وقبّلنا؟ وحضرة من قصدنا وصمدنا؟ وخاتم من أخذنا وملكنا؟ وبعز من ظهرنا وقهرنا (وبحكمة^(٥) من قهرنا وشهرنا؟) وكلمة من اعتقدنا واعتمدنا؟ وتحت راية من سَرّنا وسرّنا؟ وبحب من نُحنا ووَجَدنا؟ ورضا من تحرينا وتوخينا؟ وفي مجلس من زَعَقنا ورقصنا؟ ورداء من جذبنا وسحبنا؟ ولوجه من ركعنا وسجدنا؟ وبسبب من سمعنا وأطعنا؟ ولرضا من رفعنا ووضعنا؟ وبأمر من اعتمرنا وحججنا؟ وبإذن من صُمنا وصلينا؟ ولمراد من خضعنا

(١) السجل: الدلو العظيمة. (٢) أصفاه: اختاره.

(٣) أصفق القوم على الأمر: أجمعوا عليه.

(٤) بعل: دَهِش وتَحِير. (٥) تكرر.

وخشعنا؟ ونعمة مَنْ نشرنا وشكرنا؟ وفي ديار مَنْ نزلنا وسكننا؟ ولهية مَنْ سكنتنا وخرسنا؟ ولمحبة مَنْ قلنا ونطقنا؟ وعلى بساط مَنْ تقلبنا وترجحنا؟

يا هذا! كل هذا لمن له الخلق والأمر، ولمن له الحلّ والعقد، ولمن له التصريف والترصيف، ولمن له التأليف والتكليف، ولمن له الأول والآخر، ولمن له الإرادة والمشية، ولمن له العلم بحركاته وسكناته، وباستناباته ورجعاته، وبنيانه وظلماته، له كل شيء، وبه كل شيء، وإليه كل شيء، وفيه كل شيء، وعليه كل شيء؛ أمّا له كل شيء فلائنه مالكة، أمّا به كل شيء فلائنه مُمِدّه، وأمّا إليه كل شيء فلائنه غايته، وأمّا فيه كل شيء فلائنه مبدؤه، وأمّا عليه كل شيء فلائنه حامله. ووراء هذا اللسان ما يقف القلم على ترقيشه^(١)، ويتهالك العقل عن تفتيشه، ويتلجلجُ اللسان عن تنقيشه. وكيف لا يكون هذا هكذا وكل ما دونه ناقص، وليس للناقص أن يحيط بما ليس بناقص: لا بالقوة التي هي في أول المراتب، ولا بالفعل الذي في آخر المذاهب.

[١٣٣ب] إلهنا! جلّ شأنك فما يرومك رائم إلا رَجَعَ مبهوراً، ولا ينعتك ناعت إلا انتهى مقهوراً، ولا يصفك واصف إلا وما يزلُّ عنه أكثر مما يدل عليه بلفظ، لأنك فوق كل نعت، وفوق كل مظنون بظن، وفوق كل موصوف بوصف، وفوق كل معقول بعقل. اللهم فنوّز زوايا قلوبنا بمعرفتك، واحرس أسرارنا بالتوحيد لك، واملاً ما خلا منا بالتوكل عليك، واذكرنا عند ذكرنا لك؛ وإذا ذكرتنا فكّرنا، وإذا كُرمنا فبين ذلك لنا، وإذا بينت ذلك لنا فاحفظنا حتى لا نظير فرحاً به ولا نهيم وجداً عليه، يا ذا الجلال والإكرام!

رسالة (٤٧)

اللهم إنّنا نعادي فيك الشيطان فاعصمنا، ونعصي من أجلك الهوى فارحمنا، ونجدُ بذكرك إذا دُكرت فأكرمنا، ونتقلب بين آلائك ونعمائك فألهمنا، ونعترف بتقصيرنا في

(١) رَقَش كَلَامُهُ: زَوَّره؛ زخرفه؛ رَقَش الرجلُ: نَمَّ.

شكرك فقوْنَا. غمرتنا بجلودك أولاً وآخراً، وعممتنا بإحسانك وفضلك قديماً وحديثاً، وألهجتنا بتوحيديك سرّاً وجهرّاً، وخصصتنا بالدعاء إليك والإجابة لك قولاً وفعلًا. فعرّصت قلوبنا مشحونة بمودتك، وأفنية آمالنا عامرةً بالشوق إليك، وأطراف ألسنتنا مُرهَفةٌ بنشر أياديك، وأودية أنفسنا جاريةً بالتهلل فيك. إن عاقنا عنك عائق الهوى استغينا عنه بقائد الهدى، وإن ساقنا إليك سائق الدَّعوى قَوَّمناه بحقائق الرَّعوى^(١) والتقوى، وإن تزخرف في أعيننا حاضِرُ الدنيا كففنا أعيننا عنه بغائب النجوى. ولم يستوسق^(٢) كلُّ هذا لنا إلا بتوفيقك الذي تحول به الظلمة نوراً، ويعود الغم به سروراً، وتصير الكآبة به حُبوراً. أيها المُدَلِّه في حاله، المتسكع في أمره! طِبْ نفساً، وازدَدْ بالله أنساً، فما فتح عليك باب ذكره إلا وهو يريد أن يجعلك من خاصته، ولا كرّر اسمه على لسانك إلا وهو يريد أن يدخلك في خدمته، ولا برَّدَ فؤادك بمحتك إلا وقد رقاك إلى أوطان خالصته، ولا عرَّفك مواقع التقصير إلا وقد عزم على نقلك بلطيف تدبيره، ولا أطلعك على ثنايا نعمته إلا وقد بعثك على القيام بشكره، ولا أذن لك في الدعاء إليه إلا وقد ضمن لك التسديد فيه، ولا حملك على الإدلال [١٣٤أ] عليه إلا وقد أذن لك في الانبساط معه، ولا اختبرك بأمره ونهيه إلا وقد اجتباك لطاعته، ولا نبَّهك على فائتك إلا وقد أثر أن تلحقه بمعونته، ولا قص عليك حديث من تقدّم إلا لتعتبر به فيمن تأخّر.

فانظر يا هذا كيف أوردك رياض هذه النعم، وكيف قلبك فيها، وكيف طيّبك بطيب روائحها وغالب فوائحها. ثم انظر كيف جمعتك بعدما كنت متفرّقا، وكيف نظمتك بعدما كنت متبدداً، وكيف هداك بعدما كنت متحيّراً، وكيف شفّى غلتك بعدما كنت متسحراً^(٣)، وكيف أروى ظمأك بعدما كنت لاهثاً، وكيف أولعك بالجد بعدما كنت عابثاً؛ وكيف فُتحَ بصرك على حظك بعدما كنت غصيفاً، وكيف شَرَحَ صدرك بعدما كنت مريضاً، وكيف فُتقَ سَمْعُكَ بعدما كنت مُرْتَبِقاً^(٤)، وكيف رتق طبعك بعدما كان منفتحاً؟ والله لو ظاهرك

(١) الرَّعوى: مصدر رَعَا عنه: كف، امتنع عنه.

(٢) استوسق لك الأمر: أمكنك.

(٣) كذا! ولعل صوابه: مُسَحَّر، أي مصاب في سحره، والسَّحَر: الرثة.

(٤) ارتق الشيء التأم.

على هذه النعم الجسيمة، وعلى إحصاء هذه القسم الكريمة، الثقلان: الجن والإنس، ما قدرت على عُشير من ذلك. فاكثف أيها العاقل بهذا التنبيه، واسلل نفسك من هذا العاجل المحشو بالتمويه، فإن الأمر عن قريب يخلص إليك، والظاعن بك يقف عليك - فحينئذ لا تستأخر ولا تستقدم. قد وَعَظَكَ الواعظُ، ونَصَحَ لك الناصحُ، وأعذر إليك المُشْفِقُ. وإن كان لك رأي في خلاص مُهْجَتِكَ والخلوص إلى بهجتِكَ، فبادر.

يا أهل الجفاء، تأهبوا لقوارع البلاء! يا أهل الولاء، توقعوا حلاوات الصفاء! يا أهل الغرق في النعم، تقربوا إلى واهبها بالهبة منها! أيها المُعرضون عن الله، استأنفوا إقبالكم إليه! إنه ما أقبل إليه أحد إلا قَبَلَهُ، ولا قبل أحدًا إلا خصه، ولا خص أحدًا إلا اجتباها، ولا اجتبي^(١) أحدًا إلا اصطفاه، ولا اصطفى أحدًا إلا ولّاه، ولا ولى أحدًا إلا تولاه، ولا تولّى أحدًا إلا كفاه، ولا كفى أحدًا إلا ملأ قلبه وجدًا به، وطوّق عنقه حلية منه، وبسط لسانه في الوصف له، وأعلى كعبه مُباهاة به. ولا عجب! فالآلاء منه متتابعة، والمنايح منه متواترة، والمدائح له كثيرة، والأفواه بذكره رطبة، والنفوس لقدرته خاضعة، والأيدي لبرّه مبسوطة، والعيون نحوه طامحة، [١٣٤ ب] والآمال بجوده متعلقة، ومظان الرجاء والطمع فسيحة. فلا أثر إلا وهو بادٍ منه، ولا خبر إلا وهو شائع عنه، ولا صغير إلا وهو مشير إليه، ولا كبير إلا وهو دليل عليه. فهل بقي بعد هذه الصفات وما وراءها مما هو من جنس هذه الهنات إلا فسولتك^(٢) في نفسك، وتوانيك في مصلحتك، واستبدادك برأيك، وقلة ثقتك بموعودك، وسوء نظرك في أمرك!

يا هذا! أما حان لبكيئكم^(٣) أن يُدِرَّ؟ أما وجب لمغبونكم أن يُسَرَّ؟ أما دنا لغائبكم أن يحضر؟ أما قرب لسقيمكم أن يستشفى! أما آن لمقصركم أن يستعفي؟ بلى والله قد حان ووجب، ودنا وقرب وأن، ولكن صدق الله العظيم حين يقول: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

(٢) فسولة: جبن وقلة نشاط.

(١) اجتبي: اجتباها واصطفاه واختاره لنفسه.

(٣) بكأت الناقة: قل لبنها أو انقطع.

أيها النائي عن العَرْصَةِ، الجاهل بانتهاز الفرصة، الصابر على تجرع الغُصَّة! اشتق إليه واجداً به، وجُدْ به والهَّاهُ فيه، وله^(١) فيه متهاكاً عليه، وتهالك عليه ناسياً لما عداه، وامح البينونة بينك وبينه. أتدري ما البينونة؟ البينونة هي الكينونة، هي أنت: أنت الكينونة بأفاتك، وأنت البينونة بشهواتك. وكيف تجدك وقد ضللت عنك، بل كيف تضلُّ عنك وقد وجدتكَ؟ ضللت بإرادتك التي غَمَسْتُكَ في بحار شهوتك، فَجَدَّكَ الآن بشهادات الحق التي قامت عليك في حالاتك، فلا سبيل لك إلى الإنكار، وقد صح منك الإقرار بالاغترار، في هذه الدار بالاستكثار والاستكبار، مع أهل الخسار والدمار.

بالله! أما تأنف من مشابهة البهائم في السَّرَط^(٢)، والثَّلَط بعد الثَّلَط^(٣)، والْبَلَع بعد البلع، والجَرْع بعد الجَرْع، والحِسا بعد الحسا^(٤)، والامتلاء بعد الامتلاء، والسُّكْر بعد السكر، والخُمار بعد الخُمار؟ أما تعاف هذه المزيلة التي قد فغمت^(٥) أنفك بهذه الأتتان المنكرة؟ أما تحن إلى الطهارة التي هي حياة الأجساد في الظاهر وحياة القلوب في الباطن، وقد وخطك الشيب وأنت مشتمل على العيب، وخائض في الريب، لا تُقْلَع عن إصرارك، ولا تعتذر عن زَلَّتْكَ، ولا تعتبر بمن مضى قبلك كأنك لست من طيبتهم، أو كأنك غير جار على شيمتهم؟ أإِخْلَادٌ إلى الدنيا [١٣٥] وقد علمت تقلبها بأهلها وبُغْضِهَا لساكنيها، وتخليها في كل وقت عن المقيمين فيها؟ ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

أيها الصاحب بالجنب، والسامع بالأذن دون القلب! ها أنا قد أعذرتُ إليك فيما أوردت عليك، وإن كنت على بعض ما لا أرضاه منك، ولا أحبه لك. فإن علمت أنني قد نصحتُ لك، وأمكنتك من حظك، فتقبل قولِي، وصرْ إلى رأيي، واعمل بمشورتي، فلعلي أسعدُ بك إذا سعدت بي. فما لبُّنا في هذه البلدة الوبيئة، والمدينة الحرجة إلا

(١) الأمر: من وَلَّه. (٢) السرط: البلع. (٣) الثلط: السطح، الغائط.

(٤) الحسا: اسم للشيء الذي يحتسبه المرء. (٥) فغمت: ملأت.

كَلَفَتِ اليمين على الشمال، وكنقرة الديك في الماء، أو كحلم النائم في الليل، أو كظلم قد أخذ في النقصان، أو كالتفاتة من مُوَلٍّ، أو كتوهم من النفس، أو ﴿كَلَمَحَ الْبَصَرِ أَوْ هَوَّ أَقْرَبَ﴾ [النحل: ٧٧]. هل تحس من غيرك ما مضى؟ هل تجد من أمرك ما قد انقضى؟ كذلك لا تحس ولا تجد فيما بقي، وإنما أنت لساعتك، وإنما ساعتك هي أنت. فَكَيْسُ^(١) وشمر، واغضب على نفسك وتنمر، واعمل على أنك مُسَلِّمٌ في أيدي عَطَابِكِ^(٢)، فاطلب النجاة منهم بجميع حَوْلِكَ وقوتك ودهائك، ولا تدع من الجهد شيئاً فإنك تندم.

يا هذا! أُمَجِّدُكَ لَكَ رَبِّكَ لتشتاق إليه، وأنشر آلاءه لك لتتوكل عليه، وأصفه لك بالكرم لتثق به، وأدُلُّكَ على عيبك لتنتهي عنه، وأزْفُقْ بك في السر لتبلغ المنزل، وأُسْتَجِمَّكَ^(٣) في الحال لتكون على عتاد في المستقبل. فلو كنت مأخوذاً بك ومطالباً بذلك، هل كنت أزيد على هذه الفنون التي إن كان لي في عَرْضِهَا تذكُّرٌ، فلك أيضاً [في عرضها تذكُّرٌ]^(٤) وتبصرة، وحظك أوفى، ونصيبك أَجْزَلُ، لأن الثقل عليّ فيما أقول، ولعلي أسأل عن حقائقه، والخفة عليك فيما تسمع إن جريت على طرائقه، وتنزهت في حداثته، وآويت إلى سُرادقه.

فيا أيها المكفي: اسْعُدْ! فقد قيل: السعيد من كُفِيَ. ويا أيها المُدْبِر: أقبل! فالمغبوط من أقبل. ويا أيها العاقل: تنبه! فالمجدود^(٥) من تنبه. ويا أيها الجاهل: اعلم، فالناجي من علم. ويا أيها العالم: اعمل، فالراجي من عمل. ويا أيها اللاعب: جد! فالمستظهر من جد. ويا أيها القائل: توق، فالمسرور من توقى. ويا أيها السامع: عه، فالراشد من وعى. ويا أيها الناسك: اثبت، فالشجاع [١٣٥ ب] من ثبت. ويا أيها العابد: أخلص، فالمقبول من أخلص. ويا أيها الراقِد: احلم، فالهالك من لم يحلم.

(١) فعل أمر من كاس يَكِيسُ كَيْساً وكياسة: كان فظناً.

(٢) جمع عاطب، من عَطَبَ على صاحبه: غضب أشد الغضب.

(٣) أُسْتَجِمَّكَ: أريحك.

(٤) زيادة لازمة.

(٥) المجدود: السعيد.

اللهم إنا كيفما دُرْنَا فإليك نفْيء، وعلَيْكَ نَعُطِف، وكيفما حُلْنَا فعَلَيْكَ نُدَلِّ وبك نَشْرَف. اجعل ظنونا فوق أقوالنا، [وأقوالنا]^(١) دون أفعالنا، وأفعالنا كِفَاءَ رضوانك عنا. وإذا مَقَّتْنَا فلا تطردنا؛ وإذا طردتنا فلا تُهْمِلْنَا، وإذا سَخِطْتَ علينا فلا تَدْعْنَا، وإذا قبلتنا فلا تَرُدَّنَا، وإذا أطعناك في بعض ما دعوتنا إليه، فلا تؤاخذنا في بعض ما قَصَرْنَا فيه. مَنْ ذا يَفِي بِحَقِّكَ كله! إلهنا! ما شئت فاصنع! لا بد من العفو، والعفو خُلُقٌ من أخلاق الكرام، وأنت أكرم الأكرمين. فاعفُ عنا يا ذا الجلال والإكرام!

أيها الحاضر بجثته، الغائب بهمته، الناظر في عِطْفِهِ، المتغافل عن سَخْفِهِ، العاشق لعاجلته، الذائق سَمِّهِ بيده، الساهي بيومه عن غده، الظانّ بنفسه أنه ذو حول وقوة: سوأةٌ لك، والسوأة عليك مشتملة، وأفُّ عنك، وأنت لذلك أهل! أما تستحيي إن تكيس^(٢) في معاملتك بالدرهم والدينار ولا تحابي منهما بالحبة والذرة، وترى أن ذلك منك غِبْنٌ في الرأي، ثم تتباله في معاملة ربك بما يزلfk من الجنة فيزحزح من النار، وتغضُّ بعد ذلك عن سهو كثير، بل تغالط نفسك وتستخدم عقلك لشهوتك، وتُعَفِّرُ خدك للذت، وتجزع من فوت أيسر حاجة لبدنك في مأكَل أو مشرب أو منكح، ولا تبالي أن تكون ممقوتاً عند ربك الذي خلقك فسوّاك، وكنفك وآواك، ومنحك وحباك، وحفظك ورعاك، وحاطك وكلاك، وعَلَّمَك وهداك، ورفعك واجتباك^(٣)، وأعلاك من حين أتاك. أفهذا من العقل الذي تَبَجَّحَ بنوره بين أصدقائك وأعدائك؟ أهذا من الحسّ الذي تعامل [به] خاصتك وعامتك؟ أهذا من الحزم الذي تدخره لدهرك؟ أما ترى أنياب الرزايا بارزة متتابعة؟ أما ترى عِبْرَ الليالي متشابهة؟ أما ترى الغَيْرَ مُحْدَقة؟ أما ترى الآفات متوالية؟ أَبِكَ عَمَى، أَبَكَ صَمَمَ، أَبَكَ بَلَهَ، أَبَكَ جنون؟ لا والله ما أنت إلا سويّ بصير، كَيْسَ خبير، ولكنك تؤثر زهرة الحياة الدنيا البائدة الفانية على غضارة نعيم الأبد، وإني لأظن أن هذا من سقوطك [١٣٦أ] من عين الله، ومن شُرُودك عن الله [.....]^(٤) على الله، ومن قلة تمسكك بأمر

(١) زيادة لازمة.

(٢) كاس يكيس كَيْسًا وكياسة: كان كَيْسًا أي عاقلًا فطنًا، وقد ذكر أبو حيان في الإمتاع (١: ١٨) أن الناس في عصره كانوا

يمدحون المرء المدقق بقولهم: «ظاهر الكَيْس». (٣) ر: واجتباك ورفعك..

(٤) يبدو أن هنا كلام سقط من النسخ.

الله، ومن عجبك بنعمة الله، ومن قرين السوء الذي يصرفك عن صحبة الله، ومن شؤم ناصيتك في مخالفتك لله.

يا هذا! إلى متى هذا التمطي، وهذا التكاأة^(١)، وهذا التجبر، وهذا التكبر، وهذا البأو^(٢)، وهذه القسوة، وهذه الفظاظة؟ أما أنت من طين؟ أما أنت من ماء مهين؟ أما أنت على بساط رب العالمين الذي لو أمر أضعف جارحة لك لأسلمتك، ولو شاء لاختطفك من مأمئك؟ أتجحد قدرة الله النافذة فيك؟ أتنكر إحاطته بك؟ أتظن أن إهمالك إهمال، أو حلمه عنك إغفال؟ كلا والله، ولكنه يتأنى ويرفُق، ويعيد ويبدئ، ويدعو ويكرر، ويستر ويرحم، ولصنع ذلك منه مألوف، وهو به معروف، ولكنك على نفسك عسوف، وعلى ما فاتك من حظك أسوف.

اللهم فجدّ علينا بما أنت أهله، ولا تعاملنا بما نحن أهله.

يا^(٣) هذا! إنما أنت في حال كرقدة في الحلم، أو حلم كاللمح، ثم الاطلاع على نعيم كنا نتهالك ههنا بشبائمه لا بحقائقه، ونحن على أسمائه لا على معانيه، ونظن أننا قد وجدنا عزيزاً وملكنا نفيساً. وأي عز لما يتبدله الليل والنهار؟ وأي قدر لما يتخونه القياس والمقدار! وأي شرف لما لا يثبت في لحظته على حال؟ له في كل آن اسم، وفي كل أوان رسم، أعني أنه يقال له غريص وذابل، وجديد وخلق، وشاب وهرم، ومقبل ومؤل. على هذا، فإن الأمثال بمثله [مضروبة]، والأدلة على نظائره منصوبة، ولكن القلوب عن التحقق بها محجوبة، والنفوس في طلب ذلك منها وفيها مكروبة.

يا هذا! عَصَّ على ناجذك عند مرارة الكون العارض فإنه كلفتة لافِت أو كعطفة عاطف. فإن ذلك يهُون عليك الصبر، ويُفسح منك الصدر، ويزيدك ثقة بالعوض، وزهادة في العَرَض^(٤).

(١) الانتكاء.

(٢) كذا في المخطوط واضحة ولم نهتد لمعناها، على أنها في معنى التكبر. وقد ورد في اللسان: باء مثل باع. باه فلان: ضجّ، وباه الحيوان: هزل. ولعلها من بآء: فخر.

(٣) من هنا وحتى نهاية الرسالة ص ٣١٦ مكرر وقد ورد ص ١٨٦. (٤) ص ١٨٦: الغرض.

يا هذا! إن كنت تحب نفسك فلا تحفر لها مُغَوَّاتِها^(١) بيدك، ولا تكسبها عَارَكَ بجهدك، واستيقن أن محبة النفس في معرفة النفس، وأن في معرفة النفس استكشافاً لمحلة القدس، أعني أنك إذا لهجت بذلك عرفت الله الذي به قوام النفس، وإليه مصير الجن والإنس. وفي هذه المسألة دقائق [١٣٦ ب] من البحث، وغوامض من النظر، وغرائب من الجواب، وبدائع من الإفصاح، والله المستعان!

رسالة (٤٨)

يا هذا! تَعَبَّدَ لله متأبداً، وتَأَبَّدَ لله متعبداً، وتَأَيَّدَ^(٢) في طلب ما لديه متأوداً، وتأود^(٣) في التماس ما قبله متأيِّداً. أتدري ما التعبّد وما التأبّد وما التأيّد وما التأود؟ إني أظنك لا تدري، فما أسلموك في ديوان الأدب، ولا حَلَّوْكَ بحلية ذوي الشكل والظرف والأدب. التعبّد ظاهر وباطن: ظاهره أن تكون بخلقتك عاجزاً، وباطنه أن تكون بهمتك لمن أنت له متعزّزاً. والتأبّد أن تكون من بني جنسك متميزاً، ومن التشبه بما هم عليه سرّاً وجهراً متحرّزاً. والتأيّد أن تطمئن إلى خَطَرَاتِ الحق مجتنباً ثمرات الصدق. والتأود أن تذلل طالباً فتعز واجداً. فإنك إن انتظمت هذه الحالات التي ذكرتها لك بأسمائها، وقفت عن قريب على غيوبها وأنبائها، فحينئذ ينثال عليك من معين قُدْسِه ما يطويك عن الكون، وينشرك بين الملاء الأعلى، وهناك تشق الجيب شقاً، وتجد ما تجده يقيناً وحقاً، وتنال ما تناله عياناً وذوقاً، ثم تطعم وتُسقي، وتنعم خالداً ولا تشقى.

اللهم إِنَّا نعتزي^(٤) إليك عالمين بشرفنا في ذلك، ونحدث عنك بصفاتك واثقين بأنك فوق ما هنالك، ونضرع معترفين بالحاجة إلى ما لديك لتنقذنا من هذه المهالك. ونقترح مدلين عليك أن تصحبنا في تلك المسالك، وتنزلنا في برد ظلالك مغضياً عنا فيما سلف منا، آخذاً بالجلود الإلهي معنا، ناظرًا بالعطف والراحة إلينا.

(٢) تأيّد: تقوى.

(١) أي: مُضِلَّاتِها. من الفعل غوى.

(٤) اعتزى إليه وله، اعتزأء: انتمى إليه صدقاً أو كذباً وانتسب.

(٣) تأود: انحنى وانعطف.

اللهم إنا بقدرتك ظهرنا، وعلى مشيئتك جرينا، وإلى إرادتك انتهينا، وبعلمك فينا حدّثنا - وإن كنا قد تركنا أمرك وخالفنا. ولولا ذلك ما شهدنا بالتقصير ولا اعترفنا؛ وعلى كل حال: حكمك فينا أنفد من حكمنا، وقضاؤك أجرى علينا من قضائنا، وقدرتك أشد إحاطة من قدرتنا على أنفسنا. فأَيُّ نسبة الآن لنا منا! وأي بَسْطَة لنا علينا! فبحق إلهيتك في هذه الصفات التي نَشْرُنَا وطَوَيْنَا، وبحق هذه الكلمات التي ألهمتناها حتى روينَا، إلّا تجاوزت عَنَّا، وسامحتنا في معاملتنا، وأرَيْتَنَا في حضورنا بين يديك ووقوفنا: من جُودك الغامر لنا، وفُضْلِكَ [١٣٧أ] المنسكب علينا، وخيرك المحيط بنا، حسب ظننا ويقيننا. وأشهد أنك لم تُنطق بهذا الدعاء ألسنتنا إلّا وأنت تحب أن تستجيب لنا، يا مجيب الدعوات في الخلوات على كثرة الخطايا والزلات!

رسالة (٤٩)

واهاً لنفس مُنِيَّتْ بهوى شديد، ورُمِيَتْ عن مدى بعيد، وفنتت بقلب عميد، وفطنت لعائد^(١) شريد، حتى شاهدت في اختلاف شكلها واختلاف انقطاعها ووصولها معارف حال في مناكر أخرى، بين ظن موسوم بيقين، وعلم مرسوم بتلقين، ورأي مُحَوَّض في الأهواء، وعيب مُقَوَّض للأكناف والأرجاء: معارضها كونٌ بائد، ومرافضها بون زائد، ومشاعبها لَهْفٌ واقد، ومطالعها تلف عائد. فلا جَرَمَ سُروُرُها لُمَعٌ، وحزنها فِطْعٌ، وأمانيتها خُدْعٌ، ومواردها جُرْعٌ، وحليها جُزْعٌ^(٢)، وخُلُوتها فزع؛ ولسانها عِيٌّ، وشأنها غِيٌّ، ونشرها طَيٌّ، وبذلها لَيٌّ؛ وعِزُّها ذل، ومركزها قل، وكلها كلّ، ونومها كَلَفٌ، ويقظتها كُلفٌ، ووعدها سلف، وانتظارها تلف؛ وظاهرها حسرة، وباطنها حيرة؛ ووصالها فرقة، وفراقها

(١) يمكن أن تقرأ أيضاً: غائر، غابر، غائب، وقرئت في د: قائد.

(٢) جُزْعُ المفرد جُزْعَةٌ: القليل من الشيء. وجُزْعَةُ العصير: البقية منه.

حرقة؛ وروايتها تكذيب، وكرامتها تعذيب، وفطنتها تحبيب، ونُقلتْها ترتيب؛ وسكرها خطر، وصحوها بَطَر؛ وفعلها عدوان، ودعواها بهتان، وشكرها كفران؛ وأولها خداع، وأوسطها متاع، وآخرها ضياع، وكلها في كلها قناع ورواع.

أندري لم هذا كله؟ هذا لأن مقاصد ضمائر الخلق سابحةً في آفاق بحار العقل، لا لغاية بادية يقصد إليها، ولا لآية هادية تُدَلُّ عليها، ولكن لسرّ التهمّ الأسرار، ولمعنى هتَكَ الأسرار، وعائق مَنَعَ من الاستخبار والاستكبار، وحاجز وقف من دون الاسترسال والاستظهار، وسبق كُلِّ فئة سباقاً عنيفاً، وحجب الجميع عنها حجاباً كثيفاً، وتفرد هو عن ذلك تفرداً لطيفاً.

نعم! لَوَّحَ بعضُ الأمر باليقين، وطَوَّحَ كله، وأعلن لغة الأمر، وأسرَّ خالصة المراد، ودعا بلسان التكليف، وحجب بغيب المعلوم، ووهب عارض البقاء، ووشحه بثابت البلوى، [١٣٧ب] وأنعم بمحبوب الحياة، وحفَّها بمكروه التنغيص، وأسلف المني بالوعد، وأنسأ^(١) الإنجاز بالتسويق، ومَنَّ بفروع القوة، وفطر على أصول الضعف، وزين بالقدرة [الظاهرة]^(٢)، وفضح بالعجز الخافي.

نعم! وطوى الأسرار في الأسرار، وطمس صُوابها^(٣)، وأخفى الآثار في الآثار، وأدمج أولاهها في أخرها، وعم في وجه اشترك الجميع فيه، وخَصَّ من وجه اضطرب الكل عليه. فالحسَّ مشغول بزينة عالمه، والعقل مبهور في بدائع صنعه! والنفس وَلَهَى مع دوام الحاجة إليه، والحجة داحضة عند محاولة الاعتراض عليه. فلا عجبي مما رأيت منه، عجبي مني فيه بما أَرادني مني.

فقل لي الآن: كيف أرجو شفاء ما بي ودائي من دوائي، وعِلَّتِي من طبيبي؟ اتصلت الحروفُ بالحروف، وغارت الظروف في الظروف، واشترك المستورُ بالمكشوف، والتبس المنكورُ بالمعروف، واشتبهت الصفات على الموصوف، وعاد خفيُّ الغيب

(٢) زيادة لازمة.

(١) أنسأ: أخر.

(٣) الصوى: علامة الطريق.

يخطبُ ناصعُ التسليم، وجليُّ الشاهد يُشكِّلُ في حشو المكتوم، ويشير إلى الفضل الواقع بين المخصوص والمعموم. فأين الفضل إلا عند الالفاظ به، المعتاد له، المغرور فيه؟ فأما عند من علم أن العين دنت مُشَوَّقة، ونأت معوَّقة، وبدت غامرة، وعادت مطبقة، واستقلت قاهرة، وأعدت محقَّقة، وحتت مطمعة، وأفرجت^(١) مُؤيسة، وأراغت مُحَبَّبة، وأزلفت مخيبة - فلا.

اسمع حديثي وأنت حاضرٌ ببالك، ومُحصِّلُ برؤيتك، ومنصفٌ بفضل عدلك. أنسني بحاضر البقاء، وأوحشني بوارد الفناء، واسترقني بنصح العقل، وأعتقني بعشق التحير، والأح الأمر لمفهومه جهراً، وروى عن المراد بمعلومه سراً، وقربني من شاهد الفحوى، وبَعَدني من غائب النجوى، وقطعني بينهما بتحمل البلوى وفضيحة الشكوى وفقد العدوى واختلاف الفتوى. فلا لي مني وَطَرٌ مقضيٍّ، ولا فيَّ عني خبرٌ مَرُويٍّ، ولا عندي به شبع مرويٍّ، ولا معي بي معنى مرعيٍّ. بلى كلي عند الغاية مسيٍّ مرميٍّ، وجميعي لدى النهاية منسيٍّ منفيٍّ، وبكل داهيةٍ شنعاء مرادٌ ومعنيٍّ، وبكل أبديةٍ شوهاء مقصودٌ ومَحْويٍّ. فأين نصيبي لنفسي؟ وأين نسبتي إلى بني جنسي؟ وأين موقفي وتوقفي! وأين تصرفي [١٣٨أ] وتصوفي^(٢)؟ وأين تعسفي وتفلسفي؟ وأين ترفقي وتحققي؟ وأين تحرقني وتشوقي؟ و[أين] بياني وتبيني؟ وأين استنباطي وفطني؟ وأين سناني ومجنيٍّ؟ وأين أيني وإني وأنى؟ وأين كوني وعوني، وعيني وعني، ومني وكأني؟ هيهات! نَضَبَ ماء علمي ورسمي، وباد شاهد حلمي وقسمي، وسامرني الأمانى مُخِيلَةً لي أجلتي في ثني عاجلتي، وتجمعت لدي الأسباب بالأمل البسيط فارتفعت بها في صورة مخدوع حتى رفضت يقيناً يشعر به الحسُّ، لمظنون لا يصل إليه الحدسُ، وانتزحت عن موجود يشهد به العيان، لمخبوء كبا به البيان والبرهان. فلهنفي الآن على واحد ما نلته حتى فاتني، ولا حييت حتى أمانتي، ولا بنتُ له حتى أبادني، ولا بدت به حتى أعادني، ولا أعادني حتى أفادني. سلام عليه وإن كثر جورُه، وتحية له وإن لم يُبلِّغ غورُه، ومرحباً بإقباله وإن أضنى، وتسليماً لحكمه وإن أفنى.

(١) أفرجت: انكشفت. وفي د: وأفرحت.

(٢) ر: لصوقي.

حدَّثوني عن معنى يزعجني ومع إزعاجه يعجبني، وأعشقه ويعشقني، ومع عشقه وعشقي يتعبنى - أمرٌ خارج عن العادة وغريبٌ في التعارف ومُنكرٌ عند الجمهور. وأعود فأقول: الويلُّ لي إن أعرضتُ عن الكنه مشرباً إلى الطمع في ظهوره لي، بل الويلُّ لي إن أيسْتُ منه نفوراً مما يجني عليّ، بل الويلُّ لي إن رُمته بشاهد الرسم وشائع المجاز وموضوع الأصل. بل الويلُّ لي إن فاتني مع حضوره وظهوره، كيفما أشرت إليه بأصبع، وأصغيت إليه بسمع، أو سدّدت نحوه بطرف، أو نجّوته^(١) بقلب، أو نعتّه بلسان، أو نشرته بذكر، أو عنيته بفكر.

حقاً أقول، وبالحق أصول: شُغلي بأمره على حد الامتثال إعراضٌ عنه، وانقيادي لإرادته تحكُّكٌ به، وتعززي ببادي حاله جميلٌ بعاقبتني، واستاري عني إشراكٌ بالمطلع عليّ، وانتشاري بصفاتي عشقٌ مني لجوهري، وخبري عن فنائي وجدانٌ لما بقي مني، وطماحي نحوي سُكْرٌ قد غلبَ عليّ، واستسلامي إظهارٌ لعجزِي، واستمساكي احتياطٌ على تعززي، وإفراطي في القول عدولٌ عن منهجي اللائق بي، وإسرافي في الاعتذار تشاكسٌ في خلقي، وتجلدي على من به جلدي تعرّضٌ لقطع مادّته مني، وظني في ظني أني مُصيبٌ في ظني [١٣٨ب] وبالّ عليّ. ونكرتي في معرفتي مقامٌ لا ثباتٌ لي عليه، ومعرفتي في نكرتي بابٌ لا سبيلٌ لي إليه، واستخفائي في بروزي أمرٌ لا قرارٌ لي لديه. وما حيلتي وجملي رهينةٌ مُلكه وأسيرةٌ قبضته، وواقفةٌ عند حدود مشيئته، وجاريةٌ على تصاريّف قدرته وتكاليف حكمته؟ وإن كانت الإضافة عارية عندي والنسبة لاصقة بي، والدعوة راجعة عليّ، وكنت وحدي في مصدري وموردي، وفقدت وحدي في وحدي بما غاب من مشهدي، ووجدت فقدي في فقدي بما تذكرت من معهدي.

أندري ما الذي قيل لي؟ قيل لي: هيهات! هب للواهب ما وهب لك، فإنه مردود إليك بشرط الشفقة عليك! وأنت مُحبٌّ به على طريق المكافأة. فإن كان هذا ممحواً بعز الجبروت، ممحواً في شاهد الملكوت [فإنما]^(٢) ليكون في كونك غير كائن، ويظهر في أينك غير مُخبر

(١) نجوته: ساررته.

(٢) زيادة تقديرية.

ولا مُعَاين، وتبقى به له غير مواصل ولا مباين، وتتصب عنه غير خائن ولا شائن، وهذا كلام يُصمُّ الأذن، عند السماع، ويستنفذ الذهن بعد الفكر، ويجلب الوَسْوَاس مع التعقب، ويخرج عما عليه الناس بالعارف.

فما أصنع! قد كان ما كان! وطغى اللسان بما زان وشان! وغارت العين في الأعيان! ولم يبق الإنسان بما هو به إنسان! وقُلْتُ ما سمعت، وبلَّغْتُ ما حملت، وأدَيْت ما أودعت. إن كنتُ أسأت فبعد اللُتْيَا والتِّي^(١)، وإن كنت أحسنت فبعد سوابق غيب لا يحيط بها هَمِّي وأمِّي^(٢). وإن كنت ما أحسنت فلا أسأت، فبعد أسرار جَلَّت عن شهادتي وغيتي.

نعم، وقيل أيضًا: أتحب أن تصير إلى ما تتمنى بكل مَعْنَى ومَرْمَى، وبكل مرقى ومَعْلَى؟ قلت: نعم! ومن لي بذاك، وأنا دائم الدؤوب في البلوغ إلى هناك؟ قيل لي: اللفظ كُلُّكَ عن هذه الجَوْبَةِ^(٣)، وارفض عينك في تيه الغيبة، ثم انفض الخلق بيد الخيبة، ثم الحظ الحق بظاهر الهيبة، ثم اقطع الطمع عن الأوبة إلى هذه الحوبة^(٤)، ثم أفن باقيًا به كما بقيت فانيًا بك، ثم افن أيضًا عن فنائك ببقائه لك لا ببقائه له، حتى ينقطع نسبك عن لفظ مُغَيَّر، ويدرس خبرك بكل معنى مزور، ويعفو أثرك عن كل علم مُصَوَّر، ويتوحد كُنْهك عن كل مراد محبَّر.

حبيبي! دَعْ [ذا]^(٥) أيضًا والهُ عما مضى وانقضى، واعمل عملاً تصل به إلى الرضا، وإن عُرِضت على جمر الغضا. [١٣٩أ] واعلم أنه غلط النواظر إليه، وأشرف الغالط عليه، ونعته مستشعرًا له، وهو من دونه قريبًا ودنوًّا، ووصفه قائسًا إلى خلقه، وهو من ورائه بعدًا وعلوًّا. ليس القرب والبعداها محمولين على رسم شاهدك وجاري عادتك، ومعروف استعمالك، لكنهما منسوبان إليك بحكم الاصطلاح والاتفاق، ومنفيان عنه بحق التنزيه والاستحقاق. فإياك أن تقف مع اللفظ القصير فتُسَحَّر به عن المعنى العريض، فإن اللفظ للعامة والمعنى للخاصة، وما يرتقي عنهما فهو سُبحات الإلهية، ونفحات الربوبية، فانظر

(١) يُقال: وقع في اللَّائِيَا والتِّي: أي وقع في الدواهي والمصائب.

(٢) الأُمُّ: من الفعل أَمَمَ بمعنى القَصْد.

(٣) الجوبة: المكان الوطيء من الأرض القليل الشجر، الحفرة المستديرة الواسعة.

(٤) الحوبة: الإثم.

(٥) زيادة لازمة.

أين أنت، وكيف أنت، وما أنت، ومن أي بنت، وبأي كنت؛ وما الذي تريد، وما الذي يُراد بك؟ وهل حصولك هنا لمحصل، وهل بعد فصولك^(١) من ثم وصول! ومهما شككت فيه فلا تشكّن فيما أوحى إليك وأشير به عليك، فإنه غُرف من غدير العارفين، وقُطف من غصن شجرة الفاضلين، واقتبس من حُصرة الحاضرين، ولقّن من أفواه الصادقين، واستملي من عقول المُبشرين بالحكمة واليقين، وحصل عن قوم كرام أمجاد مشفقين، حُصر البيان عن «لِم» وأغري به أمراً وأسر الوهم عن «كيف» وسلط عليه سراً، وقيد الفهم عند «حيث» وسبّب فيه مكرراً، ونهي الضمير عن «لو» وسبق إليه جوراً، وقطع اللسان عن «ليت» واستنطق به عذراً، وصُرف الجميع بالحروف واستولي عليه قهراً، وليس هذا إلا لخافية مسلمة عند طول السؤال وتواصل الجواب، واختلاف المقال في الخطأ والصواب. اللهم اجعل قولنا موصولاً بالعمل، وعملنا محققاً للأمل، ولا تضايقنا فيما ننحوك به ونتقلب لك فيه، واكشف علينا سترك، واخصصنا بما هو أليق بك، يا ذا الجلال والإكرام!

رسالة (٥٠)

المُسْتَغَاث^(٢) بالله من قلب لا عهد له بالرقّة والرأفة، ومن نفس لا خير عندها من التقرب واللطفة، ومن عادة بريّة من المروءة والظرافة، ومن أذن قد ألقت التزوير والخرافة، [١٣٩ ب] ومن جملة قد اشتملت على الآفة بعد الآفة، ومن تفصيل قد أشرف على المخافة بعد المخافة.

يا هذا! إذا كان هذا خبري عن باطن الأمر، فلم تخادع نفسك في ظاهره؟ وإذا كان هذا إقراراً من سرّ الغيب، فلم تهجم عليّ بإدي الشهادة؟ وإذا كان هذا شرحي لخفيّ القصة، فلم تذهب مع جلّي الحال؟ كأنك تستغشني^(٣) فيما أقول، وكأنك تنصح نفسك فيما تسمع. هيهات! للقول شروط لا يفي بها مكلمك، وللسمع حدود لا يملكها مثلك. فكم

(١) فصولك: من فصل، أي خروجك.

(٢) ورد معظم هذه الرسالة في ل (٦٥ ب - ٦٨ أ) بعنوان: «الشكية بلية من الإشارات الإلهية».

(٣) أي تنسبني إلى الغش.

تدور بفقرك على فقر مثلك! وكم تغتر بمغترٍ بغيرك! وكم تظن أنك متقدم وأنت متأخر! وكم تحسب أنك في أعلى عليين وأنت في أسفل السافلين! فَإِنْ مَلَكَتْكَ الأنفة مما تسمع، وطارت في خيشومك الخنزوانة^(١) مما ترى، فقم بحق ما بدا لك مما لا شك فيه عندك، ثم تعمق بعد ذلك في حقيقة البادي لك فانظر إلى وجدك به، ووجدانك له، وجدتك^(٢) فيه. فإنك إذا تصفحت هذه المثاني بُعِثَ لا نكر فيه، واستنقبت^(٣) بعلم لا جهل معه، وتوجهت نحوه بسعي لا فتور به، صدق رائدك، ورشد قائدك، وقوي ذائدك، والتقى عليك بادئك وعائدك، وسلمت في مرامك من المرام، وسعدت في يقظتك والمنام.

يا هذا:

يُؤَيِّسَنِي فَيُطْمَعِنِي بَوْضَالٍ وَدُونِ وَصَالِهِ وَقَعُ النَّصَّالِ
بنفسي من يُبْلِلُنِي هـَوَاهُ وَمَنْ ذَكَرَاهُ مَوْصُولُ بِيَالِي

يا هذا! أتدري أي غاية صُمِدْتَ بك! وإلى أي عاقبة أخذ بيدك! وأي سرٍّ أودع صدرك! وأي كلمة أنطق لسانك! وبأي ميل^(٤) كُحِلَ طَرْفُكَ، وبأي يُمن عصبت ناصيتك، وبأي غناء أثير طربك، وبأي لغة شوق قلبك، وبأي نور أبرز كلك، وبأي وديعة خُصَّ بعضك، وعلى أي روضة فُتح بصرك، وبأي شراب بُرد غليلك، وإلى أي تحفة مُدَّت يدك، وبأي هدية مُلئت كفك، وبأي تحية تُلقَى وجهك، وبأي توفيق حُفِظَ أمرُك، وبأي عتاب خوطب ضميرك، [١٤٠ أ] وبأي لطف قوي رجأوك؟ والله ما تدري! وإنما أحلف لعلمي بسَهْوِكَ، وإطلاعي على لعبك ولهوك. وما يصرفني عن الرحمة لك والغبط عليك إلا ما أتقنه عن خاصة حالي دونك. ولو أنصفتك، كان حيائي منك يشغلني عنك. ولكن للخسارة إثارة، وللإثارة أثارة^(٥)، ومع كل حلاوة مرارة، وعند كل لذة غرارة^(٦)، وفي كل قُدحة شرارة.

(١) الخنزوانة: الكبر.

(٢) الجدة: الفقر - أي الاحتياج إليه.

(٣) نَقَبَتْ عَنْهُ.

(٤) مَا يُجْعَلُ بِهِ الْكُحْلُ فِي الْعَيْنِ وَهُوَ الْمُلْمُولُ.

(٥) الأثارة: العلامة، ما بقي من الشيء أو من أصوله.

(٦) غرارة: غفلة.

يا هذا! القولُ حُجَّةٌ على القائل متى لم يؤيده بما يحققه، والسماع وبال على السامع متى لم يؤكده بما يشهدُ الوجد به. على أن السكوتَ على التقصير رضا به، كما أن الكلام عليه انغماس فيه. وكما أن القول لا يخلو من فتنه الزخرفة، كذلك السكوت ليس يعرَى من محنة اللفلة^(١). وإذا كان الكلام والصمت مَحْشُورَيْنِ بالبلاء، فبلاء اللسان أشقى لكمد النفس، وأرعى لعنان اليأس. وبعدُ، فالشكِّيَّة^(٢) بلية، والبلية أذية، والنفس بين هذه وتلك شقية. إلا أن تدرك الرحمة ممن وسعت رحمته كل شيء، وأحاط علمه بكل شيء، وقدر على كل شيء، وانقاد له كل شيء.

يا هذا! أين عزّة الربوبية الصادرة عن القدرة التامة، من ذلة العبودية الواقعة على العجز البادي؟ جلّ ربك عنك، وبان فيك منك، وظهر عليك لك. فاشهد الآن ما حلاك به، واشكره على ما أتاك من لدنه، وأنكر في معرفته سواه، واعرف في نكرته هُداة، واستخلص إشارتك من كل بادية^(٣) حتى تذوق حلاوة ما خُصِّصَتْ به، وتجد حاصل ما ظهرت من أجله. فإنك إن قرعتَ هذا الباب المعمور فتُح لك، وإن لزمتَ هذا الجنابَ النديّ أقبل عليك، وإن صبرتَ على الخدمة حمداً أثرك، ولعلك بعد ذلك تُحيّا بتحية الملوك، وتتوّج على سرير الملكوت، ويقال لك: تَمَنَّ وسلّ، وتحكم قُلّ، وارقّ وابقْ، وجدّ وجدّ، فطالما طلبتنا في حيرتك، وحثت^(٤) إلينا بحرقتك، ونحوتنا بإصبعك، ولذتَ بفنائنا بخدمتك، وصدقتنا عن نفسك، وهجرت من أجلنا من كان كريماً عندك، وعاديت فينا من كان عزيزاً عليك، فتنعم الآن بما وصلناك به، وواصلنا عليه، وثق بأنك عندنا في دار الأمن وكَنَف القرار، مع الرُّوح والريحان، والقُرب^(٥) والرَّضوان.

يا هذا! أما ترى كيف آسوك وأجرحك، وكيف أوقد عليك وأطفئ عندك، وكيف أبسط رجاءك، وكيف أقبض [١٤٠ ب] قنوطك؟ هذا كله تَظَهَّرْ لك واستظهار معك، لأن العادة خبيثة، والقرين مُهْلِك، والجارُ حاسدٌ، والصاحب مريب، وهذه أشياء لا تتزيّلُ عنك

(٢) الشكوى.

(١) بلسانه لفلقة: عي. ولفلف فلان: كان عيياً بطيء الكلام.

(٤) في (د): وحثت.

(٣) في (ل) فائدة.

(٥) ل: والفوز.

إلا بانسلاخك منك: والقول في هذا الباب سهل على المَسْمَع، ولكن تحقيقه صَعْبٌ في المَرَأَى. ولن يتم ذلك إلا بعزيمة الأَوَاهِين المُنِيِّين، بل لا يتم إلا بوثبة الأقوياء المعزّمين، بل لا يتم إلا بإخلاص الموفقين المخصوصين، بل لا يتم إلا بشعار المُخْبِتِينَ المهتدين، بل لا يتم إلا بانتهاز فُرْصة اليقين على هدى المتقين، بل لا يتم إلا بوجود رب العالمين الذي هو غاية الطالبين من العالمين.

فهاثِ الآن من نفسك ما وعدت به من الصدق في التشمير، وقَدِّم على ذلك الجد في ترك التقصير. واعلم واثقاً أنك متى تقدمت ذراعاً، تقدم مرادك منك باعاً. بل متى توجهت إليه قابلك، ومتى وقفت عنده قاو لك، ومتى أنست به فاوضك، ومتى تركت شيئاً لوجهه عَوَّضك. ما ضاع عنده عَمَلٌ عامل، ولا خاب عليه أَمَلٌ أمل. له لطائف لا تهتدي إليها الأمانى، وَنَعَمْ لا تلحقها سير السواني^(١). يمنع وهو في منعه مُعْطٍ، وَيَحْرُمُ وهو في حَرْمَانِهِ واهب، ويضع وهو في وضعه رافع، وَيُذِلُّ وهو في إِذْلَالِهِ مُعِزٌّ، وَيُعْرِضُ وهو في إِعْرَاضِهِ مُقْبِلٌ، وَيُبْعِدُ وهو في إبعاده مُقَرَّبٌ. الظاهر عند الخلق بمبلغ علمهم باطن عنده بخافي حكمته، والباطن عنده مجهولٌ عند سواه.

يا هذا! إذا كنت تائهاً في بَرِّ الحيرة فاهتدِ بنور ما ترى بعينك، وتسمع بأذنك، وتجد بحسك، وتلاحظ بعقلك، وتُدْرِكُ بنفسك. أما ترى هذه الصور المرئية؟ أما ترى هذه الأشكال المبنية؟ أما ترى هذه الأصول الممهدة؟ أما ترى هذه الفروع المؤكدة؟ أما ترى هذه الحكم المسددة؟ أما ترى هذه النعم المُجَدِّدة؟ أما ترى هذه الأطناب^(٢) الممدة؟ أما تسمع هذه النغمات المرددة؟ أما ترى هذه الأنضاد^(٣) الموتدة؟ أما ترى هذه الأحوال المؤبَّدة؟ أما أنا فأصدُّقُك ولا [١٤١] أكذبك، وأشهدك ولا أغيب عنك. وحقُّ الحق! لقد تناجت الأرواح بصنوف الارتياح، بين هذا المساء والصباح، على قلوب كانت دامية بأنواع الجراح. لا جرم

(١) السواني جمع سانية، وهي الناضحة أي: الناقة يستقي عليها من البئر، والجمع سوان: يقال «أذل من السانية» ومنه المثل:

«سير السواني سفر لا ينقطع» وقد سبق شرحه.

(٢) الأطناب: جمع طُنْب وهو حبل يُشدُّ به الخباء والسراقد ونحوها.

(٣) النضد: العز والشرف، والجمع: أنضاد. وأنضاد الرجل أعمامه وأخواله المتقدمون في الشرف. والنضد: السرير ينضد عليه المتاع. والموتدة: الثابتة.

تلاءمت الفرق، وتباعدت الحرق، وتوضحت الطرُق، وصار يُرى بتغميض البصر ما كان لا يُرى بانفتاح العين، ويُنال من البعد ما كان لا يوجد بالقرب. فهل هذا إلا بتيسير مَنْ له دِقُّ هذا العلم وجُلُّه، وإليه بعضه وكله، وبه عزُّه وذله، وعنده كُثره وقُلُّه؟!

حدثني عنك: هل هزَّ روحك هذا الكلام؟ وهل حوَّلَكَ من مقام إلى مقام؟ وهل فرَّقَ لك بين اليقظة والنام؟ وهل وجدت به شفاء بعد سقام؟ وهل أحسست بعافية بعد آلام؟ بل حدثني عنك: هل حسبت أنك رابحٌ أو خاسرٌ، وغانمٌ أو غارمٌ، وقادرٌ أو عاجزٌ، ومقبولٌ أو مردودٌ، وموصولٌ أو مهجورٌ، وحبيبٌ أو بغِيضٌ، وقريبٌ أو بعيدٌ، ومُرادٌ أو مُريدٌ؟ وهل حَدَّثَكَ مُحَدِّثٌ بلا لفظٍ مُحَكِّيٍّ، ولا معنى مَرَوِيٍّ، ولا قولَ مسطورٍ، ولا مُرادٍ مشهورٍ؟ وهل ترنَّمت فيما بينك وبينك بما لا ترجمة له بين الخلق، ولا بيان له إلا عند الحق؟ وهل تلذذت بما أدركت، في وزن ما تحرقت فيما فاتك قبل؟ وهل أحسست بسلوة عن الدنيا المعشوقة لك مذ كنت، بما لاح لك من مكنون الغيب مذ بُنْتُ؟ غالب ظني أنك قد وجدت هذا كله وأُهلَّتْ لما ستجده بعده. فالظُّ^(١) به، واعتكف عليه، واروَ بشرابه، وابلِّ سِرِّك بسحابه، وتغنَّ طرباً عليه، وهِمَّ عجباً بما حُبِيت به. فإذا فرغت من ذلك - وأنى لك بالفراغ! - فارشش [علينا] ما فضل من الإحسان إليك، وأنعم علينا مما أنعم الله عليك. والسعيد من اقتدى بتربه^(٢).

بلغت - هداك الله - هذا المكان في مناقلتك ومطاولتك، والكرى قد عبث بعيني، والكسل قد غلب على أطرافي، وبعضني قد فارق بعضي، وكلي قد تنكَّر على كلي. فاعذرني إن كنت مُقَصِّراً في أمرك لتقصيري في أمري، والفتوة حاكمةٌ عليك بما سألتك، وحرمة هذه القصة ضامنة للجميل منك، وأنت جارٍ في كل حال مع حسن الظن، حاوٍ في كل أمر كلَّ ما كَسَبَكَ جميلُ الثناء عليك، يا قُرَّةَ عين الإخوان، ويا واحد [١٤١ب] من نطق في هذا الزمان بأفانين البيان، وأظهر غرائب البرهان في وصف ما يكون وكان، وقام وجاب ببصره هذا الشأن، متحملاً أثقال الذل والهوان! لهذا أنت فرد في لغتك، لطيف في مَقَتِّك، معشوق في جميع أحوالك، صُرِفَتْ عنك عينُ السوء. وأرجو أن يرفع الله بهذا

(٢) في (ع، ر): بربه.

(١) أظ بالمكان وألظ به وألظ عليه: أقام به.

وأمثاله قَدَّرَكَ، ويُعلي عليها كعبك، حتى تبحث عن أسرار الغيب من حافات الألوهية [و] في تضاعيف النبوة لخصائص الولاية على أحكام الهداية، بعقل مصون بالتوفيق، واستبصار مقرون بالتوسُّع والتشقيق، وبيان معقود بالتدقيق والتحقيق. والله يفعل ذلك بك: فمخيلتك ناطقة، والفراصة فيك صادقة، والعلامات منك بارقة، وسحائب الحق عليك وادقة^(١).

اللهم إنا نهتَزَ بريح ربوبيتك، ونركُذُ^(٢) بعزِّ سطوتك، ونقول بإذنك، ونسكت للعجز عن وصفك، ونفكر متحيرين في عظمتك، ونفتخر منتسبين إلى عبديتك، ونُدِلُ بذكرك، ونذِلُ لأمرِك، ونحن في كل حال إلى وجهك، ونغار عليك، ونرى أن لا نصل [إليك] إلا بأن نتفصى^(٣) من كل ما هو سواك، شوقاً إلى السُّكنى في ذراك، ونزاعاً إلى أن نراك.

إلهنا! فأعِنَّا على مطالبتنا بتوفيقك، واحرُسْنَا في مسالكتنا بتأييدك، فأنت مُحرِّكنا في هذا القول، فكُن أنت مجيبنا في هذا السؤال. أترانا يا إلهنا ندعوك بهذه الضراعة جاهلين بقدرتك، وإن كنا مُقَصِّرِينَ في طاعتك؟ لا وحقك فإنه حقٌّ لا يؤدي ببذل الروح والنفس، بل ندعوك عارفين بأنك أنت الجواد الوهاب [الكريم]، المعطي لمن سأل، والبالذ لمن لم يسأل.

اللهم اكفنا مؤونة المتمردين عليك، الظانين بك ظنَّ السوء، واضرب بيننا وبينهم سُوراً من قدرتك لئلا نراهم بأعيننا، ولا نسمع أصواتهم بأذاننا، فقد كادونا من أجلك، وغازونا بسببك، وما ذنبنا إلههم إلا أنا ندعوهم إليك، وما غَضَبْنَا عليهم إلا لتمردهم عليك، ويأسهم من خير ما لديك.

إلهنا! جهلوك فخالفوك، ونكروك فَجَحَدُوك، ولو فَطَنُوا لِمَا فاتهم منك لأحبوك، ولو أحبوك لَعَبَدُوك، ولو عبدوك لعرفوك، ولو عرفوك لكنت لهم فوق الأم الرؤوم والأب الرحيم، [١٤٢ أ] يا ذا الجلال والإكرام!

(٢) ل: ونلتز.

(١) وادقة: ممطرة.

(٣) نتفصى: نتخلص.

رسالة (٥١)

اللهم اغرس أشجار كلامنا في خِطَطِ قلوبنا، ثم اسقها بصَوْبٍ تأييدك عند رقدتنا وانتباهنا، ثم استخرج أوراقها وأزهارها في تصارييف أحوالنا، ثم حَمَلْ ثمارها بصبرنا ووفائنا، على اختلاف سَرَائِنَا وَضَرَائِنَا. فإنك إذا دَبَّرْتَنَا هذا التدبير، شَمَّرْنَا من قصدك أَجَدَّ التشمير.

يا هذا! أَعْلَى الدنيا تعرَّج^(١)، وفي طلبها تُلَجَّجُ^(٢)، ونيرانها تَوَجَّجُ؟ لم هذا؟ وكيف به؟ أين حصافتك وبصيرتك؟ وأين نظرك واختبارك؟ وأين استنباطك وفطنتك؟ وأين معرفتك بالدقيق والجليل؟ وأين تحصيلك للقليل والكثير؟ وأين حُسْنُ الصادق عن الصحيح والعليل؟ أما ترى^(٣) وليس فيها مغنى إلا وفيه مبكى، ولا ملهى إلا وعنده مهوى، ولا مرعى إلا ودونه^(٤)؟ أما ترى صروفها، وفي صروفها حُتُوفُهَا؟ أما ترى أهلها كيف تَطْرُقُهُمْ طوارقها، وفي طوارقها بوائقها؟ أما ترى كيف تَسْرُهُم مراتبها، وفي مراتبها معاطبها؟ أما ترى خبرها، وفي خبرها عبرها؟ أما ترى غناها كيف يفتن، وفقرها كيف يُحزن؟ أما ترى أَعْلَاقها نَهَبَ أحداقها؟ أما ترى قصورها موقوفة على خرابها؟ وهل تركت الدنيا لأحد شبهة وإشكالا في فضل الإعراض عنها؟ أليس مُرُّها غامرا لحلوها؟ أليس كَدُّها غالبا لصفوها؟ متى أفادت أحدا من سكانها فائدة فلم تكن عليه بائدة؟ أليس أبناؤها بقية الهالكين؟ أليس جديدها ميراث البالين؟

اللهم غفرا! نَصِفْهَا صفة العارفين، ونَصَحْهَا صُحْبَةَ الجاهلين. ما أَقْبَحَ الأمن في عَرَصَةِ الخوف، وما أَشْنَعُ الجهل في وقت العلم! ما أَضْرَ النوم في مكان الانتباه! ما أَشَدَّ حسرة الخاسر في تجارته، بعد كسبه في حالته! ما أَسْخَنَ عَيْنًا^(٥) قَرَّتْ بما لا حاصل له! ما أْخْرَبَ قلبًا سكن إلى ما لا عائدة منه!

(١) عرج في الشيء وعليه عروجا: رقي وصعد. (٢) لَجَّجَ القوم: ركبوا اللجَّة، واللجة معظم الماء أو معظم البحر.

(٣) يبدو أن هنا كلمة سقطت ويمكن أن تقرأ (أما تراها).

(٤) كذا! ويظهر أن هنا نقصا، ويمكن أن تكون كلمة بمعنى مهلكة.

(٥) ما أسخن عينًا: ما أكثر بكاؤها.

يا هذا:

هل أنت معتبر بمن خَرَبْتُ عنه، غَدَاةَ قُضِي دَسَاكِرُهُ؟^(١)
 وبمن أذلّ الدهرُ مَصْرَعَهُ فَتَبَرَّأْتُ مِنْهُ عَشَائِهِ؟
 وبمن خَلَّتْ مِنْهُ أَسْرُتُهُ وبمن خَلَّتْ مِنْهُ مَنَابِرُهُ؟
 [١٤٢ب] أين الملوكُ، وأين عزهم^(٢) صاروا مصيرًا أنت صَائِرُهُ؟
 نَلْ ما بـدَا لك أن تنال من الـ دُنْيَا؟! فَإِنِ الْمَوْتَ آخِرُهُ

يا هذا! إنما أذكر لك معاييب الدنيا حتى تطهّر نفسك من أنجاسها، وتتباعَدَ جَهْدَكَ من أدناسها، وتُفَرِّدَ حَالِكَ من أحوال ناسها. فحينئذ إذا صفا لك جوّ الدين تنفست فيه، وإذا تدلى على فؤادك حبلُ اليقين تمرّست به، وإذا انكشف عنك غطاء الجهل سرّحت طرْفَكَ بعده، وإذا سمعت فنًا من لحون الحق طربت عليه، وإذا أُودِعْتَ سرًّا من الغيب لم تُفْشِهْ إلى من ليس من أهله، وإذا كوشفت بعين الاختصاص لم تحس بما عداه، وإذا قيل لك: اذْنُ إلينا لم تَدُنْ وفيك هيئة البشر، وإذا قيل لك: اطلُبْ - لم تطلب وعليك أثر من آثار أهل الشر، وإذا قيل لك: اسمع! - لم تسمع وأنت منتشر^(٣).

اللهم! عزيزٌ عليّ أن أقول ما أقول ونصيبني منه اللفظ المُجَبَّر، ومحصولي منه الأمر المُحَسَّر.. فأما أنت أيها السامع، فموكول إلى شأنك بما أنت عليه [و] أهله وبه من وُدِّك وشأنك، لا سلطان لي على قلبك، ولا مستنبط لي من غيبك. إن أنت إلا لنفسك على ما كنت عليه في أمسك، فإن كنت ذا غبطة في ذلك فالزَمْ، فالغبطة هي المطلوبة لك والمرادة بك. ولكن بقي عليك شيء: هل أنت عارف بالغبطة ما هي؟ وكيف هي؟ فإنني خائف عليك أن تظن أن الغبطة في شهوة تُنال، ونعمة تُدرَك، وليّن يُلبَس، وحلو يُتَطَعَم، وبارد يُشرب، وكأس يُتَعاطى، ونديم يُضاحك، وعود يُضرب، وصوت يُقترح، ومجلس يُعْنَى، ووجه يُنظر إليه، وحديث يُقهقه عليه.

(١) الشعر لأبي العتاهية، ديوانه ٢٠٥-٢٠٦ مع اختلاف في ترتيب الأبيات.

(٢) أي مشتت الذهن.

(٣) وفي الديوان: جندهم.

هيهات! عَزَبَ^(١) لُبُّكَ، وتاه قلبك، وركبك شيطانك. هذه أضاليل قد حُفَّتْ بأباطيل يزها بها. مَنْ لَا حُنْكَ لَهُ وَلَا حَكْمَةَ عِنْدَهُ، لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْعُرْفِ وَالنَّكَرِ، وَلَا بَيْنَ الْيَوْمِ وَالْغَدِ، وَلَا بَيْنَ الثَّابِتِ وَالزَّائِلِ، وَلَا بَيْنَ الْبَاقِي وَالْحَاصِلِ، وَلَا بَيْنَ الصَّاعِدِ وَالنَّازِلِ، وَلَا بَيْنَ الْجَادِّ وَالْهَازِلِ.

الغبطة - عافاك الله - في حال أخرى أنت منها في قُطْرٍ شاسع لا يلوح لك ولا يترأى لعينك، الغبطة في النَّجْوَةِ^(٢) من هذه التي [١٤٣] قد ضَرَبَتْ عَلَى غَضَبِ الْأَلْبَابِ مِنْ أَرْبَابِهَا، ومرنت على تصديق الشمل بين الْأَفْهَاءِ وَأَحْبَابِهَا، إِلَى مَحَلٍّ لَا أَلَمَ فِيهِ وَلَا أَدَى، وَلَا شَوْبَ بِهِ وَلَا قَذَى، إِلَى مَحَلٍّ تَجَدُّ فِيهِ النِّعَمِ صَافِيًّا وَالْحَقُّ بَادِيًّا، إِلَى مَحَلٍّ لَا يَعْتَرِكُ «منه» ملل، وَلَا يَتَنَابَكُ فِيهِ عِلَلٌ، حَيْثُ تَنْسَى فِيهِ الْحَزْنَ حَسًّا وَرَسْمًا، حَيْثُ يَحْكُمُكَ الْمَوْلَى فَتَحْكُمَ، وَيُدْنِيكَ إِلَى حَضْرَتِهِ فَتَتَنَعَّمُ، حَيْثُ لَا يَلْتَهَبُ لَكَ فِي صَدْرِكَ نَفْسٌ، وَلَا يَخْمَدُ بَيْنَ يَدَيْكَ قَبَسٌ.

يا هذا! إِنَّمَا أَشَوْكَ إِلَى هَذَا الْمَحَلِّ نَظْرًا لَكَ، وَأَذَلَّ لَكَ السَّبِيلَ إِلَيْهِ شَفَقًا عَلَيْكَ. فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ وَالتَّكْثِيرِ فِي أُنْسِي بِأُنْسِكَ، وَاعْتَقِدْ أَنِّي مَقِيَّضٌ لَكَ مِنْ جِهَةٍ وَلَيْكَ لِيَكُونَ لَهُ عِنْدَكَ يَدٌ يَجِبُ عَلَيْكَ شُكْرُهَا، وَنِعْمَةٌ يُلْزِمُكَ الْقِيَامُ بِحَقِّهَا. فَإِنْ شَهِدْتَ هَذَا التَّقْبِيضَ الَّذِي أَشْرَتْ إِلَيْهِ، سَمَحْتَ بِذَلِكَ التَّفْوِيضَ الَّذِي جَبَلَكَ عَلَيْهِ. وَإِنْ عَمِيتَ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - فَمَا أُتَيْتَ إِلَّا مِنْ جِهَةٍ أُذُنٌ إِذَا سَمِعْتَ لَمْ تَعِ، وَإِذَا وَعَدْتُ لَمْ تَفِ، وَإِلَّا مِنْ جِهَةٍ عَيْنٌ لَا تَبْصُرُ، وَإِذَا أَبْصَرْتَ لَا تَحْصُلُ؛ وَإِلَّا مِنْ جِهَةٍ قَلْبٌ لَا يَهْتَمُّ، وَإِذَا اهْتَمَّ لَا يَسْتَتِمُّ؛ وَإِلَّا مِنْ جِهَةٍ نَفْسٌ لَا تَتَّقَدُّ، وَإِذَا انْقَادَتْ لَا تَرْتَادُ؛ وَإِلَّا مِنْ جِهَةٍ عَادَةٌ لَا تَفَارِقُ، وَإِذَا فَارَقَتْ لَا تَرْتَفِعُ؛ وَإِلَّا مِنْ جِهَةٍ قَرِينٌ لَا يَنْصَحُ، وَإِذَا نَصَحَ لَا يَنْفَعُ، وَإِذَا كُنْتَ مَأْتِيًّا مِنْ هَذِهِ السَّبِيلِ الْخَافِيَةِ: كَيْفَ الْأَمَانُ لِي مِنْكَ عَلَيْكَ؟ وَكَيْفَ الرِّجَاءُ لِي فِيكَ؟ وَكَيْفَ الشُّغْلُ لِي بِكَ؟

(١) عزب: غاب وخفى. وفي التنزيل: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس: ٦١].

(٢) هو من النجوة من كذا: أي بعيد عنه، سالم منه.

حدثني عنك فقد بُليت بك، واطّقتني جَهْدَكَ فقد أَضِفْتُ إِلَيْكَ. وإذا امْتَحَنْتُ بِأَنْ
أَقُولَ لَكَ، وامتَحَنْتَ بِأَنْ تَسْمَعَ مِنِّي فلا أَقْلُ من التعاون الذي هو شِيمة الفتيان، ولا أَقْلُ من
الركة التي تدرك الإنسان على الإنسان. فَإِنْ لم ترحم نفسك في قلة قبولك مِنِّي، فارحمني
لشدة إقبالِي عليك.

أَجْبِنِي إِلَى حِظِّكَ. صافحني عن الوفاء لك. أَجْمِنِي^(١) عن بعض الكد من أَجْلِكَ.
ارحم عَبرتي حَسْرَةً على ضياعك. تعصب لغيرتي عليك. تعجب من انتصابي بسببك.
أَعْطِنِي أَجْرَتِي على سعيي. اشْكُرْنِي على سَهَرِي لك. أَمِنْ الْفُتُوَّةِ أَنْ تَرَانِي أَتَعِبُ لَكَ، فلا
ترحمني؟ أَمِنْ المروءة أَنْ تَجِدَنِي مَكْدُودًا على سعادتك، فلا تساعدني؟ أَمِنْ الْفَضْلِ أَنْ
أُحْسِنَ إِلَيْكَ بِكَ، فلا تقبل إحساني فيكَ؟

لو كنت غريبًا لعذرتك، ولو لم يَخْطُكَ^(٢) الشَّيْبُ لَأُطَلْتُ رَسَنَكَ، ولو لم يجمعنا
دين الحق لأهملتكَ، ولو لم يعقد بيننا المِلْحُ لَازَوَرَرْتُ عَنْكَ، ولولا علائق [١٤٣ب]
بيني وبينكَ لأرخت أناملِي من ذيلِكَ. فلا تغفل: ادْنُ مِنِّي وَأَقْبِلْ عَلَيَّ، وشَرِّبْ قَلْبَكَ
كلامي، ومَيِّزْ ما لك مما عليك بإرشادي. فعن قليل تفقدني، وينأى سوادك من سوادي.
فلعلك حينئذ أن تتمنى أن يجول في أذُنكَ صوتي، وتقف لعينك صورتِي، وتلتمس بقلبك
نُصْحِي فلا تجدني. فإذا كان ذلك، فلا تبخل بدمعتك لتكون رحمة لي ورَقَّةً لَكَ، فَإِنْ
العين إذا جادت بدمعتها شوقًا إِلَى أَخٍ، أو نَدَمًا على سالف، أو حَسْرَةً على فائت، أو
استخذاءً^(٣) لقدر، كان ذلك شاهدًا لصاحبها بِرَقَّةِ الطباع، وسُرْعَةِ الانقلاع، وشدة النزاع
إِلَى اللَّهِ عز وجل.

وبعدُ وقَبْلُ، فلست أدعوك إِلَى أَنْ تلبس شِعار العصمة؛ ذاك بيد مولاك. وإذا أَهْلَكَ
أَلْبَسَكَ، وإذا أَرَادَكَ^(٤) أَشْخَصَكَ، وإذا اختارك قبضَكَ. لا مُقَدِّمَ لما آخِرَ، ولا مؤخَّرَ لما
قَدَّمَ. وإنما أدعوك إِلَى أَنْ تهتك حِجاب المعصية بينك وبينه، وتنشئَ حالًا في التعرف

(١) جَمَّ الشَّخْصُ: استراح فعدت إليه قوته.

(٢) وخطه الشَّيْبُ: خالط سوادَ شعره، أو فشا في شعر رأسه، أو استوى سواده وبياضه.

(٣) استخذاءً: خضوعًا وانقيادًا.

(٤) ر: أَرَادَكَ.

إليه، وتخلط بسيئة قديمة حسنةً حديثةً، فإن هذا وما أشبهه يَفْتَلِ حبلك بحبل الصالحين، ويريش نَبْلَكَ بنبل المخلصين، ويكتب اسمك في عصاة المُخْبِتِينَ، ويُجْري ذكرك في الملاء الأعلى. فإن لم تستجب لي ضربةً واحدةً، فاستجب حالةً فحالة. ولا تأنف ولا تستكبر، فما أَنْفَ من الله أحدٌ فأفلح، ولا استكبر أحدٌ على الله فأنجح. هذا رفقي بك ونظري لك، فكن أنت لنفسك أكثر مني في [ذلك].

اللهم لولا إِدْنُكَ لما دعونا إليك، ولولا تفضُّلك لما دللنا عليك، ولولا إِيناسُكَ لما استوحشنا من غيرك، ولولا رجاؤك لما بسطنا إلفنا على خيرك: بك نلوذ معتصمين، وإياك نسترحم محتاجين، وبآلائك نتحدث معجبين ومتعجبين، وإلى فنائك نأوي واثقين مُدْلِينَ، وبحبك نتعلق صاعدين، وفي آفاق ملكوتك نجول راغبين ومُرْغَبِينَ، ورضوانك نخطب عارفين مُوَحِّدين، وفي رياض نعمائك نرتع شَرِهين ولهين.

يا هذا! الزَمْ باب الافتقار إليه بالدعاء، فإنك ما دمت على هذا الالتزام رجوت لك الفوز. وقد قيل:

أَخْلَقَ بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومُذْمِنِ الْقَرْعِ لِلأَبْوَابِ أَنْ يَلْجَأَ^(١)

وثق بالله! ما أولعك بذكره [إلا] وقد رَشَّحَكَ لوصله، ولا أوحشك من خلقه إلا وقد هياك لأُتْسِه. وهذه ولاية ما نالها أحد فأتاه العزل، ولا جدَّ به الجد فأتاه الهزل. فاشدد الآن وسطك، واطْلُبْ [١٤٤] قسطك، وشمِّرْ ذيلك، وقطِّعْ ليلك، فكأنك وقد رأيت مساءك صباحًا، وظلامك مصباحًا.

يا هذا! اسمع رِطانةً أخرى، ولغةً ليس فيها فحوى، وكن من قبولك لها ونبوك عنها بين [رعوى و] تقوى، فإن العبارة قد طالت في وصف الدنيا، والإشارة قد توالَتْ في الخبر عن أصحاب البلوى. وهذا كله لما أقوله وتسمعه عني. على [أن] قللي لا شرَحَ له، وسمعلك لا فَتَحَ معه؛ لكن لا بد من التنفس عند تضاييق الخناق، ولا بد من التغابي عند

(١) البيت لمحمد بن بشير الخارجي (البيان والتبيين ٢: ٣٦٠).

تفاقم الإغلاق، ولا بد من الانحجاز^(١) عند تعذر الإنجاد والإعراق. نعم حبيبي! كنت ثم تكونت؛ ثم بُنتَ ثم تَبَيَّنْتَ، أُنْفَهَمَ هذه العويصة؟ أَبَكَ تَخْلُصُ من هذه القبيصة^(٢)؟

يا هذا! كنت كوناً يابداً من أنت به فكان كَوْنُكَ مطلقاً، ثم تكونت بإمداد مَنْ كنت به فصار تكونك امتداداً لكونك. فلما بلغت آخر التكون بُنْتَ، وإنما بُنْتَ لمن كنت به، فلما بُنْتَ تَبَيَّنْتَ، أعني ظهرت خالداً بعدما كنت غبت بائداً. إلا أن بيدودتك كانت بالحس، وخلودك كان بالقدس. فحدثني عنك، وخبرني منك! أين أنت من هذه اللّمة الثاقبة، ومن هذه البارقة الصادقة؟ هل وجدت منها نسيماً أهدى إليك نعيماً؟ بل هل وجدت منها [.....]^(٣) لم تجدها، فإنك في إحدى الوجدانين مُهنأً، وفي الآخر معزى!

يا هذا! ما أشد انخداعي لك بما أُلقي إليك! وما أقبح إعراضك عني فيما أخلعه عليك! ولو كنت مُقَصِّراً في أمرك وما له عائد في خالصة حالك، لبسطت العذر سراً وجهراً؛ ولكني وحق الحق جوادٌ بما وجدته، بذول لما ملكته، غيور على ما عرفته، نصيحٌ لمن أصبته، صبور على من بلوته. ولولا حركات أسرار لها جَوَلَات في الغيبة، وَرَجَعَات إلى الشهادة، لما نبست بحرف من هذه الغرائب، ولا ترنمت بشيء من هذه اللحن. ولكن مُكْرَهُ أَخُوكَ فاعذُر، ومضروبك فاصبر، ومستعين بك فأنصُر.

يا هذا! مَنْ عرف في الشاهد لم يخل بالغائب، ومن اعتنق الغائب لم يلتفت إلى الشاهد، ومن تذبذب بينهما فهو الساقط الهابط.

يا هذا! أريد أن تصيب الهدف ولما تُسدّد؟ أريد أن تبلغ المنزل ولما تجتهد؟ أريد أن تلحظ الأعلى ولما تحدّق؟ أريد أن تجالس الملوك ولما تتأدّب؟ أريد أن تسعد جُزْأً وتنال مُرادك اختلاسا؟

هيهات! إن المراصد مشحونةً بالموانع، وإن الآفاق مملوءةً بالمقارع، وإن الأسرار ملتهبةً بالنوازع، وإن المناظر منقوشةً بالروائع، وإن الألحان مصطحبةً بالبدايع، فلا عَيْنَ

(١) انحجز: أتى الحجاز؛ أنجد: أتى نجداً؛ أعرق: أتى العراق.

(٢) القبيصة: التراب المجموع، الحصى؛ يقصد: المعضلة الشديدة.

(٣) كتب الناسخ «نعيماً» ثم رمح عليها.

إلا وهي عَبْرِي، ولا نَفْس إلا وهي حيرِي، ولا لفظ إلا وهو مُعاد، ولا وصل إلا وهو معتاد. دَعْنَا في هذه الزاوية الحرجة حتى نتشاكى ونتباكى: تارةً على فَقْدِ حاصل لم يَتَّقْ، وتارةً على طلب مراد لم يَرَقْ، وتارةً على مُدْرِكٍ بعقل لم يخلصْ، وتارةً على فائت بِحس لم ينقص.

اللهم رحمتك نرجو، ورَأْفَتُكَ نتمنى، وإليك [نلنفت^(١)] إذا صغونا، وإلى فنائك نسير إذا خطونا، وإياك نطلب إذا عطونا^(٢)، وبك نستجير إذا نبونا، وباسمك نلهج إذا صفونا، وآلاءك ننشر إذا صبونا، وإلى بابك نقصد إذا حبونا، وعفوك نلتمس إذا هفونا، وبِجُنتك نتقي إذا رمونا. فكن لنا ولا تكن علينا، يا ذا الجلال والإكرام!

رسالة (٥٢)

أيها الصاحبُ المستأنس بهذا الفن، المسافر إلى هذا الوطن، الساكن في هذا الموطن، المستخبر عما ظهر فيه وبطن، الكاره لأن يقال فيه تَوَهَّم وظَنّ، المعجب بأن يسمع فيه حَقق واستيقن: هل شهدت حالاً نَقَلَك عن الزمان والمكان اللذين يتقرب منهما كل إنس وجان، وهل ورد عليك ما محاك عنك وسلبك منك، وتركك بلا أوان تجده واسِطَةً فيما أنت مَحْبُوبٌ به، مُحْيَاً فيه، مَحْوي عليه. وهل قام في نفسك أن الزلقة [١٤٥أ] عند الحق هي البراءة من جميع الخلق؟ كان ذلك زماناً أو مكاناً، أو خبراً أو عياناً، أو عُبْجَةً أو بياناً، أو ريبة أو بُرْهاناً؟ فإن كان ذلك كذلك فلقد خُصِصَتْ بحلاوة الأُنس، ومشاركة ودائع الله في حظيرة القُدُس، مما لا يقدرُ عليه الجنُّ والإنس. وإن كنت في هذه البلاد غريباً، وعن هذه السرائر والغيوب طريداً، فلا عليك أن تصل ليلك بنهارك، وتوطّن سرارك بجهارك، وتجمع بين إضمارك وإظهارك، وتحقق حالك في إيرادك وإصدارك، وتُفَرِّق بين حالك في اغترارك واستظهارك، وتتفي من شعارك ودثارك، في انتصارك

(١) ناقصة في الأصل هي أو ما في معناها. وصفاً: مال.

(٢) عطوت الشيء: تناولته باليد.

واقْتَدَارَكَ. فَإِنَّكَ إِذَا هُدِيتَ لِهَذَا الطَّرِيقِ سَلَكَتَ وَاجِدًا، وَوَجَدْتَ غَانِمًا، وَغَنِمْتَ جَذَلًا، وَجَذَلْتَ نَاعِمًا، وَنَعِمْتَ وَاصِلًا، وَوَصَلْتَ مَقْبُولًا، وَقَبِلْتَ مَرْضِيًّا، وَرَضِيتَ مَكْفِيًّا، وَكُفِيتَ مَحْمِيًّا، وَحَمِيتَ مَهْدِيًّا. وَلَيْسَ بَعْدَ الْهَدَايَةِ وَالْوَجْدَانِ، وَالْغَنِيمَةِ وَالْجَذَلِ، وَالنَّعْمَةِ وَالْوَصَالِ، وَالْقَبُولِ وَالرِّضَا، وَالْكَفَايَةِ وَالْحَمَايَةِ، غَايَةٌ تُتَمَنَّى بِالْعُبُودِيَّةِ، وَلَا نِهَايَةٌ يُتَرَقَّى إِلَيْهَا بِالْبَشَرِيَّةِ. وَكُلُّ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ جِنْسِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي إِذَا سَطَعَتْ أَنْوَارُهَا غَصَتْ بِالْهَدَايَا وَالتَّحَفِ أَقْطَارُهَا، وَامْتَلَأَتْ بِالْآلَاءِ وَالنَّعَمِ أَنْفَاقُهَا، وَفَاضَتْ بِالزِّيَادَةِ وَالْفَضْلِ وَالْجَدْوَى آفَاقُهَا.

فِيَا مَنْ يُؤْمُ^(١) هَذِهِ الْقَاصِيَةُ مَتَمِنًا فِي الْخُلُوعِ، لَمْ لَا تَتَبَرَّأْ مِنْ زَخَارِفِ هَذِهِ الدَّارِ، مُطَهَّرًا لِنَفْسِكَ مِنْ ضُرُوبِ الْأَوْطَارِ وَالْأَقْدَارِ، حَتَّى تُؤَهَّلَ لِلْأَسْرَارِ، وَتَصَافَحَ بِالْمَبَارِّ وَالْمَسَارِّ^(٢)؟ وَلَمْ لَا تَصَحِّحْ نَسَبَكَ مِمَّنْ أَنْتَ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ؟ أَغْنِي بِذَلِكَ أَنْكَ تَنْسِبُ إِلَى أَبِيكَ الْأَدْنَى بِاللَّحْمِ وَالدَّمِ، وَإِلَى أَبِيكَ الْأَقْصَى بِالمَاءِ وَالطِّينِ؛ وَقَدْ غَرَّكَ هَذَا النِّسْبُ، وَأَغْوَاكَ هَذَا السَّبَبُ، حَتَّى نَسِيتَ الَّذِي تُنْسَبُ إِلَيْهِ بِكَ لِكَ وَبَعْضُكَ، وَبِأَصْلِكَ وَفَضْلِكَ، وَبِهِ تُعْرِفُ فِي أَوَّلِكَ وَآخِرِكَ، وَلَهُ تُكْرَمُ فِي غَيْبِكَ وَشَهَادَتِكَ، وَإِلَيْهِ تُضْرَعُ فِي نَازِلَتِكَ، وَإِيَّاهُ تُسْأَلُ دَوَامَ رَوْحِكَ وَرَاحَتِكَ، فِي سَعِيكَ وَقَدْرَتِكَ. وَلَمْ لَا تَقْدُمُ عَلَى ذَلِكَ نَظْرَكَ فِي نَفْسِكَ وَفِي عَوَادِيهَا عِنْدَكَ، وَلَمْ لَا تَحَاسِبْ نَفْسَكَ بِنَفْسِكَ؟ مَتَى تَعْرِفُ الْفَضْلَ الَّذِي لَكَ [١٤٥ ب] فَتَحْرِزَهُ، وَتَقِفَ عَلَى الْوَكُوسِ^(٣) الَّذِي عَلَيْكَ فَتَمِيزَهُ؟ هَذَا بَيَانُ حَالِكَ فِيمَا هُوَ ظَاهِرُ دُنْيَاكَ، هَاتِ بَيَانَ حَالِكَ فِيمَا هُوَ حَقِيقَةُ دَعْوَاكَ، وَإِلَيْهِ تَوَجَّهْ وَعِنْدَهُ مَمْتَهَاكَ. فَإِنْ كَانَتْ عَيْنُكَ لَا تَبْصُرُ إِلَّا الْعَاجِلَةَ، وَنَفْسُكَ لَا تَهْوِي إِلَّا الصُّورَ الْمُتَقَابِلَةَ، فَقَدْ أَحَاطَ بِكَ الرَّدَى وَأَنْتَ لَا تَشْعُرُ، وَحَاقَ بِكَ أَمْرُ اللَّهِ وَأَنْتَ لَا تَبْصُرُ، وَجَاءَكَ مِنْكَ مَا يَنْسِيكَ عَنْكَ، وَثَارَ عَلَيْكَ مَا يَشْغَلُكَ فَيْكَ. وَمَا أَدْرِي مَا أَقُولُ سِوَى أَنِّي أُسْتَرِيحُ إِلَى قَوْلِ رَبِّي: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

(٢) جَمْعُ مَبَرَّةٍ وَمَسَرَّةٍ.

(١) فِي (ر، ع): يَرْمُ هَذِهِ الْقَاصِيَةَ.

(٣) الْوَكُوسُ: الْخُسْرَانُ وَالنَّقْصَانُ.

يا هذا! الوقت مجتمعٌ معصوم، ومُفترقٌ مرحوم، ولله فيه نظراتٌ إلى عباده المؤمنين، فَيَجْزِبُ بها كلَّ كسير، وَيُنْعِشُ بها كلَّ عائر، ويَهْتَدِي بها^(١) كل تائه، ويرتاح لها كل حزين، وَيَغْنَى بها كل محتاج، وَيَجِدُ بها [كل]^(٢) معدم. فالويل لمن انقلب عنه خاسراً باسراً^(٣) قد حُثِيَ في وجهه التراب، وحُرِمَ جزيل الثواب، وقيل له: أَمْلِكْ عليك مردود، وجوارحك بمخالفتك عليك شُهود، وسَوِّطُ العذاب على هامتك مضبُوب، وخِذْلَانُ الله إليك مجلوب.

آه من المخالفة إلى ما نهى عنه، وواحسرتا على مجانية ما أمر به! هذا مع دُرور النعم التي لا تُحصى، واتصال أياديه التي لا تُستقصى، ولطائفه التي لا يأتي عليها لسان وإن كان رقيق الحاشية، وخيراته التي لا يُهتدى إليها إلا إذا خصَّ أوليائه بالمعرفة الناشئة. وأين قدرة العبد الشاكرة إذا أُنعِمَ عليه، من تفضل الرب الرؤوف إذا نظَّم أنواع بره بين يديه؟! ليس بينهما نَسَبٌ يعتمد، ولا حاصل يتعهد.

يا أخي! لقد عصيت زاجرك إذ زجرك، وخالفت أمرك إذ أمرك، وركنت إلى زهرة الدنيا وزُخْرُفِ الأمل، ورضيت بوخيم عاجلها، وزهدت في نعيم آجلها، وتوفرت على نضرتها ولآلائها، كأنك لا تؤمن بانقراضها وفنائها. فإلى متى هذه الغفلة والسَّهْوُ، وهذه العِزَّةُ واللَّهُوُ، وهذه الأبهة والزهو، وهذه السفاهة واللغو؟ مَلَكْتَ الهوى زمامك، واجتلبت بسوء الاختيار حِمَامَكَ، وانخدعت بلُعاة^(٤) الدنيا، والزخارف فيها- والله يا أخي- المخاوفُ والمتالف.

وَأُورِثَكَ الْجَهْلُ [١٤٦ أ] وَالْاِغْتِرَا
رُصُوفَ الْبَلَايَا، وَمَا تَنْقِي
وَمِلْتَ إِلَى عَاجِلٍ تَافَهُ
وَصَادَنَكَ أَشْرَاكُهَا يَا شَقِي

(١) زيادة لازمة.

(٢) زيادة لازمة.

(۳) باسرًا: كالح الوجه، عابسًا.

(٤) اللُّعَاعَة: البقية السيرة من كل شيء، ويُقال: بقي في الإِنَاء لِعَاعَة، ويُقال: ما بقي في الدِّنْيَا إِلَّا لِعَاعَة. وفي الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري: «أوجدت ما معشر الأنصار في لُعَاعَة من الدِّنْيَا تَأَلَّفَتْ بِهَا قَوْمًا أَسْلَمُوا، وَكَلَّنَكُمْ إِلَى مَا قَسَمَ اللَّهُ لَكُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ!» (الألباني، فقه السيرة ٣٩٥).

حتى متى إلى الشيطان سُكُونُكَ، وإلى الدنيا وعمارتها ركُونُكَ، وعلى حُطامها وسقامها جنُونُكَ؟ أما تعتبر بمن مضى مِنْ أسلافك، وبمن وارته الأرضُ من خلصائك وأُلافك؟ أما يردعك عن جهلك رادع؟ أما يَقْمَعُكَ عن غِيِّكَ قانع؟ أما أنت عما أنت عليه من الخطايا مُقْلَعٌ نازع؟ أما تلحظ بعين فكرك الأمم الخالية، والملوك الفانية، والفراعنة الماضية؟ هل تحسُّ منهم من أحد؟ وهل ترى لهم من باقية؟ طوتهم يد الحِمام، وطحتهم رَحَى الأيام، وقرضهم مرُّ العام بعد العام. فهاتيك بيوتهم خاوية، ومجالسهم في قصورهم قاوية^(١)، والأوزار في أعناقهم باقية.

وَحَلُّوا بدار لا تَزَاوُرَ بينهما ——— وأنَّى لسكان القبور تــــــزاورُ؟!

لقد نجا امرؤٌ محا عن نفسه شاهدَ هذا الموجود، بلزوم الخدمة لله الملك المعبود. ألا صافي مِنْ كَدَرِ الأقدار؟ ألا متميز عن عادة الأغمار^(٢)؟ ألا راغب في طريق الأخيار؟ ألا آنف من مذاهب الأشرار؟ ألا مزاحم لمناكب الأبرار؟ ألا هارب من أوطان الشاردين عن الله؟ ألا منقطع إلى الحق بحقائق الواجدين لله؟ ألا طامع فيما عند الله على ما وعد به أولياء الله؟ ألا مستحيي من إعراضه عن الله مع علمه بما يصل إليه من طرائف ما عند الله؟

يا أَكَلَةَ الحرام، وَحَمَلَةَ الآثام، وسَفَلَةَ الأنام! النجاء النجاء! فقد أظلمك عَلم الانتقام، وفاتكم من الله - ذي الجلال والإكرام - الخلودُ في جوار الله والدوام.

أيها الناس! خَبَرُونِي عنكم، إذ وقفتُم: خدتم الدنيا أعماركم، بأي شيء ظفرتُم؟ بذلتُم حياتكم، بأي زيادة ربحتم، وبأي فائدة انقلبتم؟ خاطرتُم بأرواحكم، بأي فائت أدركتم؟ أتعبتُم أبدانكم: هل بنسيم حَضْرَتِهِ عَبَقْتُم؟ هل على نغمات سِرِّهِ طربتم؟ هل بعبودية مناجاته تَلَذَّذْتُم؟ هل بحقيقة محبته حُصِصْتُم؟ هل بحلاوة بواديه من عنده أُنِسْتُم؟

(١) قاوية: خالية، من الفعل قوي.

(٢) أغمار، جمع غَمَر، وَغَمَرُ الناس: غمارهم، أي جمعهم المزدحم المتكاثف.

هل على بساط تَكْرَمَتِهِ جلستم؟ بل هل بضمانه لرزقكم وثقتم؟ هل على وعده توكلتم؟ وهل علمتم ماذا أُريد [١٤٦ ب] بكم؟ أو فكرتم فيما أُريد منكم؟ إن كان ذاك أو بعضه فأين دلائله وروائده؟ وأين أوائله وعوائده؟ وأين مخايله وشواهده؟ وأين وسائله وفوائده؟ بل أين خوافيه وبواديه؟ وأين مقدماته وهواديه؟ وأين توابعه وحوادثه؟ وأين الخَلْع التي يُلقِيها على مُصافيه؟ وأين السرائر التي يستودعها من يتهالك فيه؟ فلا أجسامكم تَحَلَّتْ بالعبادة، ولا قلوبكم ارتاحت في طلب الزيادة، ولا صدوركم صُرِفَتْ عن الهوى بصدق الإرادة، ولا أرواحكم هَشَّتْ للاستفادة، ولا أطماعكم انحسرت بالزهادة، ولا سيرتكم استمرت على الزيادة والزيادة^(١). لا جَرَمَ شَمِتَ بكم عدو الله إبليس، وبلغ بكم فوق ما أراد بالحيلة والتلبس. ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الباقية: ٢١]؟! هيهات هيهات! ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ ﴿٩٣﴾ فَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ [مریم: ٩٣-٩٥]. رَحِمَ الله عبداً رفع طرفه، وبسط كفه، وشرح همه، وَسَنَحَ^(٢) فهمه، ونظر إلى ما له فطلبه، وإلى ما عليه فاجتنبه.

اللهم لا تؤاخذنا بالدعاء إليك قبل إجابتك، ولا بإجابتك قبل اليقين معك، ولا باليقين معك دون التهالك عليك، [ولا بالتهالك عليك]^(٣) دون تَجَرُّعِ الغُصص من أجلك، ولا بتجرع الغُصص من أجلك دون الرضا والتسليم لك، ولا بالرضا والتسليم لك دون الغيبوبة عن كل ما عداك، ودون البراءة من كل ما سواك.

إلهنا! إننا لا نصل إليك إلا بك، ولا نسلو عن غيرك إلا لك. نواصينا معقودة^(٤) بتصرفك، وآمالنا موقوفة على تشريفك، وسُورنا مهدوم إلا إذا كَفَيْتَ، وحریمنا مستباح إلا إذا حَمَيْتَ.

(١) من ذاد يلزود: حمى.

(٢) سنح: جعله يسنح أي يعرض، وسنح صاحبه عن الأمر: رَدَّه، صرفه عنه.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) في (ع، ر): معقولة، والعقل لا يكون للنواصي، وإنما جاء: عقلت المرأة شعرها.

اللَّهُمَّ إِنَّا حَضَرْنَاكَ دَنَسِينَ فَطَهِّرْنَا، وَسَلَّأْنَاكَ مُحْتَاجِينَ فَأَجِبْنَا، وَلَدَّنَا بِكَ عَاجِزِينَ فَقَوِّنَا، وَخَفَّنَاكَ لِإِجْرَامِنَا فَأَمِّنَّا، وَتَكَشَّفْنَا عَنْكَ فَاسْتُرْنَا، وَاعْتَرَفْنَا بِحُكْمَتِكَ فَأَقْبِلْنَا، وَخَضَعْنَا لِقُدْرَتِكَ فَارْحَمْنَا، وَانْهَدَمْنَا فِي مَخَالَفَتِكَ فَأَعْمُرْنَا، وَتَبَدَّدْنَا فِي مَلِكِكَ فَانْظُمْنَا، وَشَتَّتْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا [فاجمعنا] ^(١).

[١٤٧] اللَّهُمَّ أَنْتَ بِنَا أَبْصَرَ، وَنَحْنُ عَنْ مَصَالِحِنَا أَقْصَرَ! فَرَّقْنَا بِكَ إِلَى حَظِيرَةِ الْقُدُسِ، وَاسْقِنَا بِكَ الْقَبُولَ شَرَابَ الْأُنْسِ، فَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ بِنَا لَمْ نَنْظُمًا بَعْدَهُ أَبَدًا، وَلَمْ نُؤْثِرْ عَلَيْكَ أَحَدًا.

آه على أقدام كانت تستثقل حَمْلَ رقيق النعال، كيف تطيق غداً هَوْلَ ثقل القيود والأنكال ^(٢)! آه على جنوب كانت تستخشن لين الحرير، كيف تصبر غداً على مقاساة لهب السعير! آه على خُدود في ظلال الترف تتدلّل ناعمة، كيف تكون غداً في أطباق الثرى ساهمة راغمة! آه على أجساد في حُلل الدنيا مصونة، كيف تكون إذا أصبحت غداً في أثناء الجنادل ^(٣) مهينة مدفونة! آه على مَنْ قد غدا في ضروب المعاصي مشتبكاً، كيف يكون إذا وقف بين يدي المَلِكِ الجبار مرتبكاً!

عجيب لقلب سكنه عقل، أو اطمأن به فهم، أو سنحت فيه فطنة، أو هبّ فيه انتباه، أو ألمّ به رأي، كيف ركن إلى الدنيا جهلاً، ورضي بها وطنًا، ووجدها من الجنان بدلاً، وغفل عن صنعها بمن مضى وخلا! اسمع قول القائل:

تَوَخَّ سَبِيلَ الْبِرِّ وَاجْنَحْ إِلَى التَّقَى وَخَلَّ عَنْ الْآثَامِ وَاجْتَنِبِ الْفُحْشَا
تَفَرَّدَ عَنِ الْقَوْمِ الَّذِينَ ادَّخَرَتْهُمْ لِأُنْسِكَ، وَاسْتَبْدِلْ مِنَ الْأُنْسِ الْوَحْشَا
فَلَسْتَ تَرَى إِلَّا مَشِيرَ عَدَاوَةٍ لَغَيْرِكَ نَصْحًا وَهُوَ مَعْتَقِدُ غِشٍّ
أَرَى بَاطِنَ الدُّنْيَا سُومَ أَرَاقِمٍ وَإِنْ مَلَأْتُ لِلْعَيْنِ ظَاهِرَهَا نَقْشَا

(١) زيادة لازمة.

(٢) النكل (بكسر النون وسكون الكاف): القيد الشديد من أي شيء كان، وقيل قيد من نار، والجمع: أنكال ونُكُول.

(٣) الجنادل: الحجارة، والواحدة: جندلة، والجمع: جنادل.

أفلا يعتبر المرء اللبيب بما يرى من تنعيمها وورود الفجائع على أهلها: من علة فاجئة، أو مיתה قاضية، أو دار بعد ساكنها موحشة، أو حال بهولها وصعوبتها مدهشة؟ قد كدر منها المنون ما صفا، وتركها رَيْبُ الزمان قاعاً صفصفاً.

يا هذا! شَمِّرْ وَخُذْ فِي الجِدِّ، فالأمرُ والله حق. أتدري ما الأمر؟ الأمرُ هو الرحيل عن هذا الموضع النَّابِي^(١) بأهله، المزعج إلى محل آخر: إما أن يكون أنعم منه، وإما أن يكون أنباء^(٢) منه، وبين الرحيل [١٤٧ب] والوصول وحشةُ الفراق، وبلوغ الروح التراق، والتفاف الساق بالساق، وحرارة الصدور، وانسكاب المآق.

يا قوم! [ماذا]^(٣) أقول لكم، وكيف أعرض نصحي عليكم؟ وما أنتم في الحقيقة مرادي، بل أنا ذلك المراد، وأنا الحاضر ذلك الناد، وأنا القادح لذلك الزناد، وأنا المُتَّبِعُ لتلك العهد^(٤)، وأنا الخاطب لذاك الرشاد، وأنا المقيم على نفسي أولئك الأشهاد.

اللهم صلِّنا بخيرك، ولا تكلنا إلى غيرك، يا ذا الجلال والإكرام!

رسالة (٥٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ^(٥)

إلهنا^(٦) وإله الخلق أجمعين! طوبى لمن أهْلته لمواجهتك بحديثه على طريق الانبساط! طوبى لمن وفقته في عبادتك للأخذ بالاحتياط! طوبى لمن صفيته في إشاراته إليك عما ابتليت به غيره من الكدر والاختلاط! طوبى لمن سبقت له منك الحسنى فصار بين أهل السموات والأرض من أولي الاغتياب! طوبى لمن رَفَعَتْ مقامه في الملاء الأعلى عن كل استظهار واستنباط! طوبى لمن عَرَفَكَ فَوَصَفَكَ أو وَصَفَكَ فَعَرَفَكَ!

(١) نبا به المكان: كان غير مناسب له، لم يوافق.

(٢) أنبا منه: أفعل تفضيل من نبا.

(٣) زيادة لازمة.

(٤) العهد: مكان نزول المطر أول السنة.

(٥) زيادة من ل.

(٦) ورد معظم هذه الرسالة في ل (١٢٩ - ٣٣ب) بعنوان: «أضحت الدار خالية من قطانها من الإشارات الإلهية».

إلهنا! سوابق مَنَّكَ تدعو إلى الاعتراف بفضلِكَ، وسوابغُ نعمِكَ تبعث على العبادة لك، وروادفُ بَرِّكَ تستنفد قوى الشاكرين على ذلك، وسوالف لطفِكَ تأتي على آخر ما يقدر عليه الواله المتهالك، بدعائك أجبنك، وبإرادتك أردناك، وبصنعك عَرَفناك، وبإذنك وصفناك، ومن أجل ما عهدنا منك اشتقناك، وبجهالتنا عَصَيْنَاكَ، وبفرط دالَّتنا قصدناك، وبسوء آدابنا جَفَوْنَاكَ، وبحسن توفيقك استعطفناك، ولولا جودك ما سألناك، ولولا إحاطتك [بنا] ما شهدناك، ولولا غَلَبَتِكَ علينا ما وجدناك، ولولا لُطْفِكَ ما عبدناك، ولولا أنت في كل ما نحن فيه وعليه ما أطعناك. لآلاؤك أشيع من أن تُستَر، وآلاؤك أظهر من أن تنكر. قدرةٌ محفوفةٌ بالحكمة، وحكمةٌ مكفوفةٌ بالقدرة، ونعمةٌ محوطةٌ بالرحمة، ورحمةٌ منوطةٌ بالنعمة. فكل شيء منك لائق بالربوبية، وكل شيء لك سائق^(١) [أ١٤٨] إلى العبودية. عززت موجودًا، وكرمت معبودًا، وحضرت مشهودًا، وسُئلت مقصودًا.

أيها السامع المتأيد، والصاحب المتوجد! لا يشهد في مشاهدك غير من هو شاهدك فتغيب عن غائبك بغيبتك، ولا تجد غيره ظانًا أنه هو، فتكون عادماً لحقيقته بما أنت غيره، ولا تترنم بغير حديثه، فيذهب طربك هباءً مثورًا، وبنطوي عمرك حَسرةً وثبورًا. واحترس من نفسك لنفسك، فإنها عقرب إذا لدغتك لم تُبَلَّ^(٢)، وإذا ضربتك لم تستقل^(٣). واحفظ عهد الله عندك، والْحَظْ رَفْدَهُ قبلك، واستقبل أَمْرَكَ بالشَّيَاح^(٤) والجد، والتشمير والجهد. فقد حُمِلَتْ مِنْ سِرِّهِ عَظِيمًا، وكُلِّفَتْ مِنْ أَمْرِهِ جَسِيمًا، وعُرِّضَتْ لذكره في جميع أحوالك كَظِيمًا. فابرز بالخشية والتقوى، واحتجب عن البلوى بالبراءة من الشكوى، واستيقن أنك مختبرٌ في العاجلة، ومعتبر في الآجلة. فَإِنْ يَكُ لَكَ شَفٌّ^(٥) رجحت به، وإلا فإنك من النادمين.

أما أني أتكلم وفؤادي مُهَيَّم، وقلبي مُقَسَّم! ما لي في هذا الهوى الناعم مُنَسَّم، وفي هذه الأرض العريضة مُتَوَسَّم. سر قد باح عليّ قبل أن أكنتم، وخبر قد شاع عني قبل أن

(١) في (ع): سائق. (٢) تبل: تشفى.

(٣) تستقل: ترتفع. يقصد لم يقم منها.

(٤) الشياح: الحذر مع الجد. (٥) الشف: الزيادة والفضل.

أعلم، وتظلم قد توالى من أجلي قبل أن أظلم. فلا جرم العُذْرُ مردود قبل أن يُسمع، والعقاب واقع قبل أن يُستحق، والمحذور نازل قبل أن يُستعد. وكيف يكون الشقي إلا كما تسمع، وهل يكون المغضوب عليه إلا على ما ترى؟ فمن لي الآن بجسد سعيد، وصديق ودود، لعلني أتلو عليه نبأ، وأستنجد به على ما أنا محمول فيه ومدفوع إليه. هيهات! تَعَسَّ الجَدُّ^(١)، وخاس^(٢) الصديق، ودام التعب، واشتد الأسى، وتوالى الندم على أمر لم يُمْلِكْ أوله، ولم يَدْرِكْ آخره، ولم يُظْفَرْ بما بينهما لعوز ما لو جيد به وُسْمَحَ بشيء منه، كان مكان هذه الشكوى من البلية تلذذ، وبَدَلَ هذا التَّرَحُّ فَرَحَ، ودون هذا التحرق تنعم. فالحمد لله الذي استأثر بالحكمة في غيب مصلحتي، وزَوَى عني روح حياتي، وطوى دوني سرَّ عاقبتني، وأفرغ على أذني^(٣) البلوى، ومنعني فيها من بعض الشكوى [١٤٨ب] - حمدًا سائل صلاح ما به، مُسْتَمِدٌّ مِنْ فضله في إعتابه.

أما والله أيها السامع بأذنه، الحاضر بذهنه: لولا لزومي حَدِّي في العبودية، وتلطفي في تصفح الربوبية، وأخذي بآداب من كان مَلِكُ النفس، عزيز الهممة^(٤)، بعيد الغاية، لتمطيت على جوانب أسرار، وصرَّحت بجوانب أخبار، ليس لأحد من البشر عنها خبر ولا أثر. ولكن ما أصنع والريب يقظان يُحْصِي أنفاسي، والعدو متكئ في ناحية يهين أمراسي^(٥)! فلو نُقِيت من كل شوب، وَصَفَوْتُ من كل عيب، لَأَدَّعَى عَلَيَّ ما يزيل بُنياني، ويزلزل أركانني. فكيف إذا أهملت بعض الحق، وأغفلت بعض الرفق! أين تجدني، وعلى أي حال تشهدني! لسان ينطق بالسَّهْوِ، ونفس تطرق على الزهو، وحال تَغَرَّقُ في اللهو، فإن باح مراد لم يلبث إلا مُجْتَازًا، وإن عَزَّ مطلوبٌ لم يمكث إلا متجاوزًا. فعلى ذلك ليس الحال ناعمًا، ولا الأمل مُتَوَقِّعًا، ولا الراحة مظنونة، ولا البلاء متجليًا، ولا الصديق موثيًا، ولا الشانئ مستبقيًا. عادت الحسنات بسوء الأدب سيئات، وصارت الطاعات

(١) الجَدُّ: الحظ. (٢) خاس العهد: نقضه وخانه.

(٣) في (د): وأفرغ عليَّ أذنية البلوى. والأذنية: جمع ذنوب، وهو الدلو.

(٤) في (د) عزيز النفس، عليَّ الهممة. (٥) أمراس: جمع مَرَسَة: الحبل.

بفطر الاعتراضات مخالقات. فاللوم خائق، والأسى معانق، والجوائح متأزفة^(١)، والدواهي متضاعفة. والويل لمن أن تحت هذا الثقل الفادح، والخيبة لمن شكا بئنه إلى القريب أو النازح. لقد شد الوثاق من عَنَف في السياق، ومنع من الاسحفار^(٢) من رد صادق الاقتدار، فلا قوة يستبد بها، ولا رحمة يستمد منها. جهة معورة، ومضلة موعرة، ووسواس ملتهب، وكرب جائم، و متمنى مفقود، وقول كلما أعيد كان أفضح وأضر، وأدهى وأمر، وكَمَدَ كلما صُبر عليه كان أَقَدَّ للأحشاء، وأقطع للرِّشاء^(٣)، وأكشف للغطاء والغشاء.

خذ حديثي جُمْلَةً فتفصيله مدهش، واقنع بالعنوان فمفوضه موحش. لم يكفِ زمانى ما رمانى به عني، وكَدَّني به لي، وغمَسني فيه عليّ، حتى حال بيني وبين من كان للعين رَوْضة إذا سَرَحَتْ، وللنفس مُتلهًى إذا تروّحت، وللحال تَعلة إذا استبهمت، وللغاية علامة إذا استعجمت، وللمحنة خفة إذا استحكمت. فلا جَرَمَ شوقي إلى ذلك الفائت [١٤٩أ] العزيز على قدر وجدي به، ووجدي به على قدر ولهي فيه، ولهي فيه على قدر تهالكى عليه، وتهالكى عليه على قدر تخيلي له، وتخيلي له على قدر امتزاجي به. وهذه كناية مَنة من البينونة التي بها يُشار إلى اثنين أنهما واحد، وإلى واحد أنه اثنان. وهذا حَدٌّ: من استولى عليه كان خبره عن نفسه لنفسه، ووجدانه لنفسه بنفسه. الصفات تتبرأ من هذه الخصوصية في العشق، والعلامات تَمَحى في النبأ عن هذا الفَنق والرَّتق. فما بعد هذا إلا أن تَسَدَّ سَمْعَكَ عن هذا الكُنه اللطيف تحرياً للسلامة، وأزَمَ لسانى عن هذا الخبر الطريف خوفاً من لاذع الملامة. إن العارف وإن ترقى في سلالم المعرفة بحقائق الحال على تبين المكاشفة وغلبات المشاهدة، ليس له أن يخبر إلا بعد الإذن له، وإذا وَرَدَ

(١) تَأَزَف: تقارب خطوه، و- القوم: تدانى بعضهم من بعض.

(٢) الاسحفار: الإسراع في المشي، واسحفر المطر: كثير. وفي (ع): استحقار.

(٣) الرشاء: الحبل، أو حبل الدلو ونحوها. ويجمع على أرشية.

الإذن فليس له إلا الجمجمة^(١) إذا قال، والهمهمة إذا سكت، حتى يَدْرَج فيما إليه تَدْرَج، ويعرُج إلى ما عنه تعرَّج، لُغَةً واللّه مُشْكَلَةٌ، وعِلَّةٌ واللّه مُعْضَلَةٌ، وديوان واللّه مختوم، وسرُّ واللّه مكتوم. إن أَلْقَيْتَ ما لك منه كنت محرومًا، وإن التمسْتِ ما لك فيه صِرْتَ ظلوْمًا، لأن الذي لك ليس هو لك إلا إذا مُلِّكْتَهُ، وإذا مُلِّكْتَهُ فليس هو أيضًا لك إلا إذا أَبْقَى عليك. فإن الاستدراج شرط في الإلهية، والفرق شرط في العبودية. فلا يؤمنك من هذه المزلقة إلا إذا توكلت عليه، ولا خيرة لك في هذا التوكل إلا إذا أوصلك إليه، ولا توكل ولا وصول، وهناك نزاعٌ إلى الشهوات وتخوُّصٌ في الشُّبُهات، والتفاتٌ إلى اللذات بعد اللذات، وإعراض عن الغايات بعد الغايات، وأخذٌ بالرُّخصة في الحالات بعد الحالات. لا وحقُّك حتى تودع كل ما أَلْفَنَه في هذه العُرْصة، وتذوب دونه بكل حَسْرة وغُصَّة، وتتهياً لهذا التوديع والذوبان لكل خِلْسة وفرصة. ومن لك بأن تؤهَّل بعد هذا كله باستراق لحظة من ذلة المنظر الأنيق، الذي هو غاية الأمانى والآمال، ومنتهى طلب الطالبين في كل حال من الأحوال؟ ما وصل الواصلون إليه إلا بنزع الروح، وقلع الضُّرس، واحتراق الصِّفَّة، [١٤٩ب] وتبدل السِّمة، وتجرُّع العلقم، ومعانقة البلاء، والتبرُّم بالنعيم، والتجافي عن المهاد الوثير، والتقلب على الحسك النابت، وحسو الدم بلا هاجس يلابسه كراهة، ولا خاطر يفارقه نزاهة، ولا عمل يشينه علمٌ، ولا علمٌ يخالفه عملٌ، بل حال واحدة يغرق فيها كل رسم وقول، ويعبق بها كل قسم، وطول، حال لا يترجمها البليغ إلا بعد أن يترك فيها أكثرها، ويبيد منها أقلها، عجزاً عن حقيقتها، وتبدلاً في معرفة غايتها. أفلا يُنتَحَر على هذه الصفات التي هي استعارات عن تلك الحقائق؟ أفلا يُبدَل دون نيلها كل ما يُمْلِك من الذخائر؟ أفلا يُهام عليها بكّد الأبدان وبذل الأرواح؟ أفلا يُجاد لها بما هو دونها في القيم والأرباح؟ أفلا تُتعرَّف الطرقُ إليها؟ أفلا يستعان بكل صديق وصاحب عليها؟ أفلا يُتَحَسر على الفائت منها؟ أفلا يُطْرَب على الخبر الطيب عنها؟ أفلا يُقال كيف هي وما هي وأين هي؟

(١) الجمجمة: عدم تبين الكلام.

يا هذا! كَفَّ عني فقد غَطَّتني مني، وأريتني منك أنك أني^(١)، وهذه درجة لا أرضاها لمن هو دوني. فدعني وأرحني إن لم تُرَوِّحني وتُفرِّحني: إلى متى أهرِفُ^(٢) بما لا تعرف، وأبين ما لا تستبين، وأشير إلى ما لا تستشير، وأروي ما لا تدري، وأعلل نفسي منك بلعلَّ وعسى، واليوم وغدا، وكلا ولا، وبل وبلى؟

طابت الأوطان، ورُحِبَت الأعطان^(٣)، وآن الرعي للسارح، وسَهِّل المأتى على الغادي والرائح. فهل من سامع نجوى أهل الحق لباله الكاسف، وطمعنه الآزف إلى صراط الله المستقيم، ومقامه الأمين، حيث لا خوف ولا حَزَن، ولا أُنين ولا حنين، حيث قرارٌ معين، ومكان مكين. وهل من قارع لباب الصفاء بيد الوفاء على الرفق والتأيد، والصبر والتوحد، والقناعة والنزاهة والزهد، والنسك والتعبد، والخلو والتفرد، حتى أضمن لك زكاء^(٤) العمل، وبلوغ الأمل، على الوحي^(٥) والعجل.

واشوقاً إلى مرید نظيف! وأسفاً على ذي حال لطيف! واحيناً إلى عارف طريف! واحرباً من متكلم عفيف! واويلاً على ذي همة شريف! عزب- والله- هذا الشأن على أهل الزمان، فلا خبر ولا استخبار، ولا مُخبر ولا مُسْتَخْبِر. أضحت الدار خالية [١٥٠أ] من قُطانها، وعادت أطلاً بعد بهجتها بسكانها، فلا لافظ ولا حافظ ولا رافض: لا لافظ بالحق، ولا حافظ للصدق، ولا رافض للرق. وإلى متى أسفي ولهفي على أمر وكى ولم يَقِف؟ كَمَدُّ قد أذاب الكبد، أشكو إلى الله الواحد الصمد، فالويل لمن رفعَ بَنَّهُ إلى غير الله، وَيَسَّسَ بجهله مما عند الله، وظن أن له فرجاً إلا بالله!

اللهم إننا لا نملك ضرّاً ولا نفعاً إلا بك، ولا نرجو خيراً أو ميراً إلا منك، ولا نخاف بواراً إلا عليك، ولا نطمع إلا فيما لديك. فاجعلنا على ثقة من قبولك لنا، وألّف بيننا وبين

(١) أني: أنيني وشكواي.

(٢) أهرِف: أهذي وأخلط في كلامي.

(٣) الأعطان: جمع عَطَن، وهو مَبْرَك الإبل ومربض الغنم.

(٤) زكاء: نمو.

(٥) الوحي: السرعة.

رَفَقَكَ بِنَا، وَاشْمَلْنَا بِعَظْفِكَ عَلَيْنَا، وَاسْطَعْ بِنُورِكَ فِي أَسْرَارِنَا، وَاصْدَعْ بِلُطْفِكَ مُرْتَقٍ^(١) عَقُولَنَا، وَزِدْنَا مِنْ فَضْلِكَ لِمَا يَضِيقُ عَنْهُ وَنُسَعُنَا عِنْدَ مَسْأَلَتِنَا. وَكَمَا حَرَمْتَنَا الدُّنْيَا لِنَسْتَمْتَعَ بِهَا، فَاصْرِفْ خَيَالَهَا مِنْ قُلُوبِنَا حَتَّى نُلَهَّى عَنْهَا، وَخُذْ بِأَيْدِينَا فِي مَدَاحِضِهَا، وَاحْفَظْنَا مِنْهَا عِنْدَ عَوَارِضِهَا، وَسَلِّطْهَا عَلَى شَيْطَانِنَا بِالرَّدْعِ وَعَلَى أَهْوَانِنَا بِالْقَمْعِ، وَعَلَى شَهَوَاتِنَا بِالْعَفَافِ، وَعَلَى أَمَانِينَا بِالْكَفَافِ؛ وَلَا تَجْعَلْ خَيْرِنَا عَنْكَ غَلَطًا مَنَا عَلَيْكَ، وَلَا دَعَاءَنَا إِلَيْكَ سَهْوًا مَنَا عَنْكَ، وَلَا انْبِسَاطِنَا مَعَكَ سَوْءَ أَدَبٍ مَنَا فِي صَحْبَتِكَ. فَإِنَّا لَا نَسْلُمُ مِنَ الزَّلَّةِ إِلَّا بِتَوْفِيقِكَ، كَمَا أَنَّا لَا نَأْمَنُ إِلَّا بِتَصْدِيقِكَ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ!

رسالة (٥٤)

حَرَامٌ عَلَى قَلْبٍ اسْتَنَارَ بِنُورِ اللَّهِ أَنْ يَفْكُرَ فِي غَيْرِ عِظْمَةِ اللَّهِ! حَرَامٌ عَلَى لِسَانٍ تَعَوَّدَ ذِكْرَ اللَّهِ أَنْ يَذْكُرَ غَيْرَ اللَّهِ! حَرَامٌ عَلَى نَفْسٍ طَهَّرَتْ مِنْ أَذْنَانِ الدُّنْيَا لِلَّهِ أَنْ تُدَنِّسَ بِشَيْءٍ مِنْ مَخَالَفَةِ اللَّهِ! حَرَامٌ عَلَى عَيْنٍ نَظَرَتْ إِلَى مَمْلَكَةِ اللَّهِ أَنْ تُحَدِّقَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ! حَرَامٌ عَلَى كَبِدٍ ابْتَلَتْ بِالثِّقَةِ بِاللَّهِ أَنْ تَطْمَئِنَّ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ! حَرَامٌ عَلَى مَنْ لَمْ يَرَ الْخَيْرَ إِلَّا مِنَ اللَّهِ أَنْ يُحَدِّدَ^(٢) طَمَعًا فِي غَيْرِ اللَّهِ! حَرَامٌ عَلَى مَنْ شَرَّفَ بِخِدْمَةِ اللَّهِ أَنْ يَتَضَعَّ بِخِدْمَةِ غَيْرِ اللَّهِ! حَرَامٌ عَلَى مَنْ أَلْفَ فَنَاءَ اللَّهِ أَنْ يُعْرِجَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ! حَرَامٌ عَلَى مَنْ تَلَذَّذَ بِمَنَاجَاةِ اللَّهِ أَنْ يَنَاجِيَ غَيْرَ اللَّهِ! حَرَامٌ عَلَى مَنْ رَتَعَ فِي نِعْمَةِ اللَّهِ أَنْ يَعْبُدَ غَيْرَ اللَّهِ! حَرَامٌ [١٥٠ ب] عَلَى مَنْ سَكَنَ حَرَمَ اللَّهِ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِحَرَمِ اللَّهِ! حَرَامٌ عَلَى مَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ أَنْ يَجِيبَ غَيْرَ اللَّهِ! حَرَامٌ عَلَى عَبْدٍ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مَوْلَى سِوَى اللَّهِ! حَرَامٌ عَلَى مَنْ أُنْسَ بِاللَّهِ أَنْ يَأْنَسَ بِغَيْرِ اللَّهِ! حَرَامٌ عَلَى مَنْ عَرَفَ قُدْرَةَ اللَّهِ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِسُخْطِ اللَّهِ! حَرَامٌ عَلَى مَنْ عَرَفَ عَفْوَ اللَّهِ أَنْ يُغَلِّبَ الْيَأْسَ مِنَ اللَّهِ! يَا هَذَا! إِنَّمَا أَنْتَ بِجَوَارِحِكَ، وَجَوَارِحُكَ بِكَ، فَإِذَا رَتَبْتَهَا فِي مَرَاتِبِهَا، كَانَتْ لَكَ وَكَانَتْ لَهَا. فَإِذَا فَسَدَتْ نِظَامُهَا كَانَتْ عَلَيْكَ، لَا لَكَ، أَعْنِي أَنْ لَكَ قَلْبًا فَرَّبْتَهُ عَلَى حَدِّ الْفِكْرِ فِي

(١) اصدع: شق؛ مرتق: ملثم؛ أي: افتح مغاليق عقولنا.

(٢) كذا، ولعل صوابه: «يحدث» أو «يجدد».

أفعال الله؛ وسِرًّا فَاخْشُهُ بِمَحَبَّةِ اللهِ؛ وَضَمِيرًا فَقَلْبُهُ فِي تِيهِ خَشِيَّتُهُ لَوْجِهَةِ اللهِ، وَنَفْسًا فَوَكَلَهَا بِالرِّضَا عَنْ اللهِ، وَرَوْحًا فَسَرَّحَهُ فِي رِيَاضِ نِعَمِ اللهِ، وَعَيْنًا فَسَدَّدَهَا فِي اعْتِبَارِ خَلْقِ اللهِ، وَيَدًا فَمَرَّنَهَا عَلَى تَنَاوُلِ الْوَاجِبِ مِنْ مَلِكِ اللهِ، وَقَدَمًا فَصَبَّرَهَا عَلَى الْخَطَوَاتِ إِلَى بَابِ اللهِ، وَعَقْلًا فَاجْعَلَهُ رَائِدًا لَكَ عِنْدَ اللهِ، وَعِلْمًا فَاقْصِرْهُ عَلَى الْعَمَلِ لَوْجِهَةِ اللهِ، وَكُلًّا فَابْذُلْهُ فِدَى لِمَرْضَاةِ اللهِ، وَبَعْضًا فَقَفِّهِ عَلَى سَبِيلِ اللهِ.

يا هذا! أما ترى حدثانَ الدهر؟ أما تُحِسُّ مصائبَ الدنيا؟ أما تشعر بأحكامِ الوقت؟ أما ترى دورانَ الشمس؟ أما تحس باختلاف الليل والنهار؟ أما تؤمن بغيب هذا الشاهد؟ أما تثق بشهادة هذا الغيب؟ أما تبصر بعين الرأس تصاريف القدرة؟ أما تضطر إلى الإقرار بربوبيته؟ أما تلتجئ إلى القيام بدينوته؟ أما تعلم أنه مُحْصِ عَمَلِكَ وَمُقْتَفٍ أَثْرِكَ بِعِلْمِهِ، ثُمَّ بِاطْلَاعِهِ، ثُمَّ بِإِحَاطَتِهِ، ثُمَّ بِالْحَفَظَةِ مِنْ قَبْلِهِ، ثُمَّ بَانْكَشَافِ الْأَشْيَاءِ لَهُ وَانْتِصَابِهَا بِسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ؟

إلهي! استزرتني فلما جئتُ حجبتي، دعوتني فلما أجبتُ حَصْرْتَنِي^(١)؛ خاطبتني فلما استفهمتُك أَبْهَمْتَ عَلَيَّ، عَثَرْتَنِي فلما استنعتشتك^(٢) تركتني؛ أَظْمَأْنِي فلما استسقيتك ذُدْنِي^(٣). أَبْتَنِي فلما بدوتُ أَبْدَتَنِي، أَحْيَيْتَنِي فلما حييتُ أَمَتْنِي؛ أَمَتْنِي فلما أَمِنْتُ أَخَفْتَنِي، كَوْنْتَنِي فلما كنتُ كُنَيْتَنِي. فَوَحَّقْكَ لَا فَارَقْتَ بَابَكَ حَتَّى تَفْصِلَ [فِي] أَمْرِي، وَتَحْكَمَ لِي، وَتَجُودَ عَلَيَّ، وَتَنْظُرَ إِلَيَّ، وَحَتَّى تَنْقُذَنِي مِنْ دَارِكَ الَّتِي حَشَوْتَهَا بِالْغُصَصِ وَالْآفَاتِ، وَبِالْبَلَايَا وَالْمَسَاءَاتِ، وَحَتَّى تَرْفَعَنِي إِلَى جِوَارِكَ ذِي الظِّلِّ السَّجَّسَجِ^(٤) وَالْمَاءِ الْمَعِينِ، وَالْقَرَارِ الْمَكِينِ، وَالْمَقَامِ الْأَمِينِ، حَتَّى لَا أَسْمَعَ فِيهِ لَإِغْيَةً، وَلَا أَقَاسِي [١٥١] مِنْ لَيْسَ مِنِّي فِي ثَاغِبَةٍ وَلَا رَاغِيَةٍ^(٥).

(١) كذا بالضاد المعجمة، ويمكن أن تقرأ: «حصرتني» أي ضيقت عليّ وأحطت بي.

(٢) انتعش من عثرته: نهض منها. واستنعتشتك: دعوتك أن تنهضني من عثرتي.

(٣) زاد الراعي الإبل عن الماء: دفعها وطردها.

(٤) الظل السجسج: الذي لا ظلمة فيه ولا شمس، ويوم سجسج: لا حرّ فيه ولا برد.

(٥) الثاغية: الشاة، والراغية: الناقة. يُقال: ما له ثاغية ولا راغية، أي: لا يملك شيئاً.

أُرْسِمَ لك في هذه الورقات كلامًا للحكماء في صفة الرجل العاقل العادل: كيف يكون، ومن أين تحصل له هذه الفضيلة، وصفة الرجل الحائر الجائر: كيف يكون، ومن أين تدخل عليه النقيصة.

زَعَمَتِ الحكماءُ على ما أوجبه آراؤها ودياناتها أن من الوحي القديم النازل من الله قوله للإنسان: «اعْرِفْ نَفْسَكَ؛ فَإِنْ عَرَفْتَهَا عَرَفْتَ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا». وهذا قول لا شيء أقصر منه لفظًا، ولا أطول منه فائدة ومعنى. وأوَّلُ ما يلوح منه: الزاوية على مَنْ جَهِلَ نفسه ولم يعرفها. وأخْلَقَ به إذا جهلها أن يكون لما سواها أَجْهَلُ، وعن المعرفة به أبعد، فيصير حينئذ بمنزلة البهائم، بل أرى أنه أسوأ منها وأشد انحطاطًا وسَفَلاً لها، لأنها لم تشرکه في التمييز ولا يشرکها في الجهل. فلما حاول امتثال هذا الأمر لم يصل إليه إلا بعد التمهُّر في الفنون العقلية، والتوهم إلى فهم دقيقها وجليها، والإحاطة بكثيرها وقليلها. فكأن ذلك الوحي إنما كان تَلَفُّظًا من الله له في استيعابها بالإيماء والإشارة والخفيف من العبارة، ثم أدَّاه الاجتهادُ إلى أن عرف نفسه وحدَّها بأنه حيٌّ ناطق مائت، وأنه مركب من الأخلات الأربعة التي هي عناصره وأصوله، فإن فيه نفسًا ذات قوى ثلاث: وهي الناطقة التي مَسَكْنُهَا الدماغ، والغضبية التي مَسَكْنُهَا القلب، والشَّهَوِيَّةُ التي مَسَكْنُهَا الكبد. لكن العادة جرت بأن تسمى هذه القوى نفوسًا، وإن كان مرجعها إلى واحدة، فيقال: نفس ناطقة، ونفس غضبية، ونفس شَهَوِيَّة. فللناطق في الدماغ ثلاثة أماكن: أحدها يكون به التخيل والإحاطة بالأشياء المُبْصَرَّة والمسموعة على ما هي عليه، وهو المُقَدَّم منه؛ والثاني يكون به التمييز لهذه الأشياء ومعرفة حَقِّها من باطلها، وصحيحها من سقيمها، وحَسَنها من قبيحها، ومُمْكِنها من مستحيلها، وهو الوسط؛ والثالث يكون به الحفظ لما وقع عليه التمييز. فكأن الأوسط هو الأشرف، إذ منزلته منزلة الحاكم الذي ترفع إليه الرفائع^(١) وتصدر عنه القضايا؛ ومنزلة المُقَدَّم منزلة الشاهد الصادق الذي يُنْهَى إليه ما يُرى ويسمع؛ ومنزلة المُؤَخَّر منزلة الخازن الحافظ يستودعه عِلْم ما ميَّزه وحَصَّلَه، فمتى احتاج إلى شيء منه استدعاه من خزائنه - فهذه حال النفس الناطقة.

(١) الرفيعة: القضية المرفوعة إلى الحاكم، يقال: «رفع فلانٌ إلى العامل رفيعة».

وأما النفس الغَضَبِيَّةُ فيها تكون الأنفة من العار، والإباء من الضيم، وطلب الاقتصاص من الظُّلم، والانتقام عند الغضب. وأما النفس الشَّهْوِيَّةُ فيها يكون حب المطاعم والمشارب واللذات. ومثال الناطقة مثال الملك المستولي، وأفضل أحواله أن يكون عادلاً سائساً مهيباً مطاعاً قوياً [١٥١ ب] في غير غلظة، ورؤوفاً في مهابة. ومثال الغَضَبِيَّةِ مثال جُنْدِهِ الَّذِينَ يَسُدُّونَ ثُغُورَهُ، ويدفعون أعداءه، وَيُقَوِّمُونَ رِعِيَتَهُ، وَيُنْفِذُونَ أَمْرَهُ. وأفضل أحوالها أن تكون عزيزة الجانب في نفسها، سليمة الانقياد والطاعة لسلطانها المستخدم لها. ومثال الشَّهْوِيَّةِ مثال رعيته الذين يجب أن تكون عريكتهم^(١) لِيَتَّهَمُوا مَوَاتِيهَ، ورهبتهم منه ومن جنده تامة مُسْتَحْكِمَةً.

وإذا جرى أمر الإنسان هذا المجرى وأخذت هذه القوى مأخذها، وتعادلت على أوزانها وأقسطها، كان فاضلاً. وإن زال عن ذلك نَقَصٌ، وكان نُقْصَانُهُ بحسب مقدار زواله. ومعلومٌ أن البهائم مساوية في جميع أجزاء التركيب إلا في النفس الناطقة التي بها صار مهيمناً على جمعها، وسائساً قاهراً لها، ومن أجلها كان مكلفاً موقفاً، ومثاباً معاقباً. ومن وصل إلى هذه الغاية من معرفة نفسه، لزمه أن يسوسها أحسن سياستها، ويُسَلِّكَهَا أَرْشَدَ سَبِيلِهَا، وأن يميّز بين الخير والشر فيتوخى محمودات الأمور، ويتوقى مذموماتها. وإذا قد أتينا على هذه الجملة، فينبغي أن نجعل لطريق الخير معالم تهدي إليه لتتبع، ولطريق الشر معالم تنهي عنه لتجتنب. فنقول: إن كل ما تفردت النفسُ الناطقةُ باستحسانه من غيرها فهو الخير، وكل ما استقبحت منه فهو الشر. وإنما قلنا: «من غيرها» لأنها ربما عَمِيَتْ عن العيب إذا كان فيها، وليست تَعْمَى عنه إذا كان في سواها؛ وعلى أن الشاعر قد أطلق ذلك ولم ير فيهم مُبَرَّءاً ولا سليماً، فقال:

[١٥٢أ]

أَرَى كُلَّ إِنْسَانٍ يَرَى عَيْبَ غَيْرِهِ وَيَعْمَى عَنِ الْعَيْبِ الَّذِي هُوَ فِيهِ^(٢)

(١) العريكة: الطبيعة والنفس. ولين العريكة: سلس الخلق، سهل الانقياد، سَمَحٌ.

(٢) الشعر لسعدون المجنون (فوات الوفيات ١: ٤٩) وبعد هذين البيتين:

وكيف أرى عيباً وعيبي ظاهر وما يعرف السوءات غيرُ سفيه

وما خيرٌ مَنْ تخفَى عليه عيوبُهُ ويبدو له العيبُ الذي لأخيه! والذي أصارها إلى هذه الحال اكتنافٌ ما يكتنفها من شوائب النَّفْسَيْنِ الباقيتين المساكتين لها في هيكلها: وهما الشهوية والغضبية. فإنهما يجذبانها إلى الغلط في الأمر الخاصّ، ولا يجذبانها إلى الغلط في مثله من غيرها؛ فليس تسلم من معارضتهما إلا بأن تكون صارمة قوية، وعَزُوفاً أَيْتَةً. وليت لها إذا كملت قوتها واستحكمت شدّتها [أن] تثبت لمغالبة العدوّين الذين معها. قيل: ويلٌ للقوي بين الضعيفين. فلما أن كانت ضعيفة بين قويين، فهناك تجتمع العيوب والمثالب، وترتفع المحاسن والمناقب. وقد شبهت الحكماء الإنسانَ بيت فيه إنسان وخنزير وسُبع: فالإنسان العقل، والخنزير الشهوة، والسُبع الغضب. وقالت: أيُّ الثلاثة غلب، فالمسكن له، وذلك يوجد قياساً وعياناً. فإن الرجل اللبيب الضابط لنفسه هو الحقيق بأن يسمى إنساناً، والرجل الذي قد استعبده واستعبته شهوته بالخنزير أشبهه، والرجل التائه الغضبان بالأسد أشبهه.

ويُحتاج في هذا الموضع إلى فَضْلٍ إيضاح تنفصل به من زيادة الزائدتين: وهو أن الشهوة والغضب، لو كان قهرهما وحصرهما واجباً على الإطلاق، لسقطا من أصل التركيب سقوط ما يُستغنى عنه، بل ما يُتحرّز منه. لكن هناك ضرورة إلى الشهوة لاجتذاب المطاعم التي بها قوام البدن، والارتكاب من المناكح التي بها بقاء النسل. وضرورة أخرى إلى الغضب: لدفع الظلم وإباء الضيم والأنفة من العار والذّبّ عن الحريم. إلا أنه يجب أن تكون هاتان النفسان تحت طاعة النفس الناطقة وسلطانها لتُجرّيهما مُجرى [١٥٢ب] المركوب الذي يُركب عند الحاجة بسرّج يُدَلِّلُه، وشكّمة تحنكه، وعنان يثنيه، وسوط يخيفه. فإذا نزل عنه راحبه ألزمه الرباط والشكّال، لئلا يجد على حال من الأحوال سبيلاً إلى أن يشرّد فيهلك نفسه، ويجني على غيره.

ومما ينبغي للإنسان أن يعلمه أن هذين العدوّين، من شهوته وغَضَبه، ربما اختدعا وتشبها له بالصديق الذي هو العقل، فظن أنه في طاعته إياهما مطيعٌ له، واستعمل الشرّ على أنه خير، وجارَ على أنه عادل، وأخطأ على أنه مُصيب. وسبيل الحازم أن يشتمل

على ما أُرشدناه إليه سالفًا، فينجو من مصايدهما ومكائدهما، ويُفَلِّت من أشراكهما وحبائلهما، فيَعْرِضَ على قلبه ما تدعو إليه نفسه، على أن الفعل واقع من غيره وقوعه منه، [فإن استحسنه] ^(١) فليعلم أنه خير صالح، وليُؤْمِضِهِ. [و] إن كان على الضد من هذه الصفة، فليعلم أنه شر محض وليمتنع منه. ثم ليتأمل المستحسنات فإنه سيجدها مما يُخَصُّ الإنسانُ به، ولا تَشْرَكَه البهائمُ فيه: كالحِلْم والكَظْم والكَفّ والعزوف وضبط الحَمِيَّة وعِصْيَان الشهوة واعتزال المحارب والتَحَوُّب ^(٢) من المائم. وليتأمل المُسْتَهْجَنَات، فإنه سيجدها مما تَشْرَكَه البهائمُ فيه، بل هي أقوم منه كَشَره البطن، وعُهر الفرج، ومحبة الانتقام. وكفاه بذلك وازعًا عما ضارَّعها فيه، وباعثًا على ما استأثر ^(٣) عليها به.

وليس كلُّ مَنْ قاده عقله إلى العلم بمرشد الأمور، انقادت له نفسه إلى العمل بها: فقد رأينا كثيرًا من أهل المعرفة يأمرُون ولا يَأْتَمِرُون، ويزجرون ولا يزدجرون، ويُعْرِفُ من المتطبيين من كان ينهى عن يسير التخليط في المأكَل، وينهمك في كثيره. ومن المتفلسفين الذين هم أطباء النفوس مَنْ كان يَذُمُّ مقابح الأخلاق ومفاحش الأفعال فيرتكبها في خلواته. وتاركُ العمل مع الجَهْل أعْذَرُ من تاركه مع العلم. والحازمُ من الناس من سَدَّ بالرأي ثُغورَ الهوى، ورابط فيها بجيوش النُّهى: إما بالإباء المر والاعتزام الفَحْل إن وثِقَ من مُنْتَه ^(٤) بالقوة والاستقلال، وإما بالتفويض إلى النصحاء إن أَحَسَّ منها بالضعف والانخذال؛ لأنه إنما يجاهد عَدُوًّا نازلاً [١٥٣ أ] بين حجابيه مالكًا لجميع جوارحه عليه. فإن أطاقه على الانفراد فليبارز بالأعوان والأعضاء ^(٥)؛ وإذا كان الإنسان قد علم أنه مركب من شيئين: أحدهما شريف وهو النفس، والآخر دنيء وهو الجسم، فاتخذ للدنيء منها أطباء يعالجونه من أمراضه التي تعروه، ويواظبون عليه بأقواته [التي] تغذوه، ويتعاهدونه بأدويته التي تُنْقِيهِ، وترك أن يفعل بالشيء الشريف مِثْلَ ذلك - فقد أساء الاختيار عن بَيِّنَةٍ، وأتى الغلط على بصيرة. وأطباء هذه النفوس هم أهل الفضل،

(١) زيادة لازمة للسياق.

(٢) التحوب: تَرَكَ الإثم. وتحوب من القبيح: تحرَّج منه.

(٣) في (ر): عما استأثره.

(٥) جمع عَضُد: المعين، الناصر.

(٤) المُنَّة: القوة.

وأقواتها الغاذية التي لها هي الآداب المأخوذة عنهم، وأدويتهم المنقية هي النواهي والمواظ المسموعة منهم، والسلام.

زينة اللفظ في المعنى، وحُسْنُ المعنى في الصِّدْق، والصدقُ يتقسم على صالح القول المؤدَّب والفعل المَهْدَّب، وميراث الفعل باق على وجه الدهر وحوالد الليالي؛ وقيل:

العُرْفُ أَصْلٌ يُجْتَنَنُ ————— من فرعه الثَّمَرُ الجدي ————— دُ

يَبْلَى الفتى في قَبْـــــــــــــــــــــــــــــــــره وَفَعَاله غَضٌّ جديـــــــــــــــــــــــــــــــــد

وإنما يُقَدَّم هائل الخطيئة على مخوف الخطب.

أما بعد! أطل الله بقاءك مُحَسَّدًا^(١)، وأدام عزك حميدًا مؤيَّدًا، وأنعم عليك مُرَفَّها مُسَدَّدًا. فقد علمت بصادق تجريبك وثاقب فطنتك، وبممر الأحداث بك، وصروف الأحقاب عليك، وبدوّ صفائح الأيام عليك- أن الجهد فَضْلٌ محروم، والفاضل حر مظلوم، والرأي سيّد كذوب، والهوى عبْد مغلوب، والطمع خُلُقُ خبيث، والقَدَرُ طالب حثيث، واللّسن^(٢) عدو ناصح، واللفف^(٣) صديق فاضح، والمُلْكُ والد عقيم، والعشْقُ دائم قديم، والدهر عَيْرٌ^(٤) هَوَان، والقناعة خَبْرُ أمان، والحرصُ صورةٌ شوهاء، والحسد خلة بُلْهَاء، والعلم عنوان دارس، والجهل حظ ناقص، والزمان عسير غدور، والحرُّ منه في طرفي غرور، والفقر لباسٌ ذلٌّ وثوب عار، والمسألة لُؤْمُ نفس وسوء اختيار. نعم! والموت [١٥٣ ب] رَكِيَّةٌ^(٥) مورودة، وطريق مَهْيَعٌ^(٦)، وحال ملتبسة، والناس فيه أبناءٌ واحد وحُلفاء معاهد. ومع ضرب الأمثال وتصريف المقال، بيني وبينك أحوال اللسان لا يُصَنَّفُها، والعبارة لا تصرفها، والوصف لا يأتي عليها، والإشارة لا تصل إليها- كل ذلك

(١) حَسَدَه مثل حَسَدَه. ومنه قولنا: كل ذي نعمة محسود. والناس لا تحسد اللئام وإنما تحسد الكرام خيار الناس، الذين آتاهم الله من فضله.

(٣) اللفف: العي في اللسان.

(٣) اللسن: الفصاحة والبيان.

(٤) في (ر): عين. وفي المثل: فلان أذل من العير.

(٦) واسع.

(٥) الركية: البئر.

للطافته ورقته، ونحافته ودقته-، مِنْ فَضْلِكَ الذي أَظْلَتْنِي غَمَامَتُهُ، وَمَطَرَتْ عَلَيَّ سَحَابَتَهُ، وَأَزْهَرَتْ بِي أَرْضُهُ، وَاخْضَلَّتْ عَلَيَّ رَوْضَتُهُ، وَالتَفَّتْ عِنْدِي زَهْرَتُهُ، وَتَكَامَلَتْ عَلَيَّ بَهْجَتُهُ، وَوَرِثْتُ مِنْهُ شَوْقًا يَقْلَعُ^(١) الكبد والفؤاد، ويجلب الفكر والشهاد، ويُزِعِجُ الرُّوحَ والنَّفْسَ، وَيَسْلُبُ الرُّوحَ والأنسَ، وَغَرَامًا يُلْزِمُنِي غُرْمًا لَا طَوْقَ^(٢) لِي بِقَضَائِهِ، وَيَسُومُنِي خَسْفًا لَا أَجْدَ سَبِيلًا إِلَى جَزَائِهِ، وَيُعْلِنِي نَتِيجَةَ أَتَمْنَى دُونَهَا مَعَانِقَةَ الْحِمَامِ، وَيَهْبِطُ [بِي] وَادِيًا أَسْهَلُ مِنْهُ مُضَاجَعَةَ اللَّحْدِ، وَنَزَاعًا يَنَازِعُنِي فِي أَمْرِي وَيَحَاوِلُ بِشِدَّتِهِ انْقِضَاءَ عُمْرِي، وَصَبَابَةَ أَكَادِ مِنْ رَقَّتْهَا أَطِيرُ إِلَيْكَ، وَأَقِفْ بِغَرَائِبِ حَالِي عَلَيْكَ. فَلَيْتَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَلَعَلَّكَ تَطَالَعُ شَبَحًا قَدْ أَنْضَاهُ السَّفَرُ، وَأَضْنَاهُ التَّمْنَى، وَأَنْحَلَهُ الْبَلَى، وَأَذْبَلَهُ الْبَلَاءُ، وَجَارَ عَلَيْهِ الزَّمَانُ، وَصَدَّ عَنْهُ الْإِخْوَانُ، وَنَبَتْ بِهِ الْأَوْطَانُ، وَبَقِيَ فَرْدًا لَا يُعَاثُ وَلَا يُعَانُ: إِنْ سَكَتَ نُسِبَ إِلَى اللَّكْنَةِ وَالْعِيٍّ، وَإِنْ نَطَقَ رُمِيَ بِالرِّيْبَةِ وَالْغَيِّ، وَإِنْ تَحَرَّكَ هَبَّ بِهِ الْاضْطِرَابُ وَالْوَلَهَ، وَإِنْ سَكَنَ تَحَكَّمَ فِيهِ الْيَأْسُ وَالتَّقَنُّعُ^(٣). فَكُلُّ حَالِهِ عَبَثٌ، وَكُلُّ أَمْرِهِ خَبَثٌ. لَيْسَ لَهُ فِي أَمْرِهِ لِسَانٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ، وَلَا شَفِيعٌ يَقْبَلُ عَلَى الصَّدَقِ. عِلَّتَهُ فِي كَوْنِهِ، وَرَاحَتُهُ فِي فَقْدِهِ، وَاسْتِرَاحَتُهُ فِي عَدَمِهِ؛ هَذَا يَنَازِعُنِي فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ قَوْلُ الْقَائِلِ:

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسْبُ الْمَنِيَا أَنْ يَكُنْ أَمَانِيَا^(٤)

يَذُمُّ زَمَانَهُ وَهُوَ عَيْنُ الْمَذْمُومِ فِيهِ، وَيَهْجُو أَيَّامَهُ وَهُوَ قَلَادَةُ الْعَارِ عَلَيْهَا.

قُلْ لِسَيِّدِي: فَكَيْفَ يَلْذُ بَعْدَ أَحْبَائِهِ مَنْ يَعَالِجُ مَعَ اللَّمَحَاتِ وَفَاتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَتَصَرَّفُ بِذِكْرِ مَا حَالَفَهُ وَلَهَجَ بِهِ مَنْ لَيْسَ لَهُ لَهْجَةٌ تُفْصِحُ، وَلَا صَدْرٌ يَنْشُرُ؟ أَمْ كَيْفَ يُفَادُ سَكُونُ مَنْ نَزَحَتْ دَارُهُ عَنْ [١٥٤أ] الْحَبِيبِ، وَحُرِّمَ مِشَافَهَةُ الصَّدِيقِ وَمِفَاكِهِةِ الْخَلِيلِ؟ بَلْ كَيْفَ يَصُولُ بِالْعِلْمِ مَنْ مَتْنَهَاءُ فِيهِ الْجَهْلُ؟ أَمْ كَيْفَ يَلْتَجِي إِلَى الْحِيلَةِ مَنْ فَطَرَتْهُ الْعِجْزُ؟ أَمْ كَيْفَ يَتَنَاوَلُ الشَّرِيَا مِنْ مَأْوَاهِ الشَّرِّ؟ أَمْ كَيْفَ يَتَسَنَّحُ الْخَبَرُ لِمَنْ يَتَنَكَّرُ عَلَيْهِ الْعِيَانُ؟ أَمْ كَيْفَ يَوْقُنُ بِالْقَوْلِ مَنْ يَتَشَكَّكُ فِي الْفِعْلِ؟ أَمْ كَيْفَ يَطْمَئِنُّ إِلَى السَّكُونِ مَنْ يُهَيِّجُهُ الْغَلِيَانُ؟ أَمْ كَيْفَ

(١) قلعه: انتزعه من أصله. (٢) الطوق: الوسع والطاقة، يقال: هو في طوقي: أي في وسعي وطاقتي.

(٣) التقنع: القناعة. (٤) البيت للمتنبي (ديوانه ٤٤١) ط دار بيروت.

يهتدي [إلى] الربح من لا مَخْلَص له من الخسران؟ أم كيف يطمع في الكمال من لا مَخْرَج له من النقصان؟ فسبحان مَنْ لو أثر لَحَكَمْنَا في أمورنا، فَلَعَلْنَا كنا نصيب بعض الإصابة، ونقف منه على طَرَف من أطراف السعادة. هيهات! تلك مُنِيَّةٌ دونها مَنِيَّةٌ، وجهالة قريبتها ضلالة.

ها أنا لا أُحِيل على غيري، أَسْتَحِلُّ^(١) الله عُقْدِي، وَأَسْتَفِكُهُ رَهِيَّتِي، وَأَسْتَقِيلُهُ عَثْرَتِي، وَأَسْتَنْعِشُهُ صِرْعَتِي، وَأَسْتَرْحِمُهُ عَبْرَتِي^(٢)، وَأَسْأَلُهُ بِلِسَانِ الذُّلِّ والضراعة توقيع الكفاية والقناعة، منذ حين وزمان، في كل وطن ومكان، فيأبى إلّا ما هو أعلم بمصلحتي فيه، وسلامتي عليه. وإليه الشكوى، و[هو] نعم المولى!

هذا ولست آسي على فائت، فإني أحرزت قَصْبِي^(٣) منه، واستوفرت حظي فيه، وقضيت وَطَرِي به، وحكمت الأمانى عليه، وسحبتُ ذيلَ الرضا معه. وإنما تحركني رسومها الباقية في نفسي، وآثارها الجارية على صدري، وصورها الماثلة لعيني، وخيالها الملمّ لسوادي، وذكرها المولع بلساني. فأما إذا حَقَّت الحقائق، وزال اللبس، وصح العتاب، فليس الذاهب في النزاع إليه بأجمل من المنتظر بجميل الصبر عليه. وإني لأَصْبِرُ من عَوْدٍ^(٤) بجنبه جُلْب:

قالوا: تصبّر! قلت: فالصبر شيمتي أَلَمْ تعلموا أن الكريم صبــــــــــــــــور؟
فلئن صَبَرْتُ لأصبرنَّ بِحَسْرَةٍ ولئن جَزَعْتُ فإنني مَعْــــــــــــــــذورٌ
وليس الأول من الثاني^(٥)، ولكن كما جرى القلم عليه وسمح الطبع به وأوصيك:
كُنْ للحوادث بالعزاء^(٦) مُقَطَّعًا فلقلَّ يومٌ لا ترى ما تَكْـــــــــــــــــرهُ

(١) أَلْتَمَسَ منه أن يحلّ... وأن يقبل... وأن ينعمش... وأن يرحم... (٢) العبرة (بفتح العين): الحزن.

(٣) أحرز قَصَبَ السبق: فاز ونال المكانة الأولى.

(٤) العود: المسن من الإبل. والجلية: الجرح يتدمل أعلاه، وفي باطنه فساد، والمثل لحلحلة بن قيس بن أشيم، وقد قدم ليضرب عنقه، فقبل له: اصبر. فقال:

أصبرُ من عودٍ بجنبه جُلْب قد أمر البطان فيه والحقب

(٥) يعني أن وزن البيت الأول ليس من وزن البيت الثاني.

(٦) العزاء: الصبر.

[٥٤أ] آخر: ومن جعل الكلام له قعودًا أصاب به الدجى خيرًا وشـرًا
آخر:

واصبر فما استشفعت في مطلب بشافعٍ خيرٍ من الصبر
آخر:

في كل يوم للزمان عثار ونوائب تترى عليّ كـبـار
وتنقل من نعمة في نعمة ما تنقضي أو تنقضي الأعمـار
وكانني بصروفه وخطوبه ربع مَحْتَهُ الرِيحُ والأمطـار
واصبر فإن الصبر عزم ذوي الحـجـى ووراء ليلك إن عقلت نهـار
آخر:

إذا الناس قالوا: كيف أنت وقد بدا ضميرُ الذي بي قلت للناس: صالـح
آخر:

هَوْنٌ عليك فإن الدهر غايته إبرامٌ مُتَقَضٍ أو نَقْضٌ مُبـرـم
ولقد سمعت بدويًا في أرض بني ربيعة يقول لمسايـره: أيها الإنسان! عه مقالي! من
ذا الذي نَبَتَ عوده على جائحة الزمان، وثبت عموده لعواقب الدهر؟ هَوْنٌ، فما أهونه
على كرم مُصـاص^(٢)، وجوهر ثمين، وعرق موصول، وأصل شريف، ومُعْتَزَى محمود!
فاستحسنته فتلقنته. فهل تشاركني في استحسانه حتى أنتفي من وحشة الانفراد، وأتحلى
بأنس الاقتران؟ فإن أعجبك هذا زدتك منه، فإني سمعته يقول لصاحبه الأول في أعطاف^(٣)
كلام كان يديرها^(٤) بقدرته، ويتسلط عليها بسماحة طبعه: يا أيها النسمة!
هل عاند الدهر إلا من له خـطـر؟

(١) هذا البيت لعبد الله بن أبي الشيص، ورد في بهجة المجالس وأنس المجالس (١ - ٢٣٠) وقبله:

يراقب للغنى وجهًا ضحوكًا ووجهًا للمنية مكفهـرًا

فيكسب من أقاصي الأرض كسبًا يحل به المحل المشمخـرًا

(٢) المصاص: الخالص. (٣) أعطاف: ثنايا. (٤) الضمير في يديرها يعود على أعطاف.

والله يا رفيقي وشريك زادي، لقد صحبتُ الليالي ستين عامًا مذ عقلت، فما غَدَرَ بي إلا من استوفيته، ولا كدَّر عليَّ إلا من استصفيته، ولا أمرَّ لي إلا من استحلته، ولا أهمل أمري إلا من استرعته، ولا قَدِيتْ عيني إلا بمن جعلته ناظرها، ولا انحنى ظهري إلا بمن نصبته عماده، ولا نجمت لي نجاةً إلا من حيث لم أحتسب، ولا سبقت إليَّ مسرةً إلا ممن لم أكتسب.

سيدي! فهل بعد هذه الجملة قرارٌ لنفس، أو قرّة لعين، أو مهنة لعيش، أو مرّة لعقل، أو تسليّة لحرّ، أو بقاء على فاضل؟

اسمع مني، فديتك! وارفق بي - حَمَيْتُكَ - فهذا كله نُفَاةٌ^(١) صدر قد امتلأ بالغيظ، وعُصارة [١٥٥] فضل قد ابتلي بالنّحس. واعلم أن الزمان جمعني وإياك على غير شرط الأنس وحُكم المراد وواجب التبسط، فكان ذلك كسحابة تطلّعت ثم تقشعت، واقتلعت ثم أقلّعت. فيا لها أُمْنِيّة لو وَكَفَتْ^(٢) بالحديث الحلو، والعلم المخزون، والخلق الطاهر، والفعل المصيب، والأدب النفيس، والقول المُزَعَفَر بالتّصّح، والبشر المُعَصَفَر بالتّجّح، والرأي المؤيّد بالحكمة، والصواب المُستفاد من الحُنْكة، والحال الجامعة لشوارد الأنس، والأمر المؤلّف بين مختلفات الحسن! فإن لساني على بُعد الدار وتراخي المزار لا يجول بخواصّ العلل وخواصّ الأدب؛ والعلل أنت أعرف بها وأهدى إليها. فليت الزمان إذا حرمني المُنَى، لم يُصِلني بنار التمني.

بالله يا سيدي! هل عندك شيء مما عندي؟ فلعلي بالوهم نطق، وعلى الظن جريت، وبالبرق الخُلب اغتررت، وإلى جَهْد المُقِل اضطررت، وسُورَة اللّغو تَلَوْنْتُ، وأثر الوسواس قفوتُ:

فَلَمْ أَرْ مَحْزُونَيْنِ أَجْمَل رَوْعَةً على نائبات الدهر مني ومن جُمْل^(٣)
كلانا يَرُدُّ النَّفْسَ وهي حزينَة ويُضْمِرُ وجدًا كالنوافذ بالنّبْل

(١) ما ينقثه المصدور من فيه.

(٢) وكفت: سالت.

(٣) الشعر لعبد الرحمن بن مسافع بن دارة. وهذا الشعر يقوله في حبس السميري العكلي اللص وقتله، وكان نديمًا له وأخًا (الأغاني ج ١ - أخبار ابن دارة ونسبه).

إن كان- أيدك الله- للمضاربة حكم، وللتشاكل تأثير، ولاتتلاف الأرواح حقيقة، فهذه القصة مرضية مستقيمة، وهذه المطالبة صحيحة قويمة؛ وإن تكن أخرى، فليس هذه بأعجب من أخواتها:

وإن اغتراب المرء من حاجة ولا فاقة يسمو بها لعجب — وب
وحسب امرئ ذلاً، وإن أدرك الغنى ونال ثراءً أن يقال: غريب — وب
آخر:

لكل ولاية لا شك عَزْلُ وأمرُ الناس عقد ثم حَلُّ
آخر:

دع الدهر يجري بمقداره ويقضي عجائب أوطارِه
ونم نومةً عن ولاة الأمور وثق بالزمـان وأدوارِه
لعلك ترحم من قد غيـطت وتـعـجـب من سوء آثـارِه
آخر:

وطالب جاهد ما ليس يدركه ومُدرك ما تمنى غير مُجتهِد!
ورب^(١) مدّخر ما ليس أكـلـه ومستعدّ ليوم ليس في العـدـد

هذا كله بساط طيه أولى، ونشره أبلى؛ ولكن الغريق بكل مرثية حقيق؛ ولو أذنت سألتك في التنائي عن بعض ما فاتني في التداني، فإن ذلك يُروّح قلبي، ويُفرّج كربِي، وأنا إليه فقير، [١٥٥ب] وبه مُطالب، وأنت العالمُ كلِّ العالم، والفاضل كلِّ الفاضل: بجليل كل علم، ودقيق كل معنى، وغرض كل قائل، وأرب كل سائل. وسؤالي لا يقف على منهج واحد ونبرة واحدة، فإن قاده مُتَلَوّن، ومُنشئه مختلف؛ وذلك لأنني أظهر تارة بالرسوم وأنازعك فيها بالمعاني، وتارة أدّعي لك المعاني وأطالبك فيها بالحقائق، ثم أناديك بأسماء يعرفها القريب و البعيد، والغائب والشهيد، ثم أناجيك

(١) ر: ولرب.

بَحْرُوفٌ يَرْجَحُ الْعِيَّ عِنْدَهَا، وَيَفْضِلُ الْخَرَسُ عَلَيْهَا. فَهَلْ مِنْ صَبْرٍ فَأَتَقَدِّمُ عَلَى مَقْدَرَةٍ، أَوْ هَلْ تَتَوَقَّفُ مُحْتَاطًا فَأَتَأْخِرُ عَنْ مَعْذَرَةٍ؟

سيدي! لا تنكر تلون خطابي وإطالتي به كتابي، فكل ذلك لتباين أحوالي، وشتات أموري، واختلاف مقاصدي؛ فإني:

أريد فلا أُعْطِيَ، وأُعْطَى ولم أُردْ وقَصَّرَ عَلَـمِي أَنْ يَنَالَ الْمُغَيَّبَ^(١)
فلا جَرَمَ صَبَاحِي مَسَاءً، ومَسَائِي عَمًى، ودَعَوَايَ بَاطِلَةً، وَقَوْلِي زُورًا، وَانْتِبَاهِي تَعَلُّلاً،
وَرَقْدِي مَوْتًا، وَرِضَايَ خَسِيسًا، وَعِلْمِي تَخَيُّلاً، وَرَجَائِي تَوَهُُّمًا، وَظَنِّي شَكًّا، وَحَقِّي
مَخِيلَةً^(٢)، وَطَرِيقِي حَسَكًا، وَعَطَائِي خَدِيعَةً، وَمَنْعِي طَبْعًا، وَطَبْعِي نَكْدًا، وَكِمَالِي نَقْصًا^(٣)،
وَوِلَايَتِي عَزْلًا، وَظَاهِرِي حَسْرَةً، وَبَاطِنِي حَيْرَةً، وَحَالِي سَرَابًا، وَبُيُنَانِي خَرَابًا، وَجُرْفِي
هَاطِرًا^(٤)، وَصَوَابِي خَطَأً، وَبَقَائِي حَلَمًا، وَفَنَائِي رَوْحًا وَرِيحَانًا. نَعَمْ! وَكُلَّ كَلِّي بِكَلِّي قَبِيحًا،
وَجَمِيعُ جَمِيعِي بِجَمِيعِي مَرْدُولٌ.

هذا لسانٌ بحرُ البلاء فيه نقطة، وذكاتهم^(٥) فيه مِيتة. فهذا حالي وشاني، ورَبَّعي ومِيداني، ومَأْخِذِي ومُضْطَرَبِّي، ومَجَالِي ومِصْطَرَفِي، فهل عندك من علاج تكشف ما بي، أو من مساعدة تخفف بعض أوصابي؟ هيهات! أنَّى يكون لك هذا! وأنَّى تَوَقُّك إليه! وأنت أيضاً في قِمَاصِي تبختر، وفي ذِلِّي تتعثر، وإن كنت أَمْثَلَ مني، وإنما رضاك موقوف على مثل قولك:

وَالنَّارُ يَعْرِفُهُ مَنْ كَانَ قَدَّاحًا وَالتُّكُلُ يَعْرِفُهُ مَنْ كَانَ نَوَّاحًا

هذا الواصل إلينا من إشاراتك. فأما اعتاص والتوى من مثل قولك:

[١٥٦]

تَبَارَكَتْ خَطَرَاتِي فِي تَعَالَائِي ^(٦) فَلَا إِلَهَ إِذَا فَكَّرْتَ إِلَّا أَنِّي

(١) البيت لبشار بن برد. (ديوانه: ٢٦٩) جمع: محمد الطاهر بن عاشور، وفي الديوان: أنال.

(٢) المخيلة: الظن.

(٤) الجرف: عرض الجبل الأملس، الهائر والهارى: الساقط المتهدم. (٥) الذكاة: الذبح.

(٦) ص: تعالاي... إلآي - وقد أثبتنا الهمزة ليستقيم الوزن، وهو من يجر البسيط وتعالاني أي: «تعالى» الخاصة بي؛ وإلآي: إلآ أنا.

وقولك فيه:

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فِي هُويَّةِ اللَّائِي مِثْلَ الدَّوَاءِ الَّذِي تَبْغِيهِ لِلدَّاءِ
فَالِيكَ بَيَانُهُ، وَعَلَيْكَ بَرَاهَانُهُ، وَلَسْنَا نُشَاحُكُ^(١) فِيهِ، وَلَا نَنَافِسُكَ بِهِ، لِأَنَّ اللَّفْظَ بِهِ كَدَرٌ،
وَالْمَعْنَى عَسِرٌ، وَالْإِرَادَةُ فِي شِقٍّ، وَالْعِبَارَةُ فِي شِقٍّ، وَبَهَاؤُهُ مُتَنَزِعٌ، وَتَصْحِيحُهُ مَمْتَنَعٌ.
وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾^(٢) الَّذِي يُوسِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿مِنْ
الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٤-٦].

(«تمت المجلدة الأولى من الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية،

بحمد الله ومنه ولطف صنعه

»ويتلوه المجلدة الثانية، وهي الرسالة الخامسة والخمسون:

«كتابي إليك^(١) أيها الصديق، وأنا أسألك أن يسألك...».

«وفرغ من كتبه محمد بن أحمد بن علي الأشعبي

بتاريخ جمادى الأولى سنة إحدى وسبعين وأربع مائة».

«معارضٌ مُصَحَّحٌ من أول المجلد إلى آخره».



(١) شاحَّ زَيْدًا: ماحكه وأَغْتَتَه.

(٢) ر: كتابي.

ملخص من كتاب

الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية

(مخطوطة برلين)

توطئة

بلغ عدد الرسائل الواردة في هذا الملحق تسع عشرة رسالة، تقع في ٧٦ ورقة، وفي كل صفحة من صفحاتها ١٧ أو ١٨ سطراً، ومعدل الكلمات في كل سطر ٨ - ١٠ كلمات. تتقدم البسملة بعض الرسائل، وكلها باستثناء الرسالة الأولى يحمل عناوين منتزعة من نصوص الرسائل. وتدل المقارنة مع النسخة ر (الجزء الأول من الإشارات) أن أكثر من ثلث ل (حوالي ٣٠ ورقة من أصل ٧٦ ورقة) ملخص لرسائل ثبتت في الجزء الأول من الإشارات، وهذا يعني أن الورقات الباقية ملخص لرسائل وردت في الجزء الثاني المفقود من الإشارات الإلهية.

يبلغ عدد الرسائل التي وردت في نسخة «ل» وثبتت في (ر) تسع رسائل، والعشرة الباقية التي أوردناها هنا لم ترد في الجزء الأول واعتبرناها من الجزء الثاني المفقود. فيما يلي قائمة بعناوين الرسائل الواردة في ملخص برلين (ل) كما وردت بترتيبها، وأمام الأجزاء المكررة مكانها في الجزء الأول.

- ١ - دون عنوان.
- ٢ - كسوف الضو وخلف النور من الإشارات الإلهية. (ملخص رسالة ٤٠ في ر).
- ٣ - العبق بأرج الرضا من الإشارات الإلهية.
- ٤ - جواب كتاب مستخبر من الإشارات الإلهية. (ملخص رسالة ٣، ٣١ في ر).
- ٥ - ربيع المهزولين من الإشارات الإلهية.
- ٦ - أين وليت من الإشارات الإلهية.

- ٧ - أضحت الدار خالية من قطانها من الإشارات الإلهية. (ملخص رسالة ٥٣ في ر).
- ٨ - رسالة دون عنوان (تلخيص لجزء من رسالة ١٣)
- ٩ - صياقل الأنفس الصدية في تهذيب الأخلاق من الإشارات الإلهية (ملخص رسالة ٢٤ في ر).
- ١٠ - من ألقى السمع وهو شهيد من الإشارات الإلهية (ملخص رسالة ٤٢ في ر).
- ١١ - ختمت النبوة من الإشارات الإلهية.
- ١٢ - حظيرة الرضوان وسجف الغفران من الإشارات الإلهية. (تلخيص رسالة ٣٣ في ر).
- ١٣ - مناط الربوبية وقاع العبودية من الإشارات الإلهية. (تلخيص لرسالة ١ في ر).
- ١٤ - العدو القصى من الإشارات الإلهية.
- ١٥ - الشوق والإخبار والاستخبار من الإشارات الإلهية.
- ١٦ - فضائل شهر رمضان من الإشارات الإلهية.
- ١٧ - الشكية بلية من الإشارات الإلهية. (تلخيص رسالة ٥٠ في ر).
- ١٨ - الكأس الدهاق من الإشارات الإلهية.
- ١٩ - الخيش المرشوش والطيب المفشوش من الإشارات الإلهية.

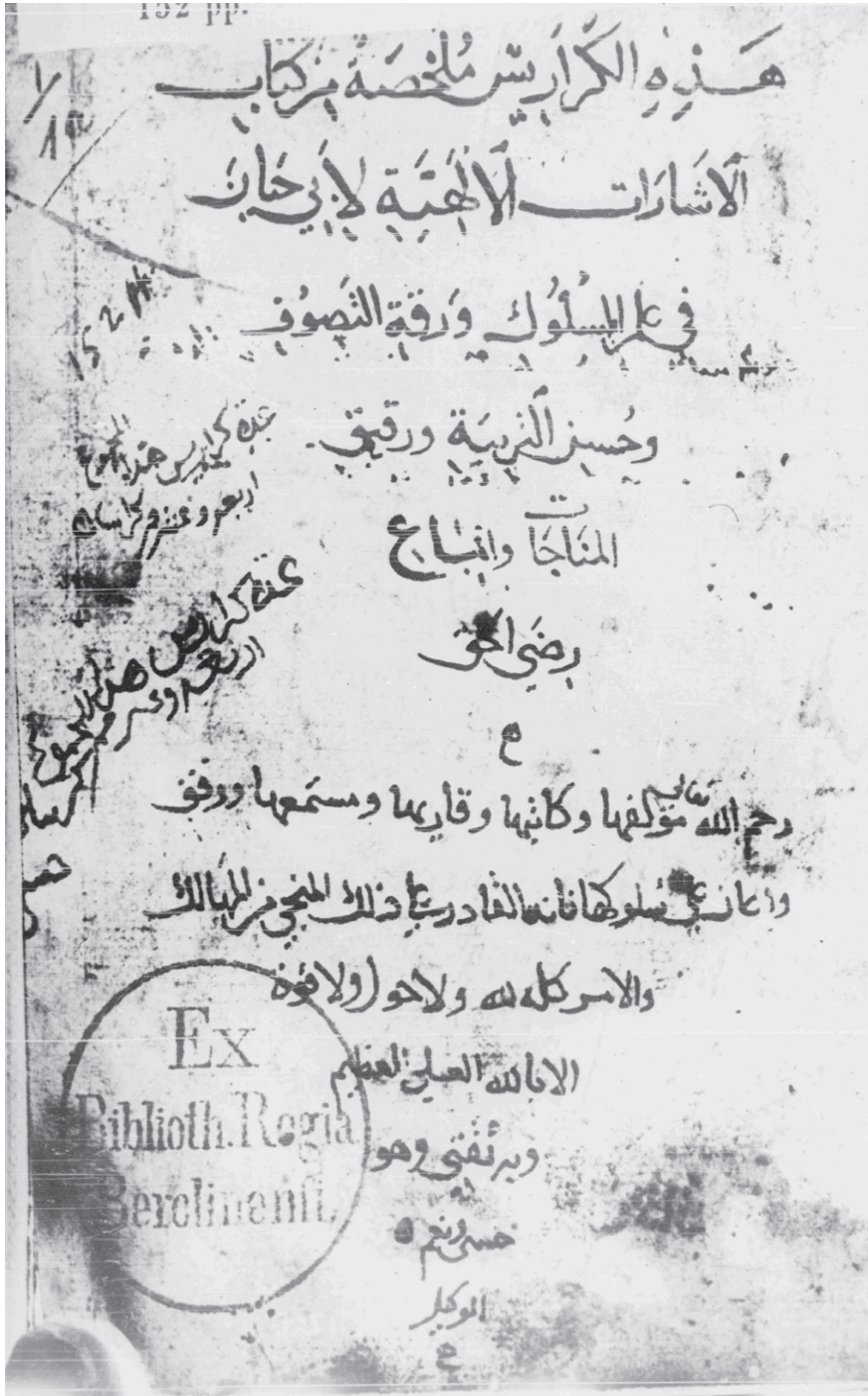
وبناءً على ما سبق، سنورد فيما يلي الرسائل التي لم ترد في الجزء الأول، وهي رسائل ١، ٣، ٥، ٦، ١١، ١٤، ١٥، ١٦، ١٨، ١٩.



**هذه الكراريس ملخصة
من كتاب الإشارات الإلهية لأبي حيان
في علم السلوك ورقة التصوف وحسن التربية
ورقيق المناجاة واتباع رضى الحق**

رحم الله تعالى مؤلفها وكتبها وقارئها ومستمعها ووفق وأعان على سلوكها، فإنه
القادر على ذلك، المنجي من المهالك، والأمر كله لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي
العظيم، وبه ثقتي وهو حسبي ونعم الوكيل.

عدة كراريس هذا المجموع أربعة وعشرون كراساً.



الورقة الأولى من مخطوطة برلين المصورة (ل)

والاحكام من غير ان يكون لاجباً ولا لاجباً فيها بها فما تحكما للروية
 وطرفاً كحكمة صديقه وهو الذي يرويه في استيلا الا اوهية ع
 قبل لك **الاعيانا** ياجا تزن لوصول لك من هذه السار ع
 انذار لو حل لك بهذا النمط استيبارن احوال لك في هذه
 القصة ذنب اوراس عزيز على انك فنانا كم جبنه الخطرات
 التي تغفل معها محالم الكائن اجعير وتضعل معها مقارل
 الا ولا تزن لا تجزرت وتضرب كارههم عند ها اودنا لا وحلهم
 بالقياس اليها اسلا وحى لا تزي اصدات مع حفايتها الا
 اظهر عجز اولك للا لاه وتقتال تحمها واقتلا لاه وفاد
 سلا حلال الا لا عزيز على والله ذ لك وللمه فبدك
 وسنديد والله الذي ذ لك لك فان لم تكن الخ منط بل فند
 مني هانت علامه من خالك نذل على كالك لا وترو حالك
 لك الكك ولشتر لنا باصبعلك اي تخسن لك كة الطاعة عليك
 ولستنا من عيز العوقه المنجزة فيلن واروصل اليها من
 طيب ماعبقك به من ذ لنا للاله الذي ماحله احد الاشيع
 من غير طححه وروزي من غير طحا وكلي غير كسوة ورتقي غير سلم
 وعوق بيها كاه مع كرك وتغم غير حاك وناك بغرف

الخطبة في تالوا والى السجلت المؤلفة واليسر ٥٥٥ ع
 الكثير المشوش والاعليب المشوش من الاشارات
 الالهية يا عذلا شهد نوح الله طيب في هذه العجايب التي فتح
 ابوابها اليك ونشر جواهرها عليك جي فطقت بوحيدة
 وتنفوت بحجبه وعرفت حقيقة ال يقدره واعترف
 بشيعة النافذة في ملكه وانفتت بطلعه وترفت في
 سلحة كرامه سلا لاه ومستغلا بكرة مهتديا بلا لاه
 متفعل بالباري غيبه في شاهدة الخطا بظنك لا وني من نثره
 فاهلا من ربك الاضيق من شره فانك ان شهدك هذا اليها
 على هذا الزنيب شدة علانته خلقه وورفتي اليه بالبريه
 سرتوه وانا لا انظر ط هذه الكرامات الوارده من لك الكثرة
 بعين الخبير فحصى جديدي لا يندح عينك بوجه قاده
 ولا يفتح بابك عليك فافتح ففتح الانفس الراحنا بلا لاهت
 كرا رزن ولا تلاك كرا هو ولا تترك راح ولا تفسم
 على كرا فواد ولا تخرف بكل واد ولا تفتح بك رنا
 يا ندي ماصحوبها اليك ومليسوها عليك انهم خايل
 الا وانها وبرود وفاد وود وود طيب فافتح عن الاله

[١ب]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

(١)(١)

اللهم! طَهِّرْنَا من ذُنُوبِنَا، وَنَقِّنَا من عِيُوبِنَا، وَأُطْلِعْنَا على غُيُوبِنَا، وَأَنْصِفْنَا من قُلُوبِنَا، وَاحْفَظْنَا في طُلُوعِنَا وَغُرُوبِنَا، وَكُنْ لَنَا عِنْدَ رَاحَتِنَا وَدُؤُوبِنَا، إِنَّكَ الْقَادِرُ الْحَكِيمُ، وَالْغَفُورُ الرَّحِيمُ. إِلَيْكَ نَرْفَعُ حَوَائِجِنَا، وَعَلَى بَابِكَ نَنْبِغُ مَطَايِنَا، وَبِتَصَارِيفِ أَحْكَامِ الْمَشِيئَةِ نُوَكِّلُ أَبْصَارَنَا، وَعَلَى لَطَائِفِ بَرِّكَ نُعَوِّلُ فِي شَهَادَتِنَا وَعَيْبَتِنَا، وَإِلَيْكَ نَنْتَسِبُ كَيْفَ دَارَتْ أَحْوَالُنَا، وَجَرَتْ أَعْمَالُنَا. مَنْ ذَا الَّذِي عَرَفَكَ فَسَكَنَ إِلَى غَيْرِكَ؟ مَنْ ذَا الَّذِي أَحْبَبَكَ فَصَبَرَ عَنْكَ؟ مَنْ ذَا الَّذِي عَزَّ بِكَ فَذَلَّ إِلَى سِوَاكَ؟ مَنْ ذَا الَّذِي سَمِعَ كَلَامَكَ فَلَمْ يَرْتَحِ لَذَلِكَ؟ مَنْ ذَا الَّذِي عَرَفَكَ فَلَمْ يَرْتَفِعْ مِنْ خَلْقِكَ؟ مَنْ ذَا الَّذِي زَارَكَ فَلَمْ تَتَلَقَّهُ كِرَامَتِكَ؟

يا هذا! كم أترجَّحُ بك طالبًا لفلاحك، وجالبًا لصلاحك، في عاجلتك وآجلتك؟ كم أرفع صوتي لك، وَأَخْفِضُهُ متلطفًا لك، حتى تنقاد لحظتك، وتجتني ثمرة حياتك؟ كم أضرب لك الأمثال، وأحذوها [أ٢] على مثالٍ بعد مثال؟ كم أَتَغْنَى لتطرب؟ كم أترنم لتشرب؟ كم أجتهد لتستريح؟ كم أَفْطُمُكَ عن ارتضاع هذه الدنيا لتكون من أمرك على بصيرة، ومن حالك على وتيرة وثيرة؟ فانتبه من سِتِّكَ، وَتَيَقَّظْ من غفلتك، وَعَلَيَّ أَنْ أَنْقَلَكَ من هذا المنزل الوبي، إلى ذلك الملك السني:

(١) وردت هذه الرسالة دون عنوان.

الرياح التي تهبُّ نسيمٌ والنجوم التي تضيء سعوُدٌ

وفي الجملة ترتقي إلى مكان لا تجد [فيه] من آفات هذا المكان شيئاً، لأنك ها هنا بين شتاءٍ مؤذٍ وصيفٍ ومِدٍّ^(١)، وربيعٍ متلَوْنٍ، وخريفٍ قاحلٍ، هذا حديث الزمان، وهكذا أيضاً حديث المكان، حَذُو النعل بالنعل، والقُدَّة بالقُدَّة^(٢)، من جَدَبٍ عارضٍ، وحريقٍ واقعٍ، وظَعْنٍ مُزعجٍ، وثواءٍ^(٣) مُضجرٍ، وارتدادٍ نفسٍ حسرةً على فائتٍ، وتردُّدٍ أَمَلٍ على مأمولٍ مُتَنظَرٍ، وعلى هذا مما هو موقوف على الحدثان، وكائن بحسب الزمان والمكان. ولن ترتقي إلى هناك إلا بعد أن تتنظَّفَ من أوساخ هذا الموضع تنظُّفاً تاماً، بلا دَرَنٍ باقٍ، ولا دَنَسٍ عارضٍ، وهذا لا يكون إلا بتجريدِ النية [٢ب] وإصلاح الطوية، والإقبال عليه بهمة عليّة.

أنتَ - حفظك الله - لو أردتَ من هذه الدنيا منزلةً رفيعة، وحالاً بين أهلها جليلة، لأخذت أهُبَّتَها، وجمعت أدواتها، واستعنت بأقرانك في اجتلابها، وسهرت مفكراً، وفكرت ساهراً، وضربت يَمَنَةً وَيَسْرَةً، وكدحت طالعاً وغارباً، وسعيت غادياً ورائحاً، ونحوت إليها خائفاً وراجياً، وقفوت أثرها خادعاً ومنخدعاً، وبذلتَ روحك مختاراً ومضطراً، وسلوتَ عن قليلك وكثيرك طائعاً وكارهاً، فكيف إذا طلبتَ هذه المرتبة عند الله: الذي خلقك ورزقك، وقَبَضَكَ وبَسَطَكَ، وهَدَاكَ وأرشدك، ومَلَكَكَ ومَلَكَكَ، وَحَبَاكَ وأَحَبَكَ، وهَيَّاكَ وَخَصَّكَ، وعَلَّمَكَ ما لم تكن تعلم ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾

[النساء: ١١٣].

يا هذا! إن أردتَ الثواءَ في جواره، والمقامَ في دياره، والتقلُّبَ في نِعَمِ الهنيئةِ المربيةِ، الطيبةِ الشهيةِ، مع النَّظَرِ إلى وجهه، وسَمَاعِ كلامه، والتَّبَحُّجِ في آفاق مملكته، والفَوْزِ

(١) الرِّمْدُ: الذي به وُمْدٌ، وهو ندى يجيء في صميم الحر من قِبَل البحر مع سكون الريح؛ وهو ما يعبر عنه اليوم بالرطوبة. نقول: يومٌ ومِدٌّ، وليلةٌ ومِدَّةٌ.

(٢) القُدَّة: ريشة الطائر كالنسر والصقر، بعد تسويتها وإعدادها لتركَّب في السهم. وفي الحديث: «الترَكْبَنُ سَنَنٌ من كان قبلكم حَذُو القُدَّةِ بالقُدَّةِ. يُضْرَبُ مثلاً للشَّيْثَيْنِ يستويان ولا يتفاوتان.

(٣) ثواء: إقامة.

بَجَنَّتِهِ، وَالْحَوَزِ لِنَعْمَتِهِ، فَهَبْ رُوحَكَ لِمَطْلُوبِكَ، وَاقْصِرْ سَعِيكَ [أ٣] عَلَى مُرَادِكَ، وَلَا تَتَرَجَّرْ بَيْنَ السَّلْوَةِ وَالرَّغْبَةِ، وَبَيْنَ الرِّقَّةِ وَالْقَسْوَةِ، وَبَيْنَ النِّشَاطِ وَالْكَسَلِ، فَإِنَّ مُرَادَكَ لَا يُنَالُ إِلَّا بِنَعَبِ الْجِسْمِ، وَهَجْرَانِ الرَّاحَةِ، وَبَذَلِ الْمَوْجُودِ، وَالْبِرَاءَةِ مِنْ كُلِّ عَائِقٍ، وَالْأَخْذِ بِكُلِّ خُلُقٍ فَائِقٍ. لَيْسَ الْأَمْرُ بِالْهَوِينَا: صَحْبَةُ الْمُلُوكِ لَا تُنَالُ إِلَّا بِاجْتِرَاحِ الْعَلَقَمِ وَالْوَجْهِ مُتَهَلِّلٍ، وَإِلَّا بِشَرْبِ السَّمِّ وَالْوَجْهِ ضَا حَكٍ، وَإِلَّا بِنَحْرِ النَّفْسِ وَالْقَلْبِ طَيِّبٍ، وَإِلَّا بِتَحْمُلِ الْبَلَاءِ وَالتَّسْلِيمِ وَاقِعٍ. أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ مَنْ تَلَذَّذَ بِالْبُلُوى قَرَّبَ فَرَجَهُ؟ وَمَنْ ضَجَرَ بِهَا طَالَ حَرَجُهُ، وَعَسَرَ مَخْرَجُهُ؟ إِنَّمَا دَرَسَ هَذَا الطَّرِيقُ لَأَنَّ سَالِكِيهِ قَلَّوْا، إِنَّمَا خَلَا هَذَا الْغَدِيرُ لَأَنَّ وَارِدِيهِ مَلَّوْا.

وَمَتَى لَمْ تَسْتَطِعْ بُلُوغَ هَذِهِ الْغَايَةِ، فَلَا أَقَلَّ مِنْ رُكُوعِ تَصَلُّهِ بِسُجُودٍ، وَمِنْ بَرِّ تَضَمُّهِ إِلَى بَرٍّ، وَمِنْ صَدَقَةٍ تَتَلَوُّ بِهَا صَدَقَةٌ، وَمِنْ لِسَانٍ تَمُرُّهُ عَلَى صِدْقٍ، وَمِنْ نِيَّةٍ تُؤَسِّسُهَا عَلَى إِرَادَةِ الْخَيْرِ، وَمِنْ رَحِمٍ تَقْصِدُ بِلَالِهَا^(١)، وَتَصِلُ مَا قَطَعَ مِنْهَا، مِنْ طَلَاقَةِ وَجْهِهِ، وَإِبْدَاءِ بَشَرِهِ، وَهَجْرِ غَيْبِيَّةٍ، وَبَذَلِ مَعُونَةٍ، وَحَمَلِ مَوْوَنَةٍ، وَنُصْرَةِ مَهْضُومٍ، وَتَسْلِيَةِ مُمْتَحَنٍ، وَتَلْقِينِ غَيْبِيٍّ، وَإِرْشَادِ ضَالٍّ، وَتَقْوِيمِ [ب٣] مَعَوَجٍّ، وَتَعْزِيَةِ مُصَابٍ، وَلِيْنِ كَلِمَةٍ، وَإِثَارِ رَفَقٍ، وَمُجَانِبَةِ خُرْقٍ، وَتَوْقِيرِ ذِي سِنٍّ، وَرَحْمَةِ ضَعِيفٍ، وَإِيْوَاءِ تَائِهٍ، وَنُصْحِ مُتَحَيِّرٍ، فَإِنَّكَ بِهَذِهِ الْأَخْلَاقِ وَاللِّطَائِفِ تَنَالُ خَيْرًا كَثِيرًا: مَنْ صَبَتِ حَسَنٌ فِي الْعَاجِلَةِ، وَذُخِرَ جَزِيلٌ فِي الْآجِلَةِ، وَبِهَذَا تَنَالُ الْجَنَانَ وَالْخُلْدَ وَالْغُرْفَ وَالْحَوْرَ الْعَيْنَ وَالْوُلْدَانَ الْمُخَلَّدِينَ وَالْأَتْرَابَ الْعُرْبَ^(٢).

يَا هَذَا! إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ فِي الْكَلَامِ شُرُوعٌ، وَلَا لَهُ فِيكَ نُجُوعٌ، فَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ عَلَامَةٌ سُوءٍ تَدُلُّ عَلَى أَنَّكَ مِنْ فَلَاحِكٍ عَلَى إِيَّاسٍ، وَفِي آخِرِ عَمْرِكَ تُشْرِفُ عَلَى يَاسٍ. فَكَيْفَ الْحِيلَةُ لِي الْآنَ مَعَكَ؟ بَلْ كَيْفَ الْحِيلَةُ مِنْكَ فِي نَفْسِكَ؟ أَوْه! دَعْنِي حَتَّى أَنْوَحَ وَأُبُوحَ، فَإِنِّي عَنْ قَلِيلٍ أَغْدُو وَلَا أُرُوحُ:

(١) بَلَّ رَحِمَهُ: وَصَّلَهَا.

(٢) الْأَتْرَابُ: مُفْرَدُ التُّرْبِ: الْمِمَائِلُ فِي السَّنِّ، وَأَكْثَرُ مَا يَسْتَعْمَلُ فِي الْمُؤَنَّثِ. الْعُرْبُ: جَمْعُ عُرُوبٍ، وَهِيَ الْمَرْأَةُ الْمُتَحَبِّبَةُ إِلَى زَوْجِهَا، أَوْ الْحَسَنَةُ التَّجَلُّلِ.

تَفَرَّقَ جِيرَانِي وَكُلُّ مَجَاوِرٍ إِلَى فُرْقَةٍ وَالدَّهْرُ مِنْهُ مُدِيلٌ^(١)
وَأَنِّي لَأَتِي الْأَمْرَ أَعْرِفُ غَبَّهَ
وَلَمَّا رَأَيْتُ الدَّارَ قَفَرًا بِهَا الْمَهَا
ذَكَرْتُ بِهَا عَيْشًا وَقُلْتُ لِمَا جَبِي
وَأَيَقَنْتُ أَنِّي فَضْلُ أَمْسٍ، وَمَا غَدٌ
[٤أ] بَدَا لِي أَنَّ الدَّهْرَ يَقْدَحُ فِي الصَّفَا
أَقُولُ لِقَلْبِي وَالتَّفْتُ إِلَى الصَّبَا
لَعَلَّكَ تَرْجُو أَنْ تَعِيشَ مَخْلَدًا أَبَى ذَاكَ شَبَابٌ مَضَوْا وَكُهِوْلُ
يَا هَذَا! كَيْفَ أَتَيَقُّظُ وَالسَّنَةُ غَالِبَةٌ، أَمْ كَيْفَ أَتَحْفَظُ وَالْآفَةُ مُرَاقِبَةٌ، أَمْ كَيْفَ أُخْبِرُ وَالْخَبْرُ
مَظْنُونٌ، أَمْ كَيْفَ أُدْمِجُ وَالْإِدْمَاجُ عَجْزٌ، أَمْ كَيْفَ أُسَالِمُ وَالْحَرْبُ قَائِمَةٌ، أَمْ كَيْفَ أَسْأَلُو
وَالنَّفْسُ رَائِمَةٌ؟ هِيَ هَاتِي: لَا حَالَ يُشَارُ إِلَيْهَا إِلَّا وَهِيَ مَشُوبَةٌ، وَلَا حَقِيقَةَ يُهَامُ عَلَيْهَا إِلَّا وَهِيَ
مَحْجُوبَةٌ!

اللهم! فُجِدْ لَنَا بِمَا يُغْنِينَا عَنَّا، وَهَبْ لَنَا مَا يُصَفِّينَا مِنَّا، فَقَدْ تَكَدَّرَ بَنَا كَدْرًا لَا نَصْلُحُ مَعَهُ
لِخِدْمَتِكَ وَلَا نَتَهَنَّا بِهِ فِي مَمْلَكَتِكَ.
اللهم! وَإِنْ كُنَّا أَتَيْنَا مِنَّا، فَإِنَّا مَا أُوْتِينَا مِنْ سَيْرِنَا رَوِيدًا، فَبِحَرَمَةِ الْغَيْبِ الَّذِي نَفَذَ فِينَا مِنْ
قُدْرَتِكَ إِلَّا وَهَبْتَ لَنَا تَقْصِيرَنَا، وَسَهَّلْتَ إِلَيْكَ مَسِيرَنَا.

أَيُّهَا السَّامِعُ! مَا أَخَوَجَكَ إِلَى بَالٍ يَحْضُكَ، وَتَوْفِيقَ يَمْدُكَ، وَعَقْلَ يَنْصَحُ لَكَ، وَعِلْمَ
يَبْقَى مَعَكَ، وَسِرًّا يُكْتَمُ لَدَيْكَ، وَحَقِيقَةً تُوَكَّلُ بِكَ، وَحِكْمَةً تَسْنَحُ فِيكَ، وَيَنْبُوعَ يَتَفَجَّرُ
مِنْكَ، حَتَّى تَسْمَعَ مَا يَقَالُ [٤ب] لَكَ وَاعِيًا، وَتَعِي مَا تَجِدُهُ رَاعِيًا، وَتَنْكَمِشُ فِي الْجَدِّ
سَاعِيًا، وَتَقُومُ بِنَفْسِكَ عَلَى نَفْسِكَ نَاعِيًا؛ فَإِنَّكَ إِنْ عَدِمْتَ هَذِهِ اللَّطَائِفَ الَّتِي أَحْصَيْتُهَا لَكَ،

(١) الشعر لبشار بن برد (ديوانه - جمع ابن عاشور ١٥٠ - ١٥١) والبيت الأول والخامس لم يردا هناك، ويوجد اختلاف في بعض الكلمات.

ونأيت عن هذه المواقف التي عرضتها عليك، سمعت ساهياً، ورويت لاهياً، وتبددت في جملة ذلك وتفصيله، لا مؤتمراً ولا متناهيًا، فتثبتت - حفظك الله - مجتهدًا، وقم لنفسك في هذا الأمر العجيب على ساق، قبل أن تدفع إلى ضروب الشقاء والندم، ولا تردن الناصح لك، فإنما هو لسان الحق: يوقظك لك، ويحفظك منك، ويهديك إليك، ويطلعك عليك. حتى إذا عرفت بعضك وكلك، حملت عبئك وكلك، وفارقت شخصك وظلك، وكنت بلا كون يعتقبه فساد، وعلى حال في الصفاء لا يقللها سناد، ولا يؤثر فيها نقص ولا ازدياد. فاهلّم إلى هذا الديوان الذي فيه حجاب أسرار القلوب، وعجائب أفانين الغيوب، وانظر: هل لك فيه ما إذا استوفيته غنيت به غنى الأبد، ولم تحتج بعده إلى أحد؟ وانظر أيضًا: هل عليك فيه ما إذا خرج أخذت بوفائه وأدائه حين الفقر لك لازم، والضرب [٥] بك محيط، والحاجة شاملة، حين لا مال ولا منال، ولا مقدم ولا مجال، إلا العزيز الجبار.

(٣)

العبق بأرج الرضا من الإشارات الإلهية

سقى الله عصرًا خلا في الزمن الأول ورعيًا له، فما كان أنضره عيانًا وخبرًا، ومشاهدةً وأثرًا. لقد كانت الأمانى فيه حاضرة بلا غياب، والآمال متقادة بلا استصعاب، والأوطار مقضية، والأحوال مرضية، ونجوم الهوى ثابتة، ودارات الصبا متصابقة^(١)، وسر المنى على سبوغه مرسلاً، ورداء الجمال بطوله وعرضه مسترسلاً، وقول الكاشح^(٢) على تنميقة مردودًا، ونفس الحاسد مع تلّهبه مقدودًا^(٣)، وغصن المراد بالمراد وريقًا، ونسب الوصال بالوصال عريقًا، وباب التحكم بالتحكم مفتوحًا، وسرّب العتاب بالعتاب مسروحًا^(٤)،

(١) دارات: جمع دارة وهي الدار، ومتصابقة: متقاربة.

(٢) الكاشح: من كشح القوم: عاداهم وحقد عليهم.

(٣) مقدودًا: مقطوعًا. وإذا قرئت «معدودًا» كان المعنى أن نفسه قصير.

(٤) مسروحًا: من سرح الماشية، أي أخرجها إلى المرعى.

وَأَعْيُنُ الْأَعْدَاءِ بِالذِّلِّ مَغْضُوضَةٌ، وَأَيْدِي [ي] الْأَضْدَادِ بِالْغَلِّ مَقْبُوضَةٌ، وَأَنْوْفُ الْحُسَادِ بِالْكُزْهِ رَاغِمَةٌ، وَصُدُورُ أَهْلِ النَّفَاقِ بِالْحَسَرَةِ وَاغِمَةٌ^(١). كَيْفَ غَرَبَتْ شَمْسُهُ، وَتَضَعُضَعَ أُسُّهُ، وَأَفَلَ نَجْمُهُ، وَدَرَسَ ظِلُّهُ، وَغَابَ شَاهِدُهُ، وَنُسِيَ عَهْدُهُ، وَانْحَلَّ عَقْدُهُ، وَأَظْلَمَ جَوْهُ [٨ب] وَتَبَدَّلَ حُلُوهُ، وَخَوَى نَوَّهُ؟

فيا لهفي على تلك الساعات، ويا عجباً: أَيْنَ انْجَلَى لَيْلُهُ، وَأَيْنَ أَسْفَرَ صَبَاحُهُ، وَأَيْنَ نَضَبَ وَعَاوُهُ، وَأَيْنَ خَبَا ضِيَاؤُهُ، وَأَيْنَ انْتَشَرَ شَجَرُهُ، وَأَيْنَ انْتَشَرَ ثَمَرُهُ؟ ويا عجباً: أَيْنَ الْمُخْبِرُ عَنْهُ، وَالنَّازِعُ إِلَيْهِ، وَالذَّاكِرُ لَهُ، وَالْمَتَأَسِّفُ عَلَيْهِ؟ وكيف يستغاث إلى الله تعالى من قصير نهار [ها] [وبها] -رب إظلامها من إسفارها؟ ويا عجباً: لو أُعيدت صورها علينا في المنام بدلاً من اليقظة، وكنا نستأنس منها بالحكم، ونقضي حاجات النفوس بلا ألم، ونقول: إن كانت عَيْنُهَا فَانِيَةً فَأَثَرُهَا باقٍ، وإن كانت حَقِيقَتُهَا زَائِلَةً فَظِلُّهَا واقٍ، وإن كان لِقَاؤُهَا مُتَعَذِّراً فَالتَّعَلُّلُ بها راقٍ؛ ثم أه لو كَانَ ثَوْبُ الْوَفَاءِ مَدِيداً، وَأَثَرُ مِنْ آثَارِ الصَّفَاءِ عَتِيداً: كُنَّا نَفَارِقُ أَرْوَاحَنَا أَسَى عَلَى مَا فَاتَنَا، وَكُنَّا لَا نَقْنَعُ لَأَنْفُسِنَا بِأُضَالِيلِ الْمَنَى، وَلَا نَحَابِيهَا عِنْدَ الْمَطَالِبَةِ بِحَقَائِقِ الْهُوَى. تَمَزَّقَ - وَاللَّهِ - سِرْبَالُ الْوَفَاءِ، وَعَفَا أَثَرُ الصَّفَاءِ، فَلَمْ يَبْقَ مِنَ الْحَقُوقِ إِلَّا رَسُومٌ دَائِرَةٌ، وَلَا مِنَ الدَّعْوَى إِلَّا كَلِمَاتٌ مُتَنَازِرَةٌ، خَبِثَتِ الْأَسْرَارُ فِي الْأَسْرَارِ، وَفَسَدَتِ الْأَخْبَارُ فِي الْأَخْبَارِ، وَطُمِسَتِ الْآثَارُ فِي الْآثَارِ، فَلَا جَيْبٌ إِلَّا وَهُوَ مُشَقُوقٌ بِالْحَسَرَةِ، وَلَا خَدٌّ إِلَّا وَهُوَ [٩أ] مَلْطُومٌ بِالْحَيْرَةِ، وَلَا قَلْبٌ إِلَّا وَهُوَ مَصْدُوعٌ بِالْحِرْقَةِ، وَلَا كَبِدٌ إِلَّا وَهُوَ مُقَطَّعَةٌ بِالْفُرْقَةِ، وَلَا عَيْنٌ إِلَّا وَهُوَ مُسْتَعْبِرَةٌ بِالْقَطْرِ بَعْدَ الْقَطْرَةِ، وَلَا نَفْسٌ إِلَّا وَهُوَ مُودَّعَةٌ بِالنَّظَرَةِ بَعْدَ النَّظَرَةِ.

يا هذا! التوبيخُ شديد، والعتابُ مديد، والعذرُ رديد، والهجرُ نارٌ أو كالنار. أتدري لِمَ أبعادوك عن فناء الحبيب؟ وَلِمَ أَسْقَمُوكَ ثُمَّ مَنَعُوكَ الطَّيِّبَ؟ وَلِمَ نَبَذُوكَ بِالْعَرَاءِ وَحَدَّكَ، بَلَا قَرِيبٍ وَلَا غَرِيبٍ؟ لِأَنَّكَ جَهَلْتَ مَا عَامَلُوكَ بِهِ، وَأَعْرَضْتَ عَنْ مَكَافَأَةِ مَا أَهْدَوْهُ إِلَيْكَ، وَاسْتَبَدَّدْتَ بِهَوَاكَ فِي هَوَاكَ، فَأَخْوَجُوكَ إِلَيْكَ، ثُمَّ أَعْجَزُوكَ عَنْكَ، ثُمَّ فَضَحُوكَ فَيْكَ، ثُمَّ

(١) واغمة: حاقة، والوعم: حقد ثابت في الصدر.

نَادُوا عَلَيْكَ بِكَ، ثُمَّ جَعَلُواكَ عِبْرَةً لِمَن تَأْمَلُكَ، وَآيَةً لِمَن سَلَكَ مَسْلَكَكَ. فَعَاقِبِ الْآنَ عَيْنَكَ عَلَى مَا جَنَّتْ، فَإِنَّهَا نَظَرَتْ إِلَى غَيْرِهِ، وَفَارَقَ نَفْسَكَ مِنْ أَجْلِ مَا رَكَنْتَ إِلَيْهِ، فَإِنَّهَا سَكَنْتَ إِلَى سِوَاهُ، خَلَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَكَ بِهِ، حَتَّى تَكُونَ بِلَا بَيْنٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فَإِنَّمَا بِلَاؤُكَ مِنْكَ: إِنَّمَا أَنْعَمَ عَلَيْكَ لِتَتَنَعَّمَ بِنِعْمَتِهِ فِي مَعْرِفَتِهِ، ثُمَّ تَرْتَقِي مِنْ مَعْرِفَتِهِ إِلَى أَهْلِ خَاصَّتِهِ، ثُمَّ تَطْلُعُ بِمَعْرِفَتِهِ عَلَى مَا صَانَكَ بِهِ، وَأَوْدَعَكَ مِنْ صِفَتِهِ، فَتَطَاوَلْتَ إِلَى مَا لَمْ يُوْذَنْ لَكَ فِيهِ، وَتَمَنَيْتَ مَا لَمْ يُيَخَّ لَكَ تَمَنِيهِ، ثُمَّ لَمْ يَكْفِكَ حَتَّى تَرْتَمِتَ بِهِ، وَهَتَكَتِ السُّتْرَ دُونَهُ، وَأَبْدَيْتَ مَكُونَهُ، وَأَفْشَيْتَ [٩ب] مَصُونَهُ، وَابْتَدَلْتَ مَخْرُونَهُ، طَرَبًا مِنْكَ عَلَى وَصْفٍ لَا حُصُولَ لَهُ، وَشَوْقًا إِلَى مَوْصُوفٍ لَا حَاصِلَ لَكَ مِنْهُ، فَهَا أَنْتَ دَامِي الْخَدِّ، رَاغِمُ الْأَنْفِ، مَسُودُ الْوَجْهِ، عَائِرُ الْقَدَمِ، دَائِمُ الْأَرْقِ، مَتَّصِلُ الزَّفِيرِ، تَدْعُو فَلَا تُجَابِ، وَتَحْتَنُجُ فَلَا يُسْمَعُ، وَتَعْتَذِرُ فَلَا يُقْبَلُ، وَتَنُوحُ فَلَا تُسَاعَدُ، وَتَتَكَلَّمُ فَلَا تُعْزَى، فَلَوْ كُنْتَ لَزِمْتَ حَدَّكَ بِحَدِّكَ، ثَابِتًا عَلَى وَجْدٍ يَشْهَدُ لَكَ، وَشَوْقٍ يَنْطِقُ عَنْكَ، وَعَتَابٍ يَسْتَحْلِي فِيكَ، وَحِجَّةٍ تُسْمَعُ مِنْكَ، وَنَظَرَةٍ تَصْحُحُ إِلَيْكَ، وَنَفْسٍ تَدُلُّ عَلَيْكَ، لَكُنْتَ الْآنَ تَمِيسُ^(١) فِي أَعْطَافِ أَهْلِ الْخَالِصَةِ، وَاثِقًا بِمَا سَبَقَ مِنْكَ، أَيَّامَ التَّعَرُّضِ لِلْوَصْلَةِ وَالْخَاصَّةِ، وَلَكُنْتَ الْيَوْمَ تَعْبِقُ بِأَرْجِ الرِّضَا، وَتَسْطَعُ بِنُورِ الْوَصَالِ، وَتَتَبَخَّرُ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، وَتَبْذُلُ مِنْ كَنْزِ الْحِكْمَةِ، وَتَدْعُو فُتُجَابِ، وَتَقْتَرِحُ فُتُطَاعِ، وَتَشْهَدُ فُتُخْدَمِ، وَتَزُورُ فُتُكْرَمِ، وَلَكِنَّكَ مَشِيَتْ مَرِحًا، فَعَثَرَتْ تَرِحًا، وَنَمَتْ حَالِمًا، فَانْتَبَهَتْ نَادِمًا، وَشَهِدَتْ جَاهِلًا، فَغَبَّتَ ذَاهِلًا.

يا هذا! العشقُ نارٌ، والمحبةُ برٌّ، والمعرفةُ بحرٌ، والتوحيدُ فضاءٌ، والطاعةُ جبلٌ، والصبرُ [١٠أ] أرضٌ، فمن اقتحم النارَ احترقَ، ومن سلك البرَّ تاه، ومن ركب البحرَ غرقَ، ومن نزل في الفضاءِ طاحَ، ومن حملَ الجبلَ تفسَّخَ، ومن اعتنقَ الصبرَ اطمأنَّ.

إذا أردتَ أن تجِدَ فُجِدَ: يعني إذا أردتَ أن تجِدَ الله فُجِدَ بنفسك لله، وإذا أردتَ أن تدركَ فاسلكَ، ودعِ الهوينَا، فمن أحبَّ أن يلحقَ المنى، تَشَمَّرَ لما هناك، وتسلَّى عما هنا.

(١) تميس: تختال، تتبختر.

اللهم! إنا نذل لك بنا، ونعزُّ معك بك، وندعوك لنا، ونُسَلِّمُ إليك منك، لأننا إذا أَحَسَّسْنَا نِسْبَتَنَا مِنْ عبوديتنا لك، بدت علينا علامةُ الخشوع والخضوع، وإذا أَحَسَّسْنَا نِسْبَتَنَا مِنْ ربوبيتك لنا، بدت فينا أنوار العزة والجبروت.

فَرَقْنَا - اللهم - من مقاماتِ نَقْصِنَا بنا، إلى دَرَجَاتِ كَمَالِنَا بك، فإنك إذا رقيت رقيت، وإذا وقيت وقيت: رَحْمَتُكَ وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَمَشِيئَتُكَ نَفَذَتْ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وقدرتُكَ استولت على كُلِّ شَيْءٍ، وما تعرَّفتُ جِهَةً لك اعترافاً بالهيتك إلا بِيَضَّتْهَا بنور معرفتك، وشَهَرَتْهَا بين عبادك بشعارِ أهلِ خاصَّتِكَ. فها نحن قد سَجَدْنَا لك عَابِدِينَ، وَأَشَرْنَا إِلَيْكَ بقلوبنا مُوقِنِينَ، ودَعَوْنَا إِلَى بَابِكَ مُحِبِّينَ، واستَجَبْنَا [١٠ب] مستسلمين، فاجعلنا من المقبولين، وأَغْنِنَا عن الخلق أجمعين.

إلهنا! لك عَنَتِ الوجوه، ولقدرتك ذَلَّتِ الصَّعَابُ، ولفضلِكَ تَوَجَّهَتِ الرِّغَابُ، وعلى بابِكَ أُنِيختِ الرِّكَابُ، وفي فَنَائِكَ طُرِحَتِ الرِّحَالُ، وبِكَ نِيطَ الرِّجَاءُ، وإِلَيْكَ تَوَجَّهَتِ السَّرَائِرُ، وبمناجاتِكَ تَلَذَّذَتِ الضَّمَائِرُ، وعلى عَفْوِكَ عَوَّلَ أَهْلُ الجَرَائِرِ^(١)، وعلى كَرَمِكَ تَوَكَّلَ أَهْلُ المَفَاقِرِ^(٢).

إلهنا! كُنْ لَنَا، وَكُنْ معنا، وَكُنْ عندنا، وانظرْ إلينا، وَتَفَضَّلْ علينا، ولا تَرُدَّنَا بعد ما عَرَضْتَنَا، ولا تُخَيِّنَنَا بعدما ثَبَّتْنَا. سَنَ^(٣) أَقْفَالِ قُلُوبِنَا، طَهَّرْ أَثْوَابَ عُيُونِنَا، افْتَحْ أَبْوَابَ عُيُونِنَا، ذَلِّلْنَا لَطَاعَتِكَ فِي مُوَافَقَتِكَ عَلَى إِرَادَتِكَ، وَذَلِّلْنَا بِنِعْمَتِكَ فِي كَنَفِ عَنَانِكَ بَيْنَ الْمُقَرَّبِينَ عِنْدَكَ، أَرْحِ عَلَّتْنَا، أَرْحِ هَمَّتْنَا، جَرِّدْ نَيْتَنَا، نَوِّرْ طَوَيْتَنَا، سَهِّلْ سَجِيَّتَنَا، ادْفَعْ بَلِيَّتَنَا، ارْدُدْ غُرْبَتَنَا، فَرِّجْ كُرْبَتَنَا، ارحم حَيْرَتَنَا، اطفِ حُرْقَتَنَا، ابلِّ غُلَّتْنَا، بالغِ فِي كَرَامَتِنَا: كُنْ لَنَا جَارًا وَمَجِيرًا، فَإِنَّا بِكَ مُسْتَجِيرُونَ، وبقدرتك مُتَنَصِّرونَ، ولآرائِكَ حَامِدُونَ، وَلِنِعْمَائِكَ شَاكِرُونَ، وَبِتَصَارِيفِ قَضَائِكَ مُتَشَبِّثُونَ، وإِلَيْكَ [١١أ] راجعون، وعليك مُعَوِّلُونَ.

(١) الجرائر: جمع الجريمة، الجناية والذنب.

(٢) المفقر: جمع الفقر. وأهل المفقر: الفقراء.

(٣) سَنَ العقدة: حلها، وَسَنَ القفل: فتحه.

أيها الصديق الصديق: أَمَا لَكَ قَلْبٌ عُلُوقٌ، وَنَفْسٌ إِلَى الْخَيْرَاتِ سُبُوقٌ؟ أَمَا لَكَ التَّفَاتُ إِلَى حِظِّكَ الَّذِي قَدْ تَرَكْتَهُ سَاهِيًا؟ أَمَا لَكَ حَيَاءٌ مِنْ رَبِّكَ فِي ارْتِكَابِكَ مَا نَهَاكَ عَنْهُ؟ أَمَا لَكَ أَنْفَةٌ مِنْ شِمَاتَةِ عَدُوِّ اللَّهِ بِكَ؟ أَمَا لَكَ رَغْبَةٌ فِي إِقْبَالِ اللَّهِ عَلَيْكَ؟ أَمَا لَكَ حِرْصٌ عَلَى إِحْرَازِ نَصِيكَ مِنْ حَيَاتِكَ؟ أَمَا لَكَ هِمَّةٌ فِي كَشْفِ غُمَّتِكَ؟ أَمَا لَكَ تَطَلُّعٌ إِلَى حِظِّكَ؟ أَمَا لَكَ شَوْقٌ إِلَى وَطَنِكَ؟ أَمَا لَكَ نُزُوعٌ عَنْ غَوَايِكَ؟ أَمَا لَكَ حَيْنٌ إِلَى دَارِ إِقَامَتِكَ؟ أَمَا تَرَحَّمُ أَرْكَانَكَ الْمُتَخَلِّخَةَ؟ أَمَا تَفَكَّرُ فِيمَا وَرَاءَكَ مِنَ الْوَلُولَةِ؟ أَمَا تَحُبُّ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَكْرَمِينَ عِنْدَ رَبِّكَ: الَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ، وَأَرْفَقَكَ وَوَفَّقَكَ؟ أَمَا لَكَ أَنْ تُمَيِّزَ مَا لَكَ مِمَّا عَلَيْكَ؟ حَدِّثْنِي: بِأَيِّ حَوْلٍ تَصُولُ؟ وَبِأَيِّ سِلَاحٍ تَلْقَى؟ وَبِأَيِّ قُوَّةٍ تَبْطِشُ؟ وَبِأَيِّ لِسَانٍ تَحْتَجُّ؟ وَبِأَيِّ حِيلَةٍ تَتَخَلَّصُ؟

حدثني: مَا الَّذِي غَرَّكَ؟ أَسِئْرُهُ الذِّيَالُ^(١) السَّابِغُ؟ أَمْ رِفْقُهُ الْمُتَوَاصِلُ الْبَالِغُ؟ أَمْ رَحْمَتُهُ لَكَ لُضْعْفِكَ؟ أَمْ إِنْظَارُهُ إِيَّاكَ إِلَى أَوَانِكَ؟

يَا هَذَا! فَتَنَكَ قَرِينُكَ السَّوْءُ، وَغَرَّكَ رَائِعُ الْعَيْنِ، وَأَسْهَاكَ الْحَلُوُ وَالْحَامِضُ، وَسَرَقَكَ الْأَحْمَرُ وَالْأَصْفَرُ^(٢)، وَكَذَبَكَ الْأَمَلُ [١ ب] الْكَذُوبُ، وَغَرَّكَ الْغُرُورُ، فَكَأَنِّي بِكَ غَدًا وَقَدْ مُحِيَ اسْمُكَ مِنْ دِيْوَانِ الْمُقْبُولِينَ، وَكُتِبَ فِي دِيْوَانِ الْمَطْرُودِينَ. لَوْ كَانَ لَكَ بَعْدَابُ اللَّهِ طَاقَةٌ لِعَذْرَتِكَ، وَلَوْ كَانَ لَكَ عَلَى غَضْبِهِ صَبْرٌ لَأَمْسَكْتُ عَنْكَ، وَلَوْ كَانَ لَكَ عَلَى إِبْعَادِهِ بَقَاءٌ لَكَفَفْتُ دُونَكَ. لَكِنْ أَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تَلْبَثُ لِنَفْحَةٍ مِنْ نَفْحَاتِ عِقَابِهِ، بَلْ لَا تَقُومُ لِحَرْفٍ مِنْ حُرُوفِ عِقَابِهِ.

هَلَكْتَ وَمَا تَدْرِي، وَخَسِرْتَ وَمَا تَشْعُرُ، وَخَبْتَ وَمَا تَعْلَمُ، وَبِدْتَ وَمَا تُحَسِّنُ، وَمُسِخَتْ وَمَا تَعْقِلُ. مَا أَجْرَكَ لِلْهَلَاكِ إِلَى نَفْسِكَ، مَا أَصْرَكَ عَلَى هَتِكِ سِتْرِكَ بِيَدِكَ، مَا أَغْبَاكَ وَمَا أَعْمَاكَ عَنْ رُشْدِكَ مَعَ قُرْبِهِ مِنْكَ، مَا أَضَلَّكَ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ، مَا أَثْقَلَ أُذُنَكَ عَنْ نِدَاءِ الدَّلِيلِ، مَا أَسْلَكَكَ لَطَرِيقَ التَّعْلِيلِ، مَا أَرْكَبَكَ لظَهْرِ التَّسْوِيلِ^(٣)، مَا أَوْلَاكَ بِالْوَيْلِ وَالْعَوِيلِ! وَمَا لِي أَقُولُ هَذَا كُلَّهُ وَأَنْتَ لَا تَقْبَلُ؟ لَا أَبْعَدَ اللَّهُ غَيْرَكَ وَلَا أَهْلَكَ سِوَاكَ!

(١) الذِّيَالُ: طَوِيلُ الذِّلِّيلِ. (٢) الْأَحْمَرُ: الزَّعْفَرَانُ، وَالْأَصْفَرُ: الذَّهَبُ.

(٣) تَسْوِيلٌ: مُصَدَّرٌ «سَوَّلَ»، سَوَّلَ لَهُ أَمْرًا: أَغْرَاهُ بِهِ وَجَبَّهَ إِلَيْهِ.

اللهم! إِنَّا نَتَقَلَّبُ فِي أَكْنَافِ مُلْكِكَ، مُتَعَجِّبِينَ مِنْ أَفَاعِيلِكَ، مُسْتَمْتِعِينَ بِأَقَاوِيلِكَ، مُسْتَنِيمِينَ إِلَى وَعْدِكَ، لَغَرَائِبِ أَخْبَارِكَ.

اللهم! فَارْحَمْ تَقَلُّبَنَا، وَزِدْ فِي تَعَجُّبِنَا، وَاخْصُصْنَا بِمُؤَانَسَتِكَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ أَهْلِ خَالَصَتِكَ، وَانْفُضْ طَرِيقَنَا إِلَى خِدْمَتِكَ مِنْ كُلِّ رَاصِدٍ يَعْتَرِينَا فِي التَّوَجُّهِ [١٢] إِلَى طَاعَتِكَ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

(٥)

ربيع المهزولين من الإشارات الإلهية

بَأْبِي مَنْ خِيَالُهُ نُصِبُ عَيْنِي وورائي وحيث ما درت دارا

يا هذا! هذه كناية عن اشتغال الحق عليه، وإحاطته به، فإن قلت: هذا خيرٌ عام، فلم خصّه بالثناء؟ قيل لك: لو كنت من أصحاب الخرق والخرق^(١)، لم يُشكَل عليك ما يمرُّ في هذه الطُّرُق، شغلَكَ الأوان والمكان، عن تذوق هذه الغرائب والمعاني، وليس العجب أن تكون غريباً في هذا، بل العجب أن لا تكون غريباً، على أنك لو اعتزيت إلى هذا البلد لاستوحشت، لإلفكَ قوماً: هم مأنسٌ مشاعرك، ومقابسٌ مساعرك^(٢)، وروادفٌ أحساسك، ومراوحٌ أنفاسك، يألّفهم طَرْفُكَ إذا رَمَقَ، ولسانك إذا صدَقَ، وطيفُك إذا طَرَقَ، وخيالك إذا مَرَقَ. كلا! لو اعتزيت إلى هذا المكان بهمة ذات صفاء، ونية ذات نقاء، وشمائل قد حُفَّت بالتواضع، وأطراف قد زُيِّنَتْ بالتخاشع، ورغبة قد نَجَمَتْ عن إخلاص، وتعرض صَحَّ في طلب الاختصاص: لاستوحشت ممن كنت تألفه، وأنكرت من كُنْتَ تعرفه، لما ترى من زبرج لا عهد لك به، ووشى لم تمرّ قطّ بمثله.

(١) أصحاب الخرق والخرق: يعني الصوفية.

(٢) مساعِر: جمع مسعر، اسم مكان من أسعر النار: أوقدها.

وصاحبُ هذا [١٩ب] الحديث إنما هو هَرَفٌ^(١) بما عرف، وإنما شهد بما عهد،
وإنما نطقَ بما تحقّق، وإنما جادَ بما وجد، وإنما استطالَ بما نال، وإنما حكَمَ بما أحكم،
وإنما ألقى بما لقي، وإنما سَعَدَ حيث شقي، وأنتَ فلسْتَ منه، ولا تقفُ على لغته، ولم
تختلفْ إلى ديوانِهِ، ولم تطلّعْ على عُنوانه، ولم تسمعْ مِنْ خَبْرِهِ فضلاً عن عِيَانه، فكيف
تدري ما أرادَ بقوله، وإلى أي غرض رمى بلفظه، ومن أيِّ بحرٍ غَرَفَ ما غَرَفَ، ومن أيِّ
غصنٍ قَطَفَ ما قَطَفَ، وعن أيِّ بَرَقٍ خَطَفَ ما خَطَفَ؟ هيهات:

يعرفُهُ الواحدُ من جنسه وسائرُ الناسِ له مُنْكَرُ

يا هذا! هذا ربيع لا يرعاه إلا المهزولون، هذا منهل لا يرده إلا اللاهثون، هذا صوبٌ
لا يستسكبه إلا المُمَحِّلون، هذا فناء لا ينزله إلا المطرودون، هذا مقامٌ لا يصبر عليه إلا
المقبولون، هذا حرْمٌ لا يختاره إلا المَخْصُوصون، هذا بابٌ لا يقرّعه إلا المتّقون، هذا
غناء لا يطربُّ عليه إلا العاشقون، هذا بساطٌ لا يطأه إلا المقرَّبون، هذا عتابٌ لا يستلذه إلا
المهجوّرون، هذا سرٌّ لا يفهمه إلا المحترقون، هذا غَيْبٌ لا يشهده إلا المُصْطَفَوْنَ، هذا
عيد لا يحضره إلا [٢٠أ] المُفْرَدون، هذا شرابٌ لا يذوقه إلا العارفون، هذا تاجٌ لا يلبسه
إلا المكرّمون، هذا رَوْضٌ لا يحلُّه إلا المحبّون، هذه عبارةٌ لا يسمّعها إلا المبرورون،
هذه كعبةٌ لا يحجّجها إلا المدعوّون، وهذه غمرةٌ لا يخوضها إلا المدرّبون، هذه إشارةٌ لا
يدركها إلا المؤدّبون، هذه كأسٌ لا يجرعُ منها إلا المرتّبون، هذه جمرةٌ لا يدنو منها إلا
المقرّورون، هذه دُرّةٌ لا يغوصُ عليها إلا الموفّقون، هذه بلدةٌ لا يسافر إليها إلا المشتاقون،
هذه قفرةٌ لا يقطعها إلا المتوكّلون، هذه نعمةٌ لا يجدُ عليها إلا الهائمون، هذه علامةٌ لا
يهتدي بها إلا العالمون، هذه تذكرةٌ لا ينتقع بها إلا الناصحون، هذه تبصرةٌ لا يحرزها إلا
المستبصرون!

يا هذا! عليك بالصدق فإنه نجاة، عليك بالحق فإنه تجاه، عليك بالقناعة فإنها غنى،
عليك بالدين فإنه الحصن، عليك بالخير فإنه دُخْرٌ، عليك بالقرآن فإنه نور، عليك بالأثر

(١) هَرَفَ الشخصُ: هذى وخلط في كلامه.

فإنه أنس، عليك بالصمت فإنه حرز، عليك بالعلم فإنه رائد، عليك بالعمل فإنه قائد، عليك بالتوكل فإنه كفاية، عليك بالتسليم فإنه سلم، عليك بالإيثار فإنه كرم، عليك بالزهد فإنه راحة، عليك بالسهر فإنه حياة، عليك [٢٠ب] بالفكر فإنه مفتاح، عليك بالجماعة فإنها محجة، عليك بالتقوى فإنها حجة.

أما إني ألطف بك تارة شفقة عليك، وأعنف بك تارة رياضة لك، وأدركك تارة استبدادًا بك، وأعرفك تارة استفرادًا لك، وأخذك ذات اليمين وذات الشمال حتى تتوقع^(١) وتمرن، فلعلك تزايل^(٢) أخلاقًا ألفتها من أبناء جنسك، حتى فتنتك وغبتك، وصرفتك عن مرأى إشارات الواعظ.

فأعني قليلًا على نفسك حتى تزول عنك عادتك، التي قد أقذت عينك، وختمت على فيك، وكفت يدك عن حظك: فلو قد طلقت الدنيا واحدة إن لم يكن ثلاثًا احتياطيًا لحالك، وكنت إذا أردتها راجعتها بما بقي من عدة الحبل بينها وبينك، وإن طاب لك فراقها وضح عندك أنها أجنى عليك، وأضر لك، من العجوز الشمطاء، السليطة الدرداء^(٣)، المتحكمة الشوهاء، جريت في الثاني بعد التحقيق على بتاتها ومباينتها، وإمرار الثالث عليها، فحينئذ والله تستريح، نعم وأي راحة وراحة: عاجلة وآجلة، أما في العاجلة فإنك تكفى مؤونة ضرائها؛ لفقد سرائها، ومؤونة [٢١أ] عصارتها، لفقد غضارتها، ومؤونة ترحها، لفقد فرحها، ومؤونة عبرتها، لفقد خبرتها، ومؤونة سمها، لفقد شهدها.

وما في الدنيا؟ حدثني عنها لعلّي ذاهل عن علمك بها، ولعلّ لك خبرة فوق خبرتي بشأنها. فإن كان ذاك كذاك، فأنا لك أشد إجابة في طلبها منك لي في تركها. أليست ذات غدر ومكر، ومُحال ونكر؟ أليست حائلة مُحيلة، وزائلة مُزيلة؟ أما ترى أهلها كيف يركضون في ميادينها فرحين، ثم إنهم يصيرون حديثًا قبيحًا بعد حين؟ أما ترى الزاهدين فيها كيف يُعتقون من رِقها، وكيف يستريحون من أوقها^(٤)، وكيف ينجون من جمراتها،

(١) تتوقع: تشتد وتصلب.

(٢) تزايل: تفارق.

(٣) الدرداء: التي سقطت أسنانها.

(٤) أوقها: ثقلها وشؤمها.

وكيف يُقيمون فيها صابرين، ثم يرتحلون عنها خالسين، لم تنشب في حُلوقهم، ولم تثقل على ظُهُورهم؟ هذا إلى ما يجدون عند الله، الذي له تركوا ما تركوا، وإليه سلكوا لما سلكوا، وعلى بابه برّكوا لما برّكوا.

يا هذا! إنَّ القولَ في وصفِ الدنيا لطويلٌ، وإنَّ المغرورَ بها لمرحومٌ، وإنَّ التاركَ لها لرابعٌ، وإنَّ المتربّعَ فيها لمُزعجٌ، وإنَّ الداخلَ إليها لمُخرجٌ، وإنَّ القولَ في وصفِ الزاهدِ فيها لكثيرٌ، وإنَّ العارفَ بعُيوبِها لقليلٌ، وإنَّ العارفَ بما يَعْرِفُ لعزيزٌ، وإنَّ الصادقَ [٢١ب] فيما يعمل لمعدومٌ، وإنَّ مَنْ رامَ المعدومَ في العزيز لَمُعنى، ومع هذا فلا بدَّ من بذلِ المجهودِ، لمن جاد على كل موجود، بغايةِ استحقاقه من الجود. فإنَّ بذلَ المجهودِ احتياطٌ لا بدَّ من تقديمه، وإنَّ تركَ ذلك اختلاطٌ لا يؤمِّنُ من سوء عاقبته.

اللهم! إنّا إليك نفزع، وبابك نفرع، ولقدرتك نخضع، ومن عقابك نخشع، وبفضلك نرؤى ونشبع، وفي رياضك نلهو ونرتع.

يا هذا! قومٌ مائِدَكَ^(١)، وصدّق رائِدَكَ، وأطع قائِدَكَ، واشكر عائِدَكَ، واهجر كائِدَكَ، وكن من روعاتِ خُطوبِ هذه الدار على ساق، واعلم بأنك لما قدّمتَ بما كسبت يدَاكَ لاق، فإنَّ ربك لبالمرصاد: لا تدعُ ربَّكَ إلا بعد أن تشهدَ تقصيرك، ولا تحدّثَ عن أسرارِهِ إلا بعد أن يأذنَ لك، ولا تُصغِ إلى نغماتِ ملكوته إلا بعد أن يؤهِّلَكَ به إليك، ولا تفحصَ عن مكنونِ غيِّهِ إلا بعد أن يُرخصَ لك، وكيف تقلّبتَ بك الحالُ فاهجر نفسَكَ الأمّارةَ بالسوء، فإنها شيطانُكَ المريد، ونازكُ الموقدة، وريحكُ العاصف، وخانقُكُ العنيف، وسيفُكَ الهُدّام^(٢)، وصاحبُكَ الفاضح، وجاركُ الخبيث [٢٢أ] ومعاملُكَ الغابن، وصديقُكَ المرائي، وما أحسنَ ما ألهمَ القائلُ في قوله:

إذا امتَحَنَ الدنيا لبيبٌ تكشّفتْ له عن عدوّ في ثياب صديق^(٣)

(١) مائدك: غصن مائد: مائل.

(٢) الهُدّام: القاطع.

(٣) البيت لابن الرومي (ديوانه ٢/ ٤٩٦ شرح أحمد حسن بسج ط دار الكتب العلمية، بيروت) وبعده:

عليك بدار لا يزول ظلُّها ولا يتأذى أهلُها بمضيّق
فما يبلغُ الراضي رضاهُ بِلُغةٍ ولا ينفعُ الصادي صداهُ بِرِيقٍ

ومتى ظفرت بها فاذبحها، فإنك إن لم تذبحها ذبحتك، ومتى قامت بإزائك فافضحها، فإنك إن لم تفضحها فضحتك، لا تغترّ بالعدو وإن كان قريباً منك بالنسب، فالعدو عدو وإن أظهر اللين، كما أن الصديق صديق وإن أظهر الغلظة، ولا تجنح في كل ما تراه عينك إلى ظاهره، بل غص على خفيته ودفيته، فهناك اللب والحقيقة، وتصرف في ملكوت ربك وتلك^(١) نفسك، واستشهد أبداً بعض ما ترى على ما لا ترى، واستخير أيضاً بعض ما لا ترى عن ما ترى، واجعل العمل أبداً بعد اقتران الدليل، واعتبار السبيل، واختبار الدقيق بالجليل، فإن هذه الوصية من أمارات المستقيظين، الذين يليق بهم بعد هذا أن يكونوا موقظين، والزم هدي المهتدين، تصر به من المهديين، وخذ حذرَكَ منك، قبل أن تأخذ حذرَكَ من غيرك، فإنك أضرت عليك من عدوك ذي الحفيظة، لأنك تعمل ما تعمل بجهل، وتجهل ما تجهل بحجة، فلذلك أنت كذاك.

اللهم! إنا وإن أطلنا السفر^(٢) عنك بالسّهو، فإن طلو عنا^(٣) عليك عند الإساءة، فارحم سهُونا إذا غلب علينا، واحفظنا بعده [٢٢ب] إذا انتبهنا.

إلهنا! أجلتنا في الأحوال، وأجلت الأحوال فينا، ونفردت بما لا يجوز أن يكون على غير ما أنت به، وهكذا حُكُم الأرباب، فيما لا يليق إلا بك، ولا يجوز إلا لك، ولا يحسن إلا منك. اجمع شمل همومنا فيك، وألف بين عزائمنا من أجلك، واجعل نواظرنا موكلة بعجائب قدرتك، وخواطرنا جارية بغرائب حكمتك، واجعل لنا من رضاك نصيباً مفروضاً، وهب لنا في قصدنا توفيقاً طويلاً عريضاً، ومهما أنسينا فلا تُنسنا ذكرك، ومهما أذقنا فلا تُذقنا هجرَكَ. متّعنا بالإجابة لك، وارفعنا بالدعاء إليك، واقبلنا بوجدنا عليك، واصرف عنا القواطع عنك، وصلنا بك، واسقنا بيدك، وهب لنا رضوانك بفضلك، واطرف^(٤) أبصارنا عن خلقك، واجعل حُبَكَ هجيرانا^(٥)، والتردد إلى بابك مغدانا ومسّرانا، والعيش معك مماتنا ومحيانا، والحمد لك مُصْبِحنا ومُمَسّانا.

(٢) السفر: البعد. نقول: هو مني سفر: بعيد.

(٤) طرفه عن الأمر: صرفه عنه.

(١) هكذا وردت في الأصل. ولعلها: «ومالك»

(٣) طلع على القوم: أقبل عليهم.

(٥) الهجيري: الدأب والشأن.

يا هذا! مردتِ الموارد، وشردتِ الشوارد، وتفتتتِ القلوبُ على اللهفاتِ المتلظية، وصارتِ الأرواحُ إلى معادنِ الكُربِ بالقوارحِ المُعضلة، وعادَ الظاهرُ سرابًا، والباطنُ خرابًا، وركدتِ الشكوى مستوطنة، والبلوى مستمكة، فلا جرمَ [٢٣أ] القولُ - وإن كان ناصعًا رشيقيًا، حسنًا بليغًا - مردودٌ، والدليلُ - وإن كان ساطعًا بريقًا، جميلًا قويًا - مجحودٌ. هذا لأنَّ الطمأنينةَ معدومة، والتهمةَ عارضة، والقلقَ جائل، والسكونَ حائل، والطبيبَ عليل، والعليلَ هالك، والدواءَ إنما هو دواءٌ بالاسم، وإلا فليس له أثرٌ في الداء، ولا خبرٌ عن الشفاء. فهل رأيتَ داهيةً صمًا، ومحنةً شنعاء، كهذه التي قد طال النّبأ عنها، وكثُرَ الضجيجُ منها، على الزمانِ والسنين، من غيرِ راحمٍ ولا مُشفقٍ، ولا مُتلافٍ ولا مُرفقٍ؟ أترى هذه من القسوةِ والغلظةِ والفظاظة، أم قلةِ الاحتفالِ والمبالاةِ والعياج^(١)؟ وكيف ما كان، فالخيرةُ عاملةٌ عملها، والنارُ مُحْرِقةٌ ما وَجَدَتْ منى. وأعظمُ ما في هذه الحالِ الشّوهاء، أنْ النسبةَ فيها ذنبٌ لا يُغْفَر، والتعريضَ بها كبيرةٌ لا تُسْتَر، والإشارةُ إليها مَجْلِبَةٌ الحِمام، والتوجُّعُ منها مَفْضَحَةٌ على الأيام.

بالله! أفما هذا من الخطوبِ الصعبة، والنوائِبِ العجيبة، والبلايا الشديدة؟ بلى والله، ولكن ما الحيلة، وكيف المَخْلَص، وعلى مَن المَعْوَل؟ على أنه كيفما دارتِ القصة، وعلى أيِّ جانبٍ وَقَعَتِ التُّكَاةُ، فلا مَلْجَأَ إلا الله، الذي بيده ملكوتُ كلِّ شيء.

اللهم! وإن كانتْ بَلَوَانَا منك، فإن شَكْوَانَا أيضًا إليك، فبِعِزَّتِكَ إِلَّا أَخَذْتَ بأيدينا، وَبِعِثْتَ [٢٣ب] رَأْفَتَكَ وحنانَكَ إلينا، وكنتَ لنا عندَ اليأسِ الغالبِ علينا، ولا تَكِلْنَا في كلِّ حالٍ وعلى كلِّ وجهٍ إلى غَيْرِكَ، فإن الظنَّ بك وإن طَرَدْتَنَا، أحسنُ من الظنِّ بغيرِكَ وإن قَبَلْنَا، والرجاءُ فيكَ وإن حَرَمْتَنَا، أقوى من الرجاءِ في سواك وإن أعطانا: إليك نَفْزَعُ، وبك نَلُودُ، وإياكَ نَعْبُدُ، وعليكَ نَتَوَكَّلُ، وبأسمائكِ الحسنى نَلْهَجُ، وبصفاتِكَ المحمودة نَهْجُ، وبابك [نقرع]^(٢)، وجنابك نرعى، وبذِكْرِكَ نَتَلَذَّذُ، وإليك نَسْعَى، يا ذا الجلال والإكرام.

(١) العياج: مصدر عَاجَ، عاج عن الأمر: انصرف. وما عاج بكلام فلان: ما التفت إليه ولا اكثر له.

(٢) زيادة لازمة.

(٦)

أَيْنَ وَلِيَتْ مِنَ الْإِشَارَاتِ الْإِلَهِيَّةِ

رَحِمَتَكَ اللَّهُمَّ رَحِمَتَكَ، وَنَظَرَكَ اللَّهُمَّ نَظَرَكَ، فَقَدْ ضَاقَتِ الْمَسَالِكُ إِلَّا إِلَيْكَ، وَعَاقَتِ الْعَوَاقِقُ إِلَّا عَنْكَ، فَلَا عِبْرَةَ إِلَّا وَهِيَ تَرَقُّقُ عَلَى فَائِتِهَا مِنْكَ، وَلَا خَاطِرَ إِلَّا وَهُوَ مُوَشِّحٌ بِالْإِشَارَةِ إِلَى إِلَهِيَّتِكَ، وَلَا أَمْنِيَةَ إِلَّا وَهِيَ غَائِرَةٌ فِي مَلُوكَتِكَ، أَوْ مُنْجِدَةٌ فِي جَبَرُوتِكَ، عَزَزْتَ فَمَا تُرَامُ، وَجَلَلْتَ فَمَا تُضَامُ، فَوَاصِفُكَ وَإِنْ أَطْنَبَ عَيْيَ، وَذَاكَرُكَ وَإِنْ أَسْهَبَ نَسِيَّ، وَالنَّازِرُ إِلَيْكَ وَإِنْ حَدَقَ مُحْجُوبٌ، وَالْمَتَعَرِّضُ لَكَ وَإِنْ تَجَلَّدَ مَغْلُوبٌ. عَرَّتِ الْعَوَارِي، فَاسْتَأْصَلَتِ الْأَوَائِلَ وَالثَّوَانِي، وَسَرَّتِ السَّوَارِي، فَاجْتَاخَتْ [١٢٤] الْمَأْوِي وَالْمَغْنَانِي، فَلَا عَيْنَ إِلَّا وَدَرَّتُهَا هَامِلَةٌ جَزَعًا وَيَأْسًا، وَلَا نَفْسَ إِلَّا وَهَمَّتُهَا تَتَقَطَّعُ ذَهُولًا وَوَسْوَاسًا: كَاشَفَ فَأُولَى، ثُمَّ صَارَفَ فَأَبْلَى، وَقَرَّبَ فَأَعْلَى، ثُمَّ بَعَدَ فَأَعْلَى، ثُمَّ أَشْكَلَ فِي الْأَفْعَالِ فَأُضْحَكَ وَأَبْكَى، وَأَبْقَى وَأَفْنَى، وَأَمَاتَ وَ[أَحْيَا]، وَأَفْقَرَ وَأَغْنَى، وَسَلَبَ وَأَعْطَى، وَيَتَمَّ وَأَسْلَى، وَبَصَّرَ وَأَعْمَى، وَأَبْدَى وَأَخْفَى، وَخَلَعَ^(١) وَأَعْرَى، وَمَنَعَ وَأَغْرَى، وَأَدْنَى وَأَفْصَى، وَأَغْضَى وَأُخْصَى، ثُمَّ دَعَاكَ فِي خِلَالِ ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَى التَّسْلِيمِ الَّذِي هُوَ نَعْتُكَ فِي الْعِبُودِيَّةِ، وَحَقُّهُ فِي الرِّبُوبِيَّةِ. فَاجْعَلِ الْآنَ أَنْتَ هَذَا التَّسْلِيمَ سَلَمًا لَكَ إِلَيْهِ، وَاخْطُطْ رَحْلَكَ بِنِقَاءِ ضَمِيرِكَ فِيهِ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يُجِيبُكَ إِذَا مَا دَعَوْتَ، وَيُحْيِيكَ إِذَا دَنَوْتَ، وَيُوَاجِهَكَ إِذَا رَنَوْتَ، وَيَعْشَقُكَ إِذَا سَلَوْتَ، وَيُبْدِي لَكَ مِنْ غَيْبِ مَلَكُوتِهِ بَأْثَارَ قُدْرَتِهِ مِمَّا لَا نَبَأَ عَنْهُ بِلِسَانِكَ الْفَصِيحِ، وَأَدْبِكَ الْفَسِيحِ، فَتَخْتَالُ هُنَاكَ بَيْنَ نِعَمٍ تَتَرَى، مُشَاهِدًا لاختلافِ هَذَا الْوَرَى، غَيْرَ خَائِبٍ إِذَا أَمَلْتَ، وَلَا مُحْرُومٍ إِذَا سَأَلْتَ، وَلَا مُرْدُودٍ إِذَا تَحَكَّمْتَ، وَلَا مَغْبُونٍ إِذَا عَامَلْتَ، وَلَا مَفْتُونٍ إِذَا سَاهَلْتَ.

هذه - عافاك الله - حالٌ مستغرقةٌ لكلِّ ما أنت آلفه، وراقيةٌ بكِ إلى حَدِّ أَنْتَ [٢٤ب]

(١) خلع عليه ثوبًا جديدًا: ألبسه إياه.

الآن مُفَارِقُهُ، إما بالظنِّ الحَسَن، وإما باليقينِ الذي ليس بعده يَقَن.

يا هذا! قَسِّ سِرِّكَ إِلَى عَلَانِيَتِكَ، فَإِنْ تَطَابَقَا عَلَى الْخَيْرِ، وَتَلَاقِيَا عَلَى الْإِخْلَاصِ، وَتَبَرَّأَا مِنَ الْعِلَاقِ وَالذَّوَاهِي، وَاسْتَنَّا عَلَى رَفْضِ الْعَوَاقِقِ وَالنَّوَاهِي، فَاعْلَمْ أَنَّكَ مُرَادٌ، وَلَكَ فِي تَوَجُّهِكَ مَرَعَى وَمَرَادٌ، وَإِنْ وَجَدْتَ بَيْنَ سِرِّكَ وَعِلَانِيَتِكَ نَفْرَةً الشَّكِّ، وَوَحْشَةَ الظَّنِّ، وَضَعْفَ الْيَقِينِ، وَقِلَّةَ الْمِرَاقَبَةِ، وَسَوْءَ الثَّقَةِ، وَكَأَبَةَ الْيَأْسِ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ مَطْرُودٌ عَنِ الْبَابِ، وَمَطْرُوحٌ مِنَ الْحِسَابِ، وَحَيْنُودٌ وَكُلُّ عَيْنِكَ بِالدُّمُوعِ، وَقِفْ جُمْلَتَكَ عَلَى الْخُضُوعِ، وَغَلْبِ عَلَيْهِمَا الْخُشُوعُ، وَالْهَجْجُ بِالنَّدَمِ عَلَى غَايَةِ الْوَلُوعِ، وَنَادِهِ مِنْ فَنَاءِ سِرِّكَ، بِالْإِفْتِقَارِ وَالْخُنُوعِ، مُسْتَسْلِمًا بَيْنَ النَّزَاعِ وَالنُّزُوعِ، لَعَلَّهُ يَجُودُ عَلَيْكَ بَعْدَ الْغُرُوبِ بِالطُّلُوعِ، وَيَشْعُبُ بِرَحْمَتِهِ لَكَ هَذَا الصُّدُوعِ، وَطُوبَى لَكَ إِنْ أَهْلَتَ لِهَذَا الْمَقَامِ الثَّانِي، بَعْدَ مَا فَاتَكَ مِنْ تِلْكَ الْمَغَانِي، وَطُوبَى لَكَ إِنْ يَسَّرَ لَكَ هَذِهِ الذَّرَائِعَ، الَّتِي بِهَا يُثَالُ مَا عِنْدَهُ مِنْ تِلْكَ الْبِدَائِعِ، وَطُوبَى لَكَ إِنْ أَوْفَقَكَ عَلَى بَابِهِ مُتَمَلِّمًا بِالنَّدَمِ، الَّذِي بِهِ يُصَابُ مَا لَدَيْهِ مِنْ صُنُوفِ الْكَرَمِ، وَطُوبَى لَكَ إِنْ قَالَ لَكَ: لِمَ خَالَفْتَنِي مُتَعَمِّدًا، فَتَقُولُ [٢٥أ] عِنْدَ ذَلِكَ: إِنِّي عَرَفْتُكَ رَحِيمًا مُتَعَمِّدًا، إِنَّهُ إِنْ أَلْهَمَكَ هَذَا الْجَوَابَ، فَقَدْ نَجَّكَ مِنَ الْعِقَابِ، وَأَهْلَكَ لِلثَّوَابِ.

يا هذا! كَمْ تَسْتَأْنِسُ بِالْخَلْقِ، مُسْتَوْحِشًا مِنَ الْحَقِّ؟ كَمْ تَسْتَعِينُ بِالْكَذِبِ، مُسْتَعْنِيًا عَنِ الصِّدْقِ؟ إِلَى مَتَى تَبْقَى فِي قَيْدِ الرِّقِّ كَأَنَّكَ جَاهِلٌ بِشَرَفِ الْعِتْقِ؟ إِلَى مَتَى تَخْسِرُ وَأَنْتَ لَا تَشْعُرُ؟ إِلَى مَتَى تُعْرِضُ وَهُوَ عَلَيْكَ مُقْبِلٌ؟ إِلَى مَتَى تَجْفُو وَهُوَ بِكَ بَارٌّ؟ إِلَى مَتَى تُقْصِي وَهُوَ عَلَيْكَ مُشْرِفٌ؟ إِلَى مَتَى تَعْتُرُ وَالْمَسْلُوكُ جَدَدٌ؟ إِلَى مَتَى تَهْزُلُ وَالْأَمْرُ جَدٌّ؟ إِنْ تَضَرَّرَ وَاللَّهِ إِلَّا نَفْسُكَ، وَإِنْ تَخْسِرَ إِلَّا رَوْحَكَ. لَيْسَ عَلَى الصَّدِيقِ إِلَّا أَنْ يَنْصَحَكَ، لَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَغْشَاكَ^(١). ذَاكَ إِلَيْكَ إِنْ قَبِلْتَ نُصْحَهُ، وَتَدَبَّرْتَ قَوْلَهُ، بَلْ ذَاكَ بِيَدِ اللَّهِ إِنْ اجْتَبَاكَ وَهَدَاكَ، وَأَوَّاكَ إِلَى كَنْفِ رَحْمَتِهِ وَنَادَاكَ، وَخَصَّكَ بِمَا خَصَّ بِهِ أَوْلِيَاءَهُ الَّذِينَ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.

يا هذا! إِنَّكَ فَرِيدٌ، لَيْسَ لَكَ أَبٌّ يَشْفُقُ عَلَيْكَ، وَلَا صَاحِبٌ يَنْظُرُ لَكَ، فَكُنْ بِنَفْسِكَ لِنَفْسِكَ، وَتَفَقَّدْ حَسَابَكَ [٢٥ب] بِهَمَّتِكَ، وَتَوَقَّ الْعَلَطَ بِجَهْدِكَ وَطَاقَتِكَ، وَاسْتَعْنُ بِمَنْ

(١) فِي هَامِشِ ل: خ: يَنْعَشُكَ.

تَنقُبُ به من أَهْلِ مَوَدَّتِكَ وَخُلَّتِكَ، وانظُرْ هذه الدارَ: أَدَارُ مَقَامَ فَتَسْكُنَ إِلَيْهَا، أَمْ دَارُ قُلْعَةٍ أَنْتَ مُزَعَّجٌ كَرَهَا عَنْهَا، فَإِنْ كَانَتْ الْأُولَى فَادْهَبْ سَادِرًا فِي سُرُورِكَ وَغُرُورِكَ، فَلَيْسَ يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ، وَإِنْ كَانَتْ الثَّانِيَةَ فَخُذْ فِي أَهْبَتِكَ قَبْلَ أَوَانِ فَجْأَتِكَ، فَكَأَنَّكَ بَكَ وَأَنْتَ تَقُولُ: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]، فَيَا لَهَا أَسَى وَأَسْفًا إِنْ تَرَكْتَ الْحَزْمَ وَالْإِحْطَايَا، وَيَا لَهَا رَوْحًا وَرُوحَةً: إِنْ أَذْرَكْتَ الْمُنَى بِالْإِغْتِبَاطِ. غَيْبٌ مُرْجَمٌ، وَقَوْلٌ مُجْمَعٌ^(١)، وَسِرٌّ لَيْسَ يُتْرَجَمُ^(٢)، التفسيرُ عَوِيصٌ بِالظَّاهِرِ الْمَعْرُوفِ، وَالْبَيَانُ عَزِيزٌ عَنِ الْبَاطِنِ الْمَعْطُوفِ، فَمَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ مِنْ مَعْدِنِ الْجَهْلِ، عَادَ بِالْيَأْسِ بَعْدَ التَّعَبِ، وَمَنْ هَتَكَ سِتْرَ الْغَيْبِ أَشْفَى بِهِ ذَاكَ عَلَى الْعَطَبِ، الْخَبْرُ رَاقِقٌ بِالْوَصْفِ وَالرَّصْفِ^(٣)، وَالظَّنُّ عَائِقٌ بِالْخَسْفِ وَالْعَسْفِ، فَإِنْ جَنَحْتَ إِلَى الْهَوِينَا صَبَّ عَلَيْكَ عِتَابُهُ، وَإِنْ رَدَدْتَ عِتَابَهُ أَذَاكَ عِقَابُهُ [٢٦أ] فَلَاحَالٌ إِلَّا وَهِيَ بِالْحَقِيقَةِ مُنْذِرَةٌ، وَلَا غَايَةَ إِلَّا وَهِيَ عَنْهَا مُحَذِّرَةٌ.

اقْبَلْ وَاحِدَةً: أَقِمْ حُدُودَ الْعِبُودِيَّةِ بِآدَابِ النَّفْسِ، ثُمَّ تَمَنَّ دَرَجَاتِ الْخُصُوصِيَّةِ بِحُلَاوَاتِ الْأَنْسِ، وَإِذَا وَلِيَتْ الْخُصُوصِيَّةَ فَاتَّبِعِ الصَّفَاءَ فِيهَا، وَإِذَا تَنَاهَيْتَ فِي الصَّفَاءِ فَخَفْ مِنْ حَالِ تَكُونِ بِهَا مُسْتَدْرَجًا، فَإِنَّ لِلَّهِ أَسْرَارًا فِي غُيُوبِهِ، وَغُيُوبًا فِي أَسْرَارِهِ، لَمْ يَلِجْ غَوَامِضُهَا بَشَرٌ، وَلَمْ يَبْزُرْ مِنْهَا خَبْرٌ وَلَا أَثَرٌ، وَأَيُّ عَجَبٍ مِنْ هَذَا وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَالْمَالِكُ لِنَوَاصِيهِمْ، وَالْمَصْرِفُ لِأَدَانِيهِمْ وَأَقَاصِيهِمْ، وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]: عَنَتْ لَهُ وَجُوهُ السَّرِّ وَالْإِعْلَانِ، كَمَا عَنَتْ لَهُ وَجُوهُ الْأَنْفُسِ وَالْأَبْدَانِ، وَعَنَتْ لَهُ وَجُوهُ الْأَعْمَالِ كَمَا عَنَتْ لَهُ وَجُوهُ الْأَحْوَالِ، وَعَنَتْ لَهُ وَجُوهُ الْأَفْعَالِ كَمَا عَنَتْ لَهُ وَجُوهُ الْأَقْوَالِ، فَلَا عَامِلَ إِلَّا وَعَمَلُهُ مَشُوبٌ، وَلَا قَائِلَ إِلَّا وَقَوْلُهُ مُرِيبٌ، تَفَرَّدَ بِالصَّافِي وَالْخَالِصِ، وَأَقَامَ كُلَّ مَنْ سِوَاهُ عَلَى دَرَجَةِ الْعَاجِزِ النَّاْقِصِ، لِيَكُونَ وَحْدَهُ إِلَهًا بِالْكَمَالِ، وَيَكُونَ غَيْرُهُ خَلْقًا عَلَى اخْتِلَافِ الْحَالِ بَعْدَ الْحَالِ.

إِلَهِنَا! [٢٦ب] عَرَفْنَاكَ مُنْكَرِينَ، وَأُنْكَرْنَاكَ عَارِفِينَ، وَلَوْ عَرَفْنَاكَ عَلَى الصَّحَةِ لَمْ نَخَالِفْكَ، وَلَوْ أَنْكَرْنَاكَ كُلَّ النُّكْرَةِ، لَمْ نَضْرِعْ لَكَ. فَصَفَّ - إِلَهِنَا - مَعْرِفَتَنَا مِمَّا يَشُوبُهَا مِنْ

(١) مجمع: غير مفهوم.

(٢) في الأصل: مترجم.

(٣) الرصف: الإحكام.

النكرة، وانفِ نُكْرَتَهَا من قَدَحِهَا في معرفتك حتى نُواصِلَكَ بمعرفة ذاتِ طمأنينةٍ إليك، ونعرفَكَ بمواصلة ذاتِ توكلٍ عليك، وحتى يكونَ نبأنا عنكَ بهذه المعرفة، وثقَّتْنَا بك على هذه المواصلة. فإنك متى جدتَ علينا بهذه الحالة أَعْنَيْتَنَا بك عَمَّنْ عداك، وأنْسَيْنَا كُلَّ ما أَلْفَنَاهُ من سِوَاكَ، وإنَّ الذي سألناكَ موجودٌ عندك، يسيرٌ عليك، فُجِدْ به منعماً، وأوصِلْهُ مُحْسِناً ومتمماً.

يا هذا! مدار هذه القصة، ذات الغصة، على أن تكونَ الأسرارُ نقيّةً فتُشَاهَد، وتكونَ الأرواحُ زكيةً فتُساعد، وتكونَ الأخلاقُ رضيةً فتراود.

يا هذا! من سمعَ بأذنه رَوَى، ومن حَضَرَ بقلبه دَرَى، ومن لحظَ بحقيقته رَأَى، ومن اعترضَ بحكمه نَأَى، ومن أَعْرَضَ عن كُلِّ شَأَى^(١).

يا هذا! طَهَّرَ عِلْمَكَ من الهوى، وبرَّئَ نَفْسَكَ من أنْ ترى، وتعدَّ [١٢٧] ما بينك وبينك، حتى تعلو وترقى، وتحفظَ ودائع الله عندك، فقد ائتمنَكَ عليها، والويلُ لك إن خُتِنَتْ فيها، وطوبى لك إن أَدَيْتَهَا على ما تَحَمَّلْتَهَا. كَسْ^(٢) في حَالِكَ فقد اخْتُبِرْتَ، وجانبِ الريبَ فقد ابْتُلِيتَ، ولقد لوطفتَ من وجهه، وعوندتَ من وجهه، فاثبتْ على حدِّ العلم بحقيقة الإخلاص، غيرَ جانحٍ إلى الفتور، ولا ذاهبٍ مع الغرور، فإن العينَ ذاكِيةٌ عليك منك، والفراسةُ صادقةٌ عنكَ لك، والرقيبُ يقظانٌ فيك معك، أنفاسُكَ تُحصى وأنتَ راقِد، وعشراتُكَ تُتْبَعُ وأنتَ غافل.

فيا أيها الساهي عما يُراد به، ويا أيها اللاهي عما يرشَّح له: أين العبرة الساكبة على الأيام السالفة؟ أين التحرُّمُ والعدة للأحوال المستأنفة؟ أين التلافي لما فات؟ أين التلهُّبُ لما هو آت؟ أين الامتعاضُ من هذه القاذورات؟ أين التخلُّقُ بهدي أهل الحفظ والديانات؟ أين التشبُّهُ بأهل البصائر والمشاهدات؟ أين التوقُّي من الأحوال والمُويقات؟ أين التَّنَجِّي عن التَّقَحُّمِ في الظُّلُمَاتِ بعد [٢٧ب] الظُّلُمَاتِ؟ أين التعرِّي من هذه الآفاتِ الواردة على الآفات؟ أين التصدِّي لهذه الغايات التي ليسَ وراءها غايات؟ أين التردِّي

(١) شَأَى: شأى القوم: بمعنى سبقهم. والمعنى لا يستقيم بها، ولعله «ثأى» بمعنى أحدث ثأياً: أي فساداً.

(٢) كَسْ: الأمر من كاس يكيس: كان ذو ظرف وفطنة.

برداء أهل الولايات والكرامات؟ أين التحدي للنفوس الآلفة لمواطن العذرات؟ أين الحياء من الإعراض عن الآيات بعد الآيات؟ أين مقت النفس عن ارتكاب الشهوات بعد الشهوات؟ أين الأخذ بالوثيقة في هذه الأحوال التي ليس لها ثبات؟ أين الإصغاء الحسن بحضور الفهم إلى هذه النغمات؟ أين التنزه بالصدق عن هذه الخساعات والنجاسات؟ بل أين أنت في حقيقتك عند سماع هذه الكلمات؟

ليت من أذن فهم، وليت من نظر أبصر، وليت من طلب وجد، وليت من قصد صادف، وليت من علم عمل، وليت من عمل أخلص، وليت من حضر قرب، وليت من قرع الباب دخل، وليت من استأذن وصل، وليت من توسل قبل، وليت من ادعى صحت دعواه، وليت من شكا سمعت منه شكواه، وليت من حن حن إليه، وليت من عاج عيج عليه!

[يا] هذا! قد تمنيت، فما لك من هذا التمني؟ هل حاصلك إلا على الأذى والتعني؟ وهل مرجعك إلا إلى الأسى [٢٨أ] والتظني؟

أيتهما النفس أجمل جَزَعًا إن الذي تحذرين قد وَقَعَا^(١)

اللهم! إننا قد لهجنا بهذه الوسوس والهواجس، شغفاً بذكرك، وتلذذاً بكل ما يكون خبراً عنك، وعلماً بأن ما بنا منك، وأن خلاصنا في يدك، ومقادنا تحت قدرتك، وتصرفنا على مشيئتك. وإن خالفناك في أمرك ونهيك، فارحمنا بفضلِكَ، وأدقنا برّد عَفْوِكَ، واكنفنا بجناح رَأْفَتِكَ، وأرحنا عن قَصْدِكَ، واجلنا بكرامتك على خَلْقِكَ، وأبرد غُلَّتْنَا اللاهية بالنظر إلى وجهك، وأهلنا لسلامك وتحييتك، واسقنا الصِّرف من مَحَبَّتِكَ، وكنْ عَلَمْنَا نهتد بك، ونور قلوبنا ببصائر حكمتك، وخفف علينا ثقل عبادتك، وحَيِّ وُجُوهنا برضوانك، وقلِّبنا في أثْناء مَنِّكَ، وابللنا من سماء رَحْمَتِكَ، وآتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة بك، إنك أنت المَنَّان الوهوب.

(١) البيت لأوس بن حجر (ديوانه: ٥٣) تحقيق محمد يوسف نجم - دار صادر - بيروت.

يا هذا! لا تهملْ هذا الفنَّ من الدعاء، ولا هذا النَّمطَ من الثناء، فإنهما يحلّيانك بحليةٍ إذا طلعتَ [٢٨ب] بها كنتَ للعالمِ زينةً، وللخلايقِ رَحمةً، وللقلوبِ راحةً، وللنفوسِ طمأنينةً، وللعيونِ جلاءً. واجتهدْ أن تكونَ من أولياءِ الله المخلصين، وإلا فمن أحبّائه المقربين، وإلا فمن خَدَمِهِ المندوبين، وإلا فمن السُّفراءِ المكرَّمين، وإلا فمن المتعرِّضين السائلين، وإلا فمن الذاكرين المستبشرين، وإلا فمن اللائذين المتحرِّشين^(١)، وإلا فمن الراجين المؤمِّلين، وإلا فمن المقاربين المُتَشَبِّهين، وإلا فمن المُذْعِنين المُتَمَلِّقين، وإلا فمن التابعين المُفْتَقِرِينَ، وإلا فمن الباكين المحرومين، وإلا فمن المَطْرُوحِينَ المَرْحُومِينَ. اللهم! إِنَّا نسألكَ أنْ تحوّلَ بيننا وبينَ أَنْفُسنا الناظرةِ إلى غيرك، وتفرِّقَ بيننا وبين العيونِ التي تمتدُّ إلى سِوَاكَ، ونسألكَ أنْ تفعلَ بنا ما أَنْتَ أَهْلُهُ، فَإِنَّكَ أَهْلُ العَفْوِ والإِحْسَانِ، والصفحِ والامتنانِ، والتجاوزِ والغفرانِ. يا ذا الجلال والإكرام.

(١١)

خُتِمَتِ النُّبُوءَةُ مِنَ الْإِشَارَاتِ الْإِلَهِيَّةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إذا ذكرتَ معاهدَ الأحبابِ في جنحِ الظلامِ، فانظرْ نظامَ دَمْعِكَ بالحزنِ والاعتمادِ، فقد قال القائلُ قَبْلَكَ لِمِثْلِكَ:

إذا أَنْتَ لَمْ تُنْضِجْ جَـوَاكَ بِعُبْرَةٍ غَدَا فِي التَّمَادِي أَوْ طَغَى فِي التَّسْعُرِ

وفي انسكابِ ماءِ العيونِ راحةً لقلبِ الهائمِ المحزونِ، وفي الوقوفِ على دوارِسِ الأطلالِ تجديدٌ لتخيّلٍ ما أخلَقَ من الأحوالِ، وفي إعادةِ أحاديثِ الأحبابِ توصيلٌ لما تَقَطَّعَ من الأسبابِ.

(١) كذا في الأصل، ولعل صوابه: «المتحرِّشين».

يا هذا! إِنَّكَ لَنْ تَنَالَ مُنَاكَ فِي هَوَاكَ حَتَّى تُرَى بِحَبْلِ الصَّبْرِ مَرْبُوطًا، وَبِنَارِ الْفَقْرِ مَكْشُوطًا، وَفِي بَحْرِ الْبَلَاءِ مَغْطُوطًا، وَعَنْ رَتْبَةِ أَهْلِ الدُّنْيَا مَحْطُوطًا، نَعَمْ، وَلَنْ تَلْحَقَ السَّابِقِينَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْقِصَّةِ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَغْضِي عَلَى كُلِّ غُصَّةٍ، تُصِيبُكَ فِي هَذِهِ الْعَرِضَةِ، غَيْرَ أَنَّ^(١) عَلَيْهَا، وَلَا بَرَمَ بِهَا، وَلَا مُعْتَرِضٍ عَلَى اخْتِيَارِ اللَّهِ بِاخْتِيَارِكَ فِيهَا.

يا مسكين! لَمَّا تَكَامَلَ فِي تَصَارِيفِ الدَّهْرِ احْتِنَاكُكَ، وَتَوَالَى عَلَى غَرَائِبِ الْجَائِكِ [٤٥] وَإِسْرَاجُكَ، طَالَ فِي الْغَيِّ انْهَمَاكُكَ، وَفِي غَمْرَةِ الْجَهْلِ ارْتِبَاكُكَ. مَا أَقْبَحَ بِالْشَيْخِ أَنْ يَغْلُطَ غَلْطَ الشَّبَابِ، وَمَا أَسْمَجَ بِذِي الْبَصِيرَةِ أَنْ يُحَوِّجَ إِلَى الْعِتَابِ، وَمَا أَحْسَنَ مِنْ لَهُ لِبَابَةٍ^(٢) أَنْ يَرْجِعَ إِلَى حَظِّهِ مِنَ الْفَائِتِ، وَمَا أَجْمَلَ بِمَنْ لَهُ اعْتِبَارٌ أَنْ يَسْتَأْنِفَ رَأْيَهُ فِي الْمَتَوَقَّعِ، وَمَا أَوْلَى مَنْ لَهُ عَيْنٌ تَلْحَظُ، وَنَفْسٌ تَحْفَظُ، أَنْ لَا يَكُونَ مِثْلُهُ مِثْلَ الْبَقَرَةِ الَّتِي أَثَارَتِ الْمَدِيَّةَ بِقَرْنَيْهَا فُذِّبَتْ بِهَا، وَقَدْ قِيلَ: «إِنَّ الشَّقِيَّ بِكُلِّ حَبْلٍ يُخَنَّقُ»^(٣).

أيها الجاهل! أَلَا أَرَاكَ قَدْ ثَنَيْتَ عَنِ الْحَقِّ عَطْفَكَ، وَاعْتَزَزْتَ بِضَجِيجِ الْحَشَمِ خَلْفَكَ، وَرَاقَتَكَ مَوَاكِئِكَ، وَرَاعَتَكَ مَرَائِكُكَ. أَظُنُّتَ أَنَّ مَا انْتَقَلَ إِلَيْكَ لَا يَنْتَقِلُ عَنْكَ، فَإِذَنْ لِمَ [إِذَا] انْتَقَلَ فِي الْأَوَّلِ كَانَ لَا يَنْتَقِلُ فِي الثَّانِي؟

مَا أَشَدَّ كَيْدَكَ لِنَفْسِكَ، وَمَا أَكْثَرَ إِيْقَادَكَ لِنَارِكَ عَلَى رُوحِكَ، وَمَا أَخْبَطَكَ فِي عَمَائِكَ، وَمَا أَبْعَدَكَ عَنْ أَنْبَائِكَ! لَيْسَ لِرِيحِ الْإِيمَانِ فِي صَدْرِكَ هُبُوبٌ، وَلَا لَكَ مِنْ حَقَائِقِ الْيَقِينِ نَصِيبٌ، فَكَأَنَّكَ بِهَاتِفٍ لَا تَرَاهُ قَدْ مَلَأَ سَمْعَكَ هَوًّا، وَأَوْرَدَ عَلَيْكَ قَوْلًا، فَقَالَ: يَا رَضِيعَ الدُّنْيَا قَدْ آنَ فِطَامُكَ، وَيَا ضَجِيعَ الْهَوَى قَدْ حَانَ قِيَامُكَ، وَيَا [٤٥ ب] صَرِيعَ الشَّهَوَاتِ قَدْ دَنَا حِمَامُكَ، فَأَيْنَ إِشْعَارُكَ لِقَلْبِكَ هَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ، فَعَسَاكَ تَجِدُ بِهِ بَعْضَ مَا يُلِينُ قَاسِي كَبِدِكَ، وَبَعْضَ مَا يُقِيمُ رَاسِي أَوْدِكَ. فَإِنْ كُنْتَ عَاجِزًا عَنْ هَذَا الْإِشْعَارِ، فَلَا تَعْجِزْ عَنْ سَمَاعِهِ مِنَ الْأَخْيَارِ الَّذِينَ يَصَدُقُونَ أَمْثَالَكَ مِنَ الْأَخْبَارِ، فَإِنَّكَ إِنْ حُرُمْتَ هَذَا طُمِسَتْ صِفَاتُكَ فِي سِمَاتِكَ،

(١) آَنَ: بِأَلِفٍ، مِنْ أَنْ أُنْيَا.

(٢) لبابة: مصدر لَبَّ: صار ذا عقل، أدرك وميز.

(٣) جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري (١/١٣٧).

وبادتُ سِمَاتِكَ فِي صِفَاتِكَ، وَصَرَتْ أَذَلُّ مِنْ كُلِّ ذَلِيلٍ، وَغُدَّتْ أَقَلُّ مِنْ كُلِّ قَلِيلٍ، فَاللَّهُ فِيكَ، فَإِنِّي لَكَ مُتَّبِعٌ نَاصِحٌ، وَأَنْتَ مُمَوِّهٌ كَاشِحٌ، وَأَنَا لَكَ صَدِيقٌ مُتَلَطِّفٌ، وَأَنْتَ لِنَفْسِكَ عَدُوٌّ مُتَعَجِّزٌ.

حَدَّثَنِي: مَا الَّذِي يَحْجُبُكَ عَنْ بَابِ اللَّهِ وَهُوَ مَفْتُوحٌ؟ وَمَا الَّذِي يُبْعِدُكَ عَنْ فَنَاءِ اللَّهِ وَهُوَ فَسِيحٌ؟ وَمَا الَّذِي يُؤْيِسُكَ مِنْ خَيْرِهِ وَهُوَ مَبْذُولٌ؟ وَمَا الَّذِي يُفْعِدُكَ عَنِ السَّفَرِ إِلَيْهِ وَهُوَ مُمَكِّنٌ، وَمَا الَّذِي يُوحِشُكَ مِنْ طَاعَتِهِ وَهُوَ قَابِلٌ؟ وَمَا الَّذِي يَمْنَعُ مِنَ الْإِصْغَاءِ إِلَيْهِ وَهُوَ دَاعٍ؟ وَمَا الَّذِي تَخَافُ ضَيَاعَهُ مِنْكَ وَهُوَ رَاعٍ؟

أَمَّا دَعَاكَ فَطَلَفٌ؟ أَمَّا كَلَفُكَ فَخَفَفٌ؟ أَمَّا مَلَكُكَ فَصَرَفٌ؟ أَمَّا هَذَاكَ فَعَرَفٌ؟ أَمَّا سَأَلْتُهُ فَأَسْعَفٌ؟ أَمَّا أَمْسَكَتَ عَنْهُ فَاتَّحَفَ؟ أَمَّا عَصِيَّتُهُ فَسَتَرَ؟ أَمَّا أَطَعْتُهُ فَشَكَرَ؟ أَمَّا ذَكَرْتَهُ [٤٦] فَذَكَرَ؟ أَمَّا أَخْفَيْتَ شَأْنَكَ فَنَشَرَ؟ أَمَّا عَثَرْتَ مَوْلِيًّا عَنْهُ فَتَعَشَّ (١)؟ أَمَّا تَوَجَّهْتَ إِلَيْهِ فَحَيَّا وَبَشَّشَ؟ أَمَّا سَلَوْتَ عَنْهُ فَشَوَّقَ؟ أَمَّا حَضَرْتَهُ فَتَوَجَّجَ وَطَوَّقَ؟ أَمَّا انْقَبَضَتْ عَنْهُ فَبَسَطَ؟ أَمَّا احْتَشَمْتَ مِنْهُ فَنَشِطَ؟ أَمَّا تَعَبْتَ لَهُ فَأَرَّاحَ؟ أَمَّا اقْتَرَحْتَ عَلَيْهِ فَأَتَّاحَ؟ أَمَّا اسْتَوْحَشْتَ فَأَنَسَ؟ أَمَّا اسْتَقْبَسْتَهُ فَأَقْبَسَ؟ أَمَّا جَهَلْتَ فَعَلَّمَ؟ أَمَّا امْتَحَنْتَ فَسَلَّمَ؟ أَمَّا ذَلَلْتَ فَعَزَّزَ؟ أَمَّا انْكَشَفَتْ فَأَحْرَزَ؟ أَمَّا خَمَلْتَ فَنَوَّهَ؟ أَمَّا دَنَسْتَ فَنَزَّهَ؟ أَمَّا رَمَدْتَ فَكَحَلْ؟ أَمَّا طَلَبْتَ فَتَحَلَّ (٢)؟ أَمَّا قَرَعْتَ بَابَهُ فَفَتَحَ؟ أَمَّا التَّمَسْتَ بَرَّهُ فَمَنَحَ؟ أَمَّا تَاجَرْتَهُ فَأَرْبَحَ؟

فَإِذَا كَانَتْ أَيْدِيهِ عِنْدَكَ قَدِيمَةً، وَجَنَائَاتُكَ عِنْدَهُ حَدِيثَةً، كَيْفَ تَقُولُ؟ وَبِمَ تَحْتَنِجُ؟ وَعِلَامٌ تَعْتَمِدُ؟ هَيْئٌ لِي حَدِيثُكَ، وَتَبَيَّنِي عَنْ خَبْرِكَ، وَاعْرِضْ عَلَيَّ سِرَّكَ، وَائْتَمِّنِي عَلَى نَفْسِكَ، فَمَا لِي فِي غَشِّكَ أَرْبٌ، وَلَا لِي فِي ذُلِّكَ عِزٌّ، إِنَّمَا أَنَا أَنْتَ، لِأَنَّ تَنْبِيْهِي لَكَ تَنْبِيْهُ مَنِيْ بِكَ، وَتَعْرِيفِي إِيَّاكَ تَعْرِيفٌ بِيْ فِيكَ. فَكَلَامِي وَإِنْ كَانَ لَكَ فَهُوَ لِي، وَسَمَاعُكَ وَإِنْ كَانَ بِكَ فَهُوَ بِي. وَإِذَا اشْتَرَكْنَا فِي الْمَرَادِ الْأَقْصَى، فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُتَقَصَّصَ، بَلِ التَّسَهُّلُ أَرَدُّ عَلَيْنَا، وَأَرْجِعُ بِالْفَائِدَةِ إِلَيْنَا.

(١) أَنَعَشَهُ اللَّهُ: شَدَّ مِنْ عَزَمِهِ وَقَوْتِهِ. وَأَنَعَشَهُ مِنْ كِبَوْتِهِ: أَنَهَضَهُ.

(٢) نَحَلَّ: أَعْطَى.

يا مسكين! دع هذا أيضًا واشهد عينا قد ملكت العيون، وقسمت الظنون [٤٦ب] وجلبت المنون، واستغرقت الفنون، واستولى على كل ما كان وكل ما يكون.

يا هذا! لو دبّت حلاوة هذه الصفات في مُشاشك^(١)، وجدت برّد ما أقول، وصعدت نحو ما تسمع، وكُنيت الإصاحّة إلى لفظٍ محبّر، وإعرابٍ متخير، ومثل مُسير، وبيتٍ متدبّر، وكنت إذ ذاك محدثًا بالغيب، بلا شك ولا مرية ولا ريب.

بالله! أما يباشر صميم فؤادك نسيم هذا النظم والنثر؟ أما يصل إلى قرار روحك أثر هذا الصوب والقطر؟ أما يصل إلى سرك طيب هذا الندد^(٢) والعطر؟ أما يصرف قلبك عن السكون في هذا البلد الممتلئ بالحاجة والفقر، والغدر والمكر؟ بلى والله، إنك لبعرض ذلك، ومهزوز في الجملة إلى ذاك، ولكن عليك بقايا منك، وفيك بلايا بك، منها: شبابك البهيج، وقرينك المخاتل، وعادتك الفاسدة، وأدبك السيئ، وشهوتك الحاضرة، وشيطانك المجاور، ونفسك المفتونة، وطريقتك الملعونة، وأمانيك الغالية، وآمالك الطالبة، وأهواؤك السالبة، وأحوالك العاطية. فجرّد- عافاك الله- عزمة من عزمات ذوي الجدد والتشمير، وانسلل [٤٧أ] من صفاتك هذه بمجانبة التعذير والتقصير، وارغب بنفسك عن كل نقيير وقطمير، وتقدم بجهدك أمام كل غير ونفير، وإنما هي نفس يتقطع بالحسرة، ونفس تتقد كالجمرة، وشمل ينصدع كل يوم بفراق حبيب، وبأل ينخزل في كل ساعة بشاهد رقيب، فليس لما يُذاق طعم، ولا لما يرى نور، ولا لما يُملك ثبات، ولا لما يُسمع رونق، ولا لما يُصحب وفاء، ولا لما يوجد بقاء، ولا لما يُجلب نماء، ولا لما يُحاز إناء، ولا لما يُكسب سناء.

فإذا كانت هذه العبرة صحيحة، وهذه العبارة فصيحة، وهذه الصفة نصيحة، فلم يُجتاز عليها بلا وقفة ولا توءدة؟ ولم يُتباع عنها بلا نظر ولا فكرة؟ ولم يُظن أن التواني يُعقب ظفراً؟ والتقصير والتحقيق يحقق خبراً أو أثراً؟ لا والذي خلق فسوّى، وقدر فهدى،

(١) المشاش: العظم لا مخ له.

(٢) الندد: نبات عوده له رائحة طيبة يُتبخّر به.

وملك الآخرة والأولى، حتى تَمُضَّعَ الصبرَ في مرارته فتجد حلاوته، وحتى تَصَلَ غدوتك بروحتك في قَصْدِهِ، وحتى تهجرَ مهادَكَ الوثير، وشرابَكَ المطرب، وثوبَكَ الناعم، وحبيبَكَ المألوف، [وحتى] تنماز^(١) منك، وتَتَحَوَّلَ عنك، أعني حتى تفارقَ كُلَّ ما عرفت، وتباينَ كُلَّ ما ألفت، وأنتَ بعد هذا كله على خطر: [٤٧ب] ناقشك من تَقْدُم عليه، أو عاتبك من تتوجَّه إليه.

أتريد أن تتخلصَ من آفات هذه الدار، وتصيرَ إلى محل الطمأنينة والقرار، بلا إنذار ولا إعذار، ولا إخبار ولا استخبار، ولا اذكار ولا استذكار، ولا جدُّ في الليل والنهار، ولا إعدادٍ لزدٍ في قَطْعِ المهامِ والقفار، ولا أخذٍ بالوثيقة بالإعلان والإسرار، ولا خلعٍ للعدار بعد العذار، في طلبِ الرضى عند الجبار؟ يقعُ لي أنك حمارٌ أو كالحمار!

يا مسكين! لا تَيَهَّنْ في أودية المقال، عن سلوكِ الطريق إلى الأحوال، فإنك إن تُهتَ هكذا، بقيتَ في ضُروب الأذى، مسدودَ الأمام محجوبَ الخلف، حَرَجَ اليمين ضَيَّقَ الشمال، لا آخذ بيدك، ولا رافعَ لقدمك، ولا مشفقَ عليك منك، ولا رادَّ لما لك عليك.

على أن هذا القول وما هو زائد عليه - في جَنَبِ لُطْفِ رَبِّكَ - كهباءٌ منشور في فضاء لا يلحقه حسٌّ، ولا يؤثر في وهم ولا حدس، إنك بعين من إذا شاء عَطَفَ عليك، وأقبل إليك، وقلبَ عينك، وشرَّفَ كونك، وأراك منك غيرَ ما عهدته، وأبدى فيك على خلافٍ ما شهدته؛ لأنه في الأولِ تولَّى اختراعَكَ [٤٨أ] وتكوينَكَ، ثم وهب لك تحريكَكَ وتسكينَكَ، ثم أفاضَ عليك تأييدَكَ وتمكينَكَ، ثم جمعَ لك تحسينَكَ وتزيينَكَ، هذا بعدما أبرزَ تعيينَكَ وتلوينَكَ. أفتراه مع هذه السَّوالفِ من العوارف، لا ينقذك من المخاوفِ والمتالفِ؟ بلى وَحَقُّه الذي لا تقلُّه الأرضُ، ولا تزُنُّه السماءُ، ولا تحملهُ الجبالُ، ولا تبين فيه البحارُ، إنه ليفعل ذلك ويزيد، ويبلغُ غايةً ما عليها مزيد، فَثِقِ الآنَ ثَقَّةً لا تخالطها رية، حتى تجدَ في أحوالِكَ كلها طيبةً ليس فوقها طيبة.

(١) تنماز: انماز الشيء: انماز الشخص مطاوع ماز: امتاز، انفصل وانعزل عن غيره.

يا قوم! ألا راع لسابح ناله من أقدارِ هذه الدنيا؟ ألا ناظرٌ في روزنامجه^(١) الذي قد ملأه بالخسارِ والدمارِ؟ ألا محاسبٌ لنفسه فيما يكسبه في بساطِ هذا الليل والنهار؟ ألا مشتاقٌ إلى ما أعدّه الله من أنواع الخير للأبرار؟ ألا راحمٌ لروحِه من التعرضِ لغضبِ الله العظيم الجبار؟ ألا غاضٌّ لطرفه عما حرّمهُ الله عليه بالإعذار والإنذار؟ ألا مستنكفٌ من ملابسةِ أخلاقِ الفساقِ والفسّارِ؟ ألا مقلعٌ عن كِبيراتِ الذنوبِ وصغیراتها بتحقيقِ النَّدَمِ والاستغفار؟ ألا معدّبٌ لسماعِ كلامه وقرآنِه في أوقاتِ الأسحارِ؟ ألا نازعٌ لوطنه الجامعِ لِقُرّةِ عينه [٤٨] الذي هو وَطَنُ السكونِ والقرارِ؟ ألا مُفِيضٌ من عبرته شوقاً إلى النجاةِ من هذه الأوضارِ؟ ألا مجيبٌ لدائِي على هذا الاحتياطِ والاستظهارِ؟

فسبحان الله ما أخلا الطريقَ إلى الله، وما أغفلَ الخلقَ عن الله، وما أغرَّ العبادَ بالله، وما أجهلهم بحقِّ الله، وما أزهدهم في حظِّهم من الله! أيُّ بلاءِ جَثَمَ على الصدورِ؟ أيُّ شيطانٍ غرَّهم باللهِ الحَمِيدِ الشَّكورِ؟ أيُّ آفةٍ دخلتْ عليهم في هذه الأمورِ؟ أما يرونَ حوادثَ الدهورِ؟ أما يسمعونَ هذه القوارعَ بين الخفاءِ والظهورِ؟

عزَّ واللهِ عليَّ: خُتِمَتِ النبوةُ، وَرُفِعَتِ الخلافةُ، وأُهِمِلَ الأمرُ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ، وفُتِدَ المحدثونَ بالغيبِ، وعُدِمَ المجتنبونَ للعبِ، واصطلحَ الناسُ على الشكِّ والرَّيبِ، وفارَقَهم من الله العزيزِ العصمةُ، وبعُدَتْ عن عامِّهم وخاصِّهم الرحمةُ، واستحقُّوا بكلِّ وجهٍ وسببٍ النِّقمةَ. فلهذا وشبهه قَسَتِ القلوبُ، وخَبِثَتِ الأخلاقُ، واختَلَّتِ الموداتُ، وفسدتِ الاعتقاداتُ، وساءتِ الآدابُ، وقبحتِ المعاملاتُ، وفشتِ المجانناتُ^(٢)، وكثرتِ الخياناتُ، ونَشِبَتِ^(٣) الأماناتُ، وإذا قلتَ لأحدهم: اتقِ الله وراقِبْه وخَفْ [٤٩] يومَ القيامةِ، واستحي من مليكك، والحسابُ بين يديك،

(١) روزنامج: معرب (روزنامه) سجل لأيام السنة، يتضمن أحوال شهور السنة وطلوع الشمس والقمر.

(٢) المجاننات: مَجَنَّ يَمُجِّنُ مَجُونًا ومجانة: مزح وقل حياة، خلط الهزل بالجد.

(٣) كذا وردت، ونشِبَ في الشيء: علق به، ونشِبَ في السلعة: اقتناها، اشتراها. وعلى ذلك يكون التأويل أن الأمانة صارت غنيمة لا ترد. ويمكن أن تقرأ «نسيبت».

ولا بدَّ من الجزاء، وليس الأمر سُدى، وما خُلقت عبثاً، ولا تُركت مسيَّباً، تضاحك واستهزأ وقال: قد سمعنا هذا كثيراً، ومن هذا الذي رجع من القبر؟ ومن عرف ما يكون من بعد؟ ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧] ﴿وَمَا يَهْدِيكُمْ إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] هذا وما أشبهه، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون!

ما أحلم ربَّنَا: لقد أمهل كأنه أهمل، وسوف يأخذ كأنه لم يترك. الويل لمن اغترَّ بالله، الويل لمن باءَ بغضب من الله، الويل لمن آمنَ مكرَ الله، الويل لمن لم يخف بأسَ الله. إنه لا يقوم لغضبه جبل راسٍ، ولا بحرٌ زاهر، ولا سماءٌ عريضة، ولا أرضٌ أريضة^(١)، ولا ريحٌ عاصف، ولا هواءٌ واقف.

فإن كنتَ، أيها الإنسان، تعرف ربَّك حقَّ معرفته، فأنبِ إليه، ولذَّ به، واستغفر مما كسبت يداك، وسعت إليه قَدَمَاك، وغريت به عيناك، وأولعت به أذُنَاك. وإن كنتَ لا تعرفه، فالويل لك مضاعفٌ، والبلاءُ عليك مرادف.

يا مسكين! انظر إلى شُلُوك^(٢) الضعيف، وإلى ركنك الواهن، وإلى عروقتك الرقيقة، وإلى عظامك الخائرة، وإلى أخلاقك المتطايرة، وإلى نفسك المهينة، وإلى [٤٩ب] روحك المسكينة، وإلى جملتك المستكينة.

اللهم! رَحِمَتِكَ نرجو، وعدلك نخشى، وفضلُك نبتغي، وإياك نعبد، وعليك نُثني، وعنك نُنبئ، وإليك ندعو، ومعك نهْدأ، وآلاءُك ننشر، وأياديك ننثر، وعزَّك نصف، وحقُّك نعرف، وبابك نلزم، وبحبك نعتصم، وعلى كل حال: إليك ننتسب، ولك نحتسب ما نحتسب، فلا تُرسلنا من يديك، ولا تكلنا إلى عدوك، ولا تُولِّ أمرنا غيرك. ما اغتررنا بك، ولكن أحسنَّا الظنَّ بعفوك، ما اجترأنا عليك، ولكن اطمأنَّت قلوبنا بفضلك، ما تعمَّدنا لسخطك ولكن استرسلنا مع قوة الرجاء فيك. خالفناك ولكن [على] قلق، وجانبناك ولكن على فَرَق، ورقدنا عنك ولكن بعد أرقٍ وأرق، فارحمنَّا، يا ذا الجلال والإكرام.

(٢) شُلُوك: الشلو: العضو، الجمع أشلاء.

(١) أريضة: كثيرة الرياض.

(١٤)

العدوة القصوى من الإشارات الإلهية

اللهم! إن [كان] سَرَحُ توحيدنا مُحَمًى بالاعتراف، وإن كان رَبُّ عالمنا مَنتهَباً بالاقتراف، فاردد علينا ما فاتنا بالاقتراف بحرمة ما صُنَّاه بالاعتراف، فإنك ذو أَلطافٍ بأهل الإسراف، وبعد وقبل: فاقطع كلَّ علاقة [٥٤أ] بيننا وبين الكاذبين عليك، وصلِّ بيننا وبين الصادقين عنك، حتى نمتار منك الخير كله، فنستجيب لك استجابةً، ليس بعدها استجابة. يا هذا! أبشِرْ بالوصولِ إذا أُهِّلْتَ للقبول، واطوِ الطريق إذا استأنست بالرفيق، وادخل في الملاء الأعلى، إذا خَرَجْتَ من خسائس الدنيا، وثق ببلوغ المقصد، إذا لزمْتَ فناء المرصد، واسكنْ إلى عجائب الغيب، إذا عَرِيتَ من مدانس العيب، ومهما نَشَرْتَ^(١) عليك صفاتك الدنيَّة فاقمَعها بسلطان النفس القويَّة، ومهما ارتبت بشيءٍ فلا ترتابنَّ بأنك مطلوبٌ ها هنا، ومطالبٌ هناك، فلا فوتَ لك إذا طلبت، ولا رفقَ بك إذا طولبت، وانظر ما أنت، ومن أنت، ومماذا أنت، وفيماذا أنت، وعلى ماذا أنت، وإلى ماذا أنت، وبماذا أنت، ولماذا أنت، فإنك إذا قَلَبْتَ هذا منك بيني وبينك، حكمتُ بالحقِّ لك وعليك، فحينئذٍ تَسْتَوْضِحُ أمرك، وتستقري حُجَّتَكَ وعُدْرَكَ، وتقفُ على ما يُشيعُ ذكرَكَ، ويرفعُ قَدْرَكَ، فتعلم أنك محبوبٌ بزينة الإيمان، مكرَّمٌ بحقائق الإيقان، مخصصٌ بأسرار لا تضمحلُّ بين الخَبَرِ والعَيان؛ لأنَّ العيان [٥٤ب] يَسْمُكُ بك، ويُظْهِرُكَ لك، والخَبَرُ يَنبِيكَ عنك، ويُطْلِعُكَ عليك، حتى إذا استوفيت هذه الحدود، وتَجَرَّعتَ مرارة الهجران والصدود، بَرَقَ لك عارضٌ يخطفُ بصرَكَ، وفاءً عليك فنَّ يستغرقُ بصيرتك، فحينئذٍ إن أُخْبِرْتَ صُنَّتُهُ، وإنِ اسْتُخْبِرْتَ كُنَّتُهُ.

أندري ما تسمع؟ أم تحفظ ما تُودِعُ؟ أوه! لفظٌ يرقُّ بترتيب الحروفِ والسَّماتِ، ومعنى

(١) نُشِرَتْ: هاجت.

يدقُّ عن كلِّ جليلٍ ودقيقٍ من الصِّفات!

يا هذا! دعني من هذه الهفوات، فقد تُهتُّ في أرجائها بين الهَنَاتِ والهَنَاتِ، طالباً قُرْبَهُ بالصوم والصلاة، والغزو والزكاة: فَصُومِي عَزُوفِي عن الدنيا، وصَلَاتِي نَظْرُ بَعِينِ المراقبةِ إلى العُدُوِّ القُصُوى، وعَزُوفِي وجهادي مع الأنفُسِ الآلِفَةِ لمواطنِ الآفاتِ والبلوى، وزكاتِي إخراجي كُلِّي إلى مَنْ هو أَمَلُّكَ لي وبه أَوْلَى، فهل لك يا هذا من النعماتِ سرٌّ أو نجوى، أو أنت من الذين يَرْعَوْنَ في هذه الساحةِ العلقمِ والدفلى؟ فإن كان لك من الأولِ نصيب، فأنت مُرَادٌ للمؤانسةِ بالحضرة، ومأذونٌ لك في الانبساطِ بكل ما في نفسك من حجة أو عذرة، وإن كان حظك من الثاني، فأنت والله الساقطُ من عينِ الله [٥٥أ] الهابطُ في مقتِ الله، المصافي لعدوِّ الله، المعادي لوليِّ الله، المغترُّ بحلمِ الله. فلا تغفل - عافاك الله - ولا تفعل - أعانك الله - فإنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ، يُمِهِّلُ ولا يُهْمِلُ، كيده متين، واستدراجه مكتوم.

حدثني: قد قربَ العيدُ فما الذي هيأتَ له مما تلبسُهُ وتبرز به، وتجلو ظاهرك فيه، وتجعله عنوانَ باطنك عنه، أمَّا غيرُك فإنه قال:

قالوا: غدا العيدُ^(١) ماذا أنت لابسُهُ؟ فقلتُ: خَلَعَةً سَاقٍ حَبَّةُ جُرْعَا
صَبْرٌ وَفَقْرٌ هُمَا ثَوْبَايَ، بينهما قَلْبٌ يَرَى حَبَّةَ الأعيَادِ والجُمُعَا
أنت الضياءُ وأنت النورُ يا أَمَلِي والعيدُ ما كنتَ لي مرأى ومستمعَا
أحرى الملبسِ أن تلقى الحبيبَ به يومَ الزيارة في الثوب الذي خَلَعَا
لا كنتُ إن كان لي قَلْبٌ يحنُّ إلى حَبِّ سَوَاكَ ولو قَطَعْتَنِي قِطْعَا
يا هذا! اعمُرْ رِبَاعَ الدينِ باليقين، واهجرْ في مواصلةِ الحقِّ كلَّ غَثٍّ وسَمِينٍ، وإياكَ أن
تتشبَّهَ بقومِ عمين^(٢).

(١) يقصد: غداً العيد.

(٢) عمين: قال نفوطيه: يقال عَمِي فلان عن رَشْدِهِ وعَمِي عليه طريقه إذا لم يَهْتِدِ إليه. ورجل عَمٍ وقومِ عمون، قال: وكلما ذكر الله جل وعز العَمِي في كتابه فذمُّه يريدُ عَمَى القلب، (لسان العرب).

يا هذا!

انظر لنفسك يا شقي حتى متى لا تتقي^(١)
أو ما ترى الأيـامَ تخـ تلس النفوس وتنتقي؟
كـم من أخ أغمضـه^(٢) بيدني نصيحـح مُشـفـق
ويئسـت منه ولـسـت^(٣) أطمـع أن يعود فلنلقي
لا تُكـذـبـنَّ فإنـه ما^(٤) يجتمع يتفرق
[٥٥] والموت غاية من مضي منّا وغاية^(٥) من بقي

اللهم! إن هواجسنا ووساوسنا لا تبدو إلا بتأييدك ومعونتك، فاحفظها علينا، واحفظها فينا، بلطفك، وقرّب مسافة ما بيننا وبين قلوبنا وأفعالنا، لنشير إليك مخلصين، ونتوكل عليك واثقين، وننشر أياديك متبجحين، ونستألف القلوب على محبتك مجتهدين، ونصرّح ونكفي عن خوافي حكمتك معتبرين، ونسمع ونجيب كما أمرت ممثلين، ونشهد ونغيب في ملكوتك متيقنين ومتحيرين.

يا هذا! تحيّر بك لتكون آيتك في نقصك من حيث أنت، وتيقنك به لتكون آيتك في كمالك من حيث هو، فتأمل صنع الله لك، وتصفّح نعمته عليك، تجد ما أحرّك به سبباً للتقدم عنده، وما سلبك به باباً لتلمس به رفده. فسبحانه ما أغرب أفعاله، وأعجب أشكاله، ولولا هذا وأشباهه لما استخذأت له، ولا فزعت في عوارضك إليه، ولكان ما تؤمّه معه شبيهاً بما تألفه من بني جنسك، الذين يلتحفون بمثل نقصك.

يا هذا! دع هذا واسبح في بحر الرجاء، وقطّع حبال اليأس، وثبّت [٥٦] أطناب الأمن، واقلع أوتاد القلق، واعتصم بعري الطمأنينة، وسافر عن أوطان الغفلة، وثق بأنك مجتبي في الغيب، مخصوص في الشهادة، تجري في ثانك على ما سبق به أولك، ولكل

(١) الديوان: عمضته.

(٢) الشعر لأبي العتاهية (ديوانه: ٢٨٩).

(٣) الديوان: فلسّ.

(٤) الديوان: وموعد.

(٥) الديوان: من.

شيء علامة تميزه من غيره بالحكم، ولكل شيء دعامة مُنْصَمَّةٌ مع الاسم. فعلامتك في حالك تهالكك على هذا النبأ العظيم، ودعامتك في أمرك ثباتك في التخصيص والتعميم. فعلى هذا، من ظهرت علامته، وثبتت دعامته، وجبت كرامته، وحصلت غنيمته.

اللهم! إنا بك نعزّ، كما أنا بغيرك ندلّ، وإياك نرجو كما أنا من غيرك نياس، وإليك نفوّض كما أنا عن غيرك نُعرض. أذنت لنا في دعائك، وأدّيتنا إلى فنائك، وهياأتنا لعطائك، وخصّصتنا بحبائك، ووسّمتنا بولائك، وعمّمتنا بالآلك، وعمّستنا في نعمائك، وناغيتنا باللسنة ملكوتك، عن دقائق ما في عالمك، ولاطفتنا بظاهر قولك، وتولّيتنا بباطن فعلك، فسّمت نحوك أبصارنا، وشامت بروق جودك بصائرنا، فلما استقرّ ما بيننا وبينك، أرسلت علينا سماء فضلك مدراراً، وفتحت لنا منّا أسماً وأبصاراً، فأرانا ما طاح معه تحصيلنا، وسمّعنا ما فارقنا معه تفصيلنا [٥٦ب] فلما نبذنا إلى خلّعتك من ذلك ذرواً، اتخذونا من دونه لعباً وهزواً. فبقدرتك التي أتت على بلوانا بهم، أرنا بك الغنى عنهم.

يا هذا! لا تكوننّ ممن فتنّته الفواتن، وغبته الغواين، وشجته الشواجن، فأسمى مطروداً من تلك المواطن، والمعادن والمساكن، غير آمن ولا مستامن.

يا هذا! دعوانا عارية من البرهان، ونسبتنا خالية من البيان، إنما هو تنميق يروق العين، وتلفيق يغر النفس، والحقيقة وراء ذلك عند أهلها مصونة مكنونة، لا تُبتذل بلفظ مزخرف، ولا يُنادى عليها بنداء متكلف، ولا يُخبر عنها بخبر متحيف، خرس عنها الألسن إلا بالعلامات الصادقة، وطاحت دونها الإشارات إلا بالآيات الناطقة، وسدّت دونها الأبواب إلا بالنيات الواثقة، وقام عليها الحرّس إلا إذا عرّضت عليهم التوقيعات الرائقة الفاتقة.

يا مسكين! قادوك إلى غايتك باللطف فتشاكست، وذادوك عنها بالعنف فتقاعست، فأدرك الآن نفسك، وإلا أطالوا حبسك، وكرّروا عليك كبسك.

يا هذا! إلى متى تهذي ولا تسكت؟ إلى متى تدعو ولا تجيب؟ إلى متى تُرشد ولا تُرشد؟ إلى متى تُضيء ولا تستضيء؟ إلى متى [٥٧أ] نخادع أنفسنا من وجه ونخدع لها من وجه؟ أما أن لنا أن نسلخ هذا الجلباب الخلق، ونلبس ذلك الشعار القشيب؟ أما

وَجَبَّ أَنْ نَصِيحَ^(١) إِلَى لَحْنِ الْعَالَمِ؟ أَمَا يَنْبَغِي أَنْ نَتَأَهَّبَ بِإِعْدَادِ الزَّادِ لِلرَّحِيلِ؟ بَلَى وَاللَّهِ قَدْ آنَ، وَدَلِيلُهُ قَدْ بَانَ، وَلَكِنَّ النَّفْسَ حَرُونَ، وَالْعَادَةَ فَاسِدَةً، وَالْقَرِينَ غَاشٍّ، وَالدُّنْيَا حُلُوءٌ خَصِرَةٌ، وَالْغَفْلَةَ رَاكِدَةٌ، وَالتَّغَافُلَ مَأْلُوفٌ، وَالتَّغْيِيرَ زَائِلٌ، وَمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ وَهُوَ عَاكِفٌ عَلَى الْمُنْكَرِ لَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ، وَمَنْ نَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُوَ مُلْتَحِفٌ بِهِ لَمْ يُلْتَفَتْ إِلَيْهِ.

فَقُلْ الْآنَ مَا الْحِيلَةُ؟ الْوَاعِظُ أَعْوَجُ، وَالسَّامِعُ أَهْوَجُ، وَالْهَادِي ضَالٌّ، وَالنَّصِيحُ مُدْغِلٌ^(٢)، وَالْعَالَمُ مُخْتَالٌ، وَالْعَابِدُ مُرَاءٍ، وَالْعَاقِلُ حَيْرَانٌ، وَالصَّاحِي سَكْرَانٌ، وَالرَّاضِي غَضْبَانٌ.

اللَّهُمَّ! قَيِّضْ لَنَا فَرَجًا مِنْ عِنْدِكَ، وَأَتَّخِ لَنَا مَخْلَصًا إِلَيْكَ، فَإِنَّا قَدْ تَعَبْنَا بِخَلْقِكَ وَعَجَزْنَا عَنْ تَقْوِيمِهِمْ لَكَ، وَنَحْنُ إِلَى مُقَارَبَتِهِمْ فِي مَخَالَفَتِكَ، أَقْرَبُ مِنَّا إِلَى مُنَابَذَتِهِمْ فِي مُوَافَقَتِكَ؛ لِأَنَّهُ لَا طَاقَةَ لَنَا بِدِهْمَائِهِمْ، وَلَا صَبْرَ لَنَا عَلَى نَكَرَائِهِمْ، وَلَا حِيلَةَ لَنَا فِي سُفْهَائِهِمْ، وَإِذَا كَثَرْنَا غَلْبُونَا، وَإِذَا غَلَبُونَا أَهْلَكُونَا. فَنَسْأَلُكَ بِالضَّرَاعَةِ التَّامَةِ، وَبِالْإِخْلَاصِ الْمَرْفُودِ، إِلَّا أَخَذْتَ بِأَيْدِينَا، وَأَرْسَلْتَ رَحِمَتَكَ عَلَيْنَا، وَلَطَفْتَ بَنَا مِنْ حَيْثُ لَا نَشْعُرُ، مَا أَقْدَرُكَ [٥٧ب] عَلَى الْإِجَابَةِ، وَمَا أَجُودُكَ بِكُلِّ مَصُونٍ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

(١٥)

الشوق والإخبار والاستخبار من الإشارات الإلهية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كِتَابِي إِلَيْكَ عَنْ شَوْقٍ مَلَاهِبُهُ لَا تَخْمَدُ، وَوَجِدٍ بِكَ غَلَائِلُهُ لَا تَبْرُدُ، وَتَسْلِيمٍ لَكَ فِي فَضْلِكَ لَا يُجْحَدُ، وَتَلَذُّذٍ بِذِكْرِكَ لَا يُلَامُ الْمُسْتَهَامَ عَلَيْهِ، وَانْحِطَاطٍ فِي هَوَاكَ لَا عَتَبَ عَلَى النَّازِعِ إِلَيْهِ، وَرَضَى بِالْمَيْسُورِ مِنْكَ لَا يَسْأَمُ أَحَدٌ الْإِسْتِزَادَةَ مِنْهُ. وَفِي الْجُمْلَةِ: كِتَابِي إِلَيْكَ عَنْكَ، وَخَطَابِي لَكَ مِنْكَ، وَهَيْمَانِي عَلَيْكَ فَيْكَ؛ لِأَنَّ الْبَيْنُونَةَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَاقِطَةٌ، وَالْكِتُونَةُ

(١) نصيح: نستمع.

(٢) مُدْغِل: فاعل من أدغل، وأدغل الأمر: أدخل فيه ما يخالفه ويفسده.

لي بك من أجلك رابطة، فلم يبقَ إلا سرُّ مني، إن صَدَرَ فإليك، وإن وَرَدَ فعليك، وإن خَفِيَ ففيك، وإن ظَهَرَ فلك، وإن تَحَقَّقَ فَيُؤَمِّنُكَ، وإن طاح فبأمرِكَ، وإن حاشني فبظرفِكَ، وإن راشني^(١) فبلطفِكَ، وإن عرفني فبإقبالِكَ، وإن نَكَرَني فبإعراضِكَ: قد أَذَلَّنِي الحقُّ لك، لأَعَزَّ بِكَ، وآواني إلى ساحتِكَ؛ لأَسْتَمِدَّ من فضلك، واستَخْدَمَني لمواهبه عندكَ؛ حتى أَتَذَوَّقَ حلاوتَهَا بجودكَ، وَأَنْطَقَني بلسانِكَ؛ لأَكُونَ نائِبًا عنكَ في بعض مواقفكَ، فأقبلني هادياً لأعيشَ بِكَ مَهْدِيًّا، واستصحبني راضيًّا لأنقلبَ عنكَ مرضيًّا، وبالجُملة: فكن لي بالعناية [٥٨أ] الربانية، أكنْ لك بالرعاية الرهبانية، وسرِّحْ إليَّ من سَوَامٍ^(٢) غيب الحقِّ ما أصيرُ به فردًا بين الخلق، وكُنْ خيرَ واسطةٍ وخَيْرَ سفيرٍ، فما خُصِصْتُ بهذه الأسرار إلا لأمرٍ جليلٍ خطيرٍ، فقد هَبَّتْ عليَّ رياحٌ، أنا منها في أَرَجٍ ونسيمٍ، وراحةٍ ونعيمٍ. وقيل لي: لا تَرَكْنِي إلى شيءٍ دوننا، فكلُّ ذلكَ وبألِّ عليك، وخاتِلٌ لك، لأنك إن ركنْتَ إلى العلم لَبَسْنَاهُ عليك، وإن وثِقْتَ بالعبادة رَدَدْنَاهَا إليك، وإن لحظْتَ الخلقَ وَكَلَّنَاكَ بهم، وإن أُعْجِبْتَ بالمعرفة نَكَرْنَاهَا فيكَ، وإن أويتَ إلى الوجدِ استدرجناكَ دونه، فأَيُّ حَوْلٍ لك، وأَيُّ قُوَّةٍ معكَ؟ اشهدنا بغيبَتِكَ عن غَيْرِنَا، نُشْهَدُكَ منا ما لا يحويه مكان، ولا يخليه أوان، ولا ينبئ عنه خَبَرٌ ولا عيان.

وقيل أيضًا: قد قسمناكَ في صفاتِكَ بإرادتنا الإلهية، فانتظم بها بما أعرنَاكَ من القوة البشرية، ورضيناكَ عبدًا لنا، فارضنا ربًّا لك، فإنك إن رَضِيتَنَا لك رَقِيتَنَا عن مرتبة العبودية، وليس بعد العبودية إلا الربوبية، والربوبية صِفَتُنَا.

وقيل أيضًا: اعرف كُلَّكَ بتمييزِ بعضِكَ من بعضِكَ، وتصفِّحْ بَعْضَكَ لبعضِكَ، فخذِ الآنَ في ذلك، وانظر أين [٥٨ب] حُسُّكَ من حَدْسِكَ، وأين فهمُّكَ من وَهْمِكَ، وأين كُنْهُكَ من سِرِّكَ، وأين شَوْقُكَ من ذَوْقِكَ، وأين رمزُكَ من فِطْنَتِكَ، وأين إخلاصُكَ من اختصاصِكَ، وأين قَدَمُكَ من قَدَمِكَ، وأين أنسُكَ من جاهِكَ، وأين إشارَتُكَ من حقيقتِكَ،

(١) راشني: قَوَّاني وأصلحَ حالي.

(٢) السوام: الماشية والإبل الراعية، ويعني هنا: دقائق الغيب.

وَأَيْنَ عَمَلِكَ مِنْ تَقَرُّبِكَ، وَأَيْنَ عِلْمِكَ مِنْ تَأَدُّبِكَ، وَأَيْنَ تَأَدُّبِكَ مِنْ تَهَذُّبِكَ، وَأَيْنَ تَهَذُّبِكَ مِنْ تَرْتِّبِكَ، وَأَيْنَ شَهَادَتِكَ مِنْ غَيْبَتِكَ، وَأَيْنَ انبساطِكَ مِنْ هَيْبَتِكَ، فَإِذَا مَيَّزْتَ الْكَوْنَ الَّذِي هُوَ وَطْنُكَ بهذا الضرب من التمييز، بَأَنْتَ لَكَ، وَإِذَا بَانَ لَكَ بَانَ بَكَ، وَإِذَا بَانَ بَكَ بَانَ عَنْكَ، وَإِذَا بَانَ عَنْكَ بَانَ عَنْهَا، وَإِذَا بَانَ عَنْهَا بَانَ بِمَا أَنْتَ لَهُ وَمِنْهُ، وَهُوَ الَّذِي أَبَانَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ وَحَلَّاهَا بِهَا، وَأَظْهَرَكَ فِيهَا، ثُمَّ أَخَذَكَ عَنْهَا، وَاسْتَخْلَصَكَ لِنَفْسِهِ دُونَهَا.

وقيل أيضاً: تلقَّ أسرارِي الصائبةَ على قلبك بالخواطر التي أنشئها فيك، وعُذُّ بي عند نكراتها حتى أونسَكَ بوحشياتها. لا تُبْدِينَ فَاقَةَ إِلَى غَيْرِي، فَأَضَاعَهَا عَلَيْكَ، مَكَا فَاقَةَ لَكَ عَلَى سَوْءِ أَدَبِكَ، وَمَفَارِقَةَ حَدِّكَ فِي عِبُودِيَّتِكَ: أَنَا أَبْدَيْتُ الْفَاقَةَ فِيكَ لِتَفْرَعَ بِهَا إِلَيَّ، وَتَضَرَّعَ مِنْهَا لَدَيَّ [١٥٩] وَتَتَوَكَّلَ فِيهَا عَلَيَّ، سَبَّكْتُكَ بِهَا لِتَكُونَ ذَهَبًا خَالِصًا، فَلَا تَزَيَّفَنَّ بَعْدَ السَّبْكِ، حَكَمْتُ لِنَفْسِي بِالْغِنَى وَوَسَمْتُكَ بِالْفَاقَةِ، فَإِنْ وَصَلْتَ فَاقَتَكَ بِي وَصَلْتُهَا بَغْنَايَ، وَإِنْ وَصَلْتُهَا بِغَيْرِي حَبَسْتُ عَنْكَ مَوَادَّ مَعُونَتِي، طَرَدًا لَكَ عَنْ بَابِي، وَبَتًّا لِأَسْبَابِكَ مِنْ أَسْبَابِي. مَنْ وَكَلَّتُهُ إِلَيْهِ فَقَدْ هَلَكَ، وَمَنْ وَكَلَّتُهُ إِلَيَّ فَقَدْ مَلَكَ.

ثم قال: سيدي، أَرْجُو أَنْ تَكُونَ هَمَّتِكَ فِي أَمْرِي، عَلَى قَدَرِ رَجَائِي فِيكَ، وَإِقْبَالَكَ عَلَى فَاقَتِي، بِحَسَبِ انْتِسَابِي إِلَى خِدْمَتِكَ، فَأَفُوزَ مِنْكَ بِعُنَايَةٍ تَحْرُسُنِي لَكَ، وَتَصِلُنِي بِكَ.

أَلَا سَقَى اللَّهُ الْأَزْمَانَ السَّالِفَةَ، وَالْمَعَاهِدَ الْمَأْلُوفَةَ، وَقَدْ كَانَتِ الْمَنَى تَصَافِحَنَا عِيَانًا، وَالْأَحْلَامَ تُهْدِي إِلَيْنَا بَيَانًا، فَمَا كَانَ أَحْلَاهَا فِي الصَّدُورِ، وَمَا كَانَ أَبْلَاهَا لِلْأَكْبَادِ، وَمَا كَانَ أَقْرَاهَا لِلْعَيُونِ، وَمَا كَانَ أَبْرَدَهَا لِلْغُلُلِ، وَمَا كَانَ أَسْكَبَهَا عَلَى الْأَرْوَاحِ، وَمَا كَانَ أَلْوَطَهَا^(١) بِالْقُلُوبِ، وَمَا كَانَ أَطْلَعَهَا عَلَى الْغُيُوبِ. لَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا الْأَثَارُ الَّتِي تُذَكِّرُ فُتْبُكِي، وَتَخِيلُ فَتْسَجِي، وَإِلَّا الرِّبُوعُ الَّتِي إِذَا نُظِرَ إِلَيْهَا أَذْرَتِ الدَّمُوعَ، وَأَلْهَبَتِ الضَّلُوعَ، وَأَوْرَثَتِ الْخُشُوعَ، وَإِلَّا أَحَادِيثُ نَفْسٍ إِذَا كَرَّتْ أَحْدَثَتِ الْوَسْوَاسَ، وَأَوْحَشَتِ النَّاسَ، وَحَالَتْ بَيْنَ الْقَلْبِ [٥٩ب] وَالْإِسْتِنَاسِ، وَإِلَّا عِلَاقُ مَنْوِطَةٍ مِنْ آفَاقِ الْفِكْرِ، تُسْهِدُ الطَّرْفَ، وَتُرْغِمُ الْأَنْفَ، وَتُثِيرُ الْحَسَرَاتِ بَعْدَ الْحَسَرَاتِ، وَتَحْدِرُ الْعِبْرَاتِ بَعْدَ الْعِبْرَاتِ، وَتَنْكَرُ النِّكَرَاتِ

(١) ألوطها: ألصقتها.

بعد النكرات، وتسكُرُ السكراتِ بعد السكراتِ، وتوقَعُ الغمراتِ بعد الغمراتِ. هكذا يكون من شاب فوداهُ، وخانه ثقتاه، وأخلفه مَلَوَاهُ، وصارت حاله تُكَذِّبُه، وبقايا هواه تُغلبُه، وزَهَرَاتُ الدنيا تَسْبِيه وتسلبه، ومناياه تقصده وتطلبه، ونفسه فيما بين هذا وهذا تخدعه وتخلبه، وغيرُ الليل والنهار توهنه وتكربه، وصروفُ الدهر توحشه وترهبه، والأجلُ في أضعافه يَحْتَلُه ويرقبُه: إن التفت إلى حبيبهِ لم يُقبل، وإن تَصَرَّعَ إليه لم يُرحم ولم يوصل، الحزنُ رداؤه، والنَّدَمُ حذاؤه، والأسَى غطاؤه، واليأسُ وطاؤه: إن ناظرٌ قُطِع، وإن تناول قُمع، وإن سأل مُنع، وإن ترفعُ وُضع، وإن تحرك رُدع، [وإن سكن] قُطِع.

يا هذا! أهكذا أنت؟ اصدفُ عن قلبك، ولا تنغمسُ في ريبك، ولا تغافلُ عن عَيْبك، فإن كنتَ هكذا، فاستقبل ليلتك هذه التي قد استقبلتك، والتمسُ فيها من الله مكنونَ صدرِكَ، فإنها ليلة عظيمة، ولها عند الله وملائكته منزلةٌ كريمة، ولقد نطقَ [٦٠أ] السلفُ الصالحُ عنها بكلِّ ظريفة، وانتظروا من الله فيها كلَّ هدية شريفة، ولقد اشتمل التفسيرُ على ذِكْرِها في قوله المنزل، على قلب عبده المرسل حين قال دالًّا عليها، وحاتًّا على أخذِ الأهبة لها ﴿ فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان: ٤] وهي ليلتك هذه التي بلغك الله إليها، وجمع بينك وبين عيدك فيها ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧].

أتدري يا مسكينُ ما العملُ الحَسَنُ؟ إني أظنك ملبوسًا عليك، غيرَ مؤهلٍ لفهم كنيائِهِ في كلامه لديك، العملُ الصالحُ أن تُخلصَه من الشرك، وإخلاصُه من الشرك أن لا تريدَ به سوى الحقِّ الذي عَرَّضَكَ لخدمته، وَوَشَّحَكَ بنعمته، وَأَشْرَفَكَ على حكمته، وَوَقَّفَكَ بين مشيئته وقدرته، يُصَرِّفَكَ بعزِّ القدرة على خفي المشيئة، لتعلم أنه مالكك ومصرفك، وواصفك ومُشَرِّفك.

يا هذا! أتقفُ على سرِّ قوله: ﴿ فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾؟ لا والذي أبلاني بك وبكثافتك، وحجبني عن إقباله عليَّ بإقباله عليك، فهذا هذا.

وأختمُ رسالتي بدعاءٍ تقفُ به على حُرْقَةٍ قلبٍ متشبَّط، وكربِ رُوحٍ منوط، فتؤمنُ عليه: اللهم! إِنَّا قد دعونا خَلْقَكَ إليك فنفرُوا عَنَّا، ورفَقْنَا بهم فعنفُوا بنا، وطلبنا ما عندهم

فبخلوا علينا، وَجُدْنَا عليهم بما عندنا فلم يقبلوا مِنَّا، [٦٠ ب] وانقبضنا عنهم فقرفونا، وَلِنَّا لهم فطعنوا فينا، وَنَافَقْنَاهُمْ فقبلونا، وَخَالَصْنَاهُمْ فَرَدُّونا، وَنَصَحْنَا لهم فاستغشُّونا، وَغَشَّشْنَاهُمْ فسكنوا إلينا.

اللهم! قد طالت بلوانا بهم فاكفناهم، واشتدت محتنتنا منهم فأغننا عنهم، وأنسنا ذكرهم، واصرف عنا خداعهم ومكرهم، بجودك وكرمك.

(١٦)

فضائل شهر رمضان من الإشارات الإلهية

إليك اللهم أشكو ما تُجِنُّ ضمائري، ولديك أرفعُ خفايا همِّي وسرائري، ومنك أرجو الصفحَ الجميلَ عن خطاياي وجرائري، وإياك أسألُ أن تقبل حُجْجِي ومعاذري، وبك أتوسلُ إليك حتى تقيني محاذري.

يا هذا! أتصومُ رمضانَ وأنت عاكفٌ على سخطِ الله؟

يا هذا! انظر لماذا عُرِضَتْ في هذه العبادة عند الله، أما تستحي أن تتوجهَ إلى الله في هذا الشهر من غير أن تكون ذا جاه عند الله؟ أترضى أن يمزقَ صَوْمُكَ في وجهك عند ملائكة الله؟ أتقنعُ أن تكونَ جائعًا نائعًا مجتهدًا من غير أن يقَبَّلَكَ الله؟ أين النيةُ المجردة؟ أين المَطْعَمُ الحلال؟ أين الكفُّ عن الغيبة؟ أين الإقلاعُ عن المَعْصِيَةِ؟ أين استئنافُ حُسْنِ المعاملة؟ أين قَبْضُ اليد عما ليس [٦١ أ] لك بحق؟ أين غُضُّ البصر عما ليس لك بِمِلْك؟ أين تطهيرُ القلبِ من الفكر في غير الله؟ أين سُمُو الهِمَّةِ إلى ما ذخره الله لعباده المخلصين؟ أين الأَنَفَةُ من الشُّرْكِ بالله في الطاعة؟ أين الحمية والغضبَةُ على عدوِّ الله إذا زينَ الباطل؟ أين الشوقُ إلى ما أعدَّ الله للمجتهدين في هذا الشهر؟ أين الحياءُ من التقصير فيما هو وسيلةٌ لك إلى الله؟ أين المهربُ عن كلِّ شاغل لك عن عبادة الله؟ أين الخرسُ عن كلِّ ما هو مكروهٌ عند الله؟ أتظنُّ أنك إذا قطعتَ نهارَكَ بالجوع والعَطَشِ فقد

ملكْتَ ما عندَ الله؟ أُنظُنْ أنك إذا أَحْيَيْتَ ليلَكَ بالركوع والسجود فقد ابْيَضَّ وَجْهُكَ مع الله؟ كلا، حتى تخلصَ النيةَ، وتطهرَ الطويةَ، وتعرضَ نفسك في تقَرُّبِكَ على المنية، فعند ذلك تنالُ المنزلَةَ العليةَ، وتُتَحَفُّ بالعطيةَ الهنيئةَ، وتُتَلَقَّى بالتحية من الله وليَّ كلِّ تحية.

يا هذا! إنك إن^(١) تَعُودْتَ ما نصَحْتُكَ به في هذا الشهر، جَرِيتَ عليه إلى آخر العمر؛ فالخيرُ عادة، والشرُّ لاجابة.

يا هذا! تاجِرُ رَبِّكَ فَإِنَّكَ تَرِيحُ، عامِلُهُ فَإِنَّكَ تُفْلِحُ، اعتذرُ إليه فإنه يَقْبَلَ، اقرعُ بابَهُ فإنه يَأْذَنُ، نادِهِ فإنه يَسْمَعُ، نَاجِهِ فإنه يَرْفَعُ، سَلِّهِ فإنه يَجِيبُ، تعرَّضْ له فإنه يُوَهِّلُ، ارجب [٦١ب] إليه فإنه يَهَبُ، ارفع يدَكَ إليه فإنه يوسع، الهجِّ بذكره فإنه يُعِينُ، اشكر نعماءه فإنه يَزِيدُ، اصبرْ على قضائِهِ فإنه يَحْمَدُ، ذُقْ شرابَ معرفتِهِ فإنه يُطْرِبُ، أصغِ إلى نغماتِ كلامه فإنه يُؤْنِسُ، تَمَآيَلْ عندَ لَحْنِ قوله فإنه يَسْلِي، توسَّلْ إليه بسالفِ إحسانه فإنه يعيد، عُدْ به فإنه جارٍ، لُدْ به فإنه غَفَّارٍ، اطمئنَّ إليه فإنه بَرْدٌ وسلامٌ، خذ بكلامه فإنه شرابٌ وطعامٌ.

هذا شهرٌ يُسْتَرُّ فيه العيوبُ، وتَلِينُ فيه القلوبُ، وتَتَجَافَى فيه الجُنُوبُ، وتَنفَرِجُ فيه الكروبُ، ويُتَصَرُّ فيه المغلوبُ، ويُصَدَّقُ فيه المكذوبُ، ويُشْهَدُ فيه الغيوبُ، ويُنعش فيه المنكوبُ، ويُعان فيه المسلوبُ.

انظر إلى الألسنة اليابسة كيف تبتلُّ بذكره، انظر إلى الأعْيُنِ الطامحة كيف تكلُّ عن مخالفتِهِ، انظر إلى القلوبِ القاسية كيف ترقُّ في قَصْده، انظر إلى الأحداقِ الصلبة كيف تَدْمَعُ من خَشْيَتِهِ، انظر إلى البقاعِ المظلمة كيف تستضيءُ بنور كلامه، انظر إلى الآمالِ التي تتجدَّدُ في كراماته، انظر إلى المُنْكَرِ كيف يُوارَى خوفاً من أليمِ عقابه.

فاجتهد يا هذا أن تكونَ في هذا الشهر طالباً لرضاه، صابراً على بلواه، متجنباً لشكواه [٦٢أ] متعرضاً لنجواه، فإنك إن أَهَّلْتَ لهذه الأحوال، رُفِعَتْ إلى الدرجاتِ العاليات، وكُفِّيتَ بهذه جميعِ المؤنات، وحصلتَ مع الله غنيًّا بالحسنات، عَرِيًّا من السيئات. فما

(١) كتب الناسخ فوقها «متى» ويبدو أنها قراءة من نسخة أخرى.

أحلى هذه الوصية، إن لم يكن عند سماعها عَصِيَّة، وما أعلى هذا الإسناد، إن كان لك فيه مَتْنٌ من رِشَاد، وما أَسْعَدَكَ بِشَرَفِ هذه الطاعة، إن لم تُحَبِّطْ بِمُخَالَفَتِكَ لِلجَمَاعَةِ.

اللهم! إِنَّ أَعْمَالَنَا كُلَّهَا جَارِيَةٌ عَلَى إِرَادَتِكَ، وَنَحْنُ عَلَيْهَا مَلُومُونَ وَمَحْمُودُونَ بِاخْتِيَارِكَ، وَبِهَا مُجَرَّبُونَ بِحَسَبِ مَا سَلَفَ مِنْ عِلْمِكَ. فَأَنْبِئْنَا إِلَى فَنَاءِ عِرْكَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ حَزْبِكَ الْفَائِزِينَ، وَأَنْسِنَا حَظُوظَنَا مَنَا فِي طَلَبِ حَظُوظِنَا مِنْكَ، وَهَوْنُ عَلَيْنَا مَرَارَةَ الدُّنْيَا، وَبَلَّغْنَا حَقِيقَةَ الْأَمَلِ وَغَايَةَ الْمُنَى.

دُعُ هذا كُلَّهُ وَانْظُرْ إِلَى حَالِي عِنْدَ الْحَقِّ فَإِنَّهَا وَاهِيَةٌ، وَتَعَجَّبْ مِنْ حَدِيثِي مَعَهُ فَإِنَّهُ دَاهِيَةٌ: خَطَبْتُ عَنْهُ مَكَانَةً أَرْتَاخُ بِهَا، وَحَالَةً أَغْتَبُ بِهَا، فَضَرَمْتُ فُؤَادِي نَارَ الْبُرْحَاءِ حَتَّى اسْتَعْفَيْتُ، وَحَجَبَنِي عَنْ ذَلِكَ بِكُلِّ حَاضِرٍ وَغَائِبٍ حَتَّى فَقَدْتُنِي فِيمَا كُنْتُ وَبَنْتُ، أَشْهَدُنِي مَا أَشْهَدُنِي وَأَنَا غَائِبٌ، وَغَيْبُنِي عَمَّا غَيْبُنِي وَأَنَا حَاضِرٌ، فَلَا جَرَمَ إِذَا جَلَسْتُ جَلَسْتُ فِي غَيْرِ مَجَالٍ، وَإِذَا قَلْتُ قُلْتُ فِي غَيْرِ مَقَالٍ.

يَا هَذَا! [٦٢ب] لَا أَغْرُكَ مِنْهُ، وَلَا أَكْذِبُكَ عَنْهُ، لَهُ قُدْرَةٌ تَصَرِّفُ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَحِكْمَةٌ تَخْفِي فِي كُلِّ شَيْءٍ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَشِئَةٌ تَنْفِذُ فِي كُلِّ شَيْءٍ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَعِلْمٌ يَحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَلَا يَعْزُ عَلَيْهِ شَيْءٌ، سَطْوُهُ يَنْسِيكَ مَا تَعْرِفُ وَمَا لَا تَعْرِفُ، وَعِزُّهُ يَأْتِي عَلَى كُلِّ مَا يَصِفُ وَلَا يَصِفُ. فَهَذَا بَعْضُ حَدِيثِهِ فِي إِلَهِيَّتِهِ مِنْ نَاحِيَةِ مَا هُوَ بِهِ فَرْدٌ.

خُذِ الْآنَ بَعْضَ خَبَرِهِ مِنْ نَاحِيَةِ مَا هُوَ جَوَادٌ: لَهُ رَحْمَةٌ تَسْعُ كُلَّ شَيْءٍ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَحُكْمٌ يَأْتِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَرَفْقٌ يَنْفِذُ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَصَنَعٌ يَحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَتَوْفِيقٌ يَقُومُ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

فَقُمْ عَلَى قَدَمِ الْإِصْطِبَارِ، وَتَنَحَّ عَنْ رَوْعَاتِ هَذِهِ الدَّارِ، مُشْتَاقًا إِلَى دَارِ الْقَرَارِ، فِي جَوَارِ الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ. فَإِنْ كُنْتَ لَا تَرَاهَا، وَلَا تَجِدُهَا، وَلَا تَحْسُ بِهَا، فَأَنْتَ وَاحِدٌ مِنَ الْأَنْعَامِ السَّائِمَةِ، وَبِهَائِمِ الْمَهْمَلَةِ. لَا يَغُرُّنَكَ حِذْقُكَ وَكَيْسُكَ، وَفَصَاحَتُكَ وَذُكَاؤُكَ، وَمَعْرِفَتُكَ فِي أُمُورِ دُنْيَاكَ وَأَحْوَالِ عَاجِلَتِكَ، فَإِنَّكَ كَلِمَا كُنْتَ بِهَا أَبْصَرَ، كُنْتَ عَنْ أَحْوَالِ آجِلَتِكَ

أعجزَ وأقصر، وفي تجارتها أغبنَ وأخسر؛ لأن هذه دار ممرٍّ واجتياز، وتلك دار مقرٍّ واعتزاز، وأيام هذه محدودة، يفنيها العدد [٦٣أ] وأيام تلك ممدودة، لا يأتي عليها الأبد. يا هذا! لا تستسهل الوعرَ في دُنْيَاكَ، وتستوعرِ السهلَ في أُخْرَاكَ، فإنك متى فعلتَ هذا وضعتَ الأوَّلَ مكانَ الثاني، وآثرتَ الكسلَ والتواني، فما ميّزتَ بينَ الخَبَرِ والعيان، وهلكَتَ بين الخسران والأمانِي.

عَرَّامُ رَوْ مَتَّهْ نَفْ — سُسْ أَنْ تَدُومَ لَهُ السَّلَامُ^(١)
 هِيَهَاتِ أَعْيَا الْأَوَّلِي — ن دَوَاءُ دَائِكَ يَا نَعَامُ ه

اللَّهُ اللّٰهَ فِي نَفْسِكَ الضَّعِيفَةِ، لَا تَغْتَرَّ بِمَوَاتَاةِ الْأَيَّامِ لَكَ، وَمُسَاعَدَةِ الْحُظُوظِ لَدَيْكَ، وَإِقْبَالَ الْمَرَادِ بَعْدَ الْمَرَادِ إِلَيْكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ أَقْيَادٌ وَأَغْلَالٌ، وَأَوْزَارٌ وَأَثْقَالٌ. لَا تَبْصُرْ مَا أَقُولُ بَعِينَ الرَّأْسِ، وَلَكِنْ بَعِينَ الصَّدْرِ، فَإِنَّ عَيْنَ الرَّأْسِ لَا تَرِيكَ إِلَّا الْجِسْمَ وَطَوْلَهُ وَعَرْضَهُ وَعُمُقَهُ، وَلَوْنَهُ وَسِحَّتَهُ، وَحُلُوَّهُ وَحَامِضَهُ وَطَعْمَهُ، وَلِينَهُ وَخُسُونَتَهُ، وَثِقَلَهُ وَخِفَّتَهُ، وَقُرْبَهُ وَبُعْدَهُ، فَأَمَّا عَيْنُ الصَّدْرِ فَإِنَّهَا تُرِيكَ مِنْهُ ضُرَّهُ وَنَفْعَهُ، وَبِقَاءَهُ وَفَنَاءَهُ، وَصِحَّتَهُ وَعِلَّتَهُ، وَحَاصِلَهُ وَثَمَرَتَهُ، وَسِرَّهُ وَعِلَانِيَتَهُ، وَنَصَحَهُ وَغِشَّهُ، وَأَمَانَتَهُ وَخِيَانَتَهُ، وَصِدْقَهُ وَكَذِبَهُ.

فَإِذَا رَأَيْتَ هَذَا كُلَّهُ تَأَهَّبْتَ لَتَمْيِيزِ النَّافِعِ مِنَ الضَّارِّ، وَتَحْصِيلِ الْمُجْدِي مِنَ الْمُرْدِي، وَحِيَازَةِ الْمَفِيدِ مِنَ الْمَبِيدِ، وَشُغِلْتَ [٦٣ب] عَمَّا كُنْتَ مَفْتُونًا بِهِ مِنْ مَرِئِيَّاتِ عَيْنِ الرَّأْسِ جَمَلَةً، وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ النَّاصِيَةَ، وَمَنْ مَخَالَفَةُ النَّفْسِ الْعَاصِيَةَ، وَإِلَّا فَتَوْفِيقُ اللَّهِ، الَّذِي هُوَ مُقَدِّمٌ عَلَى جَمِيعِ الْأُمُورِ، وَبِهِ قَرَّتِ الْعَيُونُ، وَبُلَّتِ الصُّدُورُ.

اللَّهُمَّ! إِنَّا مَا عَفْنَا كُلَّ مَا سِوَاكَ حَتَّى ذُقْنَاهُ، وَمَا ذُقْنَاهُ حَتَّى مَقْتْنَاهُ، وَلَا أَوْيْنَا إِلَى كَهْفِ رَبُّوبِيَّتِكَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ خَلَّتْ أَيْدِينَا مِنْ غَيْرِكَ. فَبَحِيرْنَا الَّتِي رَدَّئْنَا إِلَيْكَ، وَبِفَضِيحَتِنَا الَّتِي عَرَضْتْنَا عَلَيْكَ، إِلَّا جَبَرْتَ مَا انْكَسَرَ مِنَّا، وَرَدَدْتَ عَلَيْنَا مَا ضَلَّ عَنَّا، وَكُنْتَ خَيْرًا لَنَا مِنَّا لِأَنْفُسِنَا، إِنَّكَ أَهْلُ ذَلِكَ، وَأَهْلُ التَّقْوَى وَالْمَغْفَرَةِ.

(١) مر البيت الأول ص ٦٢ من الجزء الأول.

اللهم! إن حاجتنا إليك شديدة، وأيدينا إلى جودك ممدودة، وضمائرنا على توحيدك معقودة، وأنفسنا بانتظار موعودك مجهودة، وأسرارنا بصوب تحياتك معهودة، وآثار قدرتك في بسط عالمك بنا مشهودة، وأمارات أمرك ونهيك في المكره والمنشط^(١) مقصودة، ومكامن الهوى والخلف والجهل باليقظة مرصودة، إلهنا! وكل هذا وما وراء هذا مما لا يسري إليه الوهم، ولا يدركه الاستقصاء، ولا يتصل به التمني، متعالم منك، متعارف بك، بجودك الأول، ولطفك الثاني، وإحسانك [٦٤أ] الثالث، ورفقك الرابع، وعلى هذا إلى أن ينقطع العدد ولا ينقطع المدد.

يا هذا! إذا خلعت عنك لبوس الباطل فندد عن كونك، وضح من صونك، وإذا كُسيَتْ جلباب الحق فجد بعمدك، وابق بفنائك، والحظ الملك خادماً لك، والعالم واقعاً على إرادتك، فإن هناك المولي والمعلي وكل شيء لك مطيع، وكل زمان بك ربيع، وكل أذن منك سميع، وكل موجود إلى خاطرك سريع، وكل مجال من أجلك مريع.

يا هذا! لطفت الكلمة في هذه الفقرة، لسانح سنح في أرجاء الفكرة، حجب واحتجب، فليته حين حجب علل، أو ليته حين احتجب سؤل، لكنه سنح بلغة عجماء، وحركة شوهاء، وسكتة روعاء، فلم يترك لحظاً إلا طمسه، ولا لفظاً إلا لبسه، ولا مطلقاً إلا حبسه، ولا متميزاً إلا عكسه، ولا سعداً إلا نحسه، ولا منتصباً إلا نكسه. فلا جرم: لا عبرة إلا وهي مسفوكة، ولا نفس إلا وهي منهوكة، ولا كبد إلا وهي مشكوكة، ولا ملجأ بعد الهياط والمياط^(٢) إلا إلى الله الذي بيده تذليل كل صعب، وإليه تسكين كل رعب، وهو القادر بالحق، والجواد بالحق، والكريم بالحق، وكل من سواه إنما هو من هذه الصفات ظل [٦٤ب] قالص، ونعت ناقص، ووارد شاخص، جل عن شركة الصفات، كما علا عن شبه الذات، ذلك الله الذي له الأرض والسموات، وما بينهما من عجائب البيئات، والسلام.

(١) المكره: ما يكرهه الإنسان ويشق عليه، والجمع: مكاره. والمنشط: ما يُخفُّ إليه ويؤثر فعله.

(٢) هم في هياط ومياط: في شر وجلبه. وقيل: في دنو وتباعد.

(١٨)

الكأس الدهاق من الإشارات الإلهية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيُّها الوليُّ الودود، والصاحبُ المخلص، والجارُّ المواسي، والظهيرُ المأمون، والصديقُ الصدوق، والثقة الموثوق، ما أشوقني إلى خيالك، على بُعدِ دارِك، لأتعلَّلَ به وبمناغمته حفظاً لحياتي بك، واقتناءً لحلاوة العشقِ معك، وبلاً لحرارةِ صدرٍ قد انشوى وجداً بك، وتخيلاً لأحوالٍ لطيفةٍ سَلَفَتْ في أيامٍ قديمةٍ معك.

هذا جهدٌ من بُلي بفراقك، وَوَقَفَ فكره تلقاءً شامك أو عراقك، فلا تعجب من ضروبٍ ما وصفته في هذه الحروف، فإن وراء ما سمعته ما لا ينقاد للوهم، ولا يبين بالفهم [٦٨ب] ولا يكون له تصريحٌ بالقلم، ولا تلويحٌ باللسان، ولا ينبئ عنه تمريض الإشارة، ولا تصحيحُ البيان، لأن العشق إذا هيَّجَه الوجد، والوجد إذا لابسَه الشوق، والشوق إذا قارَنَه التَّيِّم، والتَّيِّم إذا اتصل به الهَيِّمان، والهَيِّمان إذا شَبَّه النزاع، والنزاع إذا أزعجَه الرُّداع^(١)، والرُّداع إذا أحاط به الأطماع، تَبَدَّدَ صاحِبُه في اجتماعه، وانكسرَ باله عند قوله واستماعه، ونأى مراده لِقْصَرِ باعه، وَجَزَعَ طباعه، من غورِ انتجاعه، ونيق^(٢) بَقاعه، عند زَماعه إلى رباعه. وإذا كانَ هذا خَبَرَ مَنْ أَمَكْنَ الخَبْرُ عنه، فما ظنُّكَ بمن بلواه أَجَلٌ، وداوَّه أَعْضَل، من أن يكونَ له عن ذلك كله نَبَأٌ دَقٌّ أو جَلٌّ؟

وما أدري - وحقَّ الحق - كيف دُهِيتُ بما دَهِيتُ، ومن أين رُميتُ بما رُميت، ولم سُبِّيتُ من حيث سُبِّيت، ولعلي قَصَّرْتُ في إبداء الشكر وإعادته، أو سهوتُ في نشرِ

(١) الرُّداع: التُّكْس، أو الوجعُ في الجسد كله.

(٢) النيق: أعلى موضع في الجبل، والطويل من الجبال.

الحمد وإذاعته، فَحَرَمْتُ لذة الوصال، وبُليتُ بِكَرْبِ الانفصال. فما ذنبٌ من قَصَرَ بلا إرادةٍ متقدِّمة؟ وما العَتْبُ على من سها بغيرِ نكرةٍ حاضرة؟ أتراني تعرضتُ لهذه البلوى منك، حتى أتجرَّعَ هذه المرارة من أجلك؟ لا والذي أسأله أن يبيِّضَ وجهي [٦٩] بالنظرِ إلى وجهك، ويردَّ عليَّ غضارةَ أيامي معك، ويُقرَّ عيني بجولانها في محاسنك، ويُقيمَ أودي بتحقيق ما أطالَ أسفي على فوته منك. وهَبْ أن هذا كله قد انقضى، أما يجب أن نعود بعد ذا إلى الرضى، ولا نتحرَّقَ بجمر الغضا؟ بلى والله.

قد بان لي يا هذا ما هذا؛ دعني من هذا وهذا، واستمع مني، ما أحدثك به عني، لأنِّي أريدُ أن أُمعنَ في شرحِ شاني وقصتي، وأبلغَ غايةَ وَصفِ ما بي من كَرْبٍ وغُصَّةٍ، فإني في أمرٍ إذا لاحَ لي آيائه، طاحت بي آفاته، وإذا ألفتني عادته، ألتفتني عاهاته. وحسبك - من جملة الحديث - إن أشرْتُ مرة فأغرقتُ إغراقًا، وأعربتُ مرة فأحرقتُ إحراقًا، واعترفتُ مرة فسُقيتُ كأسًا مرَّةً دهاقا، وجحدتُ مرَّةً فطوَّقتُ من الخزي والهوان أطواقًا وأطواقًا. فكيف أصنع الآن؟ وإلى أيِّ جانبٍ أتكي؟ وأيِّ عدوٍ أتقي؟ وإلى أيِّ محلٍّ أرتقي، وبأيِّ رشاءٍ أستقي؟ ومن لي برضى مُعتقي، إن كان مُعتقي؟ أما ترى أحوالي كلها بالبلاءِ متطارفة، وعلى اجتلابِ البلاءِ متطابقة؟

فارت - فديتُك - لهذا الشيخ المائل في هذا الفضاء، بين هذه الأرض والسماء، فإنه قد بقي حيران ولهان، لا نفسَ يعلو، ولا عِرْقَ ينبض، [٦٩] ولا بقاءَ يمتد، ولا عبْرَةَ تهدأ، ولا عينَ تقر، ولا حزنَ يُبكي، ولا فرحَ يُقرِّب، ولا صدقَ يساعد، ولا ليلَ ينجلي، ولا نسيمَ يرق، ولا شرابَ يعذب.

أندري لِمَ هذا كله؟ أقول لك، وإن كان قولِي عليّ، ووصفي فاضحي: هذا لأنِّي أركب الخلافَ مجاهرًا، ثم أطلب الاستعطافَ مساترًا، وأحتقب الوزرَ دائبًا، ثم أترك الإقلاعَ جانبًا، وأظنُّ أنِّي قد ملكْتُ القُرْبَ، وأنا في غاية البُعد، وأحسبُ أنني موصولٌ وأنا عيْنُ المهجور، وأعجبُ باسمي وكنيتي، وأصولُ بانيّتي وأبوتي، وأبيضُ وجهي بما يسودُّ به غداً وجهي. نعم يا سيدي: وأشهدُ جُمْلتي في تفصيلي بعينِ رمداء، وتفصيلي في جملتي

بنفس هي أعدى الأعداء. ولهذا وما أشبهه: الوعظُ ينبو عني، والنصحُ لا يلصقُ بقلبي، والرشادُ لا يشتملُ عليّ، والخيرُ لا يُلقى إليّ، فكيف الحيلة في؟ وبأيّ دواءٍ أداوي ما بي؟ وما أخوفني أني كما قال الله سبحانه: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

إذا كنتُ أشكو فلا يُسمَعُ وإني لما بي فلا يُنْفَعُ
وأطلبُ صبرًا، ولا صبرَ لي فكيف احتيالي وما أصنعُ

يا هذا! ليس الحديثُ مما يلجُ أذنك، ولا الشأنُ مما تألفه [٧٠أ] بحسبك. الحديثُ فوق هذا كله، ولكن بقي من يتناولُ إليه، ويسترق السمعُ منه، ويظفرُ بمنيته منه. ما أعزَّ هذه الحال، وما أبعدنا من حقيقة هذا المقال! والعجبُ أنا من عزته نرومه، والعجبُ أنا مع قصورنا عنه لا تنتهي منه، والعجبُ أنا كلما قلنا أكثر، كان ما يبقى أكثر، حتى كأنَّ ما نريدُ أن نشتفي به نسقمُ منه، وما نحبُّ أن نسعدَ فيه نشقى عليه.

أفليس من العجبِ أنا إن سَكَنَّا حَرَكَنَا من به سَكَنَّا، وإن تحرَّكنا سَكَنَّا من له تحرَّكنا، فحرَّكتنا وسكوننا بيدٍ غيرنا، وبلوانا بهما علينا، فكيف لا يكونُ هذا النعتُ على حقيقته، وهذا الوصفُ على طريقته، والظاهر مشوبٌ بالرَّيب، والباطنُ محشوٌّ بالغيِّب، والنومُ متيقظٌ بالأحلام الهائلة، والانتباهُ منقطعٌ بالأحوال المتحايلة، والنفْسُ مُطاعةٌ عند الحظوظ، والهوى معبودٌ مع طوابع الحاجات، والجفاءُ مألوفٌ بقسوة القلب، والبرُّ مهجورٌ بسوء العادة، والغفلةُ راکدةٌ لإسبالِ السَّتر، والوزرُ مُحْتَقَبٌ بإدراكِ الشقاء، والعلمُ جُحودٌ لاشتغالِ البلاء، والناصيةُ مشومةٌ بجناية القرناء.

فادنُّ قليلاً حتى نُنوحَ على ما فاتنا منّا، ونَبْكِي على ما فَقَدْنَا بسوءِ نَظَرِنَا لأنفسنا، ونلطمَ خدودنا بأيدينا، أسفاً على فَقْدِنَا لحظَّنَا [٧٠ب] في عاجلتنا بعاقبتنا. فإنّا متى عَقَدْنَا هذا الماتم، وَخَتَمْنَا أَمْرَنَا بهذا الخاتم، رَجَوْنَا أنْ نَشْفِي غليلاً قد تَلَهَّبَتْ نارُهُ، ونُطْلِقَ أسيراً طالَ إيساره، واشتدَّ حصاره، ورجونا أيضاً أن يرحمنا من أصابنا هذا كله به، وبقدرته ومشيئته، وبِحُكْمِهِ وإرادته، ورجونا أيضاً أن ينظرَ إلينا ناظر، ويعتبرَ بنا مُعْتَبِر، ويتتَعَشَّ بنا عاثر، فنكونَ سبباً لخير، وباباً إلى معروف، وطريقاً إلى فضيلة.

يا هذا! أما تراني مديراً لك على دائرة بعد دائرة، ومطلعاً لك على روضة بعد روضة،
[و] فاتحاً لك غلقاً بعد غلق، ورافعاً لك سَجْفاً بعد سَجْف، ومُنْبِطاً^(١) لك عَيْناً بعد عَيْن،
وكاشفاً لك سِرّاً بعد سِرٍّ، ومرغباً لك في فَضْل بعد فَضْل، ومستخرجاً لك كنزاً بعد كنز،
ومُظْهِراً [لك] الشفقة بعد الشفقة، ومتكفلاً بك في حال بعد حال، وشافياً لك من مَرَضٍ
بعد مرض.

ولست أتولّى هذا- يا هذا- منك، لأنني آمَنُ منك، وأزَوِّجُ منك، أو أصحّ منك، لا؛
ولكنني أجسّرُ منك على النطق، وأسلكُ للطرق، وأكثرُ وزنًا منك للكذب والصدق، وأكثرُ
أيامًا في العمر، وأثبتُ قَدَمًا في العَمَر^(٢). على أنني لو سمعتُ ما أقوله من غيري لكانت
مطالبتي لنفسِي في الانقياد له كمطالبتي [٧١أ] إياك الآن في الانقياد. فالقائل والسامعُ
شريكان، والوجد والصدق طريقان، والاسترسال والاحتياط حالتان، والمنع والعطاء
اختياران، والرياء والإخلاص مطيّتان، والرضى والسخط معبران، والشوق والسلوة
غائتان، والعزُّ والذلُّ لبستان، والنزاهة والدنسُ حليتان، والصمتُ والنطقُ شعاران،
والرسم والحقيقة دثاران، والأولُ والآخرُ غائتان، والظاهرُ والباطنُ بحران، والغائبُ
والشاهدُ مكانان، والدنيا والآخرةُ داران، والفناء والبقاء رائدان، والنومُ واليقظةُ علامتان،
واليقينُ والشكُّ دعامتان، والعلمُ والعملُ صراطان.

فاعلم- حاطك الله- هذه الغرائب التي فَتَحْتُ عليك بابها، وفتلتُ لك أسبابها،
ومددتُ لبصيرتك أطنابها، وعَرَفْتُك شهادتها وغيابها، وإذا وقفتَ على هذه الغرائب،
كان بَحْثُكَ عنها هو الذي يهجمُ على فكِّ رقبَتِكَ من هذا الأسر، وعلى نيلِ مرادك بعد هذا
الجَبْرِ والكَسْرِ.

قد صَرَفْتُ القولَ في أطرافِ هذه الإشارات على الأغراض لأرباب القلوب، والرافعين
لأستار الغيوب، فإن وجدتَ من قَلْبِكَ طرباً عليها، ومن نفسك صَبَابَةً بها، ومن رُوحِكَ
غَوْصاً على أعماقها، فاستنفذ طاقَتَكَ في طَلَبِ [٧١ب] منيتك، فعن قريبٍ تصيرُ إلى

(١) في الأصل: ومنبطاً. ومنبطاً: اسم فاعل من (نبط). ونبط الماء: نبع - ظهر.

(٢) ليلٌ غَمَرٌ: شديد الظلمة. يعني أنه أكثر ثباتاً عند الفتن والاضطراب.

راحتك التي قد طال عليها ولَهْكَ، واشتدَّ نحوها نزاعك، وإلى ذاك فالتفت إليَّ شارحًا خبرك، وموضحًا أثرك، لأكونَ من شوقك على بيان، ومن سُلُوِي عنك في أمان، ومن علمي بتفصيل حالك وجملة على عيان أو كالعيان. واتق عِجاجةَ هواك، فإنها إذا ارتفعت سَفَتْ في عينك، وحَجَبَتْ عن حِينك، ونَخَسَتْك في جَنَبك.

اللهم! إِنَّا نَأْلُهُ فِي وَجْدِنَا بِكَ، وَنَجْدُ بِكَ فِي وَلَهِنَا إِلَيْكَ، وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْكَ مُخْلِصِينَ لَكَ، وَنَعْبُدُكَ قَانَتِينَ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَنَذْكُرُكَ مَتَلَذِّذِينَ بِذِكْرِكَ، وَنَغْفُلُ عَنْكَ بِغَلَبَةِ صِفَاتِنَا الْقَائِمَةِ بِكَ، وَنَدْعُو خَلْقَكَ إِلَى بَابِكَ؛ لِيَحْبُوكَ كَمَا أَحْبَبْنَاكَ، وَيَعْبُدُوكَ كَمَا عْبَدْنَاكَ، وَيُرِيدُوكَ كَمَا أَرَدْنَاكَ، وَيَقْصِدُوكَ كَمَا قَصَدْنَاكَ، فَاقْرَن حَبْنًا إِلَيْكَ بِحَبِّ كُلِّ مَنْ ادَّعَى مُحِبَّتَكَ، أَوْ دَعَا إِلَى مَحَبَّتِكَ.

يا حبيبَ القلوب، يا مَنْ يَطْلُعُ عَلَى الْغُيُوبِ، وَيَغْفِرُ الذُّنُوبَ، وَيَسْتُرُ الْعُيُوبَ: نَسْأَلُكَ أَنْ تَغْمِرَنَا بِنِعْمَتِكَ، كَمَا خَلَقْتَنَا بِقُدْرَتِكَ، وَأَنْ تُسَلِّمَنَا بِرَحْمَتِكَ، كَمَا مَلَكَتَنَا بِحُكْمَتِكَ. إلهنا! أَنْتَ الْحَقُّ، وَمَا سِوَاكَ [١٧٢] الْبَاطِلُ، وَأَنْتَ كَمَا قَالَ مَنْ أَنْطَقَتْهُ بِالْصَّدَقِ حِينَ قَالَ: «أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ»^(١).

إلهنا! كُنْ لَنَا نَاصِرًا، وَإِلَيْنَا نَاطِرًا، وَعَلَيْنَا مُنْعِمًا، وَبِنَا رُؤُوفًا، وَعَنَّا رَاضِيًا. أَنْتَ أَحْوَجُنَا فَاكْفُنَا، وَأَنْتَ أَمْرَضُنَا فَاشْفِنَا، وَأَنْتَ دَعَوْتَنَا فَأَوْفِنَا.

يا هذا! إِذَا دَعَوْتَ فَاحْضِرْ، وَإِذَا حَضَرْتَ فَانْتَبِهْ، وَإِذَا انْتَبَهْتَ فَاعْرِفْ مَا لَكَ وَمَا عَلَيْكَ، وَإِذَا عَرَفْتَ مَا لَكَ وَمَا عَلَيْكَ فَاقْبِضْ يَدَكَ عَمَّا لَكَ حَتَّى تُعْطَاهُ، وَغَمِّضْ عَيْنَكَ عَمَّا عَلَيْكَ حَتَّى تُكْفَاهُ، وَإِيَّاكَ وَأَنْ تَغْتَرَّ بِقُدْرَتِكَ فَإِنَّهَا مُعَارَةٌ عِنْدَكَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَعْجَبَ^(٢) بِحُكْمَتِكَ فَإِنَّهَا حُجَّةٌ عَلَيْكَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى شَيْءٍ مِنْكَ فَتَنْظُرَ أَنَّهُ لَكَ فَتَغْصَبَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَخْتَالَ

(١) في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قول رسول الله ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر،

كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل» (حديث صحيح) وهذا صدر بيت للبيد بن ربيعة وعجزه:

* وكل نعيم لا محالة زائل *

(٢) ل: تعجبك.

بصورتك فُتْسَلَبَ، وإياك أن تذكر اسمك فتؤخر، وإياك أن تنتسب إلى غير من أنت له فُتُنْفَى. تحَقَّقْ بمحق صفاتك، وتبرأ^(١) من جميع سماتك، واغترِبْ في وَطَنِكَ، واستوطنْ في غُرْبَتِكَ، وآوِ إلى كَهْفِكَ، واعمَ عن مدِّ طرفك إلى سقْفِكَ، وسافرْ عن كلِّ خُلُقٍ وَخُلُقٍ، تعلمْ كلَّ خُلُقٍ في حقٍّ، وإذا عطشت فلا تردِّ، وإذا وردت فلا ترو، وإذا رويت فلا تزددْ، وإذا ازددت فلا تعددْ، وإذا عدت فلا تدقْ، فإنك بهذه الدرجات [٧٢ب] المختلفة، تنال تلك الفسيحات المؤتلفة، والسلام.

(١٩)

الخيـش المـرشـوش والطـيب المـفـشـوش^(٢) من الإشارات الإلهية

يا هذا! اشهدْ نعمةَ الله عليك، في هذه العجائب التي فتح أبوابها إليك، ونثر جواهرها عليك، حتى نطقَتْ بتوحيده، وتصرَّفتْ بتمجيده، وعرفتْ حقيقتك بقدرته، واعترفتْ بمشيئته النافذة في مملكته، وأذعنتْ بطاعته، وتمرَّغتْ في ساحة كرامته، مسلماً لأمره، مستسلماً بذكره، مهتدياً بعلامته، متصفِّحاً بمجاري غيِّه في شاهده، آخذاً بحظك الأوفى من برِّه، ناهلاً من شربك الأصفى من سرِّه. فإنك إن شهدت هذا البناء على هذا الترتيب، ثَبَّتَ^(٣) عما أنتَ به خُلُقٍ، ورقيتَ إلى ما ليس به رَنَقٌ^(٤). وإياك أن تلحظَ هذه الكرامات الواردة من تلك الحضرة بعين التحقير، فتعمى حينئذ عمى لا يقدح عينك بعده قادح، ولا يفتح بابه عليك فاتح. فهذه الأنفاس الروحانية لا تهبُّ في كلِّ أرض، ولا تلبسُ كلَّ هواء، ولا تمرُّ بكلِّ ربيع، ولا تنتسِمُ على كلِّ فؤاد، ولا تنخرقُ بكلِّ واد، ولا تنقدحُ بكلِّ زناد.

(٢) المفشوش: المنشور. وفي د: المنشوش بمعنى المخلوط.

(١) ل: وتبر.

(٤) رنق: كدر.

(٣) د: نثت.

أتدري ما مصحوبُها إليك، وما ميسورها عليك؟ إنما هي حوامل آلاء ونعماء، وبرٍّ ووفاء، وودٍّ وصفاء، ولطائف تلطف عن الإبداء [٧٣أ] والإخفاء، وأنباء تجلُّ عن الأنباء والإنباء، وفيما بينهما تحفُّ الربوبية، وطرفُ الخصوصية، ومحوُّ العبودية، باستيلاء الألوهية. فهل لك من هذا الشأن إيجاس؟ أو هل لك من هذه النارِ اقتباس؟ أو هل لك بهذا النمط استئناس؟ أو هل لك في هذه القصة ذنبٌ أو راس؟

عزيزٌ عليَّ أن تُفاكَهَ بهذه الخطرات، التي تضلُّ معها معالم الخلق أجمعين، وتضمحلُّ معها مقاول الأولين والآخرين، وتصيرُ بحارهم عندها أوشالاً، وحلُّهم بالقياس إليها أسمالاً، وحتى لا ترى أحداً يسمع حرفاً منها إلا أظهر عجزاً واعتلالاً، وتضاءل تخشعاً واختلالاً، وقال سرّاً وجهراً: «لا. لا». عزيزٌ والله عليَّ ذلك فيك، وشديدٌ والله لديَّ ذلك لك. فإن لم يكن الخبرُ منك على تقدير مني، فهاتِ علامةً من حالك، تدلُّ على كمالك، أو تعرّضك لكمالك، وأشرْ لنا بأصبعك إلى شمسِ الحكمة الطالعة عليك، واسقنا من عينِ المعرفة المتفجرة فيك، وأوصلْ إلينا طيبَ ما عبقَّت به من ذلك المراد، الذي ما حلّه أحدٌ إلا شبع من غير طعم، وروي من غير ماء، وحلِّيَ بغير كُسوة، ورقِّيَ بغير سُلم، وغنيَ بغير مال، وسمِعَ بغير لحن، ونعمَ بغير حال، ونالَ بغير تعب [٧٣ب] ووجد من غير طلب، ونطقَ بغير حرف، وجاد بغير منٍّ، وسكن في غير كنٍّ، واستيقنَ بغير ظنٍّ، وامتحى عنه كيف وأين، وسوف وليت وأن وإن.

وعزيزٌ عليَّ أيضاً أن أواجهك وأنت من ورائي، وأن أدنوَ منك وأنت في التنائي، وأن أخاطبك وأنت نائم، وأروم انتباهك وأنت ميت، أو أطمع في ائتلافك وأنت مختلف، أو أعتقد أنك حيٌّ وأنت هالك، فإن أنفتَ من قلبي هذا وتحرَّكتَ في جلدتك، فهاتِ على ذلك بينتكَ: أين الحكمة المنتشرة على لسانك؟ أين العفةُ الغالبةُ على جوارحك؟ أين السريرةُ النقيةُ في خلواتك؟ أين الشفقةُ المبذولةُ بين إخوانك؟ أين التشمُّرُ الدالُّ على أهبتك؟ أين الأملُ المنزوي عن عاجلتك؟ أين الرغبةُ الصادقةُ في آجلتك؟ أين كتمانُ السرِّ المنقولِ إلى صدرك؟ أين الخدمةُ التي نُدبتَ لها في صباحك ومساءلك؟ أين اللسانُ

الصموتُ عما لا يرضاه الله لك؟ أين الكفُّ المبسوطةُ إلى الله منك بصدقِ الطَّلَبِ؟ أين الإعراضُ عن الدنيا بتحمُّلِ التَّعَبِ والنَّصَبِ؟ أين الهرولةُ إلى الله بركوبِ العَطَبِ؟

يا هذا! دَعْ هذا، أين إثَارُ الصِّدْقِ في المعاملة؟ أين البراءةُ من النِّفَاقِ في الهجر [٧٤أ] والمواصلة؟ أين معونةُ أخ في الله؟ أين الحياءُ من الله؟ أين مؤاساةُ ذي فاقةٍ لله؟ أين الثقةُ بوعْدِ الله؟ أين القلقُ من وعيدِ الله؟ أين الرِّقَّةُ على عبادِ الله؟ أين التعلُّقُ بما يقربُ إلى الله؟ أين التباعُدُ عما يُبعدُ عن الله؟ أين لُطْفُ القول؟ أين تصفيةُ العمل؟ أين غَضُّ الطَّرْفِ عن المحظور؟ أين قَبْضُ الكَفِّ عن الحرامِ المشهور؟ أين العنايةُ بجارٍ مضرور؟ أين الاهتمامُ بجائعٍ مَقْرور؟ أين؟ لا أين. لا قول ولا عَمَل، ولا جديد ولا سَمَل، ولا حياة ولا عَدَل، ولا قطرةً ولا بَلَل، ولا مَعِين ولا وَشَل، ولا علَّ ولا نَهَل، ولا آخر ولا أوَّل. هذا والله الشِّقاءُ المصوبُ على هامَتِكَ، والبلاءُ المعصوبُ بشامتِكَ، واليأسُ الحاضرُ من سلامَتِكَ، والقنوطُ العاجِلُ من كرامَتِكَ.

يا هذا! دَع خَداعَ نَفْسِكَ، ولا تُتَبِّرْ سَعْدَكَ بنحسِكَ، وابحثْ عنكَ منك، اطلب [منكَ] فيكَ، وميِّزْ عِلْمَكَ من عَمَلِكَ، واخلِصْ عَمَلَكَ من نِفاقِكَ، واشهدْ عَجْزَكَ في قدرَتِكَ، واعترفْ بضعْفِكَ في قُوَّتِكَ، ولا تكابرْ عيَانَكَ، ولا تنكرْ منك مكانَكَ، وهَيِّئْ برهانَكَ، فإنَّكَ مسؤولٌ ومُطالبٌ وغيرُ متروكٍ، فلا تسعَ في مكروهك بِقَدَمِكَ، ولا تطرفْ عينَكَ بيدَكَ، ولا [٧٤ب] تلطمْ خدَكَ بكفِّكَ.

أتكايِدُ نَفْسَكَ، وإنما أنتَ هي، وهي أنت؟ أتنظُن أنَّ نهارَكَ ليل، والشمسُ في وَسَطِ السماء؟ أتقدِّرُ أنكَ على هذا الريح في هذا الأخذ والإعطاء؟ أتشهدُ أنكَ رحمةٌ بين الأصدقاءِ، وشماتةٌ بين الأعداء؟ ما هذه الغَفْلَةُ المستوطنةُ فيكَ؟ وما هذا النومُ الغالبُ عليك؟ وما هذه الشقوةُ المحيطةُ بك؟ وما هذا الغلطُ الواقعُ في حسابِكَ؟ وما هذا الرِّينُ المتكاثفُ على قلبِكَ؟ وما هذا الجحود الذي أَلْفَتَه بكيادِكَ؟ وما هذه الصبوةُ الحائلةُ بينَكَ وبين رشدِكَ؟ وما هذا الشراب الذي أسكرَكَ؟ وما هذه الحيلة التي نفذت فيكَ؟ وما هذه المكيدةُ التي تَمَّتْ عليك؟

حدّثني: مَنْ خَاطَ عَيْنَكَ؟ مَنْ خَبَلَ عَقْلَكَ؟ مَنْ سَدَّ أذُنَكَ؟ مَنْ أَصْدَأَ فَهْمَكَ؟ مَنْ سَلَبَ رَأْيَكَ؟ مَنْ أَسْرَكَ هَذَا الْأَسْرَ؟ مَنْ سَبَاكَ هَذَا السَّبْيَ؟ مَنْ أَغْلَقَ رَهْنَكَ؟ مَنْ أَرَقَّ ذَهْنَكَ؟ مَنْ حَالَ بَيْنَكَ وَبَيْنَكَ؟ أَتَجْهَلُ فَتَقُولُ مَتَكُنَّا فِي مَجْلِسِكَ، بَيْنَ نَدْمَائِكَ وَأَحْبَابِكَ:

وَمَنْ عَرَفَ الْأَيَّامَ لَمْ يَغْتَرَّرْ بِهَا وَبَادَرَ بِاللَّذَاتِ قَبْلَ الْعَوَاقِبِ

وتظن أنك أنت السعيد والراح، لا والذي بطن الغيب [٧٥ أ] وأفرج عن الشهادة.

يا جاهل! أهكذا المبادرة باللذات، والمسارة في الخيرات، والأخذ بالاحتياط في أوطان الفتوات والمروآت، بين أهل المنافسات في الطاعات؟ وما لذة ساعة؟ وما لذة شراب؟ وما لذة شهوة؟ وما لذة خيش مرشوش؟ وما لذة طيب مفشوش؟ وما لذة شراب يصدع الرأس، ويحيز^(١) الأنفاس، ويفضح الناس بين الناس؟

أين أنت عن التلذذ بطاعة الرسول المرسل؟ أين أنت عن التلذذ بمناجاة الله العليّ الأجل؟ أين أنت عن الفكر فيما أنت منه، وفيما أنت إليه، وفيما أنت فيه، وفيما أنت عليه؟ أين أنت عن التلذذ بالسجود، المستدرّ للجود؟ أين أنت عن التلذذ بتوقع الخيرات التي هي بين يديك في الأيام الآتية؟ أين أنت عن التلذذ بالاعتبار إلى من عصيته فستر عليك، ثم اعتذرت إليه فغفر لك؟ أين أنت عن التلذذ بحقيقة ضمانه عنك وإقباله عليك؟ أين أنت عن التلذذ باختياره إياك وحفظه عليك ما آتاك؟ أين أنت عن التلذذ بكلامه الذي به نجاك، ووصفك الذي به خصك واجتباك؟ أين أنت عن التلمّظ بذكره، والتلذذ باسمه، والتذوّق لما يبدو من حضرته؟

ضلّ والله حلمك، وتخبّل والله [٧٥ ب] عقلك، وانكسرت قواريرك، وتخرّقت سراييلك، وخلّاك قائدك وأنت أعمى في قفر: لا ماء تشربه فيرد صدك، ولا سراب تبصره فيتعلّل قلبك بذاك، ولا أنيس تجد حسّه فيقلّ استيحاشك، فكم ترى على هذه الحالة لبّثك؟ وكم ترى على هذه القصة بقاؤك؟ ولو لم أخش عليك إلا الذنب، لكان الأمر سهلاً، ولكن وراء ذلك ما هو أدهى من الذنب وأهول.

(١) يحيز: حاز الدواب: ساقها سوقاً شديداً. يريد أن هذا الشراب يقطع الأنفاس.

يا هذا! انقل كَيْسَكَ الذي هو دُنْيَاكَ إلى دِينِكَ، والتمسْ به ما أَضَلَّكَ من نفسك، وبادِرْ بِطَلَبِ حَظِّكَ؛ والحادي قريب، والداعي حبيب، والمطاع عطوف، والمسؤول رؤوف.

اللهم! إِنَّا نَسْأَلُكَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْنَا نَظْرَةً تَجْبِرُنَا بِهَا فَقْدَ انْكَسَرْنَا، وَتُغْنِيَنَا بِهَا فَقْدَ افْتَقَرْنَا، وَتَهْدِيَنَا بِهَا فَقْدَ ضَلَلْنَا، وَتُثَبِّتَنَا بِهَا فَقْدَ زَلَلْنَا، وَتُرْشِدُنَا بِهَا فَقْدَ تَحَيَّرْنَا، وَتَعْدِلُنَا بِهَا فَقْدَ سَدَرْنَا، اسْتَحْوِذْ عَلَيْنَا الشَّيْطَانُ فَبُونَا بِغَضَبِكَ، وَزَاغَتْ قُلُوبُنَا عَنْ سَبِيلِكَ، فَمَلَكَتْنَا الشَّقْوَةُ بِمُخَالَفَتِكَ، فَسَأَلُكَ بِإِلَاهِيَّتِكَ الَّتِي لَا تَلِيْقُ إِلَّا بِكَ، وَبِرَّكَ الْمَكْنُونِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ سِوَاكَ، إِلَّا حَوْلَتْنَا مِنْ أَوْطَانِ سَخَطِكَ إِلَى رِبَاعِ مَرْضَاتِكَ، وَلَقَّيْنَا مِنْ رَوْحِكَ وَرِيحَانِكَ، وَتَحِيَّتِكَ وَرِضْوَانِكَ مَا [١٧٦] يُسَلِّينَا عَنْ هَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي ابْتَلَيْتَنَا بِأَلْفِهَا، وَطَالَبَتْنَا بِتَرْكِهَا، حَتَّى نَنْعَمَ بِمَنَاجَاتِكَ، وَنَسْتَرِيحَ مِنْ كَرْبِ ذِكْرِ غَيْرِكَ، وَنَتَبَاهَى بِحِظْوَانِكَ مِنْكَ، وَنَتَنَافَسَ عَلَى مَنَازِلِنَا عِنْدَكَ. وَإِذَا أَهْلَتْنَا لَذَلِكَ، فَبَاشِرْ قُلُوبَنَا مَبَشِّرًا بِهِ، وَقَدِّمْ عَلَى ذَلِكَ رَائِدًا يَصَدِّقُنَا عَنْكَ بِتَحْقِيقِهِ، حَتَّى نَتَعَجَّلَ السَّرُورَ بِكَرَمِكَ، وَنَصِلَ ذَلِكَ بِالشُّكْرِ عَلَى إِحْسَانِكَ إِلَيْنَا، يَا أَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ، وَأَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

يا هذا! إِنْ عَطَفْتُ عَلَى مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِي، لَمْ أَفْرُغْ لَكَ، وَلَوْ نَصَحْتُ نَفْسِي لَمْ أَهْتَمَّ بِكَ. لَكِنِّي مَلْبُوسٌ عَلَيَّ فِيمَا أَنَا بِهِ، مَأْخُوذٌ عَنِّي مِمَّا أَنَا عَلَيْهِ، لَأَفَاتٍ لَا أَحْصِيهَا وَلَا أَقْفَ عَلَى تَنَاهِيهَا، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا الْمُنْشَأُ الْفَاسِدُ الَّذِي قَدْ عَمِلَ فِي أَصُولِ الْأَخْلَاقِ، ثُمَّ الْقُرْنَاءُ الَّذِينَ لَمْ يَجُودُوا عَلَيَّ بِالنَّصِيحَةِ عِنْدَ الْاجْتِمَاعِ وَالْإِفْتِرَاقِ، وَحَمَلُونِي عَلَى سَجَايَاهُمْ فِي الرِّيَاءِ وَالنِّفَاقِ، ثُمَّ الْعَادَاتِ الَّتِي قَوِيْتُ عَلَى مَرُورِ الْأَيَّامِ بِضُرُوبِ الْخُبَائِثِ، حَتَّى جَرَتْ مَجْرَى مَا يُولَدُ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ مِنْ ضُرُوبِ الْأَعْرَاقِ، ثُمَّ فُسَادِ الْوَقْتِ لِلْعَامِّ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّى لَا تَرَى دَمْعَةً تَقْطُرُ عَلَى فَرْطَةٍ، وَلَا تَجِدُ نَدَامَةً تَظْهَرُ مِنْ وَاقِعِ وَرْطَةٍ، وَالْفُسَادُ الْعَامُّ يُنْتِجُ الْفُسَادَ الْخَاصَّ، وَالْفُسَادُ الْخَاصُّ يَأْتِي عَلَى الْأَصْلِ وَالْفَصْلِ [٧٦ ب] وَالرُّوحَ وَالنَّفْسَ، وَيَكْدِّرُ الْحَيَاةَ، وَيُثَوِّدُ ^(١) الْقَتَامَ ^(٢) فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ. وَالْخَيْرُ إِذَا نُسِيَ، وَالْحَقُّ إِذَا أُنْسِيَ

(١) هكذا بالأصل، ويمكن أ، تُقرأ «يسود».

(٢) القتام: الظلام.

ذهبا جملة وجملاً مفصلاً، وصار الراكب طمة^(١) [.....]^(٢) مسخوراً منه مضحوكاً عليه. والحمدُ والشكرُ والثناء الحسنُ لمن المرءُ إليه، والعرضُ بين يديه. فلا ملجأ ولا منجأ منه إلا به، لا إله غيره، ولا معبود سواه. وصلى الله على سيدنا محمد، شفيع الأمة وكاشف الغمة والمبعوث للخلق رحمة، ورضي الله تعالى عن الخلق أجمعين.

(انتهى)



(١) الطمة: الضلال والحيرة.

(٢) كلمتان لم أهد إليهما.

المراجع

- أبو حيان التوحيدى - أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء - زكريا إبراهيم - الدار المصرية للتأليف والترجمة - مصر.
- أبو حيان التوحيدى - طه حسين - مقال بأخبار اليوم، ٢٨ / ١١ / ١٩٦٤.
- الإشارات الإلهية - تحقيق الدكتور وداد القاضي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٢.
- الإشارات الإلهية لأبي حيان التوحيدى - تحقيق عبد الرحمن بدوي، القاهرة، ١٩٥٠.
- الإشارات الإلهية لأبي حيان - دراسة لغوية - أميرة محمد غيث - رسالة ماجستير غير منشورة.
- الأمالي للقالى، ج٢، مطبعة السعادة - الطبعة الثالثة - مصر، ١٩٥٣.
- الإمتاع والمؤانسة - تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين. الهيئة العامة لقصور الثقافة - مصر.
- البيان والتبيين - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - تحقيق عبد السلام محمد هارون - مكتبة الخانجي - القاهرة.
- السلسلة الصحيحة - محمد بن ناصر الألباني - مكتبة المعارف - الرياض، ٢٠٠٨م.
- الطرائف الأدبية - القسم الثانى: ديوان إبراهيم الصولي - تحقيق عبد العزيز الميمنى. القاهرة، ١٩٣٧.

- العقد الفريد لابن عبد ربه (ج-٢) تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري - مطبعة لجنة التأليف والترجمة - القاهرة، ١٩٥٦ م.
- المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية بالقاهرة - الطبعة الثالثة.
- النشر الفني في القرن الرابع - زكي مبارك - مصر.
- ديوان ابن الرومي - شرح الأستاذ أحمد حسن بسج - دار الكتب العلمية - بيروت.
- ديوان أبي العتاهية - دار بيروت، ١٩٨٦ م.
- ديوان أبي نواس برواية الصولي - تحقيق د. بهجت عبد الغفور الحديثي - هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث - ٢٠١٠ م.
- ديوان البحري - دار المعارف - مصر.
- ديوان العباس بن الأحنف - تحقيق عائكة الخزرجي - مطبعة دار الكتب المصري - القاهرة، ١٩٥٤ م.
- ديوان المتنبي - دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت.
- ديوان المعاني - أبو هلال العسكري - دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٩٤ م.
- ديوان النابغة الجعدي - تحقيق واضح الصمد - دار صادر - بيروت، ١٩٩٨ م.
- ديوان أوس بن حجر. تحقيق د. محمد يوسف نجم - دار صادر، بيروت، ١٩٦٠ م.
- ديوان بشار بن برد - شرح محمد الطاهر بن عاشور - علق عليه محمد رفعت فتح الله، ومحمد شوقي أمين - القاهرة - ١٩٥٤ م.
- ديوان عمر بن أبي ربيعة - دار صادر، بيروت، ١٩٦١ م.
- ديوان لبید بن ربيعة العامري - تحقيق إحسان عباس - الكويت، ١٩٦٢ م.
- سنن أبي داود - تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون - دار الرسالة العالمية - ٢٠٠٩ م.
- سنن الترمذي (١ - ٣) تحقيق أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي - الطبعة الأولى - مطبعة البابي الحلبي - القاهرة، ١٩٣٧ م.

- سير أعلام النبلاء - الذهبي - مؤسسة الرسالة - مصر، ١٩٩٦ .
- شرح ديوان رؤبة بن العجاج. تحقيق د. ضاحي عبد الباقي محمد - مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- صحيح البخاري - محمد بن إسماعيل البخاري أبو عبد الله - دار ابن كثير - دمشق - بيروت.
- صحيح مسلم - مسلم بن الحجاج - تحقيق نظر بن محمد الفاريابي أبو قتيبة - دار طيبة - ٢٠٠٦ .
- طبقات فحول الشعراء - ابن سلام الجمحي - تحقيق محمود محمد شاكر .
- عبقرية النثر العربي (دراسة لغوية تحليلية في كتاب الإشارات الإلهية) - أيمن علي عبد اللطيف - العلم والإيمان للنشر والتوزيع - القاهرة، ٢٠٠٨ .
- لسان العرب - ابن منظور - دار صادر - بيروت، ٢٠١٠ .
- مجمع الأمثال للميداني (١ - ٢) القاهرة - ١٣٩٠ هـ.
- مختار الصحاح - محمد بن أبي بكر الرازي - مكتبة لبنان - ١٩٨٦ م.
- معجم اصطلاحات الصوفية - عبد الرازق الكاشاني - تحقيق عبد العال شاهين - دار المنار، مصر - ١٩٩٢ .
- معجم الأدباء - إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب. تأليف ياقوت الحموي الرومي - تحقيق الدكتور إحسان عباس (١ - ٧) دار الغرب الإسلامي - بيروت - ١٩٩٣ .
- معجم اللغة العربية المعاصرة - أحمد مختار عمر - عالم الكتب - القاهرة، ٢٠٠٨ .
- وفيات الأعيان - ابن خلكان - تحقيق الدكتور إحسان عباس - دار الثقافة، بيروت - ١٩٧١ .